د. حامد ربيع

استاذ كرسي النظرية السياسية ـ كلية الاقتصاد
جامعة القاهرة

الحرب النفسية

في الوطن العربي







المنصور ـ بغداد ـ العراق

تلكس: ٣٣٣٨ ـ ٢١ (واسط للدراسات) ٥٤١٣١٦٠ ص ب ٦٢٥٠ (المنصور)

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد (٩١) لسنة ١٩٨٩

التصميم: بيمان سعيد

طباعة الدار العربية

الحرب النفسية
في الوطن العربي

حامد ربيع

استاذ كرسي النظرية السياسية ـ كلية الاقتصاد
جامعة القاهرة



بسم الله الرحمن الرحيم

من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه،
فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما
بدلوا تبديلا...

قرآن كريم

تصدير

البعض لابد وان يتساءل: كيف الحديث عن الحرب النفسية في منطقة الشرق الاوسط؟ الا يعني هذا رفضا لمنطق الكاتب في بعدين: اولهما ماسبق واسماه بدوائر الصراع الذي خلقه الوجود العبري بالمنطقة وثانيهما ما يتحدث عنه اليوم الجميع باسم عهد السلام والامن بما يعنيه من تصفية لأزمة الشرق الاوسط؟ الا يعني تحديد دوائر للصراع ووصف الدائرة التي فرضت على دول المواجهة بانها نزاع حول حدود واثارة لمشكلة الشرعية القانونية وتفسير للنصوص والمواثيق الدولية، ان قضية الشرق الاوسط لاترتبط بمفهوم الحرب النفسية؟ وان ارتبطت فهي لاتعدو ان تكون علاقة محدودة من حيث الزمان والمكان والموضوع؟ وكيف نتحدث اليوم عن تعايش وسلام في المنطقة وقد اضحت فكرة التعايش وتحقيق السلام او الأمن احد السياسات الجديدة التي تسيطر على القارة العربية ومع ذلك تفتح ذلك الباب الذي ظل موصدا حتى اليوم باسم الحرب النفسية؟

تساؤلات غيرمشروعةتعكس عدم فهم للابعاد الحقيقية التي فرضها الوجود العبري في المنطقة وهي تساؤلات رغم ذلك متداولة في حاجة الى ايضاح.

فلنتناول المشاكل من منطلقاتها الحقيقية.

ـ ١ ـ

تسمية الصراع العربي الاسرائيلي بانه مشكلة الشرق الاوسط تميز الفقه الغربي وهي تسمية في الواقع تفرض الكثير من التناقضات او على الاقل تبعدنا عن المشكلة الحقيقية. ان كلمة الشرق الاوسط يقصد بها في الفقه المتداول تلك المنطقة التي تمتد من مصر حتى ايران شرقا وحتى تركيا شمالا. فهل اسرائيل والوجود العبري بالاوضاع الحالية يمثل ازمة بالنسبة لأيران؟ ام انه على العكس استطاع ان يكون احد الادوات المساندة للوجود الايراني ولأطماعه في منطقة الخليج العربي؟ ولماذا نذهب بعيدا؟ اليس التخطيط الامريكي اساسه خلق بؤر اربعة تستطيع تمزيق العالم العربي من خلال جذب اطرافه وبالتالي تجزئة الجسد مستندة هذه العملية الى مراكز اربعة محيطة بتلك الاطراف وهي ايران والحبشة واسرائيل وتركيا؟ واليست هذه التسمية تعني عزل شمال افريقيا ابتداء من ليبيا حتى المغرب وقد جرى الفقه المتداول على تسمية تلك المنطقة بالشرق الادنى؟

الواقع ان تسمية مشكلة الوجود العبري بانها مشكلة الشرق الاوسط يعني خلط بين مستويات ودوائر الصراع القصد منه خلق نوع من التمويه على الضمير العربي وربطه بمستوى معين يختلف عن المستوى الحقيقي الذي يمثل محور الازمة بالنسبة للامة العربية.

ان الازمة التي خلقها الوجود العبري تطرح الكثير من التساؤلات. كأي ازمة اخرى ايضا هذه الازمة ترتبط بموقف معين تحدد مكانا وزمانا وموضوعا. وكأي موقف فان الاطراف المتعاملة لابد وان تكون متعددة. هذا التعدد في الاطراف يفرض تنوع الدوائر وبالتالي تعدد في المستويات. عملية التمييز بين الدوائر والمستويات المرتبطة بالازمة هي عملية تدور حول فن ادارة الصراع بمعنى ان اثارتها القصد منه تحديد المتغيرات وبالتالي البحث عن القوى التي يمكن تكتيلها بخصوص معالجة الازمة. ان كل ازمة لاتعدو ان تكون القاء حجر ضخم في بركة آسنة مع مايعنيه ذلك ليس فقط من اثارة الاضطرابات وانما ايضا من خلق موجات عديدة من الصراعات تختلف كل منها عن الاخرى اتساعا وعمقا. كذلك الوجود العبري خلق العديد من تلك الدوائر. فهناك دائرة الشرق الاوسط بمعنى دول المواجهة التي تشترك مع اسرائيل في حدودها الاقليمية ثم دول شرق البحر المتوسط اي الدول التي تقع في النصف الشرقي لذلك البحر بما في ذلك الدول الاوربية ودون ان نستثني حتى دول البحر الاسود، ثم العالم العربي كدائرة اكثر اتساعا تضم وتحتوي جميع دول القارة العربية. ولو اطلقنا التصور فهناك دائرة العالم الاسلامي ثم دائرة العالم الافريقي. كل من هذه الدوائر تختلف عن الاخرى ولكنها تترابط وتتكتل حول الدائرة العربية. ان الدائرة العربية هي التي تمثل المحور الحقيقي للازمة التي خلقها الوجود العبري ويستتبع ذلك نتائج ثلاث لابد من معالجتها بالكثير من الحذر:

اولا- ان تحليل المتغيرات لاينبع الا من تحليل الازمة على المستوى العربي.
واذا كانت بعض تلك المتغيرات قد تمتد لتصل الى مستوى الشرق الاوسط او مستوى البحر الابيض الشرقي فان هناك متغيرات اخرى لاتتعدى المشكلة على المستوى العربي.

ثانيا- ان ادارة الصراع حتى لو قبلت مفهوم التمييز بين تلك المستويات فانها لاتستطيع ان تتصور ان ايا من المستويات الاخرى يعني حل الازمة على المستوى العربي. ادارة الصراع تفترض التدرج ولكنها لاتسمح بان دائرة تطغى على اخرى او تلغي الدائرة الاخرى.

ثالثا- كذلك فان هناك ادوات تربط جميع تلك المستويات. احد تلك الادوات هو عملية التعامل النفسي. بطبيعة الحال كل من هذه المستويات يفرض على التعامل النفسي مفهوم مختلف ودلالة مختلفة. فالتسميم السياسي لاموضع له على سبيل المثال بالنسبة لدائرة البحر المتوسط حيث الصراع لايعدو ان يكون عملية امن اقليمية وتثبيت لأوضاع التداول الاقتصادي المرتبطة بالمنطقة.

وهذا يفرض علينا ملاحظة جانبية: اليست تسمية مشكلة الصراع العربي الاسرائيلي بانها مشكلة الشرق الاوسط تمثل نموذجا صارخا للتسميم الفكري المرتبط بهذا الصراع؟ اليست وسيلة لأبعاد القوى العربية كحقيقة متكاملة متكتلة عن الارتباط بالمشكلة؟ وعندما توصف هذه المشكلة كذلك امام الراي العام المغربي، وعندما تسمى بهذه التسمية فكيف نفرض على من ينتمي الى تلك المنطقة ان يشعر بان هذه الازمة ترتبط بوجوده ومصيره؟ على ان هناك ناحية اخرى اكثر من ذلك خطورة وهي ان الازمة بهذا المعنى وهذا الوصف تجعل القيادة العربية التي تنتمي الى منطقة الشرق الاوسط تتصور ولو لاشعوريا ان تصفية الازمة على مستوى الشرق الاوسط اي كأزمة حدود وتنظيم للشرعية القانونية يغني عن مواجهة المشكلة في ابعادها الحقيقية.

وهنا تبرز الوظيفة الخطيرة التي يجب على مصر ان تتقبلها ان طواعية او كرها: لقد فرضتها عليها اوضاعها التاريخية والجغرافية. انها الدولة الوحيدة التي تمثل النقطة التي تتقابل فيها جميع الدوائر. او ان شئنا فكما ان

اسرائيل تمثل الركيزة التي منها تنطلق الدوائر الثلاث المعروفة: الصهيونية، الراسمالية والامبريالية العالمية، السياسة الخارجية الامريكية، فان القوة التي تنطلق منها الدوائر الثلاث الاخرى، دول المواجهة، منطقة البحر الابيض الشرقي، العالم العربي، هي فقط مصر، بل يجب ان نضيف الى ذلك دائرتين تمثل ايضا بالنسبة لها مصر الركيزة الثابتة: العالم الاسلامي والدائرة الافريقية.

حديث السلام لابد وان يفرض تساؤلات اخرى. كيف نثير مفهوم الحرب النفسية ونحن نواجه احتمال مرحلة لانتحدث فيها الا عن الوئام او على الاقل التعايش؟

ان هذا التساؤل في ذاته هو احد ابعاد عملية التسميم السياسي الضخمة التي تخضع لها المنطقة في هذه اللحظة. واذا كان القتال له استراتيجيته، فان السلام ايضا له استراتيجيته واحد اهداف هذه الدراسة ابراز عملية التجهيل والتشويه التي يخضع لها المنطق العربي في هذه اللحظة من خلال التسلل باسم التعايش تارة وباسم الحل العادل لمشكلة اللاجئين تارة اخرى. ان الصراعات المصيرية تعودت ان تكون بسيطة في مفهومها واضحة في ابعادها، صريحة في منطلقاتها. ومشكلة الشرق الاوسط وبغض النظر عن دائرة الصراع التي تفرضها تلك المشكلة حيثما ارتبطت بالوجود العبري لاتعني سوى امرين: اما الاستئصال او الفناء. ان الدولة العبرية بمفهومها الصهيوني وهي تعلن عن انها جزء من القارة العربية بشكل معين تفرض على تلك القارة ان تتجزأ عضويا. ولأول مرة في تاريخ الامة العربية نجد المشرق العربي قد انفصل انفصالا اقليميا عن المغرب العربي. وهي تعلن بلسان قادتها انها تستطيع ان تحتل جميع اجزاء القارة العربية شرق قناة السويس خلال اسبوع واحد. ولسنا في حاجة الى بعد في الخيال لو تساءلنا: مالذي يمنع اسرائيل وقد احتلت الضفة الغربية ان تندفع نحو الكويت، منطقة غير اهلة بالسكان لتحدث تفتيتا اخر في العالم العربي؟ والم تكن اسرائيل هي التي لأول مرة في تاريخ وادي النيل

ومنذ ستة الاف عام التي دفعت لعملية التشكيك في تكامل مصر القومي؟ واليس الحديث عن الدولة القبطية هو الذي راح يتردد من اذاعات تل ابيب؟

واليس كل هذا تعبير عن حقيقة الصراع النفسي والتسميم السياسي الذي تخضع له المنطقة والذي يجب ان نواجهه بالكثير من الشجاعة والحذر؟

ان عملية التسميم السياسي التي تخضع لها المنطقة لها ابعادها المتعددة ونماذجها المتباينة. بعضها يزرع في المنطقة بايد اجنبية، والاخر يضخم من خلال التعايش مع الاوضاع التي تفرضها لحظات الضعف والتحلل، ولكن هناك ايضا ما تخلقه ارادتنا الذاتية وتقاليدنا المحلية كنتيجة لسطحية وعدم تخصص اولئك الذين قدر لهم ان يقودوا هذه الامة في لحظات اخطر مراحل وجودها التاريخي.

عندما تحدثنا في غير هذا الموضع عن عملية زرع القيم الاقتصادية وما يرتبط بالتنمية واعادة تشكيل القيم الذي يسيطر على المجتمع العربي في هذه اللحظة وزرع مايسمى بقيم الرفاهية والرخاء او مانسمية بمجتمع البرجوازية الاستهلاكي المعبر عن اكثر صور الانانية السياسية تفحلا واستحواذا، لم نكن نعني سوى ذلك النموذج الثاني من نماذج التسميم السياسي. هذا النموذج يرتبط بفكرة اعادة تشكيل الطابع القومي. اسلوب من اساليب السياسة الخارجية الامريكية استخدمته بنجاح في اعقاب الحرب العالمية الثانية في اليابان وفي المانيا الغربية وفي تركيا واستخدمته من قبل فرنسا في شمال افريقيا، ورغم ذلك فان الحكم عليه بانه محور فاشل للحركة السياسية اضحى حقيقة قابلة للتاصيل. هل تستطيع السياسة

الخارجية في الامد البعيد ان تضمن ترويض شعب كامل من خلال اعادة تشكيل طابعه القومي، ام انها دائما في الامد الطويل تنتهي بان تزيد من تعميق ملامح وخصائص الطابع القومي مع اضافة عملية ترسيب للعداوة ومبالغة في رفض القيم الجديدة المستوردة والمروضة؟ تساؤل لا يمنع من التسليم بمخاطر تلك السياسة على شعوب كالشعوب العربية لم تتعود ان تعبر عن تكاملها السلوكي وتماسكها الحركي وثباتها العقيدي بل عبرت عن كل مايعني نفي لكل هذه الخصائص. تساؤلات عديدة تقودنا اليها ايقاظ ظواهر مختلفة تطرح نفسها متلصصة اونة، متسترة اونة اخرى ولكنها تفرض علينا ان نواجهها بالحذر بل وان نبالغ في تقييمها والامة العربية تجتاز اخطر مراحل تاريخها: فالصهيونية التي تتربع خلف الاداة الحاكمة الاسرائيلية تسعى الى خلق الحضارة المتكاملة وتجعل من منطلق اعادة تشكيل الطابع القومي اليهودي اساسا من اسس سياستها القومية. وهذا يقدم لها تلك الخبرة الواضحة التي تجعل من قيادتها السياسية قيادة واعية واكثر تمرسا بعملية اعادة تشكيل الطابع القومي وهي هنا تسير في خطين متوازيين احدهما يتجه الى الداخل والثاني عبر الاقليات العربية يتجه الى الخارج في عملية استيعاب وتفتيت للمنطقة. انها تدعو العربي المقيم في الارض الاسرائيلية لان يزداد اعجابا بالنموذج الجديد المنتمي الى الدولة العبرية ولنتذكر الخطبة المشهورة التي تحدث من خلالها باسم الطائفة الدرزية الشيخ امين طريف فقال وهو يرحب برئيس الدولة العبرية والامة العربية تعيش لحظات الذل والهوان في اعقاب حرب الايام الستة «ان هذا اللقاء يتم في ظل ثلاث مناسبات مباركة، وهي الانتصار الباهر لجيش الدفاع الاسرائيلي في حرب الايام الستة، والاعياد اليهودية، وقرار الحكومة اعطاء الطائفة الدرزية في الدولة الاسرائيلية الامكانيات الكاملة للاندماج الحقيقي في المجتمع الاسرائيلي اسوة باندماج ابناء الطائفة مع اخوانهم اليهود في تادية واجبهم» هل هناك نموذجا اكثر وضوحا من مثل هذه الكلمات للتعبير عن عملية التسميم السياسي من خلال منطلقاتنا القومية والذاتية؟

- ٢ -

الواقع ان هذا المنطلق، اي زرع القيم الجديدة يرتبط بدوره بتقوية او اعطاء مسارات مختلفة لقيم اخرى ثابتة وتقليدية في مجتمعنا فاذا بها تتضافر مع السياسة الصهيونية ومع عمليات التسميم الاجنبية لتفتيت التكامل القومي في المنطقة.

الخطاب الذي سبق وذكرناه يعكس دلالة واضحة لهذه الحقيقة: النعرات القومية وتشجيع الاقليات على التماسك الحركي المستقل عن التكامل القومي للمنطقة. وهنا يجب ان نتناول هذه الناحية بالكثير من العناية لانها اكثر بعدا مما يتصور لأول وهلة. ان التقاليد العربية الاسلامية الاصيلة قامت على اساس تشجيع غير المسلم على الاحتفاظ بذاتيته حتى عندما يقبل على اعتناق الدين الاسلامي. بعبارة اخرى لم تقتصر تلك التقاليد على اعطاء الحرية الكاملة المتعلقة بالعقيدة والاديان السماوية بل وفصلت الاصل العربي عن الاقتناع الاسلامي. ثم زاد من ذلك ان نفس التصور الاسلامي خضع لتفسيرات متعددة بحيث انتهى بان جعل من الامة الاسلامية فرقا وشعوبا لاحصر لها. هذه الظاهرة هي التي تميزت بها الديانة الاسلامية بمعنى حماية الحرية الدينية، وحماية الذاتية العضوية للاقليات الاجتماعية والسياسية؛ حماية الحرية في التصور لتفسير العلاقة السياسية من المنطلق الديني الاسلامي هي التي سببت اختفاء الحضارة الاسلامية من شبه الجزيرة الاسبانية ومن جنوب ايطاليا، وهي التي ادت الى استقلال الحركة السياسية في كثير من انحاء العالم المعاصر. فلنتذكر على سبيل المثال ايران وموقفها من اسرائيل؟ وقبل ذلك تركيا تقدم نموذجا من نوع اخر؟

تقوية وتضخيم هذه القيم لابد وان يخدم السياسة الصهيونية في الامد البعيد. لنفهم مدى الخطورة التي تتضمنها عملية التسميم السياسي من هذا المنطلق علينا ان ننقل بصرنا الى حقيقة التطور الذي تعانيه الدولة العبرية في هذه اللحظة. ان اسرائيل بدأت دولة صهيونية لاتعدو ان تكون ارضا تتجمع فيها القوى اليهودية المنبوذة والمطرودة. انها دولة المنفى. اليوم هي تعيش مرحلة جديدة اساسها تطوير هذا التصور لخلق الدولة القومية المسيطرة اي تلك الارادة التي تعبر عن التكامل الذاتي والتي تسعى للتحكم في منطقة الشرق الاوسط ومعنى ذلك ثلاثة عناصر جديدة تتعانق في ارادتها القومية لتشكل منها منطلقها الحركي الذي سوف يتعين على العالم العربي ان يعايشه وان يعاني منه في الاعوام القادمة: ارادة الانتماء، ارادة الاتصال، ارادة السيطرة.

ارادة الانتماء وتعني سياسة واضحة بقصد ان تستوعب الدولة العبرية في منطقة الشرق الاوسط حقيقة جديدة لم يكن يعرفها او يتصورها هرتزل وزملائه، حتى ان الاقليم الذي كان يراد من خلاله خلق الدولة اليهودية لم يكن متفقا عليه.

ولكن اسرائيل في الربع الاخير من القرن العشرين لن تستطيع البقاء الا اذا استطاعت ان تعيد تشكيل اطارها النظامي وتطويره بما يعني انتمائها الى منطقة شرق البحر الابيض المتوسط العربي.

ارادة الاتصال تكمل ارادة الانتماء، وتصير احد قنواتها الثابتة في تحقيق عملية الانتماء. وهي ارادة ليست عشوائية. انها نتيجة لدراسة عميقة المدى من جانب القوى السياسية المتحكمة في الدولة العبرية للخبرة الصليبية وتاكيدا لرغبتها الواضحة والمفهومة في الا تعاني الدولة الاسرائيلية مما عانت منه الدول الكاثوليكية المعروفة في العصور الوسطى. ارادة الاتصال لن تقف عند حد خلق المجتمع المتكامل في المنطقة وانما لابد وان تتعدى ذلك الى استيعاب بعض العناصر العربية فضلا عن الحديث باسم الاقليات واطلاق مبدأ التعاون الحركي مع تلك الاقليات.

ارادة السيطرة اكثر وضوحا. انها ارادة الدولة الغازية في ان تتحكم وتتحدث باسم المنطقة. هي اكثر تعبيرا عن المفهوم الصهيوني سواء بمعنى التميز التاريخي او بمعنى الاختيار الالهي.

مفهوم الشعب المختار كتصور ديني لايمكن وقد ارتبط بالارادة الاقليمية ان يعبر عن نفسه الا من خلال ارادة السيطرة. ارادة السيطرة تفرض الغزو والتحكم. ولكن الظروف التاريخية والاوضاع الديموجرافية لم تسمح لتلك الارادة بان تحقق اهدافها من خلال القوى السادية او النصر العسكرى.

خبرة حرب الايام الستة خير دليل للاقتناع بهذه الحقيقة. وهكذا كان من الطبيعي ان تجعل منطلقها لتحقيق السيطرة منطلق سلمي اساسه تفتيت الجسد العربي لتستطيع اعادة تشكيله بما يتفق مع اهداف الغزو والسيطرة.

هذه المفاهيم المختلفة في تعانقها وتفاعلها لابد وان تصطدم بالمفهوم الصهيوني: ان التصور الصهيوني للمفهوم العبري يعني الدولة المتجانسة العنصرية المتماسكة حول اهداف واحدة ومفاهيم لاتتعدد ولاتتباين. تطور الارادة القومية الاسرائيلية بالمعنى السابق لابد وان يفرض مفهوما جديدا للدولة: تعدد في الشعوب، تباين في الاصل العنصري، اختلاف في التصورات والمفاهيم السياسية. كيف تستطيع ان تخلق التوازن بين التصور الصهيوني التقليدي، ومايفرضه التطور المعاصر لخصائص الارادة القومية الاسرائيلية تعبيرا عن وظيفتها الجديدة؟ تساؤ ل لانستطيع بعد ان نجيب عليه. ولكن احد المنطلقات الخطيرة التي يمكن ان تحقق ذلك التوازن الفكري هو ما اسميناه في غير هذا الموضع بمفهوم الدولة الاقليم، مفهوم جديد يعبر عن واقع المجتمع السياسي وحقيقة السلطة كما صاغتها خبرة العالم المعاصر في اعقاب الحرب العالمية الثانية. هو تعبير

عن ظاهرة الدولة الامبراطورية بلغة القرن العشرين: تجمع لشعوب ترتبط باقليم واحد، معبرة عن تكامل اقتصادي حيث هذا التكامل يصهر هذا التعدد والتباين للشعوب حول ارتباطات تاريخية نفرض تكتيل القوى وتعانق الارادات. الدولة الاقليم بهذا المعنى تجمع لشعوب وتكامل لمصالح اقتصادية لايمنع من تحقيقها لاالتباين الحضاري ولاالتعدد القومي انها تصبر بمثابة تعبير عن مفهوم دولة الاقليات حيث يصير الرابط الاقتصادي والمفهوم الفيدرالي متغيرين يسمحان بتحقيق الارادة القومية.

معنى ذلك ان لغة الاقليات والدفاع عن حقوق الاقليات وتأكيد نعرة الاقليات تصير خير منطلق لتحقيق مثل ذلك التصور الذي تسعى الى خلقه وبنائه الارادة الاسرائيلية ولو في الامد البعيد. ترى هل نفهم لماذا الأحاديث المتكررة التي يقدمها شيمون بيرز في مؤلفاته عن واجب الدولة الاسرائيلية في ان تجعل من منطق دولة الاقليات محورها الدعائي والاتصالي؟ ترى هل نفهم لماذا الحديث المتكرر عن الكومنولث العبري الذي يصير وقد احتضن دول عربية تمثل بدورها اقليات تنتمي الى المنطقة؟

على ان هناك نموذج ثالث لايقل خطورة يتحدد نتيجة لحقيقة التطور الداخلي الذي تعاني منه الامة العربية. عندما تحدثنا بطريق المصادفة منذ عدة اعوام عن ظاهرة التشدق بالقيم والاخلاقيات وذكرنا كيف ان احد مظاهر التعبير عن الاختلال والانهيار الحضاري ان نستمع الى «المتنفعين والاذناب» وقد خرجوا علينا يدعون التخصص ويتشدقون باسم الوضعية الفكرية ويتسترون خلف الدفاع عن القيم والمثاليات، ماكنا نتصور ان الايام سوف تقدم لنا نموذجا نعيشه وتعاني النفس الحزينة من تمزقاته بهذه السرعة. لقد عرفت الانسانية منذ وجودها ظاهرة المزايدة السياسية ولسنا في حاجة لأن نعود الى «ديموستين» في كفاحه او الى «كاتون العجوز» في خطاباته التاريخية امام مجلس الشيوخ الروماني لنتذكر هذه الحقيقة. ان المجتمع العربي لايزال حتى هذه اللحظة يعلم ان الجسد السياسي يعيش في واد والطبقات الحاكمة تعيش في واد آخر. ان هذه الامة لاتزال تبحث عن قائدها الحقيقي وقيادتها المؤمنة. وكنا دائما عندما نثير بيننا وبين انفسنا هذه الظاهرة نعود بفكرنا الى فلسفة فيشت وكيف ابرزت لنا الرومانسية الالمانية كيف ان هذه الظاهرة ظاهرة المزايدة السياسية واختفاء الارادة القيادية هي ظاهرة طبيعية تفرض وجودها على كل مجتمع سياسي يسعى للتكامل كمقدمة للانطلاق ولصنع الحضارة: انها تعبير عن الاختلال الوظيفي بين المواطن او رجل الشارع في نضجه والقائد في انانيته. ان القيادة ليست مجرد امر يصدر وانما هي وعي حقيقي ينبع من الارادة الجماعية فاذا به يتبلور في شخصيات تعلو الحاضر وتصير ارادة للقدر وهي تسعى من خلال ورغم التضحيات الثابتة لان تحقق الروح الخالدة في تقمصها لذلك الشعب في تلك اللحظة المحددة ساعية نحو اداء وظيفتها التاريخية. ولكن ذلك الذي لم تكن تنتظره وتتوقعه، ان تصير هذه الارض المقدسة، ارض الاديان السماوية مسرحا لظاهرة جديدة لم تعرفها الشعوب الا في لحظات التدهور والتحلل: التستر خلف القيم لتبرير الابتذال السياسي وجعل منطلق المزايدات هو كل ما يمثله المجتمع السياسي من تراث فكري وتقاليد حضارية.

-٣-

الواقع ان هذه الظاهرة التي كثيرا ما تختلط باسم المكيافيللية لتخلق مبرراتها رغم انها لاترتبط بها من حيث جوهرها لم تعرفها الشعوب في تاريخها الطويل الا في نموذجين كل منهما يختلف عن الاخر اختلافا واضحا ومتباينا، هيكليا ووظيفيا. المكيافيللية هي تبرير الالتجاء الى وسيلة غير مشروعة باسم الغاية المشروعة. نحن

هنا ازاء عملية تستر خلف القيم لتحقيق التبذل. المكيافيللية شجاعة وصراحة في مواجهة الموقف ولو من خلال المخاطرة. التبذل السياسي جبن يعكس انانية واختفاء لكل معاني الكرامة والشرف. النماذج التي عرفتها الحضارات الانسانية بهذا الخصوص تدور اساسا حول تطبيقين: الاول حالة الانهيار الحضاري الكلي الشامل. مراحل التدهور العامة التي تعبر في حقيقتها عن بدء التحلل عقب بدء الايناع المتكامل هي التي عرفت الخلط بين النبل ومعايير التبذل. ولنتذكر الحضارة الرومانية عقب فترة حكم نيرون، ولنذكر بهذا الخصوص النماذج التي يطرحها لنا التاريخ اللاتيني خلال اكثر من اربعة قرون ولنعد بالذاكرة الى سينيكا ومارك اوريليو. وموضع كلا منهما كواحة منعزلة في تلك الصحراء من الفساد والتحلل. النموذج الثاني عرفته الحضارات في اعقاب الثورات الحقيقية العنيفة كتلاحم بين الطبقة القيادية الجديدة والواقع السياسي في سعي هذه الأخيرة نحو بناء نظام متكامل للقيم يرفض التقاليد السابقة. ان الثورة تضع حداً لحالة التعفن. والتعفن لايقف عند حدود الفساد السياسي بل يتعدى ذلك الى الاختلال في القيم الوظيفية، ويقدر تعامل الثورة كاطار للحركة بقدر سعيها نحو بناء نظام جديد للقيم. ان عملية البناء للقيم هي نوع من المعاناة الشاقة التي لابد وان تجتاز مرحلة حاسمة من مراحل الغموض والتردد وعدم وضوح الابعاد الفكرية المرتبطة بتلك القيم. وهكذا تتفاعل وتتشابك الصور السلوكية المعبرة عن القيم بتلك الاخرى التي رغم انها تتعارض مع تلك القيم الا أنها قد تتشابه وتتجدد في تعبيراتها الحركية. وهكذا راينا من خلال الثورة الفرنسية كيف خرجت العاهرات مع الثائرات وبزعم السعي نحو تحطيم الاطار السابق للعلاقة بين المواطن والدولة اختلطت كلا الطائفتين في حقيقة واحدة باسم الرفض السياسي.

اين المجتمع العربي من كل ذلك؟ وماهي علاقة هذه الظواهر بظاهرة التسمم السياسي التي نعيشها في هذه اللحظة؟

- ٤ -

فلنسلم بان هذا المجتمع لم يعرف حتى اليوم ثورة حقيقية. انها لاتعدو في جميع تطبيقاتها سوى فقاعات للحركة لاتعبر عن اي انطلاقة ذاتية نحو بناء جسد جديد من التكامل الفكري للقيم السياسية. انقلابات متتابعة تتستر خلف المصالح الفردية والاهداف الطبقية وتتلاعب بالجماعات في كثير من الاحيان كاداة متقدمة للقوى الدخيلة في المنطقة والتي لاتريد ان ترى في هذه المنطقة سوى جسدا مترهلا تسعى لأن تعيده الى حاله الذي عرفه في الجاهلية الاولى. كيف اذن نفسر هذه الظاهرة، ظاهرة تبرير الابتذال باسم القيم السياسية؟ انها صورة اخرى من صور التسميم السياسي التي يعيشها هذا المجتمع والتي تعبر عن ارادة واعية اجنبية تعمل على منعه من تحقيق تكامله القومي: وهنا تاتي السياسة الاسرائيلية متضافرة مع السياسة الامريكية لتدلي بدلوها في وضع اطار يسمح بالتغلغل في الوعي العربي لتحطيم ثقته في نفسه عندما يرى ان قيمته التقليدية اصبحت اطارا تارة لتبرير الابتذال، وتارة لتحطيم الاستمرارية التاريخية مع قيمه الثابتة كأساس للبناء والايناع الحضاري.

ان دول المواجهة في منطقة الشرق الاوسط تخضع اليوم لعملية مزدوجة: اعادة تشكيل للطابع القومي المحلي من جانب واعادة ترتيب لنظام القيم التقليدية والسائدة في المنطقة من جانب اخر. كلاهما تعبير عن سياسة غازية تسعى لتسميم المنطقة سواء كشعوب مناضلة سواء كأفراد ينتمون الى تراث حضاري ثابت من حيث عناصره ومقوماته واذا كانت دراسة هذه النواحي المختلفة الدراسية العلمية التي تسمح بتبصير المسؤولين بحقيقة المأساة وخلق الوعي الحقيقي بابعاد الهوة التي تنزلق اليها مجتمعات المنطقة سابقة لأوانها

فليس علينا سوى ان نخلق ولو مؤقتا الاقناع والاقتناع بحقيقة الغزو المعنوي والتسميم الفكري الذي تبدو ملامحه واضحة في الافق والذي سوف نخضع له ان عاجلا ام اجلا افرادا وجماعات.
فلنتقدم احد النماذج

ـ ٥ ـ

في اعقاب عملية الفصل بين القوات بدأت الابواق تدق بنغمة ثابتة متحدثة عن عملية اعادة تعمير منطقة القناة ومضت فترة لم تغمر الصحافة المصرية فيها سوى الاقتراحات والتصورات عن مدينة السويس الجديدة التي سوف تتسع لعشرة امثال سكانها السابقين على حرب الايام الستة واجتمعت السلطات وخصص مجلس الوزراء المصري يوما كاملا للمناقشة. فماذا سمعنا ؟ انشاء جامعة جديدة اضحى موضع التاكيد. بل راحت المناقشات تحتدم حول خط السكة الحديد هل يظل مخترقًا للمدينة ام يعاد التخطيط بحيث يمتد الخط خارج المدينة؟

فهل هكذا تواجه امور منطقة خضعت لثلاثة حروب خلال حوالي خمسة عشر عاما وتمثل خط الهجوم الاول وخط الدفاع الاخير في مجتمع اضحى ثابتا انه اليوم عرضة للتمزق من عدو يقف على حدوده الشرقية مخالفا لاول مرة في تاريخ هذه الامة وخلال ستة الاف عام المبادىء الاساسية لتقاليد امنه القومي؟ اليس هذا في ذاته نموذجا واضح الدلالة لما اصاب دول المواجهة من اعادة في تشكيل القيم السياسية في المنطقة بل ومن مسخ لتلك القيم السياسية بما يتفق واهداف السياسة الغازية؟

فلنحاول ان نحلل جوهر هذه الواقعة بشيء من الدقة العلميه ولنجعل تحليلنا ينطلق من مقومات وضعية لاتعرف العاطفة ،لاتقف ازاء الانطباعات. ما الذي تعنيه كلمة تخطيط ؟ وما الذي يقصد بتخطيط اقليمي لمنطقة كمنطقة القناة في اعقاب حرب كلية سمحت الظروف ان تفرض من خلالها على عدو مستعمر نوعا من الانسحاب الجزئي؟

التخطيط يعني في ابسط معانيه تطوير القائم نحو مثالية معينة. انه بعبارة اخرى تدخل ارادي لتغيير وضع معين ونقله الى نموذج اكثر مثالية واكثر تطويعا لذلك الوضع القائم. التخطيط بهذا المعنى عمل سياسي. منطلقاته ثلاث: وضع خطة، مشاركة شعبية في تنفيذ الخطة مناقشة للابعاد السياسية للخطة.

مامعنى وضع الخطة؟ عملية منطقية تجريدية اساسها تحديد للاهداف والامكانيات بمعنى الحصر الشامل للاهداف التي نسعى الى تحقيقها، والامكانيات المتوفرة والقائمة او التي من الممكن الحصول عليها. على ضوء هذه العملية تتم عملية اخرى تفترض نوعا من الاختيار اساسها ترتيب تصاعدي لتلك الاهداف من حيث الاهمية او الضرورة او المقدرة وبحيث نستطيع ان نميز بوضوح في الخطة بين ماهو حال وما هو ممكن تاجيله من جانب وبين مراحل التنفيذ من جانب اخر بعبارة اخرى على ضوء تحديد تلك الاهداف وترتيبها نستطيع ان نترجم الخطة الى مراحل متتابعة كل منها تعد للاخرى وكل منها تسمح للتالية بامكانية التنفيذ باقل تكلفة ممكنة. وهنا تبرز واضحة حقيقة لاموضع للتقليل من اهميتها: ان محور وضع الخطة ولو كانت ذات طابع اقتصادي حيث تسودها صفة الجزئية او مفهوم التداول في اضيق معانيه لابد وان يعكس نوعا من العلاقة بين القيم حيث تستتر خلفية سياسية معينة هي وحدها التي تتحكم في ترتيب التصاعد المتتابع للاهداف والتي تحتل بدورها الخلفية الحقيقية للخطة كأطار للحركة.

الناحية الثانية بدورها تمثل مستوى اخر لايقل اهمية يطرح جانبا مختلفا للبعد السياسي. ان تنفيذ خطة دون مشاركة شعبية لاموضع له بل ان مصيره هو الفشل قبل ان يبدأ حتى في عهد الفراعنة لولا العقيدة الثابتة التي تدور حول تقديس رحلة الخلود لما استطاع ملوك مصر بناء الاهرامات. المتغير الذي يربط هذه الناحية الثانية بالاولى يدور حول عملية خلق التجاوب بين القيم السياسية كحقيقة مجردة وابعادها السلوكية النابعة من جوهر التعامل الفردي.

على ان الناحية الثالثة هي اكثرها وضوحا. هنا يصير منطلق القيم السياسية واضحا وصريحا يتدفق في جميع العناصر بحيث يغلف الخطة باطار كامل من القيم السياسة بل وبحيث يجعل الخطة ذاتها ليست فقط عملا سياسيا بل جزءا من اجزاء الحركة السياسية الكلية الشاملة. لقد سبق ان راينا ان وضع خطة يعني تحديد الاهداف وترتيبا لتلك الاهداف. عملية الترتيب بالتاخير والتقديم تعكس نظاما للقيم كذلك سبق ان رينا ان المشاركة شرط للنجاح. والمشاركة بمعنى التجاوب ليست في حقيقتها سوى نوع من الايناع والتعميق لبعض المفاهيم التي تكون مضمون عملية الاتصال بين الحاكم والمكوم بالتجاوب والتجاذب حول قيم سياسية معينة. اختيار تلك القيم وجعلها بالذات محورا للاتصال هو في ذاته نوع من الترتيب لنظام القيم.
على ان البعد السياسي للخطة اكثر من ذلك: ان كل خطة تعني تغيرا في الوضع القائم وخلق وضع جديد من خلال التدخل الاداري لتغيير الصورة القائمة. وهذا يعني خلق متغير جديد في الوجود الاجتماعي والاقتصادي ومن ثم فلابد وان تكون له اثار سياسية. هذه الاثار قد تكون مقصودة وقد تكون غير مقصودة بل انها قد تكون غير متوقعة. الاعداد لها بالتصور والتدبر ثم بالمعالجة سواء باستغلالها او بالتحكم في تطورها من خلال وضع خطة جانبية تمثل احدى الوظائف الاساسية التي يتعين على الدولة ان تعهد بها الى خبير السلطة. ان احدى الظواهر الملفتة للنظر في المجتمعات الشمولية وهي التي استطاعت ان تضع تقاليد واضحة للتخطيط لاقتصادي والاجتماعي هو ان تجعل احد خبراء النظرية السياسية يترأس اي لقاء من هذا النوع.

فلنقف قليلا ازاء البعد السياسي لعملية التخطيط ولنحاول ان نعرض لتلك الناحية في علاقتها بما يسميه اعلام «نصر اكتوبر» عملية تعمير منطقة قناة السويس.

ماهي المتغيرات الاساسية المرتبطة بالتخطيط لعملية تعمير منطقة قناة السويس من الناحية السياسية؟

لانريد ان ندخل في تفاصيل ولكن لنقف ازاء الابعاد العامة التي تتحكم في خصائص منطقة القناة كأحد المنطلقات الحركية المرتبطة بالصراع العربي الاسرائيلي:
اولا، بحكم الوضع الحالي، وبصفة خاصة عقب الفصل بين قوات هذه المنطقة اضحت تمثل خط الهجوم الاوحد وخط الدفاع الاخير. انها تمثل الدرع الواقي لمنطقة الدلتا وهي في نفس الوقت تمثل الخط الذي لانستطيع ان نطلق من سواه اي هجوم عسكري على العدو. وحتى يقدر لنا ان نستعيد سيناء حقيقة فاننا لن نستطيع ان نفاجيء العدو وفي هجوم عضوي الا من هذه المنطقة ومن ثم تجمعت فيها خصائص الهجوم والدفاع في ان واحد.

ثانيا، هذه المنطقة بهذا المعنى يجب ان ننظر اليها على انها راس حربة متقدمة للامة المحاربة التي يجب ان نخلقها في وادي النيل. ان صراعنا مع القوة الصهيونية لن ينتهي غدا ولو بتوقيع اتفاقية سلام ويخطيء من يتصور غير ذلك. ان مصر هي الدولة الوحيدة التي تمثل القطب المشترك بين جميع دوائر الصراعات الذي

فرضه الوجود العبري في شرق البحر المتوسط وقد سبق وذكرنا مرارا ان ايا من هذه المستويات رغم ارتباطه بالاخرى الا انه يملك استقلاله الكامل من حيث الابعاد الحركية.

ثالثا، كذلك فان منطقة القناة تمثل منطقة قابلة لان تعزل عن باقي اجزاء الجسد المصري. لقد اثبتت الثغرة ذلك وهو امر اضحى على كل مخطط ان يدخله في اعتباره وبحيث يفرض على المنطقة لافقط القدرة على الثبات والصمود بل وبحيث يصبر كل رجل ينتمي الى تلك المنطقة مادة لبطولة وكل امراة رجلا مدججا بالسلاح.

رابعا، هي منطقة تمثل خط هجوم اوحد وخط دفاع اخير ولكنها يجب ايضا ان ترتبط ارتباطا عضويا بباقي اجزاء الجسد بحيث يجب ان يمتد ويتسع من خلفها العمران والكثافة السكانية. لماذا حدثت الثغرة؟ لأن الفراغ الذي يفصل المنطقة عن الدلتا سمح للجسد الغريب بان يتغلغل دون مقاومة.

لو عدنا الى النماذج التاريخية المماثلة لوجدنا اكثر من تطبيق واحد. ولماذا نذهب بعيدا؟ مامعنى ظاهرة الكيبوتز التي جعلت منها الحركة الصهيونية اعمدتها الحقيقية في الحركة السياسية خلال الفترة السابقة على انشاء الدولة العبرية والتي مكنتها من ان تواجه جيوشا عربية متعددة في عام ١٩٤٨ وان تهزمها شر هزيمة في وقت لم تكن فيه تلك الحركة سوى مجموعة من العصابات الارهابية ودون اي تنظيم عسكري حقيقي؟

ان منطقة القتال يجب ان يتم تخطيطها على هذا الضوء. يجب ان ينطلق تصورنا في تخطيط المنطقة بحيث نخلق في المنطقة ذلك المجتمع المحارب الذي تختفي فيه التفرقة بين الرجل العسكري والرجل العادي، وبحيث يصبر كل منزل قلعة حربية وكل سكنة عسكرية وحدة قادرة على ان تتحول الى واحة ذات اكتفاء ذاتي قادرة على الصمود والثبات.

- ٦ -

ان مانحن في حاجة اليه هو التصور البعيد المدى. وهذه هي فرصة علمائنا وقادتنا. على علمائنا الايعيشوا في تلك العزلة التي فرضها كل منا على نفسه، وعلى قادتنا ان يتعلموا كيف يجب ان يستمعوا الى العلماء وان يتذكروا ان الوطن واحد والامة واحدة والمصير واحد وان للعالم ايضا الحق في ان يقول كلمته وانه واجب على الحاكم ان يستمع ويعي قبل ان يتخذ قراره.

ولكن اين من كل ذلك مشكلة القيم السياسية؟

ان طرح موضوع معين او تفضيل مناقشة مشكلة معينة او تقديم تصور معين هو في ذاته انعكاس لعملية توزيع القيم واعادة تشكيلها بما يتفق مع الاهداف الخفية.

وكما ان الحرب النفسية سعي الى تحطيم الثقة في الذات من خلال الصراع المعنوي فكذالك عملية التسميم السياسي لاتعدو ان تكون تحقيقا لنفس الاهداف من خلال مسالك مختلفة ومتميزة. وقد تكون عملية التسميم السياسي اكثر بطئا واشد صعوبة ولكنها تنتهي بان تحقق نفس الاهداف: خلق التحلل الحضاري،

واذابة التكامل القومي والقضاء على جميع عناصر الصلابة والصمود بما يتضمن من تميز في الذاتية واستمرارية في الهوية وعمق في الارتباط التاريخي .

زرع لقيم جديدة، تشويه لقيم كامنة، استغلال لقيم مختلفة : هذه هي مسالك التسميم السياسي فلنحاول ان نعالج الظاهرة من منطلقاتها العملية : اين النجاح من الاخفاق في الحرب النفسية بمختلف ابعادها في منطقة الشرق الاوسط .

- ٧ -

ماهو الكفاح وكيف يتميز عندما يوصف بانه كفاح سياسي ؟ وماذا يعلمنا بهذا الخصوص تاريخنا القومي وتراثنا الاسلامي ؟

اليس هو رفع علم الرفض وقبول التحدي ولوكان يعني ذلك المخاطرة بالذات؟

واذا كان رجل الشارع يتردد ازاء هذا الالتزام التاريخي فمنذ متى كان الانسان الخلاق الذي يقود ويوجه الحضارات هو الذي يقبل ويستسلم ان لم يخضع ويستجدي؟ لقد عشنا ورأينا! الم تدعونا الاديان الى رفض الظلم والى ان نعد ما استطعنا من قوة ومن رباط الخيل وان نستخدم كل ما اوتينا وكل ماوهبته ايانا الطبيعة دفاعا عن المبادىء والقيم التي من خلاصتها ومجموعها تبلورت حقيقتنا الحضارية وتحددت وظيفتنا التاريخية؟

على ان الكفاح السياسي لايعني استخدام الاساليب غير الشريفة في الصراع. لم تلجأ الى احتقار القيم الا الحركات الضعيفة ولم يعرف التاريخ حضارات قوية خلاقة الا وجعلت احدى قواعد قتالها النبل في معاملة العدو والسمو في مواجهة الخصم المنهزم . اليست قصة تاريخنا الاسلامي جديرة بان تقرا وتقرأ؟ العنف هو حق للضعيف وليس امتياز للقوي، بل هو حق الفرد المنعزل الوحيد عندما لايجد سوى حياته يغامر بها وليس امتياز للمجتمع المتكامل وهو يصارع في عملية الفيضان الحضاري التي يسعى من خلالها الى تاكيد وجوده وعظمته .

ان حوادث اكتوبر اثبتت عدة حقائق . ورغم ان الاحداث اللاحقة قد شوهت من دلالة الانتفاضة التي عبرت عنها معركة رمضان الا ان المعنى الخفي الذي تضمنته مجموعة التطورات التي سبقت واعقبت الحرب الاسرائيلية العربية الرابعة معالمه واضحة ليست موضوع مناقشة او خلاف . فهي قد ابرزت اولا وبصورة جلية قاطعة ولأول مرة كيف ان قوة اسرائيل لم يكن مصدرها الحقيقي سوى ضعف اعدائها . منذ زرعت الدولة اليهودية في المنطقة وقد بدأت تتلاعب بمصير المنطقة العربية السياسة الانجلوسكونية لانجد سوى تهلهلا وضعفا في القيادة القومية بل ويكاد يستحيل ان نصادف قائدا واحدا ارتفع الى مستوى المسؤولية . وفي تلك اللحظات المحدودة والمواقف العابرة الاستثنائية التي عاصرت فيها تلك الامة ما يشبه النصر او تاكيدا للذات فقد ارتبط ذلك دائما بقيادة عرفت كيف تتحمل قسطا من المسؤولية . بل ان المصادر الحقيقية للقوة الاسرائيلية والتي تستمد قنواتها من خارج المنطقة ماكان يمكن ان تجرؤ على ان تمارس تلك الوظيفة لولا الضعف العربي . الشعب اليهودي شعب ظل طيلة تاريخه يعيش على الفتات ويسعى نحو الاخرين يستمد منهم قوته دون رجولة ودون كرامة . منذ متى كان اليهودي مقاتلا صنديدا ؟ ومنذ متى استطاع ان يرفع الذل

عن كاهله الا من خلال الانحناء والانطواء على الذات؟ الوثائق المنتشرة في المكتبة الوطنية بباريس وفي المتحف البريطاني بلندن كفيلة وحدها بان تقدم الردود الايجابية على جميع هذه التساؤلات. كم من يوم قضيته وانا اعكف على هذه الوثائق واتساءل بيني وبين نفسي غير مصدق: اين رجال الاعلام لدينا واين خبراء الاتصال في كليات الاعلام وبصفة خاصة في جامعة القاهرة ومراكز البحوث؟ اليس من واجبهم ان يعيدوا كتابة قصة هذه الوثائق بدلا من ان يذهبوا يتاجرون بقضية بلادهم مع الدول البترولية بلا خجل ولاحياء. والم يكن اجدر باساتذة جامعة القاهرة ان ينبشوا هذه الصفحة بدلا من ان يبيعوا انفسهم لمراكز البحوث الامريكية بتلك السذاجة وبذلك التناطح وهم لايخدعون الا انفسهم تارة باسم التنمية الريفية وتارة باسم الثقافة السياسية؟ ثم هي - اي حوادث اكتوبر - اثبتت ثانيا ان امكانيات التعامل النفسي لا حدود لها. فالقوى المحلية في المجتمع الامريكي غير متجانسة وبها من عناصر التناقض مايسمح بالاحاطة والعزل ان لم يكن خلق الموجة المتدفقة دفاعا وتاييدا عن القضية العربية. والعالم الاوربي اضحى ينظر الى القارة الجديدة نظرة الحذر وعدم الثقة وهو لايتردد اليوم في ان يبحث مستغيثا عن المساندة من تلك البلاد التي خضعت لأستعماره واذلاله خلال قرون طويلة. ولأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية نلحظ في الراي العام الاوربي ظاهرتين: الاهتمام بالقضية العربية والشعور بان مستقبل القارة الاوربية مرتبط ان لم يكن متوقفا على الاوضاع القائمة في منطقة الشرق الاوسط. لقد اكتشف الراي العام الاوربي ان جنوب وشرق البحر المتوسط ليس مجرد قطعة من العالم الثالث ولكنه امتداد لأمنه القومي الاقليمي. ولأول مرة ايضا بدأ حديث واضح صريح عن تجانس في المصالح العربية والاوربية وتناقض في المصالح الاوربية الامريكية.
كذلك ولأول مرة اتسعت دائرة التفهم لتلك المصالح من نطاق صانع القرار الذي عرفناه عام ١٩٦٧ الى رجل الشارع الذي برز في اعقاب عام ١٩٧٥ الم يبرز ذلك واضحا اثناء انتفاضة الفلسطينين في الارض المحتلة عندما لم يجد العربي سوى الحجارة سلاحا يدافع به عن نفسه؟

كذلك فان العالم الثالث قد اكتشف فجأة ان اسرائيل هي امتداد للامبريالية بل وتعبير عن مفاهيم لاتتفق مع لغة العصر ومنطق الربع الاخير من القرن العشرين. لقد ظلت اسرائيل حتى عام ١٩٦٧ تمثل الشعب الممزق الذي عاش قرابة الفي عام مشردا لامأوى له. ولكن العالم الثالث اكتشف فجأة اثناء حرب الايام الستة ان هذا الشعب ليس الا اداة للقوى الكبرى وان المجتمع الاسرائيلي ليس هو الشعب اليهودي وجاءت حرب رمضان لتثبت قدرة القوى الضعيفة على ان تتحدى عندما تملك ارادة القتال دفاعا عن ذاتها. ان المعنى الخفي لحرب اكتوبر لايمكن ان يكتمل الا اذا ربط بارادة اخرى لأحد الشعوب الملونة ايضا ولكنه في اقصى الشرق وحول فيتنام. الانسحاب الامريكي اكمل الحلقة ومنذ عام ١٩٧٥ كان لابد وان يتغير اطار التعامل النفسي مع القوى العربية. وتزداد هذه الدلالة عندما نتذكر كيف ان فترة الاعوام العشرة اللاحقة لحرب الايام الستة اثبتت ان التعامل النفسي ليس قاصرا ولايمكن ان يكون قاصرا على التعامل مع القوى المعادية او التي تقف موقف الرفض من الدولة العبرية. التعامل النفسي ليس فقط تعامل خارجي ولكنه وقبل كل شيء اخر تعامل داخلي. لقد ظل المجتمع العربي يعاني من الغزو النفسي الصهيوني وحرب اكتوبر اثبتت ان امكانيات الغزو النفسي العربي للمجتمع الاسرائيلي لاحصر لها. فالقضية محورها الحقيقي واداتها الحركية ومستقبلهافي الامد البعيد يتوقف ويتحدد فقط بذلك المجتمع العربي الذي ظل في الارض الفلسطينية يعاني ويتمزق ورغم ذلك يرفع راية التحدي. وهو ليس فقط المستقبل الحقيقي للقضية العربية والمقدمة الثورية في عملية التغيير في منطقة الشرق الاوسط بل انه المحور السياسي للمستقبل اليهودي حول حوض البحر المتوسط كذلك فان قيادات المجتمع الاسرائيلي كأي مجتمع اخر تتراوح وتتذبذب بين اقصى التعصب واقصى التسامح بين اقصى اليقظة واقصى الغفلة، بين سيادة الاغراض القومية بنبل وترفع وتحكم المطامح الشخصية بانانية بل وبخيانة وهي جميعها بؤر وجذور صالحة للتلاعب المعنوي. كذلك فقد اكتشفت عن

طريق الخطأ او الصواب فهذا لايعنينا وليس موضع المناقشة ان ارتباطها العضوي العربي قابل لأن يمزق ولو في شطحة من اندفاعات المراهقة الحركية والقيادية. وهذا يعلن لافقط عن قدرة القيادة المصرية على الحركة بل وعلى عدم قدرة القيادة العربية على الضبط في التعامل الجماعي. وماحدث من مصر يمكن ان يحدث من اي دولة عربية اخرى. مالذي يعنيه ذلك؟ ان هناك هوة سحيقة نفسية وادراكية تفصل لافقط القيادات العربية كل منها عن الاخرى بل وكذلك تفصل الشعوب عن اداتها الحاكمة. مدركات القيادات العربية ليست واحدة وليست متجانسة. الشعوب العربية تعيش في واد وقياداتها تعيش في واد اخر.

اليست جميع هذه الصور من عناصر التحلل النفسي جديرة بان تجذب اهتمام الباحث والمحلل؟ولكن اين من يستغل ذلك واين العالم العربي القادر على ان يحمل راية التحدي ويغامر بنفسه ويطلق علمه لمناقشة هذه الحقائق؟ وماذا تفعل مراكز البحوث المتعددة ايضا العربية سوى الطبل والزمر ليكتمل اطار الجهل والتجهيل الذي خلقته موجة التسميم النفسي الذي يسيطر على التصور العربي؟

اين من يستطيع ان يكتل القوى ويعطي الوقائع ويقود تيارات الراي العام الدولي والقومي والاقليمي نحو بلورة المواقف في صالح القضية العربية؟ لقد ظلت اسرائيل قرابة ربع قرن ولاتزال تشوه الطابع القومي العربي وتصفه بابشع الخصائص فهل سوف يقدر لنا ان نعيش لنرى موجة غزو عربي وهي تلقي بصناديق القمامة على الطابع القومي اليهودي وتعيده الى موضعه الحقيقي من الحظيرة الانسانية وتحدد حقيقته الفكرية على ضوء تاريخه وواقعه بحياد لايرتفع اليه الا من ملك ناصية الحضارة ومن استمد اصوله من تراث تاريخي ومن وظيفة عالمية؟

نحن نريد الكاتب المتوحش الذي يعرف كيف يركض في الصحراء طالبا الخلاص ولو من خلال الموت!

ـ ٨ ـ

في غير هذا الموضع ابرزنا كيف استطاع الفكر السياسي الاسلامي ان يضع حدا للجهالة التي فرضتها على العالم الغربي التقاليد الكاثوليكية وكيف استطاع من خلال شوامخه وبصفة خاصة الفارابي وابن سينا وابن رشد ان يعيد صياغة المدركات الأوربية مقدماً لتلك الانطلاقة التي بدأها القديس توماس الاكويني لتنتهي بحضارة عصر التحرير والتنوير. وشرحنا تلك الظاهرة المتناقضة التي تبدو لأول وهلة وقد وقف العقل ازائها مشدوها لايستطيع التصديق: الفكر السياسي الاسلامي يخلق الحركة ويقدم للعالم الغربي عصر النهضة بينما يصيبه الجمود والتحجر ويجبن عن ان يخلق او يحدث اي دفعة في العالم الشرقي الذي منه نما واليه ينتمي. كذلك راينا في موضع اخر كيف ان التعارض الذي لانزال نعيشه بين الحضارة الاوربية والحضارة العربية يخفي تقاربا حقيقيا في المفاهيم لايمكن ان يكتشفه الا من يسعى للاجابة عن استفهامات الحاضر على ضوء الخبرة التاريخية. ان التزاوج والامتزاج بين شمال البحر المتوسط وجنوبه اكثر عمقا واشد صلابة رغم موجات التشويه والتفتيت والتناقض التي خلقتها حركات التهويد للحضارة الغربية منذ القرن السابع عشر على الاقل. انها عداوة الاخوين وليست صدام الغريبين. هذه قصة التعامل بين الشرق المسلم والغرب الكاثوليكي. ومن يستطيع ان ينكر ان الصراع الفكري بين الكاثوليكية الغربية والاسلام العربي لايمنع من ان خلفهما لغة التوحيد والايمان بالقوة العليا وسيادتها؟ اليس عيسى نبي مسلم في التصور العربي واليس محمد هو مسيحي خرج على تعاليم عيسى في التصور الاوربي يجب اعادته الى حظيرة الاباء الاوائل؟ كذلك فان

التاريخ يعلمنا ان ابناء هذه المنطقة منطقة الشرق الاوسط لم يتحدد الا على ضوء قناعتها بوظيفتها الحضارية. فقط في تلك اللحظات التي فهمت قياداتها ومفكريها قبل حكامها ان العروبة الاسلامية مدعوة لأن تقود وتوجه ارتفعت المنطقة عن التمزق والضياع والخضوع وبرزت قوية بايمانها شامخة بقدراتها لتسجل صفحات الخلود بتضحياتها فهل في هذه اللحظة التي يعاني فيها العالم من ازمة الحضارة المادية وفشل الايدلوجيات وشيخوخة التراث الاوربي سوف يقدر للرجل العربي ان يسطر صفحة جديدة في تاريخ الابناع الحضاري والارتقاء الانساني؟ واذ وصلنا الى هذه النتيجة علينا ان نفرض تساؤلا اخر : هل الفكر السياسي الذي هو وحده اداة التطور والتطوير في عالمنا المعاصر يفترض التربة الصالحة بحيث ان يوجد التزاوج والامتزاج فاذا بالمجتمع وقد اينع بالروح الخفاقة واذا بالفكر وقد تقمص بالحقيقة الانسانية؟ سؤال مشروع ولكنه ايضا سؤال الاجابة عليه تفرض التوصل الى بناء فلسفة كاملة للوجود الانساني وللحركة البشرية حيث تصير الطاقة السياسية احد مقوماتها.

فاين العالم العربي الذي فهم هذه الحقيقة وسعى لأن يستجيب لها؟
نحن نريد العالم الذي يؤمن بكفاحية العلم وايجابية الفكر، العالم الذي يعرف ان العلم مسؤلية وضمير وان القدرة الالهية عندما وهبت الانسان الضعيف ملكة العلم وتوقد الذهن انما ايضا فرضت عليه الالتزام بامانة الكلمة. من حولنا لانجد سوى صفاقة وقد انضموا الى جوقه« الزفة السياسية» فهل ان لصوت ولو منفرد ان يخرج عن شذو هؤلاء المتفعين يذكرنا بتقاليد اجدادنا وليعيد قصة ابو حنيفة واحمد بن حنبل ليسطرها باحرف من نار.؟

نحن نريد الارادة الخالقة تلك التي ترى في الروح القوة الحقيقية وليس في كأس شراب او وجبة طعام او فرج امراة كل معاني الوجود وامل الحركة.

نحن نريد مقاتلين. فلندع التخنث والنخاسة الفكرية التي عشنا عليها وعاش عليها اباؤنا خلال نصف قرن من الزمان. إنها قد اضحت قاعدة واسلوبا في الحياة واضحى لها المتخصصون الذين حنكتهم التجربة وصقلتهم الخبرة. لقد اينعت في ظل الثورة واستطاعت ان تخلق مدارسها وتقاليدها وهي اليوم تسري في الجسد العربي بكل قوة وعنف تبث سمومها وتحطم ارادة البقاء لتؤدي وظيفة ماكان يستطيع ان يامل‍ها اكثر اعداء هذه الأمة تفاؤلا. منذ اختفى الشيخ محمد عبده ماذا فعل الفكر العربي وكيف واجه ازمات مجتمعة المختلفة؟ على مثقفي العالم العربي اليوم ان يفهم كيف ان قدره فرض عليه ان يقف كجند طارق بن زياد وظهره الى البحر. اعداؤه ليسوا فقط اولئك الذين وقفوا حول امته متربصين بها ولكنهم ايضا من بني قومه ومن ابناء عشيرته. بل ان هؤلاء اكثر خطورة لأن عليه ان يكتشفهم بحذر وتاني وان يعاملهم بحنكة وترو. انهم اعداؤه الحقيقيون وعليه ان ينازلهم فأما ان يقضي على تلك العناصر التي نبتت في غفلة من الزمن واما ان تقضي علينا تلك الحيوانات الطفيلية وليكن عزاؤنا ان الكيانات القوية لاتعرف كيف تتأقلم باطار ينفي قيمها ويفرض عليها الخنوع والالتواء.

ومنذ متى وقف المفكر القائد مترددا حتى على حساب حياته وقد اضحت في كفة الميزان ضرورة ايقاظ امته من الغفلة ومن النوم؟ هناك لحظات معينة توقف فيها قلب الانسانية عن الخفقان وهو ينظر من حوله. انه يعلم ان ذلك الصراع الذي ينشب بين فريقين من ابنائه سوف يتحدد به مستقبل الوجود البشري. انه يدرك ان هزيمة او انتصار يعني لامجرد معركة تفقدها موجة من موجات القوة او جولة في الصراع الجسدي وانما هي قضاء على صفحة من صفحات الوجود وتغيير في مراحل التطور المقبل بالنسبة لكل ما ينطوي تحت كلمة التراث الانساني. هذه هي المعارك المصيرية.

التاريخ لايمكن ان يهمل. وعندما تهمله القيادات فانه قادر على ان ينتقم وانتقامه رهيب.

ان اخطاء العالم العربي في مواجهة عبد الناصر كان لابد وان يدفعها ذلك العالم العربي بشكل او باخر. وقد دفعها رغم انتصار الشعب الذي تحمل اخطاءكلا من جمال عبدالناصر والقيادة العربية. واليوم والقيادة المصرية تسير في طرق متعرجة وملتوية ولكنها مسالك خاطئة فان علينا ان نعلم بانه لابد وان ندفع ثمن تلك التصرفات ان اجلا او عاجلا لافقط على المستوى القومي العربي بل وايضا على المستوى الشعوري المصري. رغم ذلك فليكن واضحا ان القيادات الاسرائيلية وكذلك القيادات المصرية تعلم جيدا وتعد لمعركة قادمة ومن يتصور غير ذلك فهو ليس فقط خاطيء وبل ويجب ان يوصف بالسذاجة وعدم الصلاحية للقيادة. الحديث شيء والعمل شيء اخر التصريحات قصة ليست دائما صورة مطابقة للنوايا الحقيقية. واذا كانت بعض القيادات قد ارهقت او انها لاتصلح لأن تستمر في التضحية والمخاطرة او انها قد تحولت فاذا بها برجوازية طفيلية او انها قد اخضعت لعملية غسيل مخ منظمة فاذا بنظام قيمها وقد اعيد تشكيله، فان هذا لايعني انها غير واعية بحقيقة مايجري حولها او انها ابدية قد تجمدت حولها جميع مسالك التطور. ولكن مامعنى المعركة المصيرية؟ مفهوم غامض ولكنه متداول. رغم ذلك فنماذج المعارك المصيرية عديدة وموضع القيادات الفكرية منها واضح لايثير تساؤلات. في تلك اللحظة، اي ونحن بصدد المعركة المصيرية اذا بالفرد يرتفع عن ذاته وعن قوميته ليصبر بوجوده الضعيف محور التطور العام لمستقبل البشرية.

انه صوت مجرد ينطلق في متاهات التاريخ يذكر ويقود وهو يكاد يصير بايمانه وبثقته ارادة تعلو الزمان والمكان. اين (باركليس) وهو يقود امته الضعيفة ولكن القوية بايمانها ضد جحافل الفرس ليحمي حضارته وينقذ الانسانية من معاول البربرية وهل نستطيع ان ننسى حديثه الجنائزي وهو يضمد جراح امته ويضع حدا للوعة مافي حكم الاستئصال لشعبه باسم الثقة في الديمقراطية الاثينية ومن يستطيع ان ينسى صوت (كاتون العجوز) وهو يقف وحيدا في مجلس الشيوخ الروماني متصدرا لكل محاولة من محاولات الخنوع فارضا على قومه وهم في اوج الغنى واليسر جميع صور التقشف بما في ذلك منع النساء من التزين بالذهب والفضة اولبس الحرير وقد اضحى على المجتمع الروماني ان يواجه مجتمع قرطاجنة وان يفرض لافقط طرد هانيبال من شبة الجزيرة بعد ان دنسها بل والقضاء على مايمثله لهم ذلك الغرور من وجود ايا كانت معانية؟ ومن يستطيع ان ينسى فيشت يقف في اكاديمية العلوم ببرلين ونابليون يسير في الطرقات ممرغا في الاوحال الشرف الالماني معلقا على المشانق كل من تسول له نفسه ان يرفع صوته وفي محاضرات عامة خلال ثلاثة اشهر ظل يهاجم الحضارة الفرنسية والغزو الفرنسي بل والثورة الفرنسية وكل ماتمثله هذه المفاهيم من قيم او تقاليد دون ان يعبأ لابمخاطر المحتل ولاباحتمالات خيانة المواطن الضعيف الذي قد ينقل مايسمع الى العدو والاجنبي؟ ومن سمع «تشرشل» وصوته يجلجل عقب غزو هتلر مؤكدا ثبات امته ومنذرا شعبه بانه لن يستطيع ان يعد سوى بالدماء والتضحيات دون ان تعتريه موجات من الرهبة بالايمان بعظمة الانسان؟

ان المفكر يصبر في تلك اللحظة راس الحربة الحقيقية لعزيمة القتال الجماعية. انه يقظة الضمير والوجدان ازاء الشعور بالخطر المصيري. انه ارادة القتال بابسط معانيها. وارادة القتال قد تتبلور في شكل صدام عضوي ولكنها قد تفترض الانزواء لتضميد الجراح. وهي في لحظات الصراع المصيري قد تصبر اكثر الحاحا واشد اهمية. ولنتذكر ان مجرد القاء سلاح الصدام العضوي لايعني في تلك اللحظة سوى التعبير عن المرونة التي تفرضها ادارة الصراع انه استعداد لقتال اخر سوف يكون اكثر عنفا واشد ضراوة. انه تراجع خطوة لقفزة اكثر اتساعا واشد تصميما. ان الصراع يفترض عمليات متتابعة من الكر والفر. من التقدم والتاخر من التطاحن والمهادنة. المتغير الثابت الذي لايجوز ان يختفي هو مصير الامة المحاربة بكل ماتعنيه هذه الكلمة من

متغيرات : ارادة واضحة ، قيادة واعية ، اهداف ثابتة . ارادة القتال هي المحور الحقيقي الذي يضم ويحتوي جميع هذه العناصر وعندما تلقى الطبقة الحاكمة بالسلاح باي دعوى كانت فان الوظيفة القيادية تنتقل الى المفكر ليقود مسالك الثبات النفسي والتكتيل لجميع عناصر الارادة الذاتية في المجتمع المحارب في شخصه وحول فكره تتبلور ارادة القتال حيث استمرارية الضمير التاريخي تقع على عاتقه لأنه هو وحده القادر على ان يكتل وجدان شعبه وعلى ان يحتضن قيم امته وعلى ان يصير صوته الصرخة المعبرة عن ضمير امته . في صوته تتكتل الامال والاماني وفي مواقفه تستعيد الامة ثقتها في ذاتها وفي تضحياته يسجل التاريخ كرامة الشعب الذي ينتمي اليه . انه هو وحده الذي يقع عليه عبء استمرارية الثبات وارادة الصمود .

ولكن مالذي نقصده بهذه الكلمة ارادة القتال ، التي يجب ان تتردد على كل لسان وان تسيطر على مفاهيم كل مفكر رغم كل مايلقي به من احاديث حول الصلح والسلام؟ كما ان ارادة القتال قد تجمع الشعب حول قيادته فتصير اداة التماسك السياسي ، فانها قد تعلن عن انفصام حقيقي فاذا بتلك الارادة اي ارادة القتال وقد اصبحت امتياز الفئة المثقفة والقيادة الفكرية تنفرد بها وتحمل عبئها . انها في تلك اللحظة حلقة الوصل بين الماضي والمستقبل وقد الغى الحاضر ولو مؤقتا . ولكنه ايضا في تلك الحالة لايجوز لنا ان نستهين بما تعنيه ارادة القتال من متطلبات ومن التزامات تقع على عاتق القيادات الحاكمة كما تفرض نتائجها على جسد الامة المحاربة . وموقف مصر من العالم العربي والقيادات الفكرية في مصر من المجتمع المصري والطبقة الحاكمة المصرية ليس الا تعبيراً عن هذه الحقيقة .

فلنحاول ان نحدد بعض المفاهيم التي منها انطلقت صياغتنا لهذه الدراسة .

- ٩ -

ارادة القتال في معناه المتداول هي تلك العزيمة التي تحددت على خوض الصراع المباشر بقصد السعي نحو تحطيم خصم معين كليا او جزئيا للوصول الى اكراهه على امر معين او منعه من الاتيان بعمل معين . هذا المفهوم مقوماته بهذا المعنى تتحدد بعنصرين : ارادة بمعنى عزيمة وتصميم ثم تقابل عضوي حيث يصير الاشتباك الجسدي المباشر هو وحده خاتمة المطاف . ارادة القتال تفترض بهذا المعنى عنصر القيادة اي عملية التكتيل للقوى من حيث ربط مقومات الوحدة البشرية بمختلف ابعاد مسرح الصدام وتوجيه ذلك التكتيل البشري نحو الهدف الذي فرض على القيادة من عملية الصدام . ارادة القتال تعني الترابط بين الحركة والفكر ، رفض الخوف من المواجهة والثقة في الهدف الذي نسعى الى تحقيقه . هذا العنصر الذي ميز وسوف يميز جميع لحظات الصراع المصيري هو الذي تتوقف عليه وفقط عليه النتيجة النهائية للمعارك المصيرية .

ومن ذا الذي يستطيع ان يكتل هذه الارادة سوى المفكر الفيلسوف؟ ومتى ترتفع وطنيته لتصير محور الحركة والوجود سوى في لحظات الصراع المصيري؟

ولو عدنا الى التاريخ نسأله لوجدناه يقدم الينا اجابة تدعو الى التامل : ان جميع المعارك المصيرية لم تنشب الا حول القارة العربية . معركة «زاما» في قلب التاريخ القديم ، معركة «بواتييه» في مشارف العصور الوسطى ، «عين جالوت» عقب ذلك بعدة قرون ، معركة «العلمين» في منتصف القرن العشرين . جميعها لم تكن سوى صفحات من تاريخ هذه الارض ومرتبطة بحضارة تلك الامة . فهل قدر علينا ان نعيد الى التاريخ احدى صفحاته في نموذج جديد بالنسبة لشعب لم يقدر له في تاريخه الطويل ان يكون امة حقيقية او يعكس حضارة اصيلة؟ عجب وكيف نثير التساؤل وهي حقيقة يجب ان يعيشها كل مفكر ينتمي الى هذه الارض؟

الواقع ان النموذج الذي تعيشه الامة العربية للصراع اليوم والذي يدور حول الصدام بين اسرائيل والعالم العربي لايعيد الى الذهن الا تلك الصورة التي قدمها لنا التاريخ من خلال الصراع الدموي بين روما وقرطاجنة. هو صراع لم يكن بين قوميتين وانما كان بين اسلوبين من اساليب الحياة. شرق وغرب يتناطحان، مجموعتان من المفاهيم والقيم كل منها لاتقبل ولاتستطيع التجانس مع الاخرى لأن ذلك فيه الغاء لذاتها ولهويتها. الامة العربية التي تريد ان تعود الى نفسها وان تبحث عن مصادر قوتها في قيمها الذاتية تواجه مجتمعا دخيلا ينقل اليها ويسعى لأن يفرض عليها صورة اخرى من صور الحضارة ورغم انها لاتنتمي الى ذلك المجتمع الدخيل لأنه ينقلها عن غيره لاتتجانس ولاتستطيع الا ان تتناقض مع طبيعة الحضارة العربية.

هذا الصراع الحضاري لابد وان ينتهي بمعركة مصيرية. وهذه المعركة التي سوف يتعين علينا ان نخوضها ان اجلا او اعاجلا والتي تمثل بالنسبة لها معركة اكتوبر شرارة الانطلاق الحقيقية في تاكيد ايمان الوعي القيادي العربي بحتميتها، والتي تعد لها اسرائيل منذ الان ان لم يكن منذ فترة طويلة هي التي سوف تحدد بقاءن الحضاري وطبيعة هذا البقاء. وزعماء الدولة العبرية اول من يؤكد ذلك ويكفي ان نعود الى الصفحات التي ينهي بها بن جوريون كتابه الضخم عن تاريخ اسرائيل حيث نجد الدلالة القاطعة.

كل هذا ليس في حاجة الى ثبات.

ولكن حتى يقدر لنا ان نستطيع تلك المواجهة فما هي الاسلحة التي يجب ان يتسلح بها مجتمع سياسي يواجه مثل تلك المعركة المصيرية؟

ان عالم الربع الاخير من القرن العشرين ليس هو عالم القرن الثاني قبل الميلاد. ان عصر الجمع بين الفلسفة والعلم في نطاق الحركة السياسية قدم اساليب جديدة ومفاهيم متطورة لكيفية القضاء على الشعوب واستيعاب الحضارات من خلال القتال النفسي وقبل الصدام العضوي. وهذا هو الذي يحدث اليوم: فاسرائيل بتخطيط ذكي وبارادة ثابتة تسعى مستغلة في هذا مجموعة من الظروف الدولية والمتغيرات الى تفتيت الحضارة العربية وتسميم العقل العربي وافناء الارادة العربية.

فهل نقف ازاء هذه العملية موقف الصمت والسكون؟ ام علينا ان نقبل القتال وان نرفع راية التحدي؟
ان ارادة الصمود تعني رفض الاستسلام رغم الهزيمة. هكذا ظهرت حركات المقاومة في غرب اوربا وهكذا يجب ان تتعلم الشعوب اذا ارادت الحياة. وكما ارتفع صوت ديجول قويا بوحدته نقيا بعزلته قادرا بصبره، فان العالم العربي اليوم في حاجة الى مثل ذلك الصوت.

- ١٠ -

وكما قبلنا المغامرة واعلنا راية التحدي الجسدي والصراع الدموي ولو في لحظة معينة فهل لن يقدر لنا ان نجمع فلول قواتنا الفكرية وتقاليدنا الحضارية وان نشن قتالاً من نوع اخر: قتال الحضارات وصراع المفاهيم وصدام الايديولوجيات؟

حرب الخليج بدورها صفحة هامة واساسية في هذا التطور.

مامعنى حرب الخليج كحقيقة نفسية؟

فلنترك جانبا دلالاتها العسكرية والدبلوماسية. ولنقف ازاء هذا التعامل كجزء من الخبرة المعاصرة تملك مذاقها المتميز في التعامل النفسي. انها تعني حقائق اربع متكاملة:

(اولا) الثقة في الذات
(ثانيا) القدرة على التحدي
(ثالثا) التماسك القومي
(رابعا) التفاعل الثابت بين القيادة والشعب

العنصر الاول يبدو واضحا من متابعة وقائع القتال في مراحله المختلفة. ان المجتمع العربي يعلن لأول مرة عقب حرب اكتوبر بانه لم يخضع ولن يخضع لعملية الغزو المعنوي. حرب اكتوبر اعدت لحرب الخليج حيث هذه ليست سوى الفصل الثاني من المقاومة والصمود. لقد استطاع الجندي المصري على ضفاف قناة السويس ان يتخطى القيادة الجالسة في مخابيء غرف العمليات. العراقي استطاع قائدا وشعبا ان يتلاحم وينصهر في بوتقة معركة لاتزال دائرة منذ ثمانية اعوام. المفاجئة الحقيقية في حرب الخليج هو ان القائد اضحى جنديا يتصدر رجاله ولايجلس في مكتبه بعيدا عن رجاله. علاقة التماسك لم تكن فقط بين الجندي وقائده ولكنها كانت ايضا بين الرجل العسكري والمواطن المدني. لقد اضحى كل مواطن مقاتل. لقد خلقت الامة المحاربة بفضل هذا التماسك الذي محوره الاساسي هو العنصر النفسي. جميعها عناصر خلقت التماسك القومي حيث التفاعل الثابت بين القيادة والشعب هو المحور الحقيقي لهذا النجاح. الذي يعنينا هو ان هذا التماسك لايجوز ان ينظر اليه على انه فقط نتيجة طبول الحرب انه يجب ان يدعم ليصير هو وحده محور التعامل ايضا في لحظات السلم.

حرب اكتوبر حرب الخليج، ثم الانتفاضة الشعبية في الارض المحتلة. هذه هي الخطوات المتابعة لتاكيد العلاقة النفسية الحقيقية والخفية بين الجماهير العربية. الجندي المصري حارب وحيدا. الامة العراقية تكتلت خلف ومع قيادتها.الفلسطيني يحارب دون سلاح: خطوات متابعة كل منها قادت الى الاخرى في عملية الترابط والوحدة النفسية بين الجماهير العربية. ان حرب الخليج وماتعنيه من وقوف شعب محدود العدد صامد كالصخرة في مواجهة الجحافل الايرانية ورغم جميع الصعوبات والعقبات هي المقدمة الحقيقية للتحرك العربي في الارض الفلسطينية هنا تخط الجماهير ملحمتها الحقيقية من القوة والقدرة والبطولة.

العالم العربي يخضع لحرب نفسية عنيفة. وهي تقدم نموذجا متميزا للتعامل النفسي يملك مذاقه الخاص بل وفلسفته الذاتية. يخطئ من يتصور ان هذه الحرب وليدة الامس القريب انه تعامل يعود الى بداية العصور الوسطى. ولايستطيع اي محلل محايد ان يفهم مختلف الحقائق المرتبطة بعلاقة الوطن العربي بالعالم الخارجي الامن ذلك المنطلق. والعالم الخارجي لانقصد به فقط مايقع خارج حدودنا التقليدية بل كل ماله صلة بالانتهاء الى غير الحضارة العربية الاسلامية. الحضارة الغربية الكاثوليكية ليست سوى احد تطبيقاتها. ان مأساة حضارتنا الحقيقية هي ان العداوات التي ناصبتنا العداء لم تقتصر على ان تكون خلافات دينية. إنها اكثر من ذلك. وهي لم تؤسس حركتها فقط على عملية الصراع السياسي بل انها جعلت منطلقها الحقيقي الخلاف في الادراك والتعامل الذي تصورت انه سبب للعمل على الاستئصال. وجدت الحرب النفسية منذ الدعوة المحمدية وتصاعدت مدا وجزرا مع مختلف الاحداث التي احاطت بالمنطقة.

الصهيونية ليست الا مرحلة في هذا الصراع.

ان اخطر ماتمثله الصهيونية اليوم انها تتعامل باسم السلم والحل العادل في المنطقة وهي لاتفعل سوى ان تنخر في الجسد العربي وتخلق الشلل في مختلف اجزائه. انها بحنكة معينة تنال من مفاصل هذا الجسد فتحقق نوعا من التيبس في الحركة. وهي بهذا المعنى تلجأ الى اساليب ومنطلقات تبدو لأول وهلة لا أصلة لها بالحرب النفسية ولكنها من صميم ذلك التعامل ولاتبرز نتائجها الا عقب فترة غير قصيرة: ظاهرة التسميم السياسي التي بدات منذ السبعينات لم نفهم معناها ودلالتها الا في اواخر الثمانينات. تصفية الوجود العربي من العقول الخلاقة وتشجيعها على الهجرة لم تكن عملية غير مقصودة واليوم نحن نكشف نتائجها.

الحرب النفسية التي تقودها الصهيونية تنطلق من مخطط كامل

وقد ان لنا ان نخلق نحن بدورنا نظرية كاملة ومتكاملة للتعامل النفسي. احد منطلقاتنا يجب ان يكون اساسا الحرب النفسية العكسية ومن منطلق ادارة الصراع في منطقة الشرق الاوسط. سبق ان تعرضنا لعملية ادارة الصراع في بحث آخر كان اساسا لمجموعة من الدراسات التي تولاها بعض ابنائي في دائرة نشاط معهد البحوث والدراسات العربية ببغداد. الحرب النفسية العكسية ومن منطلق مفهوم الطابع القومي هو محور هذه الدراسة وهو يكمل بهذا المعنى الجهود التي نبذلها بصدد تاصيل نظرية التسميم السياسي. جميعها مقدمة لدراسة نرجو ان يسمح لنا بها العمر حول نظرية متكاملة لظاهرة التعامل النفسي من منطلق خبرة الصراع العربي الاسرائيلي.

هذه الصفحات ليست الا مقدمة لهذا الهدف.

بغداد في ٢٠/٢/١٩٨٨.

مقدمة عامة

الحرب الباردة والصراع السياسي
في منطقة الشرق الأوسط

١ـ التعريف بالحرب النفسية وتقاليد الصراع المعنوي في منطقة الشرق الاوسط

شهدت الاعوام الاخيرة اصطلاحات عديدة كل منها يتداخل مع الاخرى بحيث يكاد يستحيل في بعض الاحيان التمييز بينها: دعاية، حرب نفسية، حرب باردة، حرب ايديولوجية، حرب معلومات، دعوة عقائدية، تسميم سياسي، غسيل المخ، لو اقتصرنا على اهمها (١). هذا التعدد في الاصطلاحات وهذا الغموض في المفاهيم يعكس رغم ذلك حقيقة واضحة: التعامل النفسي اضحى عنصرا من عناصر الحركة

---

(١) رغم ان هذا ليس الموضع المناسب للتحليل التفصيلي لهذه المفاهيم الا ان التحديد بالمعنى العلمي لكل منها لابد وان يساعد القاريء على فهم مساراتنا في هذه الدراسة:

الدعاية ويقصد بها عملية الاثارة النفسية بقصد الوصول الى تلاعب معين في المنطق فاذا بنا ازاء استجابة ما كان يمكن ان تحدث لو لم تحدث هذه الاثارة العاطفية. الدعاية بهذا المعنى لاتفترض سوى التلاعب بالمنطق كما تتجه الى الصديق فانها تتجه الى غير الصديق.

الحرب النفسية وهي نوع من القتال النفسي لايتجه الا الى العدو ولا يسعى الا الى القضاء على ايمان المستقبل بذاته وبثقته في نفسه وبعبارة اخرى هي تسعى لا الى الاقناع والاقتناع وانما تهدف تحطيم الارادة الفردية. هدفها اكثر اتساعا ولكن دائرة فاعليتها اكثر تحديدا من الدعاية. هي تسعى الى القضاء على الارادة ولكنها لاتتجه الا الى الخصم او العدو.

حرب باردة اصطلاح برز منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ليعبر عن استمرار حالة القتال السابقة، ولكن فقط باساليب نفسية: دعائية واعلامية في ان واحد.

حرب ايديولوجية ويقصد بذلك نوع من انوع الصراع النفسي اساسه الرغبة في سيادة ايديولوجية على اخرى. يفترض تناقض في الايديولوجيات وسعي من جانب احدى تلك الايديولوجيات لاحتواء مجتمعات اخرى سواء بالتأكيد او بالاقتناع. لذلك الحرب الايديولوجية تفترض ان يصاحبها اما دعاية بالنسبة للنموذج الاول او دعوة بالنسبة للنموذج الثاني. الدعاية تنتهي الى التأييد والدعوة تقود الى الولاء وخلق الانصار.

حرب معلومات وهو اصطلاح برز فقط في الاعوام الخمسة الاخيرة اساسه تخزين المادة الاعلامية واطلاقها في لحظة معينة بحيث تؤدي الى فقد الثقة في مصدر الاخبار. فالاعلان مثلا عن نجاح معين اقتصادي او عسكري يخالف الحقيقة وتصل معلومات دقيقة عنه للخصم فيخزنها وينتظر اللحظة المناسبة ليطلقهالابد وان يحدث اثرا عنيفا من حيث الثقة في مصدر تلك المعلومات في صورتها غير الصحيحة. الحرب الاعلامية بهذا المعنى ليست قاصرة على النطاق الخارجي بل تتعداه ايضا الى النطاق الداخلي: المعرفة بفضيحة معينة واطلاقها في لحظة معينة يكفي للقضاء على الزعيم السياسي بل واثبتت الخبرات الاخيرة انها قد تؤدي الى اضطرابات دولية عنيفة ما كان احد يتصور امكانياتها حتى وقت قريب. فضيحة ووترجيت ليست الا نموذج يؤكد هذه الحقيقة.

الدعوة العقائدية وقد عرفناها قبل ذلك بانها نوع من الاقناع المستند الى الصدق والايمان. هي لغة من المنطق الى المنطق ترفض الكذب والتشويه وتسعى للحصول على علاقة الولاء. قد تختلط بالدعاية في بعض مراحلها ولكن المحور العقائدي في العملية الاتصالية يسمح بتمييزها بوضوح حتى عندما تأخذ الصورة الدعائية.

التسميم السياسي وهو اكثر هذه المفاهيم حداثة يكثر استخدامه في الفقه الفرنسي ويدور حول زرع افكار معينة من خلال الخديعة والكذب بحيث تؤدي الى تصور معين للموقف يختلف عن حقيقته مما يترتب عليه عند اكتشاف تلك الحقيقة نوع من الصدمة النفسية الامر الذي يؤدي الى شلل نفسي وبالتالي عدم قدرة على عملية المواجهة. التسميم السياسي بهذا المعنى قد يكون مقدمة لمعركة او قد يكون لاحقا لها. يقدم بحيث يسمح بتحقيق النصر العضوي باقل تكلفة ولا حقا لها بحيث يكمل الانتصار بالقضاء المطلق على الخصم كوجود ذاتي لايزال يناضل في سبيل التمسك ببقائه الحضاري.

غسيل المخ: اسلوب من اساليب التعامل النفسي يدور حول تحطيم الشخصية الفردية بمعنى نقل الشخصية المتكاملة او ما في حكم المتكاملة الى حد التمزق العنيف بحيث يصير من الممكن التلاعب بتلك الشخصية للوصول بها لان تصير اداة طيعة في يد المهيج او مثير الفتن والقلاقل.

التحويل العقيدي صورة من صور غسيل المخ ولكنها تتجه الى المجتمع الداخلي بقصد خلق الاصدقاء المتعصبين. بعبارة اخرى هي دعوة عقائدية ولكنها لاتقتصر على الاقناع وقد تسعى الى خلق القوى العنيفة في تعصبها المبالغة في التزامها لاي مواقف لاتتضمن الصلابة المطلقة. انظر في تفاصيل هذه المفاهيم باجاز حامد ربيع،مقدمة في العلوم لسلوكية، ١٩٧٢، ص ٢٧١. وما بعدها وبتفصيل اكثر راجع، حامد ربيع، نظرية الرأي العام، محاضرات كلية الاقتصاد، ١٩٧٣، ص ١٢١ ومابعدها.

وإداة من ادوات السيطرة على ارادة الصديق او الخصم قبل احتوائه او تحطيمه. والواقع ان الاهتمام بالتعامل النفسي ليس بجديد في تاريخ الانسانية الا ان الربع قرن الاخير فرض على تلك الظاهرة تطورات ضخمة بحيث جعلت من هذا التعامل المنطلق الحقيقي لافقط في نطاق العلاقات الفردية بل ايضا في مجال العلاقات الدولية [٢]. العلاقات الدولية لم تعد فقط علاقة طبقات حاكمة وانما اضحت ايضا بل واساسا علاقات شعوب واتصال حضاري[٣]. وادوات الاتصال بدورها فرضت الغاء عامل الانفصام المكاني والزماني بين الشعوب وجاءت الايديولوجيات فغلفت العلاقات الدولية بعامل العاطفة وعنصر الالتقاء المعنوي[٤]. على ان هذا التطور لاتبرز ابعاد واضحة في حالة السلم بقدر اهميتها في حالة الصراع او القتال. ذلك ان المواطن لايهتم الا بمشاكله ولكن عندما يصير وجوده الذاتي في خطر فمن الطبيعي ان تتسع دائرة الاهتمام لتحتضن كل مايتصل بمصدر هذا الخطر[٥]، صفة التكرار اليومي التي مكنت منها التطورات الاعلامية وبصفة خاصة اداة الاذاعة والاتصال المسموع جاءت لتضيف على هذا التطور بعدا جديدا اذ سمحت للصراع الايديولوجي بأن يتحول بدوره الى صورة من صور الحرب النفسية.

على ان الغموض الذي يرتبط بهذه النواحي لايقتصر على تعدد المفاهيم وحداثة الظاهرة فضلا عن اختلاطها بالحركة اليومية التي تمنع من وضوح الرؤ يا وامكانية التحديد بابعاد ومظاهر التعامل النفسي بشكل حاسم ودقيق. ذلك ان الثقافة العلمية تواجه ظاهرة لم تستطع بعد ان تحدد اطارها الفكري المستقل: فهي بمقوماتها تنتمي الى العلوم النفسية وهي بحركتها تكون جزءاً من الثقافة الاجتماعية وهي باهدافها ترقى الى العلوم السياسية. كذلك فهي كحركة للدولة او للجماعة المنظمة لابد وان تفرض ابعادا اقتصادية لانها تفترض نفقات وعائد. ودون ان ننسى انها تتعانق مع النشاط العسكري كمقدمة له او كاداة مساندة الامر الذي يزيد من الارتباط الفكري وعدم الوضوح الحركي[٦].

فأين العالم العربي من كل ذلك؟ واين الصراع المصيري الذي يفرض ابعاده المختلفة على المنطقة من هذه الحقائق الجديدة والمتجددة؟

ظاهرة القتال المعنوي في الواقع ليست جديدة في التقاليد الاسلامية ودون ان نعود للمراحل الاولى من تاريخ الدعوة وما ارتبط بها من صراع فكري ولغة عقائدية يكفي ان نتذكر سواء الدعوة العباسية، سواء الدعوة الفاطمية كنماذج للتعامل النفسي. ان كليهما كحركة سياسية امنت بضرورة الالتجاء الى عملية الاتصال لخلق الانصار كمقدمة للحركة السياسة ذاتها. ارسال الدعوة وتوجيه ائمة المساجد للقيام بعملية الخطاب المباشر ليس بالصورة غير المعتادة في تاريخ الصراع السياسي في تقاليده الاسلامية. بل ان العودة الى

---

(٢) HOLSTI, International. Politics, 1967, P. 247.

(٣) ELLUL, Propagandes, 1962, P. 64.

(٤) FLEMING, The cold war, 1961, Volume one, P. 9

(٥) ولعل هذا يفسر حقيقة موقف الرأي العام الامريكي من مشكلة الشرق الاوسط لو قورن بموقفه من حرب فيتنام. الكثير لايزال يتساءل لماذا تلك السلبية في الحالة الاولى والاهتمام الواضح في النموذج الآخر. والاجابة واضحة وليست في حاجة الى الكثير من التفاصيل. بالنسبة للشرق الاوسط لاتزال تمثل مشكلة دولية لم تتعلق بعد بالنواحي الداخلية، على العكس من ذلك فان مشكلة فيتنام بما تمثله من صراع مسلح تشترك فيه القوات الامريكية تصير مشكلة داخلية او على الاقل ترتبط بنواحي الوجود الداخلي. ولعل هذا يفسر ايضا لماذا امكانية فرض القتال المحلي مع التدخل الامريكي من جانب او خلق الاضطرابات البترولية التي قد تؤدي الى مشاكل داخلية في المجتمع الامريكي لابد وان يؤدي الى فرض صورة من الاهتمام تماثل بالنسبة لقضية الشرق الأوسط نفس ماسبق ورأيناه بالنسبة لمشكلة فيتنام. انظر حامد ربيع، نظرية السياسة الخارجية، محاضرات كلية الاقتصاد، ١٩٧٣، ص ٧٥ ومابعدها.

(٦) MURTY, Propaganda and world Public order, 1968, P. 206

تاريخ الدعوة العباسية لو اقتصرنا عليها تثبت مدى الفهم العميق باهمية هذا التعامل كمقدمة لحركة الاحتواء السياسي. فنجد ان الدعاة الذين كانوا يمثلون راس الحربة المتقدمة في الغزو الفكري يتسترون بزي التجار منعا لاثارة الانتباه. احدى القواعد الثابتة التي ميزت تخطيط عملية الدعوة العباسية هي استغلالها لجميع العناصر المستاءة من الحكم الاموي، بل ولم تتردد في ان ترحب بأي فكرة وأي كتلة معارضة قادرة على اثارة الاضطراب ضد الامويين في أي منطقة من اجزاء العالم العربي. وما ان استقرت السلطة حتى بدأت تظهر واضحة ابعاد الحركة العباسية: فهي تسعى الى استئصال كل من مثل عنصرا من عناصر الدعوة يختلف عن حقيقة الحركة العباسية او يمثل خطرا على النفوذ العباسي[7]. رغم ان هذه الصفحة لم تقدر لها بعد الدراسة الكاملة الا ان الذي يعنينا ان نؤكد عليه هو كيف ان متابعة هذه الفترة من فترات تاريخنا السياسي تعلن بصراحة عن مدى الفهم العميق من جانب ابائنا الاوائل لحقيقة التعامل النفسي: فهو اولا يفترض التخطيط وهو ثانيا لايمكن ان يتحقق الا من خلال المراحل المتابعة حيث كل مرحلة‌ تمهد للمرحلة اللاحقة بحيث انها في مجموعها تكون الوجه الاخر للنشاط السياسي. كذلك اضف جوهر العملية حيث انها بغض النظر عن تعدد مراحلها الزمنية تتضمن من حيث جوهرها الاتصالي خطوتين متلاحقتين: الاولى تعني خلق قادة الرأي والثانية تفرض محاولة التأثير في شرائح وطبقات الرأي العام[8]. الاولى هي خلق الدعاة والبحث عنهم من بين تلك العناصر المؤمنة او الناقمة التي على استعداد لان تنطوي في مسارات الحركة السياسية فضلا عن صلاحياتها للقيام بالعمل الدعائي. اما الثانية فهي التي تعني التغلغل في الجسد السياسي لتحقيق عملية الاحتواء والحصول على التأييد. وهكذا رفعت الثورة العباسية شعارات عديدة كالدعوة الى «الرضا من ال البيت» والعمل «بموجب كتاب الله وسنة نبيه» لتستطيع ان تخلق ادواتها الاتصالية اي دعاتها او بعبارة اخرى ما نصفه اليوم بقادة الراي. وعقب ذلك اطلقت هؤلاء الدعاة لتحقيق عملية التفتيت في القوى المحيطة بالحكم الاموي وبالتالي في خلق التربة الصالحة للقيام بالحركة السياسية[9]. على ان اهم مايلفت النظر في تلك الخبرة رغم بعدها الزمني هو ان كبار الدعاة كانوا يمثلون قادة الحركة وان وصول العباسيين الى الحكم ارتبط بعملية تصفية لهؤلاء الدعاة لم تقتصر على قتل ابو مسلم بل امتدت الى اغلب رجال الدعوة دون ان تقتصر على ان تأخذ صورة الصراع على السلطة اذ تبلورت في شكل صراع اخر بين الدعاة انفسهم ارتبطت بتضارب الاهداف فضلا عن الخلاف في المصالح[10].

الحركة الصهيونية تدعو الى الكثير من التساؤلات بهذا الخصوص. فمنذ بدايتها اهتمت بعملية الدعوة بل وكان قادتها الحركيون هم دعاة اكثر منهم زعماء سياسيون. هرتزل يصفه نويمان بأنه اعد فكريا ليكون قائد دعوة من الطراز الاول. عندما كتب مؤلفه عن الدولة اليهودية الذي تتضمن عناصر العقيدة لم يتردد في ان يكرس وقته لوضع قصته المشهورة «الارض الجديدة القديمة» يخلق من خلالها قنوات الاتصال الدعائي كما عرفها العالم في تلك الفترة اي من خلال لغة الرومانسية السياسية[11]. جابوتنسكي رجل الفاشستية الصهيونية وهو الذي نستطيع اليوم ان نصفه بأنه نبي الواقع الاسرائيلي المعاصر كانت حياته ووجوده خليط من الدعاية والدعوة اكثر من ان تكون قيادة سياسية بالمعنى التقليدي. فهو يتنقل بين جنوب افريقيا وامريكا

---

(٧) دراسة العمل الدعائي في تاريخ الحضارة الانسانية لايزال حتى هذه اللحظة موضع عدم الاهتمام من الفقه العربي. رغم ذلك انظر فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، ١٩٧٠، ص ٢٢٣ ومابعدها.

(٨) نفس المرجع السابق ذكره، ص ٢٣٢ ومابعدها.

(٩) قارن LEWIS, Islamic concepts of revolution, in VATIKIOTIS, Revolution in the middle east, 1972, P. 30.

(١٠) انظر ايضا ملاحظات: SHABAN, The Abbasid revolution, 1970, P. 138.

(١١) حامد ربيع، دراسات اساسية حول الصهيونية واسرائيل، ١٩٧٣، ص ١١ ومابعدها.

الشمالية للقيام بحملات دعائية. وهو يدير الصحافة العبرية من القسطنطينية. ويجعل من الاعلام المكتوب اداته لخلق حركة الاقتناع والايمان مع الاقلية اليهودية الضخمة في تلك المنطقة. وهو يخلق الشعارات ويحاول ان يقرب نموذجه بتلك الصور العزيزة على تقاليد تلك الفترة كغاريبالدي في ايطاليا وابراهام لنكولن في امريكا وجلادستون في بريطانيا العظمى[12]. ورغم ان جابوتنسكي لم تقدر له الظروف النجاح الحقيقي في حياته الا ان اسرائيل التي نعاصرها اليوم تسعى بثبات نحو تنفيذ تعاليمه: لقد طالب بانشاء الدولة العبرية منذ بداية القرن، وطالب بأن تكون حدودها ممتدة لتشمل سيناء وشرق الاردن، ونادي بالعنف والاستئصال كأداة من ادوات الحركة. سوف نرى ايضا فيما بعد ان الامثلة عديدة الى جوار هذين الاسمين: سيلفر ونويمان ولوين ليست الا بعض الاسماء التي سوف تتردد بثبات في تاريخ الحركة الصهيونية[13].

ظل العالم العربي متناسيا هذه الحقيقة اي اهمية التعامل النفسي حتى ايقظته هزيمة عام ١٩٦٧. استيقظ العالم العربي فجأة في اعقاب حرب الايام الستة ليكتشف ان احد ابعاد الصراع العربي الاسرائيلي هو الناحية النفسية، ومنذ تلك اللحظة بدأت تتطرق الى مفاهيمنا كلمة الحرب النفسية وتتناولها الأقلام بثبات واضطراد، ولكن هل فهم المسؤولون لدينا وهل استطاعت الهزيمة وما سبقها من احداث وما تلاها من وقائع ان تدفعنا بأن نواجه ما تفرضه هذه العملية من جدية معينة وتخطيط واضح اساسه الفهم الحقيقي لطبيعتها؟ سؤال الاجابة عليه في حاجة الى دراسة متعددة الابعاد[14].

٢- عملية التسميم السياسي والتخطيط الاسرائيلي لأدارة الصراع في منطقة الشرق الاوسط

قبل ان نتطرق لتناول مدى اهتمام الجانب الاخر بابعاد التعامل النفسي وباستغلال هذا السلاح كأحد الادوات الاساسية لتحقيق اهدافها في المنطقة علينا ان نتذكر مسؤليتنا الحقيقية بهذا الخصوص[15].

لقد سبق ورأينا كيف ان تقاليدنا التاريخية تفرض علينا الاهتمام بالنواحي النفسية والدعائية وان متابعة تاريخنا الحضاري كانت في ذاتها كافية بان تفتح لنا الطريق الذي كان من الممكن ان يسمح لنا بتجنب الاخطاء. بل ان هذا التراث هو الذي استطاعت من خلاله الحركة الصهيونية ان توصل بعض عناصر منطقها الحركي في التعامل والتفاعل وان تجعل منه منطلقها في عملية الاستحواذ على القوى المحركة لدعوتها العقيدية[16].

---

(١٢).
LAQUEUR, A history of zionism, 1972, P. 38.

(١٣) انظر فيما بعد المبحث الاول من الفصل الاول، فقرة ٩ ومابعدها.

(١٤) قارن حامد ربيع، فلسفة الدعاية الاسرائيلية، ١٩٧٠ ص ١٣ ومابعدها.

(١٥) من بين الدراسات التي ازدهرت في الفترة الاخيرة تلك التي يعبر عنها الفقه بكلمة ادارة الصراع او management conflict واحد المفاهيم الاساسية التي تنطلق منها هذه الدراسات هو فكرة الذاتية في التحديد بعناصر الموقف الذي نستطيع من خلال التلاعب بها ان نتحكم في توجيه الصراع باسلوب معين. وهذا يعني ان اي دراسة لاتنبع من الواقع الذاتي عقب تحديد واضح لاهداف الامن القومي المحلي لايمكن ان تؤدي وظيفتها كمنطلق نظري لترشيد القائد السياسي او مستشاريه. رغم ذلك فاي دراسة او اهتمام من جانب المسؤولين على المستوى المصري المحلي او القومي العربي لم يقدر لها حتى هذه اللحظة الوجود انظر ايضا ملاحظات هونسني، م.س.ذ.، ص ٨ من المقدمة ومابعدها.

(١٦) والخلاصة ان الحركة الصهيونية جمعت في انطلاقاتها المختلفة خلال النصف الثاني من القرن العشرين بين تقاليد الدعوة الاسلامية وخبرات الدعاية الفرنسية بعد ان طعمت كل ذلك باساليب الضغط والاكراه المعنوي كما قدمتها النظم النازية والفاشية انظر ايضا GIVET, La gauche contre Israel? 1968,.132.

فأول ما نلاحظه ان المنطقة عرفت صورة من صور القتال المعنوي باسم حرب الموجات قبل وجود اسرائيل بعدة اعوام وعلى وجه الخصوص خلال حرب النفوذ بين دول المحور والدول المتحالفة اثناء الحرب العالمية الثانية. فابتداء من عام ١٩٣٠ اتجهت ايطاليا الى نشر دعايتها الاذاعية في المنطقة وعقب ان وصل «شيانو» الى وزارة الاعلام والدعاية اضحت اللغة العربية هي اداة موسوليني لخلق الترابط مع بعض الفئات الثائرة على وجه الخصوص في مصر. وسرعان ماتقدمه هتلر بعد ان استطاع جوبلز ان يؤسس جهازا متكاملا للحرب النفسية بدأ يلقي بموجاته في المنطقة منذ عام ١٩٣٣. ورغم ان العالم الغربي ظل مترددا بحكم تقاليده في ان يشترك في هذه الحرب الاذاعية الا انه ابتداءا من عام ١٩٣٧ فان محطة الاذاعة البريطانية راحت بدورها تشن برنامجا باللغة العربية متجها الى المنطقة محاولا ان يعيد التوازن ازاء الهجوم الايطالي الالماني. عقب ازمة ميونخ لم تعد دولة من الدول الكبرى لاتعرف موجة بالاذاعة العربية تسعى الى خلق الاعوان والانصار في منطقة الشرق الاوسط. حتى اليابان كانت لها موجتها. الولايات المتحدة كانت اخر الدول الكبرى التي تنضم الى هذه الحرب الاعلامية. على انه قبل ان تبدأ حرب الموجات عرفت المنطقة بدورها حربا من نوع اخر اعلامية ايضا من خلال الكلمة المكتوبة.

فاين كان العالم العربي في تلك الفترة؟ حرب محلية بين قوى خارجية دون ان تشترك فيها باسلوب او باخر تلك القوى الذاتية التي تمثل الطرف الاصيل في صراع الكلمة. نموذج متميز لم يعرفه التاريخ المعاصر: فحتى منطقة الشرق الاقصى التي عاصرت نموذجا اخر من نماذج هذا الصراع المعنوي في نفس تلك الفترة تجد من بين اطراف القوى المتقاتلة القوى المحلية. اليابان من جانب والصين من جانب اخر. كل منها باهداف مستقلة ووسائل متميزة لم يترك الصراع دون ان يتدخل فيه بارادته الذاتيه [١٨].

هل معنى ذلك ان الدول العربية او الحكومات المسئولة خلال تلك الفترة لم تكن تعرف اهمية الحرب النفسية في تلك المنطقة؟

جميع النظم العربية ومنذ الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية لم تكن تجهل اهمية التعامل النفسي في العلاقة بين المواطن والدولة ولكنها كانت تجهل ان احد اهدافها هو خلق التراص والتكتل حول السلطة بمعنى خلق صورة من صور التماسك الكلي لأجزاء الجسد السياسي حول القيادة كرمز وعلامة التكتل القومي ([١٨] مكرر) ومن ثم فقد كانت تقيم بنيانا حول الاتصال المحلي وتخضعه للرقابة الدائمة والمنظمة. منطق المكتب السياسي هو الذي كان يسيطر على الطبقات المسئولة: ان الطبقات الحاكمة كانت تنظر الى المواطن بعدم ثقة [١٩] وكان لابد وان يعكس ذلك وجوده على سلوكها الاتصالي. يحدثنا المؤرخ لابيير خير من حلل مأساة عام ١٩٤٨ من خلال معايشة الوقائع ورغم تعاطفه مع القضية الصهيونية بان التاريخ لن يقدم لنا نموذجا اخر يماثل الذي قدمته الحكومات المسئولة في عام ١٩٤٨ بخصوص المأساة التي لانزال نعيش نتائجها. يقول المؤرخ السابق ذكره: «اجتمع اولئك الرجال ليقودوا امتهم الى الكارثة» فمنطقهم الفكري اقرب الى منطق الدول الغربية منه الى منطق العالم العربي [٢٠]. ليس فقط بحكم ثقافتهم ولابحكم مصالحهم بل ماهو اخطر من ذلك كنتيجة لعملية التسميم الفكري التي احدثتها في عقولهم تنشئتهم في جامعات

---

(١٧) LONDON, The making of foreign palicy, 1965, P. 262.

(١٨) MARHAM, Voice of the red giants, 1967, P. 269.

(١٩) FISHER, BASSIOUNI, Storm over the arab world, 1972, P. 31.

(٢٠) LAFFONT, Jerusalem, 1971, P. 308.

ومعاهد العالم الغربي. وهكذا تفاعلت في نفسياتهم عوامل متعددة من عدم الثقة في موطن العربي من جانب واحتقار الحركة اليهودية من جانب اخر. كل ذلك ماكان يمكن الا ان يؤدي الى عدم الاهتمام باي بعد من ابعاد التعامل النفسي الذي فرضته الحركة الصهيونية!

وهنا لانستطيع ان نترك هذه الفترة دون بعض التساؤلات: اين الكتاب والمفكرون العرب من الحركة الصهيونية خلال تلك الفترة؟ ان جابوتنسكي قبل ذلك بما لايقل عن خمسة عشر عاما وانطلاقا من القسطنطينية كان قد بدأ يعلن عن الوجه الحقيقي للحركة الصهيونية بل ولم يتردد في ان يقرر بصراحة ووضوح ان اساليب الحركة لايمكن ان تكون الا من خلال الاستئصال الجسدي والعضوي بجميع الوسائل للوجود العربي في المنطقة [21]. وقد يجيب البعض بان حركة جابوتنسكي كانت ضعيفة ولكن هذا تحايل على التاريخ. ان هذه الحركة استطاعت عندما قادت الانفصال عن المنظمة الصهيونية لتكون ماسمته المنظمة الصهيونية الجديدة في سبتمبر ١٩٣٥، استطاعت ان تجمع ثلاثة ارباع مليون من المؤيدين وهو عدد في تلك اللحظة يفوق ماكان ينتمي الى المنظمة السابقة. وابتداءا من عام ١٩٣٥ كان قد بدأ جابوتنسكي يضع اصول قواعد الهجرة الى فلسطين بل ويحدد عدد من يجب ان يستقر في تلك الارض خلال الفترة التي قدرها بخمسة عشر عاما والتي كان مقدرا لها ان تنتهي في عام ١٩٥٠ بمليون ونصف على الاقل. فماذا فعل الكتاب والمفكرون العرب بهذا الخصوص؟ اما كان جدير بهم ان يتناولوا على الاقل تلك الشعارات التي كانت قد بدات تغمر الفقه العالمي بالمناقشة والتحليل؟ الم يكن واجبهم ان يشعروا العالم العربي بحقيقة المخاطر التي كانت تنتظره؟ ان نفس الشعار الذي اطلقه هرتزل: «ارض دون شعب وشعب دون ارض» ماكان يستطيع ان يقف على قدميه ولو بشيء بسيط من التحليل [22]. القول بان المجتمع اليهودي هو شعب دون ارض يعني التسليم مقدما بانه لايكون مجتمعا قوميا، لأن الاقليم هو عنصر من عناصر ذلك المفهوم. فأين الفكر العربي وواجبه خلال تلك الفترة؟

واذا كنا نستطيع ان نجد بعض المبررات لتفسير هذا النقص او لتبرير هذا التخلف فكيف نستطيع ان نفسر موقف العالم العربي عقب احداث عام ١٩٤٨؟

ان الوكالة اليهودية التي فهمت بوضوح اهمية التعامل النفسي والتلاعب به منذ بداية الحركة الصهيونية لم تكن قد فهمته فقط بمعنى الدعاية والدعوة اي الحصول على التاييد وخلق الانصار وانما ايضا بمعنى تحطيم الخصم وخلق حالة الذعر الدائمة اي اتخاذ هذا التعامل منطلقا للحرب النفسية. تحدثنا جميع الوثائق التي تناولت بالتحليل والتفصيل دراسة الوقائع المختلفة المتعلقة بعام ١٩٤٨ بان الوكالة اليهودية انشأت ادارة نفسية ـ عسكرية خاصة عهدت اليها بعملية التنظيم العلمي لخلق حالة دائمة من الذعر الجماعي [23]. التفاصيل بهذا الخصوص عديدة ابتداءا من القتل والشنق والتدمير حتى عملية الابادة الجماعية.

«براشي» يقدم لنا نماذج مروعة لهذه الحقيقة ويذكرنا بانه من بين اكثر من ٦٠ الف عربي بمدينة حيفا لم يبق منهم عقب الصراع المعروف بتقدير «بجنة الاكونوميست» سوى اقل من خمسة الاف. بل ويتسائل البعض كيف استطاع هؤلاء ان يتجنبوا عمليات القتل والابادة الجماعية. ويحدثنا «كستيلر» عن تلك السيارات

---

(٢١) لاكوير، م.س.ذ.، ص ٣٧٤ ومابعدها. انظر المصادر الذي يحيل اليها الكاتب المذكور ص ٢٨٣.

(٢٢) قارن على سبيل المثال ما يكتب ايف انيوم وميدرس في معهد البحوث والدراسات العربية حافظ محمود، الاعلام العربي والاعلام الصهيوني، ١٩٧٣، ص ٤٣ ومابعدها.

(٢٣) BRACHE, Les surexilés, P. 17.

الضخمة التابعة للادارات النفسية اليهودية والمزودة بمكبرات للصوت وهي تسير في جميع انحاء الطرقات العربية خالقة حالة دائمة من الذعر الجماعي من خلال عملية ترديد مستمر بتهديدات وقصص عن اعتداءات داعية اهالي المنطقة الى الهرب للتخلص من امكانية الخضوع لمثل تلك التصرفات الوحشية. ويروي بعض شهود العيان بان هذه الاذاعات الصادرة من تلك السيارات كانت تلقي باللغة العربية وبلهجة اهل المنطقة حتى ان الكثير ظن عن ثقة بانها صادرة من القوى الصديقة وليست من الاعداء المتربصين [24].

ولم تقتصر عملية التهديد وخلق حالة الذعر على تلك الاذاعات المحلية الصادرة من مكبرات الصوت المتنقلة اذ لجأت القيادة العسكرية الى الالقاء بالمنشورات الداعية للشعب العربي للهجرة من المنطقة لتجنب نتائج الحرب والصراع الجسدي بما يعنيه من وحشية وعدم رحمة. في ١٤ مايو القي منشور بعنوان انذار للسكان في منطقة الخليل جاء فيه: انني اعلن في هذا التصريح ان كل اولئك الذين لايريدون هذه الحرب عليهم ان يغادروا المنطقة مع نسائهم واطفالهم ليضعوا انفسهم في مكان امين.

ان هذه الحرب سوف تكون وحشية ولن تعرف «الرحمة ولا الشفقة». وعندما كانت احدى القرى تتخذ موقف المقاومة وترفض تلك الدعوى كانت القوات الاسرائيلية تتسلل اثناء الليل وتحيط بالمكان ثم تقوم بتجميع الاهالي في الميدان العام بينما تتولى قوات «الهاجاناة» تدمير جميع المباني بالقرية [25]. وكان يحدث عند ذلك ان يفر الاهالي الى احد الاغوار القريبة فلايتردد الصهيونيون في ان يتوغلوا خلفهم ويقتلوهم عن بكرة ابيهم تاركين فقط واحدا او اثنين يدعوه يهرب الى القرية المجاورة، بحيث ينقل الصورة ويعد لخلق حالة الذعر بطريقة اكثر فاعلية واكثر قوة في احداث الاثر المصرب. في مدينة القدس ذاتها يحدثنا احد شهود العيان «ليفين» بان مكبرا للصوت كان يردد ليل نهار العبرة التالية «هذا لاترأفوا بنسائكم واولادكم، اخرجوا من بحر الدم قبل ١٦ مايو في الساعة الخامسة صباحا. غادروا المدينة من طريق الشرق لأنه سوف يكون مفتوحا امامكم واذا بقيتم فانكم سوف تجلبون التدمير لأنفسكم ولأسرتكم. لقد انذرناكم وعليكم تحمل المسؤولية». ويعلق على هذا «براشي» الكاتب السابق ذكره بقوله: «اتخذت جميع التدابير لخلق حالة من الرعب تدفع اهالي فلسطين لمغادرة مساكنهم ومحال اقامتهم دون ان يحملوا معهم اي شيء».

عملية الذعر نظمت بطريقة علمية من خلال حوادث القتل والقبض على الرهائن وخلق حالات الانفجار وسلب الاموال ونشر الاخبار الكاذبة بين العرب بصفة خاصة من خلال الاجهزة النفسية لسلاح «الهاجاناة». في بعض الاحيان كان يصدر اعلان بان هنالك وباء للكوليرا يأتي من الغرب وفي بعض الاحيان تطلق حملات كاذبة للتطعيم ضد التيفوس [26]. هذه العملية لم تترك حتى المستشفيات. في ١٥ مايو قتل طبيب عربي في داخل المستشفى من جانب زميله وصديقه الصهيوني اثناء قيامه بعملية جراحية. اكثر من مستشفى عربي واحد خضعت لحالة هجوم عنيف من جانب القوى اليهودية التي لم تترك مريضا او ممرضا او طبيبا دون ان تقضي عليه.

على ان خير نموذج يجب ان نسوقه بهذا الخصوص هو معركة دير ياسين. والواقع ان وقائع ذلك الحادث والتي استطاع ان يتحقق منها جميع المعلقين المحايدين تؤكد بوضوح حقائق متعددة:

اولاً: قدم مفهوم التخطيط النفسي للحركة السياسية في تاريخ الدعوة الصهيونية. فالثابت ان هذه المعركة لم يكن القصد منها مجرد انتصار حربي او عسكري وانما خلق حالة حقيقية من الذعر في المجتمع العربي في تلك

---

(٢٤) نفس المرجع السابق ذكره ص ٢٣ ومابعدها وبصفة خاصة تلك التي اوردها في الهامش رقم (١٠).

(٢٥) انظر تفاصيل اخرى منقولة عن احد شاهدي الحوادث المذكورة من الاوروبيين في نفس المرجع ص ٢٤.

(٢٦) ذكره ايضا المرجع السابق ذكره ص ٢١ ومابعدها. قارن الملاحظات الوردة ص ١٩، هامش رقم (٥) ومصادرها.

الفترة ودفعه من جانب الى مغادرة الارض العربية ولكن بصفة خاصة من جانب اخر تحقيق انتصار ضخم يؤكد نجاح الحركة الصهيونية المحلي ويعيد الى انصارها الثقة في انفسهم.

ثانيا: اضف الى ذلك ان هذه الحركة اثبتت انه رغم الخلاف بين الفرق الصهيونية الا انها في مواجهة الخصم العربي تتكتل في جسد واحد وتنسى جميع خلافاتها. اسم العملية ذاتها كان «الوحدة». ولكن هذا التكتيل كان ابعد من مجرد التسمية: فالمدافع التي استخدمت قدمتها منظمة «الارجون» والمتفجرات كانت تملكها جماعة «استرن»، اما البنادق فان الذي مول بها الحركة هو «الهاجاناة»[27]. وعندما انتهت العملية بالنجاح فان جميع الصهيونيين بما فيهم المعتدلين لم يقبلوا المناقشة للمسؤولية الحقيقة لاصحاب الحركة. وذلك رغم ان نفس اصدقاء الصهيونية من بين القادة الانجليز في المنطقة لم يترددوا في ان يصفوا معركة دير ياسين بانها تعبير عن ادنأ الخصائص التي يمكن ان يتصف بها جيش محارب.

ثالثا: الناحية الاخيرة التي تفرض علينا الاهتمام بحادث دير ياسين تدور حول اخطاء الدعاية العربية في تلك الفترة. عقب ان اعلنت التفاصيل واكدتها تقارير ممثلي سلطة الاحتلال البريطانية في المنطقة اذا بالاذاعة العربية والاعلام العربي تجعل من ذلك الحادث منطلقا في تضخيم جزئياته بمزيج من الخطابة العنيفة[28]. يقول المسؤولون عن ذلك ان الهدف كان هو تحريك الجماهير العربية خارج فلسطين للضغط على الحكومات بشأن الدخول في الحرب ضد القوى الصهيونية ولكن الذي حدث لم يكن سوى الصورة العكسية: ذلك ان العربي الذي كان يقيم في فلسطين عندما بدأ يسمع بتفاصيل الحادث من الاذاعة العربية وقد كانت تفاصيل مبالغ فيها وهي في ذاتها عنيفة، خضع لحالة من الرعب الجماعي يساعد عليه ان تلك الدعاية وذلك الاعلام لم يكن ينبع من اي تخطيط دعائي لخلق الثقة والتصميم على الكفاح. ماكان يمكن ان تكون النتيجة سوى تدفق حركة الهجرة نحو الشرق بقصد الابتعاد عن المذابح المتوقعة وهكذا الخلط بين الدعاية المحلية والدعاية الخارجية من جانب والدعاية والحرب النفسية من جانب اخر لم تكن له من نتيجة سوى ان تحقق الاهداف التي كانت تسعى الى تحقيقها الحركة الصهيونية.

لانريد في هذا الخصوص ان نعيد الى الذهن وقائع حادث ديرياسين ولا تفاصيله[29]. ولكن الامر الذي يدعونا الى الدهشة والتساؤل: الم يكن ذلك الحادث وحده كافيا لان يجعل الحكومات المسؤولة والسلطات المختصة تعيد التفكير في موقفها من موضوع الحرب النفسية وابعاده المتعددة؟.

ان واقعة دير ياسين ليست الوحيدة ولكن رغم ذلك فان العالمالعربي لم يستيقظ الا عقب ذلك التاريخ بقرابة عشرين عاما.

ولكن هل استيقظ حقا؟.

---

(٢٧) التفاصيل اوردها لابيير، م. س. ذ.، ص ٢٧٩ ومابعدها.

(٢٨) ذكره ايضا نفس المرجع السابق ذكره ص ٢٩٥.

(٢٩) انظر بعض الوثائق في: HADAWI, Crime no Punishment, 1972, P. 55.

٣ ـ الحرب الباردة والصراع بين الدول التقدمية والنظم التقليدية في العالم العربي:

على ان المأساة الحقيقية ان الدول العربية عندما استيقظت وفهمت ان هناك مايسمى بالحرب الدعائية اذا بتلك الحرب تصير لامظهر من مظاهر القتال المصيري الذي يسيطر على المنطقة ويجعل طرفي الصراع هما اساسا العدو الاسرائيلي الذي يمثل رأس الحربه المتقدمة للصهيونية المتحالفة مع القوى الرأسمالية والاستعمارية (٣٠)، من جانب والامة العربية بكاملها من جانب اخر وانما اذا بهذه الحرب تخلف العلاقة بين دول المنطقة لتجعل القوى العربية واذا بها قد انقسمت بين دول تقدمية واخرى تقليدية، بل واذا بهذا الصراع النفسي يتغلغل في داخل تلك الدول ليفصل بين مايسمى بالقوى الرجعية والقوى اليسارية. الحرب الباردة اضحت بهذا المعنى صراعا دعائيا في معنيين: حرب نفسية بين مجموعات من النظم السياسية من جانب ثم حرب مدنية بين قوى سياسية داخلية من جانب اخر.

ويكفي ان نذكر على سبيل المثال الحرب الباردة التي خلقتها عملية الاستغلال البترولي والتي ارتفعت الى اقصاها عقب انشاء المنظمة العربية المصدرة للبترول. ساهمت في اشعالها هزيمة ١٩٦٧ من جانب وما انفقته الشركات البترولية من جانب اخر مستندة في هذا الى تلك العناصر المحلية المنتفعة والتي ما كان يمكن ان تتخذ الا موقف التخاذل ازاء القضية وهي تعرف ان مصيرها مرهون باستمرار ذلك النفوذ الاجنبي(٣١). وبلغت تلك الحرب الى حد الدفاع عن بعض المواقف التي ماكان يمكن ان توصف الا بالمواقف المبتذلة. ويكفي ان نتذكر موقف الدول التقليدية من دخول العراق في المنظمة في الاعوام الاخيرة. بل ان العودة الى نفس نصوص الاتفاقية المنشأة لتلك المنظمة يدعو للتساؤ ل. وكل من يعود الى التصريحات المشهورة الصادرة من وزراء البترول حول استخدام هذا السلاح كاداة ضد العدوان الاسرائيلي يستطيع ان يكشف من خلال التناقضات والتأويلات والغمزات ابعاد الصراع النفسي بين الدول البترولية التقليدية والدول الاخرى وبصفة خاصة ابتداءا من صيف عام ١٩٦٩ (٣١مكرر).

ليس هذا موضع تحليل السياسة البترولية ولا كيف اضحت هذه الناحية من نواحي النشاط تكون احد المتغيرات الاساسية في الحرب الاعلامية والدعائية التي لا تزال تعيشها المنطقة. ولكن السؤ ال الذي يفرض نفسه: الى متى تظل الجهودالاعلامية والدعائية في هذه المنطقة (٣٢) تتجه الى الصراع الداخلي والمحلي دون ان توحد قواها لمواجهة العدو الحقيقي وهو التواجد العبري؟ واين جامعة الدول العربية من كل ذلك؟ هل تقتصر على ان تقف موقف المتفرج، ام ان عليها واجب ايجابي وهو ان تأخذ زمام المبادرة في محاولة توحيد الجهود وخلق اسلوب المواجهة؟.

ان الاطار العام الذي يسيطر على الاضطراب في المنطقة يعكس نفسه بشكل واضح ايضا في ابعاد الحرب النفسية. لم تستطع حتى هذه اللحظة الجهود العربية ان ترتفع الى مستوى القدرة الحقيقية بحيث تفهم حقيقة التعامل النفسي كأحد عناصر الحركة السياسية التي راحت تتبلور من خلال الصدام العربي الاسرائيلي في منطقة الشرق الاوسط خلال ربع قرن من الزمان(٣٣).

---

(٣٠) حامد ربيع، البترول العربي واستراتيجية تحرير الارض المحتلة. ١٩٧١، ص ٢٠٨ وما بعدها.

(٣١) انظر التفاصيل في حامد ربيع، التعاون العربيوالسياسة البترولية. ١٩٧١، ص ٣٥،وما بعدها

(٣٢) قارن ملاحظات زميل في رسالته المقدمة الى جامعة كاليفورنيا عن الدعاية العربية في الولايات المتحدة والتي سوف نحيل اليها فيما بعد ص ٩٨ ومابعدها.

(٣٣) DOUGLAS-HOME, The Arabs and Israel, 1968, P. 26.

اولا: يتجلى ذلك في عدم فهم ابعاد المعركة والتحدي. فالمعركة ليست مجرد اقتطاع جزء من الارض والتحدي ليس مجرد مشكلة منع العالم العربي من تحقيق وحدته وانما هي اكثر من ذلك: السعي نحو تفتيت الحضارة العربية والقضاء على اي ذاتية مستقلة للوجود العربي كمفهوم مجرد للسلوك وللحياة. ان عملية التسميم المعنوي التي بدأت تشنها اسرائيل بدقة وصبر ونجاح لاتتجه الى مجرد تفتيت الارادة القتالية وانما تسعى الى الاستيعاب الكلي والكامل للوجود الحضاري في تلك المنطقة. فعقب ان خلقت اصدقاء المساندة الخارجية ومكنت نفسها من بناء قنوات الاتصال المحلية بدأت منذ عامين على الاقل تسير في هجوم كلي شامل اساسه السعي نحو تحقيق ابعاد ثلاثة متكاملة، كل منها يندرج في الاخرى ويعبد لها: ارادة تريد ان تحطمها وخصم تريد ان تحتويه، ثم حضارة تريد ان تفتت مقوماتها تمهيدا لعملية الابتلاع الكلية الشاملة مع ما يعنيه ذلك من الاستئصال الجذري للوجود الحضاري العربي[34].

ثانيا: من جانب اخرعدم القدرة على قياس موازين القوى. فالحرب الباردة ليست هي عملية التسميم السياسي. والدعاية ليست هي الدعوة، وغسيل المخ ليس مجرد عملية الاتصال الاعلامي، وكل ذلك يرتبط بحقيقة موازين القوى الداخلية الذاتية والخارجية او الدولية. ان الصراع العربي الاسرائيلي يفرض ان تكون ابعاده النفسية مرتبطة ومتحدة فقط بمقومات الوجود الذاتي والمحلي[35]. على العكس من ذلك سبق ان راينا ان الحرب الباردة الايديولوجية سيطرت حتى هذه اللحظة ولاتزال تسيطر على الابعاد النفسية لذلك الصراع. بل ويمكن القول ان احد مظاهر النجاح في السياسة الخارجية الامريكية انها قادت المنطقة بلا وعي الى ان تخلط بين صراعها الذاتي والصراع النفسي العالمي الذي كثيرا مايسمى بحرب الايديولوجيات ولكنه من حيث حقيقته لاموضع له في الصراع العربي الاسرائيلي. وليس ادل على ذلك انه في الوقت الذي اضحى فيه هذا الصراع احد عناصر الخلاف بين القوى العربية، فان هذا الصراع الايديولوجي لم يتدخل ولم يستطع ان يكون احد المتغيرات في الخلاف الداخلي في العلاقات بين القوى السياسية في داخل المجتمع الاسرائيلي ذاته[36].

ثالثا: وتبرز هذه الحقيقة اكثر وضوحا عندما نتذكر كيف ان البلاد العربية لم تستطع حتى هذه اللحظة ان تفهم ادوات الحركة المتاحة لها بخصوص الصراع النفسي. ويكفي ان نتذكر بعض المظاهر:

(أ) الخلط بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي.
(ب) السطحية في العملية الاعلامية.
(جـ) عدم اعطاء العمل الدعائي والاعلامي وزنه الحقيقي.
(د) تشتت الجهود بين جامعة الدول العربية من جانب والدول العربية من جانب اخر.
(هـ) اتخاذ موقف الدفاع دون اي مبادرة لاتخاذ موقف الهجوم في عملية التعامل.
(و) الاغفال الكلي للابعاد الحضارية في عملية الاتصال الدولي.
(ز) عدم الشعور بحقيقة عملية التسميم السياسي الذي يتستر خلف حديث السلام والتهدئة القتالية في المنطقة.

---

(٣٤) انظر الحوادث بتاريخ ١٩٧٣/٦/٢٢. وقارن ايضا الحوادث بتاريخ ١٩٧٣/٢/٢٩. وكذلك بتاريخ ١٩٧٣/٥/٤. وانظر على وجه الخصوص عدد /١٩٧٣/٢.
(٣٥) قارن الحوادث بتاريخ ١٩٧٢/١٠/٦.
(٣٦) انظر حامد ربيع، من يحكم في تل ابيب؟ ١٩٧٥، ص ١٦٩ ومابعدها

٤ ـ الاطار الفكري للتحليل، موجز واحالة، تقسيم الدراسة:

الحرب النفسية اضحت اليوم احد المظاهر الثابتة والمرتبطة بالصراع الدولي في جميع ابعاده، فهي اولا بديل للصراع الجسدي وهي ثانيا تنظيم للعنف في صورة معينة وهي ثالثا اداة من ادوات تنفيذ السياسة الخارجية[٣٨].

قد يبدو للوهلة الاولى ان الحديث عن السلام والتعايش السلمي لابد وان يقود المجتمع المعاصر الى حالة من حالات الاسترخاء التي تعني وضع حد للحرب النفسية والتقييد من بدائلها. على ان الواقع ان هذا غير صحيح: فالتعايش السلمي قد يعني اعادة تنظيم العلاقات الاقتصادية على اساس التعاون والتعامل وقد يضع حدا للصراع الجسدي والقتال العضوي. ولكنه لايتناول في اي من ابعاده التصادم الايديولوجي. ان التعايش بين موسكو وواشنطن لم يؤثر على حقيقة الفرقة والخلاف على التصور العقيدي للحركة السياسية وابعادها والوجود السياسي وخصائصه بل انه زاد من تأكيد ذلك الصراع الايديولوجي. ولكن الامر الجديد هو انه غلف الصراع الأيديولوجي كنتيجة للتعايش السلمي باساليب جديدة للقتال اكثر تطويعا واكثر تعبيرا عن علاقات التعايش .وهذاالاساليب تدور حول منطلق واحد: الانفتاح بين الحدود ادى الى تحطيم الحواجز الخاصة بامكانيات التسلل الداخلي. ان التعايش السلمي يعني في حقيقته صراع حضاري اساسه محاولة احتواء المجتمع الاخر من خلال عمليات الاستيعاب الفردية وخلق بؤرة التفتيت الذاتية. واذا كان اليوم يتحدث المنظرون للحركة السياسية عن امكانيات غرس القيم الجديدة في المجتمع الشيوعي من خلال التسلل الاقتصادي وتمكين التطور نحو المجتمع الاستهلاكي اي البرجوازي، واذا كان المنظرون للحركة الشيوعية يتناولون بالتفاؤل القدرات الايجابية لليسار الجديد ولحركات التمرد المحلية في المجتمع الامريكي، فان هذا لا يعني سوى تصوير جزئي لحقيقة الصدام الذي يفرض التعايش السلمي: صدام حضاري وايديولوجي، استمرار للعنف من خلال القتال المعنوي مغلف باسم جديد ليس هو الحرب النفسية ولكنه في حقيقته لابد وان ينتهي بنفس نتيجة الحرب النفسية وهي الهجوم والقضاء على ارادة التميز الحضاري، قد يسمي بالتسميم السياسي ولكنه في حقيقته لايعدو ان يكون تطبيقا اخر من تطبيقات الحرب النفسية.

وما كان يمكن ايضا الا ان تعكس هذه الحقيقة نفسها في الصراع المرتبط بمنطقة الشرق الاوسط. بل ان الحوادث التي نعاصرها والتي تبدو في بعض الاحيان اقرب الى الخيال منها الى الواقع والتي رغم ذلك تعد لمرحلة ابعادها قد بدأت تتبلور في تاريخنا المعاصر تفرض علينا ان نواجه هذه المشكلة باسلوب يختلف عما تعودناه حتى هذه اللحظة. ان السلام كالقتال في حاجة الى استراتيجية. ويجمع علماء وخبراء العلاقات الدولية على ان عملية صنع السلام لها ايضا مخاطرها بل وان مخاطرها اشد عمقا واكثر فتكا من مخاطر القتال. يخبرنا العالم الامريكي بيبي بدن عملية صنع السلام فن معقد في حاجة الى قدرات تختلف عن قدرات المقاتل وقائد الصراع العضوي. ويكفي تأكيدا لهذه الحقيقة ان نتذكر بعض النماذج: في نهاية الحرب العالمية الاولى الكبار الاربعة الذين قدر لهم ان يخططوا للعالم الغربي في اعقاب الصراع الدموي انتهوا جميعهم الى الفشل في حياتهم السياسية. لقد نجحوا جميعا كقادة من خلال تكتيل القوى في عملية الصراع العضوي ولكنهم فشلوا في قيادة شعوبهم نحو السلام في معناه الحقيقي. واذا كنا لانريد في هذه العجالة ان نلقي بنفسنا في تأصيلات

---

(٣٧) قارن الفصل الثاني من هذا المؤلف وعلى وجه الخصوص المبحث الثالث.

(٣٨) ELLUL, Histiore de la propagande, 1967, P. 109.

لانزال بعيدة عن التأصيل العلمي المتكامل فلنتذكر بعض الملاحظات،اولها انه لايوجد سلام دائم، المثل الروسي يقول: السلام الابدي يظل فقط حتى العالم التالي. كذلك علينا ان نسلم بصحة هذا المبدأ المطلق وهو ان السلام يعني الشجاعة لتقبل الخوف. وبهذا المعنى استراتيجيته تختلف لان القتال يعني القدرة على المغامرة. على ان هذا لايعني من جانب ثالث انه لاتوجد علاقة بين القتال والسلام: لاتوجد امة تستطيع ان تنجح من خلال السلام اذا كانت قد فقدت النصر ولو جزئيا في ميدان المعركة.

لقد سبق ان رأينا كيف ان العالم العربي لم يهتم بهذه النواحي حتى هذه اللحظة ولايزال يقف منها موقف التراخي وعدم العناية. لو القينا على العكس من ذلك ببصرنا عبر خطوط القتال لوجدنا نظرة اخرى تختلف كليا عن موقف القيادة العربية. التعامل النفسي يبرز في الحركة الصهيونية ليس فقط على انه مرتبط بالقتال العسكري يعدله ويتابعه بل على انه بديل لنفس الصراع العضوي. وهذا سبق وذكرناه، ولكن الظاهرة الاكثر من ذلك خطورة والتي بدأت تبرز واضحة في الاعوام الاخيرة هي ان التعامل النفسي لم يعد يفهم على انه مجرد ارهاق للخصم، فالخصم كما نعلم مرهق فعلا وانما بمعنى تنظيم مخطط لعملية تسميم سياسي[٣٩]. التسميم السياسي الذي يقصد به زرع حقائق فكرية في منطق الخصم فاذا به يسير في طريق لابد وان يقوده الى الخراب هو المحور الذي اضحت تدور حوله اليوم عملية التعامل النفسي من جانب القوى الصهيونية. ومن ثم تبرز نتائج واضحة لا يمكن تفسيرها الا من خلال العودة الى حقيقة ومحور الهجوم النفسي الذي تشنه القوى المعادية بنجاح وذكاء. ان هذا التسميم الذي ارتفع الى قمته عقب ايقاف اطلاق النار في اكتوبر من العام الماضي يعود في حقيقته الى الفترة السابقة مباشرة على هزيمة الايام الستة. واذا كنا لانريد في هذه المقدمة السريعة سوى التحديد بعناصر تخطيطنا لاهداف هذه الدراسة والتركيز على المحور الاساسي الذي تنبع منه مادة البحث، فان هذا لايمنع من ان نتذكر حقيقة التطور العام الذي اصاب المنطقة.

حرب الايام الستة نجحت لان القيادة الاسرائيلية استطاعت ان تقنع جمال عبدالناصر من خلال اساليب متعددة بانها غير قادرة على اتخاذ القرار وغير صالحة لمواجهة الموقف لما يفترضه من شجاعة وحزم وثبات. وبينما كان اشكول امام الاذاعة الاسرائيلية يضطرب اضطرابا واضحا خالقا نوعا من اليأس في المجتمع الاسرائيلي وبينما كانت الدعاية الاسرائيلية قد تركت الانباء تتسرب عن تفكك في العلاقة بين الطبقة الحاكمة وعن عدم ثقة في القائد من جانب القيادة وفي القيادة من جانب الطبقات المحكومة وفي القيادات الحزبية من جانب اعضاء الحزب كانت النخبة تخطط بدهاء وثقة وصبر في اعداد الرأي العام العالمي من جانب واعداد القوى المساندة من جانب اخر واعداد الاداة القتالية من جانب ثالث لتتحرك نحو هدف واحد ثابت مستقر. على ان هذا يدخل في نطاق الحرب النفسية في اوسع معانيها. ولكن التطورات اللاحقة باجمعها تفصح عن ان القيادة الاسرائيلية سارت في خط واضح: من جانب تمكين الجسد الداخلي من التماسك ومن جانب اخر تسميم العالم العربي. هذه العملية بلغت اقصاها عندما بدأت القوات الاسرائيلية تخرج متلصصة تارة، علنية تارة اخرى لتضرب وبعنف اي قوة تحيط بها تخرج على تعاليمها. وسواء حققت ذلك بادواتها الذاتية او من خلال تعاملها مع العملاء والقيادات المحلية، فهي دائما ناجحة غازية لانها تفرض السلم العبري في المنطقة. ويأتي فصل حرب اكتوبر عام ١٩٧٣. لاندري اين الحقيقة؟ هل هو بناء على تخطيط مسبق تفاعلت فيه الارادات المختلفة نحو الاستسلام وتقديم مسرحية بعض فصولها يبكي وبعضها الاخر يضحك؟ ام انها انتفاضة عربية صافية اكرهت الجميع على ان يسلم بوجود القوة الذاتية وعلى ان هذه القوة الذاتية ليست فقط جندي شجاع وانما هي ايضا ارادة حاكمة؟ ام انها خليط من هذا؟ وذاك؟ لاتعنينا جميع هذه التصورات والتساؤلات ولكن

---

(٣٩) نورد، م. س. ذ.، ص ٣٥٧

الامر الذي يجب ان نقف امامه بالكثير من التأمل، هو حقيقة التسرب وخلق الثغرة كعملية نفسية اكثر منها سياسية انتهت لوضح الافتراض المطلق بان معركة اكتوبر الاولى كانت ارادة عربية خالصة الى نوع من الاستسلام المعنوي من جانب القيادات العربية. حديث السلام والتعايش الذي بدأت تطلقه الدعاية الاسرائيلية منذ عام ١٩٧٠ بل وتخطط له في نظامها الداخلي واوضاعها الاتصالية المرتبطة بعلاقة القيادة الاسرائيلية بالاراضي المحتلة ليس بالجديد. ولكن الجديد الذي يجب ان يدعونا الى مراجعة قاسية هو ان هذه العملية لاول مرة تأخذ صورة العلاقة المباشرة مع الحكومات التقدمية الثورية بلا حياء.
كل هذا يفرض تساؤلات:

أ) فعملية التسميم السياسي تتجه في تحرك كلي نحو تحطيم القوى الحضارية التي تنتمي اليها هذه المنطقة. بعبارة اخرى لم يعد القصد من الهجوم النفسي مجرد اضعاف الارادة المقاتلة وانما اضحى اكثر اتساعا: خلق عدم الثقة في التاريخ باثبات عدم الاصالة، تعميق حالة عدم الثقة في القيادة بتحطيم ارادة التحدي ثم تغيير في نظام القيم السائد والمرتبط بالاصول الحضارية الامر الذي لابد وان يؤدي الى خلق ارادة الفرقة[40].

ب) على ان فهم حقيقة عملية التسميم السياسي التي تعيشها الامة العربية خلال النصف الاول من عام ١٩٧٤ تفرض علينا ان نعود الى اكثر من عام قبل ذلك التاريخ، وذلك على وجه التحديد عندما بدأت حوادث الاعتداء المعروفة على زعماء المقاومة في بيروت وفي خارجها وما ارتبط بذلك من حادث الطائرة الليبية في سماء القاهرة. التعامل النفسي خلال تلك الفترة كان يتجه في بعدين متكاملين: حضاري وعسكري في ان واحد، او بعبارة اخرى اكثر دقة كان يجعل من الاعتداء العضوي محور تدور حوله وتنطلق منه عملية التسميم السياسي المعنوي. وهكذا يربط المخطط الاسرائيلي بين الاعتداء العضوي والتسميم السياسي بعلاقة دياليكتيكية مستمرة اساسها اتخاذ كل منهما منطلقا للهجوم نحو الثاني. حادث الطائرة الليبية لم يكن الا لتأكيد ان الارادة الاسرائيليه هي صاحبة الحق في الكلمة الاولى والاخيرة في مواجهة القوى الحاكمة[41]. حادث فردان لتذكير المواطن العربي بانه لم يعد يستطيع ان يحمي نفسه. وهكذا الواقعة الاولى هي منطلق لتثبيت الارادة الحاكمة والواقعة الثانية هي منطلق لتأكيد الشعور بالضياع والمهانة وعدم الطمأنينة. حادث ميونخ يعلن بان الارادة الاسرائيلية لاتقبل التراجع ولاتعرف الانحناء. زيارة جولدا مائير لايطاليا وفرنسا تؤكد هذا المعنى وهذه الدلالة في مفهوم اكثر اتساعا واكثر ارتباطا للتعامل مع القوى السياسية الدولية. في جميع هذه التطبيقات هناك علاقة مستمرة ومتواطة بين الواقعة والمفهوم العام للتعامل النفسي، بحيث تبرز الواقعة في صورة عقوبة او ردع وبحث تتم عملية ربط مستمر بين الصراع المحلي والصراع العالمي بمعنى اثبات ان من يؤدي هذه العملية اي الردع انما يفعل ذلك اثباتا لشرعية تواجده وحقه في التحدث باسم المنطقة لحماية النظام المثالي الذي سوف يمكن المنطقة من الانسجام في الاطار الدولي المتكامل[42]. وتأتي عقب ذلك عمليات التفاوض والجلوس على مائدة واحدة لتثبت ان هذه القوى المتصارعة المنتصرة اونة والمنهزمة اونة اخرى في كلا الجانبين عليها ان تنحني لصالح المنطقة. انها القيادة التي تعرف ان ارادة السلام تعني

---

(٤٠) الاصول بعيدة ومن الممكن ان نعيدها الى بداية القرن العشرين ابتداءا من محاولات انشاء وطن قومي لليهود في منطقة العريش التي كان يساندها بعض المسؤولين المصريين كما ذكرنا ذلك في حامد ربيع، عملية صنع القرار، جزء اول، م.س.ذ.، ص ٩٢ ومابعدها. ولكن انظر بصفة خاصة التحليل الذي يقدمه في تاريخ اكثر من هذا حداثة، علي محمد نظيف. اعوان اسرائيل في مصر، ١٩٥٥، ص ٢٢ مابعدها.
(٤١) انظر فيما بعد الفصل الثالث من هذه الدراسة، ص ٢٥٩ ومابعدها.
(٤٢) قارن TALMON, Israel among the nations, 1970, P. 74.

التضحيات. الم تحدثنا الخبرة عن ان السلام دون نصر خير من نصر دون سلام؟ الم تحدثنا الخبرة عن ان الغازي الفاتح يستطيع ان يحصل على الانتقام والاذلال او ان يتوصل الى الحلول العادلة، ولكنه لا يستطيع ان يحصل على كلاهما في وثيقة واحدة؟ وهكذا تكتمل ابعاد التسميم السياسي لا فقط محليا بل ودوليا. تفتيت للارادة المقاتلة. تفتيت في التواجد الدولي، تفتيت حضاري. هذا الاخير هو الذي سوف تصل اليه القيادة الاسرائيلية متفاعلة مع اهداف السياسة الخارجية الامريكية من خلال ماتسميه حديث السلام. وما فعلته الولايات المتحدة من اعادة ترويض الطابع القومي في اليابان وفي المانيا الغربية وفي تركيا سوف تفعله في العالم العربي.

هذه هي ابعاد واهداف الهجوم النفسي الذي تشنه اجهزة الدعاية الاسرائيلية. موت جمال عبدالناصر مع ما يعنيه من اختفاء الزعيم الصلب قدم لها المنطلق الذي لم تكن تتوقعه حركيا. انتفاضة اكتوبر كان من الممكن ان تقدم لنا بدورها منطلقا اخر لتحقيق عملية التفاف واسعة النطاق بقصد تقييد وايقاف الفيضان الدعائي الاسرائيلي. ولكن هذه العملية لم تحدث وسرعان ما استطاعت الارادة الاسرائيلية ان تطوع جسدها وسياستها الاعلامية لغزو المنطقة من خلال اسلوب اخر جديد ولكنه يسير في نفس الاتجاه ويسعى لنفس الاهداف. ان الحرب النفسية لها اطارها الفكري الذي يجب ان يكون واضحا ونحن نحاول فهم هذا الصراع الذي يغلف المنطقة تارة باسم القتال العسكري وتارة باسم حديث التعايش وخلق حالة السلام.
التعامل النفسي له درجاته وله مستوياته. واذا كنا لا نستطيع ان نتناول هذه النواحي بالتفصيل فعلينا ان نتذكر ان الحرب النفسية التي هي بديل للحرب الباردة ومكمل لها تتفاعل من خلال عمليات خمس مستقلة رغم ارتباطها متميزة رغم اختلاطها، نحو تحقيق هدف مزدوج: العمليات هي الدعاية والدعوة وغسيل المخ. والحرب الايديلوجية وحرب المعلومات. الاهداف هي بالتتابع تفتيت الوحدة الوطنية من جانب وتنظيم عملية التسميم السياسي من جانب اخر[٤٣]. وهذه المسالك والادوات تتنوع ولكنها تنبع جميعها من حقيقة واحدة وهي البحث عن خير المطارق التي تستطيع ان تصيب العقل الجماعي فاذا به يخضع لعمليةالانهيار النفسي والتخلي الكلي عن ارادة الصراع. خلق العملاء، الذي يعني خلق الطابور الخامس ليس الا نقطة البداية التي من خلالها تستطيع ان تنطلق مسالك التسميم. وهي عديدة: اطلاق الاشاعات بقصد بلبلة الافكار، عمليات التخريب لاحداث الاخلال بالامن، قتل الزعماء لخلق عدم الثقة، خلق الاضطرابات الاقتصادية لخلق الخوف من المستقبل، اختلاق الخيانات لتأكيد الشعور بالضياع ثم تأتي عمليات التجسس وتشجيع الثورات المحلية والدفاع عن الاقليات لتتوج عملية التفتيت الداخلي للتكتل القومي[٤٤].

صور متعددة للتعامل النفسي ودرجات مختلفة للحرب الباردة كل منها له موضعه وكل منها يرتبط بالاخرى بعلاقة التبعية والاعداد. ليس هذا موضع الدراسة التفصيلية لهذه النواحي ولابعادها من حيث التأصيل النظري، ولكننا من خلال مقارنة العمل العربي بالتقاليد الصهيونية سوف نثير هذا التساؤل: الا من سبيل لمقاومة هذا الغزو الجديد؟ هل الاختراق الاسرائيلي الذي تحقق عام ١٩٦٧ ورغم ذلك لم تستطع الارادة العبرية لا ان تنتزع الاعتراف بالشرعية ولا ان تحصل على استسلام القيادات ازاء الرفض العربي سوف يقدر له اليوم ورغم الهزيمة الجزئية ان يحصل على مالم يحققه في لحظات النصر الساحق؟ وهل سوف

(٤٣) تفتيت الوحدة الوطنية كاحد اهداف الحركة الصهيونية لايعود فقط الى الاعوام اللاحقة لعام ١٩٦٧ بل هو يمتد تاريخيا ابتداء من اوائل القرن وعلى وجه الخصوص منذ الحرب العالمية الثانية. انظر البيانات التي يقدمها لنا بهذا الشأن مع ملاحظة ان هذا الكاتب صهيوني متعصب الا انه يميل الى الحياد في تحليله التاريخي:
HALPERIN, The political world of american zionism, 1961, P. 278.

نعاصر في الاعوام القادمة غزوا اكثر عنفا واكثر خطورة ينتهي باحالة العالم العربي الى مجموعة من القبائل المتفرقة التي تنظم وقع خطاها على تعاليم واشنطن والشركات الكبرى الامريكية ومن خلفهما القوى الصهيونية؟ وهل سوف تتحول هذه المنطقة الى تركيا جديدة دون اي مقاومة او اي محاولة للدفاع عن النفس؟

ان الاجابة على جميع هذه التساؤلات تفترض معالجة حقيقة الغزو الاسرائيلي في صورته المعنوية والسعي نحو اكتشاق الاخطاء التي وقعت فيها الدعاية الاسرائيلية والتي نستطيع من خلالها ان نخترق هذا الحصار النفسي الذي سوف نعيشه لنرد هذا الفيضان على اعقابه او على الاقل نوقفه عند حده.

وهكذا تتحدد اهداف هذه الدراسة: فعقب تحليل لموجة الدعاية الاسرائيلية التي غلفت السياسة الخارجية الاسرائيلية عقب عام ١٩٦٧ سوف نتناول الاعلام العربي بالتساؤل: هل فهم واجبه في عملية المواجهة وكيف استطاع ان يؤدي وظيفته؟ وعقب دراسة كلا الجانبين كقوة مهاجمة وقوة مدافعة سوف نقف قليلا ازاء تقييم العمل الدعائي الاسرائيلي بقصد اكتشاف نواحي الخطأ او نواحي الضعف التي من الممكن من خلال استغلالها استغلالاً ذكيا القيام بهجوم مضاد يسمح بايقاف تلك الموجة.

وترتبط بعملية التقييم هذه ناحية التسميم السياسي[٤٥] التي تلقي بنا في ابعاد اكثر اتساعا من مجرد الصراع النفسي في منطقة الشرق الاوسط وتقودنا الى حقيقة عملية المواجهة الحضارية في ابعادها النفسية التي لاتتقيد زمانا ومكانا بذلك الصراع[٤٦].

اقسام متعددة نتناولها بالترتيب السابق.

على اننا قبل ان نلقي بانفسنا في متاهات هذه الدراسة علينا ان نتذكر كيف ان هذا الموضوع يرتبط ارتباطا وثيقا بدراسة الشخصية اليهودية[٤٧] من جانب والشخصية العربية من جانب اخر كمحور للتعامل وهدف للهجوم. واذا كان المكان لايسمح لنا بان نتناول هذه الناحية بالتفصيل فان هذا لايمنع ان نذكر القارىء بان الالمام بابعادها المختلفة ضرورة لازمة لفهم المنطلق الفكري لهذا التحليل.

---

(٤٥) ظاهرة التسميم السياسي لايزال لم يقدر لها بعد التأصيل العلمي الكافي. المرجع الاساسي سوف يظل مؤلف نورد السابق ذكره. انظر ايضا: MARTIN, Technique de la guerre occulte, 1963, P. 165.

(٤٦) تعلن مجموعة «الدوسيه العربي» التي تصدرها دار كوفاس الباريسية عن صدور عددين في سلسلة دراسات ووثائق بعنوان «التسميم» ولكننا لم نستطع العوثر عليهما، انظر براشي، م. س. ذ.، ص ١١٤.

(٤٧) دراسة الشخصية اليهودية كحقيقة سلوكية يثير الكثير من علامات الاستفهام والواقع ان نظرية الطابع القومي بصفة عامة اضحت اليوم احد المداخل الرئيسية للدراسة المكروكوزمية لظاهرة السلطة. اهمية هذه الدراسة تبدو بشكل خاص فيما يتعلق بعملية التنبؤ برد الفعل او على الاقل بناء وتخطيط السياسة الخارجية في شطرها المتعلق بالمواجهة المحتملة نتيجة اتخاذ قرار معين. على ان دراسة الطابع القومي اليهودي تثير مشاكل اخرى لاتعرفها الدراسات المعتادة في هذه الناحية. ودون دخول في التفاصيل المتعلقة بهذا الموضوع نلفت النظر الى بعض الملاحظات:

(أ) اول هذه الملاحظات تدو حول ابعاد دراسة الطابع القومي. فتحليل الطابع القومي يجب ان يخضع لقاعدتين: القاعدة الاولى وهي ان اي دراسة للطابع القومي لاتستند الى التحليل الميداني لا قيمة لها. مجرد الانطباعات لايمكن ان تقدم الاطار العلمي الكافي لفهم الظاهرة. القاعدة الثانية ان تعدد مسالك التحليل في ان واحد يسمح بتحقيق نتيجة مزدوجة. من جانب القاء الضوء من منافذ متعددة ومن جانب اخر خلق ادوات لضبط النتائج مستقلة عن مسالك الوصول للنتائج.

وهنا يستوقف النظر احد الابحاث التي نشرت بعنوان «تجسيد الوهم» لمركز الدراسات الاستراتيجية بمؤسسة الاهرام، سبق في غير هذا الموضع وابرزنا كيف ان الدراسات التي يقدمها ذلك المركز تتصف بالسطحية وفقدان الصفة العلمية فضلا عن سوء التوثيق مع افتراض حسن النية. انظر بخصوص الدراسة الاخرى بعنوان نهاية التاريخ حامد ربيع، عملية صنع القرار السياسي، م. س. ذ.، ص ١٦ ومابعدها. ايضا هذه الدراسة تعكس نفس الاخطاء ويكفي ان نلاحظ كيف انه في مقدمة الدراسة ص ٣١ ومابعدها عندما تعرض لاساليب تحليل الطابع القومي يخلط بين المنهاجية واسلوب التحليل من جانب ومادة التحليل من جانب

خر. ودون الدخول في تفاصيل بهذا الخصوص نحيل القاريء الى المصادر المتعلقة بهذا الموضوع في حامد ربيع، مقدمة العلوم السلوكية، ١٩٧٢، ص ١٨٢ ومابعدها، ناحية اخرى تمكس مدى سطحية الكاتب يعبر عنها في ص ١٤٧، عندما يزعم بان محاولات احياء اللغة العبرية لم تزدهر الا مع بروز الوجه السياسي للحركة الصهيونية. والغريب انه يرفض ملاحظات غسان كنفاني بهذا الخصوص دون اي محاولة جادة للعودة الى الاصول التاريخية او للدراسة الحقيقية التي تشعر بان صاحب هذه الملاحظات اطلع على اي مصادر تاريخية للحركة الصهيونية. ان الصهيونية السياسية ليست الا امتداد للصهيونية الثقافية والحضارية التي غمرت القرن التاسع عشر وانطلقت منذ الثورة الفرنسية. وقد تعرضنا لهذه الناحية في غير هذا المكان ونحن نتابع الاصول التاريخية للدعاية الصهيونية. وكل محاولة لفهم هرتزل وزملائه دون العودة على الاقل الى نصف القرن السابق والمحاولات الضخمة المتعلقة باعادة بناء الحضارة اليهودية او بعبارة اخرى اكثر دقة لمحاولات صبغ التقاليد اليهودية بالطابع الحضاري واعطائها ذلك الهيكل العام الذي يشعر اليهودي بانه لايختلف ولايقل عن المجتمعات الأخرى الاوروبية، لايمكن ان يؤدي الا الى عدم فهم حقيقة الصهيونية. ان الحركة الصهيونية لم تقم كما يزعم البعض نتيجة عدم فهم لاصولها التاريخية على فكرة التميز وانما قامت على فكرة التشبه. ولكنها في لحظة معينة عندما بدأت تتحدث عن الحق الالهي في القيادة وجدت ان هذا الحديث لايمكن ان يستند الا الى فكرة التميز. ولعل هذه الناحية تفسر بدورها نوعا من التناقض الداخلي في مقومات الحركة الصهيونية من حيث ابعادها الفكرية. فالصهيونية كقومية تريد ان تؤكد ان المجتمع اليهودي ليس اقل من اي مجتمع اوروبي اخر وبما في ذلك حقه في التكامل القومي. ولكنها كحركة عنصرية تسعى الى قيادة المنطقة عقب تكاملها في اطار نظامي باسم الدولة العبرية تقوم على اساس التميز الذي يعني الاتصاف بصفات معينة تعطي ذلك المجتمع حق القيادة وتجعله اسمى من المجتمعات الاخرى. والواقع ان فهم هذا التناقض ما كان يمكن ان يصل اليه المحلل الا اذا انطلق من المفاهيم السياسية في معناها الضيق. ولعل قراءة ارندت، حول اصول المفاهيم الشمولية، كانت تسمح باكتساب الدلالة الحقيقية لهذه المفاهيم. وهذا يقودنا الى الملاحظة العامة التي يجب ان نلفت اليها نظر الباحثين فيما يتعلق بتحليل الطابع القومي اليهودي: وهي ملاحظة تذكرنا بما سبق وفصلناه في غير هذا الموضع من مواجهة هذه المشاكل الكثير من السطحية ولعل نموذج اخر يفصح عن هذه الحقيقة ان نفس الكاتب السابق ذكره يخلط بين مفهوم الايديولوجية وفكرة الرأي العام، انظر ص ١٧٦ ومابعدها وقارن الدلالات التي يقدمها بخصوص مفهومه للايديولوجية من خلال ابحاث انتونوفسكي حول ما يسميه بالاتجاهات السياسية والتي لاتعدو في مجموعها ان تكون تعبيرات عن الرأي السياسي ومن ثم فهي لاتتطابق مع الفمهوم الحقيقي لمعنى كلمة ايديولوجية. وقد وقع في نفس الخطأ ايضا باحث اخر تناول ما اسماه «المفهوم الاسرائيلي للشخصية العربية» عندما تصور ان الادراك الذاتي لمشكلة معينة يعني الصورة القومية لمجتمع معين. وهو بدوره يعيش في تحليلاته على بعض الفقاعات التي يستشفها من خلال بعض الاسطر في بعض المؤلفات الاوروبية دون اي محاولة جادة للتعمق في دراساتها ولا لربط تلك الدراسات بالاصول العامة للمنهاجية ولا للتجرد من افكار دعائية تنطلق من ابواق اعدت لذلك بمنهاجية معينة لايستطيع ان يكتشفها الا المتخصص.

ARENDT. The origins of totalitarianism. 1966

ب) على ان الواقع ان الدراسة الجادة للطابع القومي اليهودي وللشخصية الاسرائيلية نحن في امس الحاجة اليها. والامر الذي لانستطيع ان ننكره هو ان الطابع القومي اليهودي يختلف عن الطابع القومي الاسرائيلي وان المجتمع اليهودي الذي يوجد اليوم في الارض الاسرائيلية يعبر عن طابع قومي يختلف اختلافا جذريا ورغم رابطة الاستمرارية التاريخية مع المجتمع اليهودي الذي وجد قبل انشاء الدولة الاسرائيلية. هذا الخلاف يتجلى في اكثر من ناحية واحدة: فعقب عقدة الاضطهاد قد حلت عقدة الشعور بالتفوق وكان من الطبيعي ان فكرة التشبه كما سبق ورأينا تحل محلها فكرة التميز او عقدة الاختيار. والامر الذي يجب ان نسلم به هو ان مظاهر التطور في الطابع القومي الاسرائيلي لو قورن بالطابع القومي اليهودي والتي تدعو للتساؤل عديدة. نستطيع ان نذكر بعضها: توحيد الجبهة العمالية. اختفاء الخلافات المتعلقة بالسياسة الخارجية. الاتجاه نحو الغاء الانتخاب على اساس فكرة التمثيل النسبي، تقبل فكرة مناقشة دستورية القوانين. جميعها اوضاع نظامية ما كان يمكن تصورها في المجتمع اليهودي السابق بل واللاحق مباشرة على انشاء اسرائيل وهي اليوم تمثل الركائز الحقيقية لخصائص المجمع العبري في الدولة الاسرائيلية. ولعله ليس مما يدعو للغرابة ان نسمع من يتحدث اليوم ويتساءل عما اذا كان مجتمع السابرا لم يعد يمثل اليهودي التقليدي وانما اضحى يعبر عن صورة جديدة من صور السلوك الاجتماعي والسياسي لاتختلف جذريا فقط مع التقاليد اليهودية بل تصل الى حد الاختلاف الجذري مع تقاليد المجتمع اليهودي في الدياسبرا ذاته. والخلاصة ان ظاهرة الطابع القومي بصفة عامة والشخصية اليهودية بصفة خاصة احد الابعاد الجديرة بالدراسة العميقة التي لابد وان تساهم في تصوراتنا وتوقعاتنا للسياسة الخارجية الاسرائيلية في الفترة المقبلة وانه بقدر الاهتمام بهذه النواحي بقدر مايمكن ان نتنبأ وان نتصور الابعاد المتعلقة بالتطور الداخلي والخارجي للوجود الاسرائيلي. على ان ذلك مقيد بالمقومات التي ابرزناها وهي التي تدور حول ضرورة الجدية في هذه الدراسات. ولنذكر على سبيل المثال الدراسة التي قام بها هاركابي بخصوص الاتجاهات العربية نحو اسرائيل. في تلك الدراسة ورغم انه يعلن مقدما ان اداته لم تكون سوى تحليل المضمون جعل مادة التحليل تتسع لتشمل حوالي مائتي مؤلف وكتاب اخضعها لما يسمى بمنهاجية تحليل المضمون قبل ان يغامر بتقديم تصوراته او توقعاته بخصوص امكانيات التطور الذاتي للمنطق العربي ازاء التواجد الاسرائيلي في المنطقه

HARKABI. Arab attitudes towarde Israel, 1972, P. 384.

الفصل الاول

تطور الدعاية الاسرائيلية
وحرب «الايام الستة»

خلاصة

تطور الدعاية الصهيونية ومراحلها ـ الدعوة وتقاليد الحركة الصهيونية: الثورة الفرنسية وانشاء دولة سرائيل. خصائص الدعاية الاسرائيلية منذ انتقال الحركة الى القارة الجديدة ـ الرواد الاوائل: نويمان، سيلفر، لوين عقدة الكراهية الذاتية ـ الدعاية الصهيونية وهزيمة ١٩٦٧: تطور المنطق الدعائي، اسلوب تجوقة، اسلوب الدعوة وموضعها من عملية الاتصال الخارجي ـ عقدة المسؤولية ـ الابعاد الهجومية منطق الدعائي الاسرائيلي ـ قانون ليبكن ـ ابعاد الحركة السياسية الاسرائيلية الاحتلال، الاستيعاب، نعودة ـ بين الاهداف الحركية والاهداف الدعائيه الدعاية الاسرائيلية عقب عام ١٩٦٧ وعودتها الى نتقاليد السابقة على عام ١٩٤٧.

٥ ـ التمييز بين الدعاية والدعوة في تقاليد الحركة الصهيونية:

علق احد المؤلفين على الدعاية الاسرائيلية بقوله: رغم ان الفن الدعائي لم يرتفع بعد ويتكامل ليصير علما حقيقيا الا ان متابعة الجهود الاسرائيلية بهذا الشأن كفيلة بأن تفتح لنا بابا واسعا لتأصيل علم الدعاية (١). فالخبرات العديدة التي قدر لاسرائيل ان تمر بها والنجاح المتعدد الأبعاد الذي قدر للعمل الدعائي الصادر عن الدولة العبرية ان يحققه كفيل بأن يقدم لنا حقلا للتجارب وميدانيا خصبا للملاحظة والمشاهدة قل ان نجد له مثيلا.

والواقع ان المتابعة التاريخية والتحليلة لتحديد العلاقة بين العمل الدعائي والصراع السياسي في تاريخ الحركة الصهيونية يسمح بتأكيد منطلقات معينة يجب ان تكون اساسا للتأصيل الفكري لعملية التفاعل النفسي بين المواطن والدولة.

---

(١) فن التخاطب النفسي اضحى اليوم علما حقيقيا يكون احد المظاهر الواضحة لذلك النجاح الذي استطاعت المدرسة السلوكية ن تحققه خلال الاعوام اللاحقة للحرب العالمية الثانية . بطبيعة الحال لاتزال التقاليد المرتبطة بهذه الثقافة الوضعية الجديدة حوة لم تتكامل بعد. ولعل اخطر مظاهر التعبير عن هذه الحقيقة هو في موضع تلك الثقافة من العلوم الانسانية. هل تنتمي الى عسم الاجتماع؟ هل هي فرع من فروع علم السياسية؟ هل هي علم مستقل؟ هذه التساؤلات تعكس ناحية اخرى ترتبط بطبيعة لادوات الفكرية التي يجب ان يتسلح بها كل من يتعرض للعمل الدعائي بالتحليل او الممارسة. فرغم ان الدعاية تفترض تخصصا من نوع معين الا ان هذا التخصص لايمكن تحقيقه الا ابتداءا من تجميع ثقافات معينة مع دمج تلك الثقافات في اطار متميز من حيث الابعاد الحركية. فعملية الاتصال التي هي محور العمل الدعائي في ذاتها عملية حركية. وموضوع الدعاية اي التعامل نفسي لابد وان يجتاز مجموعة من الثقافات المستقرة حيث ان ايا منها لايستطيع ان يزعم بقدرته على ان يقدم وحده ارطار الفكري تحليل. اضف الى ذلك وهذه هي الناحية الحقيقية الجديدة والتي تعنينا على وجه الخصوص ان الدعاية اضحت اداة سياسية. ان ي دراسة للعمل الاتصالي بالمعنى الاعلامي او الدعائي دون ان يرتبط ويتحدد بالقرار او الحركة الذي منه ينبع وباهدافه يتطوع لابد وان ينتهي به الامر الى تجريد لا معنى له . اضف الى ذلك ان الدعاية عندما تنقلنا الى الاطار الخارجي تصير في ميدان تكاد تستحيل بخصوصه المقاييس الكمية التي هي وحدها تسمح باكتشاف فاعلية وتقييم النجاح من عدمه. موضوع هذه الدراسة يدور ساسا حول الوظيفة الدعائية في نطاق الصراع الدولي. ورغم ان هذا لن يمنعنا من ان نتطرق ايضا لبعض النواحي المتعلقة بالتعامل الداخلي الا ان الهدف الاساسي يظل دائما هو المحور الذي تدور حوله ابعاد التحليل. وهنا يجدر بنا ان نلاحظ كيف ان لتجديد الحقيقي الذي عرفته الجماعات المعاصرة منذ الحرب العالمية الثانية هو الاعتراف الصريح بان العمل الدعائي كاداة من دوات النشاط الحكومي في نطاق التعامل الدولي لاتقل اهمية عن الاداة الاقتصادية او الاداة العسكرية. ورغم ذلك وبسبب حداثة هذه الاداة فان التقاليد لم تستطع بعد ان تحدد اطارا واضحا لحدود المشروعية في استخدام تلك الاداة. متى يجوز استخدامها وما هي حدود ذلك الاستخدام؟ وهل هناك قواعد واضحة تحدد ذلك الذي يمكن ان يوصف بانه مشروع ومثله الذي يجب ان يوصف بانه غير مشروع بهذا الخصوص؟ ان الاجابة على هذه التساؤلات في حاجة الى ايضاح ويكفي لمعرفة اسباب عدم امكانية تقديم الاجابة الصريحة ان مفهوم العمل الدعائي في ذاته لايزال من حيث ابعاده وحدوده غير واضح. فاين التفرقة بين الدعاية والاعلام؟ هل الدعاية يجب ان تتضمن تشويها للمعلومات الاعلامية والا فلايمكن ان توصف بانها دعاية؟ تساؤلات عديدة يفرضها عدم وضوح المفهوم وبصفة خاصة في التقاليد الامريكية. ولعله مما يساعد على ذلك رغبة الدول الكبرى في ان تستتر خلف العمل الدعائي في سبيل تأكيد عملية استيعابها للقوى السياسية الاجنبية بقصد مساندة حركتها الدولية الاقليمية في سعيها نحو تأكيد شرعية نشاطها الاعلامي فان تلك الدول تأبى ان تصف نشاطها بانه دعاية وهي حقيقة واضحة ايضا في التقاليد الشيوعية حتى ان نفس الاصلاح قد يفهم في بعض الاحيان بمعاني مختلفة وحيث التقاليد تضيف مفهوم «مثير الفتن والقلاقل» كاسلوب اخر من اساليب التعامل النفسي.

الامر الجدير بالانتباه هو علاقة ظاهرة الدعاية بتطور نظرية العلاقات الدولية. مورجانتو ومنذ حوالي خمسة عشر عاما يخبرنا بطبيعة هذه العلاقة كنتيجة للتغير الجوهري في المفهوم التقليدي لمبدأ القومية ذلك ان مبدأ القومية خلال القرن التاسع عشر والذي كان

يعني حق المجتمع السياسي في الاستقلال ورفض التبعية القومية كمذهب سياسي ما كان يتعدى تأكيد العلاقة الوثيقة بين الامة والدولة : كل أمة وكل دولة لها حق في اداتها السياسية المستقلة والمعبرة عن ذلك الكيان الاجتماعي . وكل دولة باسم القومية لاتعبر سوى عن كيان واحد سياسي . مبدأ القومية يثار بهذا المعنى في النطاق الدولي ايضا بخصوص تحديد نطاق السيادة الاقليمية للدولة . فالدولة هي شعب واقليم . ولكن ابتداء من القرن العشرين وبصفة خاصة منذ الحرب العالمية الثانية نجد مبدأ القومية ابعاده وقد تلونت عناصره الفكرية ورغم ان فكرة الامة بوصف كونها تمثل النقطة النهائية التي تتركز حولها عملية الولاء السياسي تظل قائمة الا ان المفهوم المعاصر للامة اضحى يرتبط بالوظيفة العالمية . ان الامة لها وظيفة تاريخية . وظيفة لاتتقيد زمانا ومكانا وظيفة تعني الدفاع عن قيم معينة بل وتعني الحق في فرض تلك القيم كمحور للحركة في النطاق الدولي . ترتب على ذلك ازدياد الاهتمام بتغيرات اخرى جديدة في نطاق التعامل الدولي اتسعت وبصفة خاصة ذلك الذي اسميناه التعامل النفسي بمختلف درجاته وتطبيقاته .

الذي يعنينا ان نؤكد عليه ونحن بصدد تأصيل الاطار الفكري للعمل الدعائي الصهيوني هو ملاحظة كيف ان وضع حدود واضحة للتفرقة بين الاداة النفسية والاداة السياسية في الحركة الصهيونية بل وبصفة عامة في النطاق الدولي امر يكاد يكون مستحيلا . ان نجاح وفاعلية احدهما يتوقف على الاخر والقدرة الحقيقية للقيادة هي ان تتلاعب بكلا الاداتين بارتباط وثيق يربط كلا منهما بالاخرى . يساعد على ذلك متغيرات جانبية سيطرت ولا تزال تسيطر على الحركة السياسية في النطاق الدولي بصفة عامة وفي نطاق علاقات الدول الصغيرة بالعالم الخارجي بصفة عامة . اول هذه الاعتبارات يدور حول تطبيق النواحي الاخلاقية في العلاقات الدولية . فرغم ان هناك اكثر من تيار واحد يطالب باحترام مايسميه بالاخلاقيات الدولية الا ان هناك اتجاه عام ولايزال يسيطر على الحركة في نطاق التعامل الدولي واساسه نسيان جميع القيم الخلقية في ذلك النطاق . الثقة ، الصدق ، حسن النية ، الصداقة ، جميعها مفاهيم تصير وظيفية ومؤقتة في نطاق التعامل الدولي . الناحية الثانية تتركز حول مايمكن ان نسميه مبدأ الهيبة الدولية . ومعنى ذلك ان كل دولة تريد ان تكون لها صورة او تصور في نطاق التعامل الدولي يجمع بين الهيبة والاحترام : واذا كانت الدول الكبرى تستطيع بحكم قوتها ان تدخل عنصر الهيبة في اهتماماتها من حيث تخطيط سياستها الخارجية ، الا ان الدول الاخرى لاتستطيع ان تسمح لنفسها بذلك السلوك . فالولايات المتحدة اليوم لا يعنيها تدهور الدولار وروسيا السوفيتية لم تتردد ان ترسل قادتها لواشنطن يطلبون المعونة الاقتصادية . لان هاتين الدولتين بما لهما من قوة فعلية لايعنيها ولو نسبيا ما يمكن ان يوصف بالهيبة الدولية . على العكس من ذلك اي دولة اخرى تصير بالنسبة لها مسألة الهيبة مشكلة اساسية تصل في بعض الاحيان الى تحديد وزنها وقيمتها في نطاق التعامل الدولي . يوغوسلافيا منذ ان طردت من الكتلة الشيوعية اكتسبت هيبة معينة لم تستطع ان تصل اليها دولة كبولنده ورغم الفارق الحضاري والتكنولوجي والكمي بين الدولتين . الهيبة هي امتداد للعمل الدعائي والأعلامي او على الاقل نتيجة مباشرة لعملية الاتصال الدولي بمختلف ابعادها . ناحية ثالثة جديرة بالتنويه وترتبط بالتقاليد الانجلوسكسونية بخصوص التعامل النفسي . فرغم ان مؤرخي العلاقات الدولية درجوا على ان يعيدوا عملية الاهتمام باثارة الرأي العام كاداة من ادوات السياسة الخارجية الى الحرب العالمية الثانية بصفة خاصة منذ انشأت الولايات المتحدة ما اسمته مكتب الاعلام الحربي Office of war information [٦٠] ، الا ان الواقع ان الدعاية كاداة من ادوات السياسة الخارجية تعود على الاقل الى الثورة الفرنسية . وهي لم تقتصر بهذا المعنى على ان تميز بين العمل السياسي في الدول الشمولية كالنظم النازية والشيوعية بل تعدت ذلك ايضا الى الدول ذات التقاليد الديمقراطية . فرنسا منذ بداية الثورة الكبرى في نهاية القرن الثامن عشر انشأت ادارة ضخمة يمكن ان ينظر اليها على انها وزارة حقيقية للعمل الدعائي . ايضا بريطانيا العظمى استخدمت الدعاية ولكنها برعت في تمويه العمل الدعائي او مايسميه علماء الراي العالم Covered Propaganda او الدعاية المستترة كاستخدام محطات اذاعية سرية او نشر الاشاعات او خلق الأضطرابات المحلية او تشجيع الاقليات على سبيل المثال .

وهذا تفسير لماذا يجب علينا في فهم الدعاية الصهيونية ان نعود الى جميع تلك الخبرات السابقة على القرن العشرين وبصفة خاصة في التقاليد القارية لان الصهيونية السياسية انتفعت بها واستطاعت انطلاقا من دلالات تلك الخبرة ان تأصل عملها السياسي . ولنذكر بعض النماذج المعبرة عن هذه الحقيقة دون ان يعني ذلك متابعة تاريخية للعمل السياسي الصهيوني الذي يخرج عن نطاق هذه الدراسة . جابوتنسكي منذ الاعوام الاولى لقيادته ، ورغم عدم نجاحه ، تولى القيام بالحملات الدعائية في اكثر من مكان واحد ويكفي ان نذكر من تطبيقاتها تلك الحملة التي قام بها ونجح فيها نجاحا يصفه لاكوير بانه نجاح ضخم في جنوب افريقيا عام ١٩٢٥ . اهمية جابوتنسكي الحقيقية هي في انه عبر من حقيقة المفاهيم التي لن يقدر لها النجاح الكلي الشامل خلال حياته وسوف تظل مستترة بل ومكروهة ولو ظاهريا حتى حرب الأيام الستة لتعود فتعلن عن وجهها الحقيقي . جابوتنسكي يمثل العنف وحق المجتمع العبري في ان يلجأ الى جميع الوسائل لاستئصال معارضيه . انه امتداد للفاشية الايطالية تأقلم بمفاهيمها واعتنق مبادئها . وابتداءا من عام ١٩٢٥ كانت مطالبه تتلخص في كلمتين انشاء الدولة العبرية . واجهه زعماء الصهيونية برفض هذه المطالب لان اللحظة لم تكن بعد مناسبة . علق جابوتنسكي على ذلك بقوله «لقد اضحت ضرورة سياسية ان ننظف المناخ وذلك لايمكن ان يتم الا من خلال اعلان الحقيقة . لماذا يسمح بوصف كلمة دولة عبرية بانها تعبير عن التطرف؟» اخفاق جابوتنسكي عقب ذلك لم يكن الا نتيجة لانه اراد ان يخرج عن التقاليد التي كانت قد وضعتها الحركة الصهيونية الناشئة وهي تغليف عملها السياسي بحركة الدعائية استنادا الى مفاهيم التلاعب بالموقف تارة من خلال الكذب وتارة مستندة الى عملية التسميم السياسي باوسع معانيها انظر . LA*UEUR, A history of zionism, 1972 P. 54.

اولا: فالدعاية الاسرائيلية اثبتت ضرورة التمييز الواضح بين الدعاية الداخلية والدعاية الخارجية. الاولى تتجه الى المواطن او من ينتمي الى الجسد العضوي للمجتمع السياسي حيث تستطيع الدولة من خلال تحكمها في ادوات الاعلام ان تخلق رابطة نفسية اساسها التدرج والتحكم في فيضان المادة الاعلامية سواء من حيث الانطلاق او من حيث الاعداد او من حيث خلق عناصر التأثير من خلال قادة الرأي المحلي. على العكس من ذلك فالدعاية الخارجية لاتسمح بهذه العملية: انها قذيفة فكرية تنطلق وعليها ان تسير بقوة دفعها الذاتي وان تقوم بنفسها ومن خلال منطقها الذاتي بعملية الضبط والاستجابة مع الفعل (٢).

ثانيا: كذلك تقاليد التعامل النفسي للدعاية الاسرائيلية استطاعت ان تمكننا من التمييز بين مستويات هذا التعامل وبصفة خاصة بين الدعاية والدعوة والحرب النفسية. فالدعاية هي تلك التي تتجه الى الصديق او الى غير الصديق او الى غير المهتم لتغير من مظاهر الاستجابة. الحرب النفسية هدفها تحطيم الخصم. اما الدعوة فهي عملية عناق وتعانق بين عقيدة ومن هو مؤمن او قادر او صالح للايمان بتلك العقيدة. هي خطاب يتجه الى الانصار او من في حكمهم وغايته خلق او تعميق علاقة الولاء. والولاء في اوسع معانيه هو الشعور بالانتماء او بعبارة اخرى هي الرابطة العاطفية والعقيدية والمنطقية التي تفرض نفسها على المواطن بحيث يشعر ان كل مايأتي من مصدر تلك العقيدة او من منبعها او من المحرك الذي يعبر عنها او من الرمز الذي اضحى علما عليها يجب ان تصحبه مباشرة علامات الرضا والتأييد (٣).

التمييز بين هذه الابعاد الثلاث او احد محصلات الخبرة الاسرائيلية. والغريب ان الفقه العربي درج على الخلط بين الدعاية والدعوة والحرب النفسية وذلك رغم ان كلا منها يخضع لتخطيط واعداد مستقل هناك علاقة لاشك في وجودها بين هذه الابعاد الثلاث من التعامل النفسي حيث ان جميعها مظاهر لعملية الاتصال التي تعكس الحركة العبرية في نطاق التعامل المعنوي، ولكن كل منها يتميز بذاتية وتميز وبصفة خاصة من حيث المراحل المرتبطة بالسياسة الخارجية الاسرائيلية(٤).

رغم اننا لانقصد من هذه الدراسة ان نتابع هذه النواحي في جزئياتها التاريخية بتفصيل عمقي، الا ان الملحوظة العامة التي تفرض نفسها علينا في بداية هذا التحليل هو ان الدعوة الصهيونية كتعامل نفسي متجه الى خلق الانصار وجد قبل خلق الدولة الاسرائيلية ثم عاد ليبرز مرة اخرى في اعقاب حرب يونيو ١٩٦٧. وهذا يفرض التساؤل: لماذا الدعوة وليست الدعاية هي التي سيطرت على الحركة الصهيونية حتى عام ١٩٤٨ ولماذا عادت بعد تلك الحرب وما ارتبط بها من احداث لتفرض نفسها مرة اخرى على نشاط الدولة الاسرائيلية؟

---

(٢) انظر فيما بعد تفصيل هذه النواحي في الفصل الثاني، ص ١١٣ وما بعدها.
(٣) لم نتعرض في هذا التمييز لمفهومين اخرين كل منهما له مستواه من حيث التعامل النفسي وهما غسيل المخ وكذلك التسميم السياسي او المعنوي. انظر حامد ربيع، دراسات سياسية حول الصهيونية واسرائيل، ١٩٧٣، ص ٨٣ وما بعدها.
(٤) حامد ربيع، نظرية الدعاية الخارجية، ١٩٧٣، ص ١٩٢ وما بعدها

مما لاشك فيه ان هناك فارق واضح بين الدعوة الصهيونية قبل انشاء الدولة الاسرائيلية والدعوة الصهيونية عقب هزيمة يونيو(٥). ولعله يكفي لتأكيد هذا الفارق ان نتذكر ان الدولة العبرية خلال المرحلة الاولى لم يكن لها بعد وجود هيكلي. اما في المرحلة الاخرى فهي تتحرك كمقدمة وكرأس حربة للصهيونية العالمية. خلاف في الاطار العام ولكن رغم ذلك مقتضيات واحدة: خلق الشعب المرتبط والملتصق بالارض الاسرائيلية حيث تحكم علاقته بتلك الارض رابطة الولاء والانتماء الروحي وليست مجرد علاقة الرضا او التأييد.

يرتبط بهذه الناحية ويعكسها ما قدمه لنا العالمين الاسرائيليين انتونفسكي واريان من تحليل لحقيقة العلاقة النفسية التي تربط المواطن الاسرائيلي بالدولة العبرية، في مؤلف لهما مشترك في العام الماضي ورغم ان النتائج

ان نميز بين مستويات ثلاث من مستويات العلاقة بين المواطن والسلطة: رضا، يعني تأييد او رفض للنظام السياسي او الطبقة الحاكمة، مشاركة اي تفاعل وتعانق حقيقي بين الارادة الفردية والارادة الجماعية في عملية الصراع السياسي[٦]، ثم علاقة ولاء تصير امتدادا للرابطة الروحية التي تربط المواطن بالمفهوم العام المجردللدولة: الدولة كحقيقة فكرية، او ان شئنا المجتمع السياسي كتصور حضاري وكنقطة من مراحل التطور التاريخي للانسانية وقد تركزت في وظيفة الشعب المختار. هذه المستويات الثلاث هي بدورها امتداد للمفهوم المقيدي للعمل السياسي او بعبارة اخرى تأكيد لضرورة التمييز بين الدعاية والدعوة بوصف ان كلا منهما يغلف علاقة تختلف اختلافا تاما عن العلاقة الاخرى. ان الفهم الحقيقي لابعاد السياسة الخارجية

---

(٥) التحليل التاريخي هذه الفترة لايزال ينقص المكتبة العربية. والواقع ان تاريخ الحركة الصهيونية يجب ان ننظر اليه على انه اكثر اتساعا من الصهيونية السياسية وعلى انه لايتقيد فقط بالحركة اليهودية في العودة الى ارض الميعاد. فالصهيونية بمعنى المذهب الذي يتجه الى تأكيد حق الوجود والتكامل السياسي للمجتمع اليهودي يعود الى بداية الثورة الفرنسية. من جانب اخر فالحركة الصهيونية بمعنى انها قوة دولية او على الاقل احدى القوى السياسية التي تتلاعب بالقوى الدولية سواء كقوة اصلية لها ذاتيتها المستقلة او كقوة تابعة تستخدمها القوى الاخرى في تحقيق اهدافها

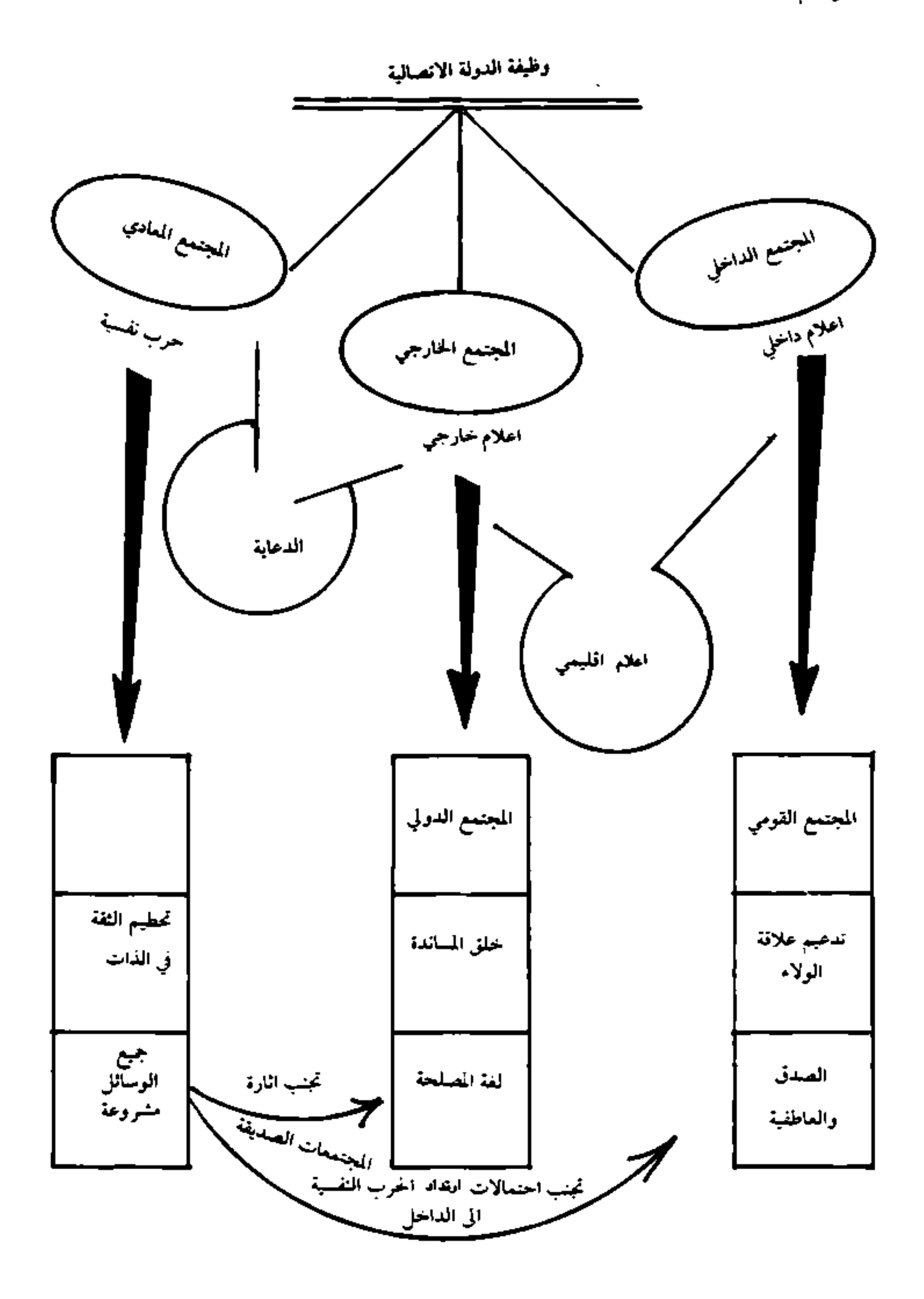
لاتتقيد فقط بالحركة اليهودية في ابعادها السياسية. مما لاشك فيه انه لايجوز تضخيم الصهيونية السياسية، ولكن من الاخطاء التي يجب ان نتجنبها ان لانفهم حقيقة اعماقها وطبيعة الارتباطات الباطنة والخفية غير الواضحة التي تربط الحركة الصهيونية بالقوى الدولية الاخرى. وهنا تبرز واضحة خطورة التقاعس الذي تعكسه حركة التجديد الفكري في البلاد العربية. فهي حتى اليوم لم تحاول ان تقدم تاريخا واضحا ومتكاملا للحركة الصهيونية بما يعكس تصورنا الذاتي والجماعي لتلك الحركة وبأي لغة من اللغات حتى ان مارتن بوبر العالمالانجليزي كتب مقدمته لمؤلف كوهن بعنوان «اسرائيل والعالم العربي» تساءل: «وبسبب الشروط الموضوعية من الطبيعي في كتاب كهذا فان الوقائع كما تبدو من جانب اليهود والعرب لايمكن ان تعكس نفسها بنفس الطريقة. ومهما بلغ الجهد لعرض جميع ابعاد الصورة فمن المستحيل ان تقدم وجهة النظر العربية واليهودية على قدم المساواة. ان هذا ليس خطأ الكاتب - وهو يريد ان يحيل بهذا المعنى الى مؤلف كوهن - وانما نتيجة للظروف الموضوعية التاريخية؛ لتقديم التطورات المختلفة من جانب العرب وبنفس المقدرة كما حدث من الجانب اليهودي فان المؤلف يجب ان يكون عربيا وقد ارتبط ارتباطا وثيقا بالحياة العربية كما ارتبط مؤلف هذا الكتاب بالحياة اليهودية. فلندع انفسنا نأمل انه قد يحدث في احد الايام ان مثل هذا المؤلف العربي يتقبل مثل هذه المهمة وسوف يحقق بهذا الخصوص ذلك الذي ينقص هذا الكتاب». ترى متى تفهم جامعة الدول العربية واجبها الحقيقي؟ اليس تكليف احد علماء التحليل السياسي بمثل هذه المهمة وتمكينه بمجموعة ضخمة من الباحثين ان يجيب على هذا التساؤل خيرمن تلك المعارض المتنقلة التي تقوم بها الامانة العامة لجامعة الدول العربية بدعوىالدعاية للحضارة العربية حيث نجد مجموعة من الخرائط والصور الى جوار مجموعة ضخمة من موظفي الامانة بدعوى مرافقة المعارض لقضاء الايام السعيدةبين روما وباريس وغيرها من العواصم الغربية؟ واليس هذا هو الواجب الحقيقي للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التي لم تنقطع عن الطبل والزمر الاجوف منذ اثنى عشر عاما حتى اليوم؟

COHEN, Israel and the arab world, 1970, P. X1.

(٦) ARIAN, The elections in Israel - 1969, 1972, P. 202, ANTONOVSKY

ARIAN, Hopes and fears of Israelis, 1972, P. 41.

شكل رقم «١»



وظيفة الدولة الاتصالية
المجتمع المعادي
المجتمع الخارجي
المجتمع الداخلي
حرب نفسية
اعلام خارجي
اعلام داخلي
الدعاية
اعلام اقليمي
المجتمع الدولي
المجتمع القومي
تحطيم الثقة في الذات
خلق المساندة
تدعيم علاقة الولاء
جميع الوسائل مشروعة
لغة المصلحة
الصدق والعاطفية
تجنب اثارة المجتمعات الصديقة
تجنب احتمالات ارتداد الحرب النفسية الى الداخل

الاسرائيلية لايمكن ان ينطلق في هذه اللحظة الا من تحليل طبيعة التعامل النفسي وابعاده كتخطيط مرحلي يمهد ويعد لحركة سياسية. تحديد بهذا المعنى ابعاد تلك الدعوة التي برزت واضحة مسيطرة على العمل السياسي الاسرائيلي في اعقاب حرب عام ١٩٦٧ قد يسمح لنا بفهم بعض ابعاد السياسة الخارجية المقبلة(٧). هذه التوقعات لايمكن ان تنطلق من فراغ: انها استمرار لتقاليد ثابتة في الحركة الصهيونية.

واذا كانت هذه التقاليد قد ارتبطت دائما بعملية صراع وقتل عضوي اساسه عدم الاستسلام ومن ثم تغلغله استراتيجية القتال فأن الاشهر الاخيرة من عام ١٩٧٣ تعلن عن وثبة جديدة اساسها تغيير شكلي في الاستراتيجية اذ تتحدث عن السلام والتعايش عقب ان استطاعت ان تنتزع الاعتراف بالشرعية من دول المنطقة. ورغم ذلك فأن الاستمرارية قائمة وثابتة: ان اسرائيل التي فشلت في سياستها الخارجية في عام ١٩٦٧ عندما لم تستطع ان تقفز الى العالم النفسي الذي يحيط بها تريد ان تنجح في عام ١٩٧٤ وقد غيرت اسلوبها القتالي: هدف واحد، حركة واحدة وان اختلفت منعطفاتها وادواتها.

متابعة تاريخ الصهيونية سوف يسمح لنا بأن نكتشف الخط الثابت في ذلك التطور الذي يدور حول متغير واحد اكراه المنطقة على استقبال ذلك الوجود الدخيل وقد فشل عضويا. ان مسالك بالتفصيل ولكننا سوف نسمح بالنجاح خلف التستر السلمي. لانستطيع ان نتابع جميع هذه النواحي بالتفصيل ولكننا سوف نقف اساسا ازاء مرحلتين كل منها تعكس مذاقا خاصا: نصر عام ١٩٦٧ ثم معركة اكتوبر عام ١٩٧٣. تقسيم الدراسة سوف يرفض علينا ان نرجيء تفصيل الخبرة الى الفصل الثالث من هذا المؤلف.من الطبيعي قبل ان نحاول تبيان المخاطر التي تفرضها عملية التسميم السياسي ان نناقش ونقيم الحركة العربية في مختلف ابعاد الاخفاق الذي تميزت به.

نتابع الدراسة في اقسام ثلاثة:

اولا: نبدأ بمتابعة موجزة وسريعة للدعوة كأحد تقاليد الحركة الصهيونية.

ثانيا: ثم نعقب بعد ذلك بدراسة محددة لخصائص الدعوة الصهيونية والاسرائيلية عقب نصر عام ١٩٦٧.

ثالثا: وخلاصة لهذه الدراسة التاريخية والتحليلة نضع افتراضاتنا وتوقعاتنا بخصوص ابعاد الحركة السياسية المقبلة في النطاق الخارجي لنشاط الدولة الاسرائيلية.

على اننا قبل ان نتناول بالتحليل هذه الابعاد الثلاث علينا ان نتذكر ملحوظتين: الاولى ان القسم الثالث سوف يعالج السياسة الخارجية الاسرائيلية دون ان يدخل في حسابه حوادث اكتوبر وماعقبها من تطورات. منطق طبيعي وقد سبق ان ذكرنا اننا سوف نخصص لهذا الموضوع الفصل الثالث. كذلك يجب ان نضيف ان تلك الوقائع التي لانزال نعيشها لانستطيع بخصوصها سوى ان نقتصر على بعض التصورات الجزئية تاركين للاعوام القادمة ان تبرز خفايا الحركة السياسية الاسرائيلية. ملحوظة اخرى جديرة بالانتباه ان الحركة الصهيونية منذ بدايتها نظرت الى التعامل النفسي على انه الوجه الاخر للنشاط السياسي. الخلط بين العقيدةوالدعاية، بين جوهر الحركة ومنطلقاتها النفسية كان احد ملامح الحركة الصهيونية في جميع مراحلها التاريخية. ومن ثم فمن الطبيعي ان نفرد لهذه الناحية فصلا يدور حول التمييز بين الابعاد العقيدية والنواحي الدعائية في الصهيونية السياسية.

نتابع الدراسة من هذه المنطلقات الاربعة.

---

(٧) انظر التفاصيل في حامد ربيع، نظرية السياسة الخارجية، ١٩٧٣، ص ١٠٩ وما بعدها.

المبحث الاول

الصهيونية السياسية: التمييز بين الابعاد العقيدية والنواحي الدعائية

٦ ـ اهمية التعامل النفسي في تاريخ الحركة الصهيونية والخلط بين الابعاد العقيدية والنواحي الاعلامية:

لم توجد دعوة سياسية ارتبطت منذ نشأتها بالعمل الدعائي والتعامل الاعلامي كما حدث بالنسبة للصهيونية السياسية. هذه الناحية لم تقتصر على ان تكون احد ادوات الحركة بل تتابعت مع نفس العقيدة في ديالكتيكية مستمرة لتبرز تارة فتسيطر على نفس العقيدة، ولتختفي تارة اخرى فأذا بالدعوة محور وجوهر الانطلاق السياسي. اسباب عديدة ادت الى ذلك التلاحم: على ان الذي يجب ان يعنينا على وجه الخصوص هو التمييز والتفرقة بين الدعاية وماتتضمنه من كذب والدعوة وماتفرضه من حقائق في عناصر العمل السياسي لان هذا وحده هو الذي يسمح بأكتشاف الابعاد الحقيقية للمذهبية التي تستتر خلف الحركة الصهيونية.

يذكر عن هرتزل انه في احدى خطبه الاولى قال كلمته المشهورة «علينا ان نخلق اكبر قسط من الضوضاء حول المشكلة اليهودية»: وهو عندما حاول ان يتفاعل مع القوى الدولية خلال تلك الفترة للحصول على تأييدها راح يحدث كلا بلغة المصلحة التي تستتر خلف تلك القوى. فهو يذكر المانيا التي لم يقدر لها بعد امتداد لنفوذ استعماري بأنه يستطيع ان يقود راية الحضارة الالمانية في الوادي الخصيب وماحوله. وعندما يحدث الخليفة العثماني يذكره بما يستطيع اليهود ان يقدموه من معونات مالية واقتصادية للمنطقة وللدولة العثمانية ذاتها. بعض المصادر تحدثنا ايضا عن رسائله واتصالاته مع بعض الاذناب في مصر الناشئة والتي تدور حول لغة القومية والمساندة من جانب القوميات المحتلة والمستعمرة في مواجهة القوميات الدخيلة.
على ان خير مايعبر عن مفهوم هرتزل للحركة السياسية هو العودة الى مؤلفاته التي استطاع من خلالها ان يقود لغة التخاطب مع العناصر اليهودية. عندما اراد نبي الصهيونية ان يؤكد دعوته لم يقتصر على كتابه بعنوان الدولة اليهودية وانما اضاف الى ذلك قصة مشهورة تفرغ لها عقب ذلك خلال عدة اشهر بعنوان «الارض القديمة الجديدة». كل محاولة لفهم الواقع اليهودي المعاصر وتطورات الدولة العبرية التي تعيشها ليس ابتداء من تلك القصة هي محاولة قاصرة. الغاية الحقيقية التي دفعت بهرتزل لوضع هذه القصة هو انه اراد ان يقدم تصورا للفكرة الصهيونية من خلال الاسلوب السائد في تلك الفترة وهو اسلوب الرومانسية السياسية.
ويعترف بذلك ناشر القصة «نويمن» الذي سوف نرى فيما بعد انه يمثل لا فقط احد دعاة الحركة الصهيونية بل المخطط والعقل المدبر لعملية التعامل النفسي كما سيطرت على تلك الحركة خلال الفترة الممتدة منذ ظهور النظام النازي في المانيا وحتى تأسيس الدولة اليهوديةفي فلسطين اذ يقرر: «الغاية من هذه القصة ليست فنية وانما هي الدعاية، هي ان نبعث في الشعب اليهودي الثقة والايمان في الفكرة الصهيونية».
بعبارة اخرى اراد هرتزل في تلك القصة ان يجسد الامل الذي يداعب الخيال السياسي بتقديم نموذج حي واقعي للدولة المثالية حيث تتحقق جميع الاهداف من جانب وتصمت جميع الانتقادات من جانب اخر، وكل ذلك من خلال نماذج سلوكية لشخصيات محددة في اطار محدد من التعامل اليومي.
هي اذن مصدر لاسطورة ومحور لشعار.

الواقع ان متابعة الحركة الصهيونية تفرض علينا الحذر في الفصل بين الدعاية والدعوة. بين اختلاق الحقائق والوقائع او تصويرها بشكل معين والمفاهيم الباطنة الحقيقية التي تسعى الحركة الى تحقيقها. مفهوم الحركة بعبارة اخرى في تاريخ الصهيونية السياسية يسير على قدمين: دعاية وعقيدة وهو يتقدم من خلال المنطلقين بل وفي لحظات معينة يقدم احدهما على الاخر ليعود في لحظات اخرى ليعكس الوضع فيؤخر ذلك المتقدم ليصير قد اضحى مغلفا بالاخر. وتتجلى هذه الحقيقة بشكل واضح لو قارنا بين الصهيونية السياسية والمذاهب الأخرى التي غمرت القرن التاسع عشر. فلو اقتصرنا على المذهبين اللذين قدر لهما التكامل من حيث النجاح في الوصول الى السلطة لتحقيق البرنامج السياسي المرتبط بذلك المذهب، لها لنا الفارق الذي تتميز به الصهيونية السياسية. القومية من جانب والماركسية من جانب اخر هما المذهبان اللذان عاصرا وناطحا او تعاونا مع الصهيونية السياسية. القومية لم تقدر لها اي دعاية منظمة. الماركسية عندما حاولت ان تخلق اداة اتصال مع المجتمع الجماهيري لم تجد سوى فكرة الحزب الشيوعي والجماعات السرية وسيلتها لنشر الدعوة اليسارية. وعندما قدر للزعيم لينين ان ينتقل الى روسيا ليقود الحركة لم يكن قد قدر له ان يخلق في موضع تلك الحركة اي موجة جماهيرية حقيقية من خلال العمل الدعائي. دعاية بالمعنى الحقيقي اي منطق عاطفي يتجه الى المجتمع الكلي مستندا الى اساليب الاتصال الجماهيري لم يقدر لها ان توجد في شكل متكامل الا ابتداءاً من الصهيونية السياسية.

هل معنى ذلك ان الصهيونية قدمت لنا اسلوبا جديدا للتعامل النفسي والحركة السياسية؟

ان الجديد في الواقع هو ان دعاة الحركة الصهيونية استطاعوا ان ينتفعوا بخبرات سابقة وان يصهروا تلك الخبرات في منطق اكثر تجاوبا مع حقيقة النصف الاول من القرن العشرين. رغم اننا سوف نعود لذلك فيما بعد بالتفصيل الكافي الا ان علينا ان نتذكر منذ الان ان الخبرات الدعائية السابقة على الحركة الصهيونية تتمركز اساسا حول انواع ثلاث من التعامل النفسي. نموذج يعود الى تقاليد الحضارة الاسلامية اساسه الدعوة ومفهوم خلق علاقة التعامل النفسي وقد اضحت تدور حول مفهوم الدعاية الحضارية، محورها وجوهرها لغة الكرامة الفردية وتضخيم الايمان بالذات الانسانية. اما النموذج النازي الذي يكون المصدر الثالث فهو ينبع من فكرة الحرب النفسية. ورغم ان هذا المفهوم لم يكن قد تأصل بعد بحيث انه كان يختلط الى حد ما بالدعاية الا ان المحور والجوهر الذي يحدد خصائص التعامل النفسي كان يدور اساسا حول فكرتين: التعامل ينبع من الموقف ويتحدد به زمانا ومكانا من جانب ومن جانب اخر هذا التعامل ليس القصد منه تقوية ثقة الطرف الاخر في نفسه او ايمانه بذاته وانما خلق نوع من المساندة تنبع من ذلك الطرف دون اي اعتبار اخر.

الواقع ان طبيعة القرن التاسع عشر ثم خصائص النصف الاول من القرن العشرين فرضت هذا التطور للعمل الدعائي في تقاليد الحركة الصهيونيه وجعل التعامل النفسي اساس من اسس الحركة السياسية. فأول مانلاحظه هو ان العلاقة بين المواطن والدولة خلال تقاليد القرن التاسع عشر والتي من ثناياها تشعبت الحركة الصهيونية بتقاليدها الاولى لم تكن علاقة انتماء عقيدي وانما كانت علاقة ولاء سياسي. الدولة تقوم بوظيفةسلبية ولايعنيها من المواطن اي بعد عقيدي. كونه مؤمن او غير مؤمن بل كونه يرفض حتى فكرة الايمان لايعنيها. الحركة السياسية كان لابد وان تخضع لهذا المفهوم. ومن هذا جاءت اهمية الاهتمام بالعمل الدعائي كأحد المحاور الاساسية التي يقوم عليها المنطق الصهيوني. ولكن من جانب اخر فأن مفهوم الحركة كما عرف حتى بداية القرن التاسع عشر بمعنى الطبقة المختارة او بعبارة ادق القوة الصغيرة كما ولكن المتكافئة والمتقدمة كيفا بحيث تستطيع ان تقوم بتطويع الجسد السياسي ماديا وعضويا لارادتها دون ان يعنيها ذلك التطويع لمفاهيمها الفكرية. هذا التصور للحركة السياسية الذي ظل سائدا دون منازع حتى نهاية القرن الثامن عشر اختفى تدريجيا بحيث اضحى لاوجود له في بداية القرن العشرين. ان الحركة السياسية اضحت

جماهيرية تقوم على اساس تكتل القوى الجماعية خلف القيادة وجعل محور الترابط هو مفهوم الانصار الذين يخلقون العلاقة الثابتة والدائمة بين القائد وبين المفاهيم الفكرية التي تمثلها القيادة والقاعدة الشعبية التي بها ومنها يتحدد نجاح الحركة السياسية.

كل هذه الحقائق لابد وان تعكس وجودها وان تتفاعل بها الحركة الصهيونية. ان القوة الحقيقية للحركة الصهيونية هي في انها استطاعت ان تكسب تلك المرونة الدائمة التي سمحت لها بأن تطوع نفسها بحيث لاتبرز غير متجانسة او متناقضة مع الاطار العام للتطور السياسي الذي يميز العصر. ايضا العلاقة بين الدعاية والدعوة في تقاليد الحركة الصهيونية، مظهر من مظاهر تلك المرونة.

فلنتابع هذه الحقائق بأيجاز.

٧ـ العلاقة بين الدعاية والدعوة وديناميات التعامل النفسي في تقاليد الحركة الصهيونية:

الدعاية الصهيونية قديمة قدم الحركة الصهيونية. اعترف بهذه الحقيقة ايضا المؤرخون المحايدون. فالكاتب هالبرين، ورغم اتجاهاته الصهيونية الواضحة عندما أرخ الحركة الصهيونية في تطور المجتمع الامريكي المعاصر وجد من واجبه ليكون عرضه كاملا ان يفرد فقط للعمل الدعائي فصلين كاملين بل وجد من الضروري ان يعلن بصراحة عن ان فهم تطور العلاقة بين القوى السياسية في المجتمع الامريكي بصفة عامة وبين القوى المتصارعة حول وضع اصول الحركة الصهيونية كحركة سياسية بصفة خاصة لايمكن ان يكون كاملا ان لم يجعل المنطلق الاول والاساسي هو تحليل العمل الدعائي. بل يصل به الامر الى حد ان يعلن ان نفس الخلافات بين القوى السياسية من حيث عددها او طبيعتها لم تكن الا اداة لتوسيع نطاق الرأي العام المهتم وبالتالي لتسهيل عملية العمل الدعائي. المؤرخ الامريكي ستيفنسون منذ اكثر من خمسة وعشرين عاما عندما تعرض لتحليل العلاقة بين الصهيونية والسياسة الخارجية للولايات المتحدة الامريكية انتهى الى التسليم بأن المتغير الاساسي في هذه العلاقة خضع لعامل التعامل النفسي باوسع معانيه: اكراه وغسيل مخ يصاحب الاعلام ويرتبط بالدعاية بمستويات مختلفة وبأساليب متعددة كان من شأنها دائما ان تساعد عملية التخاطب والتفاوض بين القوى الذاتية في المجتمع الامريكي والقوى الصهيونية الغازية. والواقع اننا عندما نتعرض للاصول التاريخية للعمل الدعائي في تقاليد الحركة الصهيونية يجب ان نربط دائما الماضي بالحاضر من خلال مسالك متعددة. سوف نرى فيما بعد ان الدعاية والدعوة يكونان محور التعامل النفسي وانه رغم استقلال كل منهما عن الاخر من حيث جمهور المستقبل الا ان هناك رابطة خفية تجعل الامتزاج والتزاوج بين الدعاية والدعوة كخطوات حركية تكون الوجه الاخر للحركة السياسية.

نموذج واضح لهذه الحقيقة يقدمه لنا احد المفكرين الاسرائيليين المعاصرين وهو الكاتب «موشي ماكوفير». ففي دراسة له نشرتها تلك المنظمة التي تسمى باسم «المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية» منذ عدة اعوام يخبرنا بما يسميه احياء الاتجاه البروخوفي في الفكر السياسي الاسرائيلي المعاصر. لايعنينا بهذا الخصوص ان نناقش جوهر هذا الفكر. ولكن لنستمع الى تعليقات المؤلف الصهيوني بهذا الخصوص.

يقول الكاتب في مقدمة دراسته: «خلال الاعوام القليلة الماضية استطاعت الاداة الصهيونية الدعائية ان تقوم بمجهود ضخم لاحياء الفقه الوحيد للعمالية الصهيونية كما سبق وان صاغه اليهودي الروسي بروخوف في الاعوام الاولى من القرن العشرين. جيش صغير من الموظفين عهد اليه باعادة اعداد طبعات جديدة

لمؤلفاته الرئيسية بأغلب اللغات الاوروبية وقد ارفقت بها تعليقات مدروسة. . . » ويضيف الى ذلك تساؤلات عن اسباب الاهتمام الفجائي بكاتب يمثل اتجاهات ضعيفة في تقاليد الصهيونية ويفصله عن الواقع الاسرائيلي اكثر من نصف قرن فضلا عن انه لايمثل في تاريخ القوى السياسية الاسرائيلي سوى فقاعات ضئيلة اختفت من المسرح السياسي منذ اكثر من عشرين عاما. ان احياء هذا المذهب السياسي يفرض اسئلة عديدة. هل هناك حقيقة تاريخية جديدة قد برزت في الفترة الاخيرة مما تجعل من مذهب بروخوف ونظريته وسيلة اساسية قادرة على ان تنير الطريق ومن ثم تخلق نوعا جديدا من الاستجابة وتسمح بدفعة للحركة الصهيونية اكثر قوة الى الامام؟ ومن هو الجمهور الذي سوف تسعى الصهيونية الى خطابه من خلال بروخوف؟

لاتعنينا الاجابات التي يصوغها المؤلف المذكور بقدر ماتقدم لنا من دلالات حول التخطيط الدعائي الاسرائيلي. يقول في نهاية دراسته: «ليس من الصعب ان نجيب على التساؤل لماذا هذه الفلسفة وهذا التصور اضحى يوضع الاهتمام والاحياء من جانب اداة الدعاية الصهيونية وما هي الاسباب الحقيقية لهذا الاهتمام الفجائي. ان السبب في ذلك يعود بايجاز الى هذا التشابه في المناخ السياسي والفكري المعاصر في العالم الغربي وذلك المناخ الذي عرفته اوروبا الشرقية اثناء ميلاد الفكر البروخوفي. ان دعاة الصهيونية على استعداد لان يستخدموا جميع الوسائل لربط الشباب اليهودي في الغرب بالتقاليد الصهيونية السياسية وابعادة عن جميع تلك الحركات الاخرى التي لايمكن الا ان تضر بالصهيونية السياسية كالحركات التروتسكية والكاسترية على سبيل المثال. واحد تلك المناهج هي تشريب الاشخاص افكار وايديولوجيات نفس القائمين بالعمل الدعائي لايؤمنون بها وهم يطمئنون انفسهم بأن هذا الاسلوب ليس الا خطوة اولى ومؤقتة بحيث انه عندما يصل الينا اولئك الذين نتحدث اليهم سوف نستعيد قدرتنا على المبادرة».

والخلاصة ان افكار بروخوف تمثل اتجاها اشتراكيا واضحا في تقاليد الحركة الصهيونية. هذا الاتجاه الذي يرتبط بالفترة الاولى لنشأة الصهيونية ظل ضعيفا منذ بدايته ولم يقدر له النجاح الفعلي او الحقيقي. من الناحية الواقعية اختفى منذ عشرين عاما ولم يعد موضع الاهتمام. ولكنه في الواقع يرتبط بحقيقة تاريخية تماثل الواقع الذي يعيشه الشباب المعاصر في غرب اوربا. من هذا المنطلق تحددت الاستراتيجية الاسرائيلية: جعل الخطوة الاولى في سبيل ربط هذا الشباب هو احياء افكار بروخوف كاداة لخلق التعاطف والاندماج الحركي. ولكن هؤلاء الدعاة يعلمون مقدما بأن هذا المنطلق لايمثل جوهر الدعوة الصهيونية وهم لذلك يعتبرون الدعاية هذه خطوة اولى سوف تعقبها دعوة حقيقية عندما يقدر لهذا الشباب ان ينتقل الى اسرائيل وان يخضع بالتالي لعملية التحويل العقيدي المحلية بقصد خلق المواطن الاسرائيلي المترابط والمتكتل في عملية التماسك السياسي التي تضم وتصهر ابناء المجتمع المحلي.

عقيدة، دعوة، دعاية: عناصر ثلاث تتفاعل وتتكامل بديناميكية مخططة وديالكتيكية معينة، بحيث تسمح للحقيقة النفسية ان تتقدم فتضم وتحتوي جميع العناصر الصالحة للاستيعاب الفكري.

هذا الطابع المتميز للتعامل النفسي في التقاليد الصهيونية يفرض علينا اكثر من ملاحظة واحدة. اولها ان العلاقة بين الدعاية والحركة او بعبارة ادق بين التعامل النفسي والحركة، في تقاليد الصهيونية السياسية ليست مجرد علاقة ارتباط وانما هي علاقة عضوية. ان الدعاية هي الوجه الاخر للحركة، وكما انه لايمكن فهم الدعاية الصهيونية دون فهم الحركة الصهيونية فمن العبث محاولة فهم الحركة الصهيونية دون التغلغل في جوهر الدعاية الصهيونية.

ملاحظة اخرى ترتبط بالاولى وتنبع منها. هذه الرابطه الوثيقة بين العمل الدعائي والعمل السياسي تسمح بفهم لماذا يجب ان نؤكد على ضرورة التعمق في تحليل المنطق الدعائي الصهيوني السابق على نشأة الاسرائيلية. الهدف من هذا التحليل لايقتصر على مجرد الرغبة في الوصول الى الفهم الحقيقي للمنطق

المتكامل الذي سيطر على الدعاية الصهيونية في بعض مراحلها. بل ولان هذا التعميق هو وحده الذي يسمح من جانب بادراك حقيقة ابعاد الحركة الصهيونية والحكم عليها اي تقييمها من حيث النجاح او الاخفاق، ثم من جانب اخر لان هذا التعميق وحده هو الذي سوف يمكننا من فهم حقيقة وابعاد الحركة السياسية للدولة الاسرائيلية كامتداد عضوي للمذهب الصهيوني. سبق ان رأينا ونقلا عن احد الكتاب الاسرائيليين كيف ان

احياء مذهب سياسي معين لاقيمة له في تقاليد الحركة الصهيونية في هذه اللحظة مرتبط ارتباطا وثيقا بطبيعة واهداف السياسة الأسرائيلية الخارجية كما صاغتها وساعدت على بلورتها انتصارات اسرائيل عام ١٩٦٧.

وهذا يقودنا الى الملحوظة الثالثة والاكثر اهمية: ان علينا في فهم حقيقة التعامل النفسي ان نربط تلك الحركة بالحقيقة الاجتماعية والتاريخية. او بعبارة اخرى فان التعامل النفسي ينبع من خصائص الموقف بمعنى انه اما يعكس موقف تحدد زمانا ومكانا واما يقدم لموقف تسعى الحركة الصهيونية لخلقه واختلاقه.

الحركة الصهيونية تسير من منطلقين: دعاية ودعوة تقوم احداها على الاخر وتعد الثانية لتحل محل السابقة في داخل اطار واحد ومتكامل وهو العقيدة الصهيونية. وهي اليوم تضيف الى هذين المنطلقين عنصر ثالث وهو ما اسميناه في غير هذا الموضع عملية التسميم السياسي.
ولكن ما لنا نسبق الحوادث؟

٨ ـ الصهيونية السياسية وعملية التسمم السياسي للمنطق الاوربي خلال الربع الاول من القرن العشرين

لنستطيع ان نفهم حقيقة الحركة الصهيونية يتعين علينا ان نعود الى تحليل المشكلة التي ارتبطت بالصهيونية السياسية بحيث تكون الخلفية التاريخية للحركة السياسية: اي المشكلة اليهودية. المشكلة اليهودية بمعنى وضع اليهودي داخل المجتمع الاوروبي من حيث الحقوق او الواجبات ظهرت في التاريخ الغربي في مرحلتين: الاولى خلال العصور الوسطى وقبل الثورة الفرنسية والثانية خلال القرن التاسع عشر. الاولى كانت على حساب المجتمع اليهودي: لم يكن التساؤ ل يدور حول اعطاء اليهودي حقوقا كالمواطن الاخر الذي ينتمي الى نفس المجتمع الذي يعيش في داخله المواطن اليهودي وانما كيف نستطيع حماية المجتمع الاصلي من هذا الوباء الذي يتمثل في شخص المواطن اليهودي. مذابح الدم العديدة او المحاكمات او عملية الطرد المشهورة لم تكن تمثل سوى الخاتمة المنطقية بغض النظر عما تتضمنه من مبالغة من جانب الدولة لحل تلك المشكلة. الثورة الفرنسية جاءت فمنحت المواطن اليهودي جميع الحقوق السياسية واعتبرته على قدم المساواة مع غير اليهودي.

الفهم الحقيقي للحركة الصهيونية يفرض علينا ان نعود الى فهم اثار الثورة الفرنسية من حيث علاقتها اليهودية فنتيجة تحرير اليهود باسم الثورة الفرنسية حدثت حركة فكرية مزدوجة:
من جانب تعلق اليهودي بالمجتمع الفرنسي كحقيقة فكـ ـة وبالثورة الفرنسية كمفهوم فلسفي. من جانب اخر ارتباط حركة التحرر بحركة الاندماج والتشبه. بالمعنى الاول فان الكتابات التي صدرت خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر والتي تعلن الارتباط المطلق بين تاريخ الثورة واليهودي عديدة لاحصر لها.
يكتب بهذا المعنى واحد من اشهر المؤرخين اليهود الذين ينتمون الى تلك الفترة «رايناخ»:
«كل يهودي اليوم يملك قلبا وذاكرة هو ابن لفرنسا التي عرفناها في عام ١٧٩١» ان تاريخ اليهود اضحى منذ تلك الفترة وقد اندمج وتفاعل مع تاريخ الحضارة الفرنسية. ويصل

البعض الى القول انه لم يعد من الممكن النظر الى الماضي اليهودي على انه ينتمي لليهود او على انه يمكن ان يعالج مستقلا في ذاته. انه جزء لايتجزأ من التقاليد والتراث الفرنسي. الناحية الاخرى لاتقل وضوحا لدى كتاب تلك الفترة: فالفيلسوف المشهور هاليفي يجعل من تلك الدراسة التي سوف يقدر لها فيا بعد شهرة لامثيل لها بعنوان «موجز تاريخ اليهود المعاصرين» منطلقه في الدفاع عن ان اليهودي لايختلف عن الاخرين وعن انه لايقل عن الاخرين حقا في المطالبة والتمتع بالحريات والحقوق وانه لايقل عنهم قدرة على اداء الالتزامات والواجبات. الكتاب الذين راحوا يؤكدون هذه الدلالات خلال هذه الفترة عديدين لاحصر لهم. والمؤلف المعاصر «ماروس» في احدث كتبه عن سياسة الاندماج يجمع لنا قائمة مذهلة بهذا الخصوص. ولم يقتصر الامر في هذا الشأن على حد التأكيد بواجب اليهودي ان يثبت جداراته بهذا التشبه بل ان البعض يصل به الامر الى ان يحدثنا عن تغيرات عضوية اصابت المواطن اليهودي كنتيجة لذلك التغير العام الذي صاحب ورافق الثورة الفرنسية.

المرحلة الثانية للمشكلة اليهودية ظهرت خلال القرن التاسع عشر. ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر وفي اطار ذلك التطور العام للحركات الرجعية التي بدأت منذ مؤتمر فيينا حدثت انتكاسة لتلك الحقوق ولتلك الحريات التي اعطيت للمواطن اليهودي وبصفة خاصة من حيث الواقع. حركات التعصب ضد الاصل السامي بدأت مرة اخرى تنتشر وتتسع وتنغمر في شكل فيضان عام وبصفة خاصة عقب انتصار المانيا في الحرب السبعينية. وصلت الى قمتها مع قضية دريفوس المشهورة والتي ادت بهرتزل الى صياغة مؤلفه عن الدولة اليهودية.

ازاء ذلك عادت المشكلة اليهودية لتبرز مرة اخرى وكان من الطبيعي ان يتساءل المفكرون عن مسالك حل تلك المشكلة. تعددت الكتابات والمواقف ولكنها تركزت حول واحد من حلول اربعة: الهجرة الى المجتمع الامريكي حيث الامل معقود على عدم وجود تلك التقاليد الصارمة للكراهية ضد اليهود، او الاندماج في المجتمع البرجوازي القائم من خلال الزواج المختلط مع مايعنيه من فناء للشخصية اليهودية، الاندماج في الحركات الثورية الخفية التي بدات تسيطر على الشباب الاوروبي باسم اليسارية بقصد تحطيم المجتمع القائم وبناء مجتمع جديد، والحل الرابع والاخير وهو المطالبة بانشاء وطن قومي لليهود.

هذا الحل الاخير هو الذي سيطر على الفكر اليهودي في خلال الربع الاخير من القرن التاسع عشر ووصل الى قمته باسم الصهيونية السياسية.

الذي يعنينا بهذا الخصوص هو ان نلاحظ كيف ان الصهيونية السياسية لم تكن سوى رد فعل لاخفاق من خلال حركة ومنطق مصطنع يكون في حقيقته نوعا من الدعاية المنظمة:

اولا: هو رد فعل لاخفاق المواطن اليهودي في ان يثبت جدارته بأن يكون مواطنا قوميا كالاخرين بمعنى ان يندمج في المفهوم الحديث للمجتمع السياسي كما خلقته وبلورته تقاليد الدولة القومية.

ثانيا: ان الحركة الصهيونية بهذا المعنى تقوم على اساس منطق التشبه او هي بعبارة اخرى امتداد لما نسميه نظرية Assimilation في النطاق الجماعي عقب ان اثبتت فاعليتها في النطاق الفردي. الثورة الفرنسية اعطت اليهودي حقوق المواطن، الصهيونية تريد ان تعطي للمجتمع اليهودي حقوق المجتمعات القومية الاخرى. هي بهذا المعنى حركة جماهيرية تقوم في حقيقتها على اساس التشبه وترفض التميز.

ثالثا: وهي لذلك تخالف حقيقة التقاليد اليهودية. ان اليهودية كديانة وكدعوة الهية تفترض ان المواطن

اليهودي بحكم تاريخه وحكم ماتحمله من عذاب والم هو المواطن المختار. هو الذي سوف يقود الانسانية في لحظة معينة. انه يدفع ضريبة الخطيئة من خلال العذاب والالم والتشرد. هي تميز اليهودي. الصهيونية تطالب لليهودي بحقوق غير اليهودي وتعلن انه لافارق بين ماتسميه القومية اليهودية والقوميات الاخرى.

رابعا: وهي كذلك تخالف اليهودية الاصلية حيث ان هذه الاخيرة تقوم على اساس ان العودة الى الارض المقدسة انما تتم بناءا على دعوة وليست بعمل ارادي مرده تصميم وعزم المواطن اليهودي. الصهيونية السياسية تلغي هذه التقاليد وترفضها رفضا باتا ومطلقا.

خامسا: وهكذا الصهيونية في حقيقتها لاتعدو ان تكون نوعا من الدعاية او ان شئنا بعبارة اخرى اكثر دقة صورة من صور التسميم السياسي اساسها اقناع العالم بأن هناك مجتمع يهودي يمكن ان يوصف بأنه مجتمع قومي ويملك جميع عناصر ذلك المجتمع كخطوة اولى ومقدمة للحركة السياسية التي سوف يقدر لها ان تتبلور خلال الربع الثاني من القرن العشرين.

٩ـ مراحل تطور العمل النفسي في تاريخ الحركة الصهيونية:

العرض السابق يسمح لنا بأن نفهم لماذا متابعة التعامل النفسي في تقاليد الحركة الصهيونية يفرض علينا التمييز بين مراحل متعددة تبعا لتغير المواقف الذي كان لابد وان يفرض على الحركة الصهيونية التغيير في استراتيجيتها وبالتالي التغيير في عملية التعامل النفسي. واذا سلمنا كما سوف نرى فيها بعد ان الادب اليهودي خلال القرن التاسع عشر يمثل نوعا من الصهيونية الفكرية السابقة على الصهيونية السياسية وبصفة خاصة في محاولة تنظيف الطابع القومي اليهودي فاننا نستطيع ان نعود بعملية التعامل النفسي الى مرحلة سابقة على نفس الصياغة السياسية للحركة الصهيونية.

والواقع اننا لو نظرنا الى الحركة الصهيونية كتدفق سياسي مذهبي لوجدنا انها تتركز حول واقعتين: الواقعة الاولى هي الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر والواقعة الثانية انشاء دولة اسرائيل في منتصف القرن العشرين [٨]. الواقعة الاولى اخرجت المجتمع اليهودي من مجتمع الجيتو الى المجتمع القومي. لم يعد اليهودي يمثل الشخص المحتقر وانما هو المواطن صاحب الحقوق، انشاء دولة اسرائيل اخرج اليهودي من المجتمع القومي الى المجتمع العالمي بحيث لم يعد اليهودي يمثل اقلية رغم الاعتراف بحقوقها فهي دائما مجتمع هامشي وانما اضحى ينتمي الى دولة وتمثله اداة حكومية تتحدث باسمه في الاسرة الدولية. حول هاتين الواقعتين نستطيع ان نكتل جميع تطورات الحركة الصهيونية وتطور الفكر اليهودي في ابعاده السياسية. مختلف تقلبات الحركة اليهودية خلال القرن التاسع عشر لم تكن الا سعيا نحو تحقيق ذلك الذي اخفقت في تحقيقه من خلال الثورة الفرنسية.

السؤال الذي يفرض نفسه علينا: هل هزيمة ١٩٦٧ تمثل واقعة ثالثة تفصل بين مرحلتين من هذه الناحية؟ ان المتابع للمناقشات الحارة الدائرة في الاوساط الاسرائيلية وفي المؤتمرات الصهيونية يفرض على

---

(٨) قارن على وجه الخصوص TALMON, Israel among the nations. 1970, P. 74.

نفسه هذا التساؤل: ترى هل سوف يقدر لاسرائيل في خلال مرحلة قادمة ان تخرج من حدود الدولة القومية ذات السيادة المحصورة في اقليمها الى الدولة العالمية ذات الفاعلية في التلاعب في اطار التوازن الدولي؟ وهل يرتبط ذلك بمفهوم الوظيفة الحضارية للدولة العبرية، مفهوم سابق على وجود تلك الدولة ولكنه لم يقدر له الاينا ع الفكري والتأصيل الحركي والتخطيط السياسي الا عقب حرب عام ١٩٦٧؟ ان اسرائيل تحدثنا اليوم عما تسميه بالسلام العبري فهل هناك علاقة في هذا المفهوم بين طبيعة انتصار عام ١٩٦٧ واستغلال ذلك الانتصار في عملية خلق الانصار للدعوة الصهيونية؟

كل هذه علامات استفهام يتعين علينا ان نحاول الاجابة عليها بايجاز ودقة من خلال المتابعة التاريخية لنستطيع ان نفهم ابعاد الدعوة الأسرائيلية في اعقاب هزيمة حزيران [٩].

نستطيع في تاريخ التعامل النفسي للحركة الصهيونية ان نميز بين مراحل خمس:

المرحلة الاولى: ويمكن ان نسميها بمرحلة الدفاع اليهودي، مرحلة صهيونية سابقة على الصهيونية السياسية. هذه المرحلة التي تبدأ اجمالا منذ الثورة الفرنسية وتنتهي في نهاية القرن التاسع عشر هي مرحلة دعاية يهودية، اعدت للدعوة الصهيونية كحركة سياسية، قامت على اساس استخدام الأدب واعادة كتابة التاريخ كوسيلة من وسائل الدفاع عن الطابع القومي اليهودي. انطلقت الدعوة اليهودية خلال تلك الفترة من تقاليد الثورة الفرنسية، حيث نظر الى العمل الدعائي على انه ليس مجرد عملية توجيه وايهام وانما هو عناق حضاري ومن ثم فهو حقيقة ثقافية ترتبط ايضا بالتراث التاريخي. العلاقة بين الدعاية اليهودية السابقة على الصهيونية خلال تلك الفترة والحضارة الفرنسية عميقة ومتعددة الابعاد. هذه العلاقة واضحة في الادب العبري. فطيلة القرن التاسع عشر نظر اليهودي الى الثورة الفرنسية على انها تماثل خروج اليهود من مصر او نزول القوانين المقدسة على جبل سيناء. يقول «تالمون» بهذا الخصوص: «ان فرنسا اضحت بالنسبة للمهيود الوطن الثاني بل واضحت بالنسبة لليهود المتعصبين المؤمنين بقدسية الروح على المادة ارض الاباء الروحية الوحيدة»[١٠].

كان من الطبيعي ان يؤدي هذا الى صدام بين الطابع القومي الفرنسي والطابع القومي اليهودي. فالتأكيد على ذاتية المجتمع اليهودي لا بد وان تقود الى تميزه وبالتالي الى انفصاله ومن ثم الى صدام مع الطابع القومي الكلي الذي يعايشه. هذا الصدام الذي انتهى بقضية دريفوس المشهورة كان لابد وان يؤدي الى فرض تلك النتيجة: وهي ان الدعاية ليست هي الدعوة. الدعاية التي تتجه الى المجتمع الفرنسي لتحقيق احترامه لليهودي وتعاطفه معه ليست هي الدعوة التي تتجه الى اليهودي لتأكيد ايمانه بذاته وتميزه عن غيره بل

---

(٩) يرتبط بهذا التساؤل تساؤل اخر يدور حول باب الهجرة السوفيتية الى اسرائيل في اعقاب حرب عام ١٩٦٧. قبل ذلك التاريخ بعام تقريبا المؤلف السابق ذكره في معرض حديثه عن نماذج الادراك الذاتي لليهودية يعلن بصراحة: ان المجتمع اليهودي في روسيا السوفيتية هو الذي يملك الاجابة على جميع استفهامات المستقبل. انظر تالمون، م. س. ذ، ص ١٢٧، وقارن حديث رئيس اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية بن كويس الذي نقله الصحفي المشهور موسى كوهن على صفحات الجيروزاليم بوست بتاريخ ١٩٦٨/٦/٦ حيث وجه اليه السؤال التالي: لماذا الصهيونية تمثل اسما سيئا؟ فاجاب: «اذا كانت الصهيونية اضحت تمثل اسما سيئا في اسرائيل فان هذا ليس ذا دلالة مطلقة. ولكن في كثير من البلاد فان موقع الحياة اليهودية من الممكن ان يصير مخيفا لو لم توجد الحركة الصهيونية» قارن ايضا نفس الجريدة بتاريخ ١٩٦٩/٦/٢٩ و ١٩٦٧/٦/١٠، ١٩٦٨/١٢/١٣.

(١٠) التفاصيل يجدها القارىء في مؤلفنا بعنوان: الصهيونية السياسية والدعوة العقيدية، حول تطور العمل الدعائي اليهودي قبل انشاء الدولة العبرية، انظر حامد ربيع، دراسات اساسية م، س، ذ ص ١٧ وما بعدها.

ورفض الاندماج مع المجتمع الكلي»[11].

المرحلة الثانية : والتي تجعل منطلقها التاريخي كتاب الدولة العبرية تعلن عن تكامل الحركة السياسية باسم الدعوة الصهيونية . منذ أن وضع هرتزل كتابه عن الدولة العبرية وبصفة عامة ابتداءا من القرن العشرين حتى بداية الحرب العالمية الثانية تغيرت الدلالة الحقيقية للتعامل النفسي بين الحركة الصهيونية والمجتمع الذي يتجه اليه بالخطاب . ان الحركة الصهيونية خلال تلك المرحلة لاتتجه الى المجتمع الجماهيري ولا تريد ان تحصل على التأييد العالمي وانما تسير بحذر وعناية ساعية نحو مراكز القوى السياسية في العالم المتمدين بقصد الحصول على تقبل شرعية التواجد اليهودي في الاسرة الدولية[12]. وهكذا نلحظ كيف ان هرتزل يخاطب الاصدقاء والاعداء بلغة واحدة وهي لغة المصالح . وهو لايعرف بعد مفهوم الانصار كمفهوم متميز عن اولئك الذين نستطيع ان نسميهم المؤيدين . الوسيلة دائما في كلا الحالتين الاقناع وتشويه الطابع القومي العربي لا موضع له وتحليل الطابع القومي اليهودي يتخذ موقف الدفاع ويرفض اسلوب الهجوم والتحدي . انه الرجل الضعيف او صاحب القوى المحدودة الفاعلية التي تريد ان تتعلق بمراكز القوى وان تحصل على تأكيد الشرعية حتى ولو على حساب نفسها[13] . هذه المرحلة تمركزت فيها الحركة الصهيونية في جنيف ، ورغم وجود بعض الاسماء الضخمة التي ساعدت على تأصيل العمل الدعائي للحركة الصهيونية الا انها محدودة الاهمية في نطاق التحليل الذي نتناوله . على ان ذلك لايمنع ان نتذكر كيف ان نويمان[14] استطاع ان يدفع بما اسمي لجنة الاعلام العام التي انشئت في عام ١٩٢٩ في امريكا بدفعات قوية وصلت اقصاها عندما صدر الكتاب الابيض في عام ١٩٣٩ حيث استطاعت هذه اللجنة ان تدفع بارسال نصف مليون تلغراف الى البيت الابيض وان تحقق تجمعا ضم ربع مليون يهودي وهو يصيح بالاغنية التقليدية «اذا نسيتك انت يابيت المقدس، فلتصب ذراعي اليمنى بالشلل» .

تأتي المرحلة الثالثة والتي تعنينا على وجه الخصوص وهي تلك التي تمتد منذ بداية الحرب العالمية الثانية وتنتهي بالاعتراف الدولي الصريح بانشاء اسرائيل . هذه المرحلة هي التي عرفت انتقال الحركة الصهيونية الى الولايات المتحدة حيث جعلت هدفها خلق تيار قوى من الرأي العام الامريكي يقوده مجلس الطوارىء

---

(١١) انظر حول اهمية قضية دريفوس في تاريخ الحركة الصهيونية لاكوير، م.س. ذ. ص ٣٢ وما بعدها وكذلك على وجه الخصوص قارن :
MARRUS. The politics of assimilation, 1971, P. 196. بالكثير من الغموض الذي يمنع من مواجهة عناصر منطقها بوضوح وصراحة . والواقع ان الحجج التي تستند اليها الصهيونية جميعها حجج ضعيفة قابلة للمناقشة والرفض دون صعوبة انظر على سبيل المثال . ALEN , Juifs et arabes: 3000 ans d'histiore, 1968, P. 303.

وهنا لابد من سؤال نطرحه على انفسنا : لماذا لم تحاول اجهزة الاعلام العربي حتى الان ان تتناول هذا الموضوع الذي يمثل نقطة الانطلاق الحقيقية في الدعاية الاسرائيلية بالنسبة للرأي العام الاوروبي؟ يضاعف من ذلك ان الرأي العام الاسرائيلي بصفة خاصة عقب عام ١٩٦٧ بدأ يناقش شرعيته بل ويشك في تلك الشرعية وبصفة خاصة بخصوص بعض المناطق المحتلة او بعبارة ادق يناقش منطقية الاستناد الى نفس الحجج التي سبق واستندت اليها الحركة الصهيونية قبل ذلك التاريخ . فهناك قسط معين من الرأي العام لم يعد يقبل الحديث عن الارض الموعودة ومبدأ الشعب المختار . ليس هذا موضوع هذه الدعوى ولا مناقشتها . ولكن السؤال الذي نطرحه ونلفت بخصوص موضوعه النظر يدور حول اهمية هذا المدخل للتكشيك من شرعية الوجود الاسرائيلي في المنطقة وسواء ترتب على ذلك التشكيك الاقناع بعدم احقية اليهودي في الاستيطان او الاقناع بعدم احقية اسرائيل في التوسع والحديث باسم المنطقة فان النتيجة دائما تعني كسباً للقضية العربية . مرة اخرى نكرر : اين الاعلام العربي واين التخطيط الحقيقي للدعوة العربية؟ انظر ايضا HALPERN, The idea of the Jewish state, 1961, P. 376.

(١٢) شرعية الوجود الاسرائيلي من بين المنافذ التي تسعى الحركة الصهيونية دائما الى تشويهها واحاطتها

(١٣) حامد ربيع، فلسفة الدعاية، م. س. ذ. ، ص ١٨٧ وما بعدها .

HALPEREIN, The Political world of american zionism, 1961, P. 220.

الصهيوني من خلال مسالك معينة بحيث تتبنى السياسة الامريكية مهمة الدفاع عن شرعية اقامة دولة عبرية. الصهيونية السياسية وهي تعبر عن حقيقة العصر وحقيقة المجتمع الذي تتفاعل معه وتتفاعل به لابد ان تجعل اسلوبها يغلف بمنطق جديد ويستند الى مسالك جديدة. هذه المرحلة هي التي عرفت بوضوح عملية التميز بين الدعاية والدعوة ووضعت الاصول الفكرية للتفرقة بين حقيقة الخطاب الذي يتجه الى خلق الانصار وحقيقة التعامل الذي يؤدي الى تعميق علاقة التأييد (١٥).

تأتي عقب ذلك المرحلة الرابعة والتي تمتد قرابة عشرين عاما منذ الاعتراف الصريح بشرعية الوجود الاسرائيلي. خلال هذه المرحلة الهدف من الدعاية يصير اقل وضوحا واقل تحديدا ولكنه اكثر تنظيما واقوى فاعلية. الدولة الاسرائيلية تريد ان تحقق الكثير: تأكيد للشرعية، اعتراف قانوني بالتواجد من جانب الدول التي تنتمي الى المنطقة، تقديم صورة قومية نظيفة لليهودي تصل الى حد استحواذ الاعجاب من جانب الرأي العام المتمدين وغير المتمدين، اهداف متسعة ولكن ادواتها اكثر قوة واكثر فاعلية. فالدولة الاسرائيلية لها وجودها الدولي وهي اداة تستطيع ان تتحدث لافقط في نطاق رسمي بل وباسم الاقليات اليهودية في جميع انحاء العالم. على ان هذا التعدد للاهداف وهذا التنوع في المشاكل فضلا عن الاضطراب الداخلي في الحياة السياسية وعدم وضوح طبيعة العلاقة بين الدولة العبرية واليهود في الدياسبرا ادى الى تشويه العلاقة بين الدعاية والدعوة. صحيح ان هذا التشويه لم يصل الى اقصاه وانه في خلال مراحل معينة وضحت بشكل صريح حقيقة التفرقة بين عملية خلق الانصار وعملية خلق المؤيدين. على ان هذه التفرقة لم تبرز واضحة لتعيد التقاليد التي سبق ان وضعتها الحركة الصهيونية منذ ان انتقلت الى نيويورك في اوائل الحرب العالمية الثانية الا في اعقاب هزيمة ١٩٦٧..

---

(١٥) ملحوظة سبق ان تناولناها في غير هذا الموضع تدور حول النقص الواضح في التحليل الذي درج عليه العلماء العرب عندما يتعرضون لدراسة الصهيونية السياسية اذ لم يحاولوا باي شكل كان ان يربطوا في هذه المذهبية بين الحركة السياسية والنواحي الدعائية وقد احلنا اسباب هذه الظاهرة الى عاملين: من جانب غلبة المنهاجية التاريخية في اسوء تقاليدها بمعنى النظرة الى التاريخ على انه تسجيل حوادث او متابعة احداث، دون اي محاولة للربط بين تلك الحوادث والاحداث من جانب والاطار الفكري العام من جانب اخر. ولعلنا لسنا في حاجة بهذا الخصوص الى ان نذكر علمائنا العرب بما فعلته الحضارة الالمانية وعلى رأسها مومسن، عندما استطاعت من خلال تاريخ المجتمع الروماني، ان تقود حركة الخلق والابداع الفكري من جانب والحركة الوحدوية من جانب اخر. كتابة التاريخ هي ايضا اسلوب من اساليب الصراع الفكري في سبيل تأكيد الذات القومية ولكن هذه الحقيقة تغيب كلية عن علمائنا. والعامل الثاني يرتبط باللغة العبرية والمعرفة بها. فنحن لانستطيع ان نتصور مشتغلا بالحركة الصهيونية وبصفة اخص التطور الاسرائيلي المعاصر دون المام بتلك اللغة. ان مجرد الاستناد الى بعض المصادر المنقولة باللغات الاخرى لايمكن ان يكفي بهذا الخصوص ويعود ذلك الى عوامل عديدة. فالى جانب كون هذه المصادر في هذه اللحظة لاتصير اصلية ومباشرة كما هو واضح فعلينا ان نتذكر ان الفقه الاوروبي كما بينا في غير هذا الموضع هو باجمعه لايعرف اي درجة من درجات الحياد. انه عدا استثناءات قليلة ومحدودة تختفي في الطوفان الفكري المعاصر يدافع اساسا عن القضية الصهيونية وهو ابتداءا من تلك المقدمات لايمكن ان يعكس الحقيقة التاريخية الا مشوهة او جزئية. بل الاكثر من ذلك ان هناك قسط ضخم من الفكر الاوروبي انما يعبر عن ابواق الدعاية الصهيونية المخططة بدقة واحكام. ولعل نموذج واحد كافي لتأكيد هذه الملاحظة وقد تناولناه في غير هذا الموضع ولكنه جدير بالتنبيه المؤلف الذي اصدرته الاهرام بعنوان نهاية التاريخ ومصدره الوحيد مجموعة مقتطفات اختارها احد دعاة الصهيونية بحبكة وعناية وطبقا لتخطيط مسبق ومدروس ليستطيع من خلال نشرها في المجتمع الامريكي ان يحصل على تأييد هذا المجتمع للقضية الصهيونية. انظر تفاصيل نقد هذا المؤلف وتحليل الاخطاء العلمية التي وقع فيها، حامد ربيع، عملية صنع القرار السياسي، م. س. ذ.، جزء اول، ص ١٥ وما بعدها. نموذج اخر قد يكون اقل خطورة من ذلك السابق ذكره ولكنه يعكس بدوره هذا النقص الخطير في الاطار الفكري لمتابعة تحليل الحركة الصهيونية يقدمه لنا وليد الخالدي في كتابه باللغة الانكليزية باسم: From heven to conquest. انظر نقدنا للمؤلف المذكور في حامد ربيع، دراسات اساسية، م. س. ذ. ك ص ٢٩ وما بعدها.

قبل ان ننتقل الى المرحلة الخامسة والتي تنتهي عند عام ١٩٦٧ علينا ان نتذكر علاقة الشطور المتتالي والاستمرارية الثابتة في المراحل الاربع السابقة: المرحلة الاولى والتي ابتلعت القرن التاسع عشر نستطيع ان نسميها بمرحلة الدفاع عن اليهودية السياسية. استخدام الادب وعملية التأريخ كلاهما وسيلة من وسائل الدفاع عن الطابع القومي اليهودي لاحياء الشعور بأن اليهودي لا يختلف عن غيره وان عليه ان ينظر الى الاخرين نظرة المساواة لانظرة التبعية. هي دعاية حضارية دفاعية ولكنها اعدت للصهيونية كدعاية سياسية.
المرحلة الثالية تصير فيها الدعاية الوجه الآخر للحركة السياسية. رغم اختلاف منطلقاتها واختلاف فتراتها الزمنية الا ان المحور الذي يسيطر على الدعاية خلال تلك الفترة هي انها تتجه الى الرأي العام الدولي وعلى وجه التحديد ذلك الرأي العام الذي يستطيع ان يؤثر في القوى المتحكمة في السياسة الدولية بقصد اكتساب تلك الشرعية التي هي في أشد الحاجة اليها. منطلقاتها تتأرجح بين الدعاية والدعوة ولكنها تقوم اساسا حول عملية تخدير كاملة لحقيقة اهداف الحركة الصهيونية حتى لو اضطرت الى ان تعادي ابنائها الذين يفضلون اسلوب الدعوة على اسلوب الدعاية. ونموذج ذلك نستطيع ان نجده واضحا في حركات جابوتنسكي واعوانه. دعاية سياسية حركية ولكنها دولية. المرحلة الثالثة وتنتقل فيها الحركة الصهيونية الى المجتمع الامريكي حيث تتحدد اهداف الحركة بخلق تيار قوي من الرأي العام المحلي يقود من خلال مسالك معينة الى أن تتبنى السياسة الامريكية الدفاع عن شرعية اقامة دولة عبرية. التعامل النفسي خلال تلك المرحلة سوف يختلف من حيث طبيعته: انه دعاية داخلية ترافقها دعوة ايضا داخلية وتنبع من مواقف محلية بقصد التحكم في القوى السياسية الامريكية. تأتي عقب ذلك مرحلة رابعة تميزت بالاعتراف الدولي الصريح بالاداة الحكومية الامر الذي كان لابد وان يصبغ الدعاية بطابع متميز: انها دعاية سياسية قومية داخلية وخارجية في ان واحد.
المرحلة الخامسة تبدأ منذ عام ١٩٦٧. ان واقعة حرب الايام الستة تمثل نقطة الانطلاق في حركة تدريجية ترمي الى تحويل استراتيجية القتال الى استراتيجية سلمية اساسها التغلغل النفسي بالاقناع والاتصال المباشر. لن تنجح الدعاية الاسرائيلية بهذا الخصوص دفعة واحدة بل ويمكن القول بأنها فشلت جزئيا في بداية هذه المرحلة كنتيجة لعدم وضوح الابعاد او بعبارة ادق كنتيجة للغرور الذي اصاب السياسة الاسرائيلية ولكنها عقب معركة اكتوبر سرعان مااستطاعت ان تندمج بكامل قوتها مستغلة الاطار الجديد للاوضاع السياسية في المنطقة لتحقيق تلك الاهداف الدعائية التي فشلت في تحقيقها عقب النصر العسكري مباشرة. هذه المرحلة هي مرحلة التسميم السياسي.
نتابع هذا الايجاز في علاقته بهدفنا الاصيل بشيء من التفصيل.

المبحث الثاني

الدعوة وتقاليد الحركة الصهيونية

١٠ـ انشاء لجنة الطوارىء للمشاكل الصهيونية واعادة تنظيم الجهاز الدعائي:

في اوائل الحرب العالمية الثانية وفي اثناء انعقاد الجلسة الواحدة والعشرين للمؤتمر الصهيوني العالمي في جنيف وعلى وجه الخصوص في أغسطس ١٩٣٩ اتخذ قرار حاسم كانت له اخطر النتائج. رغم ان هذا القرار كان مبعثه ظروف مستقلة عن العمل الدعائي الا انه دفع بعملية التعامل النفسي من جانب الدعوة الصهيونية بخطوات حاسمة [١٦]. القرار هو انشاء لجنة الطوارىء للمشاكل الصهيونية وجعل مقرها الدائم مدينة نيويورك والتسليم لها بأن تقوم بوظائف القيادةالسياسية للحركة الصهيونية. مرد ذلك يعود الى عاملين: اهمية اليهود الامريكيين وقد اضحوا يكونون مركز الثقل في الصهيونية العالمية، ولكن بصفة خاصة احتمالات القتال في اوروبا واحتمالات الانتصارات النازية وتوقعات الحرب الطويلة الامد الامر الذي لا بد وان يفرض قطع الصلات الحقيقية مع يهود وسط وشرق اوروبا دفع بالحركة الصهيونية العالمية الى ان تنقل مركزها القيادي الى نيويورك، وكان من الطبيعي ان تقتنع هذه اللجنة الجديدة بأن واجبها الاساسي هو خلق رأي عام محلي ذو فاعلية ليساند الحركة الصهيونية في حركتها السياسية [١٧]. على ان العامل الحاسم الذي حقق الدفعة الحقيقية لخلق البناء النظامي الذي استطاع ان يقوم بعملية تحويل كاملة للرأي العام الامريكي واليهودي في تلك المنطقة هو الاستقالة التأريخية التي قدمها نويمان في ديسمبر عام ١٩٤٢.

يعلن نويمان بمناسبة الاستقالة ان الدعاية الصهيونية لن يقدر لها ان تحقق غايتها طالما ان اللجنة التي تشرف عليها لا تعدو أن تكون تجمعاً للخلافات الشخصية ومن ثم فهي تصوير للتذبذب الذي لا يستقر على قاعدة واحدة في عملية الانطلاق الحركي: اسلوب العنف والمواجهة، من جانب وسياسة التوفيق والمهادنة

---

(١٦) هالبرين، م. س. ذ.، ص ١٨٣ ومابعدها.

(١٧) علينا ان نلاحظ بهذا الخصوص مدى عمق التخطيط الدعائي الصهيوني. فلو ان الحركة الصهيونية جعلت منطلقها الدعائي لندن او جنيف لما كانت قد استطاعت ان تغزو الرأي العام الامريكي. السبب في ذلك يعود اساسا الى ذلك المتغير الذي كثيرا مايخفي على المسؤولين عن الاعلام العربي وهو ان الدعاية الداخلية تختلف اختلافا جذريا عن الدعاية الخارجية. انتقال الحركة الصهيونية الى الولايات المتحدة سمح لها ان تجعل منطلقها الاتصالي هو نظرية الدعاية الداخلية على عكس ماكان يمكن ان يحدث لو قدر لها ان تتمركز في جنيف او لندن اذ ان دعايتها في تلك اللحظة تصير دعاية خارجية. والواقع ان الحركة الصهيونية منذ بدايتها فهمت هذه الحقيقة، وهي لذلك عندما ارادت ان تقوم بدعاية في اوساط الطبقة الحاكمة التركية ومنذ بداية القرن الحالي، ارسلت اثنين من قادتها ومفكريها وهم اولا جابكوسن يساعده الزعيم المشهور جابوتنسكي للاشراف على اجهزة الدعاية الصهيونية ابتداءا من القسطنطينية واستنادا الى الاقلية اليهودية الضخمة التي كانت ولاتزال متشرة في تلك المنطقة. والواقع ان مرد الاهتمام في تلك اللحظة بخلق حركة دعائية منطلقة من تلك المنطقة يعود الى قيام حركة تركيا الفتاة، وهي حركة كانت تسير في اتجاه ثابت نحو التأكيد على قومية المجتمع التركي وعلى التقليل من اهمية الارتباط بالعالم الاسلامي والعربي. وقد تجلى ذلك في مجموعة المقالات التي نشرها جابوتنسكي في عام ١٩٠٨ بعنوان «تركيا الجديدة. . . » حيث طالب بمبدئين الاول هو النظر الى السياسة على انها قوة وفقط قوة واعتبار الحركة الصهيونية حركة سياسية ومن ثم يجب ان تسعى الى امتلاك القوة بجميع ادواتها ومظاهرها. الامر

الثاني ان على السياسة الصهيونية الا تبالغ في تقدير قوة العرب والا تجعل موضع اعتبارها سوى الصلحة الحقيقية للمجتمع اليهودي بصراحة وبوضوح. والذي يجب ان نلاحظه في هذا المنطق ان جابوتنسكي انما استخدم المنطق التركي الذي ساد الحركات الثورية في تلك الفترة ونقله الى لغة الدعاية الصهيونية. وهكذا لم يتردد في ان يعلن كما سبق ورأينا في غير هذا الموضع كيف ان اسلوب الدعاية آن له ان يختلف وان على دعاة الصهيونية ان يلجأوا الى اسلوب الصراحة دون مغالطة. وكما سبق ورأينا في غير هذا الموضع كيف طالب ان تعلن بصراحة ووضوح اهداف الحركة الصهيونية في تركيا، وتحديدها بانها انشاء الدولة العبرية.

فهو هنا في عام ١٩٠٨ يطالب برفض الشعار الداعي الى التظاهر بالذهاب الى فلسطين لمجرد «زراعة الارض». وعقب ان غادر تركيا لفترة قصيرة عاد جابوتنسكي في يونيو عام ١٩٠٩ ليشغل منصب المسؤول الصهيوني عن جميع انواع الاعلام اليهودي. كانت الدعاية الصهيونية قبل ذلك «تقوم على تضليل رجال تركيا الفتاة في محاولة اقناعهم بان الصهيونية لاتسعى لاقامة دولة يهودية في فلسطين بل الى مجرد السماح لهجرة اليهود بحرية والى نيل استقلال ذاتي في الحقل الثقافي البحت» على العكس من ذلك بدأ جابوتنسكي تعاملا اساسه الدعوة في مفهومها الحقيقي: ليس الكذب وانما الصدق، ليس محافله الحصول على التأييد وانما السعي نحو خلق الانصار الاقليات لم تتردد على لسان زعمائها في ان تطالب بتأييد الهجرة اليهودية خلال الاعوام الاولى اللاحقه للحرب العالمية الثانيه. ولنتذكر ان الاحزاب الشيوعية والحركات اليسارية في نفس تلك الفترة كانت تؤيد انشاء الوطن القومي اليهودي في الارض الفلسطينية. على ان اخطر مايجب ان نلاحظه هو ان زعماء العرب وقادة الحركات المحلية القومية نظروا الى تلك الحركة باستخفاف دون اي محاولة جادة من جانب المفكرين لتحديد مدى الصدام الحركي البعيد المدى بين القومية الاسرائيلية والقومية العربية. ان السبب الحقيقي الذي يستتر خلف هذا الاخفاق يعود الى ان القومية العربية في خلال تلك الفترة لم تكن قد وجدت بعد صياغتها التي تسمح لها بفهم ابعادها الاقليمية والعالم العربي خرج مفتتا عقب الحرب العالمية الاولى دون ان يجد وحدته لا الفكرية ولا الحركية. وهكذا نستطيع ان نحدد اسباب هذا الاخفاق في الابعاد التالية:

(أ) عدم وجود فكر قومي عربي.
(ب) عدم وجود فكر قومي فلسطيني.
(جـ) عدم ادراك لحقيقة الحركة الصهيونية.
(د) اختفاء القيادات المحلية المعبرة عن المصالح الذاتية والقادرة على فهم ابعاد المشكلة مجردة عن التصور والادراك الغربي.
انظر لابير. م. س. ذ.، ص ٢٩٢ ومابعدها.

وقد افلح جابوتنسكي خلال تلك الفترة في خلق المساندة والاقتناع العقيدي من جانب عدد لابأس به من الشخصيات اليهودية التركية. شجعه ذلك على اعداد خطة بقصد تنفيذ حركة ثقافية تربط اليهودي بتقاليده الحضارية. من تلك الحركة انطلقت فكرة قيام الجامعة العبرية. قارن ايضا معلومات لا بأس بها في: HERTZBERG, The zionist idea, 1959, P. 556. لاحظ ان هذا المؤلف ترجم الى اللغة العربية من جانب مركز الابحاث بعنوان الفكرة الصهيونية، النصوص الاساسية، اشراف انيس صايغ، والغريب ان المركز المذكور في ان يخبرنا باسم المؤلف في طبعته العربية. ترى هل كان يعلم ان هرتزبرج هو احد اعلام الدعاية الاسرائيلية؟ وليس ادل على صدق هذه الحقيقة هو ان من صدر هذا الكتاب هو نويمان الذي ابرزنا في هذه الدراسة مدى اهميته في تاريخ الصهيونية وكيف انه يجب ان يعتبر الى جوار اثنين آخرين المخطط الحقيقي لجميع حركات الدعاية والدعوة من جانب الحركة الصهيونية ابتداء من الحرب العالمية الثانية حتى هذه اللحظة. يقول نويمان في المقدمة التي ذكرها في صدر هذا الكتاب والتي اغفلها بطبيعة الحال من تولي الترجمة باللغة العربية «ان المؤلف الحالي يطرح مناسبة لدراسة اصول فكرة استطاعت ان تكتل شعب وان تخلق امة بل وان تصنع التاريخ» ويضيف الى ذلك كيف ان مصادر هذه الدراسة قدمت في صورتها الاصلية من خلال متابعة كبار المفكرين لتكون مايسميه التأريخ الفكري للثورة الصهيونية. والامر الاكثر مدعاة للدهشة هو هو ان هرتزبرج قدم في النص الانجليزي دراسة تحليلية عن الفكرة الصهيونية تصل الى حوالي مائة صفحة بحيث تكون في ذاتها. مؤلفا على حدة. في هذه المقدمة يلحظ القارىء اعتدال واضح في تحليل الصهيونية. فهو يقول في ص ١٧: «حتى اليوم وعقب انشاء اسرائيل لايمكن القول بأن الصهيونية قد نجحت او فشلت» ثم يعود في نهاية دراسته فيعلن «ليست وظيفة المؤرخ ان يناقش تأييدا او رفضا لصدق ما ورد في هذه الادعاءات. وظيفته اكثر منذلك اعتدالا: ان يصف وجود مثل تلك الحالة العقلية» نحن نستطيع ان نطرح التساؤل: لماذا اهملت هذه المقدمة عن عمد؟ انظر انيس صايغ، الفكرة الصهيونية، النصوص الاساسية، ١٩٧٠، ص ٧.

من جانب أخر. ودون أن يتحقق ذلك على الاقل من خلال تخطيط وتنسيق ينبع من حقيقة وخصائص موقف المواجهة. انها كما يقول القائد الروحي السابق ذكره في حاجة الى ادارة مركزة ومركزية وعليها ان تضع برنامجاً لنشاطها وان تملك ميزانية قادرة على أن تواجه المهمات الخطرة التي عليها ان تؤديها. هذه الاستقالة وما ارتبط بها من حوادث وما سبقها من فشل وما أعقبها من نجاح هي التي يجب ان تكون المنطلق الحقيقي لفهم فلسفة العمل الدعائي الصهيوني بما في ذلك حقيقة التنظيم الفعال الذي مكن الحركة الصهيونية من ان تحقق اهدافها النفسية بنجاح وكمال لا موضع للمناقشة في حقيقته حتى قبل انشاء الدولة الاسرائيلية [١٨].

بناء على الاقتراح المقدم من وايزمان والذي عرض على المنظمة الصهيونية العالمية في اغسطس ١٩٤٣ تم اتخاذ قرار مزدوج وضع حداً لحالة الاضطراب وعدم الوضوح التي كانت تسيطر على الجهاز الدعائي الصهيوني:

اولا: اعادة تنظيم مجلس الطوارىء للصهيونية الامريكية.

ثانيا: اختيار رئيس للمجلس الحاخام اباهليل سيلفر يساعده الحاخام «ستيفن وايز» على ان يتولى الاول ايضاً رئاسة المجلس التنفيذي.

المجلس الجديد طبقاً لهذا التعديل اضحى يتكون من سته وعشرين شخصاً يمثلون اللجان التنفيذية الاربعة للقوى السياسية الصهيونية مع عدد مماثل للشخصيات القيادية المفكرة التي يتم اختيارها بناء على قدراتهم الذاتية [١٩].

تحددت منذ تلك اللحظة اهداف العمل الدعائي بالنسبة للصهيونية السياسية في اربعة ابعاد:

أ ـ اكتساب الرأي العام المحلي الامريكي بحيث يصير قوة مساندة للحركة الصهيونية في النطاق الدولي.

ب ـ القضاء على اي فرقة داخلية من حيث التعبيرات الدعائية ان خلافات الاسرة لا يجوز ان تخرج عن نطاق منزل العائلة امام المجتمع الخارجي بحيث يجب ان تظهر الحركة الصهيونية قوة واحدة متماسكة لا تنفصم.

ج ـ الحركة الدعائية وقد اضحت مركزية، مركزة ومتناسقة فمن الطبيعي ان يسهل عليها ان تصير عدوانية مهاجمة استفزازية والا تكتفي باتخاذ موقف الدفاع عن القضية.

د ـ وذلك الى جانب خلق درجة معينة من درجات التضامن مع المجتمع اليهودي الامريكي والحركة الصهيونية اساسها لا فقط الايمان بتلك الدعوة بل والتعصب في الدفاع عن المبادىء التي تتضمنها العقيدة الجديدة [٢٠].

الذي يعنينا من دراسة هذه المرحلة على وجه الخصوص امرين: اولهما تحليل طبيعة التخطيط الدعائي للصهيونية السياسية ثم ثانياً دراسة اولئك الدعاة الذين قادوا هذا التخطيط من خلال اصول فكرية واضحة ومحددة.

---

(١٨) هالبرين، م. س. ذ.، ص ٢٥٩ ومابعدها.

(١٩) نفس المرجع السابق ذكره ص ٢٦٤.

(٢٠) انظر خطبة سيلفر التي القاها امام مؤتمر اليهودية الامريكي في ١٩٤٣ والذي اورده ايضا هوتزبرج، م. س. ذ.، ص٥٩٢ وما بعدها.

١١ـ الخلفية الاجتماعية للعمل الدعائي الصهيوني:

تحليل التخطيط الدعائي للصهيونية السياسية خلال الفترة السابقة على الاعتراف الدولي بالحقيقة العبرية لا يمكن ان يكون كاملاً ومعبراً عن حقيقة التطور الذي اصاب الرأي العام الامريكي خلال تلك الفترة اذا لم نوسع حدود الدراسة ونطلق ابعاد التحليل: مكاناً وزماناً وموضوعاً.

علينا ونحن نسعى الى فهم كيف نجح اولئك الدعاة ان نقف قليلاً وان ننحني اعترافاً لا فقط بالقوة والاصالة بل وايضاً بالقدرة على المغامرة والصلاحية على تحقيق الاهداف التي تحددت بوضوح فاذا بذلك المجتمع الممزق يتكتل في قبضة واحدة تسعى لتؤكد ذاتها وتثبت ان عشرين قرناً من المهانة لم تفعل سوى ان تزيد من تصميم الارادة على تحقيق الرسالة الالهية.

لنستطيع ان نفهم حقيقة هذا التطور فلنتصور شرائح المجتمع الذي كانت تتجه اليه الصهيونية السياسية بالتعامل والعناق او الاتصال في اوسع معانيه.

فهناك اولاً اليهودي الامريكي: الهدف بخصوصه واحد لا يتعدد هو خلق المؤمن المتعصب النقي الذي هو على استعداد لان يتخلى عن كل شيء، ثروته واسرته بل وحياته في سبيل الارض الموعودة واذا كان هذا الهدف يمثل الحد الاقصى فهناك حد ادنى للحركة السياسية في مواجهة اليهودي الامريكي: التأييد المادي والمعنوي الايجابي والمنتظم المستمر الذي لا ينقطع ولا يتوقف [21].

ثانياً: ثم هناك الامريكي غير اليهودي: وهنا الهدف يختلف ودرجة اتساعه تتنوع. الدعاية الصهيونية تسعى لان تخلق من ابناء المجتمع الامريكي غير اليهودي موجات كاملة لتأييد القضية او على الاقل العطف عليها، ولكنها لا تقتصر عند هذا الحد بل هي ايضاً تتجه الى ابعاد معينة في خلق فئة من بين الشرائح التي وصفناها بأنها مجتمعات امريكية غير يهودية ترتفع الى مستوى التعصب والايمان فاذا بها صهيونية رغم انها غير يهودية.

ثالثاً: ولكن هذه الدعاية وهي تتجه اصلاً الى المجتمع الامريكي لا تنسى من هو خارج المجتمع الامريكي وبصفة خاصة من آمن بالصهيونية واضحى بالنسبة للقضية يمثل الطابور الخامس في المجتمعات الاوروبية حيث لا يزال لتلك المجتمعات أهميتها وقدرتها في نطاق التوازن الدولي وبالتالي في صنع القرار السياسي.

وهكذا نجد الطبقات والشرائح تتداخل: فاليهودي منه الصهيوني وغير الصهيوني، والصهيوني منه اليهودي وغير اليهودي ومستقبل الدعاية منه الامريكي وغير الامريكي [22]. واذا كان غير الامريكي قد نزل الى المرتبة الثانية من حيث الاهتمام الدعائي خلال هذه المرحلة، فأن غير الامريكي المقيم بفلسطين والذي يقوم بعملية الفاتح الغازي المصارع دون حماية ودون امكانية مواجهة عداوة محلية حقيقية والتي لا يزال العالم لم يكتشف بعد انها عداوة هشة تافهة لا قيمة لها لانها منهارة على نفسها متخلخلة قد فقدت الايمان بقضيتها

---

(٢١) هالبرين، م.س.ذ.، ص ٢٩٨ وما بعدها.

(٢٢) SCHECHTMAN, The United States and the jewish State movement, 1966, P. 404.

وبرسالتها في الوجود التاريخي، لا يمكن ان يتركه جانبا الدعوة الصهيونية

كل هذا لا بد وان يفرض تخطيطاً متكاملاً.

فما هي العقول الخلاقة التي استطاعت ان تحقق هذه العملية؟

١٢ـ القيادة الفكرية للعمل الدعائي الصهيوني في المجتمع الامريكي:

عندما نتعرض للتأصيل التاريخي للتعامل النفسي للحركة الصهيونية وبصفة خاصة خلال هذه الفترة. فأن اسماء ثلاثة لا بد وان تفرض نفسها على انها وحدها التي استطاعت ان تضع اصول النجاح الصهيوني خلال هذه الفترة،سبق ان ذكرنا اثنين في هذا الشأن: نويمان وسيلفر وعلينا ان نضيف الى جانب هذين الاسمين اسم آخر لعالم له شهرة دولية في نطاق التحليل السلوكي وهو الالماني الاصل «لوين».

فلنتابع في عجالة سريعة افكار كل من هؤلاء الثلاث:

نويمان قائد صهيوني وصل الى الولايات المتحدة وهو طفل ومنذ اعوامه الاولى تعلم اللغة العبرية بل ولم يكن يتحدث في منزله سوى بتلك اللغة. ولد في فيلادلفيا عام ١٨٩٣ ومنذ شبابه الاول اشتهرت عنه الحركية حتى انه في عام ١٩١٠ وهو في السابعة عشرة من عمره اسس ما يسمى بجمعية الشباب اليهودي. اشترك في المؤتمر الصهيوني عام ١٩٢٠ وتدخل طرفاً في الخلاف المشهور الذي تصارع فيه «برانديز». في العام التالي نادى باتباع سياسة مناصرة لسياسة هذا الاخير وساهم مساهمة جدية في تجميع القوى الامر الذي ادى الى تخلي برانديز عن القيادة خلال عشرة اعوام وحتى عام ١٩٣١. مثل القوى اليهودية الامريكية في المؤتمر الصهيوني بل وانتخب في عام ١٩٣١ عضواً في الهيئة التنفيذية للصهيونية العالمية.

عقب ذلك انتقل الى القدس حيث رأس ما اسماه «الوكالة اليهودية للادارة الاقتصادية». وفي نفس الوقت قام بتنظيم لجنة امريكية لفلسطين كانت تتكون من بعض اعضاء مجلس الشيوخ ومن بعض كبار المسؤولين في الحياة السياسية الامريكية [٢٤].

(٢٣) قد يبدو هذا القول مبالغا فيه وقد يتضمن نوعا من التقليل من اهمية الحركة المحلية التي كان يجب ان تنبعث من الارض الفلسطينية في مواجهة الحركة الصهيونية. ولكن الواقع ونحن بصدد تقييم الحركة العربية والبحث عن اسباب الاخفاق في مواجهة الغزو الصهيوني للمنطقة يجب ان نسلم بأن احد اسباب ذلك الاخفاق يعود اساسا الى عدم وجود المقدرة الذاتية المحلية على التصدي لتلك الحركة. لا يكفي تبريرا لهذا الاخفاق الزعم بان الحركة الصهيونية كانت تؤيدها القوى الغربية لان هذه القوى ما كان يمكن ان تساندها تلك المساندة الفعالة لو لم تشعر بضعف المقاومة المحلية. عملية التصدي للتحدي لها ابعاد متعددة: البعد الفكري يسبق الصدام العضوي ويستقل عنه. وفي نفس اللحظة التي كانت فيها الحركة الصهيونية قد بدأت تخطيطها الواضح منذ بداية القرن كان العالم العربي غير مدرك وغير قادر على تفهم حقيقة الخطر الذي يتجه الى المنطقة. بل يجب ان نتذكر ان هناك من ابناء المنطقة من أيد الحركة الصهيونية في مراحلها الاولى والذي نعلمه على سبيل المثال ان الحركات الماسونية بالاضافة الى بعض حركات الاقليات لم تتردد على لسان زعمائها في ان تطالب بتأييد الهجرة اليهودية خلال الاعوام الاولى اللاحقة للحرب العالمية الثانية. ولنتذكر ان الاحزاب الشيوعية والحركات اليسارية في نفس تلك الفترة كانت تؤيد انشاء الوطن القومي اليهودي في الارض الفلسطينية. على ان اخطر ما يجب ان نلاحظه هو ان زعماء العرب وقادة الحركات المحلية القومية نظروا الى تلك الحركات باستخفاف دون اي محاولة جادة من جانب المفكرين لتحديد مدى الصدام الحركي البعيد المدى بين القومية الاسرائيلية والقومية العربية. ان السبب الحقيقي الذي يستتر خلف هذا الاخفاق يعود الى ان القومية العربية في خلال تلك الفترة لم تكن قد وجدت بعد صياغتها التي تسمح لها بفهم ابعادها الاقليمية. العالم العربي خرج مفتتا عقب الحرب العالمية الاولى دون ان يجد وحدته لا الفكرية ولا الحركية. وهكذا نستطيع ان نحدد اسباب هذا الاخفاق في الابعاد التالية:

(أ) عدم وجود فكر قومي عربي

(ب) عدم وجود فكر قومي فلسطيني

(جـ) عدم ادراك لحقيقة الحركة الصهيونية

(د) اختفاء القيادات المحلية المعبرة عن المصالح الذاتية والقادرة على فهم ابعاد المشكلة مجردة عن التصور والادراك الغربي انظر لا بير، م. س. ذ.، ص ٢٩٢ وما بعدها.

(٢٤) الى جوار الموسوعة اليهودية الحديثة تحت كلمة نويمان انظر ايضا لاكوير. م. س. ذ.، ص ٥٧٤ ومابعدها.

كل هذا يفصح حقيقة تصوره للحركة الصهيونية وهو خلق مسالك واضحة ومحددة للوصول الى مراكز القوى. بهذا المعنى استطاع ان يتغلغل في اوساط قادة الرأي في المجتمع الامريكي. ولم يقتصر على ذلك ففي خلال اقامته بفلسطين قام بمفاوضات مع الملك عبدالله امير الاردن وحصل على الموافقة من حيث المبدأ على البدء في تنفيذ عملية الاستقرار اليهودي في المنطقة

على ان ما يميز نويمان على وجه الخصوص هو ايمانه الى حد التعصب بمبدأ ضرورة وضع الرجل المناسب في المكان المناسب. في عام ١٩٤٣ ورغم اسمه الضخم قرر ان ينسحب ليترك الحاخام «أباهليل سيلفر» ليصير الرئيس الفعلي للجنة الطوارىء الصهيونية الامريكية. كان يؤمن بان هذا الآخر هو خير من يصلح لقيادة العمل الدعائي. ظل الى جواره كصديق ومرافق ومدافع. وعندما اضطر سيلفر الى ان يقدم استقالته في نهاية عام ١٩٤٤ ضغط عليه نويمان ليظل في منصب القيادة في العمل الدعائي واقنعه بالعودة عقب عدة اشهر فقط من تلك الاستقالة.في عام ١٩٥٤ انشأ معهد هرتزل ثم مطابع هرتزل واخيراً مؤسسة هرتزل التي تنشر المجلة الشهرية «ميد ستريم» والتي لا تزال حتى هذه اللحظة محور الدعاية والدعوة الصهيونية في القارة الجديدة.

سيلفر هو الرجل الثاني الذي تدين له الدعوة الصهيونية بوضع قواعد واصول التخطيط للعمل الدعائي الذي اساسه التمييز بين الدعاية والدعوة خلال تلك الفترة [٢٥]. ولد في عام ١٨٩٣ في لتوانيا وتوفي في امريكا عام ١٩٦٣. منذ عام ١٩١٥ ينتمي الى النظام الكهنوتي الامريكي ولكن هذا لم يمنعه من متابعة الدراسة للحصول على عدة درجات للدكتوراه من اكثر من جامعة غربية واحدة.

ما قدمه حقيقة هو قيادته الواضحة التي برزت منذ ان قدر له ان يقود الصراع في امريكا وخارجها في سبيل الاعتراف بالدولة اليهودية خلال وعقب الحرب العالمية الثانية. الخلاف الصارخ بينه وبين الآخرين كان في عدم ايمانه بأن الدبلوماسية وحدها تستطيع ان تقود الى النتيجة المطلوبة اذ يجب ان يرتبط بها ضغط دائم ومستمر من جانب الرأي العام الامريكي واليهودي للدفاع عن القضية الصهيونية. بدأ ذلك في خطاب مشهور في ٢ مايو ١٩٤٣ القاه امام المؤتمر القومي للدعوة الى فلسطين المتحدة تضمن هجوماً عنيفاً على موقف وزارة الخارجية الامريكية وعلى موقف فرانكلين روزفلت. عقب ذلك وفي نهاية نفس العام القى خطاب اخر امام المؤتمر اليهودي الامريكي يعتبر احد اهم خطاباته تضمن تأصيلاً واضحاً للتفرقة بين الدعوة الصهيونية المتجهةالى اليهودي والدعوة الصهيونية المتجهة ايضا الى غير اليهودي [٢٦] عقب انتخابات روزفلت عام ١٩٤٤ اصر سلفر على ان ينتزع من الكونغرس قرارا بتأييد الدعوة الصهيونية ضد الادارة الامريكية. ترتب على ذلك الصدام مطالبته بالاستقالة. رغم ذلك فقد استطاع ان يكتل حوله مجلس الطوارىء الصهيوني وان ينقل الصهيونية الامريكية الى مرحلة السياسة النشطة. فهو يعارض اولئك الذين اعتبرهم حذرين في استخدام النشاط السياسي بجميع صوره. وهو يضع قواعد حركته الدعائية على اساس مخاطبة جميع القوى حتى انه في لحظة معينة حصل على تأييد جميع القادة السياسيين سواء اولئك الممثلون للحزب الجمهوري او اولئك المتزعمون للحزب الديمقراطي.

ظهر نبوغه التكتيكي واضحا عام ١٩٤٦ وذلك عندما اثيرت مشكلة المبادرة بالنسبة لقضية التقسيم. كان رأي سيلفر هو ان الوكالة لا يجوز لها ان تعالج الموضوع حتى تتقدم احدى الحكومات بالاقتراح وعكس ذلك كان في رايه خطأ فادحاً من الناحية الحركية وظل في موقفه ثابتاً حتى عندما خالفه المجلس الامر الذي اضطره

---

(٢٥) هرتزبرج، م. س. ذ.، ص ٥٩١ ومابعدها.

(٢٦) اهم المصادر اوردها هالبرين، م.س.ذ. ، ص ٤٠٩ ومابعدها. انظر على وجه الخصوص: SILVER, Advance on all fronts, 1943.

الى ان يقدم استقالته ولكن المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرين الذي عقد في بازل عام ١٩٤٦ ايده ومن ثم ظل في موقعه. وقد اثبتت الاحداث بعد نظره وقوة موقفه من الناحية الدعائية (٢٧).

وقد عاد هذا النبوغ ليتأكد مرة اخرى من خلال تعامله مع بيفن وزير الخارجية البريطانية. ذهب الى لندن وعايش الوزير الانكليزي وخرج من مناقشاته الى الاقتناع بأن هذا الاخير ليست لديه اي نية في انشاء دولة اسرائيلية في أي بقعة من فلسطين وان المائدة المستديرة المقترحة ليست الا احدى مناورات وزارة الخارجية البريطانية. وهنا ايضاً بخصوص هذا الخلاف انتصر سيلفر في مواجهة وايزمان اثناء مناقشات المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرين.

على ان النبوغ الحقيقي لسيلفر تجلى في دعوته للعالم الاشهر لوين بخصوص بناء منطق الدعوة الصهيونية كعمل دعائي وصياغة اللغة التي تصور انه كان من الممكن ان يصل من خلالها الى قلب اليهودي الامريكي.

١٣ـ «لوين» وتاصيل منطق الدعوة الصهيونية:

ليس هذا موضع التفصيل في دراسة جهود لوين ونظرياته التي استطاع من خلالها ان يقيم البناء الكلي المتكامل لمنطق الدعاية الصهيونية. فلوين احد اشهر علماء علم النفس الذين استطاعوا ان يصبغوا بجهودهم الفكرية الثورة التي نبتت في الارض الجديدة بعنوان المدرسة السلوكية (٢٨). رغم ذلك فأن متابعة التأصيل المنطقي والفكري لما اسماه لوين عقدة الكراهية الذاتية يسمح بابراز الاصول الفكرية التي انطلقت منها ابواق الحركة النفسية الصهيونية والتي تدور في جوهرها حول عملية التمييز بين الدعاية والدعوة في الحركة السياسية المرتبطة بذلك المذهب.

لوين عالم لعلم النفس والاجتماع اصله الماني ولد في عام ١٨٩٠ وترقى في مناصب العمل الجامعي حتى وصل الى كرسي الاستاذية بجامعة برلين عام ١٩٣٢. في ذلك العام وتحت تأثير توقعات الضغط النازي هاجر الى الولايات المتحدة حيث بدأ حياته الجامعية في جامعة كورنيل ومنها انتقل الى المعهد ذا الشهرة العالمية المعروف باسم معهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا حيث انشأ مركزاً لابحاث ديناميات الجماعة. هذا المركز هو الذي سوف يقدر له فيما بعد ان ينتقل الى جامعة «ميتشجان آن آربور» ومنه حالياً تشع اغلب ابحاث التحكم في الحركة الاجتماعية.

ابتداء من عام ١٩٣٨ بدأ لوين يهتم اهتماماً خاصاً بنظرية الشخصية وبصفة معينة من حيث علاقتها بمشاكل الجماعة وما يتصل بالاطار الجماعي والحركي. وهكذا من خلال مراحل متعاقبة استطاع ان ينقل مفاهيم الكليات الديناميكية والمجال الحيوي الى نطاق تحليل الحركة الاجتماعية. نظريات لوين كانت حتى تلك اللحظة اي عام ١٩٣٨ اجمالاً تقف مجردة دون غاية حركية محددة وكان الالتقاء بين لوين وسيلفر هو نقطة البداية في دفع المفاهيم الاكاديمية المطلقة لنظرية لوين نحو الحركة الصهيونية (٢٩). تجلى ذلك بشكل واضح في المؤلف الاشهر الذي كتبه لوين في آخر حياته بعنوان «حل الصراعات الاجتماعية» والذي صدر في عام

---

(٢٧) فارن لاكوير ـ م. س. ذ.، ص ٥٧٢ ومابعدها.
(٢٨) حامد ربيع، مقدمة العلوم السلوكية م. س. ذ.، ص ٢٨٦ ومابعدها.
(٢٩) هالبرين، م. س. ذ.، ص ٢٨٥ ومابعدها.

١٩٤٨ أي عقب موت صاحبه بعام تقريباً. في ذلك المؤلف نستطيع ان نجد الاصول الفكرية لعملية بناء المنطق الدعائي اليهودي في اهم عناصره أي في تلك العناصر المرتبطة بالدعوة العقيدية.

المشكلة التي كانت تواجه سيلفر تدور حول موقف زعماء اليهود في امريكا وخيانتهم للقضية الصهيونية. وكان ذلك يمثل بالنسبة له نقطة ضعف خطيرة: كيف يتجه الى الرأي العام الامريكي بالدعوة الى المساندة ونفس الرأي العام اليهودي، اي ذلك الرأي العام الذي يفترض فيه ابتداءاً أن يكون خلفية من الانصار يشكك في تلك الدعوة. وكانت هذه الحقيقة أكثر وضوحاً في زعماء الاقلية اليهودية. طلب من لوين دراسة المجتمع اليهودي المعادي للصهيونية ثم في لحظة تالية كان على لوين ان ينتقل خطوة الى الامام بالدراسة الميدانية والتجريبية للقيادات اليهودية التي تسيطر على حركة العداء اليهودي للصهيونية السياسية. الابحاث الميدانية المتعلقة بذلك تمت في معهد «ماساشوسيتس» حيث استطاع لوين وبفضل مؤازرة سيلفر له ان يؤصل ما اسماه فكرة الكراهية الذاتية وان يستخلص منها منطقاً دعائياً كان اساسا للحملة المخيفة التي تولى مجلس الطوارىء الصهيوني شنها على خصومه من اليهود(٣٠).

لنستطيع ان نفهم هذا المنطق علينا ان نتذكر حقيقة اليهودي غير الصهيوني في المجتمع الامريكي. ابحاث لوين ابرزت حقيقة حالتهم الاجتماعية والاقتصادية وكيف انهم يمثلون درجة معينة ومتقدمة من اليسر والرخاء. هذا الوضع الاجتماعي في اغلب الاقليات يثير ظاهرة جذبت اهتمامات العالم المذكور: وهي الرغبة في الابتعاد عن الاقلية التي ينتمي اليها الفرد ومحاولة الاندماج في المجتمع الكلي ولو على حساب الولاء لمجتمع الاقليات. الشخص الذي ينتمي الى الاقلية ولكنه يحقق نجاحاً اقتصادياً واجتماعياً يوصف بأنه مواطن حدي بمعنى انه رغم نجاحه لا يستطيع ان يستوعب استيعاباً كاملاً في المجتمع الكلي. يصير بهذا المعنى ممثلاً لما يسمى بمجتمعات الضواحي. مجتمع مغلق متحجر معقد يخضع لتطورات متناقضة لا يمكن ان تؤدي الا الى صورة من التمزق. وهكذا تبرز واضحة في ذلك المجتمع اولا الصفات العدوانية والاستفزازية. السلوك الاستفزازي يقصد به في اوسع معانيه تلك الصورة من صور التصرف حيث يسعى الفرد الى افتعال حالات التأزم او حيث يكون رد الفعل غير متناسب في ثقله مع المنبه مصدر تحريك القوة نحو الحركة. هذه الصفات العدوانية قد تعبر عن نفسها ضد المجتمع الاصلي الذي ينتمي اليه المواطن أي مجتمع الاقليات بل وقد ترتد نحو نفس الشخص الذي تصدر منه الحركة.

وهكذا فان عملية الانتماء او الولاء نحو مجتمع الاقليات تكون بالنسبة له مصدر الكراهية والتعذيب وبقدر عدم قدرته وعدم نجاحه في القضاء على جميع الفوارق التي تفصله عن المجتمع الكلي والتي تمنعه ولو نفسياً من الشعور بأنه قد اكتمل في نجاحه الاقتصادي والاجتماعي بقدر ازدياد عمق هذه العقدة وازدياد تشعب مظاهر تلك الكراهية(٣١). الناحية الثانية المرتبطة بهذه الظاهرة تدور حول السؤال التالي: كيف يتصرف هؤلاء الزعماء أي زعماء الاقليات في علاقتهم بالقوى الاجتماعية التي يتحركون في اطارها؟ لقد رأينا ان زعيم الاقلية او رجل الاقلية الناجح اقتصادياً واجتماعياً يدور في اطارين ويتحرك في مجالين: المجتمع الكلي الذي يسعى الى غزوه والذي يقف منه أي هذا الاخير موقف الرفض عند حدود معينة اجتماعياً واقتصادياً في آن واحد في اغلب الاحيان، ثم مجتمع الاقليات الذي اليه ينتمي وبه يرتبط من حيث الاصل والتكوين.

---

(٣٠) انظر على وجه الخصوص للمؤلف مقالين بعنوان

1. Psycho-Sociological Problems of a minority group (1935).
2. Self-hatred among jews (1941)‡

وكلاهما منشور في مؤلف.

3. EWIN, Resolving Social Comflicts, 1948

(٣١) انظر لوين، الكراهية الذاتية، م.س.ذ.، ص ١٩٥.

وذلك الى جانب ذلك المجتمع الضيق الذي نستطيع ان نسميه بمجتمع الاقليات المزدهر والذي اليه ينتمي بحكم الواقع وبجهوده في الارتفاع عن المستوى العام اللاقلية التي ينتمي اليها بحكم الاصل العرقي.
السؤال الذي اثاره لوين وحاول ان يعالجه هو الآتي: ما الذي يحدث في اغلب هؤلاء الذين ينتمون الى ذلك المجتمع الضيق المزدهر سواء في علاقتهم بمجتمع الاقليات، سواء بالمجتمع الكلي؟

يقول لوين[32] والاحصاءات تدعم ملاحظاته: ان هؤلاء الافراد هم الذين يسعون الى اتخاذ مراكز القيادة في مجتمع الاقليات وهم بذلك يحققون هدفين في آن واحد: يحققون من جانب نوعاً من الاحلال للاخفاق في المجتمع الكلي بنجاح آخر في المجتمع الفرعي او في مجتمع الاقليات وهم من جانب ثان يستطيعون من خلال هذه القيادة التي تمكنهم من تنمية علاقات التعايش والتفاعل بالمجتمع الكلي ان يخاطبوا هذا الاخير من خلال مراكز القوة بوصفهم ممثلين لمجتمعات الاقليات.

كيف استطاع لوين ان يستغل هذه الظاهرة في العمل الدعائي؟ سؤال يجب ان نتناوله بشيء من التفصيل لانه كما سوف نرى يكون منطلقاً للدعوة الصهيونية في خلال الفترة التي سوف تقدم لاحداث ١٩٤٨.

١٤ ـ عقدة الكراهية الذاتية ومقوماتها السلوكية:

اليهودي الذي يصاب بهذه العقدة يصير غير صالح لان يمثل المجتمع الذي ينتمي اليه. هذه هي النتيجة التي وصل اليها لوين. ومعنى ذلك بعبارة اخرى ان زعماء الاقليات اليهودية في المجتمع الامريكي لا يصلحون لقيادة الاقليات اليهودية[33]. لماذا؟ يجيب على ذلك لوين بقوله: ان هذا الشخص يكره نفسه ومن خلال تلك الكراهية ورغم انه لا يعترف بذلك يكره المجتمع الاصلي الذي ينتمي اليه. بل انه بطريقة لا شعورية يرى في ذلك الانتماء العقبة الحقيقية التي تمنعه من تحقيق الايناع الكلي والكامل للذات الفردية. والنتيجة ان هؤلاء القادة يصيرون غير صالحين لأن يعبروا ايجابياً عن الرغبات والاهداف التي يعيشها مجتمع الاقليات وبالتالي فهم غير صالحين لان يشعروا بالاحاسيس التي تسيطر على المجتمع اليهودي. انهم لا يمثلون ذلك المجتمع بل انهم نموذج واضح للخيانة اللاشعورية ضد قضية ذلك المجتمع.

ابتداء من هذا المنطلق الفكري بدأت تتردد على الالسنة عبارات ذات دلالات واضحة؛ التهرب من اليهودية، الكراهية الذاتية، الخيانة اللاشعورية[34].

يقول لوين تحليلاً لهذه الظاهرة: اذا كان ـ يقصد مثل هذا اليهودي ـ ينتمي الى مجتمع صغير فبدلاً من ان يعمل على تحقيق اهداف ذلك المجتمع اذا بصراع خفي بينه وبين المجتمع الذي ينتمي اليه أي، مجتمع الاقليات ينشب بل ويسيطر عليه اتجاه ثابت نحو ترك والتخلي عن قضية ذلك المجتمع. معاداة السامية المعروفة بقوتها بين بعض اليهود هي تعبير واضح عن كراهية بعض هؤلاء «الامراء» اليهود الى الانتماء الى المجتمع اليهودي. في اغلب الاحيان هم اكثر الناس امتيازات في داخل المجتمع الذي لا يملك امتيازات

---

(٣٢) قالرن هالبرين، م. س. ذ.، ص ٢٧٢.
(٣٣) لوين، م. س. ذ.، ص ١٩٨.
(٣٤) لوين، المشكلة النفسية والاجتماعية لمجتمع الاقلية. م. س. ذ، ص ١٥٦.

هم أولئك الذين هدفهم الحقيقي الخفي هو أن يعبروا الخط الفاصل بين مجتمع الاقليات والمجتمع الكلي، هم الذين يجدون انفسهم في ذلك المركز الذي يصفه علماء الاجتماع بكلمة الرجال الحديون «هؤلاء الافراد وقد استطاعوا ان يحققوا مركزاً اقتصادياً واجتماعياً مرضياً بين غير اليهود، كل ما يعنيهم هو الاحتفاظ بالوضع القائم ومن ثم ايقاف اي حركة من الممكن ان تثير انتباه غير اليهود. وهم لذلك قد تعودوا ان ينظروا الى الوقائع اليهودية من خلال نظرة المعادين الى السامية لانهم يخشون تهمة ازدواج الولاء في حالة ما اذا اثيرت أي حركة يهودية».

ولتأكيد هذه الملاحظات التجريدية والتي استطاع لوين ان يستخلصها من ابحاثه التجريبية والمعملية يقدم لنا بعض الوقائع المعبرة عن هذه الحقيقة. ومن بين الوقائع التي يذكرها على وجه الخصوص ما حدث عندما اثيرت مسألة تعيين احد قضاة المحكمة العليا الدستورية من بين اليهود فان اول من نبه الرئيس الامريكي الى خطورة مثل هذا التصرف هم من زعماء الاقليات اليهودية[٣٥].

ابتداء من هذا التحليل ومن خلال المفاهيم التي صاغها لوين بهذا الخصوص انطلقت ابواق الدعوة الصهيونية[٣٦].

---

(٣٥) انظر هالبرين، م. س. ذ.، ص ٣٩٤.

(٣٦) نفس المرجع السابق ذكره. ص ٣٨٥.

المبحث الثالث

الدعاية الصهيونية وهزيمة حزيران

١٥ـ الدعاية الاسرائيلية عقب حوادث ١٩٦٧

في غير هذا الموضع ابرزنا بوضوح عناصر المنطق الدعائي الاسرائيلي خلال الفترة السابقة على هزيمة يونيو وكذلك اضفنا بعض نماذج من الاتصال الخارجي لعملية تحليل المضمون الامر الذي سمح لنا باكتشاف المداخل الفكرية للدعاية الصهيونية. وكان اهم ما لاحظناه بخصوص تلك الفترة هو عدم وضوح التفرقة بين الدعاية والدعوة. هذه التفرقة عادت لتبرز مرة جديدة عقب عام ١٩٦٧ وبصفة خاصة عقب انتخابات الكنيست السابع عام ١٩٦٩. على اننا اذا أردنا أن نحلل هذه الناحية الاخيرة وهي التي تعنينا على وجه الخصوص لكان علينا ان نبدأ بدراسة موضوعية تحليلية ولو موجزة للأطار العام للحركة الاعلامية من جانب الدولة العبرية في اعقاب النصر المذكور[٣٧].

اذا انتقلنا الى هذه الفترة وحاولنا القيام بعملية المتابعة فاننا لا بد وان نصطدم بأكثر من صعوبة واحدة. فالعالم العربي قد استيقظ ولكن يقظته لم تعبر بعد عن حياة وفاعلية واسرائيل بلغت اقصى مراحل قوتها ومن ثم لا بد وان ترتكب اخطاء والنصر العسكري في ذاته خير حجة دعائية لتقوية مركزها الاعلامي ومساندة حجتها المنطقية ولكن لا بد وان يعرضها وكما حدث فعلاً لغرور النجاح. ثم تأتي كل هذه العناصر فترتبط بحقيقة ثالثة وهي ارتباط المشكلة بالصراع الدولي في المنطقة وهكذا لم تعد الحرب الدعائية بين منطق اسرائيلي يسعى لاثبات وجوده ومنطق عربي لا يعرف كيف يدافع عن نفسه وانما مشكلة توازن عالمي يرتبط بالاوضاع السياسية المتحركة في المنطقة.

كل هذا يزيد من تعقيد مشكلة تحليل الدعاية الاسرائيلية في اعقاب عام ١٩٦٧. ولعله من المؤلم ان نلاحظ كيف ان جامعة الدول العربية لم تحاول حتى الآن القيام بأي دراسة علمية حقيقية وجادة بهذا الشأن والدراسة العلمية في هذا النطاق لا يمكن ان تكون الا ميدانية مستندة الى اساليب التحليل الوضعي والقياسي الكمي[٣٨]. ولو اقتصرنا فقط على ذلك القسط الذي تفرضه متابعة الموضوع في أطار التصور العام للحرب النفسية في المنطقة فاننا نستطيع ان نقدم تحليلاً للكليات العامة للسياسة الاعلامية الاسرائيلية في نواحي ثلاث:

اولاً: تطور المنطق الدعائي الاسرائيلي.
ثانياً: اسلوب الجوقة في عملية الاتصال الاعلامي
ثالثاً: الدعوة وموضعها من عملية الاتصال الخارجي في السياسة الاسرائيلية.

---

(٣٧) انظر من بين المصادر الجديرة بالتحليل: GORRINI, Europe,1967 P. 163.

(٣٨) قارن شؤون فلسطينية، نوفمبر ١٩٧٢ ص ١٧٨ ومابعدها. Pauvert, Pierre Demeron, Contre Israel, 1968, P. 149

الناحية الاولى تعكس حقيقة التطور العام للمنطق الدعائي الاسرائيلي وكيف انه لا يزال يسير في اطار متناسق بدايته الاولى في قلب القرن الثامن عشر وخطه العام لا يزال متماسك لم يتجزأ.

الناحية الثانية سوف تقدم لنا نموذجا واضحاً لكيف استطاعت اسرائيل ان توفق بين دعايتها الخارجية وعملها السياسي الدولي المتعلق بربط المصالح العاطفية ابتداءاً كخطوة اولى سابقة ومسبقة على عملية ربط المصالح الاقتصادية بما فيها الحركية[39].

الناحية الثالثة والاخيرة تعيد الينا صورة او نموذج للتطور العام للحركة الصهيونية خلال الفترة السابقة على وجود اسرائيل وعلى وجه الخصوص خلال تلك الفترة التي سبق وحددناها بأنها تمتد منذ انتقال القيادة الصهيونية الى نيويورك حتى الاعتراف الدولي بشرعية التواجد اليهودي.

١٦ـ نماذج المنطق الدعائي الاسرائيلي

اول ما نلاحظه على تطور المنطق الدعائي الاسرائيلي هو ظهور نماذج جديدة من المنطق العام المتصل بالابعاد الانسانية للقضية الصهيونية. سبق في غير هذا الموضع ان اخضعنا هذه الناحية بالنسبة للفترة السابقة على عام ١٩٦٧ لتحليل متكامل. وقد رأينا ان احد المداخل الفكرية لصياغة المنطق الدعائي الاسرائيلي هو ما اسميناه الحقيقة الانسانية التي تستتر خلف الوجود اليهودي. محور هذا المنطق هو ان الحضارة الاوروبية التي قامت على مبدأ المساواة لم تتردد في ان ترفض ذلك المبدأ بالنسبة لليهود ورغم انها اعترفت به بالنسبة لجميع الاقليات الاخرى بل ورغم فضل اليهود على الحضارة الاوروبية وموقف التقاليد الاوروبية من التعصب ضد السامية لا يمكن في الواقع ان يجد له تفسيرا اخلاقياً. وقد استطاعت الدعاية الاسرائيلية ان تستغل هذا المنطق في قذائفها الاعلامية جاعلة من هذه الحجة اساسا لخلق الشحنة الانفعالية المتحددة بعقدة الذنب والخالقة لنوع من التعاطف مع القضية اليهودية[40].

في اعقاب عام ١٩٦٧ بدأت تظهر نماذج جديدة للمنطق مرتبطة شكلياً من جانب الصياغة الاسرائيلية بذلك المدخل الذي سبق وحددناه وهو الابعاد الانسانية للوجود اليهودي. هذه النماذج رغم انها تبدو لاول وهلة استمرار لذلك المنطق التقليدي الا انها لو أخضعت لعملية تحليل عميقة لاستطعنا ان نبرز ما تتضمنه من تناقضات ليس فقط مع الحقيقة ولكن وبصفة اساسية مع نفس المدلول المنطقي للدعوة الصهيونية سواء في صياغتها كما عرفناها خلال الفترة السابقة على حرب عام ١٩٦٧، سواء في تقاليدها المرتبطة بحركات التحرير والقومية خلال القرن التاسع عشر. لا تعنينا هذه الناحية الاخيرة لانها تخرج عن نطاق هذا التحليل ولكن يكفي ان نقدم هذه النماذج لنناقش على ضوئها حقيقة التطور العام الذي اصاب المنطق الصهيوني.

اول هذه النماذج يدور حول العلاقة بين الدين الاسلامي والدين اليهودي. ففي تقاليدها السابقة حاولت الدعاية الصهيونية ان تقدم كلا الحضارتين على انهما تعبير عن حقيقة تطورية واحدة،على ان العلاقة بين الدين اليهودي والدين الاسلامي هي علاقة انسانية ترتفع عن مستوى النزاع او الصراع بين الاجناس[41]. ويصل بها الامر الى ان احد دعاتها وهو المؤرخ «توري» اصدر كتاباً قبل الحرب العالمية الثانية

---

(٣٩) قارن:

SAFRAN, Israel international politics and foreign policy, in HAMMOND, ALXANDER, Political dynamics in the middle east, 1972, P. 155.

(٤٠) حامد ربيع، فلسفة الدعاية، م. س. ذ، ص ١٨٢ ومابعدها.

(٤١) قارن شؤون فلسطينية، ١٩٨٣، فبراير، عدد رقم ١٨، ص ٥٨ ومابعدها.

بعنوان «التأسيس اليهودي للاسلام» يحاول من خلاله ان يثبت الاصول اليهودية لا فقط للحضارة الاسلامية بل ولنفس التشريعات المحمدية[42]. عبر عن نفس المفهوم روزنتال في كتابه الاشهر عن الفكر السياسي الاسلامي في العصور الوسطى[43]. وكلاهما يصل به الامر الى ان يقرر بأن القواعد اليهودية كانت مصدرا تنظيمياً للحضارة الاسلامية وانه في بعض الاحيان فأن التقاليد اليهودية هي وحدها التي تشبعت بها التقاليد الاسلامية الاصيلة. في اعقاب ١٩٦٧ سوف يختفي هذا المنطق وسوف نجد تصويراً آخر اساسه التأكيد على التفرقة في الاصول العقيدية بين الدين الاسلامي والدين اليهودي. الدعاية الصهيونية سوف تجعل عملية التقارب لا نحو الحضارة الاسلامية بل نحو الحضارة المسيحية لتأكد أن هذه الاخيرة مستمدة منها وانها تمثل الاستمرار فى حقيقتها التطورية مع الدين اليهودي . إن فكرة الانتماء الى الحضارة اليهودية بالنسبة للتقاليد المسيحية تسير من جانب الدعاية الاسرائيلية في اتجاهين: اتجاه ايجابي بمعنى الاستمرارية التي لا تنقطع والوحدة في المفاهيم والتعاليم وآخر سلبي يتحدد بما نستطيع ان نسميه عدم الانتماء بالنسبة للحضارة الاسلامية حيث نجد التوازي دون التقاطع او التقابل بين تلك الحضارة اي الحضارة الاسلامية وذلك الدين اي الدين الاسلامي مع اي مفهوم آخر يهودي او كاثوليكي في اي بعد من ابعاده الدينية.

وانطلاقاً من هذه البوتقة الفكرية الجديدة[44] نجد ان الدعاية الاسرائيلية تؤكد على حقائق معينة:

اولاً: هي تردد دائماً ان التاريخ لم يعرف التقابل بين الشرق والغرب ولن يعرفه. اليست الحروب الصليبية، ثم موجات الغزو التركي كافية ان تؤكد ذلك؟ ثم هل وفقت فرنسا رغم كل ما فعلته في شمال افريقيا في ان تخلق أي صورة من صور التقارب الحقيقي مع ذلك المجتمع والذي يجعل موقعه اقرب الى حضارة البحر الابيض من الحضارة العربية ولكنه مع ذلك يحمل طابع ويتشبع بمفهوم الوجود الاسلامي؟ وهكذا نجد ان الدعاية الاسرائيلية قد وجدت بذوراً معينة من الكراهية الدفينة والشعور بالمرارة من جانب المجتمع الاوروبي وبصفة خاصة المجتمع الفرنسي: فالهزائم المعروفة وعلى وجه التحديد الصفحة التي لم تختف بعد من الاذهان والمتعلقة بطرد الفرنسيين من شمال افريقيا مع فصولها المتتالية والتي انتهت بمعركة سيناء عام ١٩٥٦ لا بد وان تقدم للدعاية الصهيونية جراثيم قوية لنقل العدوى الفكرية[45].

ثانياً: وقد استتبع هذا نوع من التطور في احدى جزئيات المنطق الدعائي الاسرائيلي. انها تخفف حديثها عن فضل النبوغ اليهودي على المجتمع الغربي لتؤكد من ناحية اخرى ان هناك ارتباط روحي ومتابعة تاريخية في العلاقة بين التراث المسيحي والتراث اليهودي. تتساءل الدعاية الصهيونية: من يستطيع ان ينكر ان التراث المسيحي هو استمرار واستمداد للتراث اليهودي؟ ان كلاهما ما هو الا تأكيد لعالمية مبادىء معينة وحقائق واحدة والارتباط التاريخي اقوى من ان يتحدد على انه مجرد علاقة صراع لانه في حقيقته نوع من انواع التوالد الذي كان لا بد وان يبرز بعض مظاهر التناقض ولكنه تناقض يعكس حقيقة الوحدة المطلقة التي تربط بين كلا الصورتين من صور الوجود الغربي[46].

ثالثاً: وتبلغ القمة عندما تنتهي الى تأكيد ان كل تجريح للتراث اليهودي هو انكار وانقاص للتراث

---

(٤٢) TORREY, The jewish foundation of Islam, 1967, P. 62.

لاحظ ان هذا المؤلف صدرت طبعته الاولى في عام ١٩٢٣ انظر ملاحظات الناشر ص ٢٤ من المقدمة.

(٤٣) ROSENTHAL, Political thought in medieval Islam, 1958, P. 1.

(٤٤) EPP, Whose land is Palestine, 1970, P. 205.

(٤٥) GUICHARD, Les juifs, 1969, P. 215.

(٤٦) انظر على سبيل المثال وقارن حول تطور اليسار الفرنسي عقب حرب الايام الستة جيفيت، م. س. ذ.، ص ٩٧ ومابعدها وقارن ايضا PETIT Pernanos, Bloy, Claudel, Peguy, 1972. P. 124.

المسيحي وهكذا وابتداءا من هذا المنطق تتحدث الدعاية الصهيونية عن تبرأة اليهود من دم المسيح ونجد انصاراً لمنطقها من بين رجال الحضارة المسيحية وبصفة خاصة الطوائف غير الكاثوليكية وهي تتلاعب بحقيقة معينة وهي ان الطوائف غير الكاثوليكية وبصفة خاصة البروتستنت ليست الا تفسيراً متميزاً للتعاليم المسيحية. لماذا لا تكون اليهودية بهذا المعنى نموذجاً آخر ولكنه سابق ومقدم للمسيحية؟

١٧- التطوير في عملية استخدام عقدة الذنب كمنطق دعائي لمفهوم التوتر النفسي: عقدة المسؤولية:

هذا التصور الجديد كان لا بد وان يضعف منه ما سبق ورابناه في الدعاية الاسرائيلية قبل عام ١٩٦٧ من التأكيد المستمر حول عقدة الذنب والتي جعلت منها اسرائيل احد منطلقاتها المترتبة والمتبلورة حول المنطلق الانساني في تأصيل الدعوة الصهيونية. عقدة الذنب[٤٧] التي خلقتها الدعاية الاسرائيلية وطورتها الى اقصى مراحل القوة في عملية التبكيت والتذكير بالخطيئة في بعدين: احدهما تتجه به الى المجتمع الاوروبي والآخر تتجه به على وجه الخصوص الى المجتمع الالماني، اذا بها تختفي لتتحول الى نموذج جديد من نماذج خلق التوتر النفسي لاستغلال عملية الشحن العاطفي منطلقاً لسلوك جديد هي لم تعد تتحدث عن عقدة الذنب وان تحدثت عنه فباسلوب مخفف يبرز ويختفي دون تضخيم او تقوية ان خطيئة الامس قد اختفت وقدمت لما نستطيع ان نسميه عقدة المسؤولية.

ما معنى عقدة المسؤولية؟

تذكير الفرد بأنه بحكم وضعه وحضارته، بحكم صفاته القيادية وتاريخه القديم والحديث يتحمل عبئاً يفرض عليه حركة ايجابية اكثر مما يبدو وقد اعدته لذلك قدراته وامكانياته اسرائيل تستغل هذه الناحية لتذكير الاوروبي بأنه مصدر الحضارات وانه مسؤول عن تطور الانسانية وان هذا يفرض عليه عملاً ايجابياً يعكس عظمته التاريخية ويؤكد حقوقه المشروعة في المنطقة[٤٨]. وهي بهذا الشكل تحقق اكثر من غاية واحدة في وقت واحد:

اولاً: تتجنب التوتر الذي كان لا بد وان يحدث نتيجة لاستمرار التأكيد على عقدة الذنب. بعبارة اخرى تتجنب عملية الضغط النفسي المستمر في اتجاه واحد لو ظلت تركز على عقدة الذنب. وهو امر ما كانت تستطيع ان تستمر فيه الى ما لا نهاية. من ثم تستبدل بعقدة الذنب عقدة اخرى من نوع جديد،عقدة لا تتضمن اثارة ولا تبكيتا وانما تقوية والتحامااساسه التلاعب بالوتر الحساس. وهنا يجب ان نلاحظ ايضاً انها عقدة اكثر تعبيراً عن حقيقة الموقف. فالاتجاه العام الاوروبي في هذه اللحظة وهو يعيش محاولة الاستقلال عن القوى الكبرى يتفق ويتجانس مع تأكيد هذه الصورة الجديدة من صور الشحنات الانفعالية.

---

(٤٨) قارن رغم قدمه نسبيا .ABBOTT, Israel in Europe, 1972, P. 404
هذا المؤلف تعود طبعته الاولى عام ١٩٠٧ انظر كذلك ص ٢٨٦ .

ثانياً: وهي استناداً الى هذه العقدة تخلق نوعا من التملق للرأي العام الاوروبي اذ تشعره انه لا يزال سيد الموقف وانه لا يزال يستطيع ان يتحرك وانه صاحب الكلمة النهائية في منطقة خطرة، الصراع فيها له طابعه الدولي الواضح[٤٩]. على انها وهي تعلم ان هذه الدعاية تخالف الى حد ما سياستها الخارجية التي اساسها رفض تدخل القوى الكبرى في فرض الحلول لتصفية الموقف في منطقة الشرق الاوسط فانها تغلف منطقها الدعائي بفكرة تعانق الارادات: ان الوصول الى حل لاي مشكلة يجب ان يعني تعانقاً بين الارادات المسيطرة على تلك المنطقة، ومنطقة الشرق الاوسط اضحت تقابلا بين ارادات ثلاث: اوروبية، ثم ارادة اسرائيلية واخرى عربية تقابل هذه الارادات هو الذي سوف يسمح بالتخلص من حالة التوتر وهكذا تحقق اسرائيل اهدافاً متعددة في نفس اللحظة: هي تظهر بمظهر الدولة المسالمة[٥٠]. وهي تفرض بهذا المنطق على الدول العربية ضرورة التسليم بالجلوس معها على مائدة المفاوضات وهي تقدم نفسها على انها الوسيط الذي لا غنى عنه لخلق حلقة الاتصال بين الارادة الاوروبية والارادة العربية وهكذا تحفظ دائما لنفسها خط الرجعة.

١٨ـ الاسلوب الهجومي والسلوك الاستفزازي في التخطيط الدعائي الاسرائيلي ونماذجه:

على انه لا يجوز لنا ان نتصور ان المنطق الدعائي الاسرائيلي قد تغير تغيراً جذرياً فهو من حيث حقيقته لا يزال منطقاً هجومياً. ان اسرائيل لا تزال تؤمن بأن خير دعاية هي تلك التي تتخذ موقف الهجوم والذي قد يصل بها في بعض الاحيان الى حد خلق حالة الاستفزاز. هي تصل الى تلك المرحلة اي مرحلة الاستفزاز والعدوانية بشكل واضح وصريح فقط في صيف عام ١٩٧٢ عقب زيارة جولدا مائير الى فرنسا وايطاليا[٥١] ولكن الخط العام للمنطق الهجومي سابق على ذلك التأريخ بل ويعود بنا عام ١٩٥٦.
ولذلك:

اولا: هي تؤكد بطريق خفي وفي جميع اصطلاحاتها المتداولة على الفصل بين مصر وسيناء. رغم ان هذه الحجة كانت متداولة قبل احداث ١٩٦٧، عبر عنها بشكل واضح حديث بن جوريون مع جريدة الفيجارو الفرنسية الا ان ذلك اضحى قاعدة صريحة في حديث جميع المسؤولين. فمصر تنتهي عند قناة السويس لا فقط اليوم بل كانت كذلك منذ اقدم العصور. ان سيناء تمثل وجوداً عضوياً مستقلاً اقليمياً وجغرافياً: كان كذلك وسف يظل كذلك لان الطبيعة خلقت منه منطقة منعزلة تملك خصائصها الجغرافية[٥٢]. وهنا نجد اسرائيل تستغل بعض الحقائق التاريخية والديموغرافية تأكيداً لمنطقها: فشبه جزيرة سيناء لم تنتم اداريا لمصر في فترات معينة، وهذه حقيقة لا موضع للشك في صحتها ثم تأتي الحجة الاخرى الاكثر قوة وهي ان سيناء لم تعرف سكاناً مصريين[٥٣]. ان اسرائيل تتساءل بخبث وتردد. اين المصريون الذين يقيمون او اقاموا في تلك المنطقة؟ اليس اهل هذه المنطقة يختلفون اختلافاً كلياً عن سكان وادي النيل؟

ثانياً: كذلك فان اسرائيل لا تنسى عملية تأكيد الطابع القومي. لقد سبق ان رأينا في دراستنا الخاصة بتطور الدعاية الاسرائيلية حتى عام ١٩٦٧ كيف كان احد اهداف تلك الدعاية الثابتة منذ بدايتها عملية ازالة الصورة المشوهة للطابع القومي اليهودي. على انها عقب ان اخضعت هذه الصورة لعملية تنظيف

---

(٤٩) قارن. KISHTAINY, The new stateman and the Middle East, 1972, P. 89.
(٥٠) ALEM, Juifs et Arabes, 1968, P. 317.
(٥١) انظر الموند الدبلوماسي يوليه ١٩٧٣.
(٥٢) BELL, The long war, 1969, P. 428.

جانبية منظمة انتقلت الى مرحلة تأليه الطابع القومي في اعقاب عام ١٩٦٧ نجد ان المنطق الدعائي الاسرائيلي وقد انتقل الى مرحلة هجوم كلية شاملة بلغ حد تأليه ذلك الطابع وتقديمه على انه صورة الشعب المختار صاحب الوظيفة التاريخية وهنا تبرز ناحية من نواحي الاخفاق في الدعاية الاسرائيلية. فبقدر نجاحها في عملية تحويل عقدة الذنب الى عقدة المسؤولية بقدر اخفاقها في عملية تحويل الدفاع عن الطابع القومي اليهودي الى تأليه لذلك الطابع.يبرز هذا التأليه في بعض الاحيان الى حد المبالغة الواضحة والتي لا بد وان تخلق حالة من حالات التوتر من جانب الجمهور المستقبل[٥٣]. لقد بلغ الامر ببعض الدعاة لان يذكرنا ان الرب هو اليهودي وانه انما اختار الشعب اليهودي لتحقيق وظيفته الحضارية لاعجابه بهذا الشعب فاذا به يضاع اي الاله ليسير خلف الوظيفة الحضارية التي انتزعها الشعب اليهودي بارادته وصلابته.

لو ان الدعاية العربية كانت على قسط من القوة والذكاء فكم كانت تستطيع ان تستغل مثل هذا المنطق لهدم جميع عناصر البنيان الفكري للدعوة الصهيونية؟

١٩ـ التصوير الدعائي لحرب الايام الستة ومقوماته:

الناحية الهجومية تبرز في موضع اخر وذلك عندما توصف واقعة حرب عام ١٩٦٧ بأنها حرب من اجل السلام ولتحقيق الطمأنينة والاستقرار في المنطقة. قد يبدو لاول وهلة ان هذا التصوير يعكس منطقاً سلبياً الا انه في الواقع ومن حيث جوهره يسير في نفس الاتجاه أي يعبر عن خصائص المنطق الهجومي الذي سبق ورأينا كيف انه يميز الغزو الدعائي الاسرائيلي في تقاليده الثابتة على الاقل منذ عام ١٩٦٧.

لنستطيع ان نفهم هذا المنطق علينا ان نعود الى تذكر حقيقة حرب الايام الستة كواقعة يجب ان تعانق وتتعانق مع المنطق الدعائي فذلك الصراع بابعاده المعروفة وعقب ان وضحت اغلب الحقائق المرتبطة به كان لا بد وان يؤدي الى انفجار ذاتي لبعض عناصر المنطق الدعائي الاسرائيلي السابق على الصدام العسكري[٥٤].

(١) فالاسطورة التي كانت تقدم اسرائيل على انها شعب ضعيف محاط بعرب يحملون لاهلها العداوة وينتظرون اللحظة المناسبة للقضاء على هذا الشعب البائس قد انفجرت من اساسها اذ ظهر للعالم فجأة ان يهود اسرائيل جند محنكون يملكون اداة عسكرية مخيفة.

(ب) كذلك فالاسطورة التي كانت ترددها اسرائيل في كل مناسبة من ان جميع العرب مسلمين اذا بها تنهار واذا بالرأي العام العالمي فجأة يكتشف ان البلاد العربية تعرف اقليات ضخمة تنتمي الى جميع الاديان بما في ذلك الديانة الكاثوليكية بل والديانة اليهودية بل واكتشف الرأي العام ان دولة كلبنان، وهي دولة عربية، تتحكم في سياستها قوى مسيحية لا يستهان بها[٥٥].

(ج) كذلك اسطورة ان العرب اعداء لليهود وانهم يعبرون عن عداوة تقليدية لم تنقطع كان لا بد وان تنفجر بدورها. هذه الاسطورة اختفت او كادت لان الحوادث كان لا بد وان تثير السؤال التالي: لماذا لم تمثل

---

(٥٣) انظر على سبيل المثال ومما يدعو للتأمل: LUGOD. Israel et la civilisation. 1939. P. 9.
ولاحظ ان هذا الكتاب طبع بمصر في مدينة الاسكندرية وان مؤلفه يعلن انتمائه الى لبنان بصراحة ودون اي محاولة لان يجهل علاقته بالمنطقة. انظر ايضاً ص ١٨١ وما بعدها وكذلك ص ٢٦٦.

(٥٤) FORREST. The unholy land. 1971, P. 58.

(٥٥) نفس المصدر السابق ذكره ص ٦٠.

اليهودية مشكلة سياسية في تاريخ المجتمعات العربية والاسلامية ولماذا لم تفرض نفسها الا خلال القرن التاسع عشر وعلى وجه الخصوص في غرب اوروبا؟ اليس هذا نتيجة لأزمة لظهور الدولة القومية وليدة التقاليد الغربية واليس هذا وحده هو الذي فرض المشكلة[٥٦] وهو الذي ابرزها وبلور معالمها؟ واليست المشكلة اليهودية نتيجة اخفاق المجتمع اليهودي في ان يوفق بين بقائه اقلية او اندماجه وانصهاره مع ما يعنيه من فقد ذاتيته في المجتمعات القومية الحديثة الاخرى والتي فرضتها فلسفة الدولة الوطنية ؟

الدعاية الاسرائيلية لتعيد التوازن الذي فقدته نتيجة هذا التطور الذي فرضته العلاقة بين الاطار النفسي والوقائع الجديدة راحت تركز على تقديم ذلك الصراع العسكري على انه من جانب حرب فرضت عليها من جانب العرب ولم تسع هي اليها، ومن جانب آخر على انها حرب فرضتها الظروف لتحقيق السلام وللوصول بتلك المنطقة الى حالة من الطمأنينة والاستقرار. من اهم الكتب التي خرجت تدافع عن القضية الاسرائيلية ساعية لاستحواذ الرأي العام الامريكي مؤلف صدر في اوائل عام ١٩٦٨ بالعنوان التالي «حرب اسرائيل من اجل السلام» نشره الامريكي هالبرن في صورة مجموعة من الخطابات التي كان يكتبها الصحفي الاسرائيلي بن ادي مراسل الجريدة المشهورة «جيروزاليم بوست» الى صديقه الامريكي[٥٧] خلال فترة القتال وعلى وجه

---

(٥٦) ليست احد اهداف هذه الدراسة تحليل الصهيونية السياسية. ومن العبث ان نعيد الى الذكر ان ماكتب عن الصهيونية السياسية في الفكرالاوربي انما يعكس الدعوة ووجهة النظر اليهودية بطريق او بآخر دراسة حتى الان تعبر عن المذهب وتحليله باسلوب محايد يقدم له تأصيلا يعكس المشاكل الفكرية المرتبطة بالوجود اليهودي وصراعه في سبيل البقاء من وجهة النظر العربية لم يقدر لها التكامل. وبغض النظر عن الاخطاء التي وقعت فيها مراكز الابحاث المسؤولة في هذا الشأن من حيث تخطيط عملها الدعائي او الاعلامي ومن حيث تحديد اهداف ذلك العمل الاعلامي حيث لم تفهم ان احد وظائفها ايضا الاتجاه الى خطاب المجتمعات الغربية بخصوص المشكلة اليهودية، فان بعض الملاحظات جديرة بان تدعو للتساؤل:

اول هذه الملاحظات تدور حول العلاقة الفكرية التي كان يجب ان نؤكد عليها ونبرزها بلغة دعائية معينة تلك التي تربط الصهيونية باليهودية. اليست اليهودية السياسية تتناقض مع الصهيونية كعقيدة سياسية؟ بعبارة اخرى اليهودية دين حتى لو وصف بانه يقوم على اساس الارتباط بعنصر معين الا انه ينفي علمانية الدولة. والصهيونية السياسية من الممكن ان تصور على انها نوع من العلمانية حاول اصحابها ان يأقلموا من خلالها مفاهيم القرن التاسع عشر باسم الحركة اليهودية.

ملاحظة اخرى ترتبط بهذه الاولى وتتفرع عنها: لماذا لم تبرز المشكلة اليهودية الا في المجتمع الاوروبي؟ لماذا لم تعرفها المجتمعات الشرقية؟ وهنا الامكانيات الدعائية لاحصر لها: تحويل عقدة الذنب الى علاقة المجتمعات الاوروبية بالشرقية بصفة عامة والعربية بصفة خاصة احد هذه الامكانيات. ثم ربط هذا باثارة مسؤولية المجتمع اليهودي لرفضه الاندماج مع المجتمع الاوروبي رغم ان طبيعة المجتمعات الاوروبية خلافا للمجتمعات الشرقية وبصفة خاصة خلال القرن التاسع عشر كانت تفرض تلك العملية كان يسمح في نفس الوقت الذي نجد فيه عقدة الذنب، بالنسبة للعالم العربي، ان نسقط عقدة الذنب او نخفف من ابعادها في العلاقة بين المجتمع الاوروبي والمجتمع اليهودي. وبعبارة اخرى كان من الممكن القيام بعملية تحويل جذرية واحلال عقدة الذنب بالنسبة لليهود فتصير عقدة المسؤولية مع توجيه التكتيل العاطفي من جانب المجتمعات الاوروبية نحو لا العالم اليهودي وانما نحو العالم العربي. بعبارة اخرى لو ان جامعة الدول العربية او احدى تلك المؤسسات تناولت موضوع العلاقة بين المشكلة اليهودية والعالم الغربي من جانب مع مقارنة تلك العلاقة بالاوضاع العربية من جانب اخر فقد كانت تستطيع ان تسير في المسارات المنطقية التالية:

(أ) تذكير المجتمع الاوروبي بدينه نحو المجتمع العربي وبصفة خاصة نحو الحضارة الاسلامية.
(ب) تذكير المجتمع الغربي باخطائه ومسؤوليته ازاء العالم العربي وبصفة خاصة فيما يتعلق بنقض وعوده بصفة خاصة منذ الفترة السابقة على الحرب العالمية الاولى: بل وابتداءا من القرن التاسع عشر بالنسبة لمصر.
جـ) تذكير العالم الغربي بأن نشأة المشكلة اليهودية في المجتمعات الاوروبية لم تكن الا نتيجة مسؤولية المجتمع اليهودي في تلك المجتمعات في رفضه الاندماج المحلي واصراره على التميز وعدم التشبه.
د) وهكذا من خلال هذه العمليات الثلاث المتشابهة نستطيع ان نحقق عملية تحويل نفسية كاملة فاذا بعقدة الذنب تسيطر على العلاقة بين المجتمع الاوروبي والمجتمع العربي تدعمها من جانب عقدة المسؤولية الموجهة الى المجتمع اليهودي كاطار اكثر اتساعا يساند ويسمح بخلق محور لالقاء التبعية واللوم والتخلص من المسؤولية بالنسبة للمجتمع الغربي. ولكن كل ذلك يفترض التخطيط العلمي المنظم. فاين نحن من هذه الامكانيات؟ انظر فيما بعد المبحث الثالث من الفصل الثاني من هذا المؤلف.

التحديد ابتداء من ١٨ مايو حتى ١٩ سبتمبر ١٩٦٧ يعرض فيها تفصيلا لحالته النفسية خلال تلك الفترة بحيث يجعل القارىء يخرج من تلك الصفحات وهو يتساءل؛ لماذا فرض القدر على هذا الشعب ان يقاتل دفاعاً عن نفسه وهو لا يريد سوى الحياة الهادئه المسالمة؟ ولماذا يفرض عليه جيرانه ان يمسك بالسلاح ويدافع عن حقه في الحياة؟

٢٠ـ شرعية الوجود الاسرائيلي ومنطلقاته الدعائية:

الناحية الثالثة من نواحي المنطق الاسرائيلي التي تبرز واضحة صريحة وتبلغ في بعض الاحيان حد المجابهة والتحدي تدور حول فكرة الشرعية. شرعية الوجود الاسرائيلي لا تبرز فقط في اعقاب حرب عام ١٩٦٧ ونستطيع ان نجد مصادرها البعيدة تمتد على الاقل الى نهاية القرن التاسع عشر ولكنها عقب ذلك التاريخ تأخذ ابعاداً جديدة. لا نستطيع ان نتابع هذه الابعاد في هذه الدراسة الموجزة التي تخرجنا عن هدفنا المباشر من التحليل ولكن يكفي ان نتذكر بعض هذه الابعاد:

(أ) فالوعد الالهي قد تحقق وهكذا قد عادت الحضارة الى الارض الاسرائيلية بعودة ابنائها اليها والتصاقها بالشعب المختار[٥٨].

(ب) والشرعية لم تعد تنبع من مجرد وعد الهي وانما اضحت تستمد اصولها من الواقعة القائمة على حق الفتح[٥٩].

(ج) والشرعية لم تعد تقتصر على الحق في الوجود وانما اضحت تعني الحق في قيادة المنطقة ان اسرائيل الدولة القائد لها ان تتكلم باسم المنطقة ولها ان تطور المنطقة ولها ان تخلق قنوات الاتصال بين المنطقة والعالم الخارجي ولها ان تفرض السلام في المنطقة وهكذا بدأنا نسمع لاول مرة كلمة السلام العبري Pax Semitica[٦٠].

على ان الشرعية لا تمثل فقط جانباً ايجابياً ولكنها تملك ايضاً ابعادها السلبية والدعاية الاسرائيلية تعلم ذلك وتستغله ببراعة:

اولا: فهي ترفض أثارة المنطق العربي بأي معنى من المعاني. ان المنطق العربي الذي تركته هزيمة يونيو وما اعقب تلك الهزيمة من احداث في حالة اعياء وترهل لا يزال يجد من جانب المنطق الاسرائيلي نوعاً من السلبية وعدم الرغبة في المناقشة او التعليق كقاعدة عامة. أزدراء صامت يتضمن تأكيداً لعنصر التفوق الذي يصير منطقاً مسانداً لمنطق الشرعية.

ثانياً: وهو كذلك يبرز في موقف الرفض السلبي بشكل واضح عندما يتعرض لمشكلة فلسطين. ان تجنب أي تعليق او دراسة او مناقشة لمشاكل فلسطين وما يحيط بها يمثل احدى الحقائق الواضحة التي يلحظها كل من يتابع الاعلام الاسرائيلي وبصفة خاصة الخارجي في اعقاب عام ١٩٦٧.

---

(٥٧) BEN-ADL, Israel's war for peace, 1968, P. 35.

انظر على وجه الخصوص ص ١٤٢، ١٧٥.

(٥٨) BAUBEROT, le tort d'exister, 1970. P. 151.

(٥٩) انظر حامد ربيع، عملية صنع القرار السياسي، م. س. ذ.، ص ١٢٣ ومابعدها.

(٦٠) ROULEAU, Israel et les Arabes, 1967, P. 149.

ثالثاً: وهو يرفض تقديم حلول بالنسبة لمشكلة الشرق الاوسط ورغم ان ذلك يعكس ناحية من نواحي الضعف في علاقة القوة المسيطرة على القوى السياسية في المجتمع الاسرائيلي تبرز واضحة عندما نتحدث عن عملية تحديد الحدود التي تريد ان تقف عندها اسرائيل لتصفها بانها الحدود الآمنة[٦١]. الا ان دعاية اسرائيل تحيل هذا الضعف الى قوة عندما تقدم موقف اسرائيل على انه موقف المتفرج القوي بشرعية حقه.

رابعاً: على ان الدعاية الاسرائيلية لا تتردد في ان تخرج من هذه السلبية عندما تجد المناسبة لتشويه الطابع القومي المصري. وهكذا فأن الكتاب الذي اصدره الصحفي البريطاني «بأويل» بعنوان «خيبة الأمل في وادي النيل» ورغم انه صدر في عام ١٩٦٧ اذا بالصحافة الاسرائيلية لا تجد فرصة او مناسبة دون أن تعيد ذكره وان تقتطع منه صفحات كاملة في اكثر من جريدة واحدة نذكر منها على وجه الخصوص «جيروزاليم بوست» الاسبوعية التي ظلت تدق بثبات على المؤلف وصاحبه ومنذ ذلك التاريخ حتى عام ١٩٧٠. وهي تتفع في هذا الخصوص بجميع الوقائع فتطوع لها دعايتها واعلامها الذي يسعى الى تشويه الصورة القومية المصرية فمصر هي مستودع الشيوعية في جنوب البحر الابيض ومصر لا تعرف اي قوى ذات فاعلية سوى الشباب المندفع ومصر عندما تطرد الخبراء السوفييت انما تعلن انها دولة لا تعرف كيف تخطط حركتها[٦٢]. وهنا تذكر المستمع الاوروبي اليس العدو العاقل خير من الصديق الجاهل؟

---

(٦١) ايضا مفهوم الحدود الامنة يمثل احد المنطلقات التي كانت تستطيع الدعاية العربية ان تنال من خلالها المنطق الدعائي الاسرائيلي. والواقع ان فكرة الحدود الامنة ليست بالفكرة الحديثة. هي ترتبط بمفهومين اخرين احدهما فكرة الحدود الطبيعية وثانيهما فكرة الحدود الاستراتيجية. الاول رغم اننا نستطيع ان نصادفه في خلال مراحل كثيرة من مراحل التطور السياسي الا انه يبدو واضحا وصريحا ابتداء من الثورة الفرنسية. وابتداءا من تلك الثورة بدأت التقاليد الدولية تربط بين مفهوم الامة ومفهوم الاقليم المحدد الذي تحيطه ظروف طبيعية تسمح بايناع وبحماية الدولة اي الاداة النظامية المعبرة عن الشعب. بهذا المعنى فان المفهوم ارتبط بما يسمى بالفواصل الطبيعية او العقبات الجغرافية كالانهار او البحار او الجبال التي تسهل عملية الدفاع وتمنع العدو الغازي من الوصول الى قلب المجتمع السياسي. في مرحلة لاحقة ومن خلال الفكر الاقتصادي القومي بدأنا نستمع الى مفهوم اخر اكثر اتساعا ويرتبط بالابعاد الاقتصادية للوجود القومي بمعنى ان كل شعب من حقه اقليم يسمح له بمواجهة احتياجاته وبحيث يتجنب التبعية للمجتمعات الاخرى. والفقه السياسي عندما وصل الى تلك المفاهيم وجد لها مصادر بعيدة تمتد الى العصور الوسطى بل وجد البعض نصوص تعود الى القرنين الثاني عشر والثالث عشر. الحدود الاستراتيجية هي امتداد لنفس المفهوم ولكن بمعنى اخر اكثر وضوحا واكثر صراحة في دلالته الحركية. هذا المفهوم بدوره لم يبرز الا خلال القرن التاسع عشر وهو في اغلب الاحيان يجد مصادره التبريرية في حق الدفاع الشرعي عن النفس. ابتداءا من هذا المفهوم وصل البعض الى حد الدفاع عن الدولة التي تجد نفسها في حالة تبعية ازاء جيرانها بان تستولي على اقاليم اكثر اتساعا من اقليمها المشروع لتحقق تكاملها العضوي. ويعلن «ريد سلوب» بهذا الخصوص ومنذ خمسين عاما على الاقل بانه «في جميع تلك الحالات فان هذا السلوك الذي نحاول ان نؤسسه على ما يسمى بحق الدفاع عن الوجود الذاتي هو بصراحة ودون استثناء عمل غير مشروع».
هذا المفهوم رغم ذلك كان من الممكن ان يرتد سلاحا موجها الى قلب المنطق الاسرائيلي. فالى جانب انه منطق غير مقبول فان تطبيقه يؤدي الى التسليم بحق مصر في ان تمنع تواجد اي كيان سياسي على حدودها الشرقية يهدد تلك الحدود. وهو حق في هذا المعنى يستند الى التاريخ: ان رمسيس وتحتمس ليسا الا نموذجين يكملهما نابليون لو اردنا مناقشة هذا المنطق. وبهذا المعنى وخصوصا لوطورنا هذا المنطق بما يتفق مع المنطق المعاصر لادوات الاتصال لكان علينا ان نصل الى خاتمته الطبيعية وهو حق مصر في ان تلغي الوجود الاسرائيلي ذاته كقوة مستقلة وغير تابعة لاطار نفوذها الحركي تهدد تواجدها السياسي والحضاري. وهنا كان يمكن لعناصر منطقية جانبية ان تدعم مثل هذا التصور: فمصر دولة ثابتة لم يقدر لها خلال اكثر من ستة الاف عام ان تتحلل ككيان عضوي متكامل، على عكس اسرائيل التي لاتزال شرعيتها موضع مناقشة. ومصر تكون الكثافة السكانية التي تجعل اسرائيل الى جوارها لاتعدو ان تكون مدينة من مدنها الكبرى ومصر تمثل تلك الاستمرارية الحضارية التي لاموضع للمقارنة بينها وبين ما يسمى بالحضارة اليهودية. ولكن اين التخطيط الدعائي العربي؟ انظر على سبيل المثال: REDSLOB. Histoire de grands principes du droit des gens, 1923, P. 30.

(٦٢) قارن: SALOMON, Mediterran'ee rouge, 1970, P. 260.

٢١ـ قانون «ليبكين» والتغير الجذري في منطق الدعاية الاسرائيلية:

على ان الناحية الاخرى التي تعكس تطوراً حقيقياً في الدعاية الاسرائيلية ومنطقها الدعائي هي تلك التي عبرت عنها الصحافة العبرية باسم «قانون ليبكين». وليبكين هذا هو استاذ الطبيعيات النووية في معهد وايزمان. قام بتحليل الدعاية الاسرائيلية في الخارج وقدم لهذه الدعاية منطقاً جديداً تحدثت عنه الصحافة العبرية ابتداءاً من نهاية عام ١٩٧٠ دون أن نعلم على وجه اليقين مدى تشبع التخطيط الدعائي الاسرائيلي بذلك المنطق سوى من خلال تحليل مضمون الاعلام المكتوب[٦٣].

الفكرة الرئيسية التي تسيطر على مفاهيم هذا التصور الجديد هو ان اسرائيل يجب عليها لا ان تقدم نفسها في صورة ذاتية مستقلة كما تعودت وانما ان تقدم صورة تعكس تصور المستقبل لذاتيته ومشاكله. بعبارة اخرى فأن عملية الاتصال يجب ان تقوم على اساس التقاء صورة ذاتية بمنطق آخر. درجت اسرائيل قبل ذلك التاريخ على ان تجعل الصورة الذاتية هي صورة الوجود الاسرائيلي وان المنطق الآخر الذي يتقابل مع هذه الصورة هو منطق الاوروبي بعبارة اخرى درجت على ان تطوع المنطق الاوروبي على ان يستقبل الصورة الذاتية الاسرائيلية. اما اليوم فهو يقترح على اسرائيل ان تنسى صورتها الذاتية وان عليها ان تجعل هذه الصورة تصير بمثابة المرآة التي يجد كل مستقبل اجنبي ما يعبر عن مشاكله واهدافه وذاتيته في انعكاساتها. وهكذا يعلن «كل فرد يجب ان يرى الشرق الاوسط من خلال مشاكله الشخصية ويرفض ان يمتزج بالوقائع او بالحجج الخلقية». ومعنى ذلك ان على اسرائيل ان تطوع منطقها وصورتها بحيث تقدم لكل رأي عام اوروبي ما يشبع ذلك المنطق وما يصير امتداداً لتلك الصورة الذاتية الخاصة به[٦٤].

الواقع ان هذا المفهوم هو تطور لمفهوم آخر سبق وعانقته الدعاية الاسرائيلية قبل حوادث عام ١٩٦٧. فقد سبق ان راينا انها تقدم نفسها بحيث يجد كل مذهب سياسي في الصهيونية احدى دعائم عقيدته السياسية او على الاقل بعض نقط الاقتراب والتشابه[٦٥]. فهي تحدث الاشتراكي بلغة الاشتراكية وهي تغازل الديمقراطي باسلوب نظامها السياسي وهي تذكر المؤمن بالنازية بأن عقيدتها هي في جوهرها عقيدة هيجلية. ولكنها اليوم تنقل هذا المفهوم من مجرد لغة منطق سياسي ينساب من خلال العمل الدعائي الى تصور كلي متكامل للوجود الذاتي ينتهي بأن يمحو التميز ليصير مرآة يجسد فيها كل فرد انعكاس لمشاكله وآلامه. يقول «ليبكين» في مقال له على صفحات جيروزاليم بوست تعليقاً على هذه الحقيقة «ان حرب الايام الستة قد صدمت العالم بما فيه الكفاية لتحدث الاحساس الحقيقي بالتفاهم مع اسرائيل وبالاهتمام الكافي بخصوص قتالها في سبيل البقاء ولكن منذ ان انتهى الخطر فأن هذا القانون يصير قابلاً للتطبيق بخصوص جميع مشاكل الاحتلال: الانسحاب، الحدود والاستيلاء ان كل فرد قد فقد صورة الموقف في الشرق الاوسط ولم يعد يتبقى لديه سوى فقط مشاكله الذاتية». وهو يقدم نموذجاً لهذه الحقيقة بخصوص عملية تغير الحدود كما عرفها العالم منذ اعقاب الحرب العالمية الثانية. فأن أي الماني في هذه اللحظة «تثار بالنسبة له مشكلة تغير الحدود القائمة حالياً في اوروبا لا بد وان يثيره الفزع ولا بد وان يتساءل هل هذا ممكن ان يحدث بالنسبة لي؟» وهي مشكلة ليست قاصرة على المانيا الشرقية بل تتعداها الى منطقة الالزاس واللورين، ومنطقة التيرول ومنطقة تريستا. بعبارة اخرى على اسرائيل ان تطوع منطقها وان تطوع اثارة مشاكلها بحيث لا يرى فيها اي

---

(٦٣) قارن الاهرام بتاريخ ١٩٧٢/١/١٧.

(٦٤) انظر جيروزاليم بوست بتاريخ ١٩٧٠/٦/١٧.

اتجاه من اتجاهات الرأي العام سابقة تستطيع ان تكون اساسا لحركة مقبلة ضد ما يرجوه ويتمناه ذلك العام[٦٦].

وهو يستطرد بهذا الخصوص ليحلل على ضوء هذه القاعدة العلاقة بين مشكلة الشرق الاوسط والصراع الهندي الباكستاني. فالهندي او الباكستاني لا تعنيه من هذه المشكلة الا ان يرى مشكلته الذاتية: فالهند ترى في اسرائيل دولة مصطنعة دفعت الى اقامتها اقلية يهودية واستطاعت ان تقتطع اقليماً من اصحابه الشرعيين تستند اليه في خلق تلك الدولة المصطنعة وهذا أمر لا يجوز التسليم به لان هذا يعني بالنسبة للمنطق الهندي التسليم بشرعية باكستان الدولة المصطنعة. الباكستان ايضاً قد ترى الموقف من خلال مرآتها الذاتية ان اسرائيل دولة قوية غير مسلمة تسعى لسحق جيرانها المسلمين تماماً كما يحدث من جانب الهند وهذا أمر لا يجوز ان يصرح به. بغض النظر عما في كلا هذين المنطقين من تناقض وهو امر يجب ان يفهم حيث ان المنطق قد طوع تبعا لمواقف متعارضة فأن ليبكين يشرح لنا من خلال النموذج الدعائي كيف ان الرأي العام الخارجي اليوم اضحى يرى مشكلة الشرق الاوسط من خلال مشاكله. وان على الدعاية الاسرائيلية ان تصور اسرائيل على انها تعكس مشكلة كل دولة وعلى ان العرب هم الذين يمثلون الطرف الاخر في ذلك المنطق الذي يصير بالتبعية حربة مصوبة ضد منطق القضية العربية. يقول تعليقاً على هذا التصور «على اسرائيل ان تحاول ان تقنع اهل الباكستان بأن اسرائيل في الواقع تشبه الباكستان وان العرب هم الذين يشبهون موقف الهنود» ان وظيفة الدعاية الاسرائيلية تصير في تلك اللحظة وقد اضحت اساساً تدور حول خلق التشابه بين موقف الباكستان وموقف اسرائيل بحيث تقدم موقف العرب من اسرائيل على انه يعكس موقف الهنود من الباكستان: انه المجتمع الضخم بكمه الذي يسعى الى سحق الوجود الشرعي ولكن الضعيف بقواه البشرية وان لم تستطع دعايتها ان تحقق ذلك بدقة وعناية فأن التصريحات الاسرائيلية لن تقابل من جانب اهل باكستان الا بعدم الثقة، ولن تؤدي الا الى ان تتقبل من جانب الهنود لتقوي من موقفهم في تأييد العرب[٦٧].

٢٢ـ اسلوب «الجوقة» وتنفيذ العمل الدعائي:

فقط هذا المفهوم السابق تحليله والذي درجت الصحافة الاسرائيلية على تسميته بقانون ليبكين هو الذي يسمح لنا بفهم ما وصفناه بأنه فكرة «الجوقة» الدعائية. ونقصد بذلك ان تصدر في نفس اللحظة العديد من التصريحات المختلفة من حيث دلالتها والمختلفة من حيث عناصرها ومقوماتها ولكنها الصادرة في نفس الوقت وفي نفس اللحظة بحيث كل مستقبل اجنبي يستطيع ان يأخذ منها ذلك الصوت الذي يمكن ان يصفه بأنه الصوت الصواب بالنسبة له: the Voice that is right for him. قد يبدو هذا المفهوم غير واضح ولكنه في الواقع ليس الا تطبيقاً لاحدى القواعد المتداولة والمعروفة في العلاقات العامة وفي العمل الدعائي. فمن

---

(٦٦) يقول ليبكين في مقاله السالف ذكره: «كل اوروبي عاش خلال الاحتلال الالماني إثناء الحرب العالمية الثانية يصيبه الفزع عندما يسمع كلمة احتلال وعندما يسمع ان الحدود المقدسة المرسومة على خرائط ١٩٦٧ من الممكن ان تتغير في منطقة الشرق الاوسط يتساءل، هل هذا من الممكن ان يحدث بالنسبة لي، بالنسبة لخط الاودونيس، الالزاس واللورين، المناطق الجنوبية، التيرول، تيريستا، انه يصيبه الفزع وهو يريد ان مثل هذا الاحتمال المخيف يجب ان يزال من العالم باي ثمن كان». انظر في هذا المعنى جريدة الجيروزاليم بوست الاسبوعية بتاريخ ١٩٦٨/٦/٢٨ ص ٦.

(٦٧) الجيروزاليم بوست ١٩٧٠/٦/١٧.

المعروف لدى خبراء الدعاية فكرة اختلاق الموقف الذي يسمح بخلق شحنة انفعالية اساسها التعاطف نتيجة للاشعاع الذاتي من شخصية الفرد المستقبل للدعاية نحو شخصية مرسل الدعاية . عند ذلك ومن خلال هذه العملية التي تتم في العادة عقب دراسة رد الفعل المتوقع والتخطيط على اساسه حيث نكون قد خلقنا نقطة التعاطف نستطيع ان نطلق المنطق الدعائي الذي نريده[٦٨]. فكرة الجوقة تطبيق لهذا المفهوم وهي تعني انه بخصوص موضوع واحد تصدر مفاهيم مختلفة واراء متنوعة، بل ومتناقضة في نفس اللحظة. كل من هذه الآراء يخدم وجهة نظر مختلفة ومن ثم فأن المستقبل لا بد وان يتعاطف مع احد هذه الآراء.

وهكذا فأن القوى صاحبة المصلحة او ذات الاهتمام لا بد وان تجد في احد هذه التصريحات ما يخلق عامل الجذب. في لحظة اولى يحدث التعاطف ولكن في اللحظة الثانية وقد حدث الارتباط ولو اللاشعوري يبدأ المنطق الاصيل الذي تريد اسرائيل ان تجعله ينساب في المستقبل يتسرب ولو بطريق التلصص ولو ببطء ودون اثارة[٦٩].

فلنتصور نموذجاً يوضح هذا المفهوم:

الصراع او الخلاف الفكري حول مستقبل الدولة الاسرائيلية. هل تظل دولة يهودية حيث لا يوجد بداخلها سوى قومية واحدة تعبيراً عن الاصل الوحد المشترك ومن ثم تصير استمراراً للتقاليد الصهيونية السابقة على وجود اسرائيل ام انها يجب ان تتحول الى دولة ضخمة تضم العديد من القوميات؟ اسحاق بن اهارون يقدم تصريحاته العديدة واحاديثه المتنوعة تأكيداً للمفهوم الاول. موشي ديان في نفس اللحظة وفي نفس الوقت وعلى صفحات نفس الجريدة يعلن عن اراء ومفاهيم مختلفة ليعبر عن المفهوم الثاني. على ان الجوقة لا تقتصر عليهما: جولدا مائير، ابا ايبان، شيمون بيرز، وغيرهم الكل يتحدث في وقت واحد. ان كل منهم يقدم حديثاً سوف يختلف عن الآخر بحيث ان كل مستمع او مستقبل يجد الحديث الذي يشعر بأنه اكثر تعبيراً عن تصوره من خلال ادراكه الذاتي وهكذا يحدث الاثر الاول: التعاطف والاستعداد للاستقبال. الاثر الثاني والذي تريده الدعاية الاسرائيلية هو ان تقنع الجميع بأن اسرائيل دولة تنتمي الى منطقة الشرق الاوسط وان وجودها في المنطقة لم يعد موضع مناقشة وهكذا فمن خلال الجوقة تخلق التعاطف الذي يعد لانسياب الاثر الحقيقي صاحب الفاعلية العميقة والمقصودة من التخطيط الدعائي وهو تقبل شرعية التواجد الاسرائيلي وترسيبه ترسيباً مطلقاً في منطق القيم الحضارية والمدركات الفكرية لدى المستقبل[٧٠].

ويصل الامر الى حد ان ليبكين يقترح بهذا الخصوص على ادارة الاعلام الاسرائيلي ان تقوم بتسجيل اسطوانات تتضمن احاديث لجميع افراد الجوقة كل منهم يعبر عن وجهة النظر المختلفة بحيث عندما يستمع اليها المستقبل يقف ليتأثر ولينطبع فقط بذلك الصوت الذي يجد له صدى في ذاته[٧١].

---

(٦٨) انظر حامد ربيع، نظرية الدعاية الخارجية، م.س.ذ.، ص ١٣١ ومابعدها.

(٦٩) فكرة الاثر التراكمي في حاجة الى دراسة على حدة. انظر ايضا. BERELSON, JANOWİTZ. Public opinion and communication, 1960, P. 369.

(٧٠) الحوادث بتاريخ ١٥/٩/١٩٧٢ على وجه الخصوص ومابعدها.

(٧١) انظر الحوادث بتاريخ ١/١٢/١٩٧١.

٢٣ـ التمييز بين الدعاية والدعوة والتقاليد الحركية في الصهيونية السياسية:

تكمل هذه الخصائص ناحية اخرى تبرز واضحة من خلال متابعة الدعاية الاسرائيلية في اعقاب حرب عام ١٩٦٧. نقصد بذلك التمييز بين الدعاية والدعوة. لقد سبق ورأينا ان هذه العملية تعود بنا الى التقاليد السابقة على عام ١٩٤٨. فمنذ ان خطط سيلفر للحركة الصهيونية اثناء الحرب العالمية الثانية وضحت في التقاليد الصهيونية عملية التمييز بين الدعاية التي تتجه الى غير اليهودي للحصول على تأييده والدعوة التي تتجه الى اليهودي للحصول على ايمانه. هذه الناحية ضعفت خلال مراحل التعامل النفسي التي اعقبت انشاء الدولة الاسرائيلية بحيث ان الدعاية والدعوة اختلطت كل منها بالأخرى حتى حرب عام ١٩٦٧. في اعقاب ذلك التاريخ بدأت تظهر من جديد فكرة الدعوة لتتميز عن مفهوم الدعاية. ولنستطيع ان نفهم هذه الظاهرة علينا ان نعود مرة اخرى الى حوادث حرب الايام الستة.

لوحظ اثناء حوادث عام ١٩٦٧ روح عامة من التعاطف مع القضية اليهودية من جانب اي يهودي بغض النظر عن شعوره بالانتماء الى الوطن الاسرائيلي. ظهر ذلك واضحاً في فرنسا حيث درجة اندماج اليهودي بالمجتمع الفرنسي قوية لا موضع للشك في عمقها ايضاً نفس الظاهرة لوحظت في بريطانيا وفي اكثر من مجتمع واحد من المجتمعات الاوروبية.

فما هي اسباب ذلك التعاطف العام؟

تعرض احد العلماء اليهود المعاصرين المؤرخ «موشيه دافيس» رئيس معهد اليهودية المعاصرة بالجامعة العبرية لهذه الناحية في مقال نشر في جريدة الجيروزاليم بوست في نهاية عام ١٩٦٧. وهو يحدد اسبابا ثلاثة لروح التعاطف العامة التي عبرت عن نفسها خلال تلك الفترة: امكانية تكرار حوادث الافناء النازي والمرتبطة بذلك ثم من جانب آخر فهم عام للاخوة اليهودية حتى بين الاعداء التقليديين في غرب اوروبا. واخيراً وضوح معنى اختفاء اسرائيل بالنسبة لاي يهودي يقيم في أي بقعة اخرى من بقاع العالم[٧٢].

ما ان انتهت تلك الحوادث حتى عاد اليهودي الى وضعه السابق من النظرة الى اسرائيل بفخر وامتنان ولكن دون الاستعداد للتضحية والعودة الى الارض الاسرائيلية. واسرائيل لم تعد تستطيع ان تخطط لنفسها دون تشجيع الهجرة اليها واسباب ذلك معروفة. وقانون ليبكين السابق ذكره لا يمكن ان يطبق بالنسبة لليهودي لأنه يخالف منطق التأليه الصهيوني للذاتية اليهودية. اضف الى ذلك عامل آخر اكد عليه العالم السابق ذكره وهو ان الجمهور اليهودي المستقبل للدعاية لم يعد كما كان في الماضي ينتمي الى مجتمع محدد من المجتمعات السياسية، وهو يقصد بذلك مجتمع الولايات المتحدة، وانما اضحى يتجه الى اليهود في المهجر أي اليهود المشتتون في جميع انحاء العالم. ان الجمهور المستقبل لم يعد مجتمعات الجيتو التقليدية التي تمثل مجتمعات كاملة ولو جزئية او فرعية وانما اضحى المواطن اليهودي والعادي الذي يكاد يكون مندمجا اندماجا كلياً في المجتمع الذي يعيش بداخله. ازاء ذلك لا بد من تغيير اسلوب الدعاية لليهود وهو اسلوب يصير اقرب الى الدعوة بحيث يكاد يعيد التقاليد السابقة على عام ١٩٤٨ حيث يظهر مفهوم الدعوة ولكن باسلوب آخر اكثر صلاحية للموقف الجديد[٧٣].

---

(٧٢) قارن الجيروزاليم بوست بتاريخ ١٩٦٧/١/٦، وبتاريخ ١٩٦٩/٢/١٤.
(٧٣) نظر حامد ربيع، دراسات اساسية، م.س.ذ.، ص ٢٧.

الاسلوب الجديد يرتكز على منطلقات ثلاث:

اولاً: ينظر الى اليهودي على انه جهاز للاستقبال والارسال في آن واحد. هو يستقبل دعوة وينشرها في البيئة التي يعيش فيها ليخلق قوى جاذبة للمفهوم الذي يخلف المنطق الدعائي.
ثانياً: لن يكون اساس الدعوة المنطق السابق والذي اساسه: «اسرائيل في حاجة اليك، ما الذي تستطيع ان تفعله لاجل اسرائيل؟» وانما سوف يأخذ صياغة جديدة تختلف كلية: «انت في حاجة الى اسرائيل، ما الذي تستطيع ان تفعله لك اسرائيل؟».
ثالثاً: رغم ذلك فهو دعوة وليس بدعاية لأنه ينطلق من الايمان بأن التكامل الروحي اليهودي لن يتم إلا من خلال العودة الى الارض المقدسة
ليس هدفنا التحليل العمقي لجميع هذه النواحي ولكن الذي يعنينا اساساً هو اكتشاف الخلفيات الحركية للسياسة الخارجية الاسرائيلية كما نستطيع ان نتوقعها من خلال هذا المنطق الجديد الذي يسيطر على الاعلام الخارجي الأسرائيلي[٧٤].

(٧٤) قارن نشرة مؤسسة الد الدراسات الفلسطينية ة بتاريخ ٢٦ ديسمبر ١٩٧١. السنة الاولى، ص ٣٢٦ وما بعدها وكذلك ملحق العدد الاول بتاريخ اول ابريل ١٩٧١، ص ٧.

المبحث الرابع

ابعاد الحركة السياسية الاسرائيلية

٢٤ـ منهاجية الانتقال من الجزء الى الكل وتحليل الدعاية:

الانتقال من الجزء الى الكل هو احد المسالك التي تسمح لنا بربط عملية تحليل الدعاية الخارجية وبصفة خاصة الدعاية المعادية بخصائص علاقة القوة التي تتحكم في الموقف الداخلي ومن ثم نستطيع التوصل الى اكتشاف ابعاد الحركة السياسية ووضع صياغة للأطار الحركي للنظام السياسي الاجنبي سواء من حيث علاقة السياسة الخارجية بالسياسة الداخلية او من حيث علاقة الاعلام الخارجي بالاعلام الداخلي. ابرزنا في غير هذا الموضع كيف ان الدعاية الخارجية هي جزء من كل وهو السياسة الخارجية. وحيث ان السياسة الخارجية الاسرائيلية تقوم على اساس دياليكتيكية معينة تربط بين العمل الدبلوماسي والعمل الدعائي والعمل العسكري بعلاقة تكامل حركية فأن تحليل الدعاية يسمح باكتشاف من خلال عملية التصور الذهني خصائص السياسة الخارجية الكلية. وهذه بدورها لا بد وان تعكس بدرجة او بأخرى حقيقة علاقة القوة التي تتحكم في عملية صنع القرار السياسي، يأتي الاعلام الداخلي فيصير اداة من ادوات الضبط لهذه النتائج بحيث يسمح بتحديد ابعاد الاطلاقات او بتقييد المنطلقات الكلية[٧٥].

لا تعنينا في هذه الدراسة الموجزة عملية التحليل المنهاجي وقد سبق وان طبق هذه الاساليب علماء اخرون كما حدث من جانب العالم الامريكي «جورج» الذي انتفعنا بنماذجه في التحليل الخاص بدراسة العلاقة بين الدعاية النازية والتنبؤ بالحركة السياسية اثناء

فترة الحرب العالمية الثانية والتي قام بها لحساب مؤسسة راند كوربوريشن[٧٦]. وقد استطعنا من خلال الجمع بين تحليل المضمون الديناميكي والكيفي من جانب وعملية الانتقال من الجزء الى الكل من جانب آخر عقب تأصيل لهذه الناحية تأصيلاً يسمح بوضع قواعد ذلك الذي نستطيع ان نسميه «علم الفلك السياسي» ان نقدم بنتائج دقيقة بخصوص عملية التنبؤ بالسياسة المعادية.

والواقع ان فترة العشرة أعوام الماضية سمحت للعلوم السياسية بأن تسجل تقدماً واضحاً في استخدام عملية تحليل المضمون اساساً لاكتشاف الخلفيات المعنوية والفكرية التي تصدر عنها الرسالة وابتداء من ذلك المنطق استطعنا ان نصل الى تأسيس قواعد اكتشاف مدلول الحركة وابعادها وقد مهدت لنا المدرسة السلوكية[٧٦] في التحليل السياسي للوصول الى هذه الخطوة. طالما ان كل تعبير لفظي او رمزي بالكلمة او

---

(٧٥) نظر تفاصيل منهجية الانتقال من الجزء الى الكل كما حللناها في غير هذا الموضع في حامد ربيع. نظرية التحليل السياسي. مذكرات كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ١٩٧٠، ص ١٠٦ ومابعدها.

(٧٦) انظر ايضا حامد ربيع، نظرية السياسة الخارجية، م. س. ذ.، ص ٩٦ ومابعدها وقارن وعلى وجه الخصوص
GEORGE, Propaganda analysis, 1959, P. 41.

(٧٦م) انظر التفاصيل في حامد ربيع، مقدمة العلوم السلوكية، م. س. ذ.، ص ٩٧ ومابعدها

بالاشارة ليس سوى حقيقة سلوكية بمعنى انه من حيث جوهره لايعدو ان يكون رد فعل لمنبه ارتطم بجسد، فلو استطعنا من خلال تحليل خصائص رد الفعل والمتغيرات التي ادت الى رد الفعل وقد تحدد من حيث الزمان والمكان والموقف ان نصل من خلال عملية استقراء متتابعة الى خصائص الجسد الذي ارتطم به المنبه فعبر عن نفسه برد الفعل فأننا نستطيع ان نتنبأ بخصائص القوة التي انبثقت منها تلك الالفاظ في شكل حركة او بعبارة اخرى من خلال التعبيرات اللفظية او مافي حكمها نستطيع ان نصل الى تحديد خصائص الشخصية الفردية او الجماعية التي صدرت منها تلك التعبيرات اللفظية.
وخصائص الشخصية يجب ان تفهم بمعنى واسع: ليست فقط الصفات بل والاهداف والغايات وهي جميعا لابد وان تقودنا الى اكتشاف طبيعة العلاقات التي تتحرك في نطاقها تلك الشخصية.
هذه العملية تصير واضحة الخطورة حيث لانستطيع ان نجد لها بديلا في سبيل الوصول الى الامساك بالحقيقة موضع الاستفهام. ولعل اهم تطبيق يفصح عن هذا النموذج هو عملية التنبؤ بالسياسة المعادية(٧٧).

٢٥ ـ عملية الربط بين المنطق الدعائي الاسرائيلي وخصائص الموقف السياسي عقب ١٩٦٧:

المنطق الاساسي يدور حول طبيعة اعتداء عام ١٩٦٧ وهو انه جزء من مخطط عام ومرحلة من مراحل الاستراتيجية الصهيونية. هذا المخطط يعود من حيث اصوله القريبة الى عام ١٩٥٦. ففي اليوم الذي أكره

---

(٧٧) لاحظ كيف ان الاعلام الداخلي يصير اداة لضبط عملية الاستكشاف. قارن حامد ربيع، نظرية السياسة الخارجية، م. س. ذ. ص ١٢٣ ومابعدها.

(٧٧م) قارن بين المراجع العديدة التي تؤيد وجهة نظرنا بصفة خاصة:

BAR-ZOHAR, Histore secrete de le guerre d'I srael, 1968.

BENSON, The 48 hour war 1968.

BENTWICH, Israel: two fearful years; 1967- 1969, 1970.

BLAXLAND, Egypt and Suez, eternal battle ground, 1969.

Brown, Has Israel really won? 1967.

CHESNOFF, If Israel lost the war ? 1969.

DRAPER, Israel and world politics roots of the third arab-israeli war, 1968.

DZIEDZIC, Les coulisses de le guerre de six jours, 1969.

GRUBER, Israel on the seventh day, 1968.

HAREL, Facing Golan, 1967.

HASHA VIA, A history of the sixth day war, 1967.

HATZTONI, Six day war, 1969.

HERZOG, Israel's finest hour, 1967.

KANORSKY, The economic a btermath of the sixth day war in, M. E. Y. 1968, P. 131.

PERETZ, Israel's new arab dilemma, ibidem, 1968, P. 45.

REJWAN, Egypt's post june literary mood, in M. 1970, P. 47.

ROUGHTON, Algeria and the june 1967 arab- Israeli war, in M. E. J.1969, P 433.

SEGUEN, La Guerre de six jours; operation (drap rouge), 1967.

TROST, David et Goliath: la guerre israelo- arabe, 1967.

YITSHAKI, Six day war and aftermath as seen by the arabs, [!?!.

فيه بن جوريون على اتخاذ قراره بالانسحاب من سيناء، قامت القوى السياسية المهيمنة على الوجود الاسرائيلي بوضع تخطيطها الحركي للاستعداد للعودة الى نفس المنطقة على أساس تغيير الاطار العام للحركة بحيث لاتجد الدولة العبرية نفسها امام مثل ذلك الضغط الذي اخضعت له القيادة واضطرت معه الى الانحناء. هذا الافتراض يسلم به جميع المعلقين وهو ليس في حاجة الى تفصيل (٧٧م) ولكن لو قبلنا مدلول هذا التصور، فأن هذا يعني ان اسرائيل عقب عام ١٩٦٧ اضحت في مواجهة حقائق جديدة:

اولاً: احتلال لاجزاء واسعة من دول مستقلة تنتمي الى هيئة الامم المتحدة.
ثانياً: اتساع الارض الاسرائيلية بحيث اضحت تضم جزءاً ضخماً من العرب في داخل الدولة الاسرائيلية.
ثالثاً: حاجة اسرائيل الى عودة جديدة من قبل يهود العالم لتحقيق التوازن الديموغرافي الذي اختل ازاء عملية الانفتاح في الحدود وعدم القدرة على استيعاب العناصر العربية.

كل هذا كان لا بد وان يقود الى نتائج واضحة من حيث المنطق الدعائي، اقل وضوحاً من حيث ابعاد الحركة ولكن الربط بينها يسمح بصياغة توقعات المستقبل.

٢٦ـ عملية الاحتلال وبروز منطق العلاقات الدولية في الدعاية الاسرائيلية:

احتلال اجزاء واسعة من دول مستقلة لا بد وان يؤدي الى بروز منطق جديد في الدعاية وهو منطق العلاقات الدولية. ولو تتبعنا تطور المطالب الاسرائيلية لبرزت لنا هذه الحقيقة بحيث لا يعدو هناك مجال للشك بخصوص دلالتها[٧٨].
(١) هي تبدأ بالحديث عن المفاوضات المباشرة، وهذا مفهوم منطقي ومتداول في نطاق العلاقات الدولية حيث أن كل قتال لا بد وان ينتهي بالجلوس على مائدة المفاوضات.
(٢) وعقب عام ١٩٧٠ تبدأ تركز حول فكرة الحدود الآمنة متفعة في هذا بموقف العرب من رفض فكرة المفاوضات. وفكرة الحدود الآمنة ليست جديدة في تاريخ العلاقات الدولية. أثيرت قبل ذلك في اكثر من مناسبة كما ارتبطت على وجه الخصوص بما سبق وما لحق الحرب العالمية الثانية
(٣) وعقب ان اضحت هذه النغمة مستقرة في الاذهان بدأت تظهر اسطوانة جديدة حول مفهوم السلام وفرض ما تسميه بالسلام العبري ورغم ان هذا المفهوم أي مفهوم السلام هو منطلق بطبيعته لسياسة القوة لا تتحدث عنه الا الدول المسيطرة الا ان جعل هذا المفهوم يتدرج في منطلقات متتابعة ابتداءاً من فكرة المفاوضات المباشرة ومروراً بمفهوم الحدود الأمنة لا بد وان يعطي فكرة السلام دلالة تختلف عن

---

(٧٨) قارن الحوادث ١٩٧٣/٤/٢٧، ص ٣٤، ١٩٧٣/٥/٤، ص ٢٠، وانظر ايضا ١٩٧٢/١١/١٧ ص ١٠.
(٧٩) انظر الاهرام بتاريخ ١٩٧١/١٢/١١، الحوادث ١٩٧٢/٣/٣١. وقارن الاهرام ١٩٧٠/٥/٢٦. ١٩٦٩/٩/١٨ الاسبوع العربي، ١٩٦٩/٦/٧ وكذلك وبصفة خاصة اهن الامير. ماالذي يمكن، لاوروبا الجديدة ان تقدمه مساهمة في تسوية الازمة؟ الاهرام ٩١٧١/٧/٣٠.

٢٧ـ المنطق الدعائي والتحول الهيكلي لابعاد السيطرة للدولة العبرية:

فاذا انتقلنا الى الحقيقة الثانية وهي احتواء اسرائيل لاول مرة على جزء ضخم من السكان العرب يمثلون كثافة معينة ذات وزن واضح في المجتمع الاسرائيلي الكلي لفهمنا لماذا بدأت اسرائيل تتحدث بلغات مختلفة بحيث تخاطب سكان كل منطقة على حدة. ان المنطق واللغة التي تحدث بها الضفة الغربية يختلف عن منطق ولغة اهالي غزة. ورغم انها تجعل من هذا الحديث وسيلة وقناة لمخاطبة الرأي العام العربي الا انها تركز على ابعاد مختلفة تبعاً لكل منطقة: فعدم المساواة بين الفلسطينيين واهالي الاردن ووضوح الفقر والتخلف بالنسبة لاهالي الضفة الغربية لو قورنوا بأبناء الاردن تصير منطلقاً لحديث تختلف نبراته عندما ننتقل الى اهالي غزة حيث نجد العزف على وتر آخر وهو الارهاب المصري والعنجهية الفرعونية[٨١].

على ان الناحية التي تدعو الى الاعجاب بهذا الخصوص والتي تدعونا الى أن نتساءل؛ اين الاعلام العربي من الدعاية الاسرائيلية ومن عمق هذه الدعاية تدور حول ما نسميه الدعاية الصهيونية من خلال الاعلام العربي. ونقصد بذلك ان الدعاية الصهيونية تلجأ الى تقديم حقائق عربية ونقلها بصورة محايدة ودون أي إضافة او تشويه ولكنها في حقيقتها انما تؤكد ضعف العالم العربي وتدعيم فقدان الثقة في ذلك المجتمع وتلك الحضارة. تبرز هذه العملية واضحة على سبيل المثال، من ذلك التعليق الاسبوعي الذي يذاع لتحليل احد ابرز الكتب العربية. هذا التحليل الذي ينقل في جميع الاحيان وجهة نظر عربية يتضمن نقداً لنواحي الضعف في المجتمع العربي وذلك بقصد تأكيد هدف دعائي اسرائيلي. من امثلة ذلك الكتب التي صدرت في الفترة الاخيرة عن هجرة الادمغة العربية حيث جعلت الدعاية الاسرائيلية هدفها من تحليل تلك المؤلفات أثبات أن اي عالم عربي لا يستطيع ان يقوم برسالته العلمية في ظل تلك النظم القائمة المتفسخة وانه مضطر الى الهجرة الى مجتمعات اخرى بل ان بعضها اقل مستوى حضاري من المجتمع العربي كما هو بالنسبة لوسط افريقيا وبعض بلاد امريكا اللاتينية. ولتأكيد هذا المنطق تقدم الاوضاع الذاتية لاسرائيل كنموذج عكسي لذلك الوضع الذي يعرفه العالم العربي. بينما علماء العرب يهاجرون من بلادهم واوطانهم، ها هم العلماء اليهود يسعون الى العودة الى اسرائيل بالحاح وتصميم[٨٢].

---

(٨٠) انظر المناقشة التي اجراها ابا ايبان ونشرتها الجيروزاليم برست، العدد الاسبوعي، بتاريخ ١٩٦٩/٦/٢٧، مع الصحفي الاسرائيلي نيفني حيث يجيب على هذا الاخير وهو يتساءل عن امكانيات الصلح مع العالم العربي:

There is at least a theoretical possiblility that the Arabs will reach the point where they are persuaded that they cannot defeat us in war and that no outside intervention can bring about a thaw in the present situation. They will then be faced with a choice, either to resign themselves to the persent situation, or to try to change it by exploring the conditions of peace. Our political Strategy is designed to lead them to this choice...

ومعنى ذلك بعبارة اخرى ان السياسة الخارجية الاسرائيلية تقوم على اساس اقناع العرب بحقائق متعددة. اولا استحالة هزيمة اسرائيل من جانب العرب واستحالة اي تدخل اجنبي ثانيا في هذا الصراع ومن ثم الاقتناع بانه لايمكن تغيير الوضع القائم الا من خلال محاولة استكشاف شروط السلام ثالثا.

هذه المفاهيم الثلاث هي التي تحدد الاطار الاستراتيجي العام للدعاية الاسرائيلية الموجهة الى العالم العربي.

انظر ايضا نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٧٢/١/١٦. ص ٣٩ ومابعدها.

(٨٢) حول ضرورة المشاركة الفكرية انظر المناقشة التي آثارها بعض علماء السياسة في الجامعة العبرية ونشرت تفاصيلها جريدة الجيروزاليم بوست اليومية بتاريخ ١٩٧٢/١/٣٠.

٢٨ـ منطق الدعوة وتطور العمل الاتصالي الخارجي عقب ١٩٦٧:

حاجة اسرائيل الى عودة جديدة من قبل يهود العالم يعني فرض منطق الدعوة او بعبارة اخرى خلق نموذج للحركة السياسية في نطاق العلاقات الدولية. المنطق اليهودي بهذا الخصوص لم يتغير من حيث جوهره ولا يزال يعكس نفس التقاليد التي عرفها منذ المؤتمر الصهيوني الاول، ولكنه اخذ صورة اخرى اكثر تلائماً وانسجاماً مع طبيعة الوضع الذي فرضته نتائج حرب عام ١٩٦٧. ان اسرائيل في حاجة الى موجات متتابعة من الاتصال والارتباط العقيدي بتلك المناطق التي تضم عدداً كبيراً من اليهود وخاصة في الاتحاد السوفيتي[٨٣]. رغم ان الملاحظة العامة التي تسود هذه الناحية هو الربط بين عملية الاستقبال ومنطق الانتصار، الا ان الخلفية العامة للتعامل النفسي سوف تعكس الفارق الواضح بين الدعاية والدعوة. منطلق المفاهيم الاسرائيلية هو ان الانتصار العبري فرض على العرب الاعتراف بها والتعاون معها، وهو أمر لا بد وان يحدث ان آجلا او عاجلا لانه منطق التاريخ.

فما معنى ذلك؟

اول النتائج الواضحة تدور حول تأكيد نجاح الدولة الصغيرة في تحدي القوى الكبرى. الدولة الصغيرة، الحمل ازاء الوحوش المحيطة بها، وازاء تلك الدولة العظمى التي تركتها تدافع عن نفسها ضد الهمجية دون معونة، استطاعت ان تقف على اقدامها وتقبل التحدي وما حدث في عام ١٩٥٦ لن يتكرر في عام ١٩٦٧، ما هي دلالة ذلك بالنسبة لليهودي؟

اسرائيل القديمة تعود الى الوجود[٨٤]. وهنا تبرز علاقة الاستمرارية مع اختلاف في التطبيق: الاستمرارية هي طرح الوجود اليهودي ومشكلته في العالم المعاصر ولكن اليوم عقب ١٩٦٧ لا تقتصر هذه الدلالة على فكرة البحث عن مأوى إي ايواء اليهودي الذي لا ماوى له وانما الاعتراف باليهودي كرائد للشرق الاوسط.

وهنا يجب ان نلحظ الخطوات المتلاحقة في تطور المنطق اليهودي ابتداءاً من الدعوة الصهيونية حتى اليوم: قبل انشاء الدولة الاسرائيلية يدور حول ايواء اليهودي الذي لا مأوى له والذي لم يجد سوى الرفض في جميع المجتمعات الاوروبية. خلال العشرين عاماً التالية فأن تصور الحركة يدور حول فكرة تحقيق خلاص اليهود من اللعنة بتجميعه في ارض اسرائيل. عقب ١٩٦٧ تصير وظيفة الدولة الاسرائيلية هي تحقيق الرسالة التاريخية الحضارية بقيادة تلك الانسانية المعذبة المتمركزة في منطقة شرق البحر الابيض المتوسط[٨٥].

٢٩ـ تنظيم الجهاز الاعلامي:

قبل ان ننتقل الى ربط هذا المنطق الدعائي بمنطق الحركة السياسية علينا ان ندفع بملاحظة جانبية بخصوص وسائل الاعلام وادوات الاتصال في نطاق الحركة الخارجية. اذ نلاحظ عقب ١٩٦٧ تطبيق مبدأ

(٨٣) قارن تحقيق مجلة «نوفيل اوبزرفاتير» ١٩٧٢/١٢/٣٠ ص ٥٤ وما بعدها.

(٨٤) انظر النقد الذي يوجه الى الجهاز الاعلامي الاسرائيلي ورد ابا ايبان عليه في حواره السابق الاشارة اليه بجريدة الجيروزاليم بوست الاسبوعية ١٩٦٩/٦/٢٧، ص ٥

(٨٥) انظر «نوفيل اوبزرفاتير» ١٩٧٣/١/١٥ ص ٢٦ ومابعدها.

يبرز هذا واضحا عندما نتعرض الى تحليل ادوات الاعلام الخارجي بشيء من التفصيل. فرغم ان الاعلام الاسرائيلي ظل لم يتخل عن فكرة الاعلام الرسمي الذي تسيطر عليه الدولة، الا انه عقب ١٩٦٧ بدأ يبرز في صورة اكثر تنسيقا وتشابكا من هذه الناحية.

١) فالى جانب الاعلام الرسمي الذي ينبع من جهاز الاعلام وعلى وجه الخصوص من المكاتب الاعلامية الاسرائيلية المنتشرة في اهم العواصم العالمية والتابعة لوزارة الخارجية هناك الاعلام الصهيوني المنظم والذي تتحمل مسؤوليته فروع المنظمة الصهيونية بتعاون تام مع وزارة الخارجية الاسرائيلية.

٢) كذلك نجد ان المنظمات السياسية الاسرائيلية تتولى من جانبها القيام باعلام اخر يبرز لاول وهلة على انه نوع من انواع التعبير عن الوجود الذاتي دون اي هدف اخر ولكنه في الواقع يتم بتخطيط كامل مع مايفرضه ذلك من مرونة معينة مع وزارة الخارجية[٨٦]. اهم نماذج هذا الاعلام نجدها في نشاط الهستدروت من جانب والاحزاب السياسية سواء الحاكمة ام غير الحاكمة من جانب اخر.

٣) على ان تعدد ادوات الاعلام يبرز بشكل واضح عندما نضيف الى ذلك المنظمات الصهيونية المستقلة وماتقوم به من اعلام مباشر يبدو لاول وهلة على انه لا ينبع من الاطار العام للخطة الدعائية رغم انه في الواقع انما يعكس فكرة الجوقة كما سبق وابرزنا دلالتها. اهم الادوات بهذا الخصوص من جانب رابطة الدفاع اليهودي ومن جانب اخر مايسمى بحركة اسرائيل الكبرى[٨٧]

كذلك جدير بنا ان نتذكر في هذه العجالة السريعة التي لا بد وان يعيبها عدم توفر المعلومات الكافية ان نلاحظ تلك الاستراتيجية الجديدة التي لم تكن واضحة قبل ذلك. وهي تدور في بعدين

اولا: عملية خلق التوتر ولكن بكياسة.

ثانيا: عملية التقدم بخطوات في سبيل ابتلاع الاخرين.

برزت الناحية الاولى بشكل واضح اثناء زيادة جولدا مائير الى فرنسا ثم ايطاليا في صيف ١٩٧٢. اما الناحية الثانية فقد كانت اكثر وضوحا في طبيعة الخطاب الذي استخدمته اسرائيل في علاقتها بروسيا. فعقب ان كانت اسرائيل تتساءل: لماذا هذا الخلاف بين الاشقاء الذي ينتمون الى ايديولوجية سياسية واحدة؟ نجد ان ابا ايبان لم يتردد في ان يصرح بانه يجب على روسيا ان تسعى جاهدة الى اعادة العلاقات مع اسرائيل[٨٨]

٣٠ ـ اهداف الحركة السياسية في النطاق الخارجي:

ماهي الاهداف التي تسعى الى تحقيقها اسرائيل بحركتها السياسية من خلال دعايتها الخارجية كما سبق وحددناها؟

---

(٨٦) انظر البيانات الواردة في الثورة السورية، ١٧ تشرين الاول، ١٩٦٨ الاهرام ١/٣/٠ الاسبوع العربي ٨/٥/١٩٧٢.

(٨٧) قارن على وجه الخصوص. TLEY. Zionist propaganda: an evaluation of its effect upon the world, in Daily Star, P. 5. 1971.

(٨٨) قارن مجلة العلوم السياسية اللبنانية، العدد الرابع بتاريخ اول نيسان ١٩٧١، ص ١٧ وما بعدها.

اولا: تثبيت الاقدام حيث وصلت.
ثانيا: تأكيد ان اسرائيل تمثل حلقة الوصل بين العالم العربي والعالم الغربي.
ثالثا: ابراز اسرائيل على انها وحدها تستطيع حماية الشرعية في المنطقة.
رابعا: تقديم اسرائيل على انها حربة متقدمة لحماية المصالح الامريكية.

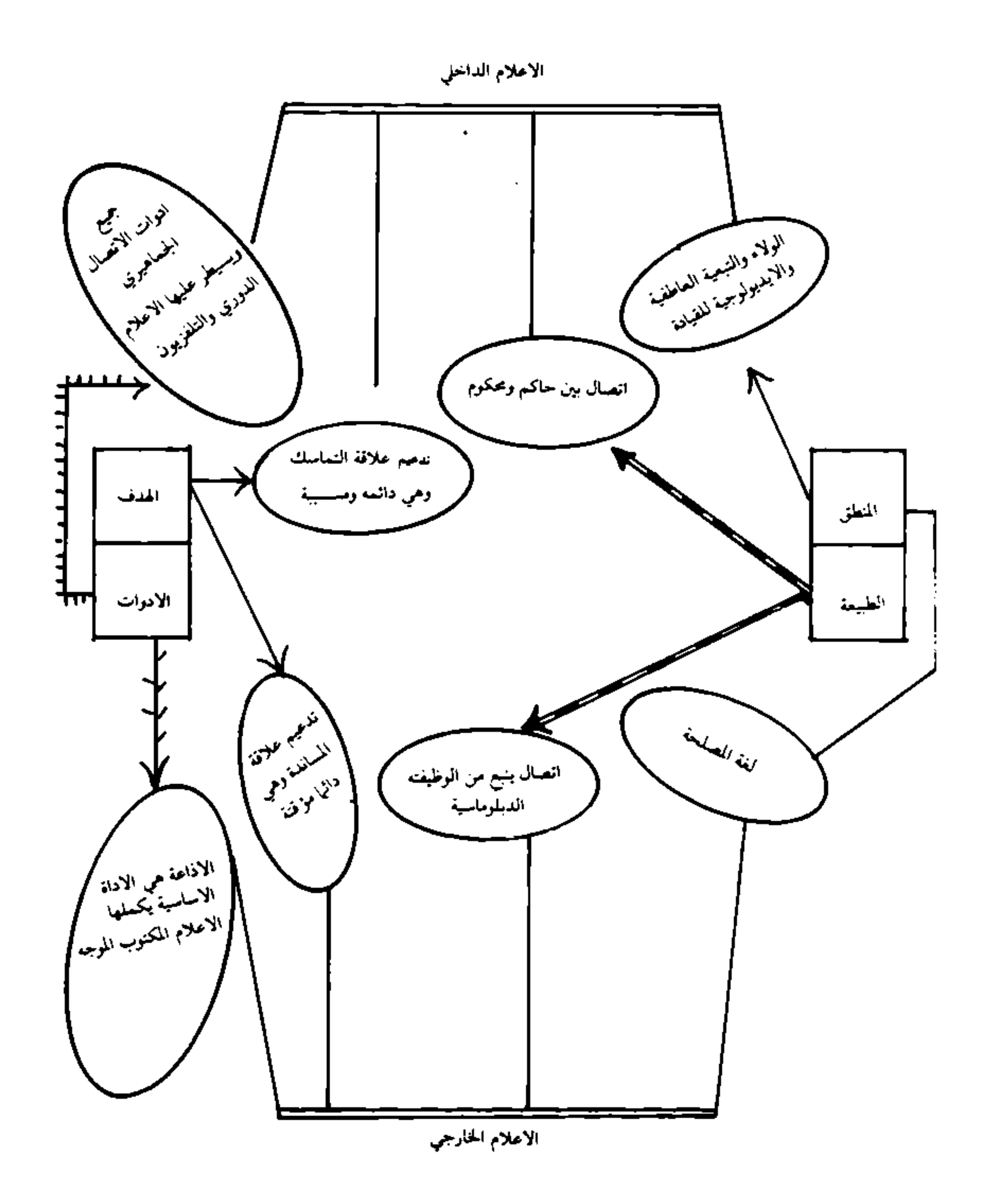
١) الهدف الاول يدور حول ضرورة اقناع العالم بان ماوصلت اليه يمثل الوضع القائم الذي يجب حمايته[٨٩]. وليس ذلك مرده فقط بان هذه هي الحدود التاريخية وانما ان تغيير الوضع القائم يمثل خطوة خطرة على جميع الشعوب وبصفة خاصة في مختلف اجزاء اوروبا الوسطى والشرقية. لقد سبق ان رأينا ان احد قنوات الدعاية الاسرائيلية هو تقديم مشكلة الشرق الاوسط من خلال مشكلة كل دولة او بعبارة اخرى جعل الحديث يدور من خلال قنوات المصالح الذاتية، يبدو هذا واضحا من خلال المنطق الذي تتقدم به اسرائيل الى العالم الشيوعي في اوروبا الشرقية. فأوروبا الشرقية عرفت تغيرات ضخمة في الحدود في اعقاب الحرب العالمية الثانية ولم يعد من مصلحة الطبقات الحاكمة اليوم في تلك المنطقة اثارة هذا الموضوع. بل وقد وصل الامر الى ان النظم السياسية ايضا في غرب اوروبا تتفق مع اسرائيل في التسليم بنفس النتيجة. يبدو هذا واضحا في المانيا الغربية عقب وصول الحزب الاشتراكي الى الحكم. اسرائيل تدق بوضوح في دعايتها على هذه الناحية مذكرة بأن تغيير الوضع القائم يعني فتح باب موصد لايمكن ان يؤدي الا الى خلق سوابق خطيرة بالنسبة للدول الاخرى[٩٠].

ب) على ان اسرائيل وقد سبق ان رأينا انها تسعى الى خلق قنوات الخطاب مع غرب اوروبا، تجعل منطقها بهذا الخصوص يتأسس على سياسة تدور حول استبعاد الاتصال المباشر بين العالم العربي والعالم الغربي. فأوروبا لم تفهم العرب ولن تستطيع ان تفهمهم. اسرائيل وحدها هي التي فهمت هذا العالم وهذه النتائج خير دليل على صحة هذه الدعوى. ما الذي يريد العالم الاوروبي من هذا العالم غير المتحضر؟ ثرواته؟ البترول؟ ان اسرائيل تستطيع ان تحقق ذلك وهي التي تنتمي الى العالم الغربي حضاريا وفكريا وتكنولوجيا. حتى قناة السويس هي قادرة على ان تغنيهم عنها بل وهي صاحبة الارادة الاولى والاخيرة في امكانية استخدامها. فلماذا لاتستغني اوروبا المتحدة عن الاتصال المباشر بهذا العالم وقد اثبتت اسرائيل فاعليتها في تحقيق هذه الغاية؟ هذا المنطق هو الذي استخدمته الدعاية الاسرائيلية في خلق التجاذب الذي نعلمه مع القوى اليسارية في فرنسا وايطاليا وايضا في بريطانيا العظمى. ان حديث ويلسون الذي اعقب زيارته لتل ابيب خير معبر عن هذه المفاهيم[٩١].

ج) يرتبط بهذا المفهوم الثاني ويدعمه مفهوم اخر يدور حول تأكيد ان اسرائيل اضحت الارادة المتحكمة والمسيطرة في المنطقة. وينطلق من هذا المنطق ان اسرائيل هي التي تمثل الدفاع عن الشرعية: فهي التي تستطيع وضع حد للاضطرابات وخلق حالة سلام في المنطقة اولا، وهي التي تتولى تأديب الارهابيين الذين يتحدثون عن الحرية وهم يمثلون الغوغائية ثانيا، وهي تهجم على معكسرات اللاجئين في شمال لبنان وتعلن ان هدفها هو تعقب الثوار وحركات الرفض من جانب اعداء النظم السياسية القائمة في ايران وتركيا وقبرص ثالثا[٩٢].

---

(٨٩) يناير ١٩٧٣ قارن مجلة الاكسبرس الفرنسية بتاريخ ٢٨ يناير ١٩٧٣، ص ٦٦ ومابعدها.
(٩٠) جيروزاليم بوست، ١٧/٦/١٩٧٠.
(٩١) انظر نموذج اخرى وسابقة على ذلك التاريخ في دبيرون، م.س.ذ.، ص ٢٦ ومابعدها.
(٩٢) هنا نلاحظ بوضوح قصور الجهاز الدعائي والاعلامي العربي سواء على المستوى الثنائي او الجماعي كما سوف نرى فيما بعد. ولعل خير نموذج يعكس هذه المأساة حوادث عام ١٩٧٣ ابتداء من حادث اسقاط الطائرة الليبية حتى حوادث الاعتداء المعروفة ببيروت.



الاعلام الداخلي
جميع ادوات الاتصال الجماهيري ويسيطر عليها الاعلام الدوري والتلفزيون
الولاء والتبعية العاطفية والايديولوجية للقيادة
اتصال بين حاكم ومحكوم
تدعيم علاقة التماسك وهي دائمه ومستمرة
الهدف
الادوات
المنطق
الطبيعة
تدعيم علاقة المساندة وهي دائما مؤقتة
اتصال ينبع من الوظيفه الدبلوماسية
لغة المصلحة
الاذاعة هي الاداة الاساسية يكملها الاعلام المكتوب الموجه
الاعلام الخارجي

على ان اسرائيل في الواقع من خلال المفهوم الثالث السابق ذكره تخاطب السياسة الخارجية الامريكية باسلوب مغلف اساسه القدرة على خلق حالة سلام في منطقة الشرق الاوسط ولكنها تريد تأكيد هذا المنطق من خلال منطق آخر يدور حول وصفها بانها رأس حربة متقدمة لحماية المصالح الامريكية[93]. ان المصالح الامريكية في المنطقة لاحد لها وأسرائيل وحدها قد اثبتت قدرتها على تحقيق هدفين: فهي تستطيع ان تضرب اي قوة محلية تسعى لخلق اي اضطراب بالنسبة لتأمين المصادر البترولية، وهي من جانب اخر قادرة على ان تحمي المحيط الهندي من خلال التحكم في البحر الاحمر: ليس فقط التحكم في ثرواته بل وفي ممراته ومواصلاته ابتداءا من اقصى الجنوب الى اقصى الشمال. وهكذا هي تحمي جميع المصالح الاستراتيجية المتعلقة بالامن القومي الامريكي: مشكلة الطاقة من جانب ثم مشكلة المحيط الهندي من جانب اخر.
ورغم ان الناحية الاخيرة لم ترددها الصحافة العربية الا منذ فترة قصيرة، الا ان الواقع ان المتتبع للنشاط الاسرائيلي يعلم ان هذه الناحية بدورها تعود الى ماقبل عام ١٩٦٧ منذ بدء ارتباطاتها الاقتصادية والعسكرية المعروفة بأثيوبيا[94].

٣١- الاستراتيجية الاسرائيلية وموجاتها المتعاقبة:

اهداف اربعة تمثل المستوى الثاني من مستويات الانتقال من الجزء الى الكل. هي اهداف دعائية ولكنها تستر حركة سياسية فما هي تلك الحركة؟ وما هو الهدف النهائي الذي تسعى اليه اسرائيل بالنسبة للمنطقة؟

ان متابعة هذه الموجات المتعاقبة من المنطق الكلي لا بد وان تؤدي الى نتيجة واحدة: وهي ان اسرائيل سوف تسعى خلال العشرين عاما القادمة الى العمل بجميع وسائلها وامكانياتها على تجزئة المنطقة وتحويل القارة العربية الى عدد لا حصر له من الكيانات الصغيرة. انها تعزل المنطقة عن العالم الدولي ثم تفتتها من الداخل في حركة مزدوجة: عن طريق الاختراق من جانب الاسهم الاسرائيلية وعن طريق التمزق من جانب القوى الذاتية.

وهي لذلك:

اولا: تشجع الاقليات وتحدثها بلغة مصالحها الذاتية.

ثانياً: تردد بمناسبة وبغير مناسبة التأكيد على اهمية التنمية الذاتية كوسيلة لتغطية وتمويه عملية التحرر الذاتي للمنطقة.

ثالثاً: تشجع النعرات الجغرافية بالنسبة للدول المصطنعة وبصفة خاصة الاردن ولبنان[95].

رابعاً: تضرب على وتر مصالح الطبقات المنتفعة من خلال اعادة ترتيب القيم السياسية بما يتفق مع مصالح النعرات الاقليمية.

اوبعبارة اخرى تخلق عناصر الجذب نحو التخاطب معها من جانب وعناصر الجذب نحو الانفصام والقوقعة الذاتية من جانب آخر.

---

(٩٣) قارن المعيار البيروتية، ايار ١٩٧٣، ص ٣٢.
(٩٤) انظر الاسبوع العربي ١/١١/١٩٧١، والحوادث ٥/١١/١٩٧١ وقارن ايضا الحوادث بتاريخ ٢/١٢/١٩٧١.
(٩٥) قارن الموند، العدد الاسبوعي، ٣ مايو ١٩٧٣، ص١.

٣٢ - السياسة الاتصالية ومسالكها منذ عام ١٩٦٧:

هذه الابعاد المختلفة للسياسة الخارجية الاسرائيلية كان لا بد وان تؤكد الصفات العامة للاعلام والدعاية كما تبرز من خلال التطور العام الذي اعقب عام ١٩٦٧.

انه يسير في مسالك ثلاث، كل منها له خصائصه المستقلة:

اولا: هو يتجه اول ما يتجه الى اليهودي في الخارج[٩٦] في صيغة الدعوة الساعية الى خلق وتأكيد عملية الايمان بقصد الارتباط العقيدي في سبيل خلق اسرائيل الكبرى.

ثانياً: ثم هو يتجه الى العرب داخل اسرائيل[٩٧] من خلال الاتصال الشعبي المباشر بحيث يجعل من هؤلاء قناة الاتصال الجاذبةوالمؤيدهللسياسة الاسرائيلية في العالم العربي.

ثالثاً: ثم هو يتجه الى المؤيدين في الخارج بقصد ربط عملية التأييد بالمصالح المباشرة[٩٨]. وهنا نلحظ كيف ان الدعاية الاسرائيلية تعود الى تقاليدها السابقة على عام ١٩٤٨: ليس فقط بخصوص التمييز الواضح بين الدعاية والدعوة وانما ايضاً فيما يتعلق بما نستطيع ان نسميه الفيضان الاتصالي من خلال مرحلتين متعاقبتين. مرة اخرى تعود التقاليد الاسرائيلية الى الاسلوب الذي اتبعه سيلفر في الولايات المتحدة بأن جعل مراحل حركته الاعلامية تتخذ خطوتين متتاليتين: الاولى من خلال التأثير في صانع القرار والثانية بعملية خلق موجات للرأي العام تساند صانع القرار في مواقفه.

على ان فهم هذه الأبعاد المختلفة لن يصير واضحاً الا من خلال الدراسة التفصيلية لمظاهر الاخفاق في الاعلام العربي قبل ان نعود الى تعميق حقيقة الغزو النفسي للدعاية الاسرائيلية في ابعاده الحضارية.

(٩٦) LEVYNE, Judaisme contre sionisme, 1969, P. 144.

(٩٧) فارن نيوزويك، ٩/٤/١٩٧٣ ص ١٠.

(٩٨) انظر المناقشات الواردة في شؤون فلسطينية ١٩٧٢ نوفمبر، ومابعدها.

(٩٩) ويرتبط بهذا ايضا عملية الاتجاه بالخطاب الى الطبقات المثقفة المحلية من خلال الجمعيات الصورية والوهمية كما هو حاليا مع تلك المسماة باسم: The association for peace وقد قامت خلال العام الماضي بحملة عنيفة نحو الرأي العام العربي المثقف من خلال الاعلام المكتوب الذي اخذ صورة كتيبات كان اخرها بعنوان To choose or not choose حيث تحاول ان تزرع عدم الثقة في العلاقة بين الطبقات المثقفة والسلطة الحاكمة. انظر جريدة اللواء، ٢٠ ايلول ١٩٦٧ مقال لصلاح سالم بعنوان: رحلة في الدماغ الاعلامي للعدو، وقارن ايضا صادق جلال العظم، الخوف من شعور التحدي، في الاسبوع العربي، ٢٥ تشرين الثاني ١٩٦٨ وهذا يدعو للتساؤل: ماذا ننتظر ورغم مضى قرابة عشرين عاما على هذه الملاحظات للقيام بهجوم مضاد؟ والهجوم المضاد لا يعني سوى المبادرة الى تحطيم نفسية العدو ومن الداخل ام هل سوف يتعين علينا ان نأخذ دائما موقف الدفاع؟

الفصل الثاني

اين الاعلام العربي من المعركة؟

خلاصـــــــه

خلاصة: تأصيل الاخفاق العربي ـ الخلط بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي. عملية التمييز بين
الاتصال المحلي والدعاية في نطاق العلاقات الدولية. خصائص العمل السياسي الخارجي وعلاقته
بالتعامل النفسي ـ طبيعة الاتصال الخارجي: اللغة، المنطق، الادوات، المراحل ـ مستويات العمل
ـعثي العربي: ثنائي، اقليمي، معادي، دولي ـ الخبرة العربية وابعادها: التناقض، اختفاء التخطيط،
ـرة المتخصصين ـ سلبية جامعة الدولة العربية ـ مستويات الاعلام الخارجي واهمية التمييز بين طبيعة
ـ منها. الوضع الحالي وضرورة التخلص من مساوئه. تقيم نشاط جامعة الدول العربية.

٣٣- العلاقة بين الاعلام والسياسة الخارجية وديناميات التحرك الدولي:

قد تبدو العلاقة بين الاعلام والسياسة الخارجية (١) لاول وهلة علاقة ضعيفة ان لم تكن لا وجود لها. في تصورنا المعتاد الذي درجت عليه التقاليد العربية فان كل منهما اي الاعلام من جانب والسياسة الخارجية من جانب آخر يكاد يتنافى مع الاخر. فالاعلام تترجمه عاداتنا في خطب تثير اكبر قدر من الضوضاء،عملية تتصف بطابع التضخيم والعلانية دون حياء يسيطر عليها الصوت المرتفع وتملق الجماهير. وهي لم تقتصر بهذا المعنى على النطاق الداخلي بل اضحت تميز الاعلام العربي ايضا في النطاق الخارجي. قصة السفير الذي يدعو رجال الصحافة ليعلق على الوقائع بكلمات وعبارات تجافي التقاليد الدبلوماسية ليست بالحدث الشاذ او غير المتكرر حتى انه في بعض الاحيان يكاد المحلل المحايد يتصور ان الدبلوماسيين العرب في الخارج يتصورون انفسهم نجوم للسينما او للتليفزيون ويعتقدون ان من حقهم

---

(١)دراسة الاعلام كاداة من ادوات السياسة الخارجية لم تكن حتى هذه اللحظة موضع اي اهتمام من جانب علماء السياسة في العالم العربي وبصفة خاصة علماء العلاقات الدولية. قد يخفف من مسؤوليتهم في هذا الشأن ان هذا الموضوع لم يلق العناية الحقيقية من الفقه العالمي الا خلال فترة الاعوام الخمسة الاخيرة. ويكفي للتاكيد من صحة هذه الحقيقة ان نقارن بين اي مؤلف عن العلاقات الدولية يعود الى الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية والفترة التي نعيشها. بل ان هذه المقارنة تبدو اكثر وضوحا لو تتبعنا فصول احد المؤلفات الصادرة في الخمسينات وعقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ولو بحوالي خمسة اعوام وتلك الاخرى التي تعود الى السبعينات. فلنقارن على سبيل المثال المؤلف التقليدي للعالمين، باديل فورد ولنكولن والذي صدرت طبعته الاول في عام ١٩٥٤ والكتاب الاخر بنفس العنوان والذي ندين به للعالم الامريكي جوردان الاستاذ بجامعة فرجينيا والذي يعود الى عام ١٩٧٠. ان الاول يخصص فصلا بعنوان «المتغيرات النفسية في العلاقات الدولية» ولكنه في مطوله الذي يبلغ اكثر من سبعمائة صفحة لم يخصص للظاهرة الاعلامية اكثر من خمسة صفحات عندما قدر له ان يحاول تحليل السياسة الامريكية وادواتها وما يتصل بالادارات الاعلامية والبرامج الدعائية. ولكن لو انتقلنا الى المؤلف الاخر لوجدنا ان العنصر الاعلامي والمتعلق بالتعامل النفسي بصفة عامة يبرز في كل قسم من اقسام الدراسة. ففي الدراسات التي تتكون من سبعة اقسام نجد ان القسم الاول قد خصص فيه فصلا مستقلا بعنوان «الحرب الباردة» ثم عاد المؤلف في القسم الثاني ليتحدث عن المثالية السياسية في ادارة العلاقات الدولية. ثم افرد في القسم الثالث فصلا عاما بعنوان. من الدعاية الى غسيل المخ. ثم عاد في القسم الرابع ليفرد فصلا بعنوان الاخلاقيات الدولية. وجاء في القسم السابع والاخير ليفرد مرة اخرى فصلا بعنوان الضغط الشعبي والايديولوجية كأداة من أداوات التغير السلمي. نموذج آخر نستطيع ان نلتمسه من مؤلف هولستي الذي يعود الى عام ١٩٦٧. فهو يفرد ثلاثة فصول كاملة لهذه النواحي فصل يتناول فيه الدعاية ثم آخر يتحدث فيه عن الضغط الاقتصادي ثم ثالث يتناول فيه الحركات السرية، بل ونستطيع ان نضيف فصلين اخرين احدهما عن التاثير السياسي وثانيهما يقدم فيه لتحليل ما اسماه الراي العام الدولي كأحد الخلفيات الضابطة للحركة السياسية في النطاق الدولي. حتى المؤلف المتداول في الجامعات الهندية والذي يعود الى عام ١٩٦٢ يفرد فصلا مستقلا لما اسماه الرأي العام الدولي كأحد الخلفيات الضابطة للحركة السياسية في النطاق الدولي. حتى عن التقاليد السابقة كمؤلفات لبرخ ففي مؤلفه ا. المشهور الذي يعتبر احد الادوات الاساسية التي تتلمذ عليها جيل كامل من المشتغلين بالعلاقات الدولية اي كتاب مبادىء السياسة الدولية؟نجد ان هذا المؤلف لم يذكر كلمة اعلام ولو مرة واحدة. وتزداد هذه الملاحظة وضوحا عندما نتذكر انه افرد فصلا مستقلا داخل ذلك القسم الذي جعل عنوانه المشاكل المعاصرة باسم المشاكل النفسية. ولو تصفحنا ما ورد تحت هذا الفصل لوجدنا انه لايعدو المتابعة التحليلية للصراعات الايديولوجية والخلافات الفكرية بين الكتلة الشيوعية والكتلة الغربية وعلى وجه الخصوص بين الايديولوجية السوفيتية والعقيدة الامريكية. وهي نواحي جميعها بعيدة عن مظاهر الرأي العام وعن اتجاهات القوى النفسية الباطنة المرتبطة بالحركات الشعبية. نفس هذا الموقف نجده بطريقة لاتقل وضوحا لدى نفس المؤلف في كتابه الذي لايقل شهرة عن الاخر بعنوان السياسة الخارجية للشعب الامريكي. طبعته الثالثة التي تعود الى الستينات بدورها تخلو كلية من كلمة الاتصال. وذلك رغم انه يفرد اجزاء كاملة لظاهرة الراي العام وكذلك لظاهرة الدعاية. فهو اولا يخصص فصلا لما يسميه الرأي العام والسياسة الخارجية، الامريكية يتناول فيه نواحي القوة ونواحي الضعف في الراي العام الامريكي ويذكر لنا بهذا الخصوص ان احد نواحي الضعف هو النقص الاعلامي ثم يصمت ولايعود الي الظاهرة الاعلامية مرة اخرى ورغم انه عقب ذلك سوف يخصص

فصلا كاملا لنا اسماه رد الفعل الامريكي للدعاية الخارجية.
انظر المصادر التالية:

PADEL. FORD, LINCOLN, International Politics, 1954, P 127
HARLD, SPROUT, Foundations of International Politics, P.400.
GREENE, Dynamics of International relations, 1964, P.312
LERCHE, Principes of International Politics, 1956, p.266.
LERCHE, Forign Policy of the American People, 1961, P.154.413
HOLSTI, International Politics, 1967, P 66.
JORDAN, World Politics in our time, 1970, P 99.
FISCHER, MERRILL International Communication, 1970,P.66.

وهكذا اضحت احدى القواعد الثابتة في التقاليد المعاصرة هو جعل ظاهرة الراي العام والتعامل النفسي والسلوك الادراكي بمختلف ابعاده كل منها تمثل احد المداخل الثابتة لتحليل عملية التحرك الدولي. فاين من هذا علماء السياسة العرب؟ واين المتخصصون في جامعة القاهرة؟ وماذا فعلت تلك الاسماء المعروفة في كلية الاقتصاد؟ والغريب ان علماء العلاقات الدولية في تلك الجامعة يكرسون جهودهم للعمل الصحفي ويعيشون من خلال الاتصال الاعلامي اليومي ومع ذلك ورغم احداث ١٩٦٧ فان اي محاولة جادة بهذا الخصوص لاموضع لها.

وهنا يتعين علينا بايجاز ان نلفت نظر القاريء الى ضرورة التمييز وعدم الخلط بين المفاهيم، وعلى وجه الخصوص

اولا: من حيث ديناميات العملية ذاتها، اي عملية التفاعل الفكري فعلينا ان نفرق بوضوح بين الاعلام والاتصال والحرب النفسية بمختلف جزئياتها.

ثانيا: ومن حيث المستقبل اي المصب الذي تتجه اليه اي من العمليات السابقة الثلاث علينا ايضا ان نفرق بين الجماهير او رجل الشارع او الرجل العادي وقائد الراي من جانب ثم صانع القرار من جانب اخر.

ثالثا: كذلك يجب ان نميز من حيث اهداف العملية بين التأثير الادراكي اي مجرد التصور والعلم والتفاعل السلوكي اي الاستجابة بحركة محددة الخصائص.

هذه التفرقة قد لاتكون واضحة لدى علماء العلاقات الدولية نتيجة اهتمامهم المتأخر بهذه النواحي، ولكنها ضرورية ولازمة لعملية التحليل الذي نقدمه. سوف نتعرض لبعض ابعاد هذه المفاهيم في هذاالمجالهولكننا نحيل القاريء بالنسبة للتفاصيل على حامد ربيع، مقدمة العلوم السلوكية ١٩٧٣

ان تصدر عنهم اي تصريحات دون تقدير لمداها ولقيمتها الحقيقية (٢). على العكس من ذلك فان كلمة السياسة الخارجية في مفهومنا العربي تثير في الذهن فكرة التحركات السرية المعقدة التي تبدأ وتنتهي في الخفاء بين الكواليس بعيدا عن اعين الجماهير لايدري بها احد. يغلفها التكتم ويحيط بها الصمت. هي قضية الطبقة الحاكمة وليست امورا تعني الشعب الكادح.

من الطبيعي ازاء مثل هذا التصور ان لاموضع للحديث او الاهتمام بحقيقة العلاقة بين الاعلام والسياسة الخارجية. هي علاقة جزئية وعلى كل حال فهي لا يمكن ان تؤثر في نجاح او في فشل اي منهما حيث ان كلا منهما مستقل عن الاخر من حيث طبيعته ومسالك تطوره وادوات تنفيذه.

على ان هذه الصورة وهذا التصور انما يعبر عن مفهوم اضحى بدائيا في تحليل طبيعة الحركة السياسية في النطاق الدولي. وهو مفهوم لايزال يسيطر لافقط على اجهزة الاعلام وعلى تخطيط السياسة الخارجية العربية على المستوى المحلي بل ايضا على مستوى جامعة الدول العربية. ان العالم المعاصر لم يعد يقبل ان ينظر الى السياسة الخارجية على انها امور تبتعد عن اهتمامات الشعب ومطالب الجماهير. والاعلام قد تطور واضحى علما قائما بذاته له قواعده وله حيله والاعيبه ومداخله واضحت العلاقة بين الاعلام الخارجي والسياسة الخارجية علاقة ارتباط وثيقة بحيث ان كلا منهما يتدخل في الاخر ليشكل بعض ابعاده ان لم يكن اغلبها.

٣٤- هزيمة ١٩٦٧ وابعادها الحركية من حيث المواجهة الاسرائيلية:

كان من الضروري ان يستيقظ العالم العربي عقب احداث عام ١٩٦٧ وكان من الطبيعي ان تعيد اجهزة الجامعة العربية وقادتها والمسؤولين عن ادارتها النظر الى تقييم واقعنا المحلي عقب تلك الهزيمة الساحقة وما ارتبط بها من ملابسات. لقد اكتشف العالم العربي فجأة ان السياسة الخارجية الاسرائيلية تسير وتتحرك مستندة الى اعمدة ثلاث: اعلام ذكي وقوة عسكرية ضارية ودبلوماسية كفاحية(٣).

---

(٢) نذكر على سبيل المثال واقعتين احداهما من جانب المندوب الدائم التونسي اثناء وجوده بنيويورك وفي اعقاب المؤتمر الصحفي المشهور الذي عقده الرئيس عبد الناصر قبل حرب يونيو ١٩٦٧. ففي صبيحة ذلك المؤتمر جمع جميع المراسلين في هيئة الامم المتحدة وشن هجوما على الرئيس المصري بطريق التشكيك في حديثه. ورغم ان هذا العمل يخالف التقاليد الدبلوماسية لان المندوب التونسي وهو مندوب دائم لدى الامم المتحدة لايملك الاتجاه المباشر للرأي العام الامريكي، الا ان الاخطر من ذلك ان هذا التصرف لايمكن ان يكون الا تعبيرا عن فساد في الذوق بالنسبة للامة العربية. ترتب عليه ان صحيفة النيويورك تايمز افردت لحديثه المذكور صفحاتها الاولى في عدة اعداد متتالية. الواقعة الثانية كانت في صيف عام ١٩٧١ عندما قدر لوزير الخارجية البريطاني ان يزور القاهرة بدعوة من الحكومة المصرية فاذا بالسفير المصري في لندن يدعو الى مؤتمر صحفي يصدر فيه من التصريحات ما كان موضع الانتقاد الشديد من الصحافة الانجليزية بل والصحافة العربية على وجه الخصوص في بيروت. انظر ايضا الحوادث بتاريخ ١٥/٩/١٩٧١، ١٣/١٠/١٩٧٢.

(٣) الدبلوماسية الكفاحية لها معنى محدد يدور حول مفهومين مترابطين: اولهما الايمان وثانيهما المغامرة. الايمان لايمكن ان يرتبط الا بالقضية او الايديولوجية او الصراع الذي يستتر خلف العمل الدبلوماسي. ورغم ان هذا قد يبدو لاول وهلة مخالف لما تعودنا ان نتحدث عنه باسم التخصص المهني، والدبلوماسية بهذا المعنى تقترب من خصائص وظيفة خبير السلطة. ورغم ان خبير السلطة مطالب بالوضعية والعلمية الا انه مطالب ان يجعل من هذه العلمية اداة لخدمة الاهداف القومية. كذلك العمل الدبلوماسي لم يعد يقبل بدعوى الحياد ان يقف الموظف الدبلوماسي موقف السلبية من الصراع المصيري الذي يرتبط به وجود امته. هذه الناحية تبدو واضحة في الدبلوماسية المتخصصة العسكرية من جانب والاعلامية من جانب آخر وهي تبدو اكثر وضوحا في الدبلوماسية السوفيتية والشيوعية بصفة عامة. على ان الواقع ان السياسة الخارجية الاسرائيلية قدمت لنا نموذجا للدبلوماسية الكفاحية لايقل فاعلية عن الدبلوماسية السوفيتية وان كان اقل وضوحا في كفاحيتها. فالدبلوماسية التقليدية بمعنى الرجل الانيق المهذب الذي لايعرف سوى تقاليد الحفلات والاستقبالات ويبرع في حديثه مع سيدات الطبقة الراقية، الدبلوماسية الاسرائيلية. كل من قدر له ان يعيش في العالم الخارجي ويحتك

بهذه الاداة في صراعها المستمر يتذكر الصفات الواضحة التي ميزت الدبلوماسي الاسرائيلي. فملابسه عادية بل وفي بعض الاحيان اقل من العادية. ومستوى حياته شعبي، واحتكاكاته متعددة لاتترك اي فئة من فئات المجتمع السياسي، ورغم ذلك فهو يعيش اجتماعيا في عزلة لانه لايثق في احد، كتوم لايعرف الثرثرة، ثقافته واسعة يكاد يختلط بالمجتمع الذي يعيش بداخله بحيث يصعب في بعض الاحيان تصور انه اجنبي. مما لاشك فيه ان وجود اقليات يهودية في اغلب المجتمعات ساعد الدبلوماسي الاسرائيلي على اكتساب هذه الصفات. ولكن لايجوز لنا ان ننسى ان ارادته والتخطيط السياسي للدولة هو الذي مكن تلك الخصائص من الايناع والاستقرار. تبرز هذه الحقيقة واضحة عندما ننتقل الى الناحية الاخرى وهي صفة المغامرة. فالدبلوماسي الاسرائيلي يؤمن بانه يغادر بلاده للقتال وان عمله الدبلوماسي هو نوع من القتال اليومي المنعزل. العمل الدبلوماسي لم يعد مجرد تمثيل مصالح او بعبارة ادق لم يعد مجرد قناة تربط المجتمع الاصلي بالمجتمع موضع التمثيل وانما اضحى حركة ايجابية من جانب المجتمع الاصلي نحو المجتمع الاخر من خلال تلك الاداة الفردية الا وهي الرجل الدبلوماسي. وهذا لايعني سوى المغامرة باوسع معانيها: فالارتباط ببعض القوى المحلية او ببعض الاقليات السياسية يعني احتمال الكسب والخسارة والسعي نحو جمع المعلومات بجميع الوسائل يعني احتمال اثارة القوى المحلية مع مايعنيه ذلك من نتائج معروفة. ومحاولة الوصول الى مراكز التأثير في عملية صنع القرار يعني تكتيل القوى من جانب ولكن ايضا الانزلاق في مهاوي الصراع المحلي مع ما يفرضه ذلك من خروج على القواعد التقليدية في العمل الدبلوماسي. واذا تذكرنا ان الدبلوماسي في هذا وحيد وان الخلافات اليهودية في ذاتها عديدة وان الامكانيات محدودة وان الراي العام الاوروبي تعود ان يعطف على اليهودي وهو بعيد عنه وان يلفظه وهو يتدخل في شئونه المحلية لكان علينا ان نفهم ماتفرضه كل هذه العمليات من مخاطر. لانعلم على وجه الدقة هل هناك جهاز يعد الدبلوماسي الاسرائيلي قبل مغادرته بلاده ولكن الامر الذي لاشك فيه ان نجاح الدبلوماسية الاسرائيلية لايمكن ان يكون عشوائيا ودون اعداد سابق رغم ذلك فهناك ظاهرتان لابد وان نحيل اليهما ونحن بصدد تفسير نجاح العمل الدبلوماسي الاسرائيلي. الظاهرة الاولى التخصص الفني للقائمين بالعمل في وزارات الخارجية الاسرائيلية، والظاهرة الثانية الفشل الواضح للدبلوماسية العربية. ليس هذا موضع تحليل هذه النواحي ولكن يكفي ان نلقي نظرة على تلك المعلومات الاحصائية التي يقدمها لنا العالم الامريكي بريشير عن جهاز وزارة الخارجية الاسرائيلية. فلو نظرنا الى مايسميه الطبقة المختارة الفنية اي الاطار العام الواسع الذي يكون الخلفية العامة من مديري الادارات وما في حكمها لوجدنا ان مجموع هؤلاء خلال الفترة التي تمتد من عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٨ يصل الى ٨٤ شخصا من بينهم ٢١ حصلوا على درجات مهنية. ثم ٢٤ وصلوا في دراساتهم الى درجة الدكتوراه او ما هو اعلى من ذلك بينما هناك ١٩ حصلوا على درجات جامعية عادية. ومعنى ذلك اكثر من ٧٦٪ قد حصلوا على مستوى عال من الثقافة. واذا تذكرنا ان هذه الفترة تضم ايضا الاعوام الاولى لانشاء الدولة الاسرائيلية حيث التقاليد لم تكن بعد واضحة لكان علينا ان لنستنتج ابعاد صفة التخصص العلمي في اعضاء السلك الدبلوماسي الاسرائيلي. وتزداد هذه الحقيقة وضوحا عندما ننتقل الى الجماعة الضيقة التي يسميها العالم المذكور الدائرة المحدودة والتي تساهم مباشرة في اعداد القرار السياسي لوجدنا ان عدد هؤلاء لايتجاوز خلال نفس الفترة اكثر من احد عشر شخصا. من بينهم عشرة اشخاص يحملون درجة الدكتوراه او ما في حكمها. وانه لايوجد احد منهم يتقن اقل من ثلاث لغات اجنبية والبعض منهم يصل الى حد اتقان سبعة لغات. وانه لايوجد احدهم قد قدر له ان يعمل لاقل من عشرة اعوام في وزارة الخارجية قبل ان ينتقل الى العمل في الادارة السياسية اي تلك المتخصصة في عملية اعداد القرارات السياسية بل ان عدد من عمل في وزارة الخارجية فقط احد عشر عاما لم يتجاوز اثنين وان على العكس من ذلك من بين هؤلاء الاحد عشر شخصا هناك سبعة اشخاص قدر لهم ان يعملوا قرابة العشرين عاما في تلك الوزارة. اضف الى ذلك ان احدثهم سناولدعام١٩١٧اي انه يكاد يقترب من السبعين اليوم وان من بينهم من ولد عام ١٨٩٤ وهو العالم كوهن الذي اشرف على الدعاية الخارجية والذي توفي عام ١٩٦١ وان كانت بعض المصادر تتحدث عن وفاته عام ١٩٦٣.

فاين من هذا اوضاعنا العربية؟

فكيف نستطيع ان نقارن بهذا الوضع العالم الدبلوماسي الذي يتحدث باسم القضية العربية؟ ان الدبلوماسي العربي يخضع لعشوائية مطلقة في اعداده واختياره، وهو اساسا لا يعدو ان يكون واحدا من اثنين: اما شخص يراد ابعاده من الوطن الاصلي لسبب او لاخر، واما شخص يراد مكافأته من جانب الطبقة الحاكمة لسبب او آخر. اما عن القدرة والصلاحية فهذا امر يمكن ان نتركه جانبا. ورغم ان بعض البلاد العربية عرفت مؤخرا اجهزة الاعداد الدبلوماسي وعلى وجه الخصوص مصر والجزائر الا انه في كلا الحالتين فهناك مزيد من التساؤلات.. ففي مصر حيث التقاليد الدبلوماسية تعود الى اكثر من قرن من الزمان، شاهدت الاعوام الاخيرة اضطرابا واضحا وفشلا حقيقيا في جهازها الدبلوماسي. وكان انشاء معهد الدراسات الدبلوماسية والقنصلية بمثابة بارقة امل لاصلاح الاوضاع المتعفنة نتيجة اختلاط المهنة الدبلوماسية بالعمل العسكري خلال الفترة السابقة على حرب يونيو ١٩٦٧. ولكن رغم ذلك فان المعهد وخلال الاعوام الست الماضية لم يستطع ان يثبت قدرته على تحمل هذه المسؤولية. على ان المأساة تصير اكثر وضوحا في الجزائر. فلا تزال المهنة الدبلوماسية حتى هذه اللحظة تخضع للمنطق والاعداد الفرنسي ولايزال الدبلوماسي الجزائري يستوعب ثقافته وعلومه واعداده الفكري من الجامعات الفرنسية بل وعلى وجه الخصوص من معاهد معينة اعدت لتقوم بعملية غسيل مخ منظمة للدبلوماسيين الجزائريين. منذ عدة اعوام، وعقب اتصالات عديدة ذهبنا الى الجزائر. وكانت النتيجة اننا لم نستطيع ان نقضي اكثر من عشرة ايام لان جميع عناصر الجهاز الاداري والجامعي المسؤول سواء بالتعليم العالي او بالخارجية الجزائرية لم تكن تؤمن بهذه الضرورة. وعندما ذهبنا نتفقد برامج الدراسة في معهد العلوم السياسية بالجزائر لم نجد اي موضع في جميع مواد الدراسة خلال اعوام ثلاث لاي ثقافة تتصل بالعالم العربي او الجزائر ذاتها.

فكيف نستطيع ان نطلب من مثل هؤلاء بان يدافعوا عن القضية العربية؟

BRECHER The foreign Policy
System of Israel. 1972, P,444.

ادخلت التقاليد الاسرائيلية مفاهيم جديدة في كل من هذه الادوات: فالاعلام اضحى خط الهجوم الاول وخط الدفاع الاخير. والعسكرية اضحت تؤمن بمبدأ الاستراتيجية النشطة والدبلوماسية لم تعد مجرد تمثيل مصالح وانما اضحت حركية محلية. فماذا فعلت جامعة الدول العربية؟

هذا السؤال هو الذي نريد ان نجيب عليه مبتدئين في هذا التحليل من المقدمات الفكرية المتعلقة سواء بالتطورات المعاصرة للسياسة الخارجية سواء بحقيقة العلاقة بين الاعلام،الداخلي والاعلام الخارجي. متابعة التطورات المعاصرة للسياسة الخارجية سوف يقودنا الى تحديد كيف ان هذه التطورات فرضت استقبال السياسة الخارجية لعنصر الاخبار والاعلام كأحد المسالك والادوات(٤). على ان هذه العملية لاتعني الخلط بين الاعلام الخارجي والاعلام الداخلي، فكل منهما متميز عن الآخر وان ارتبط بعلاقة تأثير وتأثر، وهكذا ننتهي بان نقف امام الاعلام العربي لنثير علامة الاستفهام الضخمة: هل تابع بدوره هذا التطور (٤ مكرر) او لا يزال عاجزا يقف امامه موقف المشاهد والمتأمل؟ وكيف السبيل الى خلق حالة الحركة في ذلك الجسد المترهل الذي يسمى بالجامعة العربية؟

٣٥ـ الاعلام العربي ومتغيرات المواقف في منطقة الشرق الاوسط: تقسيم الدراسة:

دراسة الاعلام العربي بقصد تحليل اسباب اخفاقه وتحديد امكانيات التخلص من ذلك الفشل الذي يتحدث عنه الجميع لايمكن ان يتم الا ابتداء من منطلقين: احدهما عملية التمييز بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي وكما سوف نرى فيما بعد ان العقل العربي يعيش على مخلفات الماضي التي تركتها النظم الاستعمارية الاستبدادية والتي اساسها النظرة الى المواطن على انه عدو والشعور بان العلاقة بين الحاكم والمحكوم ليست علاقة ولاء وانما علاقة عدم ثقة (٥). منطق «المكتب السياسي» الذي كان يتمركز بوزارات الداخلية لايزال يسيطر على منطق الاداة الحاكمة في جميع البلاد العربية. على ان المنطلق

---

(٤) انظر هولستي، م.س.ذ.ص ٢٦٥ حيث يحدثنا عن استراتيجيات ثلاث تتبعها الدعاية السوفيتية في مواجهة خصومها مميزة في هذا بين الاهداف السياسية القريبة والبعيدة فضلا عن تلك المتوسطة الاجل. قارن ايضا نفس المرجع ص٢٦٧، هامش رقم ٢٠.

(٤مكرر) العلاقة بين الاعلام الخارجي والسياسة الخارجية سبق وحددناها بانها تمثل احد اطراف علاقة الحركة باكثر من معنى واحد. مساندة من جانب ومن جانب اخر تكامل وارتباط. ولعل ذكر مثل واحد بهذا الخصوص يقدمه لنا الاعلام الاسرائيلي كفيل بتأكيد الدلالة التي نقصدها بالحديث عن علاقة التأثير والتأثر التي يقف امامها الاعلام العربي موقف المشاهد والمتأمل. فالاعلام الاسرائيلي حتى عام ١٩٦٧ عندما كان يتجه الى المانيا الغربية وبصفة عامة الى العالم الاوربي كان يؤسس منطقه على اثارة عقدة الذنب. لقد ظل يبكت العالم الغربي خلال فترة لاتقل عن عشرين عاما بمسؤوليته ازاء المذابح المعروفة اثناء فترة الحكم النازي، ولكنه عقب عام ١٩٦٧ اذا به ينقلب فجأة الى ما اسميناه في غير هذا الموضع باثارة عقدة المسؤولية. بغض النظر عما تتضمنه هذه العملية من فن دعائي ومن مقدرة على فهم اساليب التعامل والاثارة النفسية، فان فكرة الربط بين السياسة الخارجية والاعلام الخارجي برابطة التأثير والتأثر الامر الذي يعني تطور من جانب وحساسية من جانب اخر مع معرفة واضحة ومسبقة بحقيقة الدور الذي يجب ان يؤديه كل من اجزاء الجوقة في عملية الصراع الفكري الاعلامي هو محور التخطيط الدعائي والاعلامي الاسرائيلي. انظر التفاصيل في حامد ربيع نظرية الدعاية الخارجية. م.س.ذ.ص ١٨٧ ومابعدها.

(٥) انظر التحليل العلمي الوحيد الذي يمكن ان يوصف بانه على قسط معين من الدقة المنهاجية قام به الباحث الاسرائيلي هاركابي والذي عمل رئيسا للمخابرات الاسرائيلية خلال حرب الايام الستة بعنوان:

HARKABI, Arab attitudes toward Israel, 1972. P.386.

ونستطيع ان نضيف رسالة احد ابناء البلاد العربية التي قدمت الى جامعة جنوب كاليفورنيا بعنوان:

ZAMIL, The effectiveness and Credibility of Arab Propaganda in the United States, 1973.

على اننا لو نظرنا الى ما عدا ذلك من دراسات وابحاث لوجدناها جميعا تغلب عليها السطحية وعدم العمق. على ان اخطر ما يعنيها هو ان اصحابها لم تقدر لهم الثقافة العلمية الكافية لتحليل المشاكل التي تفرضها مثل هذه الدراسة. نذكر اهمها على سبيل المعرفة: فاضل زكي، الدعاية العربية امام التحديات الصهيونية ١٩٦٨. زكي الجابر، نظرة في تطبيقات الاعلام الاسرائيلي ١٩٦٨. خالد الشطيني، الحكم غيابيا: القضية الفلسطينية في نظر العالم الغربي، ١٩٦٩. تحسين بشير، النشاط الاعلامي العربي في الولايات المتحدة ١٩٦٩. سامي هنداوي، الاعلام العربي والقضية الفلسطينية، ١٩٦٩، انيس صايغ، الجهل بالقضية الفلسطينية، ١٩٧٠. حافظ محمود، الاعلام العربي والاعلام الصهيوني، ١٩٧٢.

هذا الى جوار عدد ضخم من المقالات التي لاتعدو ان تكون مجرد انطباعات شخصية مع دوران في حلقة مفرغة. انظر ايضا حامد ربيع، فلسفة الدعاية الاسرائيلية، ١٩٧٠ ص١٠٦.

على اننا ونحن بصدد تحليل ودراسة الاعلام العربي كأحد عناصر المواجهة الاسرائيلية علينا ان نميز بين انواع ثلاث من الدراسات:

اولا: دراسة واقع الاعلام العربي كأحد متغيرات الموقف المتحدد بالهزيمة.

ثانيا: دراسة الاعلام الاسرائيلي بمختلف ابعاده وتنظيماته والاعيبه وفلسفاته.

ثالثا: القيام بتلك الدراسات المختلفة اللازمة لتخطيط عملية المواجهة ازاء الغزو الصهيوني وبقصد القيام بحرب اعلامية عكسية.

جميع هذه الدراسات دراسات اجرائية بمعنى انها ليست متعلقة بمضمون القضية وانما فقط متعلقة بكيفية معالجة القضية. اما عن المضمون اي عناصر المنطق المتعلق بالقضية فهذه مشكلة اخرى لها بدورها ابعادها المتعددة. انظر بهذا الخصوص وتعليقا على موقف ونشاط الاجهزة المختلفة المتخصصة في دراسة القضية الفلسطينية، حامد ربيع، عملية صنع القرار السياسي، م.س.ذ. ، الجزء الاول، ص٢٦ وما بعدها.

الحقيقي الذي يجب ان يكون الخلفية العامة لهذا التحليل هو العودة الى تأصيل حقيقة التطور المعاصر للمجتمع السياسي القومي والدولي. ان القوة الحقيقية التي تمثلها الارادة الاسرائيلية هي انها اكثر استعدادا لتطوير اوضاعها بما يتفق مع مقتضيات الموقف. على العكس من ذلك فان الارادة العربية لا تقتصر على ان تعيد الماضي وتحيله الى قوالب متحجرة بل انها تأبى الا ان تدفن رأسها في ذلك الماضي وتعيش بمنطقه واسلوبه.

الاعلام العربي ليس سوى احد تطبيقات ذلك الوضع المحزن.

يتسائل الفقه العربي عن موضع الاعلام من مأساة ١٩٦٧. وعن الواقع المحزن الذي اعقب تلك المأساة (٦). ويقدم المشتغلون بالاعلام الاجابة على هذا التساؤل بتبرير يتضمن الكثير من التهرب: الاعلام، يقول هؤلاء، انما يعبر عن واقع معين. والواقع العربي هو واقع ممزق، والهزيمة العربية احد عناصر ذلك الواقع. ومن ثم فان الاعلام العربي لايمكن الا ان يكون مرآة تعبر عن ذلك التمزق وتلك الهزيمة. على ان الواقع ان مثل هذا التفسير يخالط الحقيقة العملية ويعكس في ذاته ذلك التخلف الفكري الذي يسيطر على القائمين بالعمل الاعلامي في البلاد العربية والذي سوف نرى انه احد اسباب المأساة الحقيقية للدعاية العربية. ان منطلق التحليل العلمي هو ان اي موقف، انتصارا كان ام هزيمة، ان هو الا حالة تقود اليها مجموعة من المدخلات وتتحرك منها مجموعة من المخرجات. اي من المدخلات هو متغير ثابت يصير بدوره احد المخرجات ولكنه يتفاعل بالتأثير والتأثر بالموقف: فكما انه يحدد الموقف ويساهم في تشكيل خصائصه فهو يتأثر بالموقف ولابد ان يعكس خصائص ذلك الموقف.

هذه النواحي جميعها في حاجة الى تأصيل.

نتابع الدراسة في مباحث ثلاث:

المبحث الاول: السياسة الخارجية وتطوراتها المعاصرة(٧).

المبحث الثاني: التمييز بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي (٨).

المبحث الثالث: الاعلام العربي ومشاكله(٩).

---

(٦)انظر سامي هنداوي، م.س.ذ. ، ص٣١ ومابعدها.

(٧) قارن كلوفيس مقصود، الاهرام، ١٩٧١/٦/١، رياض طه، الاعلام والمعركة، الانوار، ١٩٧١/١٢/٤، وانظر الحوادث، ١٩٧٢/٦/١٦.

(٨) انظر حامد ربيع، دراسات اساسية حول الصهيونية واسرائيل، منشورات ادارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي لجيش التحرير الفلسطيني، عدد رقم ٥، ١٩٧٢، ص٢٩.

(٩) على انه قبل ان ننطلق في هذه الدراسة علينا ان نحدد دلالة استخدامنا لبعض المفاهيم.

ا) فكلمة اعلام محلي سوف يقصد بها فقط كل اعلام صادر من دولة عربية وموجه الى جمهور تلك الدولة العربية اي هو الاعلام الداخلي المقيد بالحدود الاقليمية العربية. الاعلام التونسي الذي يتجه الى المجتمع التونسي يوصف بانه اعلام محلي.

ب) اعلام قومي سوف نقصد به ذلك الاعلام الذي يتجه الى العربي بحكم كونه كذلك وبغض النظر عن انتمائه المحلي. بعبارة اخرى سوف نفترض في تحليلنا للاعلام ان المجتمع العربي يكون قومية واحدة رغم الحدود المصطنعة وان هناك قسطا من الاعلام يصطبغ بهذه الناحية ويعكس هذه الطبيعة.

جـ) الاعلام الاقليمي وهو في مفهومنا في هذه الدراسة يرتبط بذلك الاعلام الذي يتجه الى اقليم معين وعلى وجه الخصوص غير عربي. بهذا المعنى فالاعلام المتجه الى غرب اوروبا سوف نصفه بانه اعلان اقليمي.

د) اما الاعلام الخارجي فهو كل اعلام يتجه لان يعبر الحدود العربية ومن خارج البلاد العربية. الاعلام الفرنسي المتجه الى الجزائر بهذا المعنى هو اعلام خارجي. بعبارة اخرى الاعلام الخارجي لاينبع من المنطقة ولكنه يتجه الى المنطقة.

هـ) واخيرا الاعلام المعادي وهو يرتبط بالدولة الاسرائيلية، سواء اتجه الى الداخل او الى الخارج، الى الارض العربية او غير الارض العربية كذلك يجب ان نضيف الاعلام الايراني الذي هو تطبيق اخر لذلك الاعلام المعادي.

هذه التعريفات هي لمجرد تسهيل المفاهيم ولتجنب الخلط بين الحقائق والخلفيات الفكرية المرتبطة بموضوع التحليل.

انظر حامد ربيع، فلسفة الدعاية الاسرائيلية، مركز الابحاث، ١٩٧١، ص٢٤ ومابعدها.

المبحث الأول

السياسة الخارجية وتطوراتها المعاصرة

٣٦ ـ تطور العمل السياسي وطبيعة المجتمع الدولي:

فهم طبيعة العلاقة بين الاعلام والسياسة الخارجية يفرض علينا ان نتابع التطور المعاصر الذي اصاب العمل السياسي في نطاق الاسرة الدولية وكيف انه اضحى ينبع من خصائص ومقومات تختلف اختلافا كليا عن التقاليد التي ظلت سائدة حتى عدة قرون واجمالا حتى انفجار الحرب العالمية الثانية.

تعنينا من هذه الصورة الجديدة للعمل السياسي الخارجي[1] ان نؤكد على حقائق ثلاث:

اولا: ضرورة التمييز في السياسة الخارجية بين مستويات ثلاث: اعداد السياسة الخارجية من جانب ثم عملية صنع القرار السياسي من جانب اخر ثم عملية تنفيذ القرار السياسي من جانب ثالث[2].

ثانيا: نقل اساليب العمل السياسي الداخلي الذي اساسه التعانق الديموقراطي بين القوى الى النطاق الدولي والخارجي وبصفة خاصة من خلال المنظمات الدولية.

ثالثا: تعدد ادوات تنفيذ السياسة الخارجية والنظر الى الاعلام على انه اداة من ادوات تنفيذ السياسة الخارجية تربط بين العمل الداخلي والعمل الخارجي من جانب وتستند بدورها الى ادوات اخرى مكملة من جانب اخر[3].

متابعة هذه النواحي سوف يسمح لنا بابراز اهمية العلاقة بين السياسة الخارجية والعمل الاعلامي.

---

(١) انظر التفاصيل في حامد ربيع، نظرية الدعاية الخارجية، ١٩٧٢، ص ٣٣ وما بعدها.

(٢) هذه المستويات الثلاث لاموضع لها في السياسة الداخلية حيث يختلط صنع القرار بتنفيذه. كذلك لاحظ ان كلمة Policy لايجب ان تفهم بمعنى كلمة سياسة وانما يجب ان يحمل مدلولها على انها مرادف لكلمة تدبر. ولعل خير تعبير عن هذه الحقيقة يبرز عندما نحاول ترجمة اصطلاح Political Policy اذ يجب ان يفهم هذا الاصطلاح على ان القصد منه كل ما يتصل بعملية التدبر التي تحيط بالمشاكل السياسية. انظر بهذا الخصوص. LOVELL. Foreign Policy in perspective. 1970 P. 305.

(٣) الواقع ان الاعلام على وجه الخصوص يكون قنطرة وثيقة تربط بين السياسة الداخلية والسياسة الخارجية وذلك لاكثر من سبب واحد: فمن جانب اجهزة الاعلام التي تتولى الارسال الجماهيري واحدة. ورغم ان طبيعة الاعلام الخارجي تفرض نوعا من التركيز على بعض الادوات على حساب الاخرى الا ان هذا لايمنع ان نفس الادوات تتولى كلا النوعين من انواع الاعلام. فالاعلام الاذاعي هو الذي يتحكم الى حد كبير في الاعلام الخارجي. والاعلام التلفزيوني يتميز به الاعلام الداخلي. رغم ذلك هذه الفوارق بدأت تتقلص سواء بفضل الاقمار الصناعية، سواء بفضل تعلم اللغات الاجنبية. وذلك دون الحديث عن الاعلام الاقليمي واتجاهه لان يصطبغ بطابع التوحيد او بطابع الغاء التفرقة بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي او على الاقل التقليل من اهميتها. اضف الى ذلك ان سهولة اعادة تصدير الاعلام الخارجي الى المجتمع المحلي فرض على مخطط الاعلام ان يتوقع دائما مثل تلك العملية مع مايفرضه ذلك من تلوين للاعلام الخارجي بالطابع القومي. هذا الربط لايجوز ان يجعلنا ننسى الفارق الجوهري بين كلا الاعلامين وبالتالي مايفرضه ذلك الفارق من ابعاد معينة في التخطيط والاعداد. بعبارة اخرى لايجوز ان ننظر الى الاعلام وقد اضحى يربط بين العمل الداخلي والعمل الخارجي على انه مبرر لالغاء التفرقة وانما على انه مبرر لزيادة الحساسية والدقة في اعداد كل منهما. انظر هولستي م. س. ذ. ، ص ٢٧١ وما بعدها.

٣٧ ـ التمييز بين الاعلام والدعاية والربط بينهما في تحليل العمل السياسي الخارجي:

على اننا قبل ان نلقي بأنفسنا في اعماق هذه المناقشات علينا ان نحدد بعض المفاهيم. الاعلام يقصد به عملية الاخبار اي نقل الرسالة من جهة الى اخرى. هذا المفهوم قد يختلط بمفهوم آخر درج العلماء على استخدامه وهو فكرة الاتصال. والواقع ان كلا المفهومين الواحد منهما قريب من الآخر. على اننا يجب رغم ذلك ان نميز بينهما. فالاعلام يرتبط بأداة جماهيرية او على الاقل اداة تجمع عملية الاتصال تتجه لا الى شخص معين وانما الى اعلام جماهيري الاعلام بهذا المعنى اداة من ادوات الاتصال. الاتصال على العكس من ذلك هو العملية المتعلقة باستقبال رسالة معينة واحداث اثر معين في شخص المستقبل[4]. وهكذا الاتصال اوسع من الاعلام من جانب واضيق من جانب آخر. فالاتصال قد يكون اتصالاً اعلامياً وقد يكون اتصالاً دعائياً، والاتصال قد يكون نتيجة رسالة اعلامية وقد يكون نتيجة اتصال شخصي. فارسال خطاب من صديق الى آخر او مكالمة تليفونية هو من قبيل الاتصال وليس من قبيل الاعلام. وبعبارة اخرى سوف نجعل مفهوم الاعلام في هذا التحليل قاصر على عملية الاتصال الجماهيرية المستندة الى الاجهزة نقل الاخبار بطريقة منظمة.

اتصال واعلام: كلا منهما يمثل مفهوما مستقلا عن الآخر وكلا منهما يتداخل بحكم طبيعة المجتمع المعاصر في المفهوم الاخر. ويزيد من تعقيد العلاقة بين هذين المفهومين ظواهر اخرى درج الفقه المعاصر وبصفة خاصة من غير المتخصصين على استخدامها دون تحديد واضح لاطار كل منهما. اولاً كلمة الحرب النفسية واصطلاح الدعاية[5]. كلا المفهومين يرتبطان بالخصم او على الاقل مفهوم اكثر هجومية وايجابية من مجرد الاعلام. في كلا الحالين لسنا امام اخبار وانما هناك نوع من انواع التوجيه والتأثير الايجابي. كذلك في كثير من الاحيان نصادف كلمة غسيل المخ والبعض في الفترة الاخيرة بدأ يتحدث عن عملية التسميم المعنوي[6]. في كلا التطبيقين هناك عملية تمويه وتلاعب لا فقط بالكذب العادي او بالارهاق المعنوي وانما بزرع فكري لتصور لحقيقة لاوجود لها، وبحيث يأتي السلوك فيعكس رد فعل مصطنع هو عكس ماكان يجب ان يحدث. نبش التقاليد الماضية ابرز لنا ايضا ما اسميناه الدعوة حيث تصير اللغة عاطفية ولكنها شفافة، صادقة ولكنها تدور حول الولاء ومايرتبط به من اعماق في النفس البشرية[7]. جميع هذه المفاهيم ترتبط وتتزاوج لانهما تنبع من حقيقة واحدة وهي فكرة الادراك كمقدمة للتفاعل السلوكي. هذا الادراك له مستوياته ابتداء من مجرد العلم الى حد الاقتناع المذهبي بحيث يقيم العقل البشري حائطا يمنع اي مصدر آخر للمعلومات. ولكن

---

(٤) وهذا يعني ان عملية الاتصال قد لاتسعى الى تحقيق الاعلام في معناه المتداول وذلك يبرز واضحا عندما نتعرض لما اسميناه الاتصال بصانع القرار. ان عملية الاتصال بصانع القرار القصد منها اساسا هو احداث تغيير في المفاهيم الادراكية بحيث يؤدي هذا التغيير الى تعبيرات سلوكية اكثر اقترابا لمصالح واهداف من يقوم بعملية الاتصال. بهذا المعنى الاتصال بصانع القرار لايعني مجرد الاخبار ولكن يكفي بخصوصه التجاوب السلوكي. ومن ثم قد يصلح الاخبار سواء كان اعلاما جماهيريا ام اتصالا شخصيا لتحقيق هذا الهدف. ولكن قد لايكفي الاخبار فنلجأ الى الترغيب او التهديد بل وفي بعض الاحيان الى الاستئصال. وعند ذلك فان الاعلام لايكفي ولا يصلح لتحقيق الغاية من العملية الاتصالية. بهذا الخصوص الحركة الصهيونية بلغت حدا من البراعة لا مثيل له. انظر بعض النماذج في خالد قشطيني، م. س، ذ.، ص ٧٣.

(٥) حامد ربيع، نظرية الدعاية الخارجية، م. س. ذ.، ص ١٨٧ وما بعدها.

(٦) هذا الاصطلاح، التسميم المعنوي يتردد كثيرا في الفقه الفرنسي وبصفة خاصة عقب صدور المؤلف الذي استطاع صاحبه ان يؤصل من خلاله الوقائع التجريبية التي صادفها هذا المفهوم الفكري.
NORD, L'intoxication, 1971..

(٧) انظر حامد ربيع، دراسات اساسية، م. س. ذ.، ص ١٢ وما بعدها.

هناك مستويات لهذا الاتصال وبالتالي لدرجة تجاوب الادراك في عملية خلق الانماط السلوكية[٨].

والواقع ان التمييز بين هذه المفاهيم لايمكن من حيث السياسة الاتصالية الا ان يعكس استراتيجية محددة الابعاد من حيث الهدف الذي نسعى اليه من عملية الاتصال اولا ومن حيث وسيلة نقل الرسالة موضع الاتصال ثانية ثم اخيرا من حيث الجمهور الذي تتجه اليهُ بالاتصال[٨]. يرتبط بهذا التمييز ويتفرع عنه:

اولا: ضرورة تذكر ان عملية التأثير تتجه الى واحد من مستويات ثلاث: صانع القرار، قائد الرأي، الجمهور الكلي الشامل. صانع القرار هو ذلك الشخص الذي يتحكم في عملية اتخاذ القرار بأسلوب او بآخر[٩]. ليس فقط صاحب الحق في ان يعلن عن الاختيار بين البدائل المتعلقة بالحركة ومواجهة الموقف بل كل من يستطيع ان يحدد او يتحكم في مسارات وقنوات وتدفق المعلومات الى تلك الارادة التي يتعين عليها ان تقوم بعملية الاختيار ينطوي تحت هذا المفهوم. البحث عن صانع القرار لايكفي بخصوصه تحليل الاوضاع الدستورية او النصوص القانونية وانما علينا ان نتحرى عن كل من هيأت له الظروف الواقعية ان يقف من قنوات الارسال والاستقبال موقف الضبط او التأثير بأسلوب او بآخر. هل نفهم لذلك لماذا لايتورع بعض العلماء عن ان يصف جمهور السكرتيرات او الصديقات للقادة الحاكمين بأنهم يمثلون احد العناصر الحاسمة في عملية صنع القرار؟ قائد الرأي ليس هو صانع القرار وان كان في كثير من الاحيان يجمع بين الصفتين[١٠].

قائد الرأي هو شخص موضع الاعجاب او التقدير من المجتمع الذي ينتمي اليه او على الاقل الرهبة او الخوف. هو يمثل نموذج بحيث ان فئة معينة تنظر اليه على انه في كل مايقول او يفعل انما يعبر عن تلك المثالية التي يجب ان تحتذى. امام القرية بالنسبة للمجتمع الريفي، الاستاذ الجامعي بالنسبة للشباب المثقف وبصفة خاصة عندما يكون في سن غير متقدمة يمثل تطبيقات واضحة لفكرة قائد الرأي.

ثانيا: ويتفرع على ذلك ان اداة الاتصال او اسلوبه بالنسبة لصانع القرار لا يمكن ان تخضع لنفس القواعد التي تخضع لها عملية الاتصال بالنسبة للرجل العادي محور المجتمع الجماهيري.

رغم ذلك فاننا في خلال هذه الدراسة سوف نجعل كلمة الاعلام تتسع لتشمل جميع التطبيقات السابق ذكرها. سوف نرى فيما بعد ان عملية الاتصال الخارجي تشجع هذا التعميم. رغم ذلك فان احد اسباب

---

(٨) قارن النواحي العلمية بتفصيل كاف في:
NEWCOMB, TURNER, CONVERSE, Social psychology, 1965, P.185

(٨ مكرر) نود ان نلفت نظر القارىء الى تطور معين في المفاهيم التي استخدمناها خلال متابعتنا لتاريخ الابعاد النفسية للحركة الصهيونية. فحتى كتابة مؤلفنا عن الدعاية الاسرائيلية لم يكن لمفهوم الدعوة موضع لتحليلنا عن العملية الاتصالية. برز هذا المفهوم واضحا في الفترة اللاحقة واستطعنا ان نأصل بنائه الفكري من خلال متابعة تاريخ الحركة الصهيونية وبصفة خاصة في مؤلفاتنا عن الدعاية قبل انشاء اسرائيل وبعد حرب الايام الستة. ساعدنا ايضا على ذلك متابعة التطور الحركي للكاثوليكية من جانب وللدعوة الاسلامية من جانب اخر. على اننا ابتداءً من هذا المؤلف الذي نقدمه اليوم نضيف مفهوما جديدا هو فكرة التسميم السياسي.

ولعله من قبيل الاستطراد ان نضيف الى هذا تساؤلات اخرى عن طبيعة التسميم السياسي التي يخضع لها في هذه اللحظة العالم العربي والتي يخضع لها بعملية مخططة ومدبرة بخصوص سواء مايسمى بأزمة الطاقة او الازمة النقدية. ليس هذا موضع التفصيل في هذه النواحي ولكن الملاحظة العامة التي لاشك بخصوصها هي انَّ الاعلام العربي اثبت بهذا الخصوص سذاجة لامثيل لها بحيث ساعد على تأكيد نجاح الدعاية الاسرائيلية متكاتفة في هذا مع السياسة الخارجية الامريكية بخصوص خلق رأي عام معارض بل ورافض للقضية العربية. انظر الحوادث بتاريخ ١٦ / ١٢ / ١٩٧٢.

(٩) انظر نموذجا لهذا التمييز في تاريخ العمل الدعائي الاسرائيلي خلال الفترة التي تمتد على وجه الخصوص منذ بداية الحرب العالمية الثانية حتى عام ١٩٤٧ في المجتمع الامريكي في حامد ربيع، ابحاث في نظرية الاتصال وعملية التفاعل السلوكي، ١٩٧٣، ص ٨٣ ومابعدها.

(١٠) قارن الدراسة الميدانية التي اجراها:
Holsty, The belief system and national images: a case study, in Rosenau, International politics and foreign Policy, 1969, P.543.

عدم التفرقة في هذا التحليل بين تلك المستويات المختلفة لعملية الاتصال الخارجي هو ان الاعلام العربي لايزال قاصرا عن ان يفهم هذه المستويات. لقد سبق وذكرنا ان التمييز يفترض استراتيجية اي تخطيط محدد الاهداف، محدد الابعاد، محدد الامكانيات، وهو امر لم يقدر لنا بعد ان نصل اليه[11] بل أن هدف هذه الدراسة هو الاقناع بانه اذا لم يقدر لنا ان نصل الى تأصيل واضح لهذه التفرقة على اسس محددة من حيث فلسفة الدعاية العربية عامة لن يقدر لنا النجاح في حركتنا المقبلة.

٣٨ ـ التمييز بي مستويات العمل السياسي الخارجي وموضع النشاط الاعلامي:

اول مايجب ان نلاحظه على العمل السياسي الخارجي هو ضرورة التمييز بين مستوياته. العمل السياسي الخارجي هو حركة سياسية. بهذا المعنى يخضع لجميع القواعد التي يفرضها مفهوم الحركة. ولكنه حركة لايمكن ان تكون صادرة الا من الدولة او توابعها وبعبارة اخرى هو حركة حكومية[12]. وهذا يفرض على العمل السياسي الخارجي اول خصائصه: انه نشاط للاداة الحكومية في نطاق الاسرة الدولية. وحيث ان الاسرة الدولية لاتزال تخضع لشريعة الغابة لانها لاتزال لم تملك بعد ذلك التنظيم الذي يسمح بالجزاء لمخالفة قواعده فان العمل السياسي الخارجي لابد وان يعكس هذه الحقيقة: انه في جوهره ليس الا سعي نحو السيطرة والاستحواذ. انه من حيث طبيعته ليس الا انتزاع لمكاسب او حماية من عدوان متوقع. وهكذا من تفاعل هذين المتغيرين تتحدد خصائص ومستويات العمل السياسي الخارجي.

دون التطرق الى جزيئات نظرية ليس هذا موضع تحليلها نستطيع ان نميز بين مستويات ثلاث من مستويات الحركة في نطاق العمل الخارجي كل منها له خصائصه وله مقتضياته:

اولا: وضع او صياغة السياسة الخارجية.
ثانيا: عملية صنع القرار السياسي الخارجي.
ثالثا: عملية تنفيذ السياسة الخارجية.

كل من هذه المستويات يرتبط رغم ذلك بالمستويات الاخرى فصنع القرار السياسي يجب ان يندرج في وضع او صياغة السياسة الخارجية. واسلوب تنفيذ السياسة الخارجية ينبع من طبيعة وخصائص النظام السياسي الخارجي. رغم ذلك ورغم ان تعرضنا لهذه النواحي فقط في تلك الحدود التي تفرضها علينا مشكلة العلاقة بين العمل الاعلامي والسياسة الخارجية لابراز كيف ان الاعلام بدوره احد عناصر الموقف

---

(١١) انظر زميل، م. س. ذ. ص ٣٠ بعدها.
(١٢) بطبيعة الحال هناك ايضا النشاط الفردي او الخاص الذي من الممكن ان يؤثر في العمل السياسي الخارجي ولكنه دائما ينبع ويتحدد بالتخطيط العام النابع من الاداة الحكومية. نموذج واضح يعكس هذه الحقيقة ذلك المتعلق بالشركات البترولية. انظر بهذا الخصوص حامد ربيع، البترول العربي واستراتيجية تحرير الارض المحتلة، ١٩٧١، ص ٨٤ وما بعدها.
(١٣) من اكثر المؤلفات تبسيطا لهذه المفاهيم نحيل على:
LONDON, The making of foreign policy, 1965, P. 205.

الذي نعيشه من التخاذل والتسيب الذي يميز حركتنا العربية[14] في هذه اللحظة، يتعين علينا ان نؤكد على بعض النواحي ذات الارتباط الوثيق بهذه العلاقة الثلاثية:

أ) فعلاقة التصاعد ليست قاصرةً على الارتباط بين كل من هذه المستويات. اذ في داخل كل منها بدورها توجد علاقة تصاعدية من نوع آخر. واذا كانت هذه العلاقة قد لاتبدو واضحة في عملية صنع السياسة الخارجية الا أنه لاموضع لاي غموض بخصوصها بالنسبة لصنع القرار السياسي. ذلك ان القرار السياسي بحكم طبيعته يتنوع من حيث اهميته واستقلاله وهو دائماً يفرض مجموعة متداخلة من القرارات تنبع منه وتلاحقه وتتحدد به. فهم هذه الحقيقة تفسره وتوضحه تقاليد علم الحركة. فالحركة مجموعة من القرارات المتناسقة والمنسجمة الواحدة منها مع الاخرى. علاقة انسجام تحددها خصائص الشخصية. ولعل هذا يفسر كيف ان التنبؤ السياسي بالنسبة لحركة القائد الذي ينتمي الى المجتمعات المتطورة تصير اكثر سهولة واقل تعقيدا من التنبؤ بالنسبة للقائد الذي يعكس العقلية المتخلفة. ان هذه العقلية المتخلفة لايمكن ان تخضع لمنطق علمي. كذلك القائد الذي يمثل مجتمعا متخلفا ليس سوى تطبيق لما يمكن ان يوصف بأنه من اعقد انواع عمليات التحليل السياسي[15].

ولنحاول ان نتصور كيف يمكن التنبؤ بسلوك احد مختلي القوى العقلية؟ هل نتيجة المنبه سوف تتحدد بابتسامة أم بجريمة قتل؟ امر لا يمكن ان ينبع سوى من تصورات ذاتية ومن ثم لايمكن ان يخضع لمنطق علمي. كذلك القائد الذي يمثل مجتمع متخلفا ليس سوى احد تطبيقات الاختلال الفكري بدرجة اقل قسوة ولكنها تعكس نفس الطبيعة.

ب) من جانب اخر فان اقتصارنا على الحديث على العمل الخارجي لايجوز ان يؤدي الى تشويه طبيعة العلاقة بين السياسة الداخلية والسياسة الخارجية[16]. ان الفصل التقليدي بينهما لم يعد يقبله الفقه المعاصر ولم يعد من الممكن تصور اقامة حائط او حاجز بين هذين الميدانين من ميادين نشاط الدولة. ان كلا منهما رغم استقلاله يؤثر ويتأثر بالآخر في علاقة ديالكتيكية مستمرة بحيث ان النجاح وكذلك الاخفاق في اي منهما لابد وان يلقي بظلاله على النطاق الآخر. قضية ووترجيت لا تزال نموذج حي نعيشه في هذه اللحظة.

---

(١٤) وقد يدعو هذا للتساؤل: كيف يمكن الحديث ازاء هذا التصور عن اعلام عربي لجامعة الدول العربية؟ او بعبارة ادق كيف يمكن ان نتصور كيف يصير الاعلام الخارجي اداة من ادوات تنفيذ السياسة الخارجية لو ربطنا مدلول هذه الكلمة بجامعة الدول العربية؟ هل لجامعة الدول حركة عربية؟ حركة بمعنى اهداف محددة، تخطيط مجزأ المراحل، قرارات متتابعة تنبع من تلك الاهداف وتتحدد بمراحل ذلك التخطيط؟، وان لم تكن الاجابة على جميع هذه الاسئلة بالايجاب فكيف نستطيع ان نتصور اعلام خارجي يصير اداة من ادوات تلك الحركة ليقدمها او ليصاحبها او ليتابعها؟ اسئلة جميعها يجب ان نواجه بشجاعة ودون اي تهرب. بهذا الخصوص علينا ان نتذكر ان تحليل العلاقة بين الاعلام الخارجي والسياسة الخارجية يمكن ان يخضع من الناحية الفكرية لواحد من نموذجين: احدهما قدمه لنا لاسويل منذ فترة بعيدة ينبع من طبيعة العملية الاتصالية ولايعكس خصائص الاتصال الخارجي. وثانيهما قدمه لنا العالم الامريكي جورج حيث الاهتمامات تدور اساسا حول العلاقة بين النظام السياسي والنشاط الخارجي. وقد يكون من الضروري محاولة خلق نموذج لاطار التحليل يربط بين الناحيتين. انظر المصادرة في زميل، م. س. ذ.، ص ٢٨ ومابعدها.

(١٥) التفاصيل في:

QUESNEL, Sociologie de l'action, in Mousseau, Les theories de l'action, 1972, P. 438.

(١٦) انظر كيسنجر في روزينو، م س. ذ.، ص ٢٦١ ومابعدها.

٣٩ ـ التخطيط السياسي للعمل الخارجي: المقومات والاهداف:

وضع او صياغة السياسة الخارجية يكاد يكون مرادفا لكلمة تخطيط السياسة الخارجية. يقصد به مجموعة عمليات ثلاث: تحديد للاهداف التي تسعى الدولة الى تحقيقها في النطاق الخارجي، تنظيم تصاعدي لتلك الاهداف من حيث علاقة كل منها بالآخر، ثم بنيان واضح ومحدد لاطار مفهوم الامن القومي من حيث مقوماته وعناصره(١٧).

حركة المجتمع السياسي في علاقاته الخارجية يتحدد بالتاريخ والتجربة، فموقعه الجغرافي ومصادر قوته الذاتية لابد وان تحدد اطارا يمثل الحد الادنى لاهداف الحركة والحد الاقصى لتلك الاهداف. الحد الادنى هو الذي يعني الضمانات اللازمة للحماية الذاتية وهذا هو مفهوم الامن القومي، مفهوم بعبارة اخرى يعبر عن ذلك القسط الادنى الذي لايجوز للحاكم السياسي ان يتخطاه في اي لحظة من لحظات صراعه وحركته في النطاق الخارجي والا عرض الكيان الذاتي للمجتمع الكلي للتهديد والخطر. وهذا المفهوم يتغير بتغير الظروف ومعالم التطور العام لعملية الاتصال بين المجتمعات السياسية. وهكذا نجد ان مفهوم الامن القومي للولايات المتحدة في خلال الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية يختلف اختلافا واضحا من حيث ابعاده الحركية لنفس المجتمع في الربع الاخير من القرن العشرين(١٨).

على ان كل مجتمع سياسي بلغ درجة معينة من النضج لابد وان تكون قد تحددت بالنسبة له مجموعة من الاهداف الواضحة تبعد عن ان تقتصر على مجرد الدفاع عن الكيان الذاتي. ان السياسة الخارجية هي عملية سيطرة واستحواذ وهي بهذا المعنى حركة ايجابية تتجه دائما الى الغزو والاستيعاب ولاتوجد حركة بهذا المعنى دون اهداف محددة واضحة يسعى اليها مصدر الطاقة من تلك الحركة، وكلما ازدادت الطاقة تضخما كلما امتدت ابعاد الحركة اتساعا. ومن ثم فان المجتمع السياسي لابد وان تكون اهدافه واضحة في تحركه الخارجي من حيث علاقات تلك الاهداف بقدراته الذاتية وحقيقة الطاقة التي يملكها وتستتر خلف تلك القدرات. على انه لايكفي التحديد بتلك الاهداف بل يجب ان تخضع لتنظيم تصاعدي(١٩). بحيث يمكن التفضيل او الاختيار حيث يتعارض او يتصارع هدفان ومن ثم يمكن القول ودون تردد بأيها نستطيع ان نضحي به وبأيها لايجوز ان يكون موضع مناقشة ولو جزئية: تحديد للاهداف، تنظيم تصاعدي لابعاد

---

(١٧) التفاصيل في حامد ربيع، نظرية السياسة الخارجية، ١٩٧٣، ص ٢٨ ومابعدها.

(١٨) بهذا المعنى الفقه يكاد يعكس اتجاهات واحدة وغير متناقضة. لاحظ ايضا كيف ان الامن القومي للولايات المتحدة كان يفرض حتى بداية الحرب العالمية الثانية عدم الانغماس في المشاكل الاوروبية، امتداد بعيد لمفهوم العزلة التقليدية في تاريخ الدبلوماسية الامريكية. اليوم اضحى هذا المفهوم يفرض على الولايات المتحدة ان تلقي بخط دفاعها الاول وسط اوروبا. وان تجعل من قوات حلف الاطلنطي الخط الاول الذي يجب ان يتلقى الصدمة الاولى في أي وقت مقبل. لقد اضحى مفهوم الامن القومي الامريكي اساسه ان تحاط الشواطيء الامريكية بخطوط دفاعية متقدمة وبحيث تكون هذه الخطوط الدفاعية ممثلة لرأس جسر يربط تلك الخطوط بالمحيطات التي تمثل بالنسبة للامن الامريكي خط الدفاع الثاني. في الشرق المحيط الاطلسي وفي الغرب المحيط الهادي. ورأس الحربة في الاول وسط اوروبا وفي الثاني سلسلة الجزر اليابانية. واضح من هذا ان مفهوم الامن القومي رغم انه قد يبدو لاول وهلة احد عناصر السياسة الخارجية الا انه في الواقع هو محور السياسة القومية وهو بهذا المعنى يكون الركيزة التي تربط العمل الخارجي بالعمل الداخلي ويبرز حقيقة الارتباط العضوي والتفاعل المستمر بين السياسة الداخلية والنشاط الحكومي في النطاق الدولي. انظر تفصيلات اكثر دقة في.

ABSHIRE, ALLEN, National security, 1963, P. 211, 293.

(١٩) انظر التفاصيل في حامد ربيع، نظرية السياسة الخارجية، م. س. ذ.، ص ٥٤ ومابعدها.

الحركة، اطار واضح لمفهوم الامن القومي، هذا هو المدلول العام لصنع او صياغة السياسة الخارجية. وهنا نلحظ ان السياسة الخارجية بهذا المعنى تمتاز بالثبات والاستقرار ولو النسبي: قد تتغير الحكومات وتتنوع النظم السياسية ورغم ذلك فمقومات وعناصر السياسة الخارجية تظل واحدة. ومقارنة بين السياسة الخارجية السوفيتية في البحر المتوسط قبل الثورة الشيوعية وعقب الثورة الشيوعية تكفي لتأكيد هذه الملاحظة. كذلك يجب ان لاننسى ان السياسة الخارجية على مستوى الصياغة والصنع تظل دائما من عمل السلطة الشعبية او الارادة الشعبية او على الاقل تتقابل فيها قدرة القيادة في اوسع معانيها على التخطيط والاقناع باستعداد الطبقات المحكومة بالاقتناع وبالمغامرة[٢٠].

٤٠ ـ عملية صنع القرار ومستويات السياسة الخارجية:

عملية صنع القرار السياسي تمثل المستوى الثاني من مستويات السياسة الخارجية. القرار السياسي هو التصميم الارادي السلطوي بقصد تصفية مشكلة معينة من خلال التلاحم الحركي بموقف معين. بعبارة

اخرى القرار السياسي في مدلوله الحقيقي يعني:

١ ـ ارادة او عمل ارادي من جانب السلطة يتجه نحو معانقة الواقع.
٢ ـ وهو يفترض وجود مشكلة معينة تحددت زمانا ومكانا وموضوعاً.
٣ ـ القرار من ثم هو تصميم ارادي يعني الانتقال من الاطار المجرد الذي يمكن ان نصفه بأنه عالم الغايات والاهداف الى الواقع الذي نستطيع ان نحدده بانه مشكلة او عقبة او صعوبة واجهت الحركة السياسية وتعينت تصفيتها[٢١].

القرار السياسي في العمل الخارجي هو صورة من صور نشاط الدولة بهذا المعنى العام ولكنه يبرز بشكل اكثر وضوحا عملية الانتقال من ذلك الاطار المجرد الذي اسميناه بصنع السياسة الخارجية اي بالتخطيط العام للاهداف السياسية المرتبطة بالتعانق الدولي الى الواقع المحدد وقد واجهت الحاكم مشكلة معينة يسعى الى التخلص منها باسلوب او بآخر[٢٢].

تقسيم انواع القرارات السياسية في الاطار الخارجي بقصد تبويبها عملية تمثل احد مظاهر الغموض الذي

---

(٢٠) كيسنجر، م. س. د.، ص ٢٧٤.
(٢١) قارن بصفة خاصة:
LINDBLOM, The Policy-making Process, 1968, P. 12.
(٢٢) العلاقة بين صنع السياسة الخارجية وصنع القرار السياسي تبرز واضحة من خلال تحليل ما يسمى بالموقف السياسي. والواقع ان متغيرات صنع السياسة تكاد تختلط بمتغيرات صنع القرار السياسي. ولكن القناة التي تسمح بالتمييز والتفرقة في آن واحد هو تحليل ما اسميناه بالموقف. خير دراسة نحيل اليها القارىء بهذا الخصوص دون ان تتضمن معالجة احصائية او رياضية معقدة هو البحث الذي قام به العالم الامريكي برويت. انظر:
PRUITT, Definition of the situation as a determinant of international action, in Edwards, International Political analysis, 1970, P. 8.

يسيطر على التأصيل الفكري المعاصر لنظرية السياسة الخارجية(٣٣). المحاولات محدودة. بل ونفس تعريف القرار السياسي الخارجي يكاد يكون لا وجود له. اغلب علماء السياسة الخارجية يتجنبون هذه العملية حتى ان العالم الامريكي «بريشر» صاحب الشهرة الدولية بفضل مؤلفه عن النظام الاسرائيلي للسياسة الخارجية قام بعملية تجميع لاهم اتجاهات المؤلفين بهذا الخصوص واستطاع من خلال متابعة الفقه المعاصر ان يكتشف كيف ان فكرة تبويب القرارات السياسية في النطاق الدولي لاموضع لها من اهتمام اغلب المدارس المعاصرة. واذا كان بعض العلماء يهتم اهتماما خاص بنماذج معينة من القرارات السياسية كما هو بالنسبة لذلك الذي يوصف بقرار التأزم، فان الامر الذي لاشك فيه ان عدم تأصيل انواع القرارات من حيث

---

(٣٣) احد ابعاد الغموض التي لم يستطع الفقه المعاصر بعد ان يتخلص منها هو عملية خلق القنوات الفكرية التي تسمح بعملية الربط الديناميكية بين اطار صنع السياسة الخارجية والاطار الفكري لصنع القرار السياسي. لاول وهلة قد يبدو ان الاطار الفكري لكلا هذين المستويين واحد لا يتعدد. على ان هذا غير صحيح والتحليل الوارد في النص يفصح عن اننا نرفض مثل هذا التصور. هذا لايمنع من التأكيد على حقيقة مزدوجة:

اولا: ان اطار صنع السياسة الخارجية لابد وان يتحكم في اطار صنع القرار السياسي او بعبارة اخرى يصير احد مدخلات عملية صنع القرار السياسي. هذا يعني ان اطار صنع السياسة الخارجية يصير في مجموعه احد المتغيرات التي تتحكم في القرار السياسي حيث ان القرار السياسي بدوره يصير احد مخرجات صنع السياسة الخارجية. ولكن هذا لايعني اي تطابق بينهما.

ثانيا: ان اطار صنع السياسة الخارجية اقل تعددا في نماذجه من اطار صنع القرار السياسي الخارجي بمعنى ان المتغيرات التي تتحكم في صنع السياسة الخارجية اكثر ثباتا واقل تعددا، اكثر انضباطا واقل تنوعا. ان السياسة الخارجية واحدة او هي تميل لأن تصير كذلك، ومن ثم فمتغيرات محددة وتميل الى ان تكون ثابتة. الامر يختلف بالنسبة للقرار السياسي لانه رد فعل للموقف وحيث ان الموقف يتعدد الى ما لانهاية فان القرار لابد وان يتعدد ايضا الى ما لانهاية. طبيعة الموقف، موضوع القرار، كلاهما متغير جديد يتنوع من حيث نماذجه ومن ثم فلابد وان يخضع لهذه العملية نموذج القرار السياسي.

بقي ان نتساءل كيف نستطيع من حيث الاطار الفكري للتحليل ان نخلق العلاقة الثابتة بين عملية صنع السياسة الخارجية وعملية صنع القرار السياسي الخارجي.

سؤال الاجابة عليه في حاجة الى دراسة على حدة ولكن نستطيع مع شيء من التجاوز يفرضه التبسيط ان نركز على ادوات ثلاث تمثل مسالك التلاحم بين صنع السياسة وصنع القرار وهي:

أ ـ القيادة.

ب ـ الادراك.

جـ ـ الاعلام.

فالقيادة بأوسع معانيها هي التي يجب ان تتحرك فتنتقل من الاطار العام المجرد للاطار الديناميكي المحدد، الحركة سلوك والسلوك لايمكن ان ينبعث الا من ادراك وهكذا يصير عنصر المعرفة والتصور ليكون الاداة الثانية المكملة للعنصر الاول وهو القيادة. يأتي العنصر الثالث وهو الاعلام فيصير بمثابة من جانب مساندة لعملية الادراك ومن جانب آخر محرك للطاقة التي تستند اليها القيادة.

كل هذا يفسر الاهمية الخطيرة التي يجب ان نوليها في عملية صنع القرار السياسي الخارجي الى ذلك الذي اسميناه ظاهرة الاتصال وعلماء العلاقات الدولية وبصفة خاصة في التقاليد الامريكية قد بدأوا يشعرون بهذه الاهمية وهذه الخطورة. ولعل خير نموذج لذلك العالم الذي صبغ بأفكاره جميع التقاليد السياسية الامريكية المعاصرة مورجانتو. ففي كتابه عن السياسة بين الشعوب يعلن بصراحة انطلاقا مما يسميه المدرسة الواقعية كيف ان الدعاية اضحت الاداة الاساسية التي يتركز حولها النشاط الحكومي للدولة المعاصرة. ورغم انه يفسر هذه الظاهرة ابتداءمن المنطلق التقليدي اي الفكرة القومية الا انه يصل الى نفس النتائج التي طرحناها في هذه الدراسة. منطلقه في التحليل هو ان المفهوم القومي للدولة قد اصابه نوع من التغيير في القرن العشرين. يقصد بذلك ان مفهوم القومية اليوم يجب ان يعرف بانه قومية عالمية، او كما يقول Nationalistic universalism. هذا المنطلق موضع مناقشة ولكن يعنينا ان نلاحظ النتيجة التي وصل اليها وهي ان السياسة الخارجية اضحت اليوم نوع من الصراع بين عقليات الرجال ومن ثم تصير الدعاية وتصير عملية الاتصال ادوات اساسية في عملية تشكيل تلك العقليات بأساليب مباشرة او غير مباشرة دون ان تقف عند عملية التلاعب بالمصالح او الضغوط من خلال القوة والعنف. انظر مورجانتو، السياسة بين الشعوب، الطبعة الثالثة، ١٩٦٠، ص ٣٣٥ ومابعدها.

طبيعتها ومقوماتها لايمكن الا ان يؤدي الى تجهيل بابعاد التحليل. يقول العالم السابق ذكره: «مفهوم القرار يفترض ولا يحدد. او هو يستخدم كمرادف لكلمة سياسة ولاينظر اليه على انه اساسي في التحليل[٢٤]» كذلك البعض يميز بين مايسميه القرار وعملية صنع القرار ولعل خير من يعبر عن هذا التمييز عالم الاجتماع الاشهر بارسونز الذي يصل به الامر الى تحديد مستويات ثلاث تنتهي بمفهوم الحركة: «كلمة صنع القرار تفهم على انها التصرف الذي يعني التصميم من جانب حول مجموعة من البدائل، اما القرار فيجب ان يفهم على انه ذلك الذي تم تحديده. الحركة هي الشيء الذي حدث اي الشيء الذي وقع فعلا بما يتبعه من عناصر التحرك والفعل».

مما لاشك فيه ان عملية صنع القرار السياسي اكثر اتساعا من القرار لان القرار هو تعبير عن المخرجات التي ترتبط بالموقف اما عملية صنع القرار فهي كل مايرتبط بالموقف من مدخلات ومخرجات فضلا عن التفاعل بينها.) الحركة هي الكثر اتساعا حيث يصير القرار احد عناصرها وحيث تصير عملية صنع القرار احدى مراحلها[٢٥].

اذا تركنا هذه النواحي جانبا وحاولنا تأصيل انواع القرار السياسي الخارجي في نماذج واضحة ومحددة لما وجدنا اي محاولة حتى اليوم جديرة بالاعتبار. المحاولة الوحيدة التي يجدر بنا ذكرها هي تلك التي ندين بها للعالم الامريكي السابق ذكره اي بريشير حيث يقدم لنا تبويبا اساسه التمييز بين متغيرات ثلاث: اولا مايسميه بعامل الاستمرار الوقتي ثم ثانيا محور يدور حول طبيعة القرار هل هو قرار بالمبادرة او كرد فعل ثم اخيرا ما يعرفه بأنه سلم الاهمية. على ان الواقع ان هذا التقسيم لايعكس طبيعة القرار وبصفة خاصة من حيث ارتباطه بالموقف كعلامة من علامات الانطلاق الحركي في عملية ربط التحرك الخارجي بالاهداف السياسية[٢٦].

على اننا نفضل تقسيما آخر يعود بنا في تحديد مجال الحركة لا الى متغيرات مستقلة وانما الى محور اصيل وهو الهدف المباشر من القرار من حيث علاقته بالاطار العام للسياسة الخارجية.

ومن ثم نميز بين الصور الاتية:

اولا: القرار الحاسم اي القرار الذي يعني مواجهة صريحة للموقف بقصد تصفية المشكلة نهائيا. هذا القرار هو اقصى قمة الحركة حيث تصير القيادة السياسية وقد رأت المشكلة بلغت من الخطورة مايفرض عليها الا تقبل بخصوصها اي تأجيل. يبدو ذلك واضحا في المشاكل المصيرية وبصفة خاصة القرارات المتعلقة بمشاكل الامن القومي[٢٧].

ثانيا: مايسمى بقرار التأجيل اي ذلك القرار الذي يعني ارجاء حل المشكلة اي ارجاء المواجهة الحقيقية الى فترة اخرى اكثر ملائمة. قد تكون عملية الارجاء هذه مردها الارتباط بمواثيق دولية او عدم القدرة والاستعداد على مواجهة المخاطر التي تفرضها عملية المواجهة او عدم اهمية المشكلة بالنسبة للاطار العام للحركة.

هذه الصورة من صور القرارات تثير بشكل واضح واكثر من غيرها من النماذج طبيعة عملية تحليل القرار السياسي الخارجي: فتحليل القرار السياسي الخارجي لايمكن فصله عن الاطار العام للحركة. انه نقطة او

---

(٢٤) انظر:

BRECHER, The Foreign Policy system of Israel, 1972, P. 614.

(٢٥) المصادر في نفس المرجع السابق ذكره، ص ٦١٧ ومابعدها. قارن على وجه الخصوص هامش رقم ٤.

(٢٦) انظر ملاحظاتنا في حامد ربيع، عملية صنع القرار السياسي، الجزء الاول ١٩٧٣، ص ٣٣ ومابعدها.

(٢٧) حامد ربيع، م. س. ذ.، ص ٤٤ ومابعدها،

منعطف في الاندفاع العام نحو التعانق بين الداخل والخارج ولايمكن فهم حقيقة وابعاد ذلك المنعطف الا عقب ربطه بما سبقه وما لحقه واهمية القرار ليس فقط في اتخاذه بل وكذلك في لحظة اتخاذه. فهناك قرار لو لم يتخذ في لحظة معينة لاقيمة له وهناك من القرارات مالا يجوز اتخاذه بأي شكل كان في لحظة بعينها. ان قرارا بالقتال، على سبيل المثال وقد اعلن عنه بوقت كاف ودون مباغتة يقدم لنا نموذجا لاسوأ انواع اسلوب القتال الجدي في الصراع الدولي[28].

ثالثا: قرار التوفيق اي ذلك القرار الذي يدور حول التلاعب بالموقف بقصد الوصول الى حل للمشكلة لايصل الى مرتبة الحل الحاسم الذي يفترض المواجهة والتصفية ولايقف عند مجرد التأجيل الذي يعني التهرب من المواجهة. من هذا القبيل اغلب انواع القرارات المتعلقة بالعمل الخارجي حيث يحدد المتفاوض حدا اقصى لمطالبة وحدا ادنى لتنازلاته ويتلاعب في داخل ذلك الاطار ارتفاعا وانخفاضا[29].

ونقدم نموذجا يوضح هذه التفرقة بين التطبيقات الثلاثة.

مشكلة ازالة آثار العدوان: قرار بقبول مبادرة روجرز هو قرار بالتأجيل، قرار بحرب استنزاف هو قرار بالتوفيق ولكن قرارا بالدخول في حرب كلية شاملة هو قرار بالمواجهة.

اهمية التمييز بين هذه النماذج الثلاث تصير اكثر وضوحا من حيث علاقتها بالعمل الدعائي والاعلامي عندما ننتقل الى المستوى الثالث من مستويات تحليل السياسة الخارجية اي عملية التنفيذ.

٤١ـ تنفيذ السياسة الخارجية وادواتها:

تنفيذ السياسة الخارجية يعني عملية مزدوجة: من جانب الانتقال من النشاط الداخلي الى النشاط الخارجي ومن جانب آخر ربط المبادرة بالتنفيذ. والمبادرة لاتفترض دائما الانسياق الكلي الكامل من جانب مصدر الحركة فقد تأخذ صورة من رد الفعل اللاحق لقرار اجنبي صادر من وحدة سياسية اخرى غير الدولة صاحبة الشأن[30]. صياغة السياسة الخارجية بعبارة اخرى وكذلك اتخاذ القرار رغم انها جميعها مراحل في النشاط السياسي الا انها عمليات تتم في نطاق الحياة القومية والمحلية. هذا من جانب، ومن جانب اخر لاتفترض بعد التعانق مع الحركة اي تدخل في محاولة التأثير في الاطار الدولي والخارجي. هذه العملية الاخيرة اي الانتقال عبر الحدود باحتضان والتلاعب بالوقائع والقوى الخارجية هو الذي يمثل عملية تنفيذ السياسة الخارجية اي بعبارة اخرى عملية الانطلاق في ذلك العالم الخارجي سواء على المستوى الاقليمي او الدولي بقصد التحرك والتأثير على ذلك النطاق غير القومي لتحقيق الحركة السياسية.

على انه من جانب آخر فكل قرار له صلة بالاوضاع الخارجية يملك شقين: احدهما داخلي والآخر خارجي. القرار الخارجي يبدأ داخليا في صياغته سواء من حيث مقوماته سواء من حيث مصدره ثم يصير خارجيا من حيث انطلاقه اذ انه يدفع بطاقة تتلاعب بالعالم الخارجي. ولكنه في نفس اللحظة التي ينطلق فيها عبر الحدود فانه لابد وان يفرض عمليات اخرى داخلية لاحقة: ضرورة تطويع الجسد السياسي بما يتفق مع مدلول القرار السياسي بحيث لايكون هناك تباين بين العمل السياسي الخارجي والحياة السياسية الداخلية. قرار بالحرب يتخذ اولاً من جانب الاداة الحكومية صاحبة السلطة في اتخاذه هو يعني انطلاقا للقوى العسكرية

---

(٢٨) نفس المرجع، ص ٥٠ وما بعدها.

(٢٩) فارن لوفيل، م: س. ذ.، ص ٢٦٩.

(٣٠) هولستي، م. س. ذ.، ص ٢١١ ومابعدها. لاحظ رغم ذلك ان هذا المؤلف لم يدخل في ادواته لتنفيذ السياسة الخارجية المنظمات الدولية. انظر ايضا نفس المرجع، ص ٢٠٤ ومابعدها.

عبر الحدود لتحطيم الخصم موضع المناقشة ولكن في نفس اللحظة يجب اتخاذ اجراءات داخلية معينة تسمح بالتجانس بين النشاطين الداخلي والخارجي. وهكذا كل قرار سياسي خارجي له جانبين من حيث التنفيذ: احدهما عبر الحدود اي في نطاق النشاط غير القومي والاخر في نطاق النشاط الداخلي[31].

هذه الطبيعة تفرض علاقة ديالكتيكية اساسها المرونة ووضوح الابعاد بين مختلف لا فقط مستويات السياسة الخارجية بل ونفس ادوات تنفيذ تلك السياسة.

وهذا يقودنا الى صميم العلاقة بين السياسة الخارجية والعمل الاعلامي. ماهي ادوات تنفيذ السياسة الخارجية؟

نستطيع ان نميز بين سبعة ادوات تبدو وكأن كلا منها ذات استقلال وظيفي وان كانت ترتبط كل منها بالاخرى برابطة العلاقة الحركية بحيث ان ايا منها تقدم للاخرى وترافقها وتتبعها:

اولا: المفاوضة او المساومة.
ثانيا: الضغط الاقتصادي.
ثالثا: الاعلام والدعاية.
رابعا: المنظمات الدولية.
خامسا: تشجيع حركات الانفصال المحلية.
سادسا: القتال او الحرب المسلحة.
سابعا: الحوار الدبلوماسي

لو نظرنا الى هذه الادوات من حيث طبيعتها وديناميتها المرتبطة بالتنفيذ والحركة لوجدنا انها جميعا تنبع من فكرة التعامل النفسي بمعنى التطويع للارادة[32]. فالمفاوضة او المساومة هي نوع من انواع التلاعب بالخصم او بالطرف الاخر. هذا التلاعب هو من حيث حقيقته صورة من صور الكر والفر النفسي من خلال ادوات الاتصال المباشر. اذا نظرنا الى جميع الادوات الاخرى نستطيع ان نلاحظ انها في جوهرها لاتعدو ان تكون مساندة لعملية التفاوض، تقدم لها او تعدلها او تفرضها. فالضغط الاقتصادي هو اداة تسمح سواء في مرحلة التهديد بالالتجاء اليه او في حالة المبادرة به بطريق المفاجأة ليس الا اداة لاضعاف ارادة الخصم. هذا الاضعاف يأخذ في تلك الحالة صورة المواجهة الصريحة من الخارج ولكنها تصير بطريق الالتفاف من الداخل

---

(31) فارن جوردان، م. س. ذ.، ص 81 وما بعدها وبصفة خاص ص 90 - 91.

(32) هولستي يميز بغض النظر عن هذه الادوات بين ستة نماذج من التكتيك: الاقناع، الوعد بالعطاء، ضمان العطاء، التهديد بالعقاب، توقيع عقوبة غير عنيفة، العنف. ولو حللنا هذه النماذج الست للتكتيك السياسي في العلاقات الخارجية لوجدنا أنه ابتداء من الاول حتى الخامس يدور حول عملية الاتصال وبصفة خاصة تبرز هذه العملية واضحة ووحيدة في النموذج الاول والثاني والرابع لتصير مرتبطة بعنصر اخر في النموذجين الثالث والخامس.

على اننا لو تركنا هذه الناحية الجزئية وحاولنا ان نصوغ العلاقة بين الطرفين موضع الشد والجذب اي موضع التعامل في النطاق الدولي فاننا نستطيع ان نميز بين ثلاثة نماذج للعلاقات: النموذج الاول حيث تسيطر على العلاقة فكرة الرضا والتقابل الارادي الصريح القائم على اساس المناقشة الواضحة المخلصة. النموذج الثاني حيث تصير العلاقة وليس فيها سوى صدام بين الارادات حيث تسعى احداها لتحطيم الاخرى: صدام جسدي مع خلاف في درجاته النموذج الثالث وهو نموذج التلاعب بالموقف ابتداء من الرضا حتى التهديد باستخدام القوة. من حيث الواقع كلا النموذجين الاول والثاني اللذين يمثلان التطرف المطلق لانجد تطبيقاتها في الحياة العملية الا بقدر محدود. النموذج الحقيقي الذي يسيطر على اغلب صور العلاقات الدولية هو النموذج الثالث حيث تتفاعل جميع ادوات السياسة الخارجية كل منها مع الاخرى في عملية كروفر بدهاء وبعد نظر بحيث لايصل صانع السياسة الى اي موقف متطرف يقوده الى النموذج الاخير. وهكذا نجد هذا النموذج يعرف الاقناع والاتصال، لاينسى الوعد والتهديد ولايتردد من آن لاخر في ان يستخدم القوة ولو من خلال ابراز امكانياته. انظر:

DE CALLIERES, On the manner of negotiating with princes, 1919, P. 7.

في حالة تشجيع حركات الانفصال المحلية. ان هذا لايعني سوى تفتيت للارادة القومية التي نسعى الى تطويعها من خلال المساومة.

القتال العسكري هو اقصى صور الاعداد لعملية المفاوضة لانه يعني الاستسلام او ما في حكمه، كليا او جزئيا. وهكذا تبرز عملية الاتصال بين الادوات اقناعا او اكراها كجوهر حقيقة تنفيذ السياسة الخارجية. السياسة الخارجية تخضع من ثم من حيث طبيعتها لعملية الاتصال بمختلف ابعادها ولكن في معنى آخر يختلف عن المدلول المتعارف عليه لهذه الكلمة. وتبرز هذه الحقيقة واضحة عندما نتعرض للاعلام والدعاية كأداة من ادوات السياسة الخارجية. ان التطور المعاصر فرض على هذه الاداة ان تصير نوعا من الحركة التي تغلف جميع الادوات الاخرى. ونجاح تنفيذ اي سياسة خارجية يجب ان يفرض على مخطط تلك السياسة ان يتحرك وهو يستند الى اعمدة ثلاثة: دبلوماسية نشطة، دعاية واعلام ذكي، قوة عسكرية يقظة. الدعاية والاعلام تمثل خط الهجوم الاول وخط الدفاع الاخير[٣٣].

هذا التحليل يسمح بان نفهم لماذا نرفض بعض المحاولات الاخيرة التي تقوم على اساس التمييز بين اربعة ادوات لتنفيذ السياسة الخارجية: الاداة الايديولوجية، الاداة الدبلوماسية، الاداة الاقتصادية ثم الاداة العسكرية. والواقع ان الاداة الايديولوجية لاموضع لها في ذاتها في نطاق العلاقات الدولية حيث تنصهر في العمل الدعائي والاعلامي. والادوات الاخرى كما سبق ورأينا ـ لو تركنا جانبا التفاوض ـ ادوات مكملة او ممهدة وليست لها وظيفة مستقلة من حيث عملية تنفيذ السياسة الخارجية[٣٤]. والواقع ان مرد ذلك الخلط هو ضرورة التمييز بين عملية تنفيذ السياسة الخارجية وعملية استخدام اداة معينة: ان عملية استخدام اداة معينة من جانب الطبقة الحاكمة تعني تحديد للعناصر المشاركة. تحديد للاتجاه الذي تتحرك في نطاقه من حيث المصب الذي تتجه اليه الاداة. تحديد للاهداف التي يسعى اليها المخطط للسياسة الخارجية ثم اخيرا تحديد للموقف الذي يرتبط به التعامل بتلك الاداة. وهكذا نجد ان مستوى السياسة الخارجية بدورة يفترض مستويات اخرى تابعة كل منها له ابعاده وله خصائصه.

---

(٣٣) وهذا هو مافعلته السياسة الخارجية الاسرائيلية: انظر بريشر، م. س. ذ.، ص ٥٦٥.

(٣٤) نقصد بذلك المحاولة التي يقدمها لنا احد مايدين بثقافته الى التقاليد الامريكية اي العالم مورتي. يقول العالم المذكور في مؤلفه الذي سوف نشير اليه فيما بعد عن الدعاية والنظام العام العالمي ان ادوات السياسة بمعنى ادوات تنفيذ البرنامج المخطط للاهداف تتحدد بأربعة: الاداة الدبلوماسية، ثم الاداة الاقتصادية الى جانب الاداة العسكرية واخيرا الاداة الايديولوجية. وهو في تمييزه بين الادوات الاربعة يجعل هذا التمييز يمتد على متغير يبدأ بالاقناع وينتهي بالاكراه. ومن ثم في بدايته يضع الاداة الدبلوماسية يعقبها بالاداة الاقتصادية ثم يلحق بها الاداة الايديولوجية واخيرا يضع الاداة العسكرية. على ان الواقع ان التمييز بين هذه الادوات الاربعة وقصر السياسة الخارجية عليها انما يعكس اهتمامات ومصالح لايمكن ان تنبع الا من اطار دولي يتحدد بارادة واحدة من الدولتين اللتين تتحكمان حاليا في مسارات الحركة العالمية، اي روسيا والولايات المتحدة. فمن جانب هو يجعل الاداة الايديولوجية احدى الادوات السياسية في معالجة التحرك السياسي الخارجي ومن ثم فحيث ان الايديولوجية اثنتان فلا موضع لسواها في العلاقات الدولية. بعبارة اخرى هو يريد من هذا المنطلق ان يعكس وجهة نظر الدول الكبرى التي لاتريد للدول الصغيرة او بصفة عامة لغير الدول الكبرى ان تقحم نفسها في الصراعات الاعلامية والدعائية. وقد يدعو هذا الى التساؤل: لماذا؟ لان الحرب الاعلامية هي حرب رخيصة وكتاب ناجح لايكلف سوى ثمن الورق قد يكون اكثر فاعلية من التهديد باستخدام القنبلة الذرية: الاخيرة لايمكن استخدامها اما الاول فهو في متناول اليد وفي كل لحظة. محطة اذاعة قوية تستطيع ان تفعل في عدة ايام مالم تستطع ان تؤديه دبلوماسية كاملة خلال اعوام طويلة من العمل الدائب. والسلاح ذو حدين: النجاح تقابله واجهة الفشل. ولنتذكر صوت العرب وما حققه من نجاح وما اكده من فشل كنموذج للعمل الدعائي الاعلامي. انظر:
Marty, Propaganda and World Public order, 1968, P. 11.

٤٢ ـ الاطار العام للعمل السياسي الخارجي وقواعده:

ونستطيع ان نلخص الاطار العام لمستويات العمل السياسي الخارجي في القواعد التالية:
١ ـ القاعدة الاولى انه يجب ان نفضل دائما اقل الادوات تكلفة. فالاعتداء على سفير لايمكن ان يواجه بحرب مسلحة. وهنا نلحظ ان اقل الادوات تكلفة بصفة عامة هي الاداة الاعلامية[٣٥]
٢ ـ قاعدة التنسيق بين ادوات السياسة الخارجية ومعنى ذلك انه يجب ان توجد علاقة ترابط بين هذه الادوات بحيث تصير عملية السياسة الخارجية كفرقة موسيقية تعكس انسجاما وتناسقا كاملين. وهذا يفترض التخطيط المرن الذي يكون اساسه وضوح الرؤية[٣٦].
٣ ـ القاعدة الثالثة ومفادها انه رغم تعدد ادوات السياسة الخارجية فجوهر العمل الخارجي يظل دائما عملية التفاوض. السياسة الخارجية لاتعدو ان تكون تطويع ارادة لارادة اخرى.

وهكذا حتى العمل العسكري ليس سوى اداة الغرض منها اكراه الخصم على الاستسلام لشروط معينة ماكان يسلم بها لو لم تحدث الهزيمة العسكرية. وهكذا فان السياسة الخارجية تنجح لاعندما يقدر لها ان تنتصر في معركة وانما فقط عندما تفرض على الخصم الاستسلام لطلباتها.

٤٣ ـ نقل اساليب الحركة السياسية الداخلية الى النطاق الدولي:

الناحية الاخرى التي تميز العمل السياسي في النطاق الدولي المعاصر هي نقل اساليب العمل السياسي البرلماني كما تعودناها خلال القرن الماضي في الحياة الداخلية الى النطاق الخارجي. فالثورة الفرنسية وما ارتبط بها من ثورة اعلامية أدت الى جعل اساس الحياة السياسية المحلية عملية الاتصال والمناقشة من اعلى الى اسفل ومن اسفل الى اعلى.

هذا الاتصال يفترض ويتصف بصفات العلانية ومقارعة الحجة بالحجة. هو يأخذ الصورة النيابية او البرلمانية حيث تتصارع الافكار وتتطابق المفاهيم بين وحدات متعددة تسيطر عليها المصالح الشخصية وعناصر الجذب او الرفض الجماعية ثم تأتي ادوات الاتصال الجماهيري بما تفرضه من امكانيات نقل صورة هذا العمل الجماعي الى المجتمع الكلي وبصفة خاصة عقب اختراع التلفزيون وانتشاره الامر الذي ان لم يكن يسمح بجعل عملية الاتصال بين الطبقة الحاكمة والطبقات المحكومة كلية وكاملة فعلى الاقل قد اكد امكانية العلم والاخبار بجميع خصائص وابعاد المشاكل من جانب المجتمع الكلي[٣٧]. العمل السياسي الداخلي بهذا المعنى اضحى يتصف بصفات ثلاث: هو عمل جماعي تسوده العلانية ويخضع بدرجة او باخرى لعملية الاتصال الجماهيري. العمل السياسي الدولي والخارجي ظل حتى الحرب العالمية الاولى لايعرف استقبال هذا النموذج من نماذج النشاط السياسي. انشاء عصبة الامم ثم ما اعقبها من تطورات متلاحقة انتهت بالعالم المعاصر الى نقل اساليب العمل السياسي الداخلي الى النطاق الدولي والخارجي.

---

(٣٥) انظر على وجه الخصوص: BARGHOORN, Soviet foreign Propaganda, 1964, P. 11

(٣٦) قارن على وجه الخصوص ورغم انه يتناول نموذجا تجريبيا محددا دراسة

MILSMAN, Orchestrating the instrumentalities, in Good, Foreign Pclicy, 1966, P. 191.

(٣٧) انظر التفاصيل في حامد ربيع، نظرية الدعاية الخارجية، م. س. ذ، ص ٥٩ وما بعدها.

ولنقدم بعض مظاهر العمل السياسي في المنظمات الدولية. فهو يأخذ اليوم صورة اجتماعات تكاد تكون برلمانية حيث تمثل كل دولة نفسها بمندوب او اكثر وحيث يتم العمل السياسي في شكل مناقشات حول دائرة مستديرة وفي علانية شبه تامة بل وفي بعض الاحيان تنقلها عدسة التلفزيون مباشرة. العمل السياسي الدولي في داخل تلك المنظمات يأخذ صورة صراع ارادات تتلاعب فيه القدرة الخطابية والمواهب المختلفة المرتبطة بعملية الاتصال فضلا عن القدرة على المساومة الجماعية والالتجاء الى اساليب الدعاية والعلاقات العامة(٣٨). ان دبلوماسيا يعمل في نطاق هذه المنظمات لايعرف كيف يتلاعب بالمواقف من خلال قدراته الكلامية فضلا عن تنظيم للحركة اعدادا واستعدادا لتلك المواقف لايمكن ان يقدر له النجاح. وهكذا تظهر مواهب في العمل السياسي الخارجي لم يكن يعرفها ولايفترضها العمل الدبلوماسي التقليدي.

ب ـ صورة اخرى من صور العمل السياسي في المحيط الخارجي وبصفة خاصة على المستوى الاقليمي او الثنائي مايسمى بمؤتمرات القمة. مؤتمرات القمة لاتعدو ان تكون تقابلا بين القائد الأعلى ومعاونيه في مناقشات ومدارات تنتهي بالتوفيق بين وجهات النظر(٣٩). بطبيعة الحال مؤتمرات القمة ليست جديدة في تاريخ العمل السياسي ولكن الجديد في تلك المؤتمرات هو اسلوب العمل. لقد اضحت هذه المؤتمرات تفترض لقاءا مسبقا بين مجموعتين من الخبراء او بعبارة اخرى تفترض تقابل بين خبيرين للسلطة وكل منهما مع اعوانه بحيث يتم اللقاء النهائي اي لقاء القمة وقد تحددت مقدما ابعاد الاتفاق ونقط التلاقي. وهكذا اضحت مؤتمرات القمة مقدمة لنوع جديد من الدبلوماسية وهي دبلوماسية الطبقة التكنوقراطية. كذلك فان مؤتمرات القمة في اغلب الاحيان تتخذ وسيلة لتحقيق نجاح سياسي داخلي او بعبارة اكثر دقة اضحت تمثل اسلوبا من اساليب الدعاية الانتخابية في الداخل. عندما ذهب نيكسون الى بكين انما كان يعد نفسه في الواقع لمعركته الانتخابية. وهكذا نجد في هذا التطبيق ايضا تلك العلاقة التي تفرض الارتباط الواضح بين العمل السياسي الداخلي والعمل السياسي الخارجي رغم الاستقلال الوظيفي لكل منهما عن الاخر.

---

(٣٨) قارن فيشير، م. س. ذ.، ص ٢٧٥ ومابعدها.

(٣٩) انظر على وجه الخصوص المعلومات التاريخية والملاحظات المختلفة التي يقدمها لنا:

Kertesz, the Quest for peace throught diplomacy, 1967, P. 51.

ويذكرنا الكاتب المذكور كيف ان مؤتمرات القمة لايمكن ان تؤدي الى حل المشاكل السياسية المعقدة. رغم ذلك فان اللقاءات الاخيرة التي حققها نيكسون بفضل مستشاره كيسنجر تدعو بدورها للتساؤل. كم كنا نتمنى ان تخصص جامعة الدولة العربية فريقا لدراسة علمية وميدانية لهذه الناحية اي للشروط التي يجب ان تتوفر ليستطيع لقاء القمة اي يحقق اهدافه. فلقاءات القمة كان ينظر اليها في التقاليد الفكرية حتى وقت قريب على انها ليست الا وسيلة من وسائل الدعاية الداخلية حيث يتولى رئيس الدولة اقتطاف خلاصة الجهود الخفية المستمرة الثابتة من جانب الاداة الدبلوماسية لينسبها لنفسه. بهذا المعنى فان لقاء القمة كان وسيلة لايضاح للمواقف اكثر دقة ولتحديد لاتفاقات اكثر وضوحا ولكنه لم يكن الا امتدادا للعمل الدبلوماسي القومي. وهكذا فهو ناجح اذا كانت الدبلوماسية ناجحة، فاشل اذا كانت الدبلوماسية فاشلة. ولنتذكر على سبيل المثال لقاءات خروشوف مع القادة الامريكيين وما احدثته واقعة طائرة التجسس في عام ١٩٦٠. ولكن عقب وصول نيكسون الى الحكم وبصفة خاصة عقب بروز شخصية كيسنجر بدأنا نرى صورا جديدة من صور لقاءات القمة تتم متخطية العمل الدبلوماسي بل ودون العمل الدبلوماسي في معناه التقليدي. نجاح هذه اللقاءات لم يعد موضع مناقشة بل قد ادى الى تغيير كامل في اطار الحركة الدولية.

السؤال الذي نطرحه هو: كيف ولماذا تمكن كيسنجر من ان يحقق ذلك النجاح؟

اهمية السؤال والاجابة عليه خطيرة بالنسبة للواقع العربي.

ان الواقع العربي اساسه الحركة الجماعية. والحركة الجماعية العربية انما تستند من حيث طبيعتها الى لقاء القيادات العليا. وهذا يعني اسلوب القمة والعجيب ان جميع مؤتمرات القمة في تاريخنا المعاصر لم تكن الا تعبيرا عن الفشل الواضح مع خلاف في درجاته. البعض منها كما حدث في مؤتمر الرباط كان صورة مخزية للتكتل العربي. هذا يدعو الى الدراسة العميقة الجادة للمتطلبات الاولية وللاطار الفكري للحركة في هذا المسلك من مسالك التقابل واللقاء. فماذا فعلت الادارة السياسية في جامعة الدول العربية في هذا الخصوص؟ انظر ملاحظات كيرتيسز. م. س. ذ.، ص ٥٧ هامش رقم ٧.

ج ـ صورة ثالثة تلك التي نسميها بدبلوماسية الصوت العالي او مايسميه البعض بدبلوماسية البذاءة ويقصد بذلك ان يلجأ الدبلوماسي الى اساليب عنيفة من حيث اللغة والرموز او بعبارة اخرى اكثر دقة هو يختلق المواقف بقصد ان يحدث تأثيرا معينا لا على من يواجهه على مائدة التفاوض وانما على خلفية جماهيرية معينة او بعبارة اخرى على رأي عام معين بعيد عن التواجد في موضع اللقاء. خروتشوف عندما خلع حذاءه ووضعه امامه في الجمعية العامة للامم المتحدة معلنا انه لو تكلم مندوب الفلبين فلابد وان يستخدم تلك الاداة لاسكاته لم يكن يقصد في واقع الامر مندوب الفلبين وانما كان يتجه بحديثه الى تلك القوى السياسية التي كانت قد بدأت تتحرك ضد الاتحاد السوفيتي. هي حركة عصبية كما قد يبدو ولكنها في الواقع هي خطوة محسوبة ومدروسة. وكل من عاش في اليونسكو في الستينات يتذكر المندوب الروسي بافلوف استاذ العلاقات الدولية في جامعة موسكو وكيف كان مجرد حضوره يجعل جميع المندوبين وقد اصابتهم الرهبة والخوف وبصفة خاصة فرنسا وبريطانيا العظمى في تلك اللحظة. ان هذا الاسلوب في الواقع هو استجابة للمجتمع الجماهيري. فالدبلوماسي انما يستخدم منهاجية ماكان يمكن ان يتصور استخدامها زميله فقط قبل نصف قرن ولكنه اليوم يلجأ اليها لانه يريد ان يحدث اثرا معينا في بعض فئات الرأي العام حيث مثل هذا الاسلوب لابد وان يجد تقبلا وتحبيذا[40].

د ـ وهناك ناحية رابعة تعكس التطور المعاصر العام للعمل السياسي الخارجي وتؤكد دلالة الملحوظة السابقة وهي ظهور مايسمى بالملحق او المستشار الصحفي او الاعلامي في الجهاز الدبلوماسي. على ان هذه الناحية في حاجة الى شيء من التفصيل.

٤٤ ـ المستشار الاعلامي والعمل الدبلوماسي:

وظيفة المستشار الاعلامي او الملحق الصحفي او من في حكم اي منهما لم تعد تخضع للقواعد المعتادة في العمل الدبلوماسي. فالدبلوماسي ليست وظيفته سوى ان يتصل بالجهات الرسمية اي الحكومية. الملحق الصحفي يتعدى هذه التقاليد بل ويرفضها لان اساس وظيفته هي الاتصال بجميع فئات وطبقات الرأي العام المحلي لتوضيح وجهة نظر حكومته ولمعرفة وجهة نظر تلك الفئات والطبقات. اتصاله بهذا المعنى ليس مجرد نقل للمعلومات استقبالا وانما ايضا ارسالا: بعبارة اخرى هو يأخذ ويعطي وهو لايتصل فقط بالطبقة الحاكمة وانما يتصل بالمواطن وبكل مواطن اي يتصل بالمواطن في معناه المجرد المطلق [41]. ولذلك هو يخالف جميع التقاليد الدبلوماسية التقليدية.

اولاً: فهو يتصل مباشرة باجهزة الاعلام الجماهيرية، الصحافة والاذاعة والتلفزيون وغيرها. ولايمكن للدولة صاحبة الشأن ان تمنع ملحقا صحفيا من عقد مؤتمرات يتحدث فيها مع جميع مندوبي اجهزة الاعلام الجماهيري وبحرية تامة لتوضيح وجهة نظر دولته[42]. ولعلنا نذكر ذلك الذي فعله المستشار الصحفي

---

(٤٠) انظر صور جديدة للعمل الدبلوماسي في المؤلف السابق ذكره، ص ٩٢ ومابعدها. وقارن ايضا المناقشات الواردة في:
HAMON, L'elaboretion de la Politique etrangere, 1969, P. 111.

(٤١) انظر كذلك:
BELOFF, New dimensions in foreign policy, 1961, P. 117.

(٤٢) قارن بصفة عامة المصادر التالية:
JONES, Analysing foreign policy, 1970, P. 91.
LUARD, Peace and opinion, 1962, P. 155.
FRANKEL, The making of foreign policy, 1963, P. 74, 95.
BELOFF, Foreign Policy and the democratic process, 1955, P. 97.
HENKIN, How nations behave? 1968, P. 87.
HASKINS, The scientific revolution and world politics; 1964, P.51.

ـسفارة الفرنسية في اسرائيل عقب حادث اسقاط الطائرة الليبية المدنية فوق ارض سيناء[٤٣].
ثانيا: هو من حقه ان يخاطب الرأي العام المحلي مباشرة وبصفة خاصة للرد على اي شيء يشيب دولته في صورة احتجاج او ما في حكمه. وهو يستطيع ان يتخذ هذا الاحتجاج وسيلة بان يقدم للرأي العام المحلي كل مايريده حتى ولو كان يتضمن نقدا للحكومة التي يزاول نشاطه في داخلها طالما كانت هناك المناسبة لتقديم مثل ذلك الاحتجاج ولو مفتعلا. فعلت ذلك وعلى نطاق واسع الدبلوماسية الروسية خلال الحرب الباردة في علاقتها بالولايات المتحدة الامريكية[٤٤].
ثالثا: هو من حقه ان يتصل لا فقط بالقوى الحاكمة بل له ان يخلق جميع قنوات الاتصال مع القوى المعارضة. وهذا بدوره جديد في التقاليد الدبلوماسية بل ويخالف كلية كل ما كان يجري عليه العمل وبصفة خاصة حتى الثورة الفرنسية.

بطبيعة الحال هذه التقاليد لاتزال جديدة تختلف من دولة لاخرى بسبب حداثة هذه الصورة من صور الدبلوماسية السياسية ولكنها في نجاحها تتوقف على عوامل ثلاث: العامل الاول طبيعة العلاقات بين الدول صاحبة الشأن. فمما لاشك فيه ان العلاقات بين دول تربطها رابطة الانتماء الى اقليم واحد او حقيقة حضارية واحدة لابد وان تختلف عنها حيث لاتوجد تلك الرابطة. وهذا مايعبر عنه بدبلوماسية التجمعات[٤٥]. فلنتصور الدبلوماسية العراقية في القاهرة لو قارناها بالدبلوماسية الفرنسية في نفس الموقع. العامل الثاني حول قدرة الاداة الدبلوماسية على ان تكون حركية ومكافحة. فالدبلوماسية الاسرائيلية نموذج اثبت وبصفة خاصة في غرب اوروبا وفي بعض الاحيان في وسط افريقيا قدرة على الصراع الحركي النشط في نطاق العمل السياسي الخارجي الذي يرتفع الى حد المغامرة على المستوى الفردي. العامل الثالث يعود الى وجود الاقليات المتعاطفة ان لم تكن اقليات تنتمي الى نفس المجتمع الحضاري الذي يمثله المستشار الصحفي وهنا ايضا نجد الدبلوماسية العبرية وكيف استطاعت ان تخلق تقاليد معينة مخالفة بهذا جميع التقاليد السابقة حيث رأينا المستشار الصحفي او مدير مكتب الاعلام بل وفي بعض الاحيان السفير يتحدث بوصفه زعيما للاقلية القومية اليهودية. ورغم ان ديجول وقف ضد ذلك التقليد الا ان اسرائيل لم تتردد في ان تعود اليه في مناسبات عديدة.

جميع هذه الصور للعمل السياسي الخارجي تفرض اهمية خاصة للنشاط الاعلامي سواء حيث اضحى العمل الاعلامي اداة من ادوات تنفيذ السياسة الخارجية، سواء ارتفع ليصير اسلوبا من اساليب العمل الدبلوماسي[٤٦].

---

(٤٣) قارن الحوادث ٢٠ / ٤ / ١٩٧٣.

(٤٤) مارتين، م. س. ذ.، ص ١٧٢ وما بعدها. انظر كذلك تفصيل كيف يستطيع الاحتجاج ان يؤدي وظيفة الدعاية في محاضراتنا عن نظرية الدعاية الخارجية. م. س. ذ. ص ١٧٠ ومابعدها وقارن من النماذج ما اورده مارتين، م. س. ذ.، ص ٢٤٨ ومابعدها.

(٤٥) وهذا مايسميه كيرنز.، م. س. ذ.، ص ١٠٥ دبلوماسية الاندماج. انظر ايضا نفس المرجع، ص ١١٧ ومابعدها.

(٤٦) قارن العدد الخاص من حوليات الاكاديمية الامريكية للعلوم السياسية والاجتماعية والذي خصص لموضوع الدعاية في العلاقات الدولية، ١٩٧١ مجلد ٢٩٨ وبصفة خاصة بحث ليرنير، الذي يتساءل فيه عما اذا كانت عملية الاقناع الدولية ممكنة من الوجهة الاجتماعية. على اننا بهذا الخصوص يجب ان نلاحظ الفارق بين الرأي العام الدولي والرأي العام الخارجي وان حديثنا في هذه الدراسة واضح من انه يتناول اساسا الرأي العام الخارجي. بعبارة اخرى الرأي العام الدولي اي الرأي العام العالمي حيث تنصهر جميع القوى السياسية القومية ليس موضع اهتمامنا. انما ذلك الذي يعنينا هو الرأي العام الخارجي اي الرأي العام في اي من المجتمعات القومية منظور اليه من حيث علاقته بالسلطة الحاكمة كأداة للضغط على تلك السلطة في مواجهة الارادة الاجنبية المتكاملة. انظر:

MARTIN, Effectivenss of International Propaganda, in the annals of the American Academy of Political and Social Science, 1971, November, P. 71.

ولكن هل هذا يعني ان العمل الاعلامي في النطاق الدولي والخارجي يخضع لنفس القواعد التي يخضع لها النشاط الاعلامي في النطاق الداخلي؟ ام ان كلا منهما يعكس مفهوما مستقلا ومن ثم تسيطر عليه قواعد متميزة؟

هذا هو السؤال الثاني الذي يتعين علينا ان نناقش مختلف ابعاده قبل ان نحاول تقييم الاعلام العربي والسياسة الخارجية في نطاق عملية المواجهة الاسرائيلية[٤٧].

(٤٧) بريشير، م. س. ذ.، ص ١٨٣ ومابعدها.

المبحث الثاني

التمييز بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي

٤٥ ـ عملية التمييز بين الاعْلام الداخلي والاتصال الخارجي وابعادها الفكرية:

لنستطيع ان نفهم حقيقة الاسباب التي ادت ولاتزال تؤدي الى الاخفاق[١] الواضح للاعلام العربي على المستوى القومي والاقليمي في كل ما له صلة بعملية المواجهة الاسرائيلية علينا ان نعود لتحليل هـذا المنطلق الاساسي اي عملية التمييز بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي.

قد يبدو من العرض السابق ان التطور المعاصر لم يكن له من معنى سوى توسيع نطاق دائرة الوظيفة الاعلامية للدولة اذ عقب ان كانت وظيفتها قاصرة على النطاق الداخلي اتسعت لتشمل ايضـا النطاق الخارجي. على ان هذه النظرة تتضمن تبسيطا مبالغا فيه. والواقع ان عملية التمييز بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي اضحت تمثل احد الاعمدة الاساسية التي يجب ان تنطلق منها طبيعة وظيفة الدولة الاتصالية.

---

(١) كلمة اخفاق لاتعبر عن حقيقة الوضع الذي تعيشه الامة العربية. ان الاعلام العربي وهذه حقيقة لم يعد من الممكن ان تكون موضع مناقشة هو احد اسباب الهزيمة التي لاتزال نعيش اثارها والتي وصفها توينبي بأنها اسوأ هزيمة عرفها العرب في تاريخهم الطويل والتي خرج علينا الاعلام العربي بصفها بسذاجة بأنها نكسة. لانريد في هذا الموضع ان نعود الى تكرار ما سبق وقررناه وهو نه من السهل ان يوصف الاعلام بأنه تعبير هيكلي عن حقيقة قائمة وانه ان لم تتغير تلك الحقيقة فلا يمكن ان نطالب الهيكل او الاطار الشكلي ان يتغير. لقد سبق وذكرنا ان الاعلام احد متغيرات الموقف وانه بهذا المعنى هو احد مدخلاته وكذلك احد مخرجاته يتفاعل به ويعكس خصائصه. الاعلام احد اسباب الهزيمة وهو بدوره لابد وان يعكس اثار الهزيمة. اذا كان هذا الوصف يمتد بالنسبة للماضي فهو لايقل وضوحا عنه بالنسبة للمستقبل. كلمة اخفاق ليست كافية ايضا بالنسبة للوضع الذي نعيشه لانها لاتعدو ان تكون تعبيرا جزئيا عن الحقيقة التي تعانيها الامة العربية. والسؤال الذي نريد ان نجيب عليه ونحن لانزال في صدد التاصيل الفكري للعمل الاعلامي كأحد ادوات الحركة السياسية بصفة عامة والسياسة الخارجية بصفة خاصة هو التالي: كيف يستطيع الاعلام بغض النظر عن خصائص الموقف ان يكون احد مدخلات الموقف السياسي اي احد متغيراته المتحكمة في النجاح او الاخفاق بالنسبة لعملية المواجهة الحركية..؟

دون الدخول في تفاصيل ليس هذا موضعها فلنحدد بعض الابعاد:

أ ـ اول هذه الابعاد هو ضرورة التمييز بين الفن الاعلامي والحركة السياسية بحيث ان كلا منهما يملك استقلاله التام وان كان هذا لا يمنع من ضرورة التفاعل بينهما بالنسبة لخلق منطق المواجهة. بعبارة اخرى اي حركة يجب ان تستند الى العديد من العناصر ومن بين هذه العناصر علينا ان نميز بوضوح بين عملية اعداد الفن والمهنة الاعلامية من جانب وعملية الحركة السياسية من جانب اخر. الاولى متعلقة بالفن الاعلامي وكيفية نقل الخبر الثانية متعلقة باهداف الحركة والغايات التي تسعى الى تحقيقها. كل من هاتين الناحيتين لها خصائصها المستقلة واطارها الذاتي من حيث الاعداد الفكري والمهني في آن واحد. التلاحم بينها هو الذي يخلق منطق المواجهة بقصد صياغة الفن والعمل الاعلامي في خدمة الحركة السياسية. هذا التقابل يقدم بدوره لانفراج اخر اساسه التمييز بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي. هذه الابعاد غير واضحة في ذهن القائمين بالعمل في جامعة الدول العربية وكان يجب ان

تكون هذه العملية محور التخطيط المتعلق بعملية المواجهة ابتداء من عام ١٩٦٧ .
ب - كذلك فان علينا ان نميز بين انواع الاعلام تبعا لمستقبل الرسالة الاعلامية وبالتالي للهدف من الرسالة الاعلامية . كما سبق وذكرنا فان الاعلام بصفة عامة يجب ان يتنوع من حيث مستوياته بين اعلام يتجه الى صانع القرار واخر يتجه الى قائد الرأي وثالث يتجه الى الرجل العادي وذلك دون الحديث عن الاعلام المتخصص . فلنترك جانبا هذا الاخير الذي لاموضع له باللغة العربية سواء بالنسبة للمشاكل السياسية ام فيما يتعلق بالتحليل والفن الاعلامي . لاتوجد اي دورية باللغة العربية حتى اليوم تستطيع ان تصف نفسها بانها قد وصلت الى مستوى معين من التخصص في الاعلام السياسي . واذا استثنينا مجلة شئون فلسطينية التي قد تستطيع ان تزعم ذلك لخلو الميدان من اعلام متخصص حقيقي فان الباحث لابد وان يرهق نفسه دون جدوى في سبيل اكتشاف دورية واحدة تعبر عن ذلك المستوى من مستويات الثقافة العلمية . مضى على كلية الاقتصاد بجامعة القاهرة حوالي ثلاثين عاما ولم تستطع حتى هذه اللحظة ان تصدر عددا واحدا كنموذج للسياسة العلمية . جمعية العلوم السياسية المصرية ظلت تنشر ثقافة سطحية خلال العديد من الاعوام ومع ذلك لم تستطع ان تحافظ على استمراريتها . اذا تركنا هذا جانبا وانتقلنا الى مستوى صانع القرار فلا نجد في جميع البلاد العربية من مستويات نقل الثقافة العلمية بالاسلوب المبسط الذي يفهمه رجل الحركة السياسية سوى دوريتين : شئون فلسطينية والتي سبق وذكرناها ومجلة السياسة الدولية . ومع ذلك فالملاحظ عليهما ان الاولى هي اعلام فلسطيني وليست بالاعلام العربي والثانية اعلام اوروبي امريكي وليست بالاعلام العربي .

ونقصد بالاعلام العربي ذلك الذي يتحسس مواطن الداء في المجتمع العربي والقضية العربية ويجعل وظيفته تدور اساسا حول تحليل ما يرتبط بتلك النواحي . فاذا انتقلنا الى قادة الرأي لم نجد في الصحافة العربية مايمكن ان يمون الذي حددنا خصائصه بأنه ينتمي الى مواضع التأثير في تكتيل قنوات الرأي العام وتوجيه شرائحه . من اين يستطيع قائد الرأي ان يتلمس المعلومات واكثر من ذلك تفسير تلك المعلومات؟ ليس امامه سوى بعض الدوريات اللبنانية ومجلة الاهرام الاقتصادي . والدوريات اللبنانية تكون بطريق خفي بوقا لمصالح ذاتية في اغلب الاحيان تعكس نوعا من الحرب الاعلامية القائمة بين الانظمة السياسية المحلية فهذه الدوريات والجميع يعلم ذلك لاتعيش الا من تمويل بعض الانظمة العربية ذات المصالح المعينة في الدفاع عن وجودها في اغلب الاحيان بأنانية وقصر نظر . اما عن الاهرام الاقتصادي فهو لايعدو ان يكون نقلا لمعلومات في اغلب الاحيان سطحية وغير دقيقة من بعض الدوريات الغربية . والواقع انه فيما يتعلق بالمعلومات التي يجب ان نقدمها لقائد الرأي يجب ان نميز بين انواع ثلاث من هذه المعلومات : الخبر او المادة الاعلامية ثم تفسير تلك المادة بما يتفق مع مصالحنا ومع ما يندرج تحت اهدافنا الحركية ثم ثالثا تقديم المناقشة الجادة والمنطقية لرفض وجهات النظر التي يمكن ان تتعارض مع ذلك التفسير الذي يتفق مع مصالحنا واهدافنا الحركية . ان قائد الرأي يجب ان يعلم وان يمكن من ان يفسر وان يهاجم من يتصدى لتفسيره والاعلام الموجه لقائد الرأي ان لم يحقق هذه الابعاد الثلاث فلا قيمة له .

جـ - وكم كنا نتمنى ان يتساءل الذين يصفون انفسهم بأنهم مخططو الاعلام العربي في جامعة الدول العربية عن مدلول وابعاد الحركة الاسرائيلية في جانبها الاعلامي . ماذا فعل الاعلام الاسرائيلي حتى هذه اللحظة؟ وكيف نستطيع ان نقيمه من حيث النجاح ام الاخفاق؟ بطبيعة الحال سوف يسرع رجال الاعلام العرب بالحديث عن الامكانيات ونقصها ولكننا يجب ان نذكرهم بأن الاعلام في لحظة معينة يجب ان يكون مصدرا للدخل وليس مصدرا للانفاق . وان الاعلام الحقيقي الناجح ليس في حاجة للانفاق الا خلال الفترة الاولى من فترات وجوده ولتكن في حدها الاقصى خمسة اعوام . بطبيعة الحال الاعلام هنا يختلف عن الدعاية لان هذه الاخيرة هي التي في حاجة الى انفاق مستمر . وهذه ناحية اخرى سوف نعود اليها فيما بعد . بقي السؤال الذي لم نجب عليه .

الواقع ان الحركة الاسرائيلية استطاعت ان تحقق اهدافا اربعة كلا منها يقدم عنصرا من عناصر النجاح الاعلامي خلال الفترة الماضية :

اولا : خلق رأي محلي مؤمن ومساند .
ثانيا : خلق طبقة مغامرة ومتماسكة عقيديا وحركيا : قادة الرأي
ثالثا : خلق قيادة واعية واثقة من ذاتها : صانعي القرار
رابعا : خلق بؤر للمصالح الخارجية في العالم الاوروبي والامريكي ترتبط بالحركة الاسرائيلية وجودا وعدما .

مما لاشك فيه ان هذه الابعاد تحددت باستراتيجية سياسية واضحة المعالم . ولكن يجب ان نسلم ايضا بأن الاعلام الاسرائيلي كان احد اسباب نجاح تلك الاستراتيجية . فكيف نقارن هذا الوضع بما هو عليه الوضع الحالي في جامعة الدول العربية؟ ورغم ان الارقام تنقصنا الا اننا نتساءل : هل انفقت اسرائيل على اعلامها الداخلي والخارجي اكثر مما تنفقه جامعة الدول العربية على ذلك الاعلام الفاشل الذي في بعض الاحيان كان وجوده اسوأ من عدم وجوده؟

سؤال الاجابة عليه ليست في حاجة الى ادلة .

.. على انا يجب ان نسلم بأن مهمة جامعة الدول العربية ليست بتلك السهولة التي نتصورها. والواقع ان مأساتها الحقيقية في انها . تفهم حقيقة الصعاب التي تواجهها لتستطيع ان تكتشف مسالك المواجهة لتكون اداة فعالة في قضية الصراع العربي الاسرائيلي.

ولا: فأول مايجب ان نلاحظه هو انه لم يحدث في تاريخ المنظمات الدولية حتى اليوم ان منظمة اقليمية كائنة ما كانت قامت بدعاية مرتبطة بحركة سياسية. جميع المنظمات الاقليمية تملك اجهزتها الاعلامية ولكن وظيفتها الاعلامية لم ترتفع الى مستوى الحركة سياسية. وذلك اذا استثنينا حركة الوحدة الاوربية والتي كان من بعد نظر المسئولين عنها ان عهدوا بمثل تلك المهام الى منظمات حرة جامعية وغير جامعية، مستقلة عن المنظمات الاقليمية وحيث اقتصرت وظيفة المنظمات الاقليمية على مساندتها ماليا و مشاركة في مجالس ادارتها.

ثانيا: اضف الى ذلك ان جامعة الدول العربية لم تفهم بعد ان العمل الاعلامي ليس مشكلة خطابات وتصاريح وانما هي دراسة جدة ومتخصصة. ولو تابعنا مديري ادارة الاعلام بجامعة الدول العربية بل ومديري مكاتبها الخارجية في الخارج لندر ان نجد منهم متخصصا واحدا في العمل الاعلامي. سوف نرى فيها بعد ان الاعلام الداخلي ليست له في البلاد العربية تقاليد سوى قاعدة واحدة مطلقة وهي ذات شقين: النظر الى المواطن العربي على انه غير جدير بالثقة، والنظر الى رجل الاعلام على انه اداة للتصفيق خلاد. وقد امتدت هذه المفاهيم الى ادارة الاعلام واجهزة الاعلام بالجامعة ويكفي لتأكيد هذه الحقيقة ان نتابع تلك التقارير الضخمة والمذكرات العديدة التي تملأ مجلدات في كل عام عن الاجهزة الاعلامية. لو ان الورق الذي خصص لهذه التقارير خصص لنشر بعض المؤلفات الجادة المعدة اعدادا علميا تبعا لاصول وقواعد العمل الاعلامي لكان هذا خير واجدى للقضية العربية.

ثالثا: على ان مسألة التخصص لاتقتصر على العاملين بالاجهزة الاعلامية بل تتعدى ذلك الى اولئك الذين قد حصلوا على رضاء تلك الاجهزة فأصبحوا يسيرون في فلك مراكز القوة في جامعة الدول العربية. ان مجرد الاطلاع على تقرير الامين العام المساعد عن زيارته لاوروبا الغربية لابد وان يدعو للتساؤ ل: هل حقا مثل هذا الجهاز ومثل هذا النقص الفكري وعدم القدرة على الارتفاع عن مستوى السطحية في المعلومات والنقص في التصور العام لطبيعة الصراع الذي يحيط بنا يستطيع ان يكون مسئولا عن اتخاذ قرار سياسي او اعلامي على مستوى جامعة الدول العربية؟

الواقع ان السطحية وعدم الجدية هو الذي يميز الاعلام العربي بجميع انواعه وجميع مستوياته. وهو يعكس حقيقة الاجهزة المسئولة لا فقط عن الاعلام العربي بل وعن الحركة العربية.

ولنذكر على سبيل المثال واقعة واحدة تكفي بهذا الخصوص. في خلال الاعوام الاخيرة بدأت تبرز في المسارح الدولية مايسمى بمشكلة الارهاب السياسي. ودون الدخول في التفاصيل العلمية المتعلقة بهذه الظاهرة فمن المعروف ان ظاهرة العنف السياسي ليست جديدة بل هي تمثل احد تقاليد الحركة الصهيونية. ولكن خلال الفترة الاخيرة بدأت تمثل احد مصادر القلق سواء بالنسبة للسياسة الامريكية، سواء بالنسبة للسياسة الاسرائيلية. فهي بالنسبة للسياسة الامريكية مصدر لخلق نوع من الاضطراب في المواصلات الدولية وبصفة خاصة في الخطوط الجوية التي تمثل بالنسبة لها قطاع خطير في الاقتصاد القومي. ويكفي ان نتذكر ان هذا القطاع يرتفع الى حوالي ١٠٪ من حجم التبادل المحلي والخارجي. بالنسبة لاسرائيل فاخطار ما يسمى بالارهاب الدولي واضحة سواء فيها يتعلق بالامن الداخلي او بحركة السياحة القادمة الى الارض المقدسة. وبلغ الاهتمام بهذه الناحية ان اضحت موضوعا لمؤتمرات دولية على قسط معين من الاهمية. ولم تقتصر هذه المؤتمرات على ان تكون مجرد اجتماعات شكلية بل ارتفعت في بعض الاحيان لتصير دراسات عميقة بفضل خلق وعي عام معين ضد الارهاب وضد استخدام العنف. حتى ان جدول اعمال الدورة السابعة والعشرين للجمعية العامة للامم المتحدة جعل البند(٣٢) يدور اساسا حول دراسة هذه الناحية. ولم يقتصر الامر على ذلك بل ان الجمعية الدولية للعلوم السياسية التي تعقد كل ثلاثة اعوام والتي يحضرها جميع المتخصصين بما في ذلك اغلب مستشاري وزارات الخارجية في العالم والمساهمين بطريق او بأخر في اعداد وجمع المعلومات وعلى وجه الخصوص تحليل تلك المعلومات التي تقدم لصانع القرار قررت جعل هذا الموضوع اي (الوظيفة السياسية للعنف) محور مناقشاتها في مؤتمرها السابع الذي عقد في اغسطس عام ١٩٧٣ بكندا وعهدت الى اثنين من علماء السياسية احدهما استاذ بالجامعة العبرية وثانيهما عالم بريطاني متعاطف مع القضية اليهودية باعداد الدراسات الخاصة بهذا الموضوع. فماذا فعلت جامعة الدول العربية؟ اخيرا تحركت في شهر يونيو عام ١٩٧٣ بأن دعت بعض اساتذة القانون في معهد الدراسات العربية لدراسة الموضوع. وخرجت عقب اسبوع من المناقشات بتقرير لايصلح لان يكتبه طالب لايزال في مرحلته الاولى من الاعداد والتخصص السياسي. بطبيعة الحال انفق على هذا عدة مئات من الجنيهات وتم توزيع الاسلاب. هل فكرت جامعة الدول العربية بأن تعهد لاحد المتخصصين بل ولفريق من المتخصصين على قسط من القدرة والكفاءة بأن يعدوا مواجهة فكرية حقيقية لذلك الاخطبوط الذي سوف يلقي بسمومه في المحافل الدولية؟

انظر الجمهورية القاهرية ١٩٧٢/٢/٥وقارن نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ملحق العدد الاول بتاريخ اول ابريل ١٩٧١

اولا: مما لاشك فيه ان كلا الاعلام الداخلي والخارجي هما تعبير عن وظيفة واحدة وهي عملية الاتصال. والاتصال هو احد مسالك الحركة السياسية. والحركة السياسية او بعبارة ادق نشاط الدولة ينطلق من مسالك ثلاث: العنف والخديعة والاتصال. وكلمة الاتصال تعني في اوسع معانيها بهذا الخصوص نقل المفاهيم بقصد الاقناع والاقتناع، هي عملية من جانبين اساسها خلق الترابط في الحركة ان لم يكن على الاقل المساندة[2].

ثانيا: رغم ذلك فان كلا منهما ينبع من اهداف مختلفة ويسعى الى تحقيق غايات تتنوع تبعا لما اذا كانت عملية الاتصال تتجه الى المواطن اي المجتمع الداخلي او الى القوى الخارجية اي الى المجتمع الدولي. في الحالة الاولى هي امتداد للوظيفة الايديولوجية للدولة: تأكيد او اعداد او متابعة لها. والوظيفة الايديولوجية يجب ان تفهم هنا بأوسع معانيها. انها درجة من درجات الولاء او الرفض التي يجب ان تغلف علاقة المواطن بالرمز للجماعة اي للدولة. ولهذا حيث يقوم مفهوم الدولة على فكرة نزع حقها في الوظيفة الايديولوجية لاموضع للحديث عن الاعلام الداخلي كأحد صور التعبير عن وظائف النظام السياسي[3]. الدعاية السياسية في المجتمع الامريكي على سبيل المثال لاتقوم بها الدولة وانما يتولاها الحزب مستقلا بل ومنفصلا عن الاداة الحكومية حتى عندما يكون الحزب في الحكم.

في الحالة الثانية الاعلام الخارجي يصير اداة مساندة لاتتجاوز القوى الخارجية في سبيل التسليم بمطالب معينة. بعبارة اخرى هو مقدمة لحركة سياسية اساسها الرغبة في الحصول على مصالح معينة ومن ثم تصير الوظيفة الاتصالية في تلك اللحظة اداة مساندة لتنفيذ السياسية الخارجية. وهكذا نجد الدعاية الخارجية ترتبط من جانب بالدولة بحيث لايمكن تصور هذه الوظيفة تقوم بها سوى الاداة الحكومية ومن جانب اخر لاتوجد دولة معاصرة تسعى لان تكون ذات فاعلية معينة في النطاق الدولي لاتجعل من الدعاية الخارجية اداة اساسية من ادوات تحركها الخارجي[4].

ثالثا: كذلك فان هذا التمييز لايقتصر على الابعاد الوظيفية بل انه يعود فيتأكد بالمراجعة التاريخية. فالاعلام الخارجي ليس بالجديد على عكس الاعلام الداخلي الذي لم يرتفع الى مرتبة الوظيفة الاتصالية الا فقط عقب ظهور الدولة الايدوليوجية.

الاعلام الخارجي عرفته المجتمعات السياسية منذ اقدم العصور ولكن مغلفا بستار العمل الدعائي، وبصفة خاصة فترات الحروب. ورغم انه قد يجد الباحث التاريخي بعض مظاهر الاتصال السياسي الداخلي في فترات قديمة او في خلال العصور الوسطى الا ان الواقع ان الاتصال السياسي الداخلي لم يرتفع الى مرتبة الوظيفة قبل ظهور الصحافة اليومية وانتشارها على مستوى معين. ويمكن القول بانه اجمالا قبل القرن السابع عشر لا موضع للحديث عن ظاهرة الاتصال الداخلي بمعنى الوظيفة الحكومية. على العكس من ذلك فاننا نستطيع ان نجد مظاهر الدعاية الخارجية وعناصر متعددة تؤكد اهمية الاتجاه اليها واعتبارها مقدمة للهجوم السياسي او العسكري في النطاق الخارجي ابتداء على الاقل من الحضارة الرومانية وبصفة خاصة خلال حروب قيصر المشهورة. على اننا هنا يجب ان نلاحظ ان الدعوة العقيدية لابد وان تتلون او على الاقل ان تتوسط كلا العمليتين: الدعاية الخارجية والاتصال الداخلي[5].

---

(٢) انظر FREUND, Qu'est - ce que la Politique, 1965, P. 109

(٣) قارن المصادر بصفة خاصة في QUALTER, Propaganda and psychological Warfare 1962, P. 135.

(٤) جوردان م. س ذ.، ص ٩٩.

(٥) حامد ربيع نظرية الدعاية الخارجية، م. س. ذ، ص ١٧ وما بعدها.

٤٦ ـ التمييز بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي في تقاليد منطقة الشرق الاوسط:

كذلك فان الاعلام الخارجي والاعلام الداخلي لايتوافقان تاريخيا بالنسبة لمشاكل منطقة الشرق الاوسط. فحتى الحرب العالمية الثانية لم يكن هناك اعلام داخلي حكومي وكانت هذه المنطقة يسيطر عليها مبدأ الحرية الاعلامية من حيث استقلال ادوات الاعلام عن التعامل الحكومي من حيث مضمون عملية الاتصال. فصفة عامة الدولة في تلك المنطقة، اي السلطات المحلية والقومية، لم تكن تؤمن بواجبها في الاتصال القومي وكانت تقتصر على عملية الرقابة على عملية الاتصال لمنع تدفق المعلومات او لضبطها عند منبعها. على العكس من ذلك عرفت المنطقة الاعلام الخارجي والصراع الاذاعي ولكن من جانب القوى الاجنبية بقصد التوغل ونشر النفوذ في المنطقة[٦].

بدأت عملية الاتصال بشكل واضح عندما قررت الحكومة الفاشية الايطالية انشاء محطة الاذاعة الموجهة في المنطقة في عام ١٩٣٠. ولكنها ورغم انها بدأت بسياسة استفزازية مستخدمة اللغة العربية اساسها لعملية الاتصال الاذاعي منذ عام ١٩٣٢ لم ترتفع الى مرتبة النجاح الحقيقي الا في عام ١٩٣٦ عندما عهد الى «تشانو» بأن يتولى وزارة الصحافة والدعاية الايطالية. وسرعان ما عرف العالم العربي تلك الحرب الاذاعية سواء من جانب جوبلز الذي انشأت وزارته في عام ١٩٣٣ واتجه منها الى هذه المنطقة لاول مرة في ابريل من ذلك العام او من القوى الغربية وقد قررت قبول التحدي ورفع راية المواجهة. رغم ان محطة الاذاعة البريطانية انشئت في عام ١٩٣٢ الا انها لم تقرر ان تجيب على عمليات الاستفزاز الايطالية والالمانية الا فقط في عام ١٩٣٧عندما بدأت ترسل موجاتها باللغة العربية. ومنذ تلك اللحظة غمرت المنطقة الحرب الاذاعية وكان لابد وان تدلي بدلوها الولايات المتحدة الامريكية في عام ١٩٤١ وسرعان ما اعقبتها القوى الاخرى. وهنا يجب ان نلاحظ ان الصراع على موجات الاثير لم يكن الا جانبا من خطة اكثر اتساعا تدور حول عملية الدعاية الخارجية[٧].

الجديد الذي نعاصره خلال فترة الثلاثين عاما الماضية نستطيع ان نحدده في ابعاد ثلاثة:

١ ـ ظهور نظم سياسية جديدة تؤمن بوظيفتها الاتصالية في الداخل وذلك منذ الثورة المصرية في عام ١٩٥٢ وبصفة خاصة في اعقاب التحولات النظامية والايديولوجية في مرفق الاعلام الداخلي منذ عام ١٩٦٠.

٢ ـ ظهور قوة اجنبية ولكنها ذات طابع محلي اخذت صورة الدولة المرتبطة هيكليا بالاقليم وهي اسرائيل واتجاهها لتأسيس حرب اعلامية متجهة الى المنطقة لتساندها في سياستها الاقليمية.

٣ ـ وضوح الارتباط في الحرب الدعائية المرتبطة بالمنطقة وذات المصادر الاجنبية بين عملية نشر النفوذ والدعوة الايديولوجية. فالصراع الايديولوجي بين المعسكر الاشتراكي والمعسكر الغربي انتقل في شكل حرب اعلامية واضحة ايضا الى المنطقة[٨].

وهكذا تداخلت ابعاد الاعلام الداخلي بالاعلام الخارجي وارتبط كل منهما والاخر: فالحرب الايديولوجية في الاعلام الدولي اضحت ذات امتدادات في الاعلام الداخلي نتيجة لطبيعة النظم المحلية وهل هي نظم تقدمية ام رجعية. والهجوم الاسرائيلي الاعلامي اضحى يتخذ من الاقليات العربية في داخل

---

(٦) لوندن م. س. ذ. ص ٣٦٣ وما بعدها قارن ايضا العدد رقم ١١٧ من حوليات الاكاديمية الامريكية للعلوم السياسية والاجتماعية عام ١٩٣٥، وانظر ايضا بخصوص صوت العرب، هولستي م س ذ ص ٢٧١ ومابعدها.

(٧) قارن مجلة Middle Eastern Affairs ١٣، ص ٩٨ وما بعدها.

(٨) قارن حامد ربيع التعاون العربي والسياسة البترولية، ١٩٧١، ص ٢٣٥ وما بعدها.

اسرائيل منطلقا للوصول الى المجتمعات العربية ومن ثم اضحى الاعلام الداخلي الاسرائيلي يمثل خلفية ثابتة للاعلام الخارجي المتجه للعالم العربي.

هذا الخلط ظل ولايزال حتى هذه اللحظة مسيطرا على المفاهيم العربية لتأصيل وظيفة الدولة الاتصالية وهو يمثل احد الاسباب الحقيقية والجوهرية التي ادت الى الاخفاق في مواجهة الدعاية الاسرائيلية.

وهذا ماسوف نعود الى تفصيله فيا بعد[٩].

٤٧ ـ كيف يمكن التفرقة بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي؟

هناك في الواقع عوامل عديدة تفرض ضرورة هذا التمييز المطلق بين الاعلام الداخلي اي الاعلام المتجه من الدولة او الاحزاب الى المواطن المقيم على الاقليم القومي والاعلام الخارجي اي الذي يعبر الحدود ليصل الى الفرد مواطنا كان او غير مواطن والمقيم في خارج الاقليم القومي الصادر منه الاعلان، اي بعبارة اخرى الاعلام الذي ينطلق في المجتمع الدولي[١٠].

ويتضح من هذا التعريف ان هناك حدودا فاصلة بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي: هل اعد ليستقبله جمهور قومي ام جمهور غير قومي؟ الاول هو الذي اعد ليتجه الى المجتمع القومي اما الثاني فهو الذي اعد ليعبر الحدود القومية.

ورغم ان هذه التفرقة تبدو واضحة في بعض الاحيان الا انه في كثير من الاحيان تختلط وتدق:

أ ـ هل الاعلام المتجه للاجنبي المقيم في الدولة يوصف بأنه اعلام داخلي ام اعلام خارجي؟ لاول وهلة قد يبدو هذا النوع من انواع الاعلام محدود الاهمية كذلك فهو يختلط بالسياسة السياحية اذ انه يمثل صورة من صور الدعاية لمساندة السياسة الخارجية. ولكن الاعلام الداخلي المتجه الى الاجنبي يحتل اهمية خاصة في المجتمع الاسرائيلي حيث ينظر الى العربي وبصفة خاصة في المناطق المحتلة عقب عام ١٩٦٧ على انه لاينتمي الى المجتمع القومي الاسرائيلي. كذلك تزداد اهمية هذا النوع من انواع الاعلام بالنسبة لتلك الطائفة من اليهود الاجانب الذين تستقبلهم الدولة الاسرائيلية خلال فترة معينة على سبيل الاختبار قبل الاندماج الكلي والحقيقي في المجتمع القومي المحلي بما في ذلك اكتساب الجنسية العبرية[١١].

ب ـ كذلك تثور المشكلة بالنسبة للاعلام الذي يجب ان يتجه الى المواطنين المقيمين في الخارج وبصفة خاصة المهاجرين المنتشرين خارج المجتمع القومي. بطبيعة الحال هؤلاء عقب الجيل الاول يصيبهم في اغلب الاحيان نوع كامل من الاندماج كنتيجة طبيعية لاكتساب الجنسية المحلية والتوطن المستقر. ولكن بالنسبة للجيل الاول الذي قد يظل محتفظا في بعض الاحيان بجنسيته الاصلية، وبغض النظر عن طبيعة ذلك الاحتفاظ حيث روابطه العاطفية لايمكن ان تنفصل، هل يجب ان تتجه اليه الدولة بالاتصال ام لا؟ وتبرز هذه المشكلة واضحة بالنسبة للمجتمع العربي وكذلك بالنسبة للدولة الاسرائيلية مع خلاف في ابعاد كل منهما. فالدولة الاسرائيلية تريد ان تعيد هؤلاء اليهود الى حظيرة الوطن القومي العبري[١١]. اما المجتمع العربي فان اهتمامه اساسا يجب ان يدور حول كيفية الاستفادة منهم في خلق موجة من موجات التعاطف مع القضية العبرية في الاسرة الدولية. بغض النظر عن هذه الناحية هل نصف مثل هذا الاعلام او مثل هذا الاتصال بأنه اتصال خارجي؟ هو داخلي لانه يتجه الى بعض امتدادات المجتمع القومي وهو خارجي لانه

---

(١٠) قارن ملاحظات:

SERVN - SCHR EL LBBR, le Pouvoir d'infomer. 1972 p. 107.

(١١) انظر حامد ربيع، فلسفة الدعاية الاسرائيلية، م س ذ ص ١٥ وما بعدها.

يعبر الحدود القومية. اسئلة قد تبدو محدودة الاهمية من الناحية العملية، ولكن هذا غير صحيح كما سوف نرى فيما بعد؛ التفرقة بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي ليست تفرقة شكلية وانما هي تنبع اساسا من طبيعة ومنطق كل منهما(١٢).

٤٨ ـ ابعاد التفرقة والتمييز بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي ونتائجها:

عوامل معينة تدعو لضرورة التفرقة الواضحة والكلية بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي. لانستطيع ان نتناول جميع هذه النواحي بالتفصيل في هذه الدراسة ولكن يعنينا ان نؤكد على نواحي اربعة جديرة بأن تثير اهتمامنا على وجه الخصوص: طبيعة كل من هاتين الصورتين من صور الاعلام، طبيعة عملية الاتصال التي يفرضها كل من هذين التطبيقين من التطبيقات الاعلامية، ظاهرة الرقابة وابعادها ثم اخيرا مستويات التعامل النفسي والتفرقة بينها تبعا لكل من هذين الميدانين من ميادين النشاط الحكومي.

٤٩ ـ الوظيفة الاتصالية وابعادها في النطاق القومي:

اول نواحي التمييز تنبع من طبيعة الاعلام وبالتالي من وظيفته. فالاعلام الداخلي هو امتداد لوظيفة الدولة الاتصالية يقوم كما سبق ورأينا على اساس واجب الدولة في ان تمكن المواطن على ان يحصل على حد ادنى من المعرفة بخلفيات نشاطها السياسي بحيث تسمح له بالمشاركة الحقيقية والفعلية في كل ما يتصل

---

(١٢) المأساة اكبر من ان نلخصها سطور. رغم ذلك فلنكتفي بان الوضع القائم في حقيقة ودون مبالغة او اية اضافات فلو نظرنا الى جامعة الدول العربية في علاقتها بعرب الارض المحتلة لأستطعنا ان نلخصها في كلمتين: اخفاق كامل ازاء العرب الذين وجدوا في اسرائيل ابتداء من عام ١٩٤٨ ثم تخبط اكثر مدعاة للتعبير عن الاخفاق ازاء العرب الذين دخلوا الاستعمار الاسرائيلي عقب عام ١٩٦٧. ماذا فعلت الجامعة خلال خمسة وعشرين عاما؟ او نوازن ذلك بذلك الذي استطاعت اسرائيل ان تحققه في نفس الفترة اذ نجد انها نجحت لا فقط في ربط جميع اليهود خارج اسرائيل بالمجتمع والأمل العبري المتمركز في الدولة الجديدة بل واكثر من ذلك استطاعت ان تحقق هدفين كل منها جدير بالتساؤل: فهي من جانب ربطت جميع اليهود حتى في الدول الديكتاتورية والدول ذات النظم الشمولية والايديولوجية بدعوتها السياسية.

يكفي ان نتذكر بصفة خاصة ما حدث في روسيا وبصفة عامة في اوروبا الشيوعية. على انها من جانب اخر جعلت كل يهودي حتى ولو لم يكن صهيونيا يرى في النصر الاسرائيلي والدفاع عن الوجود الاسرائيلي احد عناصر التعبير عن الذات الفردية وعن التكامل اليهودي في نطاق الوجود الانساني. انظر على سبيل المثال المقال الوارد في جريدة الجيروزاليم بوست الاسبوعية بتاريخ ١٩٦٧/٧/٧، ص ٦.

(١٣) مشكلة اخرى في حاجة الى دراسة على حدة وهي المتعلقة باستغلال العناصر العربية المقيمة في الخارج. ولنتذكر على سبيل المثال ان مجموع العرب المقيمين في المجتمع الامريكي يصل الى حوالي مليون نسمة فماذا فعلت اجهزة الاعلام العربي بخصوص هذه القوة واستخدامها كاداة اتصال مع المجتمع الامريكي؟ ان القاعدة العامة التي تسيطر اعلاميا على العلاقة بين المجتمع الام والمهاجر في المهجر اساسها انه يجب ان ينظر الى هذا المواطن على انه بمثابة جهاز ارسال واستقبال في ان واحد. هذه العملية مع ما تفرضه من تحليل ودراسة عميقة للابعاد النفسية المتصلة بعلاقة الولاء التي لابد وان تتصارع مع علاقة الانتماء لا يمكن ان نتناولها بما درجت عليه الاجهزة المختصة من سطحية وبساطة. ان المواطن المهاجر هو بطبيعته عرضة للتمزق وعملية استغلال المشاعر والاحاسيس او التطورات النفسية التي يخضع لها المهاجر في المهجر لابد وان يسبقها اعداد علمي ودراسة ميدانية بقصد التخطيط لخلق مسالك تسمح بتأكيد عملية الانتماء او ما يسمى Process of belonging

انظر الدراسة التي قدمناها لمؤتمر القادة الاداريين المنعقد في القاهرة في ابريل ١٩٧٣.

وقارن على وجه الخصوص. TAFT, ROBBLINS, International migrations, 1955, p. 109.

بمصير المجتمع السياسي. وهكذا يثور بخصوص الاعلام الداخلي مايسمى بحق الاعلام: اي حق المواطن في المعرفة بقسط معين من المعلومات المرتبطة بالقرار السياسي سواء كان ذلك قبل اتخاذه ام عقب اتخاذه وتبعا لخصائص هيكل النظام السياسي[13].

الاعلام الخارجي على العكس من ذلك هو مقدمة لحركة سياسية اي كما سبق ورأينا هو اداة مكملة لعملية تنفيذ السياسة الخارجية واذا شئنا ان نبسط هذا الفارق من حيث الطبيعة والجوهر فان الدولة عندما تقوم بالاعلام الداخلي انما تريد من المواطن ان يعرف وهي لذلك تخبره بالحقيقة ومن واجبها الا تخفي عنه الحقيقة او على الاقل تموه تلك الحقيقة. هذا المفهوم يفسر لماذا الدول الديمقراطية تجعل هذه الوظيفة اساسا امتدادا للنشاط الحزبي: الحزب هو الذي يخبر المواطن والصراع الحزبي وحده هو الذي يسمح باكراه جميع الاطراف المعنية على الا تقول سوى الحقيقة[14]. اما في الاعلام الخارجي فالقصد من الاعلام هو خلق موجة من الرأي العام المحلي الاجنبي بحيث يدفع ويساند بقوى معينة او يضعف ويفتت من قوى معينة الامر الذي لابد وان يؤدي الى عملية توفيق حركية بالنسبة للدولة مصدر الدعاية في عملية المفاوضة والمساومة الدبلوماسية. دعاية خارجية من جانب اسرائيل في فرنسا بقصد تفتيت القوى المساندة للحكومة ودفع القوى اليسارية الى موقف المعارضة العنيفة لابد وان يضعف الدبلوماسية الفرنسية في مواجهة الدبلوماسية الاسرائيلية. وهو لابد في الامد البعيد لو قدر للقوى اليسارية الفرنسية ان تصل الى الحكم ان يخلق موجة مساندة للسياسة الخارجية الاسرائيلية من واقع القوى الاجتماعية الذاتية للمجتمع الفرنسي.

كل هذا يفسر لماذا بصير من العبث الحديث عن الحق في الاعلام بالنسبة للمواطن الاجنبي وهو امر سبق ورأيناه يمثل احد الاركان الاساسية في تنظيم العلاقة السياسية بين المواطن والدولة في المجتمع المعاصر[15].

٥٠ ـ ظاهرة الاتصال الدولي وتطوراتها المعاصرة:

لنستطيع ان نفهم هذه الحقيقة علينا ان نعود قليلا لتحليل طبيعة عملية الاتصال الدولي وكيف اصابها نوع من التطور الضخم الذي كان لابد وان يعكس نتائجه على العملية الاعلامية.

فعملية الاتصال قديما كانت تأخذ صورة اتصال مباشر او بعبارة ادق التقاء بين الدبلوماسية الوطنية والدبلوماسية الاجنبية. اليوم اضحى الاتصال على العكس من ذلك متعدد الابعاد او بعبارة اكثر دقة فان قنواته تنوعت ومن ثم فكان لابد وان تتعدد نماذجه حتى ان احد العلماء الذين حللوا هذه الظاهرة تحليلا رياضيا استطاع ان يميز بين اربعة وعشرين نموذجا من نماذج الاتصال الدولي[16]. ولكن يكفينا للتدليل على طبيعة هذا التعبير العميق ان نقدم فقط نماذج ثلاث:

أ ـ النموذج الاول: حيث تخاطب الدولة مباشرة المجتمع السياسي الذي ينتمي الى المجتمع الاخر بحيث تستطيع ان تحمله على ان يضغط او ان يكون قوة ضاغطة على الطبقة الحاكمة في ذلك المجتمع الاخر. هنا الاتصال يأخذ بشكل خاص صورة الاعلام الدعائي. هذا النموذج سبق ورأيناه بالنسبة لاسرائيل في عملية

---

(١٣) انظر التفاصيل في : Chapuis, L'information, 1959, 131.

(١٥) انظر رغم ذلك الفلسفة الكاثوليكية ونظرتها للموضوع في HAUBTMANN, Dynamique chretienne de la communication moderne, 1966, p 56.

(١٤) كوالنز، م س ذ ص ١٣٧ وما بعدها

(١٦) التفاصيل في: WEDE, International Propaganda and Statecrft, in the annals, cit. 1971. 398. p 37.

اتصالها بالمجتمع الفرنسي من خلال قنوات الاحزاب اليسارية وبصفة خاصة الاشتراكية لكنها تزداد تفضحها في المجتمع الايطالي. فجولدا مائير عندما تركت تفاصيل مقابلتها للبابا في شكل تسرب مدروس تنتشر من خلال الاعلام الايطالي انما ارادت بذلك ان تخلق تعاطفا معينا مع تلك القوى التي سبق وابرزت استياءها الواضح من الكنيسة بخصوص موقفها من قانون الطلاق الايطالي. يساعد على تأكيد هذا النموذج وامكانياته ما سبق ورأيناه من تقاليد معاصرة تدور حول السماح للممثل الاعلامي بمخاطبة والاتصال بجميع طبقات الرأي العام بما في ذلك الرأي العام المعارض والذي لايمارس السلطة. ويبدو هذا واضحا في تقاليد الدبلوماسية الاسرائيلية التي لم تتردد سواء في بريطانيا العظمى او في الولايات المتحدة، في ان تخلق ادوات اتصالها مع كلا الحزبين الحاكم من جانب والحزب الذي يتخذ موقف المعارضة من جانب اخر. هذا التقليد يعود الى التخطيط الذي وضعه سيلفر عندما عهد اليه برئاسة مجلس الطوارىء الصهيوني عقب الحرب العالمية الثانية(17).

ب ـ النموذج الثاني هو حيث يتم الاتصال بين الطبقة الحاكمة وطبقة محكومة في مجتمع اخر ليعقبه اتصال اخر بين الطبقة الحاكمة التي قامت بذلك الاتصال مع الطبقة الحاكمة في المجتمع الذي توجهت اليه الطبقة الحاكمة في عملية الاتصال الاولى.

ويبرز هذا النموذج واضحا في عملية التبادل الثقافي في المجتمعات التي تأخذ فيها الجامعات صورة الامتداد الحكومي للنشاط التعليمي. فلتصور ان جامعة معينة في حاجة الى عدد معين من الاساتذة فهي تتصل بالجهاز المسئول عن السياسة الخارجية في الدولة التي تنتمي اليها تلك الجامعة وعقب ان يتم الاتصال بين الاداة الحكومية وتلك الجامعة فان الجامعة المذكورة تخاطب مباشرة المجتمعات التي تعتقد بامكانية توفر اولئك الاساتذة من بين عناصرها المتخصصة(18). وفي اغلب الاحيان تلجأ الى الاعلان او ما في حكمة وعندئذ يتقدم من يشعر بأنه تتوفر فيه الصفات المطلوبة الى تلك الجامعة اي يحدث الخطاب مباشرة الى الطبقة المحكومة الاجنبية.

الجامعة ذات الشأن ـ اي تلك الجامعة التي في حاجة الى اولئك المرشحين ـ وعقب ان يتم الاختيار او الترشيح لابد وان تحصل على موافقة اجهزة الدولة التي ينتمي اليها اولئك العلماء وخصوصا لو كانوا يحتلون وظائف جامعية مماثلة. هذا التبادل الثقافي بهذا المعنى لايأخذ صورة اتصال بين اداة حكومية واداة حكومية اخرى وانما بين اداة حكومية والمجتمع السياسي المحكوم الاجنبي مباشرة مع ضرورة اكمال هذا الاتصال بعملية رقابة تفرض صورة اخرى من صور الاتصال بين مختلف اجهزة الاداة الحكومية التي تتولى الاتصال المباشر مع الاداة الحكومية الاجنبية(19).

جـ ـ النموذج الثالث ويأخذ صورة الاتصال المباشر بين الطبقات المحكومة بعضها ببعض مباشرةودون تدخل القوى الحاكمة في اي منها. وهنا الاتصال يتم على مستوى شعبي ولكنه في بعض الاحيان يأخذ صورة الاتصال المنظم من خلال الاجهزة والمؤسسات الخاصة. فالاتصالات البريدية نموذج واضح تعرفه جميع المجتمعات المعاصرة على نطاق واسع وهو لايقتصر على مجرد الفضول المعتاد بل قد يصل الى حد تنظيم علاقات ثابتة ويكفي ان نتذكر ان هناك منظمات تقوم اليوم بتنظيم عملية التعليم والتثقيف عبر الحدود بل وبخلق مناسبات الزواج من خلال الاتصال البريدي.

---

(17) هولستي، م س. ذ، ص 249

(18) فيلدج م س ذ، ص 42

(19) قارن على وجه الخصوص من حيث العمل الدعائي

BROWN, Techniques of persuasion 1963, p. 194, NIERNBER G, l'art de persuader, 1970, p. 137.

ولكنه قد يأخذ صورة منظمات ذات كيان سياسي دون ان ترقى لان تأخذ الصورة الحكومية. المنظمات العلمية والجمعيات الثقافية ليست النموذج الوحيد وقد بدأ العالم يعرف في الفترة الاخيرة مايسمى بالمنظمات الدولية غير الحكومية ذات الوزن الخطير في عملية الاتصال الدولي وتوجيه الرأي العام ولنذكر على سبيل المثال المنظمات النسائية والجمعية الدولية للعلوم السياسية. هذه الاخيرة التي تجتمع كل ثلاثة اعوام يصل المشتركون فيها الى اكثر من الفي عالم ومتخصص تضم اغلب خبراء ومستشاري صانعي القرارات السياسية في العالم[٢٠]. ويكاد يكون تحليل التقارير التي تقدم اليها والمناقشات التي تجري في اروقة اجتماعاتها مرآة تعكس جميع التوقعات المقبلة.

٥١ ـ العلاقة بين المرسل والمستقبل وابعادها في عملية الاتصال الدولي:

الناحية الاخرى التي تميز الاعلام الداخلي وتجعله يختلف اختلافا هيكليا عن الاعلام الخارجي هو انه يرفض بطبيعته الانفصال التام او ما في حكم الانفصال المطلق بين المرسل والمستقبل. عملية الاتصال كما هو معلوم هي نقل رسالة من شخص الى اخر من خلال رموز معينة. القاعدة المتداولة هي ان الرسالة بمجرد استقلالها عن شخص المرسل تصير ذات كيان هيكلي ولكنها لاتستقل وظيفيا بمعنى ان الرسالة لاتؤدي الغاية المرجوة منها الا عقب استقبالها والتعبير عن عملية الاستقبال برد فعل يعكس المقصود بتلك الرسالة. هذه العملية في النطاق الداخلي واضحة ومفهومة.

ورغم انه قد يبدو ان الاعلام الجماهيري لم يعد يسمح بذلك الارتباط حيث يوجد انفصال بين المرسل والمستقبل الا ان وحدة التواجد في المكان او في الاقليم تسمح بقياس رد الفعل بحيث انه في حالة الخطأ يمكن ان تصحح الرسالة اي عندما يكتشف مرسل الرسالة انها لم تحقق الهدف المقصود منها يسرع برسالة جديدة توضح الاولى وتحدد دلالتها. يتم ذلك من خلال خطابات القراء او الاتصال التليفوني او الابحاث الميدانية حيث نستطيع في الاعلام الداخلي ان نصل الى معرفة رد الفعل الحقيقي لاي رسالة اتصالية. تقديم رسالة لاحقة تعدل من المفهوم او تحدد من الدلالة تصير عملية سهلة ومتقبلة. يساعد على ذلك التناسق الطبيعي في المنطق بين المرسل والمستقبل حيث ان كلاهما ينتمي الى طابع قومي واحد.

ولكن لو انتقلنا الى الاعلام الخارجي فان هذه العملية لاتصير فقط شاقة ومرهقة بل تصير كذلك مستحيلة في اغلب الاحيان. ذلك ان الرسالة بمجرد وصولها تستقل عن شخص مرسلها استقلالا كاملا لا فقط من حيث عملية الاتصال بل ومن حيث مكان الاستقبال. انها تنطلق كصاروخ فكري يعبر الحدود ويتعين عليه ان يسير بقوة اندفاعه الذاتية. ومن ثم لايستطيع المرسل ان يقوم بعملية التصحيح وهو ان استطاع ذلك فلا يمكن ان يتم الا عقب فترة يكون اثر الرسالة خلالها قد تحدد بشكل نهائي فضلا عما تفرضه من نفقات باهظة. هذا الى ان بعد الفترة الزمنية بين لحظة ارسال الاولى والرسالة الثانية للتصحيح لابد وان يؤدي الى ابراز التناقض ومن ثم الى خلق عدم الثقة في مصدر الرسالة. يزيد من تضخيم هذه العملية ان الاعلام الخارجي بحكم تعريفه يفترض صراعا فكريا بين طابعين قوميين مختلفين.

كل هذا يؤدي الى نتائج معينة خطيرة: فالاعلام الخارجي يفترض الحذر والكياسة وعدم المبالغة وبعد

---

(٢٠) انظر ايضا وبصفة عامة: CHARLOT. la persuasion politique. 1970. 24

(٢١) انظر التفاصيل في حامد ربيع، الرأي العام والاعلام محاضرات كلية الاقتصاد ١٩٧١، ص ١٢٣ ومابعدها.

ـسطر والقدرة على التنبؤ مع الحساسية المطلقة وسعة المعلومات والصلاحية لفهم الطابع القومي الاجنبي مع مكانية اجراء عملية توفيق بين المفاهيم الحضارية[٢٢].

٥٢ ـ عملية التجانس الذاتي في الرسالة الاعلامية:

كذلك فان الاعلام الداخلي بفضل نظام الرقابة يستطيع ان يحقق نوعا من التجانس الذاتي لا فقط في عنصر الرسالة بل وكذلك من حيث نوع الاعلام مسموع او مكتوب او مرئي، تجانس لايمكن ان يتحقق بالنسبة للاعلام الخارجي. هذه الحقيقة واضحة في المجتمعات الشمولية التي تقيم نظاما صريحا للرقابة تتولى متابعة الوقائع عند المصدر ومن ثم تستطيع ان تمنع التناقض الداخلي في الاعلام المحلي. ولكن المجتمعات الديمقراطية ايضا تعرف صورة اخرى من صور الرقابة تسمى الرقابة الاختيارية تسمح في بعض الاحيان تحقق درجة معينة من درجات ذلك التناسق[٢٣].

ولكن بالنسبة للاعلام الخارجي فكيف يتم تحقيق ذلك التجانس؟

لنفهم الاجابة على هذا السؤال علينا ان نميز بين الاعلام الخارجي وهو يتجه الى الخارج والاعلام الخارجي المتجه الى الداخل او بعبارة اخرى الاعلام الخارجي المصدر والاعلام الخارجي الوارد. فبالنسبة للاعلام الخارجي المصدر اي الصادر من دولة الى مجتمع اخر قد تستطيع الدولة صاحبة هذا الشأن ان تفرض رقابة عند المنبع على اعلامها ولكن مثل هذه الرقابة ليست ذات فاعلية. ذلك ان المجتمع الاجنبي الذي تتجه اليه باعلامها يستطيع ان يستقبل اي اعلام اخر بل وفي اغلب الاحيان لابد وان يستقبل اكثر من اعلام واحد اخر. ومن ثم ازاء هذا التباين في مصادر الاعلام تصير الرقابة من جانب الدولة لاقيمة لها ان لم تتضمن نوعا من القدرة الذاتية على اعداد الاعلام بحيث الرسالة الاعلامية تملك قوة دفعها الذاتي في صراعها مع الاعلام الاخر ازاء المستقبل الاجنبي. بعبارة اخرى حيث ان الدولة في تلك الحالة لاتستطيع ان تضبط مصادر الاعلام التي سوف يتعرض لها المستقبل الاجنبي لانها تخرج عن سلطتها فان الرسالة الاعلامية يجب ان تملك الصفات الذاتية التي تسمح لها بالغزو الذاتي والتلقائي دون المساندة الحكومية[٢٤].

النموذج الاخر وهو الاعلام الخارجي المستورد اي الاعلام الخارجي الذي يخضع له المواطن المحلي: هنا تصير عملية الرقابة اكثر فعالية ولكنها دائما محدودة.

فاختلاف اللغة ودقة وصرامة النظم الجمركية تسمح باقامة حواجز بين المجتمع القومي والدعاية الخارجية. ولكن هذه الحقيقة يجب ان نتقبلها بنسبية معينة. فالمجتمع المعاصر يتجه لأن يكون عالميا والعلم باللغات الاجنبية اضحى متيسرا. اضف الى هذا ان الاتصال الاذاعي بما فرض من امكانيات الغى عامل المكان وجعل المجتمع المعاصر مجتمعا يرفض الحدود الجمركية على الاقل فيما يتعلق بالنواحي الاعلامية.

هذا التطور سوف يزداد تأكيدا في الاعوام المقبلة بصفة خاصة بفضل الاقمار الصناعية وانتشار التلفزيون عقب غزو اجهزة الترانزستور[٢٥]. ونتيجة ذلك فان الاعلام الداخلي في مواجهة الاعلام الخارجي المستورد

---

(٢٢) قارن من بين الخبرات المعاصرة تلك الصينية على وجه الخصوص في:
FREDERICK, Mass persuasion in Communist China, 1964, p 25. MARKHAM, Voices of the red giants, 1967, p 255.

(٢٣) حامد ربيع، نظرية الدعاية الخارجية، م. س. ذ. ، ص ٧١ وما بعدها.

(٢٤) نظرية الرقابة يستطيع ان يجد القارىء تفصيلا وتأصيلا لها في: PHELAN, Communicatons Control, 1969, p. 171.

(٢٥) حامد ربيع ، احاث في نظرية الاتصال، م. س. ذ، ص ١١٥ وما بعدها.

لابد وان يعدل من منطقه وان يغير من استراتيجيته حتى عند وجود نظام الرقابة. الكذب وتشويه الحقيقة اضحى اسلوبا مرفوضا لم يعد يؤدي الا الى اسوأ النتائج.

وقد ترتبت على هذه الحقيقة نتائج معينة:

أ ـ النتيجة الاولى ان الاعلام الخارجي في حاجة الى التخطيط على عكس الاعلام الداخلي الذي يمكن ان نتصوره دون تخطيط. بطبيعة الحال الاعلام في حاجة دائما الى تخطيط بمعنى تنظيم لعملية الاتصال ولكن عندما يصير الاعلام خارجيا فان هذا التنظيم يرتفع الى مضمون مدلول تفسير الرسالة الاعلامية[٢٦]. لقد وصل الامر في بعض الاحيان بجوبلز انطلاقا من هذا المفهوم الى ان يبكر باعلان الحقيقة قبل وقوعها او تكاملها وذلك مرده تصور معين لتخطيط علاقته بقوى الرأي العام الخارجي. والنموذج المشهور سقوط كييف امام القوى الروسية، فمن المعروف ان جوبلز اعلن ذلك السقوط للمجتمع العالمي قبل وقوعه كاملا بل وقبل ان تعلنه اجهزة الاعلام المتحالفة واليوم يعتبر علماء الدعاية هذا التصرف من جانب جوبلز يقدم دلالة واضحة على بعد نظر ادراكه في ضرورة خلق الثقة ولو من خلال المبالغة في الصدق[٢٧].
ب ـ النتيجة الثانية وهي ان الاعلام الخارجي لاتستطيع الدولة حتى في الدول ذات التقاليد الديموقراطية الثابتة ان تتركه للافراد، الدول العريقة في مبدأ الحرية الاعلامية تقف ازاء الاعلام الخارجي موقفا مختلفا حيث ترفض الدولة ان تترك الاعلام يعتمد على جهود الجمهور الخاصة وتقصره على الاجهزة الحكومية او ما في حكمها. النموذج الواضح لذلك هو بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الامريكية حيث ترفض ان يتولى الاعلام الخارجي اي نشاط خاص وبحيث تخضع هذا الاعلام لعملية تنظيم حكومية كاملة. وهي اذا سمحت في بعض الاحيان لبعض المنظمات الخاصة او ما في حكمها ان تقوم ببعض المهام الاعلامية فذلك دائما في نطاق التخطيط الحكومي وتحت رقابة اجهزة الدولة[٢٨].

٥٣ ـ التمييز بين مستويات التعامل النفسي وموضعه في عملية الاتصال الدولي:

الناحية الرابعة والاخيرة تدور حول مستويات التعامل النفسي. فمن بين تقاليد النظرية الاتصالية ضرورة التمييز في نطاق التعامل النفسي بين مستويات متعددة تبعا للهدف من التعامل من جانب والمجمهور الذي نتجه اليه بالخطاب من جانب اخر. هذه العملية تفرضها نظرية الاتصال في الاعلام الداخلي ولكن ابعادها في الاعلام الخارجي موضع مناقشة.

في النطاق الداخلي علينا ان نميز بشكل واضح بين الدعاية والدعوة والاعلام وعملية غسيل المخ. الدعوة يقصد بها الخطاب المتجه الى المؤمن او من في حكمه بقصد خلق او تعميق علاقة الولاء. الدعوة تتجه الى الانصار والتابعين وليست لمجرد خلق علاقة الصداقة او المؤازرة.

---

(٢٦) قارن بالنسبة للسياسة الاعلامية الاميريكية:
JULIEN. L'empire american. 1968. p. 279.

(٢٧) من خير الدراسات التي رغم ايجازها تقدم لنا تصورا كاملا للسياسة الدعائية النازية تجدها في:
KAT. Public opinion and propaganda. 1954. 508.

(٢٨) لندن، م. س. ذ. ص ٢٧٥ وما بعدها.

الدعاية هي اساسا عملية التلاعب بالعواطف بقصد الوصول الى خلق حالة من حالات التوتر الفكري والشحن العاطفي الذي لابد وان يؤدي الى تشويه التتابع المنطقي[29]. غسيل المخ هو نوع من التعامل النفسي مع الذات الفردية حيث نتوجه الى مواطن معين تحدد من حيث مقوماته وخصائصه بقصد التلاعب بشخصيته واعادة تشكيل مفاهيمه النفسية. الاعلام في معناه الضيق يعني الاخبار او نقل الحقيقة دون تضخيم او تشويه.

لو انتقلنا الى الاعلام الخارجي فان هذه المفاهيم الثلاث تختلط الواحد منها بالاخر وتتشابك بحيث يكاد يكون من المستحيل الفصل بينها: كل اعلام خارجي يتضمن دعاية، والدعاية الخارجية تغلف في اغلب الاحيان بالطابع الاعلامي. كذلك فان الدعوة تصير وقد اضحى لا موضع لها. ان الدعوة بمعنى الخطاب السياسي الى المؤمن يصعب ان نتصوره عبر الحدود الا بالنسبة لاستثناءات محدودة كما هو فيما يتعلق بالحزب الشيوعي وقادته. يظل مفهوم غسيل المخ مستقل في معناه واضح في ابعاده. ولكن الاعلام الخارجي يضيف الى ذلك مفهوما اخر وهو الحرب النفسية، اي تلك العملية التي تتجه الى الخصم بقصد تحطيم القوى المعنوية. الاعلام الخارجي خلال السنوات الأخيرة وسع من مفهوم الحرب النفسية فأضاف صورة جديدة تسمى بالحرب الاعلامية. ويقصد بذلك التعارض بين التقارير والبيانات الرسمية المرتبطة بالوقائع ومدلولات تلك الوقائع[30]. فاعلان ان ضحايا معركة معينة لايتجاوز عدد معين ثم الرد عليه بما يثبت ان العدد يتجاوز ذلك او يقل عنه بمسافة كبيرة هو بمثابة حرب نفسية بين طرفين كل منهما يسعى الى خلق عدم الثقة في المصدر الاعلامي الذي نبعت منه تلك البيانات. الاعلام الخارجي بعبارة اخرى لايفرض التمييز بين المفاهيم، ومرد ذلك الى انه لاتحكمه اي اعتبارات او نوازع اخلاقية. وهكذا تصير الدعاية اداة من ادوات الحرب النفسية، ويصير اسلوب غسيل المخ تقليدا متداولاً تكاد تلجأ اليه جميع الحكومات. العكس من ذلك في الاعلام الداخلي فان الدولة او الحزب انما تتجه الى ابنائها ومؤيديها. من الطبيعي في تلك اللحظة ان عملية التعاون مع المستقبل يجب ان تخضع قواعد هذا التعامل لقيم معينة تحكم السلوك وتتحكم في صياغة اساليب تحقيق عملية الاتصال[31].

٥٤ ـ العمل الاعلامي الدولي وقواعد ممارسته:

هذه الطبيعية الخاصة للاعلام الخارجي التي تميزه تميزا واضحا عن الاعلام الداخلي كان ولابد وان تفرض نتائج معينة في فن العمل الاعلامي. وهي نتائج بعيدة المدى تتحكم في نجاح الاعلام الخارجي او اخفاقه.

يعنينا من هذه النتائج على وجه الخصوص ما يأتي:

اولا: ضرورة التخطيط العلمي المنظم للاعلام الخارجي.

ثانيا: ضرورة تلوين الاعلام الخارجي بالعمل والاسلوب الدبلوماسي.

ثالثا: كذلك فان الاعلام الخارجي يجب ان ينبع من لغة المصالح وان يتجرد او على الاقل ان يبتعد عن لغة العواطف والانفعالات[32].

هذه النتائج في حاجة الى شيء ولو قليل من التفصيل.

---

(٢٩) تأصيل التفرقة يجدها القارىء في حامد ربيع، ابحاث في نظرية الاتصال، م. س. ذ، ص ٨٣ وما بعدها

(٣٠) MINOR, The information war, 1970 p 91

(٣١) حامد ربيع، مقدمة العلوم السلوكية، ١٩٧٣، ص ٣١٢.

(٣٢) قارن في معنى اكثر اتساعا النموذج الصيني RICHER, Cina e terzo mondo vol II, 1972. - P. 86.

٥٥ ـ التخطيط واهميته في الاعلام الخارجي:

النتيجة الاولى تلك المتعلقة بعملية التخطيط. والتخطيط في معناه العام يعني التحكم في الحركة مع ما يفرضه ذلك من تصور مسبق للموقف وتنقلاته المتتابعة من مرحلة الى اخرى مع تحديد لادوات التحكم في ذلك التنقل على ضوء الاهداف التي نسعى الى تحقيقها. التخطيط بهذا المعنى يفترض عناصر عديدة: قدرة على التنبؤ، قدرة على التحكم في الحركة، قدرة على توقعات الاثر المباشر، قدرة على فهم الاطار العام للتفاعل والتعامل مع القوى والمتغيرات الاجتماعية والسياسية.

لقد سبق ان رأينا ان الرسالة الاعلامية بمجرد انطلاقها تستقل في الاعلام الخارجي عن شخص مستقبلها بحيث تصبح عملية تصحيحها امرا مرهقا إن لم يكن مستحيل التحقيق. ولتجنب ذلك فمن الضروري ان يوجد جهاز يتولى عملية التخطيط بحيث يضمن نوعا من التنسيق والتناسق بين مختلف عناصر الرسالة الاعلامية من جانب وبين مختلف الاجهزة الاعلامية بالنسبة لنفس الرسالة من جانب اخر. وكذلك بين مختلف ادوات تنفيذ السياسة الخارجية بحيث لايصير الاعلام وهو يتحدث في واد والسياسة الخارجية تسير في واد اخر من جانب ثالث، واخيرا بحيث يتحقق توفيق ان لم يكن عدم تعارض بين نفس الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي[٣٣].

وهنا تجدر بنا عدة ملاحظات تدور جميعها حول دلالة الخبرة التي عرفها الاعلام البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية. فعندما دخلت بريطانيا المعركة لم تكن مستعدة لمواجهة الهجوم النفسي الذي كانت المانيا النازية قد اعدت له عدتها: كان الشعب الانجليزي يقف ازاء الدعاية الهتلرية بلا سلاح. في عجل انشئت عدة ادارات، سواء في وزارة الخارجية. سواء في وزارة الحرب، سواء في ادارة الاذاعة البريطانية. ترتب على ذلك تناقض وتعارض بلغ حدا خطيرا في بعض المواقف، فقد كانت هناك الاذاعة البريطانية التي تخضع لتوجيهات وزارة الخارجية. ثم من جانب اخر صوت القاهرة والذي كان يخضع لتعليمات القيادة العسكرية المستقرة في الشرق الاوسط والتي لاتقبل توجيهات الا من وزارة الحرب البريطانية. وازاء هذا الوضع تقدم وزير الاعلام البريطاني في تلك اللحظة باقتراح انشاء ادارة واحدة مستقلة باسم ادارة الدعاية. ورغم ان هذا الاقتراح رفض في اول الامر الا انه عقب ذلك وازاء التناقضات المتعددة التي حدثت بصفة خاصة بالنسبة للاذاعة الموجهة الى اليونان ويوغسلافيا اتخذ مجلس الوزراء البريطاني قرارا مشهورا بانشاء ادارة ثلاثية يشترك فيها ممثلين لكل من وزارة الخارجية ووزارة الدفاع وادارة الاعلام المركزية وعهد الى علماء الرأي العام برئاسة هذه الادارة التي كانت تعمل بمثابة هيئة للتنسيق بين الاجهزة الثلاثة. الواقعة المشهورة التي ادت مباشرة الى اتخاذ ذلك القرار كانت في اعقاب الهجوم المكثف الذي خضعت له اليونان من جانب قوات المحور. ففي نفس تلك الفترة كان الجيش الانجليزي في شمال افريقيا قد بدأ ينقلب من الهزيمة والانسحاب الى المواجهة التقدم. واثير السؤال: هل سوف تنزل قوات انجليزية لتساند الشعب اليوناني؟ صدرت في نفس اليوم اذاعات تجيب على هذا التساؤل اجابات مختلفة: فالاذاعة البريطانية الصادرة من B. B. C. تعلن ان المساعدة آتية لاريب فيها. والتعليق على النشرة العسكرية يؤكد ان الامر موضع دراسة. اما محطة قبرص

---

(٣٣) قارن من بين المشاكل التي يثيرها التعارض بين مقتضيات الاعلام الداخلي وطبيعة الاعلام الخارجي ذلك الذي يتحدث عنه الفقه الفرنسي باسم «السر القومي»: CLAUSSE, le journal et l'actualite, 1967, P. 208

(٣٤) انظر بصفة عامة حول خبرة الحرب العالمية الثانية:
LAUNAY, La guerre psychologique in les dossiers de la seconde guerre mondiale, 1964, I- 185 WIIFRED, Mit Geobbels bis zum ende, 1949, p. 83.

التي تخضع لتعليمات الوزير البريطاني المقيم في منطقة الشرق الاوسط فهي تعلن عن اسفها وتطالب الشعب اليوناني بالتضحية انتظارا لطرد المحور من شمال افريقيا لان هذا وحده يمثل الانتصار الحقيقي على القوى المعادية.

عقب هذا التناقض اتخذ تشرشل قراره التاريخي بانشاء تلك اللجنة المشتركة والتي ظلت تعمل حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. ويسلم الجميع بأن هذا التنظيم وحده هو الذي سمح لبريطانيا بان تستعيد ما خسرته وان تحقق في ميدان الصراع النفسي ضد دول المحور نجاحا منقطع النظير[٣٦].

٥٦ ـ العمل الاعلامي في النطاق الخارجي وطبيعته الدبلوماسية:

الناحية الثانية والمرتبطة بتلك الناحية السابق تحليلها والمتفرعة عنها تدور حول طبيعة العمل الاعلامي في النطاق الخارجي. ورغم ان كلمة النطاق الخارجي تعبر عن مفهوم عام واسع يشمل اكثر من تطبيق واحد الا ان هذا المفهوم يرتبط بكل ما له اتصال بالتعامل مع القوى غير المحلية. سبق ان راينا دلالة هذا الاصطلاح واضحة عندما حددنا كيف ان التعامل مع المواطنين المهاجرين يجب ان ينظر اليه على انه نوع من الاعلام الخارجي. التعامل مع القوى غير المحلية هو من حيث جوهره عمل دبلوماسي او بعبارة ادق هو عمل مكمل لعملية التفاوض ومن ثم يجب ان ينبع منها ويتحدد بها. وهذا يفرض نتائج عديدة:

اولا: الدبلوماسية المعاصرة هي ليست مجرد نقل وجهات نظر وانما هي تفاعل بين حضارات. هي بعبارة اخرى تفترض كخلفية عامة متسعة عملية التقابل والعناق بين المفاهيم المختلفة للوجود الانساني. بهذا توصف الدبلوماسية المعاصرة بأنها دبلوماسية المواطن للمواطن.

ثانيا: هذه الطبيعة تفرض علاقة التداخل المستمرة بين العمل الدبلوماسي والعمل الاعلامي[٣٧]. هذا التداخل يفرض لافقط ان العمل الخارجي يجب ان يخضع لعملية تخطيط اساسها التنظيم والتنسيق بين السياسة الخارجية والسياسة الاعلامية، بل كذلك وبصفة خاصة هذا يعني ان خبير الاعلام الخارجي يجب ان يجمع بين الثقافة الاعلامية المتخصصة من جانب والثقافة السياسية من جانب اخر والتدريب الدبلوماسي

---

(٣٥) جديرة بالتأمل الملاحظات التي يقدمها لنا العالم الامريكي ليرنير عقب ان عاش خبرة الحرب النفسية خلال الصراع العالمي وبصفة خاصة منذ انزال قوات الحلفاء في نورماندي بفرنسا يوم ٦ يونيو ١٩٤٤ حتى الاستسلام النازي الكامل في مايو ١٩٤٥، انظر:

LERNER, Psychological warfare against nazi Germany, 1971, P. 16, p. 42

(٣٦) انظر رغم ذلك ملاحظات ليرنير، م. س. ذ، ص ٤٩

(٣٧) انظر الاهرام ١٩٦٨/١٢/٨. سؤال يفرض نفسه علينا: هل من حق كل مصري قدر له ان يقضي عدة ساعات في احدى العواصم الاوربية ان يعود ليشنف اذاننا بتحركنا وغزونا للرأي العام العالمي؟ وما الذي يفهمه اولئك عن الراي العلم العالمي؟ وهل فهم اولئك السادة معنى الراي العام المحلي او حقيقة الرأي العام العربي ليحدثوننا عن الرأي العام العالمي؟ ترى الى متى سوف نظل نعيش في هذه الاكاذيب التي قادتنا الى ثلاثة كوارث خلال عشرين عاما والباقي ات لا ريب فيه لو لم تختف تلك الحيوانات الطفيلية التي عاشت على الخداع والرياء وهي على استعداد لبيع كل شيء في سبيل اتفه ما يمكن ان تقدمه لهم ملذات الحياة. انظر كذلك وعلى سبيل المثال: ليلى تكلا، بوارد واضحة للتحول في الرأي العام العالمي من قضية اسرائيل وازمة الشرق الاوسط الاهرام، ١٩٦٩/١٢/١٢، زكريا نيل، التحول في الرأي العام العالمي، الاهرام، ٧٠/١/٢٢.

من جانب ثالث[٣٨].

ثالثا: وهذا يقودنا لتحديد طبيعة عمل رجل الاعلام في النطاق الخارجي. ليست وظيفته الاقناع بسياسة حكومية او الحصول على تأييد المواطن ازاء قرار سياسي كما هو في الاعلام الداخلي. انه اكثر من ذلك: هو رسول حضارة ومنفذ سياسة بل نجاحه كمنفذ للسياسة يتوقف على نجاحه كرسول للحضارة. ومن ثم فهو وسيلة اتصال بين مفهومين من مفاهيم الحركة الخارجية. وهذا يفرض المام واستعداد وقدرة وصلاحية على فهم لافقط ابعاد الحركة السياسية التي يعيشها المجتمع الذي هو مدعو لان يتحرك في نطاقه بل وقبل كل شيء اخر يجب ان يملك تلك القدرة والحساسية التي تسمح له بان يكون مرآة تعبر عن تلك التقاليد وتعكس طبيعة تلك الحضارة. وهو مرآة وليس اكثر من ذلك بمعنى انه يجب الا ينسى انه دائما ينتمي الى الحضارة التي يمثلها.

بعبارة اخرى فان نجاح رجل الاعلام الخارجي يتوقف على قدرته في ان يفهم الابعاد الحضارية للمجتمع الذي يعانقه دون ان ينسى طبيعته وجوهره الذاتي كامتداد للحضارة التي يمثلها ولعل هذا يفسر لماذا يخفق اغلب رجال الاعلام العربي في الخارج: وقد يفهم هذا بشكل واضح بالنسبة لاولئك الذين لم يقدر لهم الحياة والاندماج في المجتمع الاجنبي الخارجي. ولكن لايجب ان يستنتج من ذلك ان المواطن العربي يصير اعلاميا ناجحا لمجرد انه قد قدرت له عملية الاندماج في المجتمع ا الخارجي[٣٩]. نموذج واضح يؤكد هذه الحقيقة مديري المكاتب الاعلامية العربية في بعض البلاد الاوروبية فهم قد اختيروا في بعض الاحيان لطول حياتهم في تلك البلاد. في اغلب الاحيان هم طلبة فاشلون كان تواجدهم الاصيل في تلك البلاد بسبب الرغبة في اكمال دراساتهم العليا في المجتمعات الغربية فلم يقدر لهم النجاح وظلوا في بعض الاحيان خلال خمسة عشر عاما يتنقلون من فشل الى فشل او على الاكثر نجاح جزئي. مثل هؤلاء هم اسوأ من يتولى الاشراف على عملية توجيه الاعلام الخارجي. فضلا عن انهم يمثلون حالات التمزق النفسي فانهم وقد انقطعت صلتهم بأرض الوطن وبالحضارة الاصيلة التي يجب ان يدافعون عنها ويمثلوها لا يمكن ان ينتهوا الا بالاخفاق.

ان خبيرا اعلاميا ناجحا في النشاط الداخلي قد لايصلح بل قد يفشل فشلا ذريعا في الاعلام الخارجي. وذلك الخبير الذي قد ينجح نجاحا رائعا في الاعلام الخارجي قد لايصلح لان يصير صحفيا من الدرجة الثانية في جريدة ريفية. كذلك ليس مجرد اتقان لغة اجنبية او المعرفة بمجتمع اجنبي من خلال الاحتكاك

---

(٣٨) امر اخر يجب ان نلفت النظر اليه بخصوص تأصيل مفهوم العمل الدعائي والتعامل النفسي داخليا وخارجيا وهو ضرورة التمييز الواضح بين التعامل النفسي مع المواطن او القوى السياسية في فترات السلام ونفس ذلك التعامل في خلال لحظات القتال او الصراع العسكري. الامر يصير اكثر دقة في خلال تلك المراحل التي توصف بأنها قلقة تأرجح بين الحرب والسلم. بعبارة اخرى ان الاطار العام من حيث الاسترخاء او التكتل الحركي او القلق المشوب بالترقب لابد وان يفرض خصائصه من المعالجة الحركية. اضف الى ذلك ان الخبرات التي عاشها العالم حتى الحرب العالمية الثانية لم تكن سوى واحد من اثنين: سلم ام حرب. فترات القلق لم تكن في العادة تتجاوز عدة ايام. ولكن منذ ان توغل في التقاليد مفهوم الحرب الباردة اولا ثم الحرب الايديولوجية ثانيا ثم الحرب المدنية ثالثا اتسع مفهوم النموذج الثالث وما تعانيه مصر اليوم ليس بسوى تطبيق صارخ لذلك النموذج. وهذا يفسر صعوبة تحليله وحاجته الى اصالة في الدراسة وقدرة على التصور مع نبوغ في تقديم نماذج الحلول. ان كل موقف له خصائصه وله منطقه، وكذلك كل مواجهة تفترض اكتشاف تلك الادوات النابعة من منطق الموقف. ومن ثم فعلينا نحن علماء الدعاية السياسية ان ننطلق في اطار الاكتشاف والمغامرة بالمعنى العلمي الدقيق عقب دراسة الخبرات الاخرى ومحاولة القيام بأقلمه دلالاتها على واقعنا الذي نعيشه. ولعله ليس من قبيل المبالغة ان نذكر القارىء بأن هذا هو ما فعلته القيادة الاسرائيلية، انظر في هذا المعنى من جانب العلماء المتخصصين في العمل الدعائي، ملاحظات جرفيث الواردة في ليرنير، م. س. ذ، ص٢٠ وما بعدها من المقدمة ومن جانب المسئولين الاسرائيليين راجع PERES, Davids slinger, 1970, P. 167.

(٣٩) فهم طبيعة الاتصال الحضاري كما اوردناه في هذه الدراسة واكدنا عليه في اكثر من مناسبة يجب ان يكون واضحا في ذهن جميع المسئولين عن اعلامنا الخارجي. وهذا يعني الحقائق التالية التي هي في حاجة الى تعميق ودراسة اخرى اكثر شمولا:

(ولا) فهذا يثير اول ما يثيره مشكلة اعداد رجل الاعلام الخارجي . ذلك ان الاعلام الداخلي ليس في حاجة الى التأكيد على قدرات معينة بسبب الوحدة الحضارية الطبيعية بفضل عامل الانتماء العضوي بحيث ان رجل الاعلام الداخلي يسير في طريقه بدافع من للاشعور الذي ليس في حاجة الى اي صقل كنتيجة لوحدة المفاهيم.
(ثنيا) وهو ايضا يؤكد على موقف الضعف الذي يعكسه موقفه رجل الاعلام الخارجي العربي لو قورن بالمسئول الاسرائيلي. فمجتمع اليهودي يملك من ابنائه من ينتمون الى جميع القوميات الاوربية والامريكية بحيث يستطيع بلا صعوبة ان يحيل اعلامه خارجي من حيث المنطق والاعداد الى اعلام داخلي ومن ثم يجد نفسه في مركز قوة لايستطيع المسئول العربي الا ان يحسده عليها.
(ثالثا) على ان الاتصال الحضاري لايجوز لنا ان نفهمه على انه تشبه حضاري. ان الكثيرين لدينا يعتقدون ان التقليد الاعمى لحضارات الاخرى هو خط الوصول الى منطق وعقل تلك الحضارة. وهذا غير صحيح. وقد اكدنا عليه في غير هذا الموضع. ان لاصالة باعتدال والتميز دون الخروج عن قواعد الرقة في السلوك والثقة في الانتماء هي وحدها التي تستطيع ان تغزو المجتمعات لاوربية. هذه الحقيقة صحيحة كسلوك فردي كما هي صحيحة على مستوى الاتصال الجماعي.

(رابعا) وهذا يقودنا الى التأكيد على الناحية الاخيرة: ان اعلامنا في حاجة الى اصالة، في حاجة الى تجديد، في حاجة الى اقلمة خبرات الاخرى حتى يستطيع ان ينطلق بقوة ومقدرة لتقديم خبرته الذاتية. وكل هذا يفترض قدرات معينة وتجمع مواهب غير عدية.
متى تقدر لنا تلك المعجزة؟

نظر على الخصوص:
MERILL, National Sterotypes and international understanding, in Fischer, International communication, cit. p. 191.
Livolsri, comunicazioni e cultura di massa, 1969, p. 231, Brega, La communicazone SOCIALE, 1969, p. 148.

المادي هو وحده الذي يمثل الصلاحية والقدرة على الغزو الاعلامي والنجاح الدعائي في محيط التعامل بالقوى الخارجية[٤٠].

٥٧ ـ طبيعة ولغة الاتصال الدولي وابعادها الفكرية:

كل هذا يقودنا الى نتيجة اخرى تدور حول طبيعة ولغة الاتصال الدولي. وهنا تبرز بشكل واضح عمق هذه التفرقة بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي. ان الاعلام الداخلي هو نوع من تعميق علاقة الولاء. اما الاعلام الخارجي فهو خلق علاقة المنفعة واصطناع ادوات الارتباط بالمصالح.

بعبارة اخرى الاعلام الداخلي هو امتداد لتلك العلاقة النفسية التي تربط المواطن بالدولة[٤١]. وكل مواطن في علاقته بالمجتمع السياسي الذي ينتمي اليه وان تستر علاقته خلفية نفسية متسعة الابعاد متعددة المراتب. تبدأ من الرضا وتتدرج حتى الولاء. هناك اولا الرضا بمعنى قبول تصرف معين. الرضا بهذا المعنى لايعدو ان يكون سوى التأييد او الرفض لسلوك الحاكم في مواجهة المشاكل. هناك درجة ثانية اكثر اتساعا والتي يعبر عنها بكلمة المشاركة. المشاركة تعني التفاعل والتجاوب بالاهتمام والارتباط والشعور بأن ما يحدث من جانب السلطة الحاكمة لايتعلق فقط بمن يمارس السلطة وانما يحدث اثاره في كل اجزاء الجماعة وبالتالي يعني كل مواطن وكل من ينتمي الى المجتمع السياسي. التجاوب والتفاعل لايفترض التأييد او الرفض ولكنه اكثر اتساعا من مجرد التأييد او الرفض. دائرة اخرى اكثر عمقا نعبر عنها بعلاقة الولاء. علاقة الولاء هي امتداد لرابطة الايمان وتعبير عن التبعية الايديولوجية حيث تصير العصبية مبررا للحركة ومفسرة للمواقف بغض النظر عن تقييم دلالة وجوهر التصرف. الولاء ليس علاقة بين المواطن والحاكم وانما هو علاقة روحية بين المواطن والدولة بغض النظر عن شخص الحاكم. الاعلام الداخلي لايدور الا حول هذه الابعاد النفسية التي تبدأ وتتركز في علاقة الولاء[٤٢].

الاعلام الخارجي على العكس من ذلك لايفترض ولايدور ولاتعنيه علاقة الولاء. على العكس هو يعلم مقدما انه لا وجود ولاموضع للحديث عن تلك العلاقة. انه على العكس من ذلك توثيق لرابطة المصلحة.

---

(٤٠) بعبارة اخرى فان رجل الاعلام الخارجي في علاقته بالعالم الذي يزاول بداخله نشاطه يصير بمثابة مراة يستطيع فيها ذلك العالم الاجنبي ان يجد انعكاسا لصورة على قسط معين من التعبير عن حقيقته وخصائصه. ليس اقل من ذلك ولكن ليس اكثر من ذلك. ليس اقل من ان يجد العالم الاجنبي انعكاسا لوجوده في الذات التي تتولى عملية الارسال وقوة اداة الاتصال الحقيقية هي قدرتها على ذلك التعبير. ان التفاعل الموجب والسالب المتدفق من حيث الاعطاء والاستقبال هو شرط جوهري للنجاح. بعض الدبلوماسيين كما سبق وذكرنا يعتقد بأن تشبهه بالمجتمع المحلي الذي يزاول في داخله سلطاته يعطيه قوة. والكثير يتصور ان ذكر بلادهم بأنها متخلفة او فقيرة يقربهم الى قلوب مستمعيهم. العكس صحيح. وقد اثبتت الخبرة ان الدبلوماسي الهندي بلباسه التقليدي، والصيني في ترفعه الصامت، اكثر مدعاة للاحترام من الدبلوماسي العربي الذي يسرع باطالة سوالفه والتشبه بممثلي المسرح والسينما.

وهكذا فان الصفات التي يجب ان تتوفر في رجل الاعلام الخارجي وبصفة خاصة الذي يقوم بعمله من موقع التمثيل الدبلوماسي هي نوع من التوازن الحركي بين حضارة يؤمن بها واخرى يسعى الى استحواذها والتحكم في منطقها او في عقلها.

انظر كذلك:

WINDLESCHAM. Communication and political power. 1966 p. 203

(٤١) انظر تفصيل هذه النواحي بالدقة الكافية في حامد ربيع، مقدمة العلوم السلوكية، محاضرات كلية الاقتصاد السنة الاولى ١٩٧٣ مكتبة القاهرة الحديثة، جزء ثالث ص ٩٥ وما بعدها.

(٤٢) انظر تفصيل هذه الابعاد في المجتمع السياسي الاسرائيلي في حامد ربيع، دراسات اساسية حول الصهيونية واسرائيل، ١٩٧٣ ص ٤٣ وما بعدها وقارن المصادر في عملية صنع القرار السياسي، م. س. ذ.، جزء اول، ص ٣٧ ومابعدها.

ان اي مواطن لايمكن ان يهتم بالعالم الخارجي الا اذا كان ذلك ينبع من علاقة المنفعة بل وفقط المنفعة المباشرة والذاتية.

عندما قررت السياسة الصينية ان تضع قواعد الهجوم الاعلامي على العلاقات بين الولايات المتحدة وروسيا كان المنطق الوحيد الذي من حوله تم بناء عملية الجذب الدعائي هو ان الخطر الروسي قريب والخطر الامريكي بعيد. هذا في المنزل المجاور وذلك في القرية البعيدة. فايهما ادعى الى اثارة الانتباه؟ وقد عبر عن هذه الحقيقة شو اين لاي في حديثه المشهور مع هيكل عندما ذكر المثل التقليدي: ان الماء الاتي من البعيد لايمكن ان يطفيء النار القريبة. بطبيعة الحال براعة رجل الاعلام الخارجي عندما يحاول ان يغلف العملية الاتصالية بالنواحي العاطفية والتي من بينها عناصر علاقة الولاء وبصفة خاصة عندما يدور الاعلام الخارجي حول التقارب الحضاري وعلى وجه التحديد في نطاق العمل الاتصالي الذي اسميناه دبلوماسية التجمعات. على ان هذا لايمنع من ان جوهر عملية الاتصال وبالتالي طبيعة الاعلام الخارجي تظل لغة المصالح وفقط لغة المصالح[٤٣].

وترتبط بهذه الناحية التالية وتنبع منها وتصير امتدادا طبيعيا لها، علاقة العمل الاعلامي الخارجي بأدوات الحركة السياسية في النطاق الدولي.

لقد سبق ان رأينا كيف ان الدعاية والاعلام هي اداة من ادوات تنفيذ السياسة الخارجية وهي بهذا المعنى اداة بين ادوات اخرى تقوم بعملية مساندة العمل التفاوضي. لقد عودتنا اسرائيل انها تسير في سياستها الخارجية مستندة الى اذرع ثلاثة: دبلوماسية نشطة، اعلام ذكي، قوة عسكرية يقظة. ويجمع الخبراء على ان العمل الاعلامي يجب ان يمثل خط الهجوم الاول وخط الدفاع الاخير في تنفيذ اي سياسة خارجية. هي خط الهجوم الاول بمعنى ان الاعلام الخارجي هو وسيلة لجس النبض او ان شئنا هو بمثابة الشرك يستطيع ان يلقي به مخطط السياسة ليجذب انتباه الخصم ويوقعه في الموقف المثالي بالنسبة لحركته الخارجية ومن ثم يحرك جميع قواه الايجابية اي مدفعيته الثقيلة سواء اخذت صورة قتال معنوي من خلال التفاوض او قتال جسدي من خلال الهجوم العسكري او كليهما. على ان الاعلام الخارجي ايضا يمثل خط الدفاع الاخير اذ انه يكون تلك الاداة التي تسمح بحماية الاخفاق والتخفيف من حدة نتائجه[٤٤].

---

(٤٣) هذه الناحية لاتزال في حاجة الى الكثير من التحليل من جانب فقهاء الاعلام السياسي. ورغم اننا ندين لاحد العلماء الامريكيين المرتبطين بسلاح المخابرات الامريكية والاستاذ حاليا بجامعة نيويورك بمؤلف سوف يفتح ابوابا جديدة في هذا الميدان الا ان الحقل لايزال بكرا في حاجة الا الاستكشاف. ELDR. The information machine, 1968 p 322

(٤٤) وهنا تبرز واضحة اهمية التمييز بين مستويات العملية الاتصالية: صانع القرار، قائد الرأي ثم الشرائح العريضة للرأي العام. فقبل الاتجاه الى تلك الاخيرة يصير من المفيد خلق قادة الرأي المؤيدين او المساندين للحركة. بعبارة اخرى في كل مجتمع سياسي لابد وان توجد مصالح معينة تتضمن تغيرا في علاقة القوة الثابتة في ذلك المجتمع. اذا استطاع المخطط الاعلامي ان يكشف بؤر التلاقي يستطيع من خلالها ان يكتشف قادة الرأي لتلك البؤر، وعند ذلك يتجه اليها بالاتصال الشخصي او ما في حكمه او على الاقل اتصال لاتصاحبه علانية مبالغ فيها او ضوضاء مفتعلة واذ يتحقق من نجاحه في تلك العملية يبدأ يسير في خطين متوازيين: اغراق اعلامي من جانب بالنسبة للجماهير واقناع اتصالي حتى ولو اضطر الى التهديد والوعيد بالنسبة لصانع القرار. عملية التأثير في قادة الرأي تكون له بهذا الشأن نوعا من الجزر في ذلك المحيط المتسع من العالم النفسي يستطيع ان يركن اليها في مسيرته نحو الهدف النهائي الذي يسعى اليه.

هذه الحقيقة فهمها مخططو الدعاية الصهيونية خلال السنوات الاولى من الحرب العالمية الثانية بفضل جهود العالم الاشهر لوين كما سبق ورأينا في غير هذا الموضع بحيث استطاعت الدعوة الصهيونية ان تتابع موجاتها بقصد الاستحواذ على الرأي العام الامريكي بثبات مبتدئة من المراكز القوية او المضمونة وممتدة تدريجيا لتحتضن تلك الاخرى التي ما كان يمكن ان يتصور اي مخطط للدعاية الانتهاء بأن تصير من اكثر القوى تطرفا في تأييد الحركة الصهيونية. ان هالبرين الذي ارخ لهذه الفترة عندما وصف المنظمات الكاثوليكية التي اندفعت في تأييد الحركة الصهيونية بأنها اضحت تمثل الصهيونية غير اليهودية لم يكن مبالغا انظر هالبرين م. س. ذ. ص ١٨٣ وما بعدها.

على ان الاعلام بدوره في النطاق الخارجي وبحكم هذه الطبيعة يستند الى ادوات اخرى خلفية مكملة ومساندة لابد وان تندمج معه في بوتقة واحدة من حيث التنسيق والتكامل. نذكر على وجه الخصوص:

(اولا) السياسة الثقافية وعملية التبادل الثقافي.
(ثانيا) السياسة السياحية وعملية الإنفتاح الحضاري.
(ثالثا) سياسة المعونات الاقتصادية وتقديم الخبرات الفنية.

جميع هذه النواحي يجب ان يتم تنفيذها من خلال السياسات الاعلامية وبتنسيق كامل معها. بل كثيرا ما يحدث ان تستتر السياسة الاعلامية خلف اي من هذه الابعاد المختلفة لعملية الاتصال الدولي. ان تبادل الافلام او بيع الافلام التيلفزيونية ليس الا احد مظاهر التعبير عن هذه العلاقة ومن المعلوم ان السياسة الفرنسية درجت على ان تجعل من تغلغلها الثقافي وسيلتها الاولى لتنفيذ سياستها الخارجية. يقول احد خبراء تاريخ الاعلام المعاصر: ان اعظم نجاح حققته فرنسا الحديثة هو سياستها الثقافية. فمنذ ان اختفى نابليون اخفقت فرنسا كقوة عظمى، ولكن فرنسا استطاعت من خلال سياستها الاعلامية ان تقنع العالم ورغم ان هذا الاقناع لايستند الى حقيقة قائمة، بأنها لاتزال حتى لحظتنا هذه قوة عظمى[45].

---

(٤٥) لوندن، م. س. ذ، ص ٢٥٨.

المبحث الثالث

الاعلام العربي ومشاكله

٥٨ ـ الاعلام العربي والمعركة السياسية، ابعاد الاخفاق:

عقب هذا العرض لطبيعة الاعلام الخارجي كاداة من ادوات السياسة الخارجية وما يترتب على ذلك من خصائص واضحة لوظيفة الاداة الاعلامية في النشاط الدولي بقي علينا ان نتساءل: اين الاعلام العربي من المعركة السياسية التي يواجهها ذلك المجتمع في نطاق الوجود الدولي منذ فرضت اسرائيل سياسة عدوانية واضحة على المنطقة؟ واين الاعلام العربي من التطور العام الذي فرضته تطورات المجتمع المعاصر في ربع القرن الاخير من القرن العشرين وهي تطورات سوف تزداد تاكيدا في الاعوام القادمة؟ قد يبدو لاول وهلة ان العلاقة بين هذين السؤالين محدودة ولكن الواقع ان احدهما يتحدد بالاخر. فالمنطلق الاساسي الذي منه تتحدد جميع ابعاد هذا التحليل هو ان العالم العربي يواجه في هذه اللحظة حربا اعلامية او معركة اعلامية تبدا منذ عام ١٩٥٦ ولا تزال تفرض وجودها على المنطقة. واذا كان القتال العسكري محدود النطاق والصراع الدبلوماسي محدود الابعاد فان المعركة الاعلامية التي يجد العالم العربي نفسه احد اطرافها لاتتقيد زمانا ومكانا ولا موضوعا[1]. فاسرائيل تشن حربا اعلامية منذ وجودها بل هي في هذا تستمد مصادرها الحقيقية من حرب سابقة بداها العالم الصهيوني منذ بداية القرن الحالي وهي حرب لاتقتصر على تلك الدول التي تحيط باسرائيل والتي جرى تقليد غير موفق على تسميتها بدول المواجهة وانما تتعدى ذلك الى كل ماله صلة بالعربي او بالحضارة العربية. منذ عام ١٩٦٧ اكتشفت البلاد العربية فجأة ان اسرائيل جعلت مساندها في سياستها

---

(١) هذه المعركة الاعلامية سوف تمتد ايضا حتى لو قدر لمشكلة الشرق الاوسط ان تصفى. ورغم اننا نرفض التسليم باي تصور لامكانيات السلم في هذه المنطقة ان لم يقدر للدولة الاسرائيلية ان تفقد مفهومها الصهيوني وان يحدث لها نوع على الاقل من الانصهار الكلي والشامل في بوتقة العالم العربي فان الامر الذي يجب ان يفهمه كل من يتصدى للاعلام العربي في واقعه المعاصر هو ان الحرب الاعلامية بين الطرفين لن تنتهي. ولنتذكر على سبيل المثال الصراع بين الكتلة الشيوعية والعالم الامريكي. فرغم ان هذا الصراع دخل اليوم فيما يسمى بدائرة تنظيم التعاون من اجل السلام، ورغم انه اضحى يعيش منذ لقاءات برجنيف ونيكسون على وجه الخصوص في واشنطن فترة غزل صريح الا ان جميع الخبراء يسلمون بان الحرب الاعلامية بل والصراع الدعائي لايزال قائما بينهما. ان نفس اتفاقيات موسكو كانت موضع حرب اعلامية من الطرفين فموسكو تعلن انها انما تعيد تنفيذ تعاليم لينين بشان التعايش السلمي. وواشنطن لاتتردد في ان تقولها صريحة واضحة: لقد اضحى التوازن الدولي يتحكم فيه قطب واحد وان القوة الامريكية، هي القوة الاولى والقوة الروسية هي القوة الثانية. ما معنى ذلك وما هي دلالته؟ ان الصراع الايديولوجي لايمكن ان ينتهي بالتوقيع على صك اتفاق. واذا كان الامر كذلك وهذين القطبين لا ينازع اي منهما وجود الاخر وانما ينازعه على دوائر نفوذه فكيف يكون الامر ازاء الصراع بين القومية الاسرائيلية والقومية العربية؟ ومعنى التسليم باي منهما هو اقتطاع الاخرى في جزء من جوهرها: ان القومية الاسرائيلية لاتتجزا عن الارض الفلسطينية والقومية العربية لايمكن ان نتصور تخليها عن مبدا وحدة الارض العربية.

هذه الحقيقة خفيت على بعض من خضع في خلال الاعوام الاخيرة لاغراء ما اسمته الدعاية الصهيونية بالانفتاح على اليسار الاسرائيلي. لقد تعرضنا في غير هذا الموضع لهذه الناحية وابرزنا كيف انها تتضمن خلطا خطيرا بين مايسمى بالتسلل والانسياب وما يمكن ان يسمى بالانفتاح الحركي. انظر حامد ربيع، عملية صنع القرار، م.س.ذ.، جزء اول، ص٩٢ وما بعدها.

الخارجية ثلاثة. العمل الدبلوماسي ثم الاداة الاعلامية واخيرا قوة الردع العسكرية: هذه هي الاثافي الثلاث التي تقيم عليها اسرائيل اعمدة تحركها الدولي.

وهي قد جعلت كلا من هذه الادوات ترتبط الواحدة منها بالاخرى برابطة ديالكتيكية معينة بحيث ان كلا منها يقدم بعدا للاخرى وبحيث ان اسرائيل تتحرك في سياستها الخارجية وقد اضحت ايا من هذه الادوات تمثل راس حربة قد استندت على قاعدتين خلفيتين تصيران بمثابة ادوات مساندة لتلك الحربة في اختراقها لقوى المقاومة ضد تحركها الدولي(٢).

واذا كان من الطبيعي ان نتساءل: اين الاعلام من السياسة الخارجية العربية؟ وكيف لم يستطع الاعلام العربي ان يؤدي دوره الفعال حتى اليوم؟ ام انه على العكس من ذلك قد استطاع ان يكون ذا فاعلية ولو محدودة؟ وتاتي الوقائع الاخيرة التي لاتزال ماثلة للاذهان تذكرنا مرة اخرى بحقيقة العلاقة بين هذه الحرب الاعلامية ونجاح السياسة الخارجية العربية في صراعها مع القوى الدولية. حادث تدمير طائرة الركاب الليبية عقب حادث ميونخ وقبل حادث الهجوم على السفارة السعودية بالخرطوم. ان الدلالة الحقيقية في هذه الوقائع الثلاث هي في انها ترتبط بهذا الصراع الاعلامي بل وايضا في اثرها على اي تحرك دبلوماسي حتى من جانب دولة عربية منفردة في علاقتها بالقوى الاخرى ايضا تلك غير المساندة للوجود الاسرائيلي(٣). فالدبلوماسية المصرية كان لابد وان تعاني من حادث ميونخ واكثر وضوحا من حادث الخرطوم. وهذه الاثار لم تقتصر على حد الصراع بين العالم العربي والوجود الاسرائيلي بل تعداه الى خلق نوع من انواع الحرب النفسية او الصراع الاعلامي بين الدول العربية ذاتها. حادث الخرطوم فرض هذا التناقض الذي سوف يقدر له ان يزداد اتساعا كما تثبت ذلك حوادث لبنان الاخيرة(٤).

اسئلة عديدة اثيرت ولا تزال تثار منذ ستة اعوام دون ان نلحظ حتى هذه اللحظة اي تقدم او محاولة جديدة في تقديم اجابة على هذه التساؤلات تتصف بالتاصيل العلمي مع اطار واضح لابعاد المبادرة والحركة. اي محاولة لاشباع الفضول الذي تفرضه هذه الاستفهامات لابد وان تثير الكثير من الحساسيات على ان هذه ليست هي الصعوبة الوحيدة. فان طبيعة هذه المشكلة تفرض الكثير من ابعاد الغموض الذي يجب ان نواجهه بعلمية ووضعية مطلقة. فهناك اولا السؤال الذي لابد وان نطرحه في بداية هذا التحليل: هل هناك مايمكن ان يسمى بالاعلام العربي؟ ام ان هناك سياسات اعلامية عربية (٥) بقدر عدد الدول العربية؟ وذلك مع افتراض ان تلك المجموعة من الاندفاعات والارهاصات التي تعبر عن نفسها اعلاميا يمكن ان توصف بانها سياسة. اذن كيف يمكن ان نتحدث عن الاعلام العربي بصيغة المفرد؟

ثم السؤال الثاني الذي يفرضه التحليل السابق يدور حول هذا الاستفهام: هل نستطيع ان نطبق التفرقة السابقة حول التمييز بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي؟ لقد راينا ان محور وجوهر النظرية الاعلامية

---

(٢) ابراهيم العابد، سياسة اسرائيل الخارجية، ١٩٦٨، ص٥٣ وما بعدها، فايز صايغ، الدبلوماسية الصهيونية، ١٩٦٧، ص٩٥ وما بعدها.

(٣) تعترف الصحافة الاوروبية بهذا الخصوص بفشل الاعلام العربي فشلا كاملا ان لم يكن على الاقل جزئيا. انظر ايضا مقال الكاتبة الامريكية فريدا اوتلي بعنوان «الدعاية الصهيونية» والذي نشرته جريدة ديلي ستار اللبنانية بتاريخ ٩ و١٠ مايو ١٩٧١.

(٤) ايضا حادث الخرطوم يدعو للتساؤل عن التخطيط الدعائي والاعلامي للحركة العربية. وبغض النظر عن تقييم الحادث في ذاته ومدى فاعليته فان توقيت الحادث جاء في نفس اللحظة التي كانت فيها جولدا مائير تدق ابواب واشنطن مطالبة بالمساعدات المالية. هل فكر مخططو العملية في تلك القاعدة المطلقة المتعلقة بالحركة العنيفة في ابعادها الدعائية بانه من الضروري خلق الاطار المناسب الصالح لامتصاص النتائج السلبية للصدمة النفسية؟ انظر الحوادث، ١٩٧٣/٣/١٦.

(٥) انظر بهذا المعنى حيث لايحاول صاحبه ان يحدد مفهوم الاعلام العربي ومستوياته عقيل هاشم، تخطيط الاعلام العربي، ١٩٦٨ ص ٨٣ وما بعدها.

كاداة للحركة السياسية هو التمييز بين الاعلام الذي يتجه الى المواطن والاعلام الذي يتجه عبر الحدود. فهل نستطيع ان نخضع الحركة الاعلامية العربية وبغض النظر عن مصدر ذلك الاعلام الى تلك التفرقة؟ الاعلام العربي الذي يتجه من دولة عربية معينة الى دول عربية اخرى هل يوصف بانه اعلام خارجي؟ واين الاعلام العربي الذي يتجه الى الاقليات العربية المقيمة في اسرائيل وبصفة خاصة عقب حرب ١٩٦٧ من تلك التفرقة؟ هل نصفه بانه اعلام خارجي ونخضعه لطبيعة ذلك الاعلام ام انه يجب ان ينظر اليه على انه من طبيعة خاصة؟ واين من كل ذلك الاعلام الذي يتجه الى العرب المقيمين في خارج القارة العربية اي المهاجرين سواء وهم لايزالوا يرتبطون برابطة الجنسية ام وقد انفصلوا نهائيا عن ارض ابائهم ولو من الناحية القانونية؟

كذلك ففي كل حرب اعلامية يجب ان تكون واضحة التفرقة بين الصديق او المخالف والخصم او العدو. والمحايد او غير المهتم [٦]. وهنا لابد وان نفرض تساؤلا اخر: هل الاعلام الذي نريد ان نتناوله هو فقط الاعلام الاسرائيلي؟ ام ان عملية المواجهة اكثر امتداداواكثر اتساعا؟ الاجابة على هذا السؤال الاخير واضحة ولكنها لاتكفي للاجابة على السؤال السابق: ان جوهر الاجابة هو سؤال اخر، هل نخضع الجميع لسياسة اعلامية واحدة ام يجب ان نميز كلا من مستويات الفئات والشرائح التي تنتمي الى معسكر العدو واصدقائه؟

---

(٦) هذه هي القاعدة الاولى في قواعد التخطيط الدعائي: التمييز بين الصديق والعدو وجعل الحركة اساسها تقوية صداقة الصديق والتخفيف من عداوة العدو تمهيدا لنقله تدريجيا من العداوة الى الحياد ومنها ان امكن للصداقة. واذا كان المخطط الدعائي يعتبر ان نجاحه في شل منطق العدو في ذاته نجاحا كافيا فان هذا يفسر لماذا يجب ان تخضع هذه العملية لدراسة علمية دقيقة مسبقة على اعداد العمل الاعلامي وعلى صياغة الرسالة الاتصالية. ورغم ذلك فقد قدر لنا من خلال اتصالاتنا مع اجهزة الاعلام العربية بمختلف مستوياتها ان قدمنا هذا التساؤل: لمن نتجه بهذا الاعلام؟ اي من هو المستقبل الذي نخاطبه؟ فكانت الاجابات دائما غامضة عامة. ولا يكفي بهذا الخصوص ان يقال باننا نتجه الى الراي العام الاوروبي او الفرنسي او اننا نتجه الى طبقة المثقفين. بل علينا ان نحدد مسبقا الخصائص الاجتماعية للجمهور المستقبل بمختلف الأبعاد التي سبق وذكرنا بعضها: تحديد هذه الخصائص سوف يتفرع عنه لا فقط مضمون الرسالة الاعلامية بل وكذلك طبيعة اداة الاتصال. والاكثر من هذا خطورة هو ان اجهزة الاعلام العربية بمختلف مستوياتها لاتحاول ان تقيس فاعلية الاعلام الذي تتولاه. فاذا كان من الممكن ان يقال بان الاعلام العربي يتجه الى الرجل العادي، اي الى المجتمع الجماهيري وقد تخلى عن صانع القرار وقائد الراي، ورغم ان هذا يعني اختلالا كليا وشاملا في العملية الاتصالية، الا ان الاستمرار في العملية الاتصالية دون معرفة نجاحها من عدمه ومدى ذلك النجاح واسباب عدم النجاح لايمكن ان يوصف الا انه انعكاس للحقيقة المطلقة التي تسيطر على الاعلام العربي الخارجي: ان القائمين بهذا الاعلام هم نوع من الهواة وليسوا من المتخصصين باساليبه العلمية وخصائصه المنهاجية. ولعله من المفيد ان نضيف بهذا الخصوص كيف ان احد اسباب هذا الاضطراب في التخطيط الاعلامي هو عدم وضوح الاهداف. يقول العالم الامريكي كسراب: «الدول لاتقوم بالدعاية لذاتها. انها تقوم بها لتدفع ببعض الأهداف السياسية مقدما في وعي المستقبل. وهكذا فان النجاح في العمل الدعائي يتحدد الى درجة كبيرة في نجاح مسبق بايضاح للاهداف الاساسية للسياسة ولأبعادها نحو ميادين معينة وموضوعات محددة» بعبارة اخرى وكما قررنا الاعلام الخارجي هو مقدمة لحركة ومن ثم فيجب ان تكون تلك الحركة قد تحددت فكريا فيأتي الاعلام فيعدها ويحيث تلحق الاعلام او الدعاية مباشرة الخطوات المؤكدة للارتباط بذلك التحرك الدولي.

انظر بهذا المعنى: زميل، م. س. ذ.، ص١٠٤ وما بعدها ولابد وان يجيبنا على هذا بعض المسئولين وكما سوف نشير في صلب الدراسة ان البلاد العربية غير متفقة على اهدافها ومن ثم فلا بد وان تحدث هذه النتيجة وهي غموض الاهداف وبالتالي لا موضع لمساءلة الجامعة العربية عن الفشل والاخفاق، على ان الواقع ان هذا غير صحيح. فالاهداف لها مستويات. كذلك اهداف الحركة العربية تملك المستويات وعلى جامعة الدول العربية ان تكتشف الخلفية او المستوى الذي تتفق حوله جميع المصالح موضع المناقشة. ان هذا طبيعة العمل الجماعي والنماذج كثيرة بهذا الخصوص لاحصر لها. فلتذكر الخلاف بين دول اوروبا الغربية على سبيل المثال. ان القاعدة المطلقة في العمل الجماعي هي ان نجعل البداية من الارضية المشتركة. فهل سوف يزعم رجال جامعة الدول العربية بانه لاتوجد اي ارضية مشتركة بين تلك البلاد في مواجهة الاعلام والدعاية الاسرائيلية؟ وان لم يكن كذلك فلماذا توجد تلك الجامعة العربية؟

انظر ايضا:

MOOH, L'homme informatisle, 1971, P. 159

لانستطيع ان نطمع في ان نقدم اجابة شافية على جميع هذه التساؤلات في هذه الصفحات القليلة، ولكن طرحها يبرز بشكل واضح مدى تعقيد هذا الموضوع وكيف انه في حاجة الى خلفية فكرية واضحة فضلا عن تخصصات من مستوى معين من العلمية والكفاءة والقدرة على المبادرة وسعة التخيل. وهو امر للاسف لم نستطيع حتى الان ان نواجهه بتلك الجدية اللازمة التي تفرضها علينا طبيعة المرحلة التي تجتازها الامة العربية.

وكما لو كانت هذه الاسئلة والتساؤلات ليست فيها الكفاية فلا بد وان تاتي جامعة الدول العربية لتزيد من تعقيد وتشابك الموضوع. وهي تزيد من تعقيد الموضوع بسبب عدم القدرة على امكانية تصور حقائق وابعاد هذه العملية. حتى انها في بعض الاحيان كما سوف نرى فيما بعد تكون عقبة حقيقية ضد امكانية تحقيق اعلام عربي ذكي وفعال على مستوى هذه المرحلة (٧). واذا كنا لانريد ان نذكر المسئولين بانهم يستطيعون على الاقل ان يحصلوا على بعض الدروس من متابعة الاعلام الاسرائيلي وتحليل اسباب نجاحه، فاننا لانملك سوى ان نحدد على الاقل بعض ابعاد هذا الاخفاق:

اولا: فالاعلام العربي لايزال في مجموعه يرى في الاعلام الخارجي امتدادا للاعلام الداخلي وتطبيق من تطبيقاته.

ثانيا: وهو يرفض حقيقة الواقع العربي او على الاقل ليست لديه القدرة الكافية ولا الشجاعة اللازمة على مواجهة هذا الواقع الذي اساسه ضرورة التميز بين مستويات اربع من مستويات العمل الدبلوماسي: المستوى الثنائي، ثم الاقليمي يعقبه المستوى الجماعي، ثم ياتي اخيرا المستوى الدولي مع ما يفرضه ذلك من ابعاد معينة ومتعددة للسياسة الاعلامية.

ثالثا: واخيرا فيجب ان نعترف بان جامعة الدول العربية اضحت حاليا تمثل عقبة حقيقية ضد امكانية نجاح وفاعلية اي اعلام عربي خارجي الامر الذي يفرض اعادة النظر في اختصاصات وتنظيم اختصاصات جامعة الدول العربية في هذا الشان[٨].

فلنتابع هذه النواحي المختلفة بشيء من التفصيل.

---

(٧) انظر هاركابي، م. س. ذ.، ص٤٤٢ وما بعدها.

(٨) انظر ايضا تحليلنا للاعلام الذي تتولاه مراكز البحوث في حامد ربيع، عملية صنع القرار، جزء اول، م. س. ذ.، ص١١ وما بعدها.

توجد حاليا اربعة مراكز للبحوث تتناول بالاهتمام المشاكل الفلسطينية ومن خلالها تتعرض لتحليل الاوضاع الاسرائيلية. اولها مؤسسة الدراسات الفلسطينية ثم مركز الابحاث الفلسطينية وكلاهما ببيروت. اضف الى ذلك مركز الدراسات التابع لجامعة بغداد. بطبيعة الحال هذه المراكز تؤدي وظيفة هامة من حيث تجميع الوثائق من جانب وتحليل المشاكل المرتبطة بالقضية الفلسطينية من جانب اخر. ولكن الذي يعنينا ان نلفت النظر اليه بهذا الخصوص، ومن حيث علاقة هذه المراكز بالاعلام العربي هو النواحي التالية:

اولا: ان هذه المراكز تتجه اساسا الى المجتمع العربي وليس لها نشاط بمعنى الاعلام الخارجي او بعبارة اخرى ولو افترضنا انها لاتنبع من وجهة نظر فلسطينية بحتة فانها تكاد تكون اعلاميا قوميا لايتعدى ذلك باي معنى من معانيه. وحتى في اعلامها الذي تتجه به الى الخارج فانه لايعدو ان يكون ترجمة لبعض الكتيبات او النشرات التي تصدرها باللغة العربية: هذه الحقيقة مطلقة اذا استثنينا دورية واحدة تصدر من مؤسسة الدراسات الفلسطينية وقد جعلت هدفها الاساسي هو الاتجاه الى الراي العام الامريكي.

ثانيا: كذلك فان الذي يلاحظ على هذه المراكز ان كلا منها مستقل عن الاخر وانه لايوجد اي تنسيق فيما بينها ان لم يكن هناك صراع خفي بين البعض منها والبعض الاخر. وهي بزعم أنها تدعو للقضية الفلسطينية تعكس الانقسامات والتشعبات التي تسيطر على الحركة الفلسطينية بحيث تفقدها الفاعلية المطلوبة والممكنة.

ثالثا: اضف الى هذا ان طابع هذه المراكز وعلى وجه الخصوص الاولين اللذين ظلا يتمركزان في بيروت لمدة غير قصيرة هو

لطابع التجاري والاستغلال الاقتصادي ورغم ان هذا احد الاعتبارات الاساسية التي يجب ان تسيطر على اي مؤسسة اعلامية الا نه بالنسبة لهذه المراكز يجب ان تخضع لاعتبارات اخرى ترتفع عن مستوى البيع والشراء.

رابعا: على ان اخطر ما نستطيع ان نلاحظه هو ان القائمين بالعمل في هذه المراكز يخلطون بين الابعاد العديدة التي يفرضها لاعلام حتى عن القضية الفلسطينية. ذلك ان دراسة الواقع الفلسطيني يثير ابعاد اربعة على الاقل كل منها يملك طبيعة مستقلة ويفرض تبعا لذلك منطلقا واسلوبا للمعالجة يختلف ويتنوع تبعا لتلك الطبيعة.

هذه الابعاد هي:

أ - المعرفة بالعدو سواء من الداخل او من حيث ابعاده الحركية وتخطيطاته المقبلة في السياسة الخارجية.

ب - تصوير المجتمع الاسرائيلي ومناقشة النموذج الحضاري الذي تقدمه الدعاية الاسرائيلية للعالم الخارجي وتجعل منه منطلقا للمخاطبة والتقارب بين المجتمعات اليهودية والمجتمعات الأخرى الصديقة او ما في حكمها.

جـ - تفتيت الاساطير التي استطاع الاعلام الصهيوني ان يصوغها حول الوجود اليهودي ويقدمها من خلال ادواته الاعلامية المتعددة للراي العام العربي.

د - ويرتبط كذلك بهذا النشاط دراسة المشكلة الفلسطينية قبل وجود الدولة العبرية وبعد وجودها.

بطبيعة الحال هذه النواحي الاربع جميعها يمكن ان توصف بانها من الاعلام الذي قد يهتم به ايضا الراي العام الخارجي. ولكن ذلك الذي يعني على وجه الخصوص الاعلام الخارجي كاداة من ادوات السياسة الخارجية العربية هو النوع الثاني. هذا النوع الثاني اي الاعلام الذي يدور حول مناقشة حقيقية المجتمع الاسرائيلي كما صورته الدعاية الصهيونية وكما رسبت معالمه في الوعي العام الاوروبي والغربي بصفة عامة هو من قبيل الدعاية المضادة. اسرائيل استطاعت ان تصور نفسها في العالم الغربي على انها نموذج للدولة العصرية واستطاعت ان تربط تطوراتها الايديولوجية بتقاليد الحضارة الكاثوليكية وان تخلق بهذا الشكل نوعا من التعاطف عبر عنه العالم الكندي فورست بكلمات ذات دلالة: «الصدمة الثقافية» وهو يقصد بذلك «ان الدعاية الاسرائيلية استطاعت ان ترسب في الوعي العام الجماعي الاوروبي والغربي على الاقل خمسة عشر مبدا كل منها يمثل اسطورة وكل منها كاف لان يخلق العداوة ان لم يكن الاحتقار لجميع المزاعم العربية». انظر.

FORREST, The Unholy land, 1971, P. 58

ولا تقتصر على ذلك جهود الفقه الاوروبي في هذا الشان بخصوص تحليل الدعاية الاسرائيلية. اذ نجد عالما اخر هو العالم اب الذي صدر له مؤلف في عام ١٩٧٠ بعنوان: ارض من فلسطين؟ يحدد لنا في داخله ولو بحياد شكلي المزاعم التي يستند اليها كل طرف في مشكلة الشرق الاوسط من طريق مباشر او غير مباشر في الارض المقدسة. وهو يخصص فصلا لمزاعم الصهيونية، ثم فصلا لمزاعم اسرائيل، ثم فصلا ثالثا لمزاعم العرب وفصلا رابعا لمزاعم الاسلام وفصلا اخر لمزاعم الفلسطينيين. انظر:

EPP, Whose Land is Palestine, 1970, P.257

فماذا فعلت هذه المراكز بخصوص هذا النوع من انواع الاعلام: ان معالجة هذه الموضوعات للرد على الدعاية الاسرائيلية يقوم على اساس معالجة الحقيقة باسلوب معين وبمنطق معين. وكل من يعرف فن العمل الدعائي يدرك جيدا ان هذه الدعاية التي تغلف بالاعلام هي من قبيل السهل الممتنع الذي يخضع لخبرة ودراسة تدور حول فهم النفسية موضع الاستقبال وحول معالجتها بتدرج معين دون ان يفرض ذلك الكذب او الاختلاق. وكان المفروض ان تولى تلك المراكز هذا النوع من الاعلام اهمية خاصة. ولو انها اقتصرت على تناول تلك الخمسة عشر اسطورة التي ذكرها لنا فورست وافردت لكل منها بحثا او دراسة لكان في هذا بداية جديرة بالتشجيع. وقد سبق من خلال دراستنا عن فلسفة الدعاية الاسرائيلية ان ابرزنا من خلال الدراسة الميدانية عناصر تصوير الدعاية الاسرائيلية للراي العام الغربي متمركزا حول اربعة مداخل فكرية تتفرع منها حوالي ثلاثين حجة ومنطق كل منها قابلة للمناقشة. اما كانت تستطيع تلك المراكز ان تخصص مجموعة من باحثيها لمناقشة هذا المنطق والرد عليه بالاسلوب الاعلامي النظيف الذي يسمح بنقل الحقائق للراي العام الغربي بدقة ووضوح؟ واذا كانت تلك المراكز قد تجد من دعوى انها تدافع عن القضية الفلسطينية وسيلة ضعيفة لتبرير هذا التخاذل فلماذا لم تتصد لتلك الاسطورة السائدة في الراي العام الغربي والتي استطاعت الدعاية الصهيونية ان تنسج من حولها اطارا كاملا من العداوة من خلال ربط شخصية المفتي بالحركة النازية؟

والخلاصة ان واجب هذه المراكز كان يجب ان يتجه الى اعلام ذو شقين: اعلام محلي يقدم ويحلل اطارا للحركة اساسه البحث عن القدرات الذاتية وتقديم الفلسفة العربية القادرة على ان تؤسس اطارا للمواجهة ينبع من واقعنا ومن تاريخنا الحضاري، ومن جانب اخر التصدي للراي العام الاوروبي باعلام خارجي يفند هذه المزاعم ويبرز الحقيقة عارية من كل كذب.

وهذا يقودنا الى ان نثير بعض التساؤلات المحزنة: اول هذه التساؤلات يدور حول تطور الدعاية الاسرائيلية. فالدعاية الصهيونية قبل وجود الدولة الاسرائيلية فهمت ضعفها نتيجة عدم وجود الاداة الحكومية. ماذا فعلت؟ انتقلت بقواها وضجيجها الى المجتمع الامريكي لانها لمست انها ان لم تجعل منطلقها هو الدعاية الداخلية فلا طريق لنجاحها. اما نحن في البلاد العربية ففي اللحظة التي نملك عشرين ارادة دولية لانزال نخلط بين الدعاية الداخلية والدعاية الخارجية. ولا نزال لانعرف قيمة الارادة

الحكومية عندما · نخاطب ونتحدث به في المجتمع الدولي . .

الملاحظة الثانية ترتبط باستراتيجية الدعاية والاعلام. فبينما نحن ننقل الفكر الاسرائيلي باسم المعرفة بالعدو، فان الدعاية الاسرائيلية تقدم دعايتها الى العالم العربي من خلال الاعلام العربي. سوف نذكر في غير هذا الموضع ذلك الحديث الدوري الذي تتناول فيه الاذاعة الاسرائيلية كتابا عربيا بالتحليل والموجه الى العالم العربي وباللغة العربية جاعلة من ذلك التحليل كهدف اساسي من خلال الاثر المتراكم، التشكيك في الوجود العربي وفي القدرة العربية. كتاب هجرة الادمغة، ثم كتاب نقد فكر المقاومة ليست سوى بعض النماذج التي جعلت الدعاية الاسرائيلية الاذاعية منها منطلقا للتشكيك في الوجود العربي اجتماعيا وسياسيا، انظر تحليلا لهذه التقاليد في مؤلف يعود الى اوائل هذا القرن ولكنه في حاجة الى كثير من المراجعة والتحليل العمقي والتساؤل عن اسباب اعادة اصداره في حلة جديدة:

ABBOTT, Israel in Europe, 1972, P.407.

٥٩ ـ الخلط بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي في التقاليد العربية ونتائجه:

اول هذه النواحي ذات النتائج المخيفة هو ان الاعلام العربي لم يستطع ان يميز بين الاعلام الخارجي والاعلام الداخلي ولا يزال يجعل جميع صور الاعلام تخضع لمنطق واحد اساسه منطق الاتصال الداخلي. مما لاشك فيه ان هناك من الاعتبارات ما تفرض دقة وحساسية في تطبيق المفهوم التقليدي المتعلق بالتميز بين الاعلام الخارجي والاعلام الداخلي على الاعلام العربي ولكن هذه الدقة والحساسية تفرض على العكس ان يواجه الموضوع بجدية اكثر من المعتاد.

وتتجلى عملية الخلط هذه بشكل واضح فيما يتعلق بالمتخصصين في العمل الاعلامي(٩). فهم صحفيون برعوا في الاعلام المحلي ولغته واساليبه واعتقدوا انهم لذلك صالحين للعمل في الاعلام الخارجي. هذه الناحية واضحة ليست فقط على مستوى البلاد العربية كل على حدة بل وايضا على مستوى جامعة الدول العربية. فادارة الاعلام بتلك الجامعة يشرف عليها ويوجهها رجال جاءوا من اجهزة الاستعلامات التي هي اساسا اجهزة تتجه الى الاعلام الداخلي. وهنا تبرز المأساة اكثر وضوحا لو تذكرنا نتائج هذا الوضع:

---

(٩) انظر حامد ربيع، نظرية الدعاية الخارجية، م.س.ذ، ص٣٧ وما بعدها.

(٩م) ليس هذا موضع التفصيل في دراسة عميقة لتحليل نواحي النقص في الاعلام العربي المحلي. فمحور التحليل انه ليس لدينا اعلام عربي خارجي ومن ثم ابراز نواحي الضعف في الاعلام العربي المحلي لاتفيد كثيرا وقد حددنا المنطلق الاساسي بان هذا الاعلام المحلي لايصلح للاعلام الخارجي. رغم ذلك بعض الملاحظات جديرة بان نسوقها بهذا الخصوص وبصفة اساسية وقد كررنا بان الاعلام له مستويات وان احد انواع اعلام جامعة الدول العربية هو ذلك المتجه الى المجتمع المحلي اي المجتمع العربي.

فأول ما نلاحظه هو سوء مستوى المعلقين السياسيين. ولعل اخطر نواحي التقهقر الاعلامي بهذا الشأن تبدو من ذلك الذي نستطيع ان نسميه الاسلوب الشخصي في التحليل السياسي. نقصد بذلك ان المحلل السياسي يحشو ما يكتب بوقائع فردية فاذا بتحليله السياسي مدعاة لتضخيم نفسه، والواقع ان اغلب المحللين السياسيين يتسمون كما سبق وذكرنا الى مدرسة المقال الادبي ويكاد منطقهم يتحدد بمنطق القصة ومفهوم الحبكة والاثارة. لايعنينا ان نقيم هذا الاعلام في المنطق الداخلي فليس هذا موضوع الدراسة، ولكن يجب أن نتذكر أن مثل هذا المنطق ومثل هذا الاسلوب لو انتقل الى العالم الخارجي لكان اكبر دعاية لتاكيد فشل مستوانا الفكري الذي تجعل منه الدعاية الاسرائيلية احد منطلقاتها في تشويه الطابع القومي العربي. كم كنا نتمنى ان يقرا كتابنا والمحللون لدينا احدى الصحف اليومية كجريدة الموند بانتظام ليتعلموا فن كتابة التعليق السياسي؟

على ان المأساة تصير اكثر وضوحا في التعليق الاذاعي. ورغم ان التحليل السياسي بالنسبة للعمل الاذاعي اكثر خطورة واكثر صعوبة لانه يفترض المعلومات الدقيقة السريعة فضلا عن القدرة على التركيز على المحاور الاساسية للمنطق الاعلامي والقدرة على الاستجابة السريعة الا اننا يندر ان نجد في نطاق التحليل الاذاعي اسم واحد يعكس تخصصا في موضوعه. والمفروض في التحليل السياسي الاذاعي ان يكون لديه بجوار الارشيف الضخم المتخصص نظاما كاملا للاحالة من حيث انواع الاهتمام ودرجاته وبحيث تستطيع الادارة المذكورة ان تقوم يوميا بعملية مزدوجة: اساسها الاول ما يسمى بغرفة العمليات لتحديد اهم واقعة جديرة بالتعليق. اساسها الثاني توفر علماء او متخصصون متعددون في كل نوع من انواع الاهتمامات بحيث يمكن الالتجاء اليهم والحصول على تعليقهم في عدة ساعات ولو تليفونيا. وثالثا توفر جهاز مكتبي كامل قادر على اعادة الصياغة واعادة تدوين الافكار وتقديمها بالاسلوب الاعلامي الصالح اذاعيا من جانب وتليفزيونيا من جانب اخر. هذه الناحية الثالثة تبدو اهميتها بالنسبة للاعلام المسموع لانها تعني اساسا عملية الصياغة واعادة تسجيل المفاهيم بطريقة غير مسطحة بحيث تكون البلورة حول حجة اساسية او اكثر تمثل بؤر الاهتمام المترابطة مع المنطق العام الكلي للعمل الدعائي. ولكنها تزداد اهمية في الاتصال المرئي حيث لاتكفي هذه العملية بل هي في حاجة الى عملية اختيار بالنسبة لبعض الصور والافلام التي يجب ان ترافق التعليق السياسي.

فأين من هذا الاعلام العربي؟

ان مجرد متابعة تعليقات الاعلام العربي تكفي لتاكيد الاخفاق الكلي والشامل في هذه النواحي وكل من عمل عن قرب مع الاجهزة المسئولة يعلم جيدا انها لم يقدر لها بعد ان تفهم هذه الحقائق. فكيف نتصور مثل هؤلاء في الاشراف على الاعلام الخارجي؟

انظر ملاحظات اخرى في زميل، م.س.ذ.، ص١١٠ وما بعدها.

اولا: الاعلام الداخلي في جميع البلاد العربية وبلا استثناء يسير على طابع غير علمي ولا تحكمه سوى الحبكة والاثارة. ونحن نعلم جميعا مدى تدهور مستوى الاعلام العربي (٩ مكرر). فلنقارن بين اي صحيفة عربية وصحيفة اخرى تماثلها في الخارج. سوف نكتشف في الحال مدى التخلف المخيف الذي تعبر عنه الصحافة العربية. وهذا يبدو في اكثر من ناحية واحدة: سطحية في التحليل، تكرار ممل، بطء في متابعة الاحداث، اختفاء كامل للمتوقعات، عدم قدرة على التنويع، انعدام للشخصية الذاتية. واذا كانت هذه الخصائص تبرز واضحة في الصحافة العربية رغم مالها من تقاليد في بعض البلاد فاننا نستطيع ان نتصور مدى عمق المأساة بالنسبة للاعلام الاذاعي. فهذا الاخير ليس مجرد مهنة اعلامية ولكنه تجميع بين الفن الاعلامي والفن الاذاعي في ان واحد. تزداد هذه الملاحظة وضوحا لو انتقلنا الى الاعلام السينمائي: التكنولوجيا تصير بمختلف الاعيبها ضرورة لازمة لنجاح العمل الاعلامي[10].

ثانيا: كذلك فان الاعلام الداخلي من الطبيعي وهو يتجه الى المواطن العربي عليه فقط ان يعكس اتجاهاته وان يحدثه بلغته ومستواه الفكري. مما لاشك فيه اننا نعلم بان مستوى المواطن الاوروبي او الغربي يختلف اختلافا كميا وكيفيا عن مستوى المواطن العربي، فكيف يحدث هذا بنفس ولغة واسلوب ومستوى الاول؟ النتيجة لايمكن ان تكون سوى عكسية: وهي ان ينظر الغربي الى مثل تلك الصورة من صور الاتصال على

---

(١٠) ساهم في هذا الوضع ايضا الاطار الاكاديمي. فدراسة الاعلام في البلاد العربية لاتزال تخضع للمنطق والاطار الفكري لكليات الاداب حيث يسودها ما يمكن ان يسمى فن المقال الادبي. حتى ان معظم علماء الاعلام او المشتغلين بالثقافة الاعلامية في الجامعات هم دخلاء على هذا التخصص. عندما خرج علينا سليم اللوزي في عدد الحوادث بتاريخ ١٦/٦/١٩٧٢ متحدثا عن «المهدر الاعلامي» في ذكرى الهزيمة نسي ان يعيد الى ذلك المهدر احد اسبابه الحقيقية وهو الاطار الجامعي. واذا كانت بعض الجامعات العربية قد بدات في الفترة الأخيرة تهتم بانشاء كليات للاعلام كما حدث في جامعة القاهرة وفي جامعة بيروت اللبنانية، فان هذا لايعني ان المأساة قد انتهت. فلا تزال الروح التي كانت سائدة في اقسام الصحافة بكليات الاداب هي التي تتحكم في الاطار العلمي لتلك الكليات. ويبدو هذا واضحا من متابعة مواد الدراسة واساتذة تلك المعاهد. وقد كان الواجب على جامعة الدول العربية ان تأخذ بيدها هذه الحركة وان تتبناها بان تخلق معهدا تابعا لها يعد متخصصين في الاعلام الخارجي. ويجدر بنا في هذا الخصوص ان نقدم الملاحظات التالية:

(أ) المعاهد القائمة تتجه اساسا الى الاعلام الداخلي وهذا يعني انها تعكس جميع النقائص التي سبق وذكرناها.

(ب) كذلك جميع هذه المعاهد لم تستطع بعد ان تفكر حتى هذه اللحظة في خلق ذلك الجيل المتخصص في المهنة الاعلامية الذي يرتفع الى مستوى مواجهة المشاكل التي تفرض وجودها على مجتمعنا في مرحلته الراهنة سواء بخصوص عملية التجديد والتحول الاجتماعي في الداخل او بخصوص المواجهة الفكرية ضد العدو الاسرائيلي في الخارج وكما قلنا هذه المعاهد والكليات الجديدة لاتزال تسير في مسارات السطحية وعدم التخصص حتى انه يصعب ان نجد رسالة واحدة ناقشها واشرف عليها متخصص في علم الاتصال.

(جـ) اضف الى ذلك ان انشاء هذه المعاهد لم تسبقه الدراسة الجادة وانما كان نوعا من تحقيق الاهداف الشخصية باسلوب رخيص اساسه ان ادوات الاعلام الجماهيري خير وسيلة للترويج والدفاع عن المصالح الشخصية.

ان انشاء كلية او معهد لايجوز ان ينظر اليه على انه عملية سهلة. يجب ان يسبقه وان يلاحقه تحليل دقيق ودراسة واقعية للمهام التي سوف يدعي لان يقوم بها المتخصص وابتداء من تحديد هذه المواصفات يتم اختيار اولئك الذين يجب ان يتم تشكيلهم ليقوموا بتلك الوظيفة. ان الاطار العام الذي يسيطر علينا هو اننا لانزال نعيش في متاهات الحرب العالمية الثانية دون ان نفهم طبيعة المرحلة التي نجتازها وكيف ان المعركة التي نواجهها اليوم تفرض علينا ان نعالج الاعلام كما سبق وحددنا بالنسبة للعمل الدبلوماسي على انه احد الادوات الحاسمة في تقرير مصير تلك المعركة

انظر مقالنا في مجلة الاذاعة والتليفزيون بتاريخ ١٠/١/١٩٧٠.

(د) ولا نستطيع ان نترك هذه المناسبة دون ان نتحدث عن معهد الدراسات والبحوث العربية التابع لجامعة الدول العربية. ماذا فعل حتى هذه اللحظة؟ سؤال الاجابة عليه في حاجة الى بحث مستقل لابراز مدى الاخفاق الذي حققه ومدى ما يعانيه من عدم قدرة على فهم طبيعة العمل الجامعي الايجابي في نطاق علم الحركة وبصفة خاصة منذ انتقل من القاهرة الى بغداد.

انظر ملاحظاتنا في حامد ربيع، عملية صنع القرار السياسي، م. س. ذ.، ص٣٣.

نها تعكس وتعبر عن حضارة اقل من مستواه الامر الذي ينتهي بان يخدم دعاية العدو.

ثالثا: كذلك نجد ان الاعلام العربي الداخلي تسيطر عليه في جميع البلاد العربية ظاهرة الخوف من الحقيقة، والتي احدى نتائجها ان كل اعلام يصير ترديدا اجوف للبيانات الرسمية. الصحفي العربي يأبى ان يقول الاشياء باسمها وهو في اغلب الاحيان ماجور، وسواء كان مأجورا للسلطة في المجتمعات غير الديمقراطية او كان مأجورا لبلد اجنبي في تلك التي تصف نفسها بانها مجتمعات ديمقراطية، فان النتيجة دائما واحدة، وهي اختفاء الضمير المهني. يختفي الضمير المهني ليحل موضعه نوع من عبادة صاحب النفوذ. كل هذا لابد وان يمنع القدرة والصلاحية او على الاقل لابد وان يشوه في مقوماتها. فاذا انتقل هذا الوضع الى الاعلام الخارجي لكان من السهل ان نتصور نتائجه[11]. ان اكثر من معلق واحد اجنبي يعلق على هذا بكلمة ذات دلالة: هو في اغلب الاحيان يقتصر على قراءة ملخص اخبار احدى الصحف ويعلن بصراحة عن انه ليس في حاجة الى ان يطلع على الصحف الاخرى العربية لانه يعلم مقدما انها جميعها ستكون صورة ممسوخة من الاخرى.

ثالثا: الناحية الثالثة المترتبة على النظرة الى الاعلام الخارجي على انه امتداد للاعلام الداخلي وتطبيق من تطبيقاته يبرز في تحديد جهة الاختصاص التي تتولى هذه العملية من الناحية الادارية. فالاعلام في مصر تتولاه هيئة الاستعلامات وهذا التقليد تتبعه اغلب الدول العربية ان كانت تلك الدول تملك جهازا مختصا بالاعلام الخارجي. ومن مراجعة جميع وزارات الخارجية في الدول العربية نلحظ انه لا توجد دولة واحدة بها جهاز للاعلام الخارجي. بعض الدول تملك ما يسمى ادارة الصحافة. وفي وزارة الخارجية التي وظيفتها استقبال المعلومات من الخارج وليس توجيه الاعلام من الداخل الى الخارج.

ولو ان احدا من المسئولين لدينا اعتنى بان يتساءل: كيف ينظم الاعلام في اسرائيل او ما هو سر نجاح الاعلام الاسرائيلي؟ ولو ان جامعة الدول العربية حاولت من خلال ذلك الجهاز الضخم صاحب الامكانيات المعروفة الذي لايزال يدور في حلقة مفرغة ان تقوم بجمع معلومات عن تنظيم هذا المرفق في الدولة العبرية لعلمت انه يخضع منذ نشاة تلك الدولة لوزارة الخارجية[12]. هذه التبعية اثيرت وفرضت بعض المناقشات على مستوى مجلس الوزراء الاسرائيلي في اعقاب حرب ١٩٦٧. قبل ذلك التاريخ لم يكن احد يجرؤ على ان يثير هذا الموضوع. لان هذا الجهاز كان يشرف عليه ويخطط له العالم المشهور «ليوكوهن» واستاذ العلوم السياسية بالجامعة العبرية. عقب وفاة العالم المذكور ظلّ الوضع على امره حتى جاء اسرائيل جاليلي وحاول ان يستخدم قوته واهميته في مجلس الوزراء الاسرائيلي في ان ينزع هذا الاختصاص من يد وزارة الخارجية فلم يوفق وفويل بالاخفاق التام. واستطاع ايبان ان يظل محتفظا بتبعية الاعلام الخارجي لوزارة الخارجية مؤكدا تلك الحقيقة الواضحة وهي ان الاعلام الخارجي هو نوع من انواع الدبلوماسية عبر الحدود[13]. عملية الالتصاق بالجهاز الدبلوماسي ليست مجرد ارتباط عضوي وانما هي تعني تفاعل في المفاهيم وتلاحم في الحركة ووحدة في الاساليب: انها بعبارة اخرى تنبع من مفهوم مختلف.

ولعل مثلا واضحا يؤكد النتائج المخيفة التي ترتبت على هذا الوضع.

في عام ١٩٦٣ دعت مصلحة الاستعلامات المصرية الصحفي البريطاني المشهور «انعود باويل» والذي كان يعتبر صديقا لمصر ليتولى الاشراف على مجلة«اراب اوبزيرفر» والتي توجهها هيئة الاستعلامات المصرية الى العالم الخارجي باللغة الانكليزية.

---

(١١) انظر جريدة الدستور الاردنية بتاريخ ٢١/٣/١٩٧٠، والسياسة الكويتية بتاريخ ٧/٧/١٩٧٢.

(١٢) انظر التفاصيل في حامد ربيع. فلسفة الدعاية، م.س.ذ.، ص٧٩.

(١٣) قارن جيروزاليم بوست بتاريخ ١٧/٦/١٩٧٠

(١٤) انظر POWELL. DISILLUSION BY THE Nile 1967, P.31.

عقب ان قضى في مصر اربعة اعوام منها ثلاثة شغل فيها منصب مستشار وزير الثقافة غادر مصر لينشر مؤلفا بعنوان «خيبة الامل في ارض النيل» نزل الى الاسواق في اكتوبر من عام ١٩٦٧ اي في تلك اللحظة التي كان العالم فيها لايزال تمر امام عينيه الصورة التي نعرفها جميعا والمرتبطة بحرب «الايام الستة».

وبطبيعة الحال لم تنس الصحافة العبرية ان تنشر منه مقتطفات ضخمة وان تعلق عليها بعباراتها المسمومة لتربط بين حقيقة هذه الخبرة ودلالتها والطابع القومي المصري وخصائصه»[١٤]. فعبارة كهذه ينسبها الكاتب للملك فؤاد «لاتنتظر النية الطيبة من المصريين انهم لايستطيعون ان يفهموا معنى ذلك» لابد وان توضع موضع الصدارة من صفحات كاملة.

متابعة الخبرة التي يرويها لنا الكاتب الصحفي السابق ذكره تفصح لنا عن حقيقة أسلوب التعامل مع الاعلام الخارجي: عدم التخصص اولا والاستهتار ثانيا. وهذا سبق وذكرناه. ولكن اخطر مافي الموضوع ان عملية الاعلام الخارجي تنتهي بان تصير نقل بعض المعلومات السطحية غير الدقيقة من الموسوعات العامة كالموسوعة البريطانية واتخاذها وسيلة للتكسب الرخيص. ويقول نفس الكاتب انه حاول الاصلاح بجميع الوسائل وعندما انتهى بالشعور باستحالة تحقيق اي صورة من صور تعديل الوضع القائم تخلي عن اي محاولة واتخذ قراره في نفسه: «علي ان اعتبر الموضوع باكمله كلعبة، طالما انهم يستمرون في الدفع...»[١٥].

٦٠ ـ مستويات الاعلام الخارجي وطبيعة العمل الدبلوماسي:

الناحية الثانية التي نلاحظها على الاعلام العربي انه لايميز بين مستويات الاعلام الخارجي. وهذا امر طبيعي طالما ان هذا الاخير لايساير العمل الدبلوماسي. لقد سبق ان راينا ان الاعلام الخارجي هو اداة لتنفيذ السياسة الخارجية. وانه يجب ان يسير متلاصقاً مع العمل الدولي يعدله ويلاحقه. وهذا يعني ان الاعلام الخارجي يجب ان يعكس طبيعة الموقف العربي من وجهة نظر الحركة السياسية. فالموقف العربي في اوضاعه المعاصرة يفترض مستويات اربعة للعمل الخارجي، وكل منها له خصائص مختلفة بل ومتميزة:

اولا: المستوى الثنائي حيث العمل الخارجي يدور حول علاقة دولة عربية بدولة اخرى وبصفة خاصة عندما تكون هذه الدولة الاخرى دولة عربية. الاعلام المصري في علاقته بالمملكة السعودية. او هذه في علاقتها بجمهورية السودان او تلك غي علاقتها بليبيا وهكذا.

ثانيا: المستوى الاقليمي اي تلك الصورة من صور النشاط الدبلوماسي وبالتالي الاعلامي المرتبط بالعلاقات المختلفة الخارجية بين دول القارة العربية[١٦]. هذا المستوى في كثير من الاحيان بل وفي اغلب

قصة هذا الصحفي تثير ملاحظتين: الاولى، سوء العمل الحقيقي في الادارات الاعلامية العربية والمتخصصة في عملية الاتصال الخارجي. فأغلبها كما ذكرنا لاتضم سوى بعض الصحفيين المحليين الذين لايملكون القدرة ولا المعرفة بالاعلام الخارجي ومن الطبيعي في تلك اللحظة ان تكون النتيجة ذلك الذي يصفه الصحفي المذكور. ولكن من جانب اخر يجب ان نسلم بسوء اختيار ذلك الذي تتعاون معهم الادارات العربية الاعلامية. ليس هذا اول صحفي بعد ان جمع الالاف ذهب وبصق على بلادنا. ان الواقع الذي يجب ان نسلم به هو اننا يجب ان نخلق رجالنا المعدين علميا ومهنيا للقيام بهذه الوظيفة. الاعلام الخارجي ايضا هو اسلوب من اساليب الدفاع عن النفس، ولايمكن ان نتصور ان نطالب الغير بالدفاع عنا. ايضا الدعاية الصهيونية في بدايتها واجهت نفس المشكلة ولكن سرعان ما خلقت جهازها الاعلامي ورجالها المؤمنين بقضيتها.

انظر التفاصيل في هالبرن، م.س.ذ.، ص٣١ وما بعدها.

(١٥) باول، م.س.ذ.، ص٣٢.

(١٦) انظر تاصيل هذه المستويات ايضا في العمل السياسي الخارجي في هولستي، م.س.ذ.، ص٢٧٩ وما بعدها.

الاحيان ينفصل ويستقل عن المستوى الجماعي، ونقصد بذلك أي المستوى الاقليمي ذلك الاعلام الذي يخرج من احدى الدول العربية ولكنه يتجه الى الدول الاخرى العربية بقصد او دون قصد ولمجرد انه قد صيغ باللغة العربية. واذا كانت الحواجز لاتزال قائمة بين اغلب هذه الدول سواء اكانت هذه الحواجز من صنع القانون او بحكم الواقع، فان بعض انواع الاعلام المكتوب والمسموع استطاعت ان تحقق نوعا معينا من الاشعاع الذي لا موضع للمناقشة في اهميته. صوت العرب بالنسبة للاعلام المسموع وبعض المجلات اللبنانية كالحوادث او الديار فيما يتعلق بالاعلام المكتوب خير مثل يعبر عن هذه الحقيقة.

ثالثا: ثم هناك المستوى العالمي في معناه التقليدي اي الذي يتجه من اي دولة عربية الى العالم الخارجي في تلك الابعاد الاخرى غير الابعاد التي اسميناها بالمستوى الثنائي او المستوى الاقليمي.

رابعا: ثم هناك المستوى الجماعي اي ذلك الذي يرتبط بجامعة الدول العربية استقبالا او ارسالا اي الذي تقوم به جامعة الدول العربية من خلال اجهزتها المتخصصة . فادارة الاعلام بجامعة الدول العربية ومن خلال مكاتبها المنتشرة في الخارج تقوم باعلام جماعي، بمعنى انه اعلام يفترض فيه انه يمثل المجتمع العربي كحقيقة كلية في مواجهة العالم الخارجي.(١٧)

٦١ ـ الواقع العربي واهمية التمييز بين مستويات الاعلام الخارجي:

هذا التمييز ينبع لا فقط من طبيعة العمل الدبلوماسي بصفة عامة في المجتمع المعاصر بل وكذلك من طبيعة الموقف العربي من خلال صراعه الذي نعيشه في هذه اللحظة. وحيث ان النشاط الخارجي يجب ان يقوم على اساس التمييز الواضح بين العمل الثنائي والنشاط الاقليمي والتحرك الدولي فكذلك الاعلام الخارجي يجب ان يخضع لهذا التمييز ثم تاتي عملية وجود اختصاص اعلامي لجامعة الدول العربية فتفرض على هذا التمييز صورة جديدة تجعل من ضرورة التفرقة بين مستويات العمل الاعلامي حقيقة اكثر الحاحا ازاء الواقع العربي (١٨).

---

(١٧) وهذا هو الميدان الاصيل الذي يجب ان تركز في نطاقه جامعة الدول العربية نشاطها الحقيقي. على انه بطبيعة الحال هذا المستوى الجماعي قد يختلط بما اسميناه بالمستوى العالمي.

التمييز بينهما رغم ذلك واضح: فجامعة الدول العربية تمثل من جانب حلقة وصل بين المجتمع العربي والعالم الخارجي ومن جانب اخر اداة خطاب بين المجتمع العربي لو تصورناه حقيقة مستقلة والدول العربية. بهذا المعنى المستوى الجماعي يجمع كلا المستويين الاقليمي والعالمي ولكن وقد ارتبط بجامعة الدول العربية. هذه المفاهيم غير واضحة في زميل، م.س.ذ.، ص٢٥٩ وما بعدها.

(١٨) ليس ادل على مدى عدم وضوح طبيعة المستوى الجماعي للاعلام العربي من متابعة ماتقوم به اللجنة المسماة «لجنة خبراء الاعلام العرب» التي تمثل احد الاعمدة الاساسية للتنظيم الاعلامي بجامعة الدول العربية. ويكفي تاكيدا لهذه الحقيقة ان نعود الى مايسمى بدستور العمل الاعلامي العربي المشترك الذي تمخضت عنه جهود تلك اللجنة واصدرته منذ عام ١٩٦٧ حيث تحدد اهداف العمل الاعلامي العربي بالآتي:

«١ ـ تبصير الجماهير العربية بابعاد المعركة ضد العدوان الاستعماري المستتر وراء اسرائيل، والقوى الدافعة للعدوان، المساندة له، المستهدفة تجميد التطور العربي لحساب المصالح الاستعمارية لتقف منها الجماهير العربية الموقف الذي تفرضه المعركة في مواجهة كل قوى العدوان، وتهيئة هذه الجماهير لمواصلة النضال على كل المستويات وفي كل المجالات، حتى تتم ازالة جميع اثار العدوان.

«٢ ـ التركيز على وحدة الاهداف والمصير بين ابناء الشعب العربي، وتوعية الجماهير العربية بدقائق الوجود العربي، وتنبيهها الى الخطر الداهم الذي تمثله قوى الصهيونية المتحالفة مع الاستعمار، وجمع كلمة العرب على العمل الموحد في سبيل تحرير فلسطين والاجزاء المحتلة من الوطن العربي، ووقوفهم كتلة واحدة امام اي عدوان يوجه الى اي دولة عربية.
«٣ ـ نشر الوعي بحركة القومية العربية، منطلقا من التراث الحضاري العربي نحو البناء العلمي لمستقبل الامة العربية وتطورها في طريق الانماء والتقدم والازدهار، وترسيخ ايمان المواطن العربي بالمقدسات والقيم الروحية.
«٤ ـ تعزيز ثقة المواطن العربي في امكانيات الامة العربية على اساس واقعي، حفزا له على النهوض بواجبه القومي في جميع المجالات.
«ـ الانفتاح على الحضارة الانسانية اخذا وعطاء.
«٦ ـ تعميق روح الاخوة الانسانية اساسا لسلام قائم على العدل، انطلاقا من جوهر القيم العربية واستهداء بميثاق الامم المتحدة والاعلان العالمي لحقوق الانسان.
«٧ ـ حشد قوى الشعب العربي لمناهضة التيارات الفاشية العنصرية في العالم، وتوضيح طبيعة اسرائيل كقاعدة عدوانية فاشية.
«٨ ـ اظهار الراي العام العالمي على محاولات القوى الاستعمارية والصهيونية تحقيق مكاسب عدوانية على حساب الارض العربية، وضرورة تصفية جميع اثار العدوان تصفية عاجلة انقاذا للسلام، والاصرار على عروبة القدس ومنع اسرائيل من المضي في التدابير غير المشروعة التي بدأتها، ومن استمرارها في العبث بحرمة الاماكن المقدسة متحدية في ذلك قرارات الامم المتحدة.
«٩ ـ نشر حقائق الوجود العربي في الخارج، والتعريف بعدالة قضايانا، وعلى وجه الخصوص قضية تحرير فلسطين والاجزاء المحتلة من الوطن العربي، وحرصنا على دعم السلام العالمي القائم على العدل لخير البشرية جمعاء.
«١٠ ـ التعريف بالوطن العربي مهد الحضارات ومهبط الرسالات والدور الذي اضطلع به الانسان العربي في هداية البشرية وحمل رسالة الاخوة الانسانية، وتحرير الانسان، وسيادة المحبة بين البشر، ومدى ما شارك به في الحضارة الانسانية، وما ساهم به من تضحيات في حماية الاثار الحضارية والمقدسات الدينية.
«١١ ـ نشر الوعي بحركة القومية العربية، قوة تمتد جذورها الى ماضي حضاري عريق، تنكر التعصب وتناهض تياراته العاطفية، والفاشية العنصرية واصوله الاستعمارية والصهيونية، وتدعو للاخاء الانساني القائم على العدل بين البشر، وتستهدف وصل ما انقطع في حياة الامة العربية دفعا للتطور وسعيا لرفع مستوى العيش للسواد الاعظم من ابناء هذه الامة، وكفالة للازدهار الاجتماعي سبيلا للامن الجماعي.
«١٢ ـ الكشف عن القوى العدوانية المتحالفة التي تفتعل المعارك ضد التطور العربي طمعا في التمكين لسيطرتها واستغلالها غير المشروعة بانشاء اسرائيل قاعدة عدوانية لتمزيق الوجود العربي الواحد وتهديد امن المنطقة العربية واكراه اهلها على الرضوخ للعدوان واثاره.
«١٣ ـ كشف الخطة التي تمارسها اسرائيل بعد احتلالها فلسطين وبقية الاراضي العربية المحتلة والهادفة الى استئصال الشعب العربي من ترابه الوطني، وتدمير شخصيته القومية بفرض اللغة العبرية لتحل بالاكراه محل اللغة العربية، وكذلك فرض قيم ونماذج فكرية سلالية على شعب عربي يتعلق بلغته وقيمه القومية وتراثه الوطني.
«١٤ ـ التنديد بالصهيونية كحركة عنصرية تبنتها قوى الاستعمار العالمي تجدد بها ماسي الفاشية في الوطن العربي تخريبا وتدميرا، كما تبنت غيرها من الحركات العنصرية في افريقيا مرتكزات لتحقيق اهداف الاستغلالية.
«١٥ ـ كشف النشاط الصهيوني المخرب الارهابي في العالم فيما يمارسه من اعمال الاغتيال والخطف والتنكيل، وما اقترفه ولايزال من مذابح واسعة النطاق في فلسطين وخارجها، وفضح مسئولية القوى الاستعمارية عن هذه الجرائم.
«١٦ ـ كشف الانغلاق العنصري والديني الذي تقوم عليه اسرائيل، واضطهادها لعرب فلسطين وتمييزها ضد اليهود الشرقيين ذاتهم ووصمها باللادينية كل يهودي لايؤمن بالهجرة اليها وتحريف قول الدين عن موضعه.
«١٧ ـ التنديد بالحرب العدوانية والدعوة الى تصفية جميع عوامل اثارتها تحقيقا للسلام القائم على العدل.
«١٨ ـ تعميق التفاهم، وتعزيز اسباب التعاون مع الشعوب المحبة للسلام، وبوجه خاص شعوب اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية استنادا لوحدة الالام والامال، والنضال المشترك في مواجهة التحديات الاستعمارية في سبيل الحرية والتقدم.
«١٩ ـ التاكيد على ان الامة العربية، المؤمنة بحق الشعوب في حياة امنة من الخوف مطمئنة الى حاضرها ومصيرها، تمد يدها الى كل شعوب الارض، دون نظر الى اختلاف الدين او العقيدة او الجنس او اسلوب الحياة، للتعاون على توفير اسباب الحرية والتقدم والسلام».

فهل هذه الموضوعات الانشائية كانت في حاجة الى لجنة من الخبراء، وما الذي قدمته اكثر مما يستطيع ان يكتبه طالب في المدارس الثانوية؟ وكم كلفت هذه اللجنة جامعة الدول العربية في سبيل تجميع هذه الفقاعات؟ والاكثر من ذلك ماذا فعلت اللجنة منذ ذلك التاريخ حتى هذه اللحظة؟
انظر ايضا الاهرام بتاريخ ١٩٦٧/٨/٣١.

وتبدو هذه الملحوظة واضحة عندما نتذكر كيف يختلف الهدف في كل من هذه المستويات وكيف يستتبع ذلك طبيعة وفنا ولغة مختلفة.

(أ) فالاعلام الخارجي في نطاق العلاقات الثنائية يرمي الى تعميق الروابط القائمة بحيث يصير العمل الدبلوماسي ليس مجرد علاقات سطحية بين طبقات حاكمة وانما امتداد لعلاقات حضارية بين مجتمعين.

(ب) ولكنه في العلاقات الاقليمية يصير وقد اضحى هدفه الاساسي اعادة الثقة في الذات وتكتيل القوى المحلية في مواجهة الخطر الصهيوني. انه يسعى اساسا لتكتيل الوعي الاقليمي بالخطر الذي احدثه وجود عنصر غريب في المنطقة لايمكن ان يؤدي الا الى احداث هوة سوف تزداد اتساعا مع مضي عامل الزمن.

(جـ) على العكس من ذلك في نطاق الاسرة الدولية اي في نطاق تلك الدائرة الواسعة التي تشمل وتحتضن المجتمع الدولي فان الهدف لابد وان يختلف. انه اساسا عملية خلق قوى ضاغطة محلية اجنبية تستطيع ان تساند العمل العربي انبثاقا من داخل المجتمع الاجنبي ومن قواه الذاتية في علاقات العالم العربي الخارجية مع تلك الدول.

(د) ولكنه على المستوى الجماعي (١٩) يتجه اساسا الى تقديم صورة قومية نظيفة وقد ازيلت عنها تلك الشوائب التي خلقتها الدعاية المضادة وحيث استطاعت الدعاية الصهيونية ان تؤدي الى تراكمات بخصوصها في الوعي الجماعي الغربي.

وهي حتى اذا اتجهت الى المجتمع المحلي اي المجتمعات الاقليمية المختلفة التي تندرج في دائرة نفوذها الذاتية فهي كما سوف نرى فيما بعد لاتتجه اليه الا حيث تكون الغاية الارتفاع عن مستوى الخلافات المحلية وخلق صورة الوعي الجماعي للمصالح الكلية.

---

(١٩) خلق الوعي الجماعي يعني اساسا اجراء عملية توعية بقصد تحقيق اهداف ثلاثة كل منها يكمل الاخر:

(اولا) خلق او تعميق علاقة ولاء جديدة اساسها الشعور بان الانتماء درجات، احداها فقط تلك المرتبطة بالنوازع الاقليمية ولكن هناك درجات اخرى تختلف من حيث مضمونها واتساعها وعمقها وهي تلك الجماعية بحيث تحتضن الاقليمية وتتخطاها.

(ثانيا) ربط علاقة الولاء القائمة والتي تدور حول الانتماء الاقليمي بعلاقة الولاء الجديدة بحيث تتحدد بتلك الاخيرة وجودا وعدما وتنصهر في اطارها وبوتقتها الحركية.

(ثالثا) رفع جميع مصادر واسباب التناقض بين علاقات الولاء القائمة وتلك الجديدة اي بين عناصر الانتماء الاقليمية وعلاقة الولاء الكلية الجماعية الجديدة.

مثل هذه المهمة لايمكن ان يقوم بها في نطاق اي تطور وحدوي الا واحد من ادوات اربع:

(اولا) حزب يقف من السلطة المحلية في اي من المجتمعات الشعوبية يجعل من مبدا تحقيق الوحدة هدفه النهائي الذي يسمح وحده عندما يتحقق بان ينتقل من مصارعة السلطة الى ممارستها.

(ثانيا) دولة قائد او Pilote State تأخذ على عاتقها هذه المهمة، اي مهمة ترشيد الجماعات الاخرى الاقليمية، وتوجيهها فكريا وحركيا نحو الاقتناع بالوحدة السياسية بمختلف درجاتها. بروسيا في تاريخ المانيا الحديثة تقدم لنا نموذجا واضحا لهذا التطبيق.

(ثالثا) وقد تكون الاداة مجرد قائد سياسي امن بالمبدأ وجعل منه منهاجه الفكري وسعي من خلال الحركة لتحقيق مثاليته. بطبيعة الحال القائد دون اتباع Followers ومؤمنين مقضي عليه بالفشل وهذا يعني ان القائد في حاجة الى طبقة مختارة من القيادات الفرعية على استعداد لان تسير خلف قائدها وقد ربطتها به تلك المثالية دون قيود. ديجول يذكرنا بهذا النموذج، ومن قبله ماتزيني الايطالي.

(رابعا) وقد تكون منظمة اقليمية حيث تتجمع فيها لافقط الحكومات بل وكذلك الشعوب وحيث تستطيع بانفصالها ولو الشكلي عن المصالح الشعوبية ان ترتفع عن مستوى الانانيات المحلية التي ترتبط بها الطبقات الحاكمة في مختلف جزئيات المجتمع الكلي.

الواقع العربي يفرض على جامعة الدول العربية ان تصير الاداة الوحيدة المهياة لخلق الوعي الجماعي بقصد تحقيق تلك الاهداف السابق ذكرها. تحليل اسباب ذلك يفرض علينا ان نناقش مشكلة الوحدة السياسية ونماذجها وادواتها، وهوموضوع يخرج عن نطاق هذه الدراسة، انظر بخصوص النواحي النظرية لهذه المشكلة، حامد ربيع، نظرية التطور السياسي، ١٩٧٢، ص١١٢ وما بعدها.

وهكذا نجد ان العلاقات الثنائية تعني التعانق الحضاري والعلاقات الاقليمية تفرض التكتل الحركي المنصب والمتجه نحو حماية الوجود الذاتي. وفي العلاقات الدولية يصير اساسا عملية خلق قوى ضاغطة محلية تستطيع ان تؤثر على صانع القرار المحلي او الداخلي والذي هو دائما اجنبي بالنسبة للعالم العربي. اما في العلاقات الجماعية فان الهدف الرئيسي هو خلق علاقة ولاء جديدة.

تعدد الاهداف بهذا المعنى لابد وان يفرض لغة مختلفة وتخطيط مختلف بل ولايمكن ان ينبع الا من فلسفة مختلفة (٢٠).

فأين الاعلام العربي من كل هذا؟

على اننا قبل ان ننتقل الى مناقشة جهود جامعة الدول العربية وتحليل الاخفاق الذي تعانيه علينا ان نلاحظ من العرض السابق بعض الملاحظات:

اولا: اعلام جامعة الدول العربية من الممكن ان يأخذ صورة من اي من هذه النماذج الاربعة. ولكن النموذج الرابع هو وحده الذي يعنينا في هذا المجال. السبب في هذا يرجع الى عاملين: من جانب ان جامعة الدول العربية قد اثبتت ولاتزال تثبت انها ليس لها ارادة دولية وحيث ان الاعلام الدولي اي النموذج الثالث من مستويات الاعلام الخارجي يرتبط وجودا وعدما بتلك الارادة فاننا نسلم مقدما بضالة امكانيات الجامعة العربية بهذا الخصوص. ومن جانب اخر حيث ان الارادات الدولية المختلفة التي تتكون منها جامعة الدول العربية لم تتفق بعد على اسلوب واحد للعمل العربي في نطاق المجتمع الدولي، فان تصور امكانية خلق ارادة عربية من خلال جامعة الدول العربية امر بعيد المنال. ويرتبط بذلك وان كان ينقلنا بعيدا عن موضوع الدراسة، حقيقة تلك الجامعة: انها تمثيل لحكومات وليست تمثيلا لشعوب بل اذا اردنا ان نكون اكثر دقة: انها تمثيل رسمي لفئات حاكمة وليست تمثيل واقعي لقوى سياسية.

ثانيا: على أنه فيما يتعلق بالعمل على المستوى الجماعي للحركة السياسية من خلال النشاط الاعلامي يجب ان نتذكر ان هذا المستوى الجماعي ذو شقين: شق داخلي وشق خارجي. الاول يتجه الى القوى العربية لخلق ما اسميناه بعلاقة الولاء. الشق الثاني يتجه الى العالم الخارجي لتقديم تلك الصورة المرتبطة بالوجود العربي في نطاق القوى العالمية. بعبارة اخرى جامعة الدول العربية تصير حلقة الوصل بين الامة العربية بغض النظر عن تمزقها والعالم الخارجي في محاولة خلق قنوات الاتصال الفكرية كمقدمة ومساندة للحركة السياسية الخارجية في نطاق القوى العالمية (٢١)

---

(٢٠) قارن حامد ربيع، البترول العربي، م س ذ.، ص٢٥ وما بعدها.
لاحظ كيف اننا تحدثنا في تلك المناسبة عن ان اداة الوحدة يجب ان تتركز في القوى السياسية غير الحكومية واننا جعلنا تلك القوى السياسية غير الحكومية تتبلور حول الحزب من جانب والطبقات المثقفة من جانب اخر. ونضيف اليوم جامعة الدول العربية كعنصر أخر يستقل عن الاداة الحكومية ويرتفع عن مستواها ليصير ارادة جماعية. وهنا نلحظ مرة اخرى الاخفاق الشامل لجامعة الدول. فالمشاكل التي كان يجب ان تواجهها تلك الارادة ثلاثة: خلق الوعي الجماعي، تنظيم التعاون بقصد استغلال الثروات الطبيعية وعلى وجه الخصوص البترول العربي. تكتيل القوى الذاتية في عملية المواجهة مع العدو الصهيوني. هذه النواحي الثلاث في واقع الامر تمثل الاواني المستطرقة لان ايا منها تقود للاخرى. ولو القينا ببصرنا على اي من هذه النواحي لما وجدنا سوى الفشل الكامل. وقد يكون من المفيد في هذا الخصوص ان نذكر القائمين بالعمل في هذه الجامعة بالنموذج الغربي للوحدة السياسية وللسعي نحو الاندماج الحضاري في مختلف اجزاء المجتمع الاوروبي انظر.
PEDINI, Tempo d'Europa, 1972, P.231.

(٢١) يرتبط بذلك ايضا مايسمى بالوظيفة الثقافية للمنظمات الاقليمية وهي ناحية لم تتصورها جامعة الدول العربية بدورها الا على انها تجميع لوثائق ومخطوطات. ورغم انها انشأت ايضا معهد الدراسات والبحوث العربية الا ان حصيلته كما سبق ورأينا ضئيلة. انظر على سبيل المثال بقصد المقارنة الاتفاقية التي وقع عليها بمدينة فلورانس في ١٩ ابريل ١٩٧٢ بين دول السوق المشتركة بخصوص انشاء ما اسمته بالمعهد الجامعي الاوروبي. وقارن على سبيل المثال المواد السادسة فقرة ٧ والعاشرة حتى السابعة عشرة والمادة الثلاثين، فقرة ٣ ثم المادة الواحدة والثلاثون.

٦٢ ـ اعلام جامعة الدول العربية وخصائصه:

خير ما يعكس الاوضاع المعاصرة للاعلام العربي وحقيقة الاخفاق الذي يعاني منه هذا الاعلام تقدمه لنا جامعة الدول العربية (٢٢).

وقد كان من الطبيعي منذ وجود هذه المنظمة ان ترتبط بجهاز يكون حلقة اتصال بينها وبين العالم الخارجي من جانب وبينها وبين وحدات العالم العربي من جانب اخر. فهي منذ انشائها قد حددت هدفها الأصيل وهو خلق التعاون بين الحكومات العربية. والتعاون يعني اتصال ويعني ايضا خلق راي عام مساند يسمح بتدعيم ومساندة الحركة السياسية المرتبطة بتلك العملية. على انه عقب عام ١٩٦٧ فقد كان من الواضح ان مشكلة العالم العربي لم تعد تتحدد بنفس المقومات والمتغيرات التي تحددت بها تلك المشكلة قبل ذلك التاريخ. فعقب عام ١٩٦٧ اضحى واضحا بلا موضع للجدل والمناقشة ان هناك حركة اجنبية مزروعة في قلب الوطن العربي تسعى الى تفتيته تمهيدا لابتلاعه على الاقل من حيث النفوذ والسيطرة. جامعة الدول العربية ظلت حتى تلك اللحظة تتابع وجودها من خلال اطارها الهيكلي الذي عرفته خلال عام ١٩٤٥ وهو اطار اساسه تنسيق علاقات جوار مع مجموعة من الدول ذات الإصل المشترك. وهكذا كانت أهدافها كما يمكن أن تستخلص من اطارها النظامي الذي عبر عن وجودها تتجه اساسا الى تحقيق درجة من درجات التنسيق الداخلي في النشاط الاقليمي.

رغم ان جامعة الدول العربية كان عليها منذ فترة لاتقل عن خمسة عشر عاما قبل الهزيمة الثالثة ان تكتشف حقيقة التغير الذي اصاب المنطقة اولا واصاب الاطار العام للعلاقات الدولية الاقليمية ثانيا وبالتالي كان لابد وان يحدث اثاره في وظيفتها، الا انها ظلت في حالة من الركود والتعفن حتى جاءت الصدمة النفسية مع حرب الايام الستة. واذا كان من الممكن تبرير ذلك الموقف حتى تلك الصدمة فكيف نجد له اي مخرج عقب ذلك؟ عقب عام ١٩٦٧ اضحى واضحا حتى بالنسبة للراي العام المحلي غير المثقف ان اهداف الاعلام الصادر من جامعة الدول العربية يجب ان تتغير لان تلك الجامعة بحكم الواقع لم تعد تمثل الحقيقة

---

(٢٢) على اننا لايجوز لنا ان ننسى بهذا الخصوص المسئولية الخطيرة التي يتحملها بهذا الشان الاعلام المصري. والواقع ان اهمية الاعلام المصري تعود الى اكثر من متغير واحد: فأولا هو يمثل تقاليد وخبرة لم يقدر لاي من الدول العربية الاخرى ان تحصل عليها حتى اليوم ثم ثانيا هو اكثر ارتباطا بجامعة الدول العربية سواء من حيث علاقة التواجد المكاني، سواء من حيث القائمين بالعمل الاعلامي. رغم ذلك فالامر الذي يجب ان نسلم به ان الاعلام المصري في الفترة الاخيرة وبصفة عامة ابتداءا من عام ١٩٥٦ اي قرابة الثلاثين عاما الماضية لم يقدر له سوى الانهيار المستمر. ورغم ان دراسة هذه الناحية دراسة علمية اي دراسة كمية وكيفية تعبر عن نفسها بالارقام وليس بمجرد الانطباعات لايسمح بها هذا المكان، الا اننا نستطيع ان نسوق بعض المؤشرات:

اولا: بالنسبة للصحافة اليومية فالصحف اليومية التي تصدر اليوم في مصر هي اربعة، الاهرام، الجمهورية، الاخبار، المساء، فلو تناولنا اهم هذه الصحف اي جريدة الاهرام ولو تناولنا اهم اعدادها اي اهرام الجمعة والذي يرتفع الى اثني عشر صفحة ويوصف بانه العدد الاسبوعي، ولو تناولنا على سبيل المثال احد اعداد الجمعة بالتحليل فما لنا ما تكشف عنه الارقام.

فلنأخذ على سبيل المثال عدد يوم ٦ يوليو ١٩٧٣. هذا العدد صدر خلال المناقشات الهامة التي تجري في القاهرة حول موضوع الوحدة. وهو يصدر في نفس اللحظة التي تثور فيها مشاكل دولية خطيرة، من بينها نتائج التقارب السوفيتي الامريكي اولا، ثم ازمة الدولار وما تحدثه من نتائج اقتصادية ثانيا، ثم تحرك اسرائيلي بقصد التواجد في مؤتمر الامن الاوروبي كرد على محاولات سماع ممثلي شمال افريقيا في هذا المؤتمر ثالثا. والسؤال الذي نفرضه على انفسنا ولو بتحليل جزئي لهذا العدد هو التالي: اين هذا النموذج للصحافة اليومية المصرية من واجبه نحو الراي العام المصري بصفة خاصة والعربي بصفة عامة؟

فلنبدأ بان نجزأ العدد الى مقوماته الموضوعية: نستطيع ان نميز في مضمون العدد اجمالا بين ستة مجموعات:

اولا: الاعلانات وما في حكمها كالوفيات وتستغرق من مسطحات الجريدة حوالي ٦٥٪.

ثانيا: ثم ياتي عقب ذلك في الاهمية حديث بصراحة لرئيس التحرير الذي يبتلع من العدد ١٠٪.

ثالثا: والباقي اي ٢٥٪ من الجريدة اليومية يتوزع بين: حوادث دولية، اخبار سياسية داخلية، تعليقات اسبوعية، موضوعات ثقافية، تعليقات اسبوعية عربية، اخبار رياضية، المقال اليومي من غير عنوان واخيرا ما نستطيع ان نسميه بمتفرقات. واذا افترضنا ان جميع هذه الابواب الثمانية تشغل حيزا متساويا لكان معنى ذلك ان الحوادث الدولية لا تشغل اكثر من ٣٪ اي ما يساوي اقل من ١/ ٢٠ مما يخصص للاعلانات. وسوف نرى ان التحليل الكيفي سوف يثبت انه حتى هذه النسبة لم تحصل عليها الحوادث والاخبار الدولية.
ولو عدنا الى هذه الابواب الثمانية لوجدنا انها تقريبا توزع من حيث الكم بالنسب التالية:

حوادث دولية: ١/٤ عمود
حوادث سياسية داخلية: ٦ ١/٢ عمود
تعليقات اسبوعية دولية: ٣ عمود
موضوعات ثقافية: ٣ عمود
تعليقات اسبوعية عربية: ٤ عمود
اخبار رياضية: ٢ عمود
من غير عنوان: ٢ عمود
متفرقات: ٢ ١/٤ عمود

ومعنى ذلك ان حاصل ما يخصص لجميع هذه الموضوعات هو ٢٥ عمودا بالنسبة لجريدة الصفحة فيها تمثل ثمانية اعمدة من الحجم الصغير ومعنى ذلك ان ما تتناوله الجريدة حقيقة من اعلام لا يزيد عن ٣: ١٢ اي ٢٥٪ من مجموع مسطحاتها وهو ما سبق ووصلنا الى تحديده عقب استبعاد الاعلانات وحديث بصراحة.
على ان اخطر ما في الامر هو ان نتناول هذا الاعلام بالتحليل الكمي من حيث علاقاته المتداخلة فنجد ان الاخبار السياسية الداخلية وما في حكمها يبتلع من المجموع الكلي حوالي ٣/ ٥ هذه المسطحات. وان الحوادث الدولية والتعليقات الاسبوعية الدولية والتعليقات الاسبوعية العربية لاتزيد على تسعة اعمدة اي تكاد لاتتناول اكثر من صفحة من اثني عشر صفحة.
فاذا انتقلنا الى التحليل الموضوعي لوجدنا ان النتائج اكثر خطورة.
أ ـ فالحوادث الهامة التي برزت على صفحات الجريدة والتي سبق وذكرناها ومن بينها على سبيل المثال ما ياتي بالصحفة الاولى بخصوص طلب ايبان بتخصيص وقت لاسرائيل لتعرض وجهة نظرها على مؤتمر الامن الاوروبي اذا وافق المؤتمر على ان تتحدث احدى الدول العربية امام المؤتمر لا موضع لاي تعليق عليها. ولو تابعنا الجريدة عقب ذلك لمدة اسبوع لما وجدنا لهذا الخبر اي صدى في تحليلاتها اليومية او الاسبوعية.
ب ـ فاذا قارنا بين المساحة المخصصة في «من غير عنوان» لزواج «نجلاء فتحي» لوجدنا ان هذا الخبر وملحقاته قد استغرق من مساحة الجريدة حوالي ضعف الخبر المتعلق بازمة هبوط الدولار واتجاه الامم المتحدة الى استبعاد الدولار كليا او جزئيا كاساس لميزانها الحسابي ورغم اننا لانريد ان نتعرض في هذا المجال لتقييم من غير عنوان وما يقدمه في بعض الاحيان لجزئيات لا تصلح لجريدة يومية وظيفتها اساسا التثقيف السياسي الا ان هذه المقارنة وحدها فيها الكفاية.
جـ ـ فاذا انتقلنا الى التعليقات العربية وحاولنا ان نقيمها من حيث الموضوع لوجدنا انها بدورها تدعو لكثير من التساؤلات. فتحت تيارات عربية نجد معالجة لموضوعات ثلاث: دعوة لقومية الوفاق العربي، مجلس الامن وازمة الشرق الاوسط، تحديث القانون في العالم العربي. ومن العودة الى معالجة هذه الموضوعات فاننا لانملك الا ان نتساءل: هل موضعها وبصفة خاصة الموضوعين الاخيرين جريدة يومية حتى ولو كان عددا اسبوعيا؟
الواقع ان فن الاعلام اليومي يفترض تساؤلات معينة من حيث التخطيط الاتصالي. اساسها البدء بالتساؤل: من ذلك الذي اريد ان اصل اليه؟ ثم ماهي امكانياتي المكانية والزمانية في الوصول اليه ثانيا وعقب الاجابة الواضحة المحددة على هذين السؤالين يتم التخطيط للمادة الاعلامية. فهل تقوم جريدة الاهرام وهي رائدة الصحافة اليومية في مصر بهذا العمل وهل قامت به ولو مرة واحدة باسلوب علمي يعكس فهمها لحقيقة وظيفتها الاتصالية؟
فلو انتقلنا الى الاعلام التليفزيوني والاعلام الاذاعي لما لنا ما يعكسه كل منها من اضطراب وسوء في التخطيط. ان صوت العرب الذي عبر في اخطر لحظات وجوده عن نجاح حقيقي لم يستطع للاسف ان يرسي تقاليد تعبر عن حقيقة التطور العام الذي اصاب المشكلة العربية ومن خلالها يجب ان تخضع له جميع ابعاد الوظيفة الاعلامية عقب عام ١٩٦٧. ورغم اننا لانريد ان ندخل في تفصيلات ليس هذا موضعها فتكفي مقارنة ولو سطحية بين صوت العرب ومحطة الاذاعة البريطانية في اذاعتها الموجهة الى العالم العربي او اذاعة اسرائيل ايضا الموجهة الى العالم العربي. ففي نفس اللحظة التي نجد فيها الاعلام المصري مهلهلا غير مخطط

يتهرب فيها من المشاكل الحقيقية فاذا بالاعلام البريطاني والاسرائيلي يقوم على اساس التعبير الحقيقي عن الواقع المعاصر. فالى جانب الدقة والبساطة مع التصوير الكامل للمشكلة والتفسير الدقيق لابعادها فاننا نلحظ من منطق العرض ملاحظتين: تقديم مختلف وجهات النظر هو القاعدة المطلقة التي تسيطر على الاعلام السياسي. ولكن هذا لايمنع من ان يتخلل ذلك عملية ترجيح لـحية معينة وهي تلك التي يقصدها المخطط الاعلامي. وهنا نجد المناقشة الهادئة المدعمة بالحقائق والوقائع وليس الصياح والتكرار الذي لامعنى له فضلا عن انه مدعاة للملل.

ولو اردنا ان نقارن بين الاعلام المصري من جانب والاعلام البريطاني او الاسرائيلي من جانب اخر بالنسبة للاعلام المسموع للاحظنا ايضا نواحي اخرى جديرة بالتساؤل:

اولا: من حيث متابعة الاحداث فان الواقعة لاتمضي عليها عدة ساعات او على الاكثر يوم الا وهي موضع تحليل في الاعلام البريطاني والاسرائيلي. وهي هنا لاتقتصر على متابعة الاحداث بل انها تسعى للاستجابة مع المستمع بان تتصور تساؤلاته واستفهاماته او بعبارة اخرى تحاول ان تدخل في عقل المستقبل وتجيب على نواحي الفضول التي تشغل باله.

ثانيا: كذلك نلاحظ ان الاعلام البريطاني والاسرائيلي يجعل محاور اتصاله اربعة: الحوادث اليومية، الحوار مع المستمعين، التعليقات السياسية ثم الموسيقى، وهو في هذا انما يعكس طبيعة الاتصال المسموع. ان الاتصال المسموع وظيفته شغل اوقات الفراغ دون ارهاق والاجابة على التساؤلات اليومية دون تهرب. ولننظر الى ابواب الاعلام البريطاني: تقارير يكتبها كبار المتخصصين، حوار مع المستمعين، رسائل المستمعين، ثم سؤال وجواب. فاذا انتقلنا الى الاذاعة العبرية فلنسمع الى تحليل موجز تقدمه لنا نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية في ملحق العدد رقم (١) لعام ١٩٧١ ص٧: «تقدم الاذاعة الاسرائيلية تحليلات وتعليقات تتناول المشكلات الراهنة، يناقش خلالها المعلقون او الصحفيون او المسؤولون المشكلة المعروضة دون التزام بالموقف الحكومي الرسمي» والواقع ان صوت اسرائيل يكاد يعكس نفس الخصائص التي سبق وحددناها بالنسبة للاذاعة البريطانية. من اهم البرامج السياسية التي تبثها الاذاعة العبرية حاليا التحليلات الاخبارية التي تذاع مرتين في اليوم ظهرا ومساء وبرنامج شريط الاسبوع الذي يذاع كل يوم سبت والتعليق اليومي الذي تقدمه اذاعة الجيش الاسرائيلي مساء كل يوم.

ولعل ذكر مثل واحد جدير بالدلالة. ففي يوم ١٩٧٣/٥/٨ وبينما كان العالم العربي مشدودا على اعصابه بسبب حوادث الصدام المعروفة بين رجال المقاومة والجيش اللبناني والتوقعات بدخول القوات السورية الارض اللبنانية وما كان سوف يعقب ذلك من هجوم اسرائيلي على جنوب لبنان استمعنا الى الآتي: صوت العرب يحدثنا في برنامج يستغرق قرابة الساعة في حديث مع سيدة مشهورة ومذيع عن كيفية زواج ابنائها عن حب ام بغير حب، وراديو بيروت يعلق على تصريح خدام وزير الخارجية السورية بانه تصريح «كاذب ومختلق من اساسه وعار تماما من الصحة» اما راديو لندن فيخصص قرابة الساعة في مناقشة علمية وجادة ومبسطة عن المركز القانوني للجيش في اوضاعه الدستورية بالنسبة للوضع السياسي في لبنان. وراديو اسرائيل يتحدث عن النتائج السياسية لاختلال التوازن في المنطقة لو دخلت القوات السورية الارض اللبنانية.

الا يدعو كل ذلك للتساؤل؟

ولو اردنا ان ندفع بالمقارنة خطوة اخرى الى الامام لوجدنا ان الصحافة اليومية في تل ابيب على سبيل المثال تملك على الاقل ثلاثة عشر جريدة يومية صباحية وان كلا منها لديه ما بين خمسة وسبعة معلقين سياسيين على مستوى عال من التخصص والاستقلال. وهذا يعني ان لديها اكثر من مائة معلق سياسي متخصص يملك استقلاله الحركي بحيث يستطيع باسلوب او باخر ان يوجه الراي العام وان يخلق ادوات الاتصال لا بمعنى التأييد ولكن اساسا بمعنى المشاركة والتماسك.

فهل استطاعت الجرائد الكبرى اليومية العربية ان تخلق جيلا من المعلقين على هذا النحو؟ اين تقاليد جريدة الاهرام السابقة على الحرب العالمية الثانية، واين الامكانيات المخيفة التي استطاعت جريدتا الانوار والنهار اللبنانيات ان تكتلها خلال الاعوام الاخيرة؟ ان الروح العامة الثورية التي سيطرت على مصر منذ عام ١٩٥٦ وعقب الانتصار السياسي والدبلوماسي في معركة سيناء الاولى كان كافيا لخلق ذلك الاطار المهني، وجو الحرية الذي يعيشه لبنان فضلا عن الامكانيات المادية كان يسمح دون شك ان تحقق الجرائد اليومية ما استطاعت ان تحققه بها بعض الدوريات الاسبوعية. فلماذا لم يستطع الاعلام العربي حتى هذه اللحظة ان يخلق ادواته لصالح تكتيل الوعي القومي وتقوية جسور الثقة في الذات العربية؟

وقد يبدو من قبيل المبالغة ان نقارن بين ما فعله الاعلام الاوروبي خلال العشرين عاما الماضية في تاكيد الوعي القومي الاوروبي والتكامل الحركي بين مقومات الوجود السياسي في مجتمعات القارة القديمة وما يفعله الاعلام العربي خلال نفس الفترة ولا يزال يفعله حتى هذه اللحظة. العالم البريطاني «سامبسون» عندما يحدثنا عن الاوروبيين الجدد يجعل احد المتغيرات الرئيسية في خلق ذلك النموذج السلوكي اولا الصحافة اليومية ثم التليفزيون ثانيا ثم اخيرا السينما. ويذكرنا بهذا الخصوص بالجهود الواضحة التي يجب ان تدين بها حركة الوحدة الاوربية للمجلة الالمانية دير شبيجل ثم الجريدة اليومية الفرنسية الموند. فهل تتذكر ان جريدة الموند عاشت على امكانياتها الذاتية وخلال تلك الفترة الطويلة التي كافحت خلالها اي خلال حوالي ربع قرن من الزمان ولم تنزل الى نشر ولو صورة واحدة في اي عدد من اعدادها؟

انظر تفصيل ذلك في: SAMPSON, Les Nouveaux europeens, 1970, p. 301.

الدولية التي عبرت عنها خلال الفترة السابقة على ذلك التاريخ (٢٣). لم تعد جامعة الدول العربية مجرد اداة لتنظيم تعاون بين حكومات وانما اضحت رمزا لمقاومة عدو يسعى لتمزيق الجسد العربي واداة لتكتيل قوى الدفاع في مواجهة ذلك الخطر الذي افصح عن وجوده بصورة لم يكن لها مثيل من قبل.

وما لنا نذهب بعيدا والتاريخ يستطيع ان يقدم لنا نماذج مشابهة؟

ان علاقات التقارب بين مختلف الدول والدويلات الالمانية قبل غزو نابليون تذكرنا بصورة شبيهة بالوضع الذي عرفه العالم العربي في الاعوام العشرة الاولى اللاحقة لنهاية الحرب العالمية الثانية. حدث الغزو الفرنسي وباسم مبادىء الحرية والاخاء والمساواة خرج نابليون يمرغ في الاوحال الشرف الالماني ويهدد الحضارة التيوتونية. ورغم ان فريقا ضخما في المجتمع الالماني كان يؤيد مبادىء الثورة الفرنسية الا ان الجسد الالماني رفض الحضارة الفرنسية وكل ماقدمته من مفاهيم دون الحديث عن الارادة الغازية. واستطاع بسمارك عقب اكثر من نصف قرن ان يحقق ذلك التكامل النظامي الذي خلق المانيا الحديثة (٢٤). الواقع العربي لم يحاول ان يلقي ببصره عبر التاريخ ويستوعب منطقه. ورغم الخلاف الواضح بين حقيقة النصف الثاني من القرن العشرين لو قورنت باوضاع العالم المتمدين في النصف الاول من القرن التاسع عشر فان الدلالة واحدة بل تزداد قسوة وعنفا بالنسبة للعالم العربي. فالوجود الفرنسي هو وجود اوروبي ولايمكن ان يوصف الوجود الاسرائيلي بانه وجود عربي والمجتمع الالماني كان يعرف القوى المتعاطفة مع حضارة الثورة الفرنسية بل والمتكتلة مع مبادئها. وهو امر لا وجود له في العلاقة بين المجتمع العبري والمجتمع العربي. وفرنسا دخلت غازية باسم مبادىء الحرية والاخاء والمساواة ولا نعتقد ان اسرائيل تبتلع الارض العربية باسم هذه المبادىء. وفرنسا لم تطالب باستيعاب الارض الالمانية وانما كانت تزعم بحقها في القيادة في سعيها نحو تجميع اوروبا الجديدة على العكس من ذلك فان اسرائيل تعلن بصراحة ووضوح انها تقتطع من الارض العربية ومن العالم العربي ماتسميه بارضها المقدسة.

هل هناك حاجة الى دلالات اخرى للاقناع بجوهر هذا المنطق؟

والواقع ان التغير الجوهري في وظيفة جامعة الدول العربية احست به جماهير الامة العربية بل وعبرت عنه ارادتها الحاكمة(٢٥). ومع ذلك فقد ظلت جامعة الدول العربية لاترى ولا تسمع حتى هذه اللحظة. اتضحت هذه الاحاسيس والمشاعر من خلال اجتماع مجلس وزراء الاعلام العربي في دورة اجتماع طارئة في سبتمبر ١٩٦٧ اي عقب المأساة بثلاث اشهر. ومن العودة الى قرارات مجلس وزراء الاعلام العربي ببنزرت في تونس نجد انه اكد على ضرورة التمييز بين المرتكزات الاعلامية في الداخل والاخرى المرتبطة بالاعلام الخارجي. بغض النظر عن تقييم تلك القرارات وبغض النظر عما اذا كانت تلك القرارات متسرعة دون دراسة مسبقة من علمه الا اننا يجب ان نعترف باصالة تلك القرارات عندما ميزت بين الاعلام العربي الداخلي والاخر الخارجي ولم تقتصر على التمييز بل تعدت ذلك الى تحديد الاهداف. في الداخل الغاية التي يجب ان يدور حولها اعلام جامعة الدول العربية هو «التاكيد على حتمية الوحدة القومية كمنطلق للعمل العربي المشترك» اما في الخارج فمن خلال قائمة طويلة بالاهداف(٢٥) نجد ان مجلس الوزراء المذكور قد جعل محور الاعلام العربي يتركز «في عملية كشف طبيعة الصهيونية باعتبارها حركة قائمة على العنصرية والتعصب الديني مع ما يعنيه ذلك من دحض للحجج الصهيونية التاريخية والدينية. . .».

---

(٢٣) انظر FISHER, BASSIOUNI, Storm over the arab World, 1972, P.304

(٢٤) HALL STEIN, L'europe inachevee, 1970, p. 287.

(٢٥) LAROUI, l'ideologie arabe contemparaine, 1967, p. 117.

فماذا فعلت جامعة الدول العربية؟

لقد اضحت جامعة الدول العربية عبئا وعقبة ضد اي نجاح ممكن للاعلام العربي اي ليستطيع هذا الاعلام ان يكون اداة مؤثرة وذات فاعلية في السياسة الخارجية سواء على المستوى الدولي او المستوى المحلي. والسبب في ذلك يعود اساسا الى عديد من العوامل سوف نتناولها فيها بعد بالتحليل ولكن المنطلق الاساسي هو ان جامعة الدول العربية لاتقتصر على انها تعكس تناقضات داخلية بل هي ترفض اي محاولة ايجابية لوضع حد لتلك التناقضات[26]. هي اولا تعكس تناقضات داخلية وذلك بحكم كونها تجميع لسياسات. ومن ثم فهي لاتمثل ارادة واحدة ولا تعكس اي سياسة متناسقة. على ان الامر الاخطر من ذلك ان هيكل جامعة الدول العربية لم يقدر له حتى الان اي محاولة جادة لوضع حد لتلك التناقضات ولو على مستوى معين. من السهل ان تدافع جامعة الدول العربية عن نفسها بانها تعكس الواقع العربي. ولكن هذا في حقيقة الامر ان هو الا نتيجة واضحة لعدم قدرة الجهاز الثابت والدائم في تلك الجامعة على ان يستقل بذاته ويكون له طابع دبلوماسي يستطيع ان يرتفع على مستوى التناقضات ولو بقسط معين من الواقعية. ومن خلال هذا الوضع السلبي كان من الطبيعي ان تزداد التناقضات وضوحا وان تصير الخلافات والصدامات اكثر تعبيرا عن الوجود العربي وان يستغل كل عدو للوطن العربي من خلال تعميق تلك التناقضات او عدم التناسق تأكيد منطقه بعدم قدرة المجتمع العربي على توحيد الجهود[27].

ويكفي بهذا الخصوص ان نذكر واقعة على سبيل المثال.

قبل حرب عام ١٩٦٧ وعقب اقفال مضيق تيران اجتمع الرئيس جمال عبد الناصر في مؤتمره المشهور بممثلي الصحافة العالمية. ومن خلال عبارات قوية واضحة قد تتصف بطابع المبالغة في الصرامة والصلابة ولكنها لم تكن تعكس اي تخاذل من جانب السياسة المصرية في الدفاع عن القضية العربية وازاء تلك العبارات كل من تتبع الصحافة العالمية والراي العام الدولي يذكر مدى التوتر الذي اصاب القوى اليمينية ومدى الخوف الذي لحق بالعالم الغربي من تلك التصريحات[28]. حتى ان ديجول اسرع في خطاباته المشهورة ينذر ويهدد[29]. في تلك اللحظة الحرجة لم يجد المندوب الدائم لاحدى الدول العربية في الامم المتحدة ان يفعل سوى ان يجمع ممثلي الصحافة العالمية ويعلن على رؤوس الاشهاد ان حديث الرئيس المصري لم يكن سوى نوع من الدعاية الرخيصة المحلية وانه لم ينو ولن ينوي اي صلابة فعلية في سياسته الخارجية. سرعان ما تلقفت هذا التصريح جميع ابواق الدعاية الصهيونية حتى ان جريدة «النيويورك تايمز» خصصت له صفحات كاملة خلال ايام متعاقبة. فضلا عن ان هذا المندوب الدائم لدى الامم المتحدة يكون بهذا التصريح وبهذا الاسلوب قد خالف ابسط قواعد العمل الدبلوماسي فانه فيما يتعلق بعلاقاته مع البلاد العربية يكون قد ناقض ابسط قواعد الذوق السليم. سبق ان حللنا هذه الواقعة في غير هذا الموضع من وجهة تقاليد العمل السياسي الخارجي، على ان الامر الذي يعنينا بهذا الخصوص في هذا الموضع هو ان امكانية حدوث هذا التصرف ليس له سوى دلالة واحدة: نقص من جانب جامعة الدول العربية في عملية التنسيق والضبط والربط الذي يجب ان تقوم به على مستوى الحركة الدولية في العلاقة بين مختلف الدول التي تنطوي تحت لوائها. الامر هنا لايتعلق بصدام محلي بين انظمة مختلفة وانما يعني عدم شعور بالمسئولية واختفاء لاي نوع من انواع التنظيم الجماعي في العلاقات الخارجية.

---

(٢٦) KIMCHE, The second Arab awaking, 1970, p. 239.

(٢٧) CREMEANS, The Arabs and the world, 1963, p. 133.

(٢٨) انظر الاسبوع العربي ٢/٧/١٩٧٣.

(٢٩) VATIKIOTIS, Conflict in the middle east, 1971, p.141.

النتيجة هي ان الاعلام العربي الصادر عن تلك الجامعة لايعبر عن سوى مجموعة متناقضة من الاراء والاتجاهات والمواقف تعكس لا فقط تضاربا في المصالح بل وفي اغلب الاحيان سطحية وعدم قدرة واندفاع جميعها صفات جديرة بالتأمل[30].
كيف يستطيع مثل ذلك الاعلام ان يكون ذا فاعلية؟
فلنتابع مظاهر الاخفاق قبل ان نتساءل عن اسبابه لنحدد على ضوء تلك التساؤلات البدائل للوضع القائم وبالتالي امكانيات التحرك العربي من خلال جامعة الدول العربية اعلاميا ودعائيا بصفة خاصة على المستوى الخارجي.

٦٣ ـ الاخفاق الاعلامي لجامعة الدول العربية وابعاده المختلفة:

نستطيع ان نركز الابعاد المختلفة لاخفاق جامعة الدول العربية بالنسبة لنشاطها الاعلامي في نواحي اربع كل منها يندرج تحته ويتفرع عنه العديد من الجزئيات. الاعلام العربي من خلال جامعة الدول العربية يتميز اولا بالتناقض الواضح والمخيف: تناقض في جميع جزئياته وعلى جميع مستوياته. وهو تناقض ادت اليه من جانب عدم قدرة جامعة الدول العربية على تحقيق تنظيم ذاتي يسمح بمواجهة مقتضيات الموقف ومن جانب اخر الاخفاق الكلي والشامل في جميع معانيه فيما يتعلق بتحقيق عملية المبادرة والتاقلم بنتائج هزيمة ١٩٦٧ وما تفرضه من سرعة في الحركة والانتقال من حالة السلبية الى حالة الايجابية ان لم يكن الهجوم الاستفزازي[31].
وتزداد هذه النقائص وضوحا عندما نلاحظ ان سلبية جامعة الدول العربية وصلت الى حد ان هذا الجسد المترهل لم يحاول باي اسلوب من الاساليب الاستفادة من الخبرات المعاصرة على اي من مستوياتها.
والخلاصة اننا نستطيع ان نحدد مظاهر خمس على الاقل للاخفاق:
اولا: تناقض اعلامي لايقتصر على عدم التجانس في المنطق بل يتعداه الى التعارض في التصريحات الصادرة عن نفس المسئولين في نفس اللحظة وبخصوص نفس الواقعة.
ثانيا: عدم قدرة جامعة الدول العربية على ان توائم بين صلاحياتها وبين ما يفرضه الموقف السياسي والدولي في المنطقة منذ عام ١٩٦٧.
ثالثا: عدم قدرة الجهاز المسئول الدائم في جامعة الدول على ان يخلق علاقة ثابتة مع القدرات الخلاقة في الفكر العربي لمساندة الحركة الدعائية في المنطق الخارجي.
رابعا: فشل جامعة الدول العربية في خلق خبرائها المتخصصين في العمل الدعائي الخارجي.
خامسا: واخيرا عدم قدرة جامعة الدول العربية على الفهم الحقيقي للحركة التي يجب ان تقوم بها في النطاق الدولي وبصفة خاصة فيما يتعلق بعملية التاثير على صانعي القرار السياسي في المجتمعات الدولية ذات الوزن الحقيقي في نطاق التعامل الدولي[32].

---

(٣٠) STEWART, The middle east: temple of janus, 1971, p. 323.
(٣١) هذا ما يسلم به جميع علماء الدعاية، انظر على سبيل المثال، براون، م.س.ذ.، ص١٣١ وما بعدها.
(٣٢) قارن التفاصيل في زميل، م.س.ذ.، ص٩٨ وما بعدها.
قارن ايضا بمعنى اكثر دقة المقال المنشور في جريدة هاآرتس بتاريخ ١٩٧٢/٢/١٥ والذي اوردت له نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ملخصا ص١٢٦ عام ١٩٧٢ حيث يعلن الكاتب بصراحة كيف ان الدعاية العربية قد ضعفت في الاشهر الاخيرة بشكل واضح وملموس. ويقول الكاتب بهذا الخصوص ص١٢٧ وليس ثمة هيئة واحدة منظمة للدعاية العربية. ففي الولايات المتحدة مكاتب الجامعة العربية، ولمعظم سفارات الدول العربية ملحقون صحفيون وثمة مكاتب للمنظمات الارهابية العربية، وكذلك هيئات مؤيدة للعرب.

. . . وقد قام بين جميع هؤلاء في الماضي قدر معين من التنسيق والتعاون. . . . والواضح في الاشهر الاخيرة ان نشاط الدعاية العربية قد ضعفت كثيرا وتفسر أوساط السفارة الاسرائيلية في واشنطن هذا الامر بأن القضية الفلسطينية التي كانت الحصان الرئيسي الذي امتطته الدعاية العربية لم تكن موضع نقاش. وقد توقف هذا القدر من التعاون الذي كان قائما بين جماعات من اليسار الجديد وبين بعض رجال الاعلام العرب. . . ويقول محررو الصحف في المنطقة الوسطى انهم لايتسلمون بصورة متواصلة كما في الماضي كراريس اعلامية من مصادر عربية. وقد توترت في الاونة الاخيرة العلاقات بين الهيئات الاميركية والمسئولين العرب. . » ويضيف الكاتب تفسيرا لضعف الدعاية العربية خلال هذه الفترة اي ابتداء من ١٩٧٣ على وجه الخصوص بعوامل عديدة منها التغيرات المختلفة الناجمة عن عامل الزمن ويقصد بذلك طيلة فترة الضجيج التي اعقبت حوادث عام ١٩٦٧ ثم من جانب اخر اضمحلال ما كان يعرف بحركات اليسار الجديد واخيرا الضعف الواضح في التنظيم واليد الموجهة والمنسقة للعمل الاعلامي العربي. وينتهي بقوله «ان ما تغير في الاساس هو ان التنظيم واليد الموجهة قد ضعف كثيرا. ينشط من حين لاخر الطلبة العرب الذين يقدر عددهم في الولايات المتحدة بعدة عشرات من الالاف، لكن هذا النشاط لا يحدث بصفة عامة الصدى الذي كان يحدثه في الماضي» نفس المرجع السابق ذكره ص٢٨ .

فلنتابع هذه المظاهر المختلفة للاخفاق بشيء من التفصيل

٦٤ ـ التناقض الداخلي في مقومات المنطق الاعلامي العربي وابعاده الحركية:

اول ما نلاحظه في اعلاء جامعة الدول العربية هو التناقض المخيف.

قبل ان نناقش مظاهر هذا التناقض علينا ان نلاحظ كيف ان اخطر مايمكن ان يوصف به الاعلام هو التناقض[٣٣]. وسواء كان التناقض في المنطق او في جزئيات المنطق او في الحركة بمختلف ابعادها وبصفة خاصة من حيث العلاقة بين ادواتها، فان هذه الصفة اي التناقض تمثل الفتق الذي يستطيع منه الخصم ان يتسلل بسهولة ليقوم بحركة التفافية تسمح له بتحطيم عدوه.

مظاهر التناقض عديدة وابعاده متنوعة. سبق ان راينا كيف ان تناقضات السياسة الخارجية للبلاد العربية عكست نفسها على جامعة الدول العربية ذاتها وبدلا من ان تحاول الجامعة باعلام ذكي[٣٤] ان تخفف من اثار هذا التناقض وان تقدم له صورة تقيد من اثار استغلال هذه التناقضات لتشويه الصورة العربية في الخارج فان جامعة الدول العربية ساعدت على تاكيده بل ودفعت به دفعات قوية. ولعل احد مظاهر هذا التناقض ان نقارن بين مايمكن ان يوصف من قبيل التجاوز بانه المنطق الاعلامي للجامعة قبل عام ١٩٦٧ ومنطقها عقب ذلك العام. قبل حرب الايام الستة كان المنطق العربي من خلال اعلام جامعة الدول العربية يجعل ركيزته مشكلة اللاجئين ومن خلالها حق العودة الى الارض المغتصبة ومعنى ذلك الغاء الوجود الاسرائيلي كلية. بعبارة اخرى رفض للشرعية وتاكيد للحق الفلسطيني.

---

(٣٣) التناقض الاعلامي له مفهوم اكثر اتساعا مما قد يبدو لاول وهلة، هذه الحقيقة تظهر واضحة عندما نحلل المنطق الدعائي. فكل منطق دعائي له مدخل فكري، وكل مدخل فكري يستند الى العديد من الحجج المؤيدة للدفاع عن ذلك المدخل الفكري وكل حجة تستند الى مجموعة من العناصر المنطقية والوقائعية والتشريعية المرتبطة بتلك الحجة. التناقض يعكس ايا من هذه المستويات كلما تدرج في هذه المستويات وارتفاعا كان اكثر خطورة. على ان التناقض الاعلامي لايقتصر على جزئيات المنطق، بل انه من الممكن ان يكون التناقض بين ادوات الاعلام اي بين الرسائل المختلفة بالنسبة لنفس الموضوع ولكن الصادرة من اجهزة اعلامية مختلفة وقد يكون تناقضا بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي وقد يكون اخيرا تناقضا بين الاعلام كاداة للحركة السياسية الخارجية والادوات الاخرى للسياسة الخارجية. والخلاصة ان التناقض الاعلامي من الممكن ان ياخذ على الاقل مستوى من مستويات اربع:

أ ـ تناقض في المنطق الاعلامي.

ب ـ تناقض بين الاجهزة الاعلامية.

جـ ـ تناقض بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي.

د ـ تناقض بين الاعلام الخارجي والادوات الاخرى للسياسة الخارجية.

انظر حامد ربيع، نظرية الدعاية الخارجية، م. س. ذ.، ص١٢٧.

(٣٤) انواع الاعلام التي كان يجب على الجامعة الدول العربية ان تمركز حولها نشاطها الاتصالي عديدة لا حصر لها. موقفها قوي: فمنذ الخمسينات فان الاطار العام الدولي يستمع الى الشعوب المتخلفة والمحررة بالكثير من التفهم والاستعداد للاقتناع. والشخصيات التي برزت باسم العالم الثالث او دول عدم الانحياز خلقت نوعا من التكتيل للاهتمام في العالم الخارجي. معركة ١٩٥٦ بغض النظر عن اخفاقها الحقيقي خلقت الكثير من التجاذب وقدمت خبرة عديدة الابعاد للنواحي الدعائية والاعلامية. الصراع الايديولوجي زاد من تمكين مثل هذه القدرات لو استغلت ببراعة. اضف الى ذلك عوامل ثلاثة اساسية ونحن بصدد تقييم الجهود العربية بهذا الشان:

اولا: ضعف الخصوم اي ضعف جوهر القضية الصهيونية من الناحية الدعائية والاعلامية.
ثانيا: ثبات التقاليد العربية من حيث الارتباط الفكري بالتطورات العامة التي عانى منها العالم المعاصر.
ثالثا: قوة منطق القضية العربية
ماذا فعلت جامعة الدول العربية؟
اول ما نلاحظه هو انها خلطت بين انواع الاعلام التي يجب ان تسيطر على تخطيطها الاتصالي، والواقع ان جامعة الدول العربية مدعوة لان تقوم بانواع ثلاثة من الاعلام كل منها له طبيعته الخاصة وخصائصه المستقلة:
أ ـ فهناك اولا الاعلام الموجه الى اعضاء المنظمة الدولية والى اعضاء المنظمات الاخرى التابعة لها. هو اعلام داخلي اهدافه التعريف برجال تلك المنظمة وبوظيفتهم فضلا عن الاهداف الحركية التي يجب ان تسيطر على المنظمة كهيئة دولية.
ب ـ الاعلام الموجه الى العالم العربي بقصد خلق الوعي العام الجماعي.
جـ ـ الاعلام الموجه الى العالم الخارجي بقصد ازالة الصورة المشوهة للطابع القومي العربي.
ورغم استقلال كل من هذه الانواع الثلاثة الواحد منها عن الاخرى الا انها ترتبط وتتفاعل كل منها بالاخرى. ويبدو هذا واضحا عندما نتعرض لعلاقة مكاتب اعلام جامعة الدول العربية في الخارج وما عدا ذلك من هيئات تحتك او تتعامل مع تلك المكاتب.
لو نظرنا الى حصيلة هذه النواحي الثلاث لوجدنا انها تدعو للتساؤل. ففيما يتعلق بالناحية الاولى فان جامعة الدول العربية حتى هذه اللحظة لم يصدر عنها كتاب اعلامي واحد، يمكن ان يوصف بانه يقدم صورة واضحة لنظامها واهدافها وتطوراتها. وتكفي للمقارنة القاء نظرة صغيرة على اي منظمة دولية اخرى حيث نجد العديد من المؤلفات بينما بالنسبة لجامعة الدول العربية ليس امامنا لان نعرف بهيكلها سوى ان نلجأ الى كتاب اجنبي كتبه عالم انكليزي ويعود الى قرابة عشرة اعوام. فهل يعقل مثل هذا النقص في فهم حقيقة الوظيفة الاعلامية لجامعة الدول العربية؟
واذا كانت جامعة الدول العربية قاصرة على ان تعرف بنفسها فكيف ننتظر منها ان تقوم بعمل ايجابي سواء بالنسبة لتوعية الوجود الذاتي والقومي الوحدوي او فيما يتعلق بعملية المواجهة الخارجية؟
ان الموضوعات التي كانت تستطيع ان تتولاها الجهود الاعلامية من جانب جامعة الدول العربية في هذا الشأن عديدة لاحصر لها. ويكفي ان نتذكر بعض البنود:
اولا: الاصالة الحضارية للعالم العربي.
ثانيا: فضل العالم العربي على العالم الغربي.
ثالثا: الاستمرارية الفكرية في العلاقة بين الحضارة العربية والحضارة الغربية.
رابعا: فضل الحضارة العربية على استمرارية العنصر اليهودي.
خامسا: عدم شرعية الوجود الاسرائيلي.
سادسا: عامل المصلحة المرتبط والمتفرع على طبيعة العلاقة بين الامن الاوروبي والاستقرار السياسي في منطقة الشرق الاوسط.
مجرد بنود كل منها يحتوي على الكثير من العناصر والموضوعات وكل منها يمكن ان يكون مدخلا فكريا لعملية الدفاع والهجوم في ان واحد. بل ان جامعة الدول العربية لو فكرت في تخطيط هجومي بمعناه الحقيقي لكانت استطاعت ان تضيف الى ذلك عملية خلق عقدة ذنب وتعذيب مستمر في الضمير والوعي الاوروبي الجماعي في ابعاد عديدة. اولها يتعلق باستئصال الحضارة العربية من شمال افريقيا ويندرج تحت هذا البند عمليات الصراع الوحشي التي سيطرت على سلوك القوات العسكرية الفرنسية اثناء ثورة الجزائر. ثم عمليات استنزاف الثروات العربية سواء ابتداء من الاحتلال البريطاني في مصر وانتهاء بالعمليات البترولية التي لا نزال نعيش بعض مظاهرها. ويكفي لخلق عقدة الذنب والضغط على الضمير الاوروبي بقسوة وقوة بخصوصها التذكير بمواقف الدول المتحالفة من القضية العربية اثناء الحرب العالمية الاولى وكم كان من الممكن جعل شخصية لورانس منطلقا فعالا لخلق التربة الصالحة لبث بذور التبكيت الذاتي والشعور بالاثم والخطيئة؟
والواقع ان المأساة الحقيقية للاعلام العربي الصادر من جامعة الدول العربية هو ان المسئولين في تلك الجامعة لم يفهموا بعد ان هذا الاعلام في حاجة الى العقليات الخلاقة وانه لايمكن ان ينجح الا اذا تجرد من ذلك المنطق البيروقراطي الذي يسيطر عليه والذي كان لابد وان يؤدي به الى ان يسير في جزئيات وفقاعات تاركا تلك الكليات التي وحدها تستطيع ان تهدم وتبني منطقا كليا شاملا. كم كنا نتمنى ان يذهب المسئولون عن الاعلام العربي بهذا الخصوص يتأملون ويستعيدون تاريخ الدعوة الصهيونية وكيف نجحت فقط بفضل توفر هذا العنصر: العقليات الكبرى المفكرة التي قامت بالغزو الدعائي بثبات وثقة وتكامل سواء من حيث عناصر المنطق، سواء من حيث اهداف الحركة.
انظر ملاحظات:

MACDONALD, The League of Arab States, 1955, p. 133.

ثم عقب عام ١٩٦٧ . عقب ذلك التاريخ اذا باعلام جامعة الدول العربية ينصهر في اطار الاعلام العربي لدول المواجهة وهو تحرير الارض المحتلة، اي ينبع من المنطق الذي يتضمن الاعتراف الصريح بالوجود الاسرائيلي في المنطقة. هذا التناقض الذي انعكس في الاعلام الصادر من جامعة الدول العربية ودون ان تقدم له ما يبرره استطاعت الدعاية الاسرائيلية ان تخترق من خلاله الصورة العربية لتعلق على ذلك المنطق الجديد بقولها: ان هذا يعني تغيير في العقل العربي وتقبل للوجود الاسرائيلي وهو لذلك خطوة سوف تاتي بعدها خطوات لاحقة تؤكد صحة التصور العبري، ولم يتردد مدير المخابرات العسكرية الاسرائيلية هاركابي في مؤلف له مشهور بعنوان «اتجاهات العرب نحو اسرائيل» ان يجعل من هذه الملاحظة احد منطلقاته في تأصيل التطور العام للموقف في المنطقة بما يتفق مع مصالح الدولة العبرية[٣٥].

٦٥ ـ فشل جامعة الدول العربية في عملية المبادرة التي فرضتها احداث «حرب الايام الستة»:

والواقع ان ما يميز موقف جامعة الدول العربية من الاعلام العربي هو عدم قدرتها على الامساك بزمام المبادرة وفشلها في ان تؤقلم نفسها بابعاد الموقف كما تحدد عقب مأساة ١٩٦٧ . سبق ان راينا بعض مظاهر

---

(٣٥) الذي نريد ان نذكر به هو ان طبيعة العمل الاعلامي يفترض عملية توزيع للادوار. بطبيعة الحال الاعلام كاداة للحركه السياسية الخارجية او بعبارة اكثر دقة كنموذج للحرب الفكرية. ولايوجد ما يمنع انه كان على جامعة الدول العربية ان تخطط فاذا بها تقوم بوظيفة او تؤدي دورا لنفسها حددته مسبقا يختلف ويستقل عن الدور الذي تقوم به دول المواجهة. معنى ذلك بعبارة اخرى انه كان من الممكن تصور ان تظل جامعة الدول العربية تسير في خط ثابت يربط الماضي بالحاضر اي يربط المنطق السابق على عام ١٩٦٧ بالمنطق اللاحق لذلك العام دون ان يعني هذا الغاء لذلك المنطق الاعلامي الاخر الذي ينبع من دول المواجهة ويعبر عن سياستها. نموذج اخر يفصح عن حقيقة مزدوجة برزت في ثنايا هذه الدراسة في اكثر من مناسبة: ضرورة التمييز بين مستويات الاعلام، ثنائيا، اقليميا، دوليا او جماعيا. ثم من جانب اخر عدم قدرة جامعة الدول العربية عن ان تملك تصورها الذاتي او منطقها الخاص بها والمستقل لا فقط عن اي منظمة اخرى بل وعن اي دولة عربية اخرى مهما بلغت اهميتها في الصراع المصيري المرتبط بالمنطقة. انظر هاركابي، م. س. ذ.، ص٤٥٠ وما بعدها.

(٣٦) بطبيعة الحال السبب الرئيسي في هذا النقص يعود الى مصدر التفكك الحقيقي في البنيان النظامي لجامعة الدول العربية وهو انها تمثل حكومات ولا تمثل شعوبا. وحتى يقدر لتلك الجامعة ان تحتضن بين ادواتها النظامية احدى الهيئات التي تعبر عن الوجود الشعبي وتستطيع بهذا الشان ان ترفع صوتها وان تكون بهذا الشكل اداة من ادوات الرقابة الحقيقية فان جامعة الدول العربية لن تستطيع ان تواجه الموقف الذي يعيشه العالم العربي منذ عام ١٩٦٧. بطبيعة الحال كان من الممكن ان يفهم ذلك الاطار والذي مازال يسيطر على تلك الجامعة والذي تحكم في انشائها حيث كانت الاهداف هي خلق التعاون بين الحكومات ظاهريا وتمكين السياسة البريطانية واقعيا من مسايرة الاطار العام لتطور المنطقة عقب نهاية الحرب العالمية الثانية. ولكن اليوم وقد اضحت هذه الجامعة تمثل الاداة الجماعية الوحيدة الصالحة لخلق الضمير والوعي الجماعي من جانب والقادرة على تكتيل العمل العربي في مواجهة الصراع المصيري، فكيف يمكن ان تظل الجامعة ولا تعكس سوى اراء الحكومات باسلوب او اخر؟ بطبيعة الحال الاجابة على هذا التساؤل لتبرير هذا الوضع معروفة. فسوف يقال بان النظم العربية بعضها لايعرف اسلوب التمثيل الشعبي فكيف تستطيع تلك المجتمعات ان ترسل من يمثلها على مستوى الهيكل الجماعي؟ على ان هذه الاجابة هي نوع من التهرب من مواجهة المشكلة: والحلول بهذا الشان عديدة على ان الذي يعنينا ان نؤكده انه كان من الممكن ولو عن طريق التعويض انشاء ذلك الجهاز المستقل الذي يمثل الشخصيات الكبرى والتي لاتدين بوجودها لتلك الحكومات لان هذا وحده هو الذي يسمح لها بنوع من الاستقلالية ازاء السلطات الحكومية. ولنتذكر ان هذه الاداة وهذا الاسلوب هو الذي دفع بالمنظمات الاوروبية الى تأكيد فاعليتها وهو الذي كان من الممكن ان يؤدي وظيفة مماثلة بالنسبة لجامعة الدول العربية. ان المشكلة الحقيقية هي خلق الاطار النظامي الذي يستطيع ان يخلق التوازن بين انظمة سياسية تعود الى القرن التاسع عشر ومجتمع فرض عليه التحدي ان يواجه مشاكل القرن العشرين وترتبط بهذا ويتفرع عنه ما يصفه العالم الفرنسي ارماند «لجان التفكير».
انظر .ARMAND, BRANCOURT, Le pari europeen, 1968, p. 223

هذه الحقيقة ولكن نستطيع ان نضيف على وجه الخصوص النواحي التالية:
١ ـ لم تحاول ان تقدم اي منطق اعلامي بخصوص عملية المواجهة السياسية مع العدو سواء على مستوى الحركة او مستوى الدعاية او مستوى الدعوة. وكان يكفي لذلك على الاقل ان تعهد الى بعض المتخصصين والخبراء بالقيام بتقديم منطق متكامل قابل للمناقشة يدور حول تصور عربي للصراع في المنطقة. وبدلا من ان تفعل ذلك لجات الى انفاق الملايين حول مكاتب وموظفين اقل مايمكن ان يوصفوا به انهم مجموعة من المتفعين[٣٦].
ب ـ ثم تاتي نواحي اخفاق تلك الجامعة التي تدور حول عملية الاتصال بينها وبين الدول العربية ذاتها. لقد سبق ان راينا ان مجلس وزراء الاعلام العرب في سبتمبر ١٩٦٧ ابرز بوضوح ضرورة التمييز بين المرتكزات المتعلقة بالاعلام الداخلي وذلك الذي يمكن ان يوصف بانه اعلام خارجي. فماذا فعلت جامعة الدول العربية بخصوص الاعلام الداخلي؟ هل يستطيع احد ان يتصور ان قنوات الاتصال بين البلاد العربية والبلاد الاجنبية اكثر قوة واكثر فاعلية من عملية الاتصال بين الدول العربية والجامعة العربية ذاتها؟ ان جامعة الدول العربية التي لديها مكاتب اعلامية في جميع انحاء العالم تنفق عليها ملايين الدولارات ليست لديها مكاتب اعلامية في البلاد العربية وليست لديها على الاقل سياسة اعلامية بالنسبة لتلك البلاد؟ ولو ان جامعة الدول العربية القت نظرة على اي منظمة دولية اخرى لوجدت ان لتلك المنظمة مكاتب اعلامية على الخصوص في البلاد التي تنتمي اليها؟ فلماذا؟ هل هو نتيجة خوف من الحكومات العربية ام ان انشاء مكاتب اعلامية في هذه البلاد[٣٧] لن يسمح بارسال ذوي الحسب والنسب لقضاء الاوقات السعيدة في باريس ولندن ونيويورك على حساب القضية وباسم الشعوب المغلوبة؟

٦٦ ـ جامعة الدول العربية وعملية الاتصال بالفكر السياسي:

ثم ياتي عقب ذلك ليكمل هذا الاخفاق الواضح ما نجحت فيه جامعة الدول العربية من اقفال اي قناة من قنوات الاتصال كان يمكن ان تخلق العلاقة بين ادارة الاعلام بتلك الجامعة والفكر العربي الخلاق السياسي الذي كان يستطيع ان يساند الحركة العربية على مستوى العمل اليومي. ولو انها القت بنظرها نحو تنظيمات الوحدة الاوربية لاستطاعت ان تجد في هذا الخصوص نماذج عديدة لاحصر لها. فاستيعاب الشخصيات القومية المؤمنة والمستقلة عن تمثيل الحكومات هو احد المنطلقات الاساسية التي استطاعت من خلالها تلك المنظمات ان تسوق الجماعة الاوربية نحو العمل الموحد ورغم الخلافات المعروفة بين اجزاء ودول غرب اوروبا. فلنتذكر على سبيل المثال الصراع التقليدي بين فرنسا والمانيا. ولكن ذلك كله يفترض شجاعة فردية معينة لم يهيا لجامعة الدول العربية ان تحصل عليها منذ انشائها حتى اليوم[٣٨].

٦٧ ـ عدم قدرة جامعة الدول العربية على التنظيم الذاتي لجهازها الاعلامي:

على ان ابرز نواحي الاخفاق واكثرها علامة على الاستخفاف وعدم الشعور بالمسئولية هو عدم قدرة جامعة الدول العربية على التنظيم الذاتي لجهازها الاعلامي. وقد تبدو هذه الناحية محدودة الاهمية ولكن كل من عمل في نطاق الدعاية والاعلام الخارجي يدرك ان ادارة الجهاز الاعلامي هي المنطلق الاول لتحقيق

---

(٣٦) حامد ربيع، البترول العربي، م.س.ذ.، ص١١١ وما بعدها، ١٢٤ وما بعدها.
(٣٨) ارماند، م.س.ذ.، ص٢٥٢ وما بعدها.

قدرة اي دعاية او اعلام على النجاح. ان الاعلام الخارجي في حاجة الى مايسمى بالقدرة الذاتية على الانطلاق بمعنى ان المنطق يجب ان يملك ذلك التكامل الذي يستطيع ان يجعل منه قذيفة تسير بقوة دفعها الذاتي[٣٩]. واحد الادوات التي تسمح بتحقيق ذلك هو الجهاز الاداري. فماذا فعلت بهذا الخصوص جامعة الدول العربية؟

١ ـ سوء أختيار مديري المكاتب الاعلامية في الخارج احد المظاهر الواضحة لعدم قدرتها على تنظيمها الذاتي. لقد ظلت ولا تزال تسير في حلقة اساسها ان عملية اختيار مديري المكاتب لاتخضع لاي اعتبارات من حيث القدرة والصلاحية والكفاءة الذاتية. وفي اغلب الاحيان تارة بدعوى تمثيل البلاد العربية وتارة اخرى بدعوى تفضيل موظفي ادارات الامانة العامة، فان هذه المكاتب لم يقدر لها حتى اليوم قدرات على مستوى التأثير المحلي والغزو الحضاري في المجتمع الذي يعمل من خلاله مكتب الاعلام[٤٠].

٢ ـ والواقع ان مرد ذلك هو ان جهاز الاعلام يخضع لنفس القواعد التي يخضع لها جهاز جامعة الدول العربية دون اي تمييز او تفرقة وان وجدت بعض نواحي التميز فهي دائما لصالح المنتفعين ومن في حكمهم حتى ان جامعة الدول العربية اضحت بمثابة متحف يضم عديمي الكفاءة او من انتهت فترة خدمتهم بالاحالة الى المعاش. وتزداد هذه الحقيقة خطورة بالنسبة للجهاز الاعلامي فهو يخضع ويتبع احد الامناء المساعدين الذين لا دراية لهم بالعمل الاعلامي. ورغم ان هذه الصفة نراها في اكثر من موضع واحد الا ان خطورتها بالنسبة للاعلام واضحة لا تحتاج لمناقشة وليس مرد ذلك فقط ان جامعة الدول العربية تريد من خلال مكاتبها ان تقوم بوظيفة مستقلة تعبيرا عن ارادة مستقلة خلافا للادارات الاخرى كما هو مثلا بالنسبة لادارة البترول ولكن ايضا لان الاعلام العربي في حاجة الى سرعة في التغير وقدرة على الحركة لان العدو الذي يواجهه يمتاز بهذه الصفات.

٣ ـ واخفاق جامعة الدول العربية يبرز بشكل اكثر وضوحا فيما يتعلق بخلق المتخصصين او الخبراء في الاعلام الخارجي. في عام ١٩٦٧ اكتشف الجميع انه لا يوجد لدينا خبراء في الاتصال الدولي وان العالم العربي لايزال تنقصه هذه الخبرة واكتشفت جامعة الدول العربية ان اعداد خبراء في هذا الشان في حاجة الى ثقافة معينة والى تخصص معين فماذا فعلت حتى الان؟ في كل اجتماع لخبراء الاعلام العرب نجد ان الكلمة الاولى التي تقال وتتردد على جميع الالسنة هي نقص العالم العربي من الخبراء فهل ما كانت تستطيع جامعة الدول العربية بكل مالديها من امكانيات ان تخلق خبرائها[٤١] خلال عشرين عاما من الضجيج المستمر؟ ومتى سوف تبدا في التفكير في هذه العملية بحكمة وبعد نظر؟

٦٨ ـ جامعة الدول العربية والخبرات الدعائية المعاصرة:

وجامعة الدول العربية لم تقتصر على عدم قدرتها على احداث ماهي في حاجة اليه من التنظيم الذاتي وخلق منطقها وادواتها الخاصة بها والصالحة لمواجهة الموقف بل انها لم تحاول حتى الاستفادة من الخبرات المعاصرة. ولو ان المسئولين عن جهاز الاعلام العربي في تلك الجامعة حاولوا مجرد القراءة العادية لاي دراسة خاصة

---

(٣٩) ادارة الاعلام مشاكلها عديدة وبصفة خاصة عندما يتعين على ذلك المرفق ان يواجه اهدافا متعددة من حيث طبيعتها وبنيانها الحركي. ويزيد من تلك الصعوبة عدم وجود تقاليد واضحة او خبرات تصلح لان تطبق بالنسبة للوضع الذي يرتبط بجامعة الدول العربية. انظر المشكلة في التقاليد الامريكية كما يثيرها.

ELDER, The information machine, 1968, p. 318.

كذلك راجع الابعاد النظرية للموضوع في

REAGAN, The administration of public policy 1969, p. 25.

بالدعاية الخارجية لاكتشفوا الكثير من النواحي التي كانت تستطيع جامعة الدول العربية ان تخلق من خلالها انطلاقات حقيقية في سبيل تاكيد قضية المصير.

١ ـ فلو تابعنا تاريخ الدعاية الخارجية خلال الحرب العالمية الثانية[٤٢] لاكتشفنا ان سر نجاح اي عملية دعائية خارجية هو التخطيط. والتخطيط هنا لا يعني انشاء مكاتب ووضع لوائح وانما يفترض اولا وقبل كل شيء جهاز متخصص يستطيع ان يقوم بعملية بناء للمنطق الدعائي والاعلامي. ولو عدنا لتنظيم جهاز الاعلام التابع لجامعة الدول العربية لما وجدنا لمثل هذا المفهوم اي موضع على اي مستوى من المستويات. فهناك مايسمى بلجنة التخطيط والمتابعة وما يسمى بقسم التخطيط والمتابعة ولكن جميع هذه التنظيمات لاتتضمن فهما حقيقيا لمعنى التخطيط الاعلامي؛ هي لاتعدو تجميعا لبعض المسئولين في الادارة بقصد متابعة سير الجهاز او مناقشة بعض الاقتراحات دون ان يقدر لاي منها حتى الان اي محاولة جادة لتقديم ذلك الذي يقصد بالمعنى الفني لكلمة خطة اعلامية. وكما قررنا من قبل فان الخطة الاعلامية هي منطق متكامل، ويتضمن تجزئة لعناصره وتحديدا للمرحلة التي سوف يطلق خلالها كل عنصر وتوقع لردود فعل كل من هذه العناصر مع تصورات لمواجهة ردود الفعل الجانبية، وتجريب لادوات الاتصال بمختلف مستوياته مع دراسة لابعاد عملية التاثير والتأثر[٤٣].

٢ ـ ولو اتيحت لنا دراسة الاعلام الاسرائيلي وتساءلنا عن اسباب نجاحه ومراحل نجاحه لاكتشفنا الكثير والغريب. ان المعلومات الاولية حتى عن تنظيم جهاز الاعلام الاسرائيلي لاموضع لها في جامعة الدول العربية. ولو ان اولئك الذين بيدهم الامر قدر لهم الاطلاع على بعض المؤلفات المتداولة منذ ما لا يقل عن عشرة اعوام بخصوص الدعوة الصهيونية ومنطلقاتها الدعائية والاعلامية لعرفوا الكثير. ان اسماء كسيلفر ولوين وليوكوهن اولئك الذين خططوا للعمل الاعلامي الاسرائيلي في مختلف مراحله، نستطيع ان نصرخ بها امام المسئولين عن اجهزة الاعلام دون اي صدى[٤٤]، اذا استثنينا نظرات البلاهة المؤلمة.

٣ ـ على ان ابرز نواحي الاخفاق والفشل تنقلنا الى عملية صنع القرار السياسي. ان اي محاولة جادة من جانب جامعة الدول العربية وجهازها الاعلامي للتاثير على تصور صانعي القرار السياسي في المجتمعات الاجنبية بحقيقة ابعاد المشكلة العربية لا وجود لها. هذه الناحية ليست في حاجة الى كثير من التفصيل لفهم نتائجها. ماهو القرار السياسي ان لم يكن محاولة التحكم في الوقائع؟ تصور الواقعة يرتبط من ثم بذلك النظام الكامل للقيم الذي يسيطر على صانع القرار. احد مسالك التاثير على صانع القرار من جانب الدولة صاحبة المصلحة هي ان تؤثر على تصور صانع القرار للمشكلة او بعبارة ادق ان تؤثر على ادراكه لابعاد

---

(٤٠) انظر تقرير اتجاهات الراي العام ونشاط المكاتب المعدة للعرض على اللجنة الدائمة للاعلام العربي عام ١٩٦٩، ص١٩ وما بعدها.

(٤١) انظر شئون فلسطينية، ١٩٧٣، ٢٠، ص١٧٧.

(٤٢) اضف الى ذلك الخبرات اللاحقة لنهاية الحرب العالمية الثانية والتي اضحت تكون تراثا ضخما جديرا بان يقود اي عملية دعائية بهذا الخصوص. انظر على سبيل المثال.

FULBRIGHT, The pentagon propaganda machine, 1970, p. 17.

(٤٣) التخطيط الاعلامي لايزال في حاجة الى دراسات مستقلة. رغم ذلك فندين الى بعض علماء التخطيط بهذا الخصوص بالكثير من الايضاحات.

انظر على سبيل المثال: BRETON, HENNING, Planning theory, 1961; P.253.

(٤٤) تحدثنا نشرة الوطن المحتل العدد رقم ٦٩ بتاريخ ١٩٧٠/١١/١٦ عن ان خمسة من خبراء الاعلام الاسرائيلي يجتمعون يوميا لوضع تخطيط متجدد للاعلام الصهيوني، يدير النقاش من يسمى شامويل ديون، وينطلق التصور الجديد للعمل الدعائي من التقاليد السابقة وهو المنطلق الدبلوماسي مع التركيز على جعل عملية الخطاب تتم بطريق مباشر. انظر التفاصيل ايضا في جريدة الاتحاد الصادرة بفلسطين المحتلة، العدد ٢٧ بتاريخ ١٩٧٠/٩/١٩.

المشكلة ويتم ذلك اما بالاتصال الشخصي او بالاعلام الجماهيري المخطط والمنظم من خلال انتقال العلم بالواقعة الى عالم المدركات لصانعي القرار وقبل صدور رد فعله بخصوص تلك الواقعة. بعبارة اخرى لو تدخلت القوى الخارجية خلال عملية الادراك من خلال مسارات العلم بالواقعة لتصب ذاتها في مدركات صانعي القرار فان الدولة او القوة الدولية صاحبة المصلحة تستطيع ان تؤثر بطريقة مباشرة ولكنها غير علنية، حاسمة ولكنها خفية، في توجيه الاحداث. هكذا فعلت الدعوة الصهيونية قبل ان يشن «سيلفر» هجومه الاعلامي المشهور على الراي العام الامريكي ابتداء من ١٩٤٣ عندما وضع تخطيطا كاملا لعملية الوصول الى مراكز صنع القرار والتاثير في تلك المراكز ابتداء من عام ١٩٣٩[٤٥].

فماذا فعلت جامعة الدول العربية بهذا الخصوص؟

٤ ـ اضف الى ذلك من ابرز نواحي الاخفاق عدم اهتمام جامعة الدول العربية الاهتمام الحقيقي والواجب بالعرب في المهجر. لقد كانت تستطيع بسياسة ذكية واعلام نشط ان تخلق من كل عربي مايسمى في العمل الدعائي باصطلاح «الجرثومة الناقلة للعدوى» ومعنى ذلك جعل كل مواطن عربي في المهجر جهاز استقبال للمنطق العربي يتولى عملية ارسال تالية في الوسط والمحيط الذي يعيش فيه. وهو امر يفترض لتحقيقه توفر المنطق المتكامل الذي لم تفكر الجامعة باجهزتها المختلفة في بنائه واعداده.

٦٩ ـ جامعة الدول العربية وعملية المواجهة النفسية للدعوة الصهيونية:

ان الحقيقة التي يجب ان نعترف بها هو ان جامعة الدول العربية لاتستطيع في اوضاعها الحالية ان تقوم باي عمل اعلامي او دعائي جدير بالاحترام في مواجهة الدعوة الصهيونية[٤٦]. الواقع ان هيكل الجامعة من حيث تقاليدها لايؤهلها لذلك وتكوينها الحالي هو استمرار لاوضاع سابقة لاتتجانس مع طبيعة تلك المهمة والسوال الذي يجب ان نطرحه:

هو ماهو البديل لذلك؟

ان امام المسئولين واحد من ثلاث:

اولا: اخضاع جهاز الاعلام بجامعة الدول العربية لتطوير كلي شامل، تطوير يسمح باخراج ذلك الجهاز من تقاليد التخاذل التي تسيطر على اوضاعه الحالية.

ثانيا: او انشاء منظمة مستقلة على غرار المنظمات الاخرى النوعية ذات الكيان والهيكل الذاتي تعبيرا عن طبيعة وخصائص الوظيفة.

ثالثا: ان تنزع وظيفة الدعوة والدعاية للقضية العربية من يد الجامعة وان يعهد بها الى احدى دول المواجهة ذات الكيان السياسي وذات التقاليد الدبلوماسية الواضحة التي تستطيع ان تتحمل المسئولية كاملة بخصوص العمل الاعلامي.

كل من هذه الاقتراحات وهذه البدائل لها مميزاتها ولها عيوبها. ولكن الحقيقة الواضحة التي يجب ان نسلم بها والتي هي غايتنا من هذه الدراسة هي ان الوضع القائم لم يعد صالحا ولن يكون له من اثر في المستقبل سوى زيادة التعفن في قضية المصير التي تفرض نوعا معينا من انواع منطق الحركة.

---

(٤٥) انظر على سبيل المثال دراسة هولستي التي اوردها.
ROSENAU, International politics and foreign policy 1969, p. 543.

(٤٦) يصف الاعلام العربي شاموئيل كاتز في جريدة الجيروزاليم بوست بتاريخ ١٩٧٠/٢/٢٥ بانه فطري وسوفسطائي. انظر النيويورك تايمز بتاريخ ١٩٧٠/٢/١٩ وقارن جيروزاليم بوست الاسبوعية بتاريخ ١٩٦٧/٣/٣١ وتاريخ ١٩٦٧/٦/١٢.

في غير هذا الموضع اعلنا ان البديل الوحيد للصراع العسكري في لحظة اضحى فيها الصراع العضوي بين المجتمع العربي والسرطان الاسرائيلي امرا مستحيل التصور ان لم يكن على الاقل مستبعد الامكانيات هو الصراع النفسي الذي منطلقه الاساسي لايمكن ان يكون سوى العمل الاعلامي. هذه الحقيقة في حاجة الى تفصيل[47]. واذا كنا ابرزنا بوضوح مدى اخفاق الاعلام العربي وكيف انه حتى الان يدور في حلقة مفرغة ليعكس الترهل النظامي فاننا يجب لتاكيد هذه الحقيقة ان نوضح ابعاد الاخفاق من حيث الجمود الفكري والشلل في القدرات المنطقية على التصور واستغلال الفرص في مواجهة عدو استطاع ان ينجح في الانتفاع بجميع الاخطاء.

رغم أنّ هذه النواحي العديدة في حاجة الى دراسة مستقلة، الا اننا نستطيع منذ الان ان نتناولها بشيء من الايجاز.

٧٠ ـ اهداف السياسة الخارجية الاسرائيلية وابعادها النفسية:

ان السياسة الخارجية الاسرائيلية لايمكن ان تعدو سوى تحقيق اهداف ثلاثة[48] سوف تسيطر على تحركها الدولي في الاعوام القادمة.

أ ـ التكامل الديموجرافي لتكوين تلك الدولة القوية كميا بان تتسع لتضم عشرة ملايين يهودي.

ب ـ الاستيعاب الحضاري بحيث تستطيع الاداة الحكومية ان تحقق عملية دمج وصهر لجميع العناصر العربية التي قدر لها ان تدخل في نطاق الاقليم الاسرائيلي قبل وبعد عام ١٩٦٧ لتكون منها طبقة جديدة تصير الطبقة السفلى في مجتمع يقوم على اساس التباين الطبقي حيث يتمركز في اعلى مراتبه رجل السابرا الغربي الاصل.

جـ ـ ان تصير اسرائيل المتحدث الوحيد ذو الفاعلية الحركية في عالم القوى الكبرى. هي لن تحدث فقط الولايات المتحدة بلغة المصلحة والامن القومي الامريكي بل سوف تجعل من نفسها حلقة من حلقات الخطاب والاتصال بجميع القوى الاخرى العالمية: اوروبا المتحدة، روسيا الشيوعية، الصين الغازية، ثم اليابان المتحفزة.

لانريد ان نتناول هذه الابعاد الحركية بالتفصيل ولكن يعنينا فقط ان نلاحظ ان مواجهة هذه الابعاد الثلاث يفرض منطلقات نفسية قابلة لان تخفف من حدة النجاح المتوقع للسياسة الاسرائيلية ان لم تمنعها من ان تحقق اهدافها تحقيقا كاملا. في كلا الحالين فان الحرب النفسية والتعامل النفسي يفرض علينا ان نواجه هذا الغزو بتخطيط سريع اساسه المبادرة وتقوية الجسور بقصد منع تحقيق هذه الاهداف.

اولا: التعامل النفسي الاسرائيلي اليوم بالنسبة لليهودي في المهجر هو منطق الدعوة ووظيفتنا يجب ان تتحدد بكلمتين: تمزيق هذه الدعوة وابرازها على انها اسطورة مهلهلة لا اساس لها من الصحة ولا تستطيع ان تواجه منطق العصر ولا حقيقة التطور الذي تفرضه العلاقة بين المواطن اليهودي والدولة التي ينتمي اليها[50].

ثانيا: بالنسبة للعربي المقيم في اسرائيل[51] فان واجب الاعلام العربي هو تقوية الشعور بالتكامل الذاتي واعادة الثقة في النفس ومساندة هذا العربي الوحيد المنفرد في صراعه اليومي ليظل رافضا اي محاولة من محاولات الاندماج والانصهار او الاستيعاب في الكومنولث الجديد.

---

(٤٨) قارن الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٩، ١٩٧٢، ص١٩ من المقدمة.

(٤٩) الحوادث، ١٩٧٣/٢٦.

(٥٠) انظر جيروزاليم بوست الاسبوعية، ١٩٦٧/١/٦.

(٥١) حبيب قهوجي، العرب في ظل الاحتلال الاسرائيلي، ١٩٧٢، ص٥٦.

ثالثا: اما فيما يتعلق بالقوى الكبرى فان هناك اكثر من منطلق واحد يؤيد القضية العربية ويسمح بربط المصالح التي تمثلها كل من هذه القوى بالمصالح العربية وتأكيد التناقض المطلق او النسبي بين تلك المصالح والمصالح الاسرائيلية ولو في الامد البعيد[52].

العودة الى تاريخ العمل الدعائي الصهيوني يسمح لنا بان نقدم نموذجا قابلا لتاكيد القدرات الحقيقة للتعامل النفسي كمنطلق للصراع الدولي بين القوى في المجتمعات المعاصرة. فعندما انتقلت الحركة الصهيونية من جنيف ونيويورك كان الراي العام الامريكي يقف من هذا المذهب موقف الرفض ان لم يكن موقف عدم الاهتمام. الابحاث الميدانية حتى عام ١٩٤٢تثبت ان الراي العام الامريكي كان يضع القوى اليهودية موضع الاحتقار والازدراء وانه كان يرى في اليهودي عنصرا خطرا على المجتمع الامريكي بل ويبوبه في مواقع اشد رفضا لوجوده من موقع الالماني والياباني الذي كان يصارع كلا منهما صراع حياة او موت ولكن ما ان وصلنا الى عام ١٩٤٩ حتى اذا بذلك الراي العام ياخذ صورة الطوفان الثابت المستقر في تاييد الحركة الصهيونية والدفاع عن القضية التي تمثلها تلك الحركة[53].

لماذا وكيف حدث ذلك؟

ليس هذا موضع التحليل التاريخي للحركة الصهيونية. ولكن فلنضع النقط فوق الحروف ولنسعى لنؤكد من خلال التقييم المحايد غير العاطفي حقيقة النجاح ومتغيراته:

أ ـ التمييز بين الدعاية والدعوة: الاولى تتجه الى الامريكي غير اليهودي والثانية لاتخاطب سوى اليهودي.

ب ـ جعل عملية الزحف النفسي تتم على مرحلتين: الاولى تتجه الى خطاب صانع القرار، تسعى للتاثير فيه او لشل فاعليته. الاتصال احد المسالك ولكنه ليس الاسلوب الوحيد. فالاغراء والتهديد ايا منهما قابل لان يتحول عند الحاجة لعملية استئصال وتحطيم. قصة وكيل وزارة الدفاع الامريكية معروفة ليست في حاجة الى تفاصيل. فقط عقب خلق نقط ارتكاز في المجتمع موضع الهجوم النفسي تبدا عملية الاغراق الجماعي من خلال مخاطبة مختلف طبقات الراي العام.

جـ ـ اضف الى ذلك استغلال العلم وربطه بالحركة. منذ ان وصل سيلفر الى قيادة الحركة الصهيونية بدا تعاونه مع العالم الامريكي اليهودي الاصل «لوين» وهو الذي استطاع ان يصوغ له لغة العمل الدعائي. وهو الذي استطاع ان يأصل له مفهوم عقدة الكراهية الذاتية الذي منه انطلقت ابواب الدعاية المضادة بقصد سحق جميع زعماء اليهودية الذين كانوا قد اتخذوا موقف الرفض والعداوة للحركة الصهيونية[54].

٧١ ـ مسالك المنطق الدعائي واهمية التمييز بينها في عملية التخطيط الاعلامي:

ليس احد اهداف هذه الدراسة تحليل الدعاية الخارجية الاسرائيلية وابراز نواحي نجاحها. ولكن كما حللنا في غير هذا الموضع، المنطق الدعائي يفترض مسلكين متوازيين يكمل كل منهما الاخر ويدعمه: منطق ايجابي وهو جوهر الغزو، ومنطق سلبي وهو منطلق لرفض المنطق العكسي. الاخفاق العربي هو ايضا احد المسالك التي تدعم من خلاله الدعاية الاسرائيلية مكتسباتها ومظاهر نجاحها. الاعلام الاسرائيلي استطاع ان يفهم بعض هذه الحقائق وينجح فيها نجاحا واضحا:

---

(٥٢) قارن على سبيل المثال: DEMERON, Contre Israel, 1968, p. 151.

(٥٣) قارن حامد ربيع، دراسات اساسية، م. س. ذ، ص٢٦ وما بعدها.

(٥٤) انظر ايضا حامد ربيع، دراسات، م. س. ذ، ص٢٩.

اولا: فهم ان الاعلام الخارجي هو اداة دبلوماسية وعرف كيف ان هذه الصفة اي الصفة الدبلوماسية يجب ان تصبغ التعامل الاعلامي في الخارج لافقط من حيث كونها اداة للسياسة الخارجية بل وكذلك من حيث حقيقتها كلغة تخاطب ومنطق تعامل بين قوى غير داخلية. هذا النجاح واضح في اكثر من بعد واحد: ربط المهاجرين اليهود بالقضية الاسرائيلية، جعل العمل الدبلوماسي اداة دعائية، استغلال فكرة الحوار التليفزيوني والاذاعي منطلقا محايدا لخلق الاقناع وتأكيد الاقتناع[55].

ثانيا: كذلك فقد فهمت الدعاية الاسرائيلية حقيقة العمل الدعائي الخارجي من حيث كونه يجب ان يخضع خضوعا مطلقا لفكرة مركزية التخطيط. ان مستقبل العمل الدعائي الخارجي وهو يتعرض بحكم طبيعة الموقف لاكثر من منطق واحد يفرض على منطق التعامل خصائص معينة وهي خصائص لايمكن ان نصل الى تحقيقها الا من خلال التوحيد والتنسيق الداخلي والحركي للتخطيط الدعائي[56].

نماذج النجاح واضحة:

أ ـ اسرائيل واثيوبيا حيث جعلت الدعاية الاسرائيلية من التقارب بينهما نوعا من العناق الحضاري. وهو عناق بمعنى اللقاء والتفاعل دون ان يتعدى ذلك.

ب ـ اسرائيل واوروبا الغربية حيث اضحت قاعدة الانطلاق الدعائية هي فكرة الامتداد الحضاري. لم يعد التخطيط المنطقي للعمل الدعائي يستند الى فكرة اللقاء والعناق وانما يجعل جوهره فكرة الامتداد والترابط العضوي.

جـ ـ اما عن اللغة الاعلامية فيكفي لابراز هذا النجاح المقارنة بين الدعاية الاسرائيلية في المجتمع الامريكي قبل عام ١٩٦٧ وعقب عام ١٩٦٧. قبل ذلك التاريخ تدور وتتمركز حول عقدة المسئولية. وذلك رغم ان منطق الدعاية الاسرائيلية الموجهة الى المجتمع الاوروبي بصفة عامة والمجتمع الالماني بصفة خاصة كان يغلف نفسه بعقدة الذنب. عام ١٩٦٧ اذا بفكرة حماية المصالح الامريكية تصير جوهر اللغة الدعائية وذلك رغم ان عقدة المسئولية سوف تنتقل لتسيطر على اللغة الدعائية المتجهة الى مجتمعات غرب اوروبا[57].

د ـ نموذج اخر لا نزال نعاصر بعض ابعاده غير الواضحة ولكننا نتوقع نجاحه في القريب العاجل يرتبط بالعمل الاعلامي المتجه الى الصين. ان اسرائيل تتحدث مع هذه الاخيرة فقط بلغة التكنولوجيا ومن خلال المنطق التكنولوجي. ترى هل سوف تظل جامعة الدول العربية جامدة ايضا بالنسبة لامكانياتها في هذا النموذج؟

٧٢ ـ الاخفاق ونماذجه، حول تقييم العمل الدعائي العربي:

الواقع ان جامعة الدول العربية فشلت فشلا واضحا رغم امكانياتها وضخامة الفرص التي اتيحت لها. فليست فقط الصين احد الميادين التي كان يستطيع الاعلام العربي لو قدر له الذكاء ان يغزوها بنجاح، بل هناك نماذج اخرى لاتزال تصرخ وتتساءل اين كانت الجامعة واين كان رجال تلك الجامعة؟

أ ـ ان روسيا وبصفة خاصة خلال الفترة السابقة على عام ١٩٦٧ كانت ميدانا مفتوحا على مصراعيه. وهو

---

(٥٥) حامد ربيع، نظرية الدعاية الاسرائيلية، م. س. ذ، ص٧٢ وما بعدها.

(٥٦) حامد ربيع، فلسفة الدعاية الاسرائيلية، م. س. ذ، ص١١٣ وما بعدها.

(٥٧) قارن الحوادث ١٣/٤/١٩٧٣، وانظر ايضا نفس المجلة بتاريخ ١٥/١٢/١٩٧٢ وعلى وجه الخصوص سلسلة مقالات بعنوان «حوار مع اعداء الصهيونية»، ديسمبر ١٩٧٢.

ميدان تزداد فاعليته ويزداد وضوحه بالنسبة لاوروبا الشرقية[٥٨]. ومع ذلك ماذا فعلت جامعة الدول العربية؟
ب ـ المانيا لم تكن اقل من ذلك كقوة جاذبة لمنطق القضية العربية.
جـ ـ ويزداد الامر وضوحا لو انتقلنا الى الاحزاب الاشتراكية في فرنسا وايطاليا. فالراي العام الفرنسي وكذلك الراي العام الايطالي الى حد ما لم يؤيد في اي من طبقاته أو شرائحه القضية العربية كرد فعل أو كنتيجة للاعلام العربي. القوى اليمينية بتقليدها تقف من السامية موقف العداوة. الاحزاب الشيوعية تساير الموقف الرسمي لموسكو. الاعلام العربي كان من الطبيعي ان يتجه الى الاحزاب الاشتراكية. فهذه البلاد اي البلاد العربية تقدم نماذج واضحة للتطور الاشتراكي وبعضها يعلن بان الاشتراكية هي منطلقة الحركي واساس فلسفته السياسية. ومع ذلك فان هذه الاحزاب هي التي تكون راس الحربة في رفض القضية العربية بتلك البلاد. فلماذا او كيف يحدث ذلك؟
د ـ والهند ليست في حاجة الى حديث فمأساة الاعلام العربي بها اضخم من ان تكون موضع تعليق. ولنتذكر الامكانيات[٥٩]. ولنتذكر بعض ملامح الفشل:

---

(٥٨) خلال فترة تمتد حوالي عشرين عاما حيث كانت العلاقات بين اغلب دول المواجهة او على الاقل الدول ذات الثقل الحقيقي في عملية المواجهة والعالم الشيوعي وثيقة ومستقرة، ماذا فعلت الجامعة العربية في سبيل تاكيد قنوات الاتصال مع العالم الشيوعي؟ هل اصدرت دورية واحدة او نشرة واحدة باللغة الروسية خلال طيلة تلك الفترة؟ قارن ذلك بجهود ماتسميه الدعاية الاسرائيلية بجمعية اصدقاء السلام المتمركزة في تل ابيب والتي استطاعت ان تشن حربا نفسية على المجتمعات العربية وبصفة خاصة على المجتمع المصري مستخدمة كتيبات تبرز من خلالها نواحي التناقض بين الطبقة الحاكمة والطبقات الحكومية. انظر تعليقا على بعض منشورات هذه الجمعية في الاسبوع العربي بتاريخ ٢٥/١/١٩٦٨.
(٥٩) قارن الكتاب السنوي، م. س. ذ.، ص٢٩ وما بعدها والذي يحدثنا عن مشروع ليبي يتعلق بانشاء مؤسسة اعلامية ومن الامور الجديرة بالملاحظة ان المتتبع لمناقشات اللجنة الدائمة للاعلام العربي يلحظ ان هذه المناقشات تدور دائما حول افتتاح مكاتب اعلامية جديدة. حتى ان المرجع السابق ذكره يخبرنا بان مذكرة الامانة العامة في يناير ١٩٧٠ تقدمت تطلب افتتاح مكاتب اعلامية جديدة في كل من المكسيك والنمسا والسويد وتشيكوسلوفاكيا ونيجريا وتركيا واليونان واستراليا وايرلندا واسبانيا ومالطة. ورغم ان هذه الاقتراحات قوبلت بالرفض الا انه في هذه الدورة تقرر فتح مكتب في مدريد. ويندر اجتماع لاتحدث فيه مطالبة بفتح مكتب جديد او تدعيم مكتب قائم، والواقع ان هذا ينبع من مفهوم خاطيء وهو تصور لامركزية العمل الاعلامي والدعائي. ان جميع خبراء الاتصال الخارجي يسلمون بان العمل الاعلامي والدعائي يجب ان يسيطر عليه نوع من المركزية بحيث يتبلور في خطوطه العامة حول مقدرة خلاقة تنبعث من موقع صياغة صنع السياسة الخارجية. وهذا ليس الا نتيجة منطقية لما سبق وحددناه من ان العمل الدعائي والاعلامي الخارجي ان هو الا اداة من ادوات السياسة الخارجية.
الا ان هذا المجمل في حاجة الى نوع من التحديد:
اولا: ان الاطار العام للعمل الدعائي والاعلامي يعني السياسة العامة لما يتضمنه ذلك من منطق دعائي ومن تدفق في المعلومات الذي هو جوهر العملية الاعلامية. اما فيما يتعلق بالتنفيذ فالامر الذي لاشك فيه انه يجب ان يرتبط بنوع معين من اللامركزية.
ثانيا: ان اللامركزية تزداد تاكيدا بالنسبة للعمل الدعائي الجماهيري وكذلك بالنسبة للعمل الاعلامي وان قلت بالنسبة للاتصال الشخصي اي بالنسبة للاعلام المرتبط بعملية صنع القرار وتوجيه قادة الراي.
ثالثا: ان الاعلام الجماهيري له شقين: شق اساسه الانتقال الى المستقبل وشق اساسه تمكين المستقبل من الحصول على المعلومات. الشق الاول الذي ياخذ صورة المنشورات او الكتيبات الاعلامية او ما في حكمها من اعلام مسموع ومرئي اكثر خضوعا للمركزية من الشق الثاني الذي ياخذ صورة مكاتب عامة حيث يستطيع الجمهور ان يطلع في داخلها على ما يريد من مصادر للمعلومات. هذا الشق الثاني هو اساس الاعلام الامريكي المعاصر وهو يبرر تعدد مكاتب الاعلام بالنسبة للدبلوماسية الامريكية. ولكن لا موضع له في العمل الاعلامي العربي لان الثقافة العربية لم تملك بعد تلك الثروة الاتصالية باللغات الاجنبية التي تسمح بخلق مكاتب اعلامية او بعبارة ادق مكتبات اعلامية من هذا القبيل. فضلا عن ان هذا النوع من الاعلام هو اعلام هجومي يتستر خلف سياسة التعاون الثقافي والاعلام العربي حتى هذه اللحظة لايزال يقف موقف الدفاع انظر ايضا:
GIVET, La gauche contre Israel, 1968, p. 89.

١ ـ عرب المهجر في الولايات المتحدة وكندا وامريكا اللاتينية.
٢ ـ الطلاب العرب الذين يمثلون عددا لايقابله اي عدد اخر مماثل من جانب الطلاب اليهود في اي بقعة من بقاع العالم عدا الولايات المتحدة الامريكية.
٣ ـ العمال العرب الذين يصلون الى مئات الالاف والذين يكونون في المانيا وحدها مايزيد على خمسين الفا بل ويقدره البعض بانه يصل الى مائة الف.
٤ ـ واين الاتصال الاعلامي بالدول الاسلامية ولو من خلال الازهر.

٧٣ ـ اهمية تكامل المنطق الدعائي ومسالك الغزو الاعلامي في عملية المواجهة الصهيونية:

ان الخطا الحقيقي الذي يجب ان يعاب على جامعة الدول العربية هي انها لم تقدم منطقا دعائيا واعلاميا ولو في صورة فطرية او بدائية[٦٠]. وفشلها في هذا يعود الى عوامل عديدة سبق ان فصلناها. ولكن يتعين علينا ان نضيف بعض الملاحظات التي يجب ان تفرض اكثر من استفهام واحد نسوقها كختام لهذه الدراسة لنطرح من خلالها المنطلق الحقيقي الذي يجب ان تنبع منه عملية المواجهة الاعلامية في الاعوام القادمة.
أ ـ ان جامعة الدول العربية تصور نفسها كمنظمة اقليمية على اساس ان عملها الحقيقي هو فقط القيام بالتنسيق اللازم بين مختلف الدول الاعضاء. على ان هذا في الواقع يمثل فقط احد مستويات العمل السياسي الذي يجب ان تقوم به تلك الجامعة. هذا المستوى يرتبط بوعائها الداخلي كمنظمة اقليمية. ولكنها تنسى انها ايضا كمنظمة اقليمية يقع على عاتقها عبء اخر بوصف كونها حلقة وصل بين المنطقة الاقليمية التي تمثلها والعالم الخارجي. عملها في مواجهة العالم ليس عملية تنسيق وانما عملية خطاب واتصال ودفاع عن مصالح لايمكن ان تكون الا مشتركة. بعبارة اخرى يصير عملها بمثابة تجميع للقوى الذاتية في عملية المواجهة الدولية او بلغة اكثر دقة تصير قنطرة تتقابل فيها جميع روافد الوجود العربي، وهي بهذا المعنى منظمة قومية. الطابع الاقليمي للجامعة العربية لايجوز أن يطغى على طبيعتها القومية.

---

(٦٠) يرتبط بذلك موضوع المعلومات. وهو موضوع له ابعاد عديدة لانستطيع ان نثيرها في هذه العجالة السريعة. رغم ذلك فعلينا ان نتذكر ان عملية جمع المعلومات تكون العصب الحقيقي لكل ما له صلة بالعمل الاعلامي والعمل الدعائي. وهذا بدوره ينبع من طبيعة عملية الاتصال الخارجي كاداة من ادوات السياسة الخارجية. وهنا يحضرنا ان نتذكر ان اجهزة المخابرات وظيفتها الاساسية جمع المعلومات عن العالم الخارجي. عملية جمع المعلومات بهذا المعنى التي قد ترتبط في الذهن مباشرة بفكرة التجسس اضحت اليوم تكون محور النجاح الحقيقي لاي سياسة خارجية. المعلومات التي يحصل عليها من خلال التجسس لاتكون اكثر من ١٠٪ بل وليست اكثرها اهمية. ان عملية جمع المعلومات لها ابعاد عديدة: فمن جانب مصادر تلك المعلومات ثم من جانب اخر عملية توجيه المعلومات الى الجهة المناسبة وفي اللحظة المناسبة ثم من جانب ثالث تحليل المعلومات بالاساليب العلمية. انظر تفصيل ذلك في حامد ربيع، نظرية السياسة الخارجية، م.س.ذ.، ص١٠٣ وما بعدها. الخبرات المعاصرة تثبت ان جهاز المعلومات يجب ان يرتبط بعدة خصائص اولها ان ينبع من مؤسسة مركزية والا يقتصر على الاجهزة الفرعية المتعددة الملحقة بمختلف المرافق الحكومية. ان هذه المؤسسة المركزية هي وحدها التي تثير عصب عملية استقبال وتدفق المعلومات. الناحية الثانية هي ضرورة اختفاء الاسلوب البيروقراطي والتقاليد البيروقراطية في عملية جمع المعلومات. وهذا ما يعبر عنه بحرية الحركة لاجهزة المخابرات. الناحية الثالثة هي ضرورة الابتعاد عن النواحي الشخصية والمشاكل الجانبية وجعل المحور الوحيد هو الاهتمام بالامن القومي. الناحية الرابعة والاخيرة هي ان اجهزة المخابرات ليست اداة كبح الحرية الفردية ولا يجوز ان تتجه الى الداخل وانما هي اداة تتجه الى الخارج بقصد المعرفة الذكية بالعدو والصديق على حد سواء. ولعل كلمة Intelligence التي يستخدمها الفقه الانجلو سكسوني للتعبير عن هذه العملية يحمل الدلالة الحقيقية لطبيعة تلك الاجهزة. انظر في تاريخ المخابرات الاسرائيلية نشرة مؤسسة الدراسات بتاريخ ١٦/١١/١٩٧٢ ص٦٨٢ وما بعدها.

هذا هو المنطلق الحقيقي لوظيفة الجامعة العربية في عملية المواجهة الاسرائيلية

ب ـ كذلك مما يدعو للتساؤل الامكانيات الحقيقية لاستغلال المشاكل الداخلية للوجود الاسرائيلي كقاعدة لصياغة دعاية اساسها تشويه الطابع القومي الاسرائيلي بصفة خاصة واليهودي بصفة عامة او للتشكيك في القدرات الذاتية. ان هذا المنطلق الذي استغلته اسرائيل ببراعة لم نستطع حتى الان ان نجعل منه دعامة لحركة دعاية عكسية ومضادة رغم ان جميع الوقائع التاريخية القريبة والبعيدة تؤهل العمل العربي لمثل هذه الموجة وتقدم له من المادة مايمكن ان يكون طوفانا للعمل الدعائي.

فماذا فعلت سوى ان ترسل مديرين للمكاتب وعقب عام نسمع على صفحات الجرائد انها قد اكتشفت ان الواحد منهم اقل ما يمكن ان يوصف انه خائن للامانة؟ ترى هل نحن في حاجة الى اكثر من هذه الادلة والبراهين على ضرورة اعادة النظر في جميع عناصر ومقومات التنظيم الاعلامي بجامعة الدول العربية[٦١]؟

---

(٦١) هل من الضروري ان نضيف ان جامعة الدول العربية لم تملك حتى هذه اللحظة جريدة يومية او مجلة اسبوعية تصدر الى العالم الخارجي وتعبر عن وجهة نظرها؟ وذلك في نفس الوقت الذي بلغ فيه عدد ما تصدره اسرائيل في هذا الخصوص عدة مئات، انظر قرار رقم ٦٤ بتاريخ ١٩٦٩/٨/١٩ الخاص بتنظيم جهاز الاعلام في جامعة الدول العربية.

الفصل الثالث

التحرك المقبل:
المواجهة وعملية التسميم السياسي

خلاصة:

خلاصة: تقاليد التعامل النفسي في تاريخ الحركة الصهيونية تقييم الدعاية الصهيونية ـ النجاح الدعائي في امريكا الشمالية ـ مواطن الضعف: الكذب، التناقض، المبالغة في الضغط النفسي ـ الدعاية المضادة وتأصيل مفهومها الحركي: التمييز بين هدم المنطق المعادي وعملية بناء المنطق الايجابي ـ حقيقة الامكانيات العربية وتطور موقف الدعاية الاسرائيلية عقب عام ١٩٦٧.

٧٤ ـ الدعاية الاسرائيلية وتطورها المعاصر نحو تاصيل عملية التسميم السياسي:

من العرض السابق استطعنا ان نصل الى تأكيد بعض الحقائق الواضحة: من جانب ارتباط الحركة الصهيونية بعملية التعامل النفسي وجعل هذه الناحية احد المنطلقات الثابتة للنشاط السياسي ابتداءً من نشأة الحركة الصهيونية ذاتها[1]. ومن جانب اخر التطور المستمر في عملية التعامل النفسي لخلق نوع من الاقلمة بين ابعاد التعامل ذاته وخصائص الموقف المتجدد. ونستطيع ان نضيف الى ذلك الصفة الثالثة وهي السلبية المطلقة من جانب العمل العربي في مواجهة الغزو الصهيوني.

فأول ماسبق ولاحظناه هو ان التعامل النفسي متعدد الأبعاد: زمانا ومكانا وموضوعا. وقد رأينا من الناحية الزمنية ان الدعاية الصهيونية انتفعت بخبرات عديدة سبقتها واعدت لها. انتفعت بالخبرة الاسلامية المتعلقة بخصائص الدعوة السياسية. وكيف ان منطق الدعوة له قواعده واصوله واهمها ان لغة الايمان لاتقبل الكذب وتستند الى الصدق وتقوية الثقة وتدعيم الايمان. ثم هي انتفعت بالخبرة الفرنسية التي ماكانت تصور التعامل النفسي دون ان يتصف بصفتين: التنظيم من حيث الهيكل والتعانق الحضاري من حيث الجوهر.

وكان من الطبيعي ان تنتفع ايضا بمنطق الثورة الفرنسية وحضارة عصر النهضة وهو منطق القوميات فتغلف عملها الدعائي بمفهوم وفكرة الطابع القومي. ثم تأتي الخبرة النازية وتضيف بعدا ثالثا في المصادر الفكرية للتعامل النفسي كما تصورته الحركة الصهيونية وهو فكرة الحرب النفسية بمختلف تطبيقاتها[2]. فالحرب النفسية لايمكن ان تستند الى لغة الايمان لانها لاتسعى الى الولاء كما انها لاتدور في فلك التعانق الحضاري لانها لاتريد التأييد، انها اكثر من ذلك واقل من ذلك في آن واحد: لانها تريد تحطيم الخصم وهذا يعني عمق في اللغة والاتصال ولكنها اقل لانها لايعنيها من نتائج التعامل النفسي سوى ان تقضي على ارادة العدو.

على اننا لو تركنا جانبا هذه الطبيعة للمصادر المختلفة التي منها استمدت الحركة الصهيونية تصورها في التعامل النفسي وحللنا المشكلة اليهودية، المصدر الحقيقي للصهيونية السياسية لوجدنا ان القوى التي يتعين التعامل معها لو اطلقنا نظرة كلية شاملة للمشكلة تتمركز حول بؤر خمس[3] كل منها لها اوضاعها ولها خصائصها وكل منها تفرض اسلوبا معينا من التعامل النفسي.

أ) فهناك اولا اليهود او بعبارة ادق اليهود الغربيون الذين خضعوا لعمليات الاستئصال المستمرة والذين بهذا المعنى كونوا جوهر المشكلة. اين المأوى الذين يستطيعون في داخله أن يجدوا الحرية والطمأنينة التي هي حق لكل انسان في المجتمع المعاصر؟ من هذا المنطلق سبق ورأينا ان الصهيونية ليست من حيث جوهرها واصولها التاريخية دفعة لتأكيد التميز وانما هي محاولة للتشبه مع ما يستتبعه ذلك من نتائج سياسية وحركية.

ب) ثم هناك المجتمع الاوروبي الذي يحمل وزر هذه المسؤولية والذي خلق بسياسته هذه المشكلة. وسواء كانت المسؤولية مشتركة بين الطبقات الحاكمة الاوروبية والقيادة اليهودية ام انها فقط مسؤولية المجتمع الاوروبي، فان المواطن الاوروبي ازاء المشكلة يصير محور المسؤولية وموضع التساؤل والمحاسبة. بطبيعة الحال يجب ان نتذكر ايضا بهذا الخصوص ان المجتمع الاوروبي بهذا المعنى يضيق اتساعا من حيث الزمان والمكان[4]. فهو يبلغ القوة في المجتمع الالماني في فترة الحكم الهتلري ويقترب منه المجتمع الروسي قبل الثورة

---

(١) انظر سابقا الفصل الاول، فقرة ٧ ومابعدها.

(٢) التفاصيل في حامد ربيع، دراسات اساسية، م. س. ذ. ، ص ٢٣ ومابعدها.

(٣) انظر بمعنى اخر، جيفت، م. س. ذ. ، ص ١٣٣ ومابعدها.

(٤) مطابق ديبرون، م. س. ذ. ، ص ٢٦ ومابعدها.

المعروفة ويقل تدريجيا كلما ابتعدنا عن هذا المحور زمانا ومكانا. ولكن هذا لايمنع ان الرابطة مطلقة تربط جميع عناصر المجتمع الاوروبي في المشاركة في المسؤولية بل ولاتزال حتى اليوم صالحة لان تخضع الضمير الاوروبي للمناقشة والتساؤل.

ج) ثم هناك المجتمع الفلسطيني الذي انتزع من ارضه وطرد من دياره ليستطيع المجتمع اليهودي ان يحل محله وان يحقق في داخله تلك الطمأنينة وذلك السلام الذي عجز عن تحقيقه في الأرض الاوربية. الفلسطيني بهذا المعنى هو الضحية التي خضعت لافقط للاعتداء من جانب المجتمع اليهودي بل ولان تدفع ثمن الأخطاء التي ارتكبها الاوروبي. على اننا هنا يجب ان نتذكر حقائق اخرى لايجوز ان تكون خافية عن اذهاننا: فالفلسطيني عندما أنتزعت ارضه بالحيلة اولا وبالقوة ثانيا لم يكن يمثل مجتمعا قوميا في معناه التقليدي كما تقدمه لنا المفاهيم الغربية ولكنه في ذلك الوقت كان يكون جزءا من تلك الامة العربية التي كانت قد بدأت تعود الى تكاملها القومي في صراعها نحو الانفصام عن العالم التركي ونحو الابناء باسم الثورة العربية[5].

د) وهذا يفسر ان المحور الرابع لعملية التعامل النفسي هو المجتمع العربي. فالأمة العربية تمثل في الواقع الطرف الاصيل والدائرة الاكثر اتساعا التي تضم وتحتضن المجتمع الفلسطيني. وقد يبدو للبعض ان هذا نوع من المبالغة عندما يتذكر ان الوحدة العربية لم ترتفع الى مرتبة الحقيقة الحركية الا فقط منذ عدة سنوات وعلى وجه التحديد اثناء معركة السويس الاولى. على ان هذا يخالف منطق التاريخ والتفسير الحقيقي للوقائع الثابتة قبل تلك الفترة. ويكفي ان نذكر الواقعة التالية[6]. في عام ١٩٠٧ كان يرأس الحكومة البريطانية رجل الدولة المشهور كامبيل بانريمان، اصابه القلق ازاء شعوره بالحركات القومية وبصفة خاصة في منطقة الشرق الاوسط ومن ثم دعا لجنة من الخبراء المؤرخين وعلماء الاجتماع ووضع امامهم سؤال محدد: ماهي الادوات او الوسائل التي نستطيع من خلالها ان نمنع تلك الحركات وان نقيم ازائها عوائق على الاقل تؤخر من تكاملها؟ على ذلك التساؤل اجابت اللجنة المذكورة ان احد الخطوط التي يجب ان تسير عليها السياسة البريطانية بثبات هو منع وحدة الجماهير في المنطقة العربية او اقامة اي نوع من انواع الارتباط التاريخي او المعنوي بينها. وتضيف اللجنة في تقريرها المذكور على ان السياسة البريطانية يجب ان تبحث عن الوسائل العملية التي تؤدي الى تجزئة تلك المنطقة على قدر الامكان وبصفة خاصة اقامة حاجز بشري اجنبي وقوي غريب عن المنطقة بحيث يخلق قرب قناة السويس قوة صديقة للاستعمار ومعادية لاهالي المنطقة. حدث هذا في عام ١٩٠٧ وقبل انشاء الوطن القومي اليهودي بقرابة نصف قرن[7]. بل وفي نفس ذلك التاريخ وقبل الحرب العالمية الثانية بعدة اعوام نجد ونستون تشرشل يعلن في احد خطاباته ولم يكن سوى وزير شاب في تلك اللحظة: «لو قدر لنا في حياتنا ان نعاصر ميلاد دولة يهودية ليس فقط في فلسطين ولكن على جانب ضفتي الاردن فاننا سوف نعاصر واقعة تتطابق تطابقا مطلقا مع المصالح الحقيقية للامبراطورية البريطانية».

هـ) ثم تأتي قوة اخرى تتفاعل مع المشكلة وهي المجتمع الامريكي. المجتمع الامريكي اليوم يمثل احدى الدوائر المترابطة مع عملية التفاعل النفسي لاكثر من سبب واحد: ليس فقط كما يتصور البعض لان هناك اقلية يهودية امريكية. ان الاسباب الحقيقية تعود الى ان الولايات المتحدة تستخدم الدولة العبرية كأداة لتنفيذ سياستها في المنطقة او بعبارة ادق كشرطي يحرس مصالحها. انها سفينة حربية قد عززتها الظروف في قلب العالم العربي واستطاعت السياسة الامريكية ان تجعل منها الوسيط للدفاع عن مصالحها[8].

---

(٥) قارن صالح مسعود ابو صير، جهاد شعب فلسطين، ١٩٦٨، ص ٣٠٥.

(٦) جميع هذه الوقائع اوردتها مجلة الازمنة الحديثة في عددها المستقل عن مشكلة الشرق الاوسط رقم ٢٥٢، ص ٢٢٥ ومابعدها. ونقلها عنها ايضا ديفيرون، م. س. ذ، ص ١٥٠ ومابعدها.

(٧) انظر في معنى مطابق تصريحات اسرائيلية، اوردتها «ملف القضية العربية» في العدد رقم (١) من دراسات ووثائق بتاريخ ١٩٦٨، تحت رقم ٤٠، ٦٣، ١٣٢.

(٨) ديفيرون، م. س. ذ.، ص ١٥٣ ومابعدها.

التعامل النفسي من جانب العالم الصهيوني وكذلك اليوم من جانب القوة العربية يجب ان يضع في حسابه انه لابد وان يتجه الى هذه القوى الخمس وان اللغة والمنطق بل وفن التعامل سوف يختلف تبعا لكل من هذه القوى.

وقد فهمت السياسة الاسرائيلية حقيقة هذا التنوع وهذا التعدد فجعلت تعاملها النفسي يتطور ويتعامل مع الموقف بمرونة لا موضع للشك بخصوصها. يبدو هذا واضحا مما سبق وذكرناه حيث لجأت الى الدعاية والدعوة والحرب النفسية بل والى غسيل المخ في وقت واحد. وهو اليوم يبدو في صورة اكثر مرونة من خلال استخدامها لما نستطيع ان نسميه التسميم السياسي وجعل هذا الاسلوب الجديد من اساليب التعامل النفسي احد العناصر الاساسية التي تمثل التخطيط الاسرائيلي لادارة الصراع في منطقة الشرق الاوسط وبصفة خاصة منذ وقف اطلاق النار عام ١٩٧٠. عملية التسميم النفسي سمحت لها ان تتخطى التناقضات من جانب وتحقق التناسق من جانب اخر بين التعامل النفسي والصراع الجسدي(٩).

كذلك فان الخبرة اللاحقة لعام ١٩٧٣ اثبتت بدورها حقيقة جديدة تبدو واضحة صريحة: التمييز بين مستويات الصراع الذي فرضه الوجود العبري وعلى وجه التحديد التفرقة الواضحة التي يجب ان ندخلها في اعتبارنا خلال الأعوام القادمة بين الصراع في منطقة الشرق الاوسط والصراع العربي الاسرائيلي. في غير هذا الموضع ابرزنا تعدد مستويات ذلك الصراع، ولكن ظلت تلك المستويات حتى وقت قريب تختلط الواحد منها بالاخرى اختلاطا في بعض الاحيان متعمدا كأسلوب من اساليب تشتيت الاذهان وخلق نوع من انواع الاضطراب الفكري الذي هو من حيث طبيعته نوع من انواع التسميم السياسي. ولكن الاحداث الاخيرة ابرزت كيف ان المشكلة الأقليمية، ليست هي المشكلة الحضارية وكيف ان تقديم الحلول على الصعيد الاول لايعني تصفية التواجد الصهيوني على المستوى الثاني. هذه الحقيقة فرضت نتائجها على نفس السياسة الاسرائيلية: هل تسعى من منطلق ارادة الانتهاء الى المنطقة بان تتحول داخليا بقصد خلق ادوات الاتصال التي سوف تمكنها من ان تصير الدولة المسيطرة على منطقة الشرق الاوسط ام ان عليها ان تحتفظ بطابعها المتميز الصهيوني الذي هو وحده القادر على ان يمكنها من تدعيم روابطها بمجتمع المهجر؟ بعبارة اخرى فان مقتضى الاحداث الاخيرة هو تنقية الحرب النفسية في منطقة الشرق الاوسط وتمييزها تمييزا واضحا عن الابعاد النفسية للصراع العربي الاسرائيلي واذا كان حديث السلم والتعايش قد يبدو وكأنه لايتفق مع منطق الحرب النفسية فان عملية التسميم السياسي تأتي فتصير البديل الطبيعي لذلك المفهوم. ان التسميم السياسي هو منطق الحرب النفسية بلغة التعايش السلمي انه لايتجه الى الذات من خلال المواجهة الصريحة وانما مستندا الى مسالك اخرى غير مباشرة وخفية بحيث يستطيع ان يحطم الذات دون وعي منها بحقيقة المخاطر. اليس هذا هو حديث السلم؟ وكما ان الحرب النفسية لها اهدافها ولها تخطيطها فعلينا ان نطلق ايضا التساؤلات بخصوص عملية التسميم السياسي: ماهي الاهداف التي لابد وان تسعى لتحقيقها الارادة الاسرائيلية من منطلق التعامل النفسي ولو مغلفا باسم التعايش والسلام، ولو تم ذلك من خلال وسيط اي الارادة الامريكية؟ ايضا التسميم السياسي له تخطيطه وله اهدافه فهل سوف نقف ايضا ازاء هذه المرحلة الجديدة موقف السلبية الذي تعوده المجتمع العربي في تاريخه القريب والبعيد؟

تساؤلات عديدة لابد وان نطرحها. والا كيف نغامر بالمواجهة؟ وهل نستطيع من خلال متابعة الماضي ولو في ابعاده العامة ان نتحسس حقيقة اخطاء العدو؟ والا كيف نظل ننظر الى التجربة الاسرائيلية على انها

---

(٩) قارن تصريح ابا ايبان في جريدة الجيروزاليم بوست بتاريخ ٢٩ يونيو ١٩٦٧. وانظر مجلة الحوادث بتاريخ ٩ / ٢ / ١٩٧٣.
(١٠) انظر ايضا في التقاليد الامريكية المعاصرة:

FULBRIGHT, The pentagon propaganda machine, 1970, P. 141.

ليست ذات دلالة حقيقية؟ الحركة الصهيونية رد فعل للتعصب ضد السامية كان يجب ان يكون منطلقا لخلق عقدة المسؤولية ازاء الضمير الغربي ومع ذلك الم تقف التقاليد العربية موقف الصمت والاستكانة؟ المشكلة اليهودية لم يعرفها المجتمع العربي ورغم ذلك لم يحاول اي فقه محلي ان يقدم تصوره لمشكلة الوجود اليهودي من منطلق تقاليدنا وتاريخنا وحضارتنا بما يفصح عن انها مشكلة مصطنعة فرضت على المنطقة؟ المجتمع الاسرائيلي مجتمع برجوازي وامتداد للمفهوم البرجوازي للسلطة ومع ذلك فاين لغة التخاطب مع المجتمعات الشيوعية والحركات الاشتراكية؟ الوجود اليهودي يوصف بانه نوع من الاستيطان ويقرب بسذاجة مؤلمة من الحركات الانجلوسكسونية في شمال امريكا وفي استراليا ونيوزلندا بل وتخصص بحوث ودراسات تنفق عليها جامعة الدول العربية بهذا الاسم فهل هذا يعكس حقيقة الوجود العبري في المنطقة؟ ان اصل التوطن اليهودي في فلسطين لم يكن سوى حركات فردية لاتعكس طابع الهجرة الجماعية بمعنى الانتقال الكلي الكامل للمجتمع بقصد انشاء مجتمع جديد في موضع الاستقبال، ان هذا المفهوم لم يبرز الا في خلال الفترة السابقة مباشرة على الحرب العالمية الثانية والمرتبطة بها ولو قبلنا ان هذا المفهوم يعود الى عدة اعوام سابقة تقع دائما في قلب القرن العشرين وعلى وجه الخصوص عقب وعد بلفور، فأن تلك الحركة المهاجرة لم تكن تعتبر امتدادا للارادة الدولية الغازية والمتحكمة في المنطقة. ان الارادة البريطانية التي بدأت تعلن ولو باسم الدولة المنتدبة عن حقها في التحكم في تلك المنطقة ليست هي التعبير الحضاري والنظامي عن حركات الهجرة اليهودية بل ان كلمة الاستيطان ذاته تعكس الكثير من التساؤلات: اليس الاستيطان يعني التعايش؟ وهل مفهوم الاستيطان الاسرائيلي او التواجد العبري في الارض الفلسطينية يعني التعايش ام انه على العكس من ذلك يعكس فكرة الاستئصال والانفراد بشرعية الانتماء الى تلك الارض؟

تساؤلات عديدة لاتسمح هذه العجالة الا بأن نطلقها دون الاجابة عليها وهكذا علينا ان نبدأ في هذه المتابعة الموجزة التي لاتعني سوى تأكيد على حقيقة التطور الذي تعانيه المنطقة منذ معركة اكتوبر والتي فرضت تبديل في المسميات دون تغيير في الجوهر بأن نحلل الاخطاء التي وقعت فيها الدعاية الاسرائيلية قبل ان نطلق التساؤلات.

لن نزعم بتخطيط للمواجهة: سوف نتحسس من بعيد السياسة الدعائية للعدو وابعادها الحركية في تخطيطاتها النفسية وسوف نقف عند حدود العموميات لنقدم التصورات والتساؤلات دون محاولة بناء اطار للحركة. ولكن لن يمنعنا ذلك من ان نتساءل ولو من خلال نموذج عملي يرتبط بالماضي وبإخفاقنا المتكرر: اما كان يمكن استغلال الوقائع في صالحنا؟ اما قدم العدو من الاخطاء ماكان يسمح بأن تنطلق من خلالها ابواق دعاية علمية منظمة جديرة بالاحترام واحتمالات النجاح؟

هكذا نخلق ولو مؤقتا العلاقة الوثيقة بين الفكر والواقع بين التجريد والتجريب بين التصور والحركة.

تتابع الدراسة في مباحث ثلاثه بالترتيب السابق: تقيم، تساؤلات، نماذج للحركة.

---

(١١) قارن حامد ربيع، فلسفة الدعاية، م. س. ذ.، ص ١٦١ ومابعدها.

المبحث الاول

تقييم الدعاية الاسرائيلية

٧٥ ـ التخطيط الدعائي في تقاليد الحركة الصهيونية واهميته في عملية المواجهة العربية:

الملاحظة العامة التي يستطيع ان يسجلها كل من يتابع الدعاية الاسرائيلية هي صفتها الاساسية الواضحة وهي التخطيط. والتخطيط الدعائي يعني عدة حقائق: يعني اولا دراسة للموقف العام الذي نسعى الى تغييره. ثم يعني ثانيا وضع خطة دقيقة ومحددة للتغيير اساسها وضوح الاهداف وتقييم الامكانيات. ثم ثالثا تنفيذ عملية التغيير بمراحل متتابعة زمنيا كل منها تقدم للاخرى وكل منها تختم السابقة[١٢].

ليس هذا مجال دراسة ظاهرة التخطيط الدعائي في تاريخ الحركة الصهيونية. قد ابرزنا في غير هذا الموضع كيف ان هذه الصفة ليست جديدة في تاريخ التعامل النفسي من جانب الحركة الصهيونية بل انها صفة قديمة واقدم من ذات الحركة الصهيونية.

لو عدنا الى تاريخ التعامل النفسي لوجدناه يبدأ بنماذج واضحة من تاريخ التوراة والنصوص المقدسة. ولكن لنترك جانبا هذه التقاليد البعيدة ولنقف امام القرن التاسع عشر لنلحظ ان التخطيط الدعائي او على الاقل التعامل النفسي يسبق الحركة الصهيونية. فخلال طيلة القرن التاسع عشر نجد ان احد اهداف الفكر اليهودي يدور حول منطلقين: منطلق ديني ومنطلق حضاري. تجمعها صفة واحدة وهي اعادة التثقيف والتوعية من خلال المنطلقات التاريخية وبعبارة اكثر دقة اعادة كتابة التاريخ اليهودي. اعادة كتابة التاريخ اليهودي تصير اساسا لتنظيف الطابع القومي اليهودي مما علق به من شوائب فضلا عن تأكيد الثقة في الذات القومية[١٣]. تثقيف سياسي عقب التثقيف الديني اعد كلاهما لتأصيل التقاليد الدعائية بمعنى الخطاب المتجه الى مجتمع سياسي كامل على اساس فكرة الاقناع والتوجيه الحضاري والتي استطاعت الدعوة الصهيونية ان تجعلها احد اسس حركتها السياسية خلال النصف الاول من القرن العشرين.

---

(١٢) ظاهرة التخطيط الدعائي لم تقدر لها بعد الدراسة العلمية الكاملة. وقد تعرضنا لاكثر من موضع في هذه الدراسة بتحليل بعض ابعادها. انظر تفاصيل اكثر في حامد ربيع، نظرية الدعاية الخارجية، م. س. ذ.، ص ٩٧ ومابعدها، وكذلك حامد ربيع، فلسفة الدعاية، م. س. ذ.، ص ٧٨ ومابعدها. على انا يجب ان نضيف بأن ملاحظاتنا السابق ذكرها متعلقة بالتخطيط الدعائي الخارجي. التخطيط الدعائي الداخلي يخضع بدوره لمنطق آخر مستقل نستطيع بخصوصه ان نحيل على:
BRETON, planning theory, 1961, P. 253.

(١٣) التثقيف هو احد منطلقات الدعوة، او بعبارة ادق احد المراحل المعدة للانطلاق من حيث التعامل النفسي في شكل دعوة. السبب في ذلك واضح وهو ان التثقيف يدور حول نقل الحقيقة الى موضع التعامل النفسي وهو لذلك يتقابل مع الدعوة في منطلقات فكرية واحدة من حيث الاصول العلمية. ولعل هذا يفسر من جانب آخر لماذا عملية التنشئة تصير بدورها متغيرا اساسيا في التطورات العقيدية بمختلف ابعادها من حيث علاقة المواطن بالدولة.
قارن:
SHILS, demagogues and Cadres in the political development of the new states, in PYE, communications and political development, 1963, P. 64.

وهذا يجعلنا نتساءل: هل معنى ذلك ان الدعاية الصهيونية وجدت قبل الحركة الصهيونية؟

الاجابة تؤكدها الحقائق التاريخية. فمنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومن خلال الاعلام المكتوب انطلقت ابواق الكفاحية اليهودية بتخطيط يعكس خبرة الثورة الفرنسية واستقبال المفاهيم الفلسفية الالمانية في بوتقة فكرية واحدة. لنستطيع ان نفهم هذه الحقيقة علينا ان نعود للاطار التاريخي العام للمجتمع اليهودي. في تاريخ هذا المجتمع نستطيع ان نجد واقعتين خطيرتين كل منهما تمثل مرحلة حاسمة: اولهما الثورة الفرنسية وثانيهما الاعتراف بشرعية الدولة الاسرائيلية. الثورة الفرنسية اخرجت اليهودي من مجتمع الجيتو الى المجتمع القومي، من مجتمع الاقلية المنبوذة التي لاحقوق لها الى المجتمع القومي حيث المساواة الكاملة. الثاني اخرج اليهودي من المجتمع الداخلي المنطوي على نفسه الى الاسرة الدولية. عقب الاعتراف بالحقوق السياسية لليهودي نتيجة للانطلاقة الانسانية للثورة الفرنسية بدأت حركة ادبية وتاريخية واسعة اساسها محاولة تنظيف الطابع القومي اليهودي من الصورة التقليدية ذات الخصائص المبتذلة والممجوجة المتراكمة في الوعي والشعور الجماعي الاوروبي[١٤].

سارت هذه الحركة في ابعاد ثلاث:

اولا: اعادة كتابة التاريخ الانساني بما يؤكد اسطورة الشعب المختار بمعنى تقديم الشعب اليهودي على انه يدفع ضريبة الانسانية المعذبة.

ثانيا: كتابة التاريخ اليهودي بمعنى انه جعل تطور هذا المجتمع كتعبير عن فكرة البطل حيث يصير اليهودي ليس اليهودي التائه كما تقدمه لنا اساطير العصور الوسطى وانما الذي يدفع ضريبة العظمة والنبوغ الفردي.

ثالثا: تنظيف الطابع القومي اليهودي بازالة ما اصابه من تشويه.

هذه العملية هي التي نبعت منها تقاليد الدعاية الصهيونية. النماذج كثيرة. يحضرنا منها بهذا الخصوص «دبنوف» المؤرخ اليهودي الالماني الذي قتل في احد معسكرات الاعتقال وهو في التسعين من عمره والذي نشر تاريخا للحضارة اليهودية في عشرة اجزاء بدأه منذ الربع الثالث للقرن التاسع عشر حيث يؤكد لا فقط اصالة الحضارة اليهودية بل وان التاريخ لن ينتهي الا بتحقيق الدولة الصهيونية الكبرى[١٥].

هذه المصادر التاريخية تمثل الحقيقة الفكرية التي نبعت منها ولاتزال تنبع جميع عناصر المنطق الدعائي الصهيوني بصفة عامة والاسرائيلي بصفة خاصة.

متابعة تاريخ التعامل النفسي يفرض علينا ان نقف عقب ذلك امام جهود الحاخام سيلفر ومدى تأثيره في نقل طبقات الرأي العام الامريكي من مواقف عدم الاهتمام والرفض الى مواقف التأييد والتعصب. منذ انتقال الحركة الصهيونية الى نيويورك وانشاء مجلس الطوارىء الصهيوني بدأت مرحلة جديدة تعكس استمرارا في التقاليد ولكنها تؤكد ذاتية المنطق الدعائي في خلال تلك الفترة. فالحركة الصهيونية تنطلق من داخل المجتمع ودعايتها داخلية تخضع لمنطق الاعلام الداخلي[١٦]. رغم ذلك فظاهرة التخطيط واضحة وقد ابرزناها في غير هذا الموضع حيث تستند الى عناصر ثلاثة:

اولا: التمييز بين مرحلة مخاطبة مراكز اتخاذ القرار وعملية دفع شرائح الرأي العام لمساندة مواقف التأييد.

ثانيا: التمييز بين الخطاب المتجه الى اليهودي الامريكي والتعامل مع الامريكي غير اليهودي. الاول يستند الى لغة الدعوة والثاني يجعل منطلقه منطق الدعاية.

---

(١٤) مطابق تالمون، م. س. ذ.، ص ٩ وما بعدها. وقارن نفس المرجع ص ٨٢، هامش رقم ٨

(١٥) DUBNOW, nationalism and history, 1970. P. 76.

(١٦) هالبرين، م. س. ذ.، ص ٢٥٣.

ثالثا: تأكيد التعامل النفسي من خلال التخطيط العلمي سواء للحركة، سواء للمنطق، سواء للغة المستخدمة في عملية الاتصال.

ظاهرة التخطيط هي العنصر الذي يسيطر على تقاليد التعامل النفسي في تاريخ الحركة الصهيونية منذ بدايتها حتى اليوم. وهو في الواقع العنصر الذي يمثل القوة الحقيقية في العمل الدعائي الاسرائيلي: فهي ترث خبرة ضخمة ونجاحا سابقا ازاء عدو لم يستيقظ الا متأخرا. تراكم النجاح دون وجود الخصم الذي يستطيع ان يشكك في المنطق الدعائي كان لابد وان يكون قاعدة صلبة وثابتة للعمل الدعائي الاسرائيلي خلال الخمسة والعشرين عاما التي مضت منذ اعلان وجودها. ساعد على ذلك اخطاء عديدة للاعلام العربي. فهذا الاخير لم يقتصر على أن يتخذ مواقف السلبية بل تعداه الى تقديم نماذج عديدة من الخطأ والتناقض والاخفاق كان لابد لمخططي الدعاية الاسرائيلية ان يستغلوها ببراعة وبعد نظر[17].

السؤال الذي نطرحه في هذه الدراسة هو التالي:

هل رغم نجاح الدعاية الاسرائيلية ذلك النجاح المنقطع النظير نستطيع ان نكتشف اخطاء ونقائص في العمل الدعائي الاسرائيلي بحيث من خلالها نستطيع ان نقوم بدعاية عكسية او على الاقل بعمليات ضبط وايقاف لذلك الفيضان الدعائي الذي تخضع له مختلف فئات الرأي العام في المجتمعات المعاصرة؟

٧٦ ـ تقييم الدعاية الصهيونية وابعادها التجريبية:

قبل ان ننطلق في اكتشاف اخطاء الدعاية الاسرائيلية علينا ان نبرز مدى نجاح تلك الدعاية. ان تحليل الدعاية الاسرائيلية من حيث النجاح والاخفاق امر قد يكون سابقا لاوانه. ذلك ان تقييم دعاية معينة يفترض جعل منطلق ذلك التقييم هو البحث الميداني الذي اساسه معرفة الاهداف المسبقة ودراسة خصائص المجتمع السياسي الذي تتجه اليه عملية التعامل النفسي ثم متابعة تطور شرائح ذلك الرأي العام من خلال مختلف ردود الفعل المعبرة عن حقيقة ومدى التفاعل بين التعامل النفسي والقوى السياسية. رغم ذلك فان نماذج النجاح واضحة: فالى جانب المواقف الفردية فهناك نماذج جماعية واخرى مرتبطة بتطورات شرائح الرأي العام فضلا عن تلك النماذج الدولية التي نستطيع ان نستخلص دلالتها من عمليات التصويت في داخل المنظمات الدولية. وقد ابرزنا بعض هذه النماذج في غير هذا الموضع[18] ولكننا نستطيع ان نضيف الى ذلك نموذجين آخرين اكثر دلالة واكثر دقة في التعبير عن حقيقة النجاح الدعائي الصهيوني أولا والاسرائيلي ثانيا.

فلو عدنا الى تحليل مختلف طبقات الرأي العام الامريكي قبل عام ١٩٤٠ وقارناها بنتائج تحليل نفس الرأي العام عقب عام ١٩٤٥ هالنا مدى الفارق الذي اصاب تطور شرائح الرأي العام تأييدا للدعوة وللقضية الصهيونية. ولعل نموذجا واحدا كاف للتعبير عن هذا التطور.

فمن احد ابحاث الرأي العام التي اجريت خلال الفترة التي تمتد من عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٤٠ نجد ان الصفات التي عبر بها المواطن الامريكي العادي عن مفهومه لليهودي صفات جميعها تتراوح بين الخيانة والعدوانية والمكر وعدم احترام الآخرين[19]. حتى انه عندما طلب اليه وفي اثناء الحرب العالمية الثانية ان

(١٧) هل لابد ان نضيف بهذا الخصوص مرة اخرى ان فلسفة التعامل النفسي الحقيقية تعود الى التقاليد الاسلامية وان اي محاولة من جانب علمائنا للاجابة على هذا الاستفهام الذي اثرناه لم يقدر لها بعد الوجود. انظر رغم ذلك للمثال، اسرائيل ذلك الدولار الزائف، ١٩٦٥، ص ٨٣ ومابعدها.

(١٨) انظر التفاصيل في حامد ربيع، فلسفة الدعاية، م. س. ذ.، ص ١٢٦ ومابعدها.

(١٩) STEMBER, jews in the mind of America, 1966, P. 171.

يصنف اكثر العناصر خطرا على مستقبل المجتمع الامريكي وضع اليهودي في مقدمة الاقليات وجعله مسبقا على الياباني والصيني والالماني. ولنلقي بنظرة على بعض الاحصاءات.

اجابة على السؤال: «هل هناك صفات تنسب الى اليهودي وتأخذها عليه؟» وفي حالة الاجابة بنعم اعقب الباحث ذلك بسؤال اخر: ماهي الصفات التي تنعاها على اليهودي؟

من تحليل النتائج يلحظ العالم الامريكي استمبير ان خمسة ملامح تبرز واضحة للتصور الامريكي للرجل اليهودي:

اولا: فهو يحيا من اجل المال ويسعى في سبيله دون ضمير ودون الاهتمام بأي قيم خلقية. والمواطن الامريكي لذلك يؤمن بأن وصول اليهودي الى مراكز الضبط والقيادة في العمليات التجارية انما يتم من خلال تصرفات غير شريفة وادوات ومسالك موضع التساؤل.

ثانيا: ان اليهودي يفترض فيه انه مكافح بمعنى انه يتقدم باصرار وثبات وعلى استعداد لان يتحمل الجهد العنيف في سبيل بلوغ غايته يغلف ذلك بالعدوانية وبعدم احترام حقوق الاخرين والانانية التي تبلغ حد الحقارة.

ثالثا: اليهودي متعصب لقومه فهو يسعى الى التماسك مع ابناء عشيرته والى رفض غير اليهودي والى عدم احترام سوى المصالح الطائفية اليهودية.

رابعا: كذلك اليهودي لايعرف الاناقة ولا النظافة، تنقصهم جميع صفات وقيم الطبقة الوسطى. تقاليدهم تدعو الى الاشمئزاز والرفض واساليبهم لايستطيع المواطن العادي ان يتقبلها بسهولة.

خامسا: اضف الى ذلك النظرة العامة الى اليهودي على انه يمثل الخيانة وعلى ان جميع ان لم يكن اغلب على الاقل الجواسيس ضد المجتمع الامريكي يتم اختيارهم من جانب اليهود الذين لايعرفون اي ولاء نحو المجتمع القومي الذي آواهم[20].

يقدر الكاتب المذكور انه على الاقل اكثر من نصف المجتمع الكلي الامريكي كان يرى في اليهودي تجمعا لتلك الصفات السابق ذكرها خلال الفترة التي تمتد من عام ١٩٣٠ حتى عام ١٩٤٠. ويضيف الى ذلك بدهشة وتعجب: ان هذه الصورة لو نظر اليها في مجموعها فهي تعكس خصائص الصورة التقليدية لليهودي والتي استقرت في الاذهان منذ قرون عديدة سابقة. ان قصة شيلوك التي تعود الى شكسبير معروفة بل ونستطيع ان نجد في كتابات «تاسيت» منذ الحضارة الرومانية مفهوم عدم الولاء لدى اليهودي. واذا اردنا ان نتتبع فكرة الرفض العضوي بمعنى ان اليهودي يثير الاشمئزاز ويعكس درجة معينة من القذارة فاننا نجد اول صورة لها تتردد في الكتابات التي تنتمي الى القرن الثالث قبل الميلاد ومنذ ان استقرت في التقاليد فكرة ان

(٢٠) لانريد ان نتعرض مرة اخرى لتلك المؤلفات السطحية والتي تعكس مدى الاندفاع وعدم الشعور بالمسؤولية في مواجهة مشاكل لاتسمح بذلك. رغم ذلك فقد سبق ان تناولنا ذلك الكتيب الذي اصدره مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية بمؤسسة الاهرام بعنوان تجسيد الوهم بمناسبة دراسة الشخصية اليهودية ومدى اهمية ذلك المنطلق في فهم ابعاد الصراع العربي الاسرائيلي. ونعود مرة ثانية الى هذا المؤلف لنتساءل كيف استطاع صاحبه ان يقدم تلك الدراسة دون ان يقدر له الاطلاع على اهم المؤلفات الاساسية التي تتناول هذا الموضوع. والواقع ان الشخصية اليهودية او الطابع القومي اليهودي او الصورة اليهودية فجميعها مفاهيم تتفاعل الواحد منها بالآخر قدرت لها من الدراسات العميقة التجريدية والميدانية ما لم يقدر لطابع قومي آخر. رغم ذلك فيحضرنا على وجه الخصوص وبالنسبة لتلك الناحية المحددة التي اثرناها في هذا الموضع، وهي الاحتكاك بين المجتمع اليهودي والمجتمع الامريكي اربعة دراسات كل منها ذات اهمية خاصة من حيث ارتباطها بموضوعات التساؤل. الاولى ذات طابع تاريخي تدور حول تطور العمل الدعائي من حيث علاقته بالطابع القومي اليهودي في المجتمع الامريكي. لقد سبق واحلنا اليها في اكثر من مناسبة. نقصد بذلك مؤلف هالبرين عن العالم السياسي للصهيونية الامريكية. وقد اثار ذلك العالم بعض التساؤلات التي طرحناها

بخصوص تطور الرأي العام الامريكي ازاء تقبل العنصر اليهودي بصفة عامة وازاء تبني القضية الصهيونية بصفة خاصة، انظر ص ٢٥٣ ومابعدها، ثم ص ٣٧ وما بعدها حيث يجد القارىء تفصيلا موجزا لما يسمى باستفتاء روبير. المؤلف الأخر الذي يجعل منطلقه هو المقارنة بين الاقليات الامريكية وابراز الاقلية اليهودية في حركة تلك الاقليات من المجتمع الكلي الامريكي ندين به الى مجموعة من العلماء الفرنسيين بعنوان.

ELISE, MARIEMSTATS.EN marge, 1971, P. 94

اهمية هذا المؤلف الاخير تعود الى انه اخضع للمقارنة ليس فقط الاقلية اليهودية بل وايضا الاقليات الامريكية ذات الاصل الشرقي كالاقليات اليابانية والاقلية الصينية. يأتي فيكمل هاتين الدراستين دراسة ثالثة وهي التي احلنا اليها في الهامش السابق. اهمية هذه الدراسة تعود الى ان صاحبها اشترك في وضعها مع حوالي اثني عشر عالما من اكبر المتخصصين في التحليل السلوكي الميداني. لم يترك جانبا ؛ من جوانب الشخصية اليهودية دون ان يتعرض له وعلى وجه الخصوص في عام ١٩٣٥ من واقع المجتمع الامريكي. يأتي فيكمل ذلك دراسة اخرى صدرت عقب الدراسة الاخيرة بعام واحد. تناول فيها صاحبها تحليل اليهودي الامريكي في المجتمع الاسرائيلي. نقصد بذلك المؤلف المشهور بعنوان:

ISAACS, American jews in Israel, 1961, P. 104.

اهمية هذا المؤلف الاخير بدورها تعود الى انه تابع اليهودي في صراعه اولا مع انتمائه الامريكي ثم في صراعه ثانيا مع شعوره بالاصالة اليهودية ثم في كيفية تفاعل كلا الناحيتين في الصيرورة الاسرائيلية.

ولو تركنا جانبا هذه الدراسات الميدانية ولو حاولنا ان نقف الى جوار تلك الدراسات التي تناولت هذه الناحية من مسلك الانطباع الشخصي او المتابعة التاريخية لوجدنا عددا لاحصر له ولنذكر على سبيل المثال مؤلف وزنبرج الذي صدر في طبعته الاولى عام ١٩٦٤ ثم تكررت طبعاته بعنوان «البحث عن الهوية اليهودية» المؤلف الأخر للحاخام كرتزر بعنوان «من هو اليهودي» حيث يحلل لنا خصائصه وعاداته من خلال منطلق الطابع القومي والذي صدرت طبعته الاولى عام ١٩٥٣ وحيث يجد القارىء في نهايته قائمة بما يزيد عن ثلاثين مؤلفا تناولت هذا الموضوع باسلوب مباشر ثم اخيرا مؤلف ايلون بعنوان «الاسرائيليون»: صورة شعب، الذي صدر بدوره عام ١٩٧١ الذي يعرض لنا من خلال التصور الشخصي التطورات الدفينة التي خضع لها الطابع القومي اليهودي في المجتمع الجديد. فكيف نتصور مؤلفا عن الشخصية اليهودية لم يقدر لصاحبه الاطلاع على اي من هذه المؤلفات؟ الاجابة ليست في حاجة الى تفصيل.

انظر:

ROSENBERG, The search for jewish identity, 1965; KERTZER, what is a jew? 1970, ELON, The Israelis, founders and sons 1971.

اليهود هم احفاد قوم مصابون بالجزام[٢١].

فلو انتقلنا الى الفترة اللاحقة لعام ١٩٤٥ لهالنا الفارق الواضح الذي سوف يظل يتأكد في صورة دائمة ومستقرة حتى تأتي احداث عام ١٩٦٧ فاذا بالمقارنة عنيفة تفرض الدهشة وتدعو للتساؤ ل. في احد الابحاث التي اجريت في عام ١٩٦٢ فان حوالي ٥٠٪ من المجتمع الامريكي اعلن انه لا يعني على اليهودي النقائص وانما هو يعلن عن اعجابه بالمزايا والصفات، وهي صفات تتدرج بالشكل التالي: نجاح في العمل التجاري، وفاء ديني، وفاء للاسرة، كفاءة فكرية، ارادة قوية، رقة وسخاء وحب للمساعدة، طاعة للقانون، تماسك في الشخصية. وتبدو هذه النتائج واضحة من توزيع اولئك الذين يمكن ان يوصفوا بانهم يعبرون عن تصور يتضمن اطراء لليهودي من عكسه واستنادا الى تحليل هذا الرأي العام الامريكي عام ١٩٦٢ بالشكل التالي:

يعتقد ان اليهودي يتصف:	نسبة
خصائص فقط موضع المناقشة ومرفوضة	٧
خصائص بعضها مرفوض وبعضها موضع الاعجاب	١٨
لايملك خصائص مرفوضة ولا خصائص موضع الاعجاب	٤٣
خصائص جميعها موضع الاعجاب	٣٢

وهكذا تبدو واضحة خطورة النتائج[٢٢]. فهناك ٥٠٪ من المجتمع الكلي يعلن ان اليهودي يملك خصائص جديرة بالاعجاب. الى جوار ذلك فان شريحة ضخمة تصل الى ٤٣٪ ترفض ان تعلن رأيها اما اولئك الذين يصفون اليهودي بانه موضع النقائص فلم يتجاوز ٧٪. ومعنى ذلك ان الشريحة التي كانت قبل عام ١٩٤٥ تمثل الرفض للمجتمع اليهوديوترتفع الى ٥٠٪ من المجتمع الكلي تقلصت عقب ٢٠ عاما الى مالايتجاوز ٧٪.

يدعم النتائج السابقة مقارنة اخرى نستطيع ان نجريها بين موقف الرأي العام الامريكي عام ١٩٤٥ وموقفه عام ١٩٦٥ من قضية الوجود اليهودي في الشرق الاوسط. ورغم ان عام ١٩٤٥ يمثل اقصى مراحل قوة الدعاية الصهيونية في المجتمع الامريكي حيث استطاع سيلفر ان يخلق موجات ضخمة من التعاطف والايمان بالقضية الانسانية المرتبطة بخلق انشاء وطن قومي لليهودي ورغم ان السؤ ال الذي دارت حوله التساؤ لات بخصوص القضية اليهودية يتناول فقط تقبل انشاء وطن قومي يهودي في فلسطين من عدمه فان الرأي العام الامريكي عبر عن رفض هذه الفكرة بنسبة ٤٠٪ الى جوار ١٠٪ اخرى من المجتمع الكلي رفضت الادلاء برأيها. وسقطت هذه النسبة الى ٧٠٪ بالتأييد، ٣٠٪ بالرفض او عدم اتخاذ الموقف الصريح من جانب الاتجاهات الدينية الاصلاحية. فاذا انتقلنا الى عام ١٩٦٩ لوجدنا ان الاحصاءات المتعلقة بتأييد القضية العربية لم ترتفع عن صفر في كثير من الاحيان[٢٣]. دلالة اخرى اكثر وضوحا نستطيع ان نستخلصها من مقارنة الرأي العام في المانيا الغربية قبل عام ١٩٤٨ وعقب عام ١٩٦٩. فلم يكن يؤ يد الوجود الاسرائيلي اكثر من ٦٪ مقابل ٢٥٪ يعلن تعاطفه مع القضية العربية قبل عام ١٩٤٨. عقب عام ١٩٦٩ هذا التعاطف لايرتفع عن مرتبة الصفر ويصل بالنسبة الى اسرائيل الى حوالي ٨٠٪.

---

(٢١) قارن سشمبر، م. س. ذ.، ص ٥٤ ومابعدها.

(٢٢) نفس المرجع السابق ذكره، ص ٦٥ ومابعدها. الاحصاءات اوردها ص ٦٦ جدول رقم ١٤.

(٢٣) الاحصاءات اوردتها بالتفصيل مجلة «رباعيات الرأي العام»، ١٩٧٠، ص ٢٢٣ ومابعدها.

٧٧ ـ مواطن الضعف في الدعاية الاسرائيلية: خلاصة:

رغم ذلك فان الدعاية الاسرائيلية بحكم كونها تستند الى المنطق الدعائي فانها حركة مصطنعة، واي حركة مصطنعة لايمكن الا ان تتضمن بعض الاخطاء وتصبر وظيفة مخطط الدعاية المضادة او العكسية اكتشاف تلك الاخطاء ومحاولة النفاذ من خلالها لهدم الدعاية موضع الهجوم[٢٤]. فهل هناك اخطاء في الدعاية الاسرائيلية وعلى وجه الخصوص تلك الدعاية التي تمتد منذ انشائها حتى عام ١٩٧٣ وما هي تلك الاخطاء؟

نستطيع ان نحدد مواطن الضعف التي لو استغلت بذكاء لامكن على الاقل تقييد النجاح الاسرائيلي ازاء الرأي العام الاجنبي في النواحي الثمانية التالية:

اولا: استخدام الكذب في لغة الدعاية الاسرائيلية[٢٥].

ثانيا: التناقض الداخلي في المنطق الدعائي الاسرائيلي[٢٦].

ثالثا: استمرار عملية الضغط النفسي من خلال عقدة الذنب.

رابعا: الفصل المطلق بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي.

خامسا: المبالغة في الدفاع عن الطابع القومي اليهودي والوصول في ذلك الى عملية التألية[٢٧].

سادسا: الارتباط الزائد بين الدعاية الاسرائيلية والمؤسسة العسكرية[٢٨].

سابعا: جعل المنطلق الفكري يقوم على اساس رفض ما للحضارات الاخرى من فضل على الانسانية.

ثامنا: تعدد ابعاد التعامل النفسي الاسرائيلي من حيث الجمهور المتجه اليه مع جعل الخلاف في المنطق واللغة محور التمييز بين مستويات ذلك التعامل النفسي.

ليست هذه العجالة مما تسمح بالتفصيل في جميع هذه النواحي ولكننا نستطيع ان نبرز بعض الابعاد التي تعكسها تلك النقائض لتأكيد مدى امكانيات الرد على الدعاية الاسرائيلية باسلوب ينبع من اخطاء نفس العمل الدعائي الصهيوني[٢٩].

٧٨ ـ استخدام الكذب ومنطلقات الدعاية الصهيونية:

فأول مانلاحظه هو استخدام اسلوب الكذب كمنطلق اساسي من منطلقات الدعاية الصهيونية. والواقع ان فكرة استخدام الكذب كما يعلم كل خبير دعائي هو اسوأ انواع الفن الدعائي. ان اكتشاف الكذب وابرازه واضحا للجمهور المستقبل يكفي لتحطيم الثقة في مصدر اللغة الدعائية. الكذب يقصد به تشويه الحقيقة سواء باختلاق الواقعة او باضفاء صفة عليها لاتملكها. واسرائيل لجأت الى الكذب بهذا المعنى واستخدمته على نطاق واسع ابتداءً من وجودها ودون ان تتردد في تشويه الحقيقة بجميع الوسائل. فالشمار

---

(٢٤) قارن في دلالة مماثلة:

FRASER, Propaganda, 1962, P. 91.

(٢٥) حامد ربيع، فلسفة الدعاية، م. س. ذ.، ص ٥٢.

(٢٦) قارن نموذج واضح للتناقض بخصوص الموقف المصري في ديبرون، م. س. ذ.، ص ١٥٨ ومابعدها.

(٢٧) قارن روزنبرج، م. س. ذ.، ص ٢٨٥.

(٢٨) هيثم الكيلاني، المذهب العسكري الاسرائيلي، ١٩٦٩، ص ٢١٥ ومابعدها.

(٢٩) قد نعود لتفصيل نواحي المنطق الاسرائيلي في مؤلف مقبل بعنوان: الدعاية الاسرائيلية وعملية المواجهة العربية. انظر حامد ربيع، دراسات اساسية، م. س. ذ.، ص ٣٣ ومابعدها.

الذي انطلقت منه الدعوة الصهيونية ماهو الا اكذوبة ضخمة: شعب بلا وطن، ووطن بلا شعب. وعقب بدء الصراع المسلح في أوائل نشأة الدولة الاسرائيلية انطلقت اكذوبة اخرى اساسها ان اللاجئين الفلسطينيين كان باستطاعتهم ان يظلوا بارضهم وانهم تركوا ارض آبائهم بناء على دعوة الحكام العرب[30]. اكذوبة ثالثة لاتقل خطورة تدور حول حرب الايام الستة عندما خرجت الصحافة العالمية ابتداءً من انباء تل ابيب تعلن ان الجيش المصري هو الذي هاجم الارض الاسرائيلية وان الدولة الصغيرة بين الحياة والموت.

٧٩ ـ التناقض في عناصر المنطق الدعائي الاسرائيلي:

كذلك التناقض الداخلي في المنطق الدعائي الاسرائيلي لايقل خطورة عن عنصر الكذب. ورغم ان ابراز هذا التناقض يفترض خلفية فكرية معينة وابراز معين لوقائع التاريخ الا اننا نستطيع ان نسوق على سبيل المثال النماذج الاتية:

أ) فاسرائيل تتحدث عن وحدة المصير في مواجهة المجتمع العربي باعتبارها ترتبط بالوجود الغربي وامتداد له، ولكنها في نفس الوقت تتحدث عن انها دولة اسيوية تنتمي الى منطقة الشرق الاوسط عضويا وحضاريا.

ب) وهي تجعل من منطلق المسؤولية التاريخية الحكم على الوضع العربي وابراز مسؤولية المجتمع الالماني ازاء عملية التعذيب وحركات الاستئصال المعروفة ولكنها لاتطبق نفس المنطق بخصوص المجتمع اليهودي ازاء علاقته بالمجتمعات الاخرى حيث ظل منطويا على نفسه رافضا الاندماج الامر الذي قاد الى الحركات المختلفة ضد السامية[31].

ج) وهي تحدث الشيوعية بأنها معقل القيم اليسارية ولاتتردد في ان تذكر المؤمن بالنازية بان نظامها الاجتماعي وبصفة خاصة في مجتمعات الكيبوتز ليس الا صورة حديثة لمجتمعات الصفوة المختارة كما عرفتها اسبرطة في الحضارات القديمة.

د) وهي تتحدث عن لغة الدولة العصرية ومع ذلك تؤكد ان عقيدتها امتداد لمفهوم الديانة اليهودية.

٨٠ ـ عقدة الذنب وخطورة المبالغة في اثارة عملية التبكيت باخطاء الماضي:

عقدة الذنب كانت تمثل بالنسبة للدعاية الاسرائيلية المنطلق الاول في لغتها الدعائية. هي تثير مسؤولية المجتمع الاوروبي ازاء التعصب العنصري وبصفة خاصة المجتمع الالماني ازاء السياسة النازية وماتحمله الشعب اليهودي من كوارث وخسائر مادية ومعنوية[32]. برزت هذه العملية واضحة خلال فترة التقارب في السياسة الخارجية بين اسرائيل والمانيا الغربية ثم اكثر تأكيدا اثناء قضية ايخمان[33]. عقدة الذنب تعني

---

(٣٠) الى جوار المصادر التي سبق واوردناها بهذا الخصوص، انظر ايضا ديميرون، م. س. ذ.، ص ١٦٣ ومابعدها.

(٣١) راجع تحليل المنطق الدعائي ومصادره في حامد ربيع، فلسفة الدعاية الاسرائيلية، م. س. ذ.، ص ١٨٢ ومابعدها.

(٣٢) سبق وان ابرزنا كيف انه من الممكن استغلال عقدة الذنب في مواجهة المجتمع الاوربي ولصالح المجتمع العربي. انظر ايضا ديميرون، م. س. ذ.، ص ١٧٤.

(٣٣) ماذافعلت الدعاية العربية خلال قضية ايخمان؟ وقد كانت تستطيع من منطلق الوثائق المرتبطة بها ان تثير على اسرائيل جميع طبقات الرأي العام في اكثر من موضع واحد. قارن ديميرون م. س. ذ.، ص ٣٦ ومابعدها.
وقارن مقال:

TREVOR - ROPER, How innocent was Eichmann? in The Sunday Times (3.10.1963).

التبكيت باخطاء الماضي. وهي لو تمت بذكاء فانها تخلق شحنة لاشعورية من الانفعال اساسها الشعور بالخطأ ومن ثم الشعور بضرورة اصلاح الخطأ ولو من خلال التنازلات التي لو لم توجد تلك الحالة الانفعالية لما اقدمت عليها الذات البشرية. على ان عملية التبكيت بمعنى خلق الشعور بالذنب ككل عملية نفسية تفترض متغيرين: من جانب الربط المباشر بين الذات مصدر المسؤولية والواقعة المنسوبة الى تلك الذات. ومن جانب اخر عدم تكرار عملية الاثارة لان ذلك التكرار لايمكن ان يؤدي الا الى خلق نوع من التحصين ضد العقدة موضع المناقشة. الدعاية الاسرائيلية استطاعت بخبث وذكاء ان تحقق الشرط الاول. ولكنها وقعت في الخطأ الثاني عندما بالغت في استخدام عقدة الذنب حتى ان عام ١٩٦٧ شهد الشعب الالماني يتقدم بهبة الى اسرائيل تتكون من ٢٠ الف قناع ضد الغاز استنادا، كما جاء في الصحافة الالمانية، الى عوامل انسانية.

على ان اسرائيل رغم ذلك تنبهت الى هذه الحقيقة عقب عام ١٩٦٧ فغيرت من تخطيطها وانتقلت الى استخدام عقدة المسؤولية الامر الذي سمح لها بان تخفف من عملية الضغط النفسي ولو الى حين[٣٤].

٨١ ـ الفصل بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي في تقاليد ادارة العمل الدعائي الاسرائيلي:

الفصل المطلق بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي يمثل بدوره احد المنطلقات الثابتة حتى وقت قريب للتنظيم الدعائي في التقاليد الاسرائيلية . والواقع ان هذا التمييز ينبع من الخلاف في طبيعة ووظيفة كل من هاتين الناحيتين من نواحي متعلقة بوظيفة الدولة الاتصالية في المجتمع المعاصر[٣٥]. وقد سبق ان ابرزنا كيف ان اتباع اسلوب عكسي لذلك هو احد مظاهر النقص الواضحة في الاعلام العربي. ولو عدنا الى تاريخ العمل الدعائي الاسرائيلي للاحظنا انه منذ انشاء الدولة العبرية فقد ظل العمل الدعائي الخارجي من اختصاص وزارة الخارجية. وقد اثيرت نقائص هذا الوضع في اعقاب حرب الايام الستة عندما حاول اسرائيل جاليلي وزير الدولة والذي تتبعه جهات الاختصاص بالنسبة للاعلام الداخلي ان يتولى الاشراف على جميع انواع النشاط الاتصالي. ولكن ابا ايبان يسانده في ذلك موشي ديان الذي تقع في دائرة اختصاصه المناطق المحتلة استطاع ان يفرض استمرار الوضع السابق على عام ١٩٦٧ على ماهو عليه.

الاسباب التي ادت الى اثارة الموضوع تعود الى عوامل ثلاثة جميعها تبرز نواحي الاخفاق في الدعاية الاسرائيلية:

اولا: عملية ربط المهاجرين بالدولة الام هو احد منطلقات التغيير في التخطيط الدعائي الاسرائيلي كما سبق ورأينا بالنسبة لعملية التمييز بين الدعاية والدعوة. وكل من يتابع الصحافة الاسرائيلية خلال الاعوام العشرة الاخيرة يلحظ بوضوح مدى التركيز على هذه الناحية وعلى اخفاق العمل الدعائي الاسرائيلي بخصوص

---

(٣٤) حامد ربيع، نظرية الدعاية الخارجية، م. س. ذ.، ص ١٣٧ ومابعدها.

وهذه الصفحات تعد في طبعتها الاولى، خرجت علينا الصحافة بتعديل جديد اساسه جمع الاجهزة الاعلامية في وزارة واحدة تحت اشراف شمعون بيريس القائد الصهيوني المعروف. فما معنى ذلك. وما هي دلالته؟ انظر فقرة ٨٦ من هذا المؤلف.

(٣٥) انظر التفاصيل في

FRIEDRICH, BRZEZINSKI, Totalitarian dictatorship and autocracy, 1956, P. 107; SERVAN - SCHREIBER, Le pouvoir d'informer, 1972, P. 347.

المواطن اليهودي من حيث اقباله على الهجرة الى اسرائيل وبصفة خاصة في فرنسا وفي بريطانيا والولايات المتحدة[٣٦].

ثانيا: كذلك لوحظ هذا الاخفاق فيما يتعلق بالشباب الاسرائيلي وبصفة خاصة المقيم في الخارج طلبا للعلم. فهو يمتاز بالرفض ويساير حركات الشباب في المجتمعات الاوروبية مخالفا بذلك طبيعة حركات الشباب في المجتمع الاسرائيلي. فالشاب الاسرائيلي المقيم باسرائيل يمتاز بالتعصب القومي والرفض المطلق للتعاون مع البلاد العربية بل وتأكيد الالتجاء الى العنف الجماعي في مواجهة الشعوب المحيطة باسرائيل على عكس الشباب الاسرائيلي المقيم بالخارج.

ثالثا: كذلك انتصار اسرائيل في حرب ١٩٦٧ واتساع رقعة الارض التي تخضع للسيطرة الاسرائيلية بما يعنيه ذلك من ضم مناطق جديدة تسكنها اغلبية عربية كان لابد وان يثير تساؤلات اخرى: هل تتجه الدعاية الاسرائيلية الى تلك المنطقة على اساس تحطيم الذات القومية وأن تستخدم في تخاطبها لغة الحرب النفسية وان غلفتها باسلوب الدعاية ام انها على العكس من ذلك تتجه الى خلق نوع من التعاطف حيث تستطيع ان تنطلق من خلال التعامل النفسي الذي اساسه تغليف الدعاية بالدعوة في سبيل خلق رأي عام صهيوني عربي يؤيد باسلوب او بآخر الوجود العبري في المنطقة ويساند هذا الوجود؟

رغم اهمية هذه الابعاد المختلفة فان النظام الاتصالي يقوم على اساس الفصل بين اجهزة ثلاث: وزارة الخارجية وتتجه الى الرأي العام الخارجي، ووزارة الدفاع وتخاطب المناطق المحتلة ثم ادارة الاعلام التابعة لرئاسة مجلس الوزراء وتختص بالاعلام الداخلي[٣٧]. هذا التعدد لابد وان يؤدي الى تناقض. والسؤال الذي يفرض نفسه علينا ولانستطيع الاجابة عليه: هل هناك تنسيق داخلي بين اجهزة الاعلام المسؤولة؟ يزيد من حدة هذا التناقض وجود منظمات خاصة ومؤسسات حكومية تقوم بدورها بعمل دعائي خارجي. فالهستدروت يملك ادارة العلاقات الخارجية، فضلا عن وجود بعض الهيئات الخاصة التي تتولى بدورها توجيه حرب نفسية مغلفة في صورة دعاية الى البلاد العربية. نموذج لذلك تلك الجماعة المسماة باسم «جمعية السلام» والتي تجعل مقرها تل ابيب وتقوم بتوجيه اعلام مكتوب في شكل كتيبات تتجه الى الرأي العام العربي الداخلي في محاولة تحطيم عنصر الثقة بين الطبقة الحاكمة والطبقات المحكومة وفي بعض الاحيان تحطيم علاقة التعاطف بين الدول العربية بعضها والبعض الآخر. بدأت هذه الجمعية بكتيبات محايدة ولكنها خلال الاعوام القليلة الماضية انتقلت الى مرحلة الهجوم من خلال احدى نشراتها بعنوان «ان تختار ام لاتختار» تدور حول تحطيم النموذج العربي للنظام الحاكم[٣٨]. رغم امكانية تحديد طبيعة العلاقة ومدى التنسيق بين مختلف الاجهزة الدعائية والاعلامية الا ان هذا التعدد يخلق منطلقا خصبا يسمح بابراز التناقض واستغلال الخلاف الطبيعي بين التخطيط الدعائي لكل من هذه الاجهزة والذي لابد وان يتحدد بخصائص متميزة تبعا لجمهور المستقبل من جانب اي دعاية مضادة.

ومن الطبيعي أنه عقب فتح الحدود بين مصر واسرائيل لابد وأن تزداد حدة هذا التناقض. فلغة التعامل الدعائي مع الدولة الأم التي اعلنت صداقتها وتطبيع علاقاتها لايمكن أن تصلح للتعامل مع باقي اجزاء الوطن العربي. هنا تدق التفرقة بين الدعاية والحرب النفسية بحيث تفرض ديالكتيكية معينة تسمح بالاختراق وتنظيم حرب نفسية عكسية لو حسنت النوايا ووحدت القدرات الحقيقية. وهنا ايضا تبرز أهمية وخطورة عملية التسميم السياسي. ولكن هل لدينا من القادة من هو قادر على فهم حقيقة هذه المفاهيم؟

---

(٣٦) قارن السياسة الدولية، ١٩٧٠، ابريل، عدد رقم ٢٠، ص ٨٦ ومابعدها، ١٩٧١ اكتوبر عدد رقم ٢١ ص ١١٦ ومابعدها.

(٣٧) نشرة الوطن المحتل، عدد ٣٩ بتاريخ ١٦ / ١١ / ١٩٧٠.

(٣٨) هذا الكتيب يعكس مدى الدقة والعمق والتكامل في اعداد عملية الهجوم النفسي التي تشنها على مصر الاجهزة الاسرائيلية

ويعرض علينا التساؤل: الى متى نظل نتخذ موقف الدفاع؟ ولماذا لم نستيقظ بعد لنتذكر ان الهجوم خير وسيلة للدفاع؟ ولماذا لم نخضع الوجود الداخلي الاسرائيلي لهجوم مركز مماثل وهو يتضمن الكثير من المواقع القاتلة؟ واكثر من كل ذلك لماذا لم تفكر بعد السلطات المسؤولة لدينا في تحديد جهة الاختصاص بهذا الشأن واعطائها جميع الامكانيات الممكنة والمتوفرة؟

ولو عدنا الى الكتيب المذكور لوجدناه يدور حول المنطلقات الثلاث التالية:

(اولا) مسؤولية مصر عن الوضع الذي وصلت اليه، وهو هنا يعيد بلغة اخرى مبدأ المسؤولية الجماعية الذي سبق ورأيناه بخصوص المجتمع الالماني.

(ثانيا) مصر ليست مستقلة. انها كانت تعتقد بان خروج الانكليز يعني انها قد حصلت على استقلالها، ولكن هذا غير صحيح وليس ادل على ذلك من ان جميع قراراتها لم تنبع من وضعها الداخلي وانما من ظروف خارجية لم تتحكم فيها.

(ثالثا) المسؤولية الحقيقية للحاكم هي ان يعلم كيف يختار بين الاوليات والطبقة الحاكمة المصرية اثبتت انها غير قادرة على عملية اتخاذ القرار.

ومن السهل مناقشة هذه الحجج الثلاث:

(اولا) فالمسؤولية الجماعية لاتنفي تدخل عوامل اخرى جانبية. والواقع ان مبدأ المسؤولية يمكن ان ينقلب خنجرا ضد المنطق الاسرائيلي كما اوضحنا في غير هذا الموضع ليؤكد كيف ان المشكلة اليهودية هي مسؤولية المجتمع اليهودي ذاته الذي رفض منطق الدولة القومية عندما دعته عقب اعلان الحريات لان يندمج في مساراتها ويطرح جانبا من عناصر العلاقة السياسية عنصر الانتماء الديني.

(ثانيا) اما بالنسبة للاستقلال فانه لايجوز لنا ان نخلط الاحتلال بالتحالف. واذا كانت مصر في تلك اللحظة كانت تقف من روسيا موقف التحالف فان هذا لايعني انها فقدت ارادتها وتأكيد ذلك نستطيع ان نجده في الوقائع التي تلت نشر ذلك الكتيب والمتعلقة بانهاء وجود الخبراء الروس.

(ثالثا) وعملية الاختيار لها مستوياتها ولها قيودها. ان القضايا المصرية لاتعرف الاختيار ولاتقبل للطبقة الحاكمة ان تنفرد باتخاذ القرار. الم يكن عكس ذلك المنطق هو الذي تستند اليه اسرائيل في هجومها على مصر خلال فترة حكم جمال عبد الناصر وقبل ١٩٦٧؟.

على ان الامر الجدير باثارة الانتباه هو فن صياغة هذا الكتيب. فهو يجعل منطلقه الى الوعي المستقبل فكرة النموذج. والفكرة الاساسية التي يركز حولها الكتيب هو مفهوم الشخصية الانفعالية. والنتيجة التي يريد ان يصل اليها تدور حول واجب الحاكم المصري في ان يقبل تغيير خط سيره السياسي بخصوص التواجد الاسرائيلي. ولذلك يبدأ بتحليل لمفهوم الشرف: هل هو مجرد شعار ام انه قيمة انسانية؟ وليجعل القارىء يسير نحو المفهوم الثاني بمنطق ارادي يحدد الاول بانه تصور نازي يفرض القتال ولو ادى الى الاحتضار. ولايقف عند هذا الحد بل يساند منطقه بنماذج سلوكية. ويقدم بهذا الخصوص ثلاثة مواقف:

(اولا) الامبراطور هيروهيتو عام ١٩٤٥ عندما وضع حدا للحرب مع الولايات المتحدة رغم امكانياته الرهيبة في مواصلة القتال.

(ثانيا) الجنرال ديجول عندما قرر في عام ١٩٦٢ ان يضع حدا للحرب في الجزائر الامر الذي قاد فرنسا الى اليسر والرخاء الاقتصادي والهيبة الدولية.

(ثالثا) نيكسون عندما قرر ان يضع حدا لصراع دام جيلا كاملا مع الصين ولم يتردد في سبيل ذلك ان يزور بنفسه بكين ليقلب حقيقة التوازن الدولي.

كذلك بالنسبة لهذه النماذج فمن الممكن مناقشتها دعائيا. فالاول يتضمن غرورا واضحا لانه يجعل اسرائيل تماثل الولايات المتحدة ويضع توازن القوى بين الولايات المتحدة واليابان مماثلا لتوازن القوى بين اسرائيل ومصر. والنموذج الثاني يقلب الاوضاع لان الرجل الذي اعلن وبحسن نية عن رغبته في وضع حد لحالة التعدي هو ديجول واسرائيل هي الدولة المعتدية ومن ثم عليها ان تثبت حسن نيتها بل لو تابعنا هذا المنطق لكان معناه ان على اسرائيل ان تنسحب كلية من الشرق الاوسط كما انسحب ديجول من شمال افريقيا. النموذج الثالث بعيد بدوره لانه ليس في الميزان اقتطاع جزء من اقليم الصين ومنحه لطرف ثالث مستعمر بدعوى الحق الالهي.

الذي نريد ان نؤكد عليه ان براعة الدعاية الاسرائيلية مردها الحقيقي ضعف الدعاية العربية. فمتى تستيقظ هذه؟

انظر ايضا:

ISRAEL MINSTRY FOREIGN AFFAIRS. (Information devision) accessories governments for the organization of terrorist activities, 1972, P. 34.

٨٢ ـ تاليه الطابع القومي اليهودي ونتائجه الحركية:

على ان الخطأ الخطير الذي وقعت فيه الدعاية الاسرائيلية هو ذلك المتعلق بتأليه الطابع القومي اليهودي. فلغة العنصرية ولو كانت مخففة لم يعد يقبلها المجتمع المعاصر. والمجتمع الاوروبي بصفة خاصة يقف من عملية التأليه لا فقط موقف الحذر بل موقف الرفض: لقد تعود ان ينظر الى نفسه على انه ممثل القيادة الحضارية. فكيف يسمح لغيره وبصفة خاصة من ذلك المجتمع الذي قوبل منه بالرفض والذي لايزال يقابل بالرفض على مستوى الفرد وان قوبل بالتأييد على مستوى الجماعة السياسية بان يذكره بانه هو صاحب الحق في التميز والتأليه؟ ان ذلك لايعني فقط انه يخالف منطق المجتمع المعاصر بل وهو يعني ايضا انه يصير وريثا للمجتمع الاوروبي في وظيفته الحضارية وان يعلن ذلك في نفس اللحظة التي يحاول فيها المجتمع الاوروبي جاهدا ان يستعيد ثقته بنفسه[٣٩]. وهنا يصل المنطق الدعائي الى حد المبالغة الامر الذي يخلق نوعا من الاستفزاز لدى المواطن الاوروبي: لقد بلغ الامر بأحد الكتاب الى ان يتحدث عن ان الاله انما وعد اهل اسرائيل بتلك الارض المقدسة لاعجابه بالمجتمع اليهودي ولم يتردد ذلك الكاتب في ان يصدر مؤلفا بعنوان (الرب اليهودي). وتبرز هذه الحقيقة واضحة في اعقاب حرب عام ١٩٦٧ لتصل الى اقصاها عندما تعبر عن نفسها بسلوك سياسي دولي برزت صوره من خلال حديث جولدا مائير عقب تدمير الطائرة الليبية فوق سيناء.

والواقع ان عملية تفنيد منطق التأليه للطابع القومي اليهودي لاتقتصر في ابعادها الدعائية على مجرد ابراز ناحية العنصرية والعنجهية الاسرائيلية بل انها تمثل منطلقا خطيرا وهاما لخلق نوع من الجسور بين اي منطق اتصالي في عملية دعاية مضادة للغزو الاعلامي الاسرائيلي والمستقبل الآخر سواء الاجنبي ام العربي: رأينا انه من الممكن من خلال اثارة النواحي الاستفزازية ان نقيم عوائق ضد استقبال المنطق الاسرائيلي من جانب الرأي العام الغربي[٤٠]. ولكننا نستطيع كذلك ان نستغل نفس هذا الخطأ من خلال التأكيد على مفهوم التميز الذي يفترضه ذلك المنطق والذي لايمكن ان يؤدي من حيث نتائجه الحركية الا الى نوع من التعبير الطبقي عن الوجود السياسي ومن ثم استحالة اي صورة من صور التعاون بين المجتمع الاسرائيلي والمجتمعات العربية وبصفة خاصة تلك الاقليات التي قدر لها ان تتواجد في داخل نطاق النفوذ المادي للدولة العبرية عقب عام ١٩٦٧.

٨٣ ـ علاقة الارتباط العضوي بين الدعاية الاسرائيلية والمؤسسة العسكرية وامكانيات تشويه صورة الدولة العبرية:

كذلك فان الارتباط بين الدعاية السياسية والمؤسسة العسكرية من الممكن ان يخلق مسلكا من مسالك التشويه لصورة الدولة العبرية. فهذه الدولة تقوم على اساس تقديم نموذج للمثالية السياسية من خلال التقاليد اليهودية وتعلن انها لاتسعى الا الى تأكيد القيم الاشتراكية العزيزة على الحركات اليسارية كما عرفها العالم خلال القرن التاسع عشر. انتهت رغم ذلك بأن تجعل من لغة القوة واسلوب ومنطق العنف الجماعي

---

(٣٩) HERMONE, La gauche, Israel et les juifs, 1970, P. 174.

(٤٠) انظر جريدة للموند بتاريخ ١١ / ١١ / ١٩٦٩، والجمهورية القاهرية بتاريخ ١١ / ١٢ / ١٩٦٩.

والابادة الكاملة منطقها الحركي في حياتها اليومية. حادث الطائرة الليبية كان من الممكن ان يستغل استغلالا رائعا من حيث عملية الربط المستمرة والوطيدة بين السياسة الخارجية الاسرائيلية والمؤسسة العسكرية. والواقع ان الكتابات الصادرة من بعض المؤمنين بالصهيونية تصلح لتأكيد هذه الناحية(٤١). لو عدنا الى جميع القيم التي انطلقت منها الدعوة الصهيونية لوجدنا انها بفضل هذا الربط الوثيق بين المؤسسة العسكرية والحركة السياسية قد اختلت ان لم تكن قد انهارت كليا.

ولنذكر بعض النماذج:

الهستدروت الذي قام على اساس انه امتداد للحركة العمالية وتكتيل للطبقة العاملة اضحى اليوم اكبر تجمع للقوى الرأسمالية في منطقة الشرق الاوسط. ويكفي ان نتذكر بهذا الخصوص بعض الحقائق: فرقم اعمال الهستدروت المعلن عنها عام ١٩٦٩ وصل الى اكثر من ستمائة مليون دولار.

والكيبوتزات والتي بدأت وهي تقدم تصور بروخوف على انها وحدة مجتمع الغد الاشتراكي اذا بها اليوم اضحت تعبيرا واضحا عن رأسمالية الدولة واذا بها احد المنطلقات الحقيقية في عملية اقتطاع الاراضي من العرب والاستعمار اليهودي باسم دواعي الامن القومي. عدد القرى التي استطاعت الكيبوتزات ان تحتلها عقب ان طردت منها العرب فقط في منطقة الجليل وطبقا للتحليل الذي يقدمه لنا العالم «الستون» بلغ فقط خلال عام ١٩٤٨ عشرون قرية(٤٢).

والاحزاب اليسارية التي ظلت تدعو وتزعم بانها تمثل القيم العزيزة على الشيوعية الدولية لم تتردد في ان تقف من بن جوريون في عام ١٩٥٦ موقف المعارضة عندما قرر الانسحاب من سيناء.

وجميع الشعارات السياسية بما في ذلك القوى التقدمية تقوم على اساس نظرية المراحل: الصهيونية اولا ثم الاشتراكية ثانيا. تجميع اليهود بعبارة اخرى ثم تحقيق المثالية الصهيونية يجب ان يسبق بناء المجتمع الاشتراكي. وبهذا المنطق استطاعت اسرائيل ان تؤجل باسلوب يغلفه الخداع ويخلق نوعا من السراب الحركي عملية الالتقاء مع اليسار العالمي. فتجميع اليهود مبرر للتعاون مع الطبقة البرجوازية وتحقيق المثالية الصهيونية اساس للتعاون مع الامبريالية العالمية. اما القيم المثالية فموضوعها لن يكون الا عقب ذلك. هذه المفاهيم وهذا التصور ليس الا تعبير عن علاقة وطيدة بين المنطق الدعائي الاسرائيلي والمؤسسة العسكرية او المنطق العسكري(٤٣). مجتمع اليوم لم يعد يقبل المنطق العسكري واضحى يرفض كل ما يستند الى القوة وكل ما يتضمن فكرة العنف ورفض الصراع الفكري والتعايش السلمي. المجتمع المعاصر مجتمع برجوازي يعيش في منطق الاستهلاك اليومي ويؤمن دون ان يعلن عن ذلك برفض المغامرة والاستسلام الى التقاليد الثابتة المعتدلة. كل هذا يرفض المنطق العسكري. جميع خبراء الدعاية الفرنسية نصحوا ديجول عقب عودته الى الحكم ان يتجنب ارتداء الزي العسكري وهو فعلا ورغم ان ذلك يخالف عاداته السابقة لم يظهر امام الرأي العام مرتديا الزي الا في مناسبات محدودة تعد على اصابع اليد، كانت اغلبها ترتبط بذكرى فترة المقاومة. رغم ذلك عندما ذهب يشترك في تشييع جنازة الرئيس كيدي وهو يرتدي ذلك الزي العسكري

---

(٤١) نذكر على سبيل المثال المقال الذي صدر من جانب العالم اليهودي روبنشتين والذي نشرته جريدة هآرتس بتاريخ ١٩٧٣/٢/١٩

(٤٢) انظر التفصيل في حامد ربيع، من يحكم في تل ابيب؟ م. س. ذ. ص ٣١٦ وما بعدها. وقارن ايضا:
WEINSTOCK, Le sionisme contre Israel, 1969, P. 346.

(٤٣) لو تابعنا تطور السياسة الخارجية الاسرائيلية لوجدنا انها تعكس هذه المنطلقات بامانة تامة. فهي تقوم على اساس سياسة العقوبة حتى عام ١٩٥١. politique de represailles ثم تصير ابتداء من عام ١٩٥٦ وقد اضحت تعلن عن نفسها بانها سياسة الحرب الوقائية ولكنها ابتداء من ١٩٦٧ نستطيع ان نصفها بانها قد تقدمت خطوة اخرى ملامة لتسمي نفسها بانها politique agressive et expnsionniste انظر فاينستوك، م. س. ذ.، ص ١٢٧ ومابعدها

ودون ان يحمل على صدره اي اشارة تشير الى رتبته او موضعه من القوات العسكرية خرجت جميع صحف فرنسا بما في ذلك جريدة ليموند تذكره بان هذا التصرف يخالف التقاليد البرلمانية ويتضمن عدم احترام للرأي العام[٤٤].

٨٤ ـ منطق رفض الحضارات والتطور الداخلي لعناصر التصور الاسرائيلي للعلاقة بين المجتمعات الدينية:

كذلك فان المنطلق الفكري للدعاية الاسرائيلية يتضمن في حقيقته رفض ما للحضارات الاخرى من فضل على الانسانية. الدعاية اليهودية تصل الى هذه النتيجة دون ان تعلن عنها. فهي اولا تؤكد ان النبوغ لم يكن الا يهوديا ومعنى ذلك ان المجتمعات غير اليهودية لم تعرف النبوغ الفردي. وهي تفرض او تشكك في التقاليد الاسلامية العربية ويصل بها الامر الى الحديث عن الاصول اليهودية للحضارة الاسلامية ومعنى ذلك ان الحضارة اليهودية هي التي منها نبعت جميع الابداعات الفكرية العربية[٤٥]. وهي عقب عام ١٩٦٧ تغير في تلك الاستراتيجية لتبتعد عن الحضارة الاسلامية لتحتضن الحضارة الكاثوليكية. وهي بهذا المعنى تؤكد وحدة الحضارتين وكيف انها اي الحضارة اليهودية مصدر الحضارة الكاثوليكية. دلالة كل هذه التأكيدات بغض النظر عن قيمتها الذاتية وصفتها الدعائية تعني رفض تلك الحضارات. او بعبارة اخرى اكثر دقة رفض ما لتلك الحضارات من فضل على الانسانية.

المنطق المعاصر يقوم على اساس وحدة المصير البشري. ان اكتشاف القوى النووية وتقدم ادوات التدمير وارتباط مصالح العالم المتمدين فضلا عن التقارب الحضاري الذي سهل من تحقيقه تقدم ادوات الاتصال ابتداء من اختراع الترانزستور الى الاستخدام المتداول للطائرات النفاثة لنصل الى الاقمار الصناعية، كل هذا ادى الى فرض منطق وحدة الوجود الانساني[٤٦]. هذا المنطق هو الذي مكن الدعاية الاسرائيلية من نجاحها النجاح المنقطع النظير خلال المراحل الاولى لدعوتها السياسية: خلق التعاطف وابرز المجتمع الاسرائيلي في موضع الضعيف الذي هو في حاجة الى الحماية ويمكن القول بان هذا المنطق هو الاساس الحقيقي لخلق حالة التأزم العجيبة المتعددة الابعاد والمظاهر في خلال الايام السابقة واللاحقة مباشرة على اعتداء عام ١٩٦٧ من جانب الرأي العام الاوروبي. كل من عاش تلك الايام يعلم بان غرب اوربا وبصفة خاصة فرنسا وبريطانيا اصابها نوع من الهستيريا الجماعية حتى ان بعض الفرنسيين كان يقذف بما يملكه من النوافذ استجابة لدعوى المعونة والمساعدة للشعب الضعيف. على ان هذا المنطق يتعارض مع المنطق الفكري الاخر الذي اضحى اليوم يسيطر على الدعاية الاسرائيلية: تأليه للطابع القومي، منطق العنف العسكري، رفض فضل الحضارات الاخرى. جميعها حجج منطقية تسمح لو امكن ربطها بعلاقة من التكامل والمساندة الى تأسيس مفهوم رفض الحقيقة الانسانية في التقاليد الدعائية الاسرائيلية المعاصرة[٤٧].

---

(٤٤) قارن في ابعاد اخرى BE' ERI, army officers in arab politics and society, 1969p. 215

(٤٥) انظر ايضا نوري، م. س. ذ. ص ١٢٧، ومابعدها

(٤٦) CHARLOT, La persuasion politique 1970, P. 80.

(٤٧) ولعل هذا اخطر منطلق لدعاية مضادة خارجية اذ انه يمثل النقيض المباشر لاهم مدخلات المنطق الدعائي الاسرائيلي. انظر حامد ربيع، فلسفة الدعاية م. س. ذ.، ص ١٦٦ وما بعدها. ملاحظة نود ان نلفت اليها نظر القارىء. ذلك ان هذا المؤلف الذي سبق ونشر في صورة موجزة بمجلة السياسة الدولية، ١٩٦٨ عدد يناير رقم ١١ ص ٣٨ ومابعدها، قد سمح لنفسه اكثر من مؤلف واحد بنقل اجزاء كاملة منه ودون حياء. انظر على سبيل المثال فتحي الابياري، الرأي العام والمخطط الصهيوني، ١٩٦٩، ص ٦٥ ومابعدها، ص ١٤٩ ومابعدها. وقارن مقالنا السابق الاشارة اليه ص ٤٩ ومابعدها، ص ٥٥ ومابعدها.

٨٥ ـ التمييز بين ابعاد التعامل النفسي وتقاليد الحركة الصهيونية:

الناحية الاخيرة التي تصلح كأحد المنطلقات الخطيرة في عملية المواجهة بقصد هدم المنطق الدعائي الاسرائيلي تثيرها ماسبق وحللناه في غير هذا الموضع باسم عملية التمييز بين ابعاد التعامل النفسي من حيث الجمهور المتجه اليه الخطاب. فأحد تقاليد الحركة الصهيونية وبصفة خاصة خلال الفترة السابقة على عام ١٩٤٨ هو فكرة التمييز بين الدعاية والدعوة. وقد كانت عملية التمييز هذه لاتمثل مخاطر حقيقية خلال تلك الفترة التي قاد فيها سيلفر الدعوة الصهيونية لسببين: اولهما لان الدعوة خلال تلك المرحلة كانت تعاملا نفسيا من داخل المجتمع اي دعاية داخلية، وثانيهما لان العمل الدعائي كان يستند الى فكرة التخطيط المرحلي التي كان اساسها التمييز بين صانع القرار وشرائح الرأي العام. العنصر الاول يسمح باكتشاف رد الفعل السريع ومواجهته. والعنصر الثاني بدوره يسمح بتوحيد المنطق الدعائي خلال مرحلة مخاطبة صانع القرار.

ويتعين علينا ان نضيف ملحوظة اخرى اساسها انه خلال مخاطبة صانع القرار قام سيلفر بعملية تحطيم اي قوة يهودية مناهضة للحركة الصهيونية. برز ذلك من خلال ماسبق واسميناه في موضعه باسم عقدة الكراهية الذاتية التي استطاع ان يصوغها لوين لتمكين سيلفر من استبعاد كل مايمكن ان يوصف بانه يمثل فكرا مناهضا أو معارضا للدعوة الصهيونية[٤٨]. بعبارة اخرى استطاع سيلفر ان يكتل جميع ابعاد المنطق الايجابي في جانبه. التدفق الدعائي من جانب اخر لم يكن يجد اي عائق يقاومه او يرده في عملية الاغراق التي سعى من خلالها للحصول على التأييد والتعصب.

هذا المنطق عاد اليوم ليبرز مرة أخرى وقد اضيفت الى ابعاده فكرة الحرب النفسية، بل ويمكن ان يضاف ايضا مفهوم غسيل المخ، مستويات اربع كل منها يعكس منطقا مختلفا[٤٩]. ولو استطاعت الجهود العربية ان تستغل هذا الاختلاف في المنطق والتباين في الحجج بدعاية عكسية نشطة اساسها اعادة تصدير المنطق الاسرائيلي الى غير الجهة المصدر اليها ببراعة وذكاء لاستطاعت ان تهدم على الاقل الثقة في المنطق الدعائي الاسرائيلي.

الواقع ان التوسع في الحركة لابد وان يزيد من نقط الضعف ولابد وان يسمح بتعدد المواقع التي لاتستطيع ان تصمد امام امكانية الهجوم المركز. وهذا يحدث لا فقط في العمل العسكري بل وكذلك في الغزو النفسي. فاسرائيل اليوم وعقب عام ١٩٦٧ تقف في موقف الضعف لاكثر من متغير واحد: اتساع رقعة الهجوم، فضلا عن تناقض المنطق الذي ظلت تستخدمه حتى عام ١٩٦٧ مع المنطق الذي يجب ان تغلف به حركتها السياسية عقب عام ١٩٦٧. وليس ادل على ذلك من مقال خرج على صفحات مجلة الجيروزاليم بوست[٥٠] في عددها الاسبوعي في اعقاب حرب الايام الستة. يقول كاتب هذا المقال وهو الصحفي كوهن: «ان علينا ان اردنا ان نصل الى الرأي العام الامريكي ان نقطع صلتنا بتقاليدنا الدعائية. ان الفكرة المتداولة من ان الصهيونية تنتمي الى الطبقة الحاكمة وتعني اسلوبا للحياة يسوده الاحترام المحافظ يجب ان تختفي.

---

(٤٨) انظر حامد ربيع، دراسات اساسية، م. س. ذ.، ص ٢٥ وما بعدها.

(٤٩) نقصد بذلك ان عملية الاتصال الاعلامي والحركة الدعائية من جانب المنظمات الصهيونية لم تكن تقابلها اي حركة مقاومة من جانب الاعلام العربي. هذه الحقيقة تمثل المتغير الاصيل في نجاح الحركة الاتصالية الصهيونية خلال تلك الفترة. انظر هالبرين، م. س. ذ، ص ٢٥٣ ومابعدها.

(٥٠) ١٢ / ٦ / ١٩٦٧.

الصهيونية كانت ايضا حركة ثورية. ويجب علينا ان نبرز بوضوح امام الاجيال الشابة ان القوة المؤسسة للدولة ليست هي نهاية المغامرة. يجب ان يرى هؤلاء ان اسرائيل تملك وتعبر عن مصير اكثر ارتفاعا واكثر نبلا وقد جاءت للوجود كنور يضيء ويهدي بين الشعوب».

ولكن هل تملك الدعاية العربية امكانياتها لاستغلال هذه النواحي؟

سؤال آخر في حاجة الى تحليل.

المبحث الثاني

التسميم السياسي

٨٦ ـ حرب اكتوبر وخصائص الموقف في منطقة الشرق الاوسط:

سبق ان رأينا كيف ان الموقف الذي تعيشه القارة العربية في اعقاب حرب اكتوبر يتميز بمتغيرات اساسية لابد وان ننطلق منها في اي محاولة لخلق التصور بالنسبة للمستقبل. ان حرب اكتوبر وما اعقبها من تطورات معروفة تتركز حول المتغيرات الاربع التالية:

اولا: قتال انتهى بنتائج معينة. هذا القتال حرك المنطقة وكان بمثابة القاء حجر ضخم في بركة راكدة. نتائج القتال واضحة: قدرة على المواجهة مع ماتعنيه من الثقة في الذات العربية، ولكنها قدرة مقيدة ومحدودة. مواجهة استطاعت ان ترتفع من حيث الصلابة القتالية الى مستوى لم تعبر عنه لاسياسيا ولا دبلوماسيا. نصر ولكنه جزئي من جانبنا وهزيمة عبرية ولكنها بدورها جزئية بالنسبة لخصومنا عبر خطوط القتال.

ثانيا: تقبل شرعية التواجد الاسرائيلي وهذا اخطر ابعاد النتائج الدعائية والاعلامية التي ترتبت على ذلك الصدام.

وهنا علينا ان نتذكر كيف ان التقاليد العربية التي اساسها الخلط بين الارادة الحكومية والارادة الشعبية وجعل الدبلوماسية الرسمية تفرض منطقها على الافراد والقوى الاجتماعية بحيث ان اي تعبير مخالف لها حتى في النطاق الخارجي لايمكن ان ينظر اليه الا على انه جريمة في حق الدولة لابد وان يزيد من خطورة هذه النتيجة[٥١]. لاول مرة في تاريخ المجتمع اليهودي تبرز تقاليد دولية واضحة اساسها الاعتراف الصريح من جانب الدبلوماسية العربية بشرعية التصور الصهيوني للوجود اليهودي. وكان الواجب على مخطط الاعلام العربي وعلى وجه التحديد جامعة الدول العربية، كيف ان تخفف من الآثار الدعائية، محليا، اي في داخل اسرائيل وبصفة خاصة بالنسبة للاقليات العربية، وقوميا اي بالنسبة لمجتمع المواجهة على وجه الخصوص ودوليا اي بالنسبة للرأي العام الخارجي أي كان يجب أن تجعل محور تخطيطها الاستفهام التالي:

كيف نعمل على محاصرة الآثار النفسية لمثل هذا العمل الدبلوماسي بغض النظر عن ضرورته؟ ان فكرة توزيع الادوار لاتعرفها تقاليدنا السياسية. هل نحن في حاجة لان نذكر المسؤولين بانه في نفس اللحظة التي كان فيها وزير الخارجية السوفيتية وممثليه يسعون الى اقناع السلطات السورية بعملية تنظيم الفصل بين

---

(٥١) بل وخرجت علينا بعض الصحف القاهرية تحدثنا عن جريمة تنسب لكل من يقف ضد الانفتاح او يعرقله باي وسيلة كانت. والتساؤل الذي يجب ان نفرضه على انفسنا: هل نقد هذه السياسة يتضمن جريمة ينطبق عليها نص القانون المذكور؟ فقط في النظم النازية والشيوعية نجد مثيلا لمثل هذا التصور الجزائي. لقد جعل هتلر من مجرد التفكير ضد الفلسفة النازية جريمة يعاقب عليها القانون وبأثر رجعي. كذلك فان النظم الشيوعية تعرف مبدأ عدم امكانية استخدام وسائل الاثبات التي قد تناقض او تنفي الفلسفة الشيوعية. وهي جميعها علامات تعكس سوء التصور القانوني وعدم الفهم الحقيقي لدلالة وظيفة الدولة الجزائية. انظر ايضا حامد ربيع، نظرية القيم السياسية، القاهرة ١٩٧٤، ص ٢٣٠ ومابعدها.

القوات المتحاربة، وقد اعلنت موسكو بصراحة ووضوح عن انها تسير في فلك الارادة الامريكية بخصوص ترتيب منطقة الشرق الاوسط اذ خرجت جريدة البرافدا السوفيتية تهاجم السياسة الامريكية في هذه المنطقة وتؤكد على مساوئها ومخاطرها وتنتقد اسلوب قيادتها من جانب كيسنجر؟ ان فكرة توزيع الادوار او ما اسميناه من قبل نظام الجوقة هو احد خصائص تنفيذ السياسة الخارجية وهو امر اضحى معروفا ومتقبلا لانه هو وحده الذي يسمح بالتوازن في تحقيق مفهوم التحرك الدولي.

ثالثا: التخاطب المباشر مع السياسة الامريكية. واقعة بدورها جديدة تميز الواقع الحالي وتفرض علينا اكثر من استفهام واحد: اين مواقع الالتقاء في التحرك النفسي من جانب السياسة الامريكية مع السياسة الاسرائيلية؟ هل هناك محاور معينة تسمح بالتقارب وكيف سوف تستغل هذه المحاور كلا القوتين وعلى وجه الخصوص السياسة العبرية في تحقيق اهدافها؟ ان الامر الذي لاشك فيه ان اسرائيل قد اصابتها في اكتوبر الماضي صدمة حقيقية. والامر الذي لاشك فيه ايضا انها استطاعت ان تستوعب تلك الصدمة وان تنتقل الى تحرك سريع لابد وان يسير في اهداف ثابتة نحو تحقيق مخططاتها التقليدية. معركة اكتوبر الثانية وقصة التسلل المعروفة ليست الا واقعة ونقطة بداية. فأين التصور العربي من تلك المواجهة؟

رابعا: ثم تأتي واقعة اخرى لابد بدورها ان تفرض التساؤل وتفرض الكثير من ابعاد الاستفهام. لقد عرفت اسرائيل كما سبق ورأينا تنظيما اعلاميا اساسه الفصل بين الاتصال الداخلي والاتصال الخارجي. وهكذا ارتفعت اسماء ضخمة ارتبطت بوزارة الخارجية ووقفنا ازاء البعض منها موقف التحليل والتساؤل.

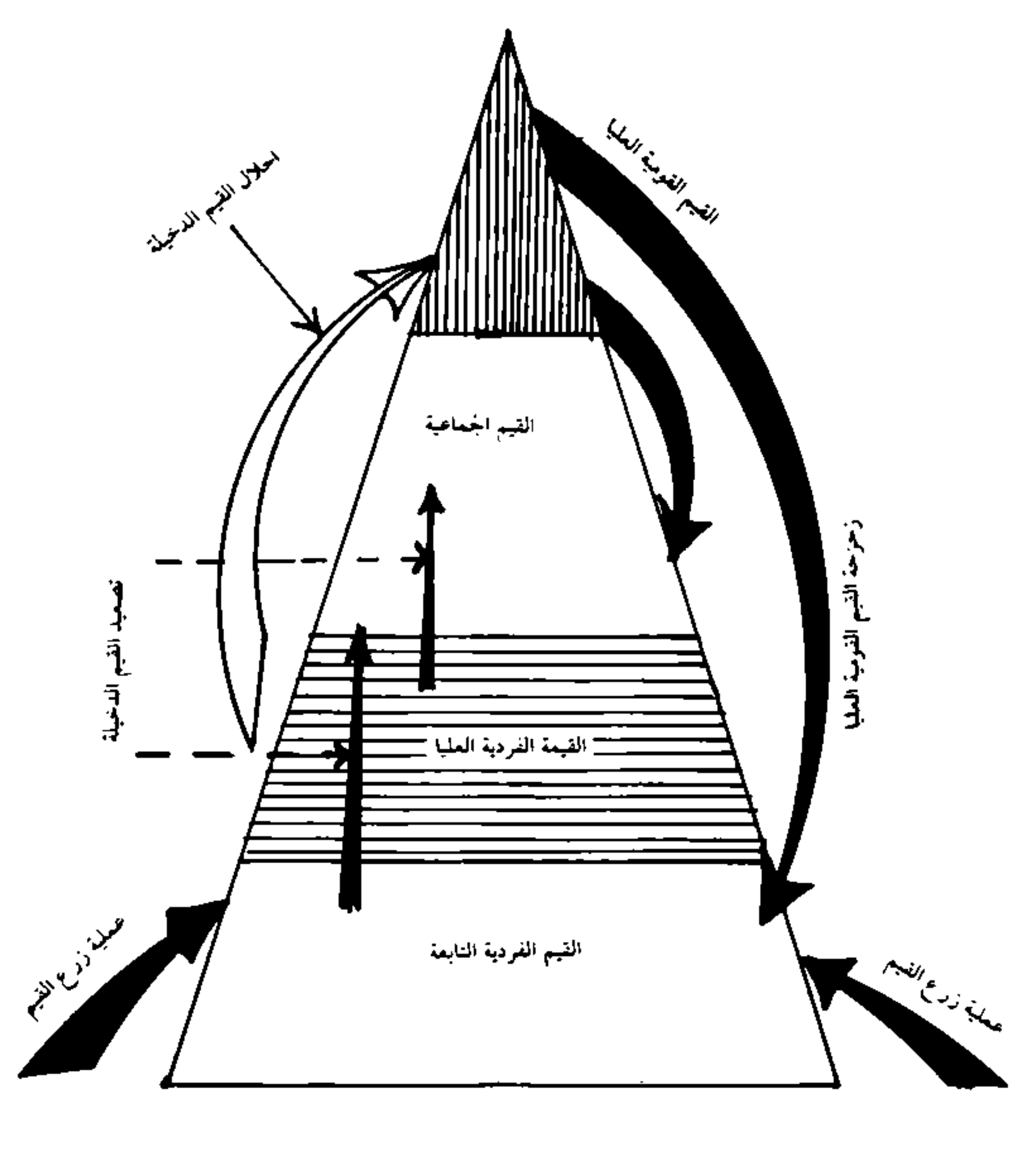
وعلى وجه الخصوص العالم العبري ليو كوهن. لم تحدث ان تغيرت هذه التقاليد منذ انشاء اسرائيل وحتى اليوم ورغم محاولات اسرائيل جاليلي في اعقاب حرب الايام الستة حيث ظل التعامل الدعائي يتمركز في وزارة الخارجية وينبع من منطق العمل الدبلوماسي. ولكن فجأة وفي اعقاب انتخابات الكنيست التاسع اذا بالتنظيم الجديد يعلن عن انشاء وزارة للاعلام ويعهد بها الى شيمون بيريس. لاتزال الوقائع غامضة ولانستطيع بعد ان نقدم تنبؤات. ولكن التساؤلات المطروحة عديدة: هل هذا الجمع بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي يعكس فلسفة جديدة اساسها وحدة مفهوم التعايش السلمي؟ وهل اختيار شيمون بيريس في ذاته له دلالته وهو صاحب التصورات المعروفة التي سبق وحللناها في غير هذا المكان والتي تقوم حول الوظيفة الحضارية للدولة العبرية في المنطقة والتي تنطلق من مفهوم الاقليات؟

متغيرات جميعها تقودنا مرة اخرى الى ظاهرة التسميم السياسي. فما الذي نقصده بتلك الكلمة؟

٨٧ ـ التعريف بمفهوم التسميم السياسي:

التسميم السياسي في حقيقته مفهوم قديم حتى ودون ان يعبر عن نفسه في اوسع معانيه كما سبق ورأينا لايعدو ان يكون عملية غرس مفاهيم معينة لابد وان تقود الخصم او الصديق الى الاقتناع بافكار هي في حقيقتها لاتعبر عن الحقيقة ولكن من مصلحة من يقوم بعملية التسميم ان يقنع خصمه بها فاذا بذلك الاقتناع يقوده الى موقف معين من الضعف لايمكن ان يؤدي الا الى اهلاك. هذا المفهوم ليس بجديد في تاريخ الحركة الصهيونية. وخير تعبير عنه باعتراف العالم الفرنسي نورد خير من ارخ حتى اليوم لهذه الظاهرة هو ماحدث خلال حرب الايام الستة: عندما اقنع جمال عبد الناصر بجميع الوسائل ان اسرائيل لن تقدم على قتال عسكري بسبب اقفال مضايق تيران وذلك في نفس اللحظة التي كانت تخطط فيها للقتال منذ عامين على الاقل سابقين على ذلك التاريخ. بل وبلغت دقتها في التخطيط انها اطلقت من الوقائع والتعليقات مايؤكد لافقط ترددها في مواجهة القوى المصرية بل ورغبتها من جانب في عدم القتال ومن جانب اخر

شكل رقم ٣٠



عملية التسميم السياسي

شعورها بالضعف ازاء التخل الامريكي[٥٢]. يخبرنا المؤرخ السابق ذكره بان «ديان» كان يتولى القيادة الفعلية قبل نشوب القتال بفترة غير قصيرة.في ٢٧ مايو خرجت الصحف في جميع انحاء العالم تعلن عن ان ابا ايبان ينتظر في واشنطن بقلق لان يسمح له بمقابلة الرئيس جونسون الذي بدوره قابل لاعبي كرة القدم ثم غادر العاصمة لقضاء بضعة ايام للراحة في تكساس. وفي نفس الوقت تخبرنا الصحافة العالمية ان وزير الخارجية الامريكي يسعى لاقناع اسرائيل بعدم القيام بأي مغامرة عسكرية. واخيرا في ٢٨ مايو يقدر للوزير الاسرائيلي ان يدخل البيت الابيض ويعقب ذلك تصريح امريكي جاف لايعدو الكلمات التالية:

«اسرائيل تستطيع ان تعتمد على المساعدة السياسية والاقتصادية للولايات المتحدة. اي مساعدة عسكرية على العكس من ذلك لن تقدم لها الا اذا لم يكن من الممكن غير ذلك» ثم يخرج من البيت الابيض وكما يقول نورد «كقريب فقير ومن باب جانبي يقفز في سيارته ويتجه رأسا الى المطار». وعندما يتقدم منه الصحفي الوحيد الذي قدر له ان يقابله والذي يغلب على الظن انه قد اعد لذلك من جانب المخابرات المركزية يسأله: «سيدي الوزير هل انت راض عن مباحثاتك مع الرئيس؟» فيجيبه ايبان: «سيدي ان الشجاعة امر صعب». ما الذي يعنيه ذلك؟ الان وقد اتضحت الحقائق فاننا نعلم على وجه اليقين ان الحديث الذي دار بين ابا ايبان والرئيس جونسون تلخص في التالي: الاول اخبر الرئيس الامريكي بناء على تقارير القيادة الاسرائيلية العسكرية بان اسرائيل تستطيع ان تكسب الحرب في خمسة ايام. ايد ادعاءاته بتقارير البنتاجون. اضاف الوزير الاسرائيلي ان بلاده ليست في حاجة الى مساعدة عسكرية ولكن الامر الذي كان يريد ان يطمئن اليه هو موقف روسيا وضرورة منعها من التدخل عسكريا في القتال المتوقع. ان هذه الواقعة تذكرنا بدعاء «باركوشيباس» الذي كتل اهالي اسرائيل ضد الرومان خلال القرن الثاني بعد الميلاد: «مولاي اننا نتوجه اليك بالدعاء حتى لاتساعد اعدائنا. اما بالنسبة لنا فاننا لسنا في حاجة الى مساعدتك». وتأتي مجموعة من الوقائع اللاحقة بين ٢ و ٤ يونيو جميعها تدعو للاعتقاد بان اسرائيل لن تتحرك على الاقل في تلك الايام: في يوم الاحد السابق على القتال مباشرة جميع الضباط الاسرائيليين يقضون صباحهم على الشاطىء للاستحمام. في ٢ يونيو ابا ايبان يغادر اسرائيل مرة ثانية الى الولايات المتحدة وفي خلال ذلك ناصر يتخذ قراره باختيار نائبه ليغادر القاهرة الى واشنطن بدوره للمفاوضات السلمية. ويعلق على ذلك نورد بقوله: «بينما كانت مصر تعد للمناقشات السياسية، وفي نفس اللحظة كانت الدبابات الاسرائيلية قد بدأت تتحرك نحو المصادمة العسكرية.. في حرب الايام الستة وقبل كل شيء اخر كانت هناك مفاجئة سياسية باستخدام سلاح التسميم، ذلك السلاح الذي سمح لاسرائيل بان تخلق الفوضى والاضطراب التكتيكي والفني».

سلاح قديم ولكنه يبرز في اشد صوره فتكا عقب معركة اكتوبر الاولى.

متابعة تطور التخطيط الاسرائيلي في التعامل النفسي وانتقالها من الدعاية المجردة الى استخدام اسلوب التسميم السياسي في حاجة الى دراسة كاملة لتحليل تطور السياسة الخارجية الاسرائيلية منذ عام ١٩٦٧ حتى هذه اللحظة. مما لاشك فيه ان تحليل هذه الظاهرة وهي لاتعود لاكثر من عدة اعوام امر يتضمن الكثير من المخاطر. ولكن هل نستطيع ان نقف ازاء التطور الذي تعانيه القارة العربية في هذه اللحظة دون اي محاولة ولو من خلال طرح التساؤلات؟ هذا المفهوم الجديد للتعامل النفسي اي التسميم السياسي اليس جديرا منا ان نناقشه ولو في ابعاده العامة المرتبطة بتلك الافتراضات الحركية التي يتعين على كل مخطط للسياسة العربية ان يدخلها في اعتباره؟ اننا نعلم من الماضي القريب والبعيد ان اسرائيل لم تتعود ان تتحرك بعشوائية وانما تمثل الفهد الذي يتراجع استعدادا للقفزة ليكون اكثر قدرة واكثرها اندفاعا. وهي تؤمن

---

(٥٢) انظر التفاصيل في:

NORD, L. INTOXICATION, 1971, P. 357.

بتعاليم لينين خطوة الى الخلف وخطوتين الى الامام فهل نستطيع ان نترك كل ذلك دون تقييم وتقدير لجميع احتمالات الموقف؟.

امكانيات المواجهة المصيرية تفرض علينا ان نبدأ فنتساءل: ماهي تلك المواقع التي تمثل في الحركة الصهيونية النقط القاتلة او على الاقل نقط الضعف التي من خلالها نستطيع ان نتسلل الى جوهر تلك الحركة دعائيا واعلاميا بقصد لافقط مجرد التضخيم في النصر ولو الجزئي بل وايضا النيل من المجتمع المعادي من الداخل وللتضييق من نطاق النجاح في اي معنى من معانيه. ان التحرك الكلي يفرض مواجهة متعددة الابعاد داخليا وخارجيا في آن واحد. ولايكفي لتخطيط المواجهة التصور الجزئي الذي يستند الى ان ادارة الصراع تتحكم فيها فقط القيادة العسكرية. ان هذه الفترة قد انتهت الى غير رجعة والقدرة الحقيقية التي اثبتتها الطبقة الحاكمة الاسرائيلية خلال الفترة التي امتدت منذ مبادرة روجرز حتى معركة اكتوبر الاولى هي ان جعلت حالة القتال مستمرة ودائمة في شكل مواجهة كلية وشاملة. هذه المواجهة جعلت الصراع العسكري ضرورة ولكنها جزئية، لازمة ولكنها متكررة. ومن ثم فان القتال العسكري ادرجته في مواجهة اكثر اتساعا تسمح بتحقيق هدفين في آن واحد: التأديب المستمر من جانب وتفريغ القوى الداخلية ان تجمعت وهددت بالانفجار من جانب آخر. فمن تحدثه نفسه بان يرفع راية العصيان او ان يهدد بأي طريق كان تلك الهيبة التي اكتسبتها اسرائيل لابد وان يعاقب دون انتظار. وعندما حدث ان تجمعت قوى اليأس في منطقة اضحى فيها حتى النقد هو المنطلق الوحيد لاعادة الثقة في الذات اذا بالاعتداء العضوي يصير وسيلة مباشرة لتفريغ تلك القوى الداخلية من مسارها الطبيعي. الاعتداء على بيروت لم يكن هدفه فقط ضرب بعض رجال المقاومة وانما اشعار اللبناني بمدى عجزه وضآلته واكراهه على ان يعود الى حجمه الحقيقي. وهو أمر سوف يتكرر عقب ذلك في تونس فهل نستطيع ان نستخلص من كل ذلك دلالته بالنسبة لوضعنا المعاصر عقب الحديث المتكرر واحتمالاته القائمة على مفهوم السلام والتعايش؟ هل نستطيع بعبارة اخرى ان نحقق نفس الاستراتيجية بان نخلق تكتيلا نفسيا مستقلا عن الحركة العسكرية ومنفصلا عنها بل ورغم الاستسلام العسكري ولو الشكلي؟ هل نستطيع من خلال التحصين النفسي ان نطلق اطارا واسعا في كلا جانبيه دفاعا وهجوما لتثبيت الثقة دون تضخيم ولتحقيق التحلل في المجتمع العدو وانطلاقا من الداخل دون ان يكون ذلك مستندا الى مجرد اوهام لاترتبط بالواقع والحقيقة؟

فلنبدأ بان نحاول تحديد موضع مفهوم التسميم السياسي في اطار عملية التعامل والصراع النفسي بأبعادها المتعددة.

مفهوم قديم ولكن هذا المفهوم لم يرتفع ليصير احد قواعد الحركة السياسية في النطاق الدولي الا في اعقاب الحرب العالمية الثانية. واذا كنا في هذه الدراسة لانريد ان نطلق انفسنا في جزئيات هذه الظاهرة لانها تستقل وتنفصل عن مفهوم الحرب النفسية، الا ان هذا لايمنع من ضرورة تحديد المفاهيم العامة وربط تلك المفاهيم بأبعاد التطور السابق والمعاصر والمتوقع في منطقة الشرق الاوسط. دون دخول في التفاصيل نستطيع ان نلاحظ كيف ان عملية التسميم كمنطلق للحركة السياسية وللسياسة العبرية في المنطقة اجتازت مرحلتين: المرحلة الاولى على مستوى صانع القرار بالمعنى الواسع لهذه الكلمة، ثم المرحلة الثانية على مستوى المجتمع الكلي بمعنى الفيضان الجماهيري. ولو عدنا الى الوقائع السابقة على حرب اكتوبر الماضية للاحظنا ان عملية التسميم بدأت منذ الاشهر المعدة لحرب الايام الستة. سبق ان رأينا كيف اخضع جمال عبد الناصر لعملية تسميم فكرية حقيقية مرتبطة بالتطورات العامة لابعاد الحركة العبرية العسكرية. ايضا عقب الحرب المذكورة استمرت العملية في مسارات اخرى تدور حول زرع مفاهيم معينة في الطبقات القيادية بالمنطقة لابد وان تؤدي الى تطويع ارادة تلك الطبقات: العمليات العسكرية المتعددة التي نعلمها جميعا ابتداء من خطف الطائرة الليبية حتى قتل الزعماء الفلسطينيين، وسواء تمت في الارض المحايدة ام في الارض العربية، فانها

جميعا تندرج في اطار واحد يدور حول استخدام ذلك السلاح في كلا المعنيين، حرب نفسية من جانب وتسميم سياسي من جانب آخر. في المعنى الاول هي منطلقات اساسها اضعاف الثقة في الذات القومية وفي القدرة على الحماية الذاتية من جانب المواطن العربي. ولكنها في المعنى الثاني تعني خلق مفاهيم معينة في القيادات المحلية لابد وان تؤدي الى تشويه في ابعاد ادراك هذه القيادات للحركة. يبدو هذا على وجه الخصوص واضحا من خلال عمليات تسرب الانباء الحقيقية او المصطنعة حول طبيعة العلاقات المختلفة بين اجهزة الامن القومي العربية واجهزة الامن القومي الاسرائيلية. على ان الانتقال الى عملية الغزو المعنوي الحقيقية لن تتم الا عقب حرب اكتوبر والحديث المتكرر الثابت عن مشكلة السلام في الشرق الاوسط بما يرتبط مع ذلك من مفاهيم اخرى تابعة ليس هذا هو موضع مناقشتها او التحليل في ابعادها الحركية.

الذي يعنينا ان نلاحظه في هذه العجالة المتعلقة بظاهرة التسميم السياسي والذي لايعدو من حيث طبيعته اثارة بعض التساؤلات التي سوف نعود الى تفصيلها في موضع آخر ان نقف ونتأمل بعض ابعاد هذا التطور الذي نعاصره.

أ) اول تساؤل يطرح نفسه: اليست هذه الاستراتيجية او هذا التخطيط للتعامل النفسي يعيد للذهن مرحلة سابقة تذكرنا باحدى خصائص الحركة الصهيونية مع خلاف في بعض عناصر الموقف؟ الم يكن هذا الاسلوب هو الذي اتبع في المجتمع الامريكي منذ بداية الحرب العالمية الثانية وعلى وجه الخصوص عقب استسلام قوات المحور؟ الم يحدث من خلال منطلق حديث السلم في المجتمع الامريكي القيام بعملية تسميم سياسة واسعة النطاق أساسها مزدوج: من جانب التمييز بين مستوى صنع القرار ومستوى المجتمع الجماهيري الكلي ومن اذ آخر التمييز بين حديث الدعوة وحديث الدعاية؟ ان التفرقة بين الدعوة والدعاية تتضمن في الواقع تفرقة اخرى بين التسميم السياسي والحرب النفسية. فعملية التسميم هي اسلوب مشوه لعملية الدعوة والحرب النفسية هي منطلق مبالغ فيه للعمل الدعائي. او بعبارة اخرى اذا كان التسميم يتضمن اساءة لاستخدام منطق الدعوة فان الدعاية وسيلة لمساندة الحرب النفسية. ترى هل نفهم من هذا ان التعامل النفسي في تاريخ الدولة العبرية قد دخل مرحلة جديدة عقب حرب اكتوبر لانزال نقف منها موقف التساؤل؟ وترى هل سوف تتجه الحركة الصهيونية من منطلق الاداة الاسرائيلية الى خلق الصهيونية العربية كما فعلت في المجتمع الامريكي وخلقت بدورها الصهيونية الكاثوليكية في القارة الجديدة؟ لماذا نذهب بعيدا في طرح هذا التساؤل الذي قد يوصف بانه نوع من المبالغة ونحن نعلم ان هذه العملية قد تمت فعلا في واقع المجتمع الاسرائيلي من منطلق بعض الاقليات وعلى وجه الخصوص الاقلية الدرزية؟ فلنتذكر مرة اخرى الكلمات التي وردت على لسان الشيخ امين طريف الرئيس الروحي للطائفة وهو يرحب باسم تلك الطائفة برئيس الدولة الاسرائيلية: «ان هذا اللقاء يتم في ظل ثلاث مناسبات مباركة: هي الانتصار الباهر لجيش الدفاع الاسرائيلي في حرب الايام الستة، والاعياد اليهودية، وقرار الحكومة اعطاء الطائفة الدرزية في اسرائيل الامكانيات الكاملة للاندماج الحقيقي في المجتمع الاسرائيلي اسوة باندماج ابناء الطائفة مع اخوانهم اليهود في تأدية واجبهم». ما الذي يقصد بالصهيونية غير اليهودية؟ اليست التسليم بمزاعم المجتمع اليهودي بحقه في العودة الى الارض الموعودة وطرد ابناء تلك الارض بدعوى الحق الالهي؟ واليس هذا هو ما يسلم به الشيخ امين طريف؟

ب) عملية التسميم السياسي في الواقع لاتعدو ان تكون نوعا من انواع الغزو المعنوي الذي يعكس صورة جديدة من صور القتال بين الشعوب. أن المجتمع المعاصر قد اثبت ان الاستعمار لايستطيع أن يحقق في الأمد البعيد أهدافه الاقتصادية من خلال الاكراه المعنوي. وقد أثبتت الاحداث أن غزو المنطقة لايمكن أن يكون دائما اذا جعل مساندته الوحيدة الاكراه المادي، البديل الحقيقي لعملية الاكراه العضوي هو الغزو المعنوي وقد خضعت المنطقة لعملية الغزو المعنوي من خلال موجات متعاقبة من عمليات التشكيك

والتفتيت في قيمها الحضارية. الحرب الايديولوجية اولا، ثم مفهوم الغزو الاشتراكي باسم التقدم او التخلص من شوائب الماضي لم يكن في حقيقته الا منطلق لخلق التبعية المعنوية من خلال عملية سحب كلية كاملة للمجتمع السياسي وربطه بعجلة المجتمعات الشيوعية. اسلوب آخر نعاصره حاليا في بعض البلاد العربية والذي يدور حول اعادة تشكيل الطابع القومي المحلي من خلال عمليات مزدوجة ومتابعة تحقق نفس الاهداف الاولى ولكن ليس من منطلق ايديولوجي وانما من منطلق سلوكي: غرس قيم جديدة بحيث تتم عملية اعادة ترتيب للقيم وبالتالي اعادة تشكيل لنظام القيم، اعادة تشكيل الطابع القومي على مستوى الفرد، خلق اوتاد المساندة المحلية من خلال لغة المصالح والاستثمارات بحيث تسمح باستمرار عملية الجذب والترابط الحركي من الواقع المحلي، خلق الفرقة القومية من خلال تضخيم نعرة الاقليات، مسالك اربع تسمح بأن تحقق ما اخفقت في تحقيقه الاستراتيجية الاولى بمعنى الغزو المعنوي لا على مستوى المفهوم الفكري وانما على مستوى المفهوم السلوكي بحيث تستطيع تلك القوى الاجنبية بأن تقوم بعملية تفتيت للمجتمع بقصد اعادة تشكيله على ضوء اهدافها الحركية. وهنا يجب علينا ان نتذكر ان التسميم السياسي من المنطلق السلوكي لايلغي التسميم من المنطلق الايديولوجي، انه مقدمة له بل ويمكن القول ان الفشل الحقيقي الذي اصاب السياسة الامريكية بهذا الخصوص في المجتمع الالماني وكذلك في المجتمع الياباني، هو انها لم تدرك هذه الحقيقة. ومعنى ذلك ان التسميم السياسي بالمنطلق السلوكي بمعنى تفتيت الطابع القومي واعادة تشكيله ان لم، تعقبه عملية جذب كلية شاملة الى مفهوم ايديولوجي جديد وقد اضحت هذ العملية الثابتة في متناول المخطط النفسي عقب تفتيت الذاتية القومية فان مرحلة التفتيت لايمكن ان تظل دائمة وثابتة حيث لابد وان يحاول المجتمع القومي العودة الى تقاليده ولو بصورة معينة ولو من خلال معاناة مرهقة. ترى هل ادخل المخططون الاسرائيليون في تصوراتهم هذه الحقائق وهل اعدوا لها عدتهم؟

ج) على ان مظاهر التسميم السياسي التي نعيشها هي مايمكن ان نسميه بعملية البلبلة المتعمدة من خلال التمويه في مستويات التعامل بالنسبة لمشكلة الوجود العبري في المنطقة[٥٣]. سبق ان رأينا في غير هذا الموضع ان مشكلة الوجود الاسرائيلي تمثل فتقا متميزا فرض العديد من دوائر الازمات: كل من هذه الدوائر تتميز بخصائص مستقلة ولكنها لاتلغي الدوائر الاخرى. هناك اولا دائرة دول المواجهة او الشرق الاوسط حيث يصير الصراع مشكلة اقليمية تدور حول عملية تنظيم الحدود باسلوب او باخر ثم هناك مشكلة شرق البحر الابيض والمترتبة على اغلاق قناة السويس بما يعنيه من اضطراب في التبادل الدولي التي تتحكم في ابعاده عملية استقرار استخدام الممر المائي الدولي. اضف الى ذلك الازمة التي فرضها وجود الاراضي المقدسة الاسلامية في الارض الاسرائيلية وما يعنيه من خلق دائرة اخرى رابعة حيث تتغلب الابعاد العاطفية والنواحي العقيدية على محور التعامل. الدائرة الافريقية وهي دائرة اخرى بدورها متميزة تدور حول قصة الرجل الذي لايقتصر على الاحتلال بل يتعدى ذلك الى استئصال المواطن صاحب الحق الطبيعي في ارضه بدعوى المدنية والحضارة. بقيت الدائرة التي منها وبها تتحدد الدوائر الاخرى وهي دائرة الصراع العربي الاسرائيلي: صراع حضاري، بين مفهومين للوجود السياسي احدهما ينتمي الى هذه القارة بحكم التاريخ والواقع وثانيهما ينتمي اليها حيث فرض على المنطقة بالقوة. الصراع العربي الاسرائيلي ليس صراعا حول شقة اقليمية او حول مصالح اقتصادية وانما هو أساسا صراع حضاري يجب ان يغلف منطق التعامل القومي بحيث يتحكم في جميع ابعاد التصادم. الذي يعنينا بخصوص الموضوع الذي نثيره هو كيف ان عمليات

---

(٥٣) حامد ربيع، البترول العربي وعملية ادارة الصراع في منطقة الشرق الاوسط، ١٩٧٤، ص ٣٩ ومابعدها.

التسميم السياسي ادت الى الخلط بين هذه المستويات بحيث صبغت الصراع العربي الاسرائيلي اي الصراع الحضاري بصبغة الصراع الاقليمي بدعوى نسميته بأنه مشكلة الشرق الاوسط. هذه العملية لم تقتصر على ان تغزو الاتصالات الدعائية والاعلامية بل ارتفعت الى حد تجنيد علماء ومراكز للبحوث المتخصصة لخدمة هذا التسميم الفكري. ولنذكر على سبيل المثال المؤلف المشهور الذي تم تحت اشراف مؤسسة راندكوربريشن بعنوان الديناميات السياسية في الشرق الاوسط حيث ميز واضعوا الدراسة بين القوى المشاركة والقوى المشاهدة والقوى غير الاقليمية[54]. الاولى ورغم انها صدرت بكلمة الصراع العربي الاسرائيلي تمركزت حول اسرائيل والجمهورية العربية المتحدة ودول الهلال الخصيب اي سوريا والعراق والاردن. اما الدول المشاهدة فقد تمركزت حول ايران ومنطقة المغرب العربي. الاخيرة وهي القوى الاوروبية والامريكية والروسية. وهذا يقودنا الى عدة ملاحظات:

١) ان الصراع على الحدود وحتى عقب تنسيقها لو حدث ذلك بل ولو قدر لبعض البلاد العربية الاعتراف بشرعية الوجود الاسرائيلي فان هذا لايلغي حقيقة الصراع الحضاري والطابع الحضاري للمواجهة الذي سوف يظل مسيطرا على المنطقة بحيث يحدد جميع ابعاد الحركة للقوى السياسية المرتبطة ايضا وفقط بمنطقة الشرق الاوسط.

٢) ان حقيقة هذا الصراع هو انه صدام عضوي بين قوتين لابد وان احداهما تتغلب على الاخرى بالابتلاع او الاستئصال فالقوة الاسرائيلية مدعوة وبحكم التاريخ اما ان تتسع شيئا فشيئا ولو مرحليا او ان تختفي بان تبتلعها القومية العربية ولو من خلال الغاء الطابع الصهيوني للدولة اليهودية.

٣) والواقع ان المشكلة الحقيقة التي خلقها التواجد الاسرائيلي في المنطقة ليس فقط اقتطاع جزء من الارض العربية وانما خلق التجزئة بان شطرت الجسد العربي عضويا ومكانيا وما لم تستطع الصهيونية السياسية ان تقبل التصور القائم على اساس الغاء التقلص المكاني الذي يسمح باستمرارية الارتباط العضوي بين المشرق العربي والمغرب العربي فان الوجود العبري سوف يظل دائما متحكما في جميع ابعاد الصراع العربي الذاتي نحو التكامل القومي.

والخلاصة ان ابعاد الحرب النفسية في منطقة الشرق الاوسط ليست هي ابعاد التسميم السياسي في العالم العربي والدعاية الاسرائيلية تقوم على اساس عملية الخلط المتعمد بينهما بقصد تشويه المفاهيم وبالتالي تفتيت الارادة الواحدة في منطق الحركة.

د) ويساعد على ذلك اخفاق العالم العربي والقيادات الفكرية العربية في ان تقدم تصورها الحقيقي للمشكلة. ان التسميم السياسي لاينجح الا حيث يوجد الفراغ او التشكيك ولكن كيف تستطيع ان تسمم المؤمن الثابت في عقيدته؟ كذلك الشعوب التي تصيبها البلبلة الفكرية والتشكيك في قيمها تصير خصبا سهل المنال. ترى هل نفهم من ذلك لماذا الحديث عن الانفتاح والتعايش مع القوى اليسارية لم تدفع به إلا حركات التخطيط النفسي الامريكية؟ كل من عاصر المؤتمرات الدولية المنعقدة في اكثر من عاصمة واحدة في العالم العربي رأى اذناب السياسة الامريكية يحدثوننا عن الانفتاح مع الاحزاب الشيوعية الاسرائيلية وفي احلك

---

(٥٤) انظر هذه الدراسة المنشورة بعنوان:

HAMMOND ALEXANDER, Political dynamics in the Middle East,1972, P. 5, 31, 267.

هذه الدراسة وهي مجموعة ابحاث قامت باعدادها مجموعة من الدارسين تحت اشراف The Rand Corporation تعلن بصراحة عن هذا التصور حيث تخصص الفصل الثاني لما اسماه المخططون للبحث The Participants. العنوان الذي يطلقونه على الفصل الرابع له دلالة خاصة The regional bystanders ايضا هذه المفاهيم يرددها اكثر من كاتب واحد، انظر على سبيل المثال:

KIMCHE, Palestine or Israel, 1973, P. 159.

BELING, The Middle East, 1973, P. 55.

لحظات الهزيمة اللاحقة لحرب الايام الستة[55]. الذي يعنينا ان نتذكره بهذا الخصوص هو التساؤل: لماذا حتى هذه اللحظة لم تنجح القوى الفكرية العربية في تقديم تصور عربي عام لحقيقة الازمة التي فرضها الوجود العبري في المنطقة. اي فلسفة عربية متكاملة تسمح بسد جميع الثغرات التي استطاعت منها حركات التسميم السياسي ان تنطلق وان تفتت وتنخر في العقل العربي لاوجود لها بل ولا امل في وجودها. لماذا؟

فلنحدد بعض الابعاد:

١) تقديم تصور عام عربي للوجود الاسرائيلي والمشكلة الاسرائيلية. فالمتتبع للفقه المتخصص يعلم ان هناك تصورا للمشكلة اليهودية يختلف تبعا لكل تقاليد حضارية. ان التقاليد الفرنسية تنظر الى المشكلة اليهودية على انها امتداد لمفهوم الحريات الفردية كما خلقتها تقاليد الثورة الفرنسية. والتقاليد البريطانية تجعل منها مشكلة حضارية تدور حول مبدأ الاندماج والتوفيق، بين حضارات متخلفة وحضارات متقدمة. التقاليد الامريكية تجعل المنطلق الحقيقي هو مبدأ حرية الاقليات، اما التقاليد الشيوعية فترى في الدولة الاسرائيلية امتدادا لمفهوم الدولة البرجوازية الطبقية كما وضعت اصولها تقاليد الصراع في غرب اوروبا خلال القرن التاسع عشر. فأين من هذه التصورات المختلفة التصور العربي؟

٢) اضف الى ذلك تحليل انعكاسات التحرك الصهيوني على مستقبل القارة العربية. اليست هذه التحركات والمرتبطة بالحركات المستقلة او التابعة ترمي الى ان تعيد النموذج الاسرائيلي بشكل او بآخر في بعض المناطق المتفرقة ذات الاوضاع المتشابهة مع الكيان الفلسطيني؟ وهل من قبيل المصادفة التحرك الايراني في منطقة الخليج العربي والدراسات التي تجري في مراكز البحوث في ايطاليا حول امكانيات الاستيطان في ليبيا ثم الاتجاه الفكري الفرنسي الذي يثير مسؤولية ديجول حول عدم خلق اسرائيل جزائرية في شمال الجزائر؟

٣) ثم مناقشة النموذج الحضاري الذي تقدمه الدعاية الاسرائيلية مع ما يرتبط به ويتفرع عنه من تفتيت للاساطير التي استطاع الاعلام الاسرائيلي ان يصوغها حول الوجود اليهودي والنموذج الحضاري للمجتمع الاسرائيلي.

٤) على ان اخطر النواحي التي تفرض التساؤل وتدعو للتأمل هو اخفاق الفكر العربي في ان يقدم تصوراً ذاتيا لحل مشاكل المنطقة. فلنتذكر اجمالا ان هناك تصورات اربع تسيطر بطريقة او بأخرى على الفكر السياسي المرتبط بالمنطقة وتعبر عن مصالح القوى المتعاملة مع المنطقة. ليس هذا موضع تحليل هذه النواحي، ولكن فلنذكرها اجمالا. فهناك اولا التصور الامريكي والذي اساسه ان تتحكم الارادة الامريكية في المنطقة بان تجعل من منطقة سيناء ومايحيط بها القاعدة التي تسمح لها بخلق خط الهجوم الاول لتحطيم مراكز الصناعة الثقيلة في روسيا. التصور الروسي يقوم على اساس جعل منطلق نفوذها يتركز حول ربط سوريا والعراق وجعل ذلك الربط منطلق للوصول الى الخليج العربي والتحكم في المحيط الهندي. التصور الاوروبي يجعل هدفه الرئيسي ربط شمال افريقيا وعلى وجه الخصوص المغرب العربي بما في ذلك ليبيا ولو في حدود معينة بالوجود الاوروبي باسلوب او بآخر. التصور الاسرائيلي هو خلق الامبراطورية التي تحقق الاسطورة التاريخية. ويأتي التصور الفارسي فيجعل من المفهوم الشيعي اساس لامتداد يربط منطقة الخليج بشرق البحر المتوسط أين التصور العربي؟ وبغض النظر عن مشكلة الوجود العبري في المنطقة فأين النماذج الفكرية والبدائل الحركية للموقف الحالي؟ وهنا يجب ان نلاحظ كيف ان هذه التصورات غير العربية تتفق عند نقطة

---

(٥٥) انظر حامد ربيع، البترول العربي وعملية ادارة الصراع، م. س. ذ.، ص ٩٣ ومابعدها.

واحدة وهي تجزئة العالم العربي وفرض الفرقة عوضا عن الوحدة في تلك المنطقة [٥٦].

كل هذا يقودنا الى ان نثير المشكلة الحقيقية التي يجب على مخطط السياسة العربية في هذه اللحظة ان يضعها في اعتباره وان يدخلها في تقديراته وهي ان حالة السلم لن تمنع من نشوب نوع اخر من انواع القتال والصراع من خلال منطلقات عمليات التسميم السياسي وان الموقف الذي تعيشه منطقة الشرق الاوسط يفرض عليها الاستعداد لمواجهة لن تقل من حيث خطورتها عن القتال المسلح. وبغض النظر عن ضرورة اعتبار هذه الاستراتيجية عملية تكتيكية مرحلية فان الحقيقة التي يجب ان تكون واضحة في الاذهان هي ان مخاطر السلام لاتقل عن مخاطر القتال. لنتذكر مرة ثانية مايقوله اعظم علماء الدبلوماسية الامريكية بالي [٥٧] بهذا الخصوص: «ان عمل السلام هو فن معقد، انه في حاجة الى نبوغ اكثر من المعتاد، او على الاقل نبوغ من نوع اخر يختلف عن ذلك الذي يفترضه القتال المسلح. احد الاسباب التي ادت الى اخفاق عملية تحقيق السلام في باريس في عام ١٩١٩ هو ان القادة الذين نجحوا في القتال هم نفس القادة الذين قادوا الحركة السلمية وقد اكتفوا بان غيروا قبعاتهم وجلسوا حول مائدة واحدة. ان العاطفة لايمكن ان تخلق السلام المرغوب». وليس ادل على صدق هذه الحقيقة من الواقع الذي تعيشه الامة العربية فلنتساءل ولنقف عند مجرد ذلك التساؤل: اين اطراف الصراع السلمي الذي سوف يسيطر على منطقة الشرق الاوسط من خلال عملية التسميم السياسي في الاعوام القادمة؟

٨٨ ـ اطراف الصراع السلمي وعملية التسميم السياسي:

لانريد في هذه العجالة سوى ان نضع الطرفين المتواجهين موضع المناقشة والتقييم. ان الصراع السلمي، ولو من قبيل الافتراض، في منطقة الشرق الاوسط لايعني سوى بلغة الحقيقة والواقع اسرائيل في مواجهة العالم العربي. فأين خصائص كل من هذين الطرفين في عملية قتال فكري اساسه الغزو المعنوي من خلال التحطيم او التسلل باسلوب او بآخر؟

١) اول ما نلاحظه ان المجتمع العبري هو امة واحدة: المجتمع اليهودي. وبغض النظر عن الفرقة الداخلية وعن الصراعات المختلفة بين مختلف مقومات تلك الامة فان هناك ارادة ثابتة تسعى لاعادة تشكيل الطابع القومي اليهودي من خلال تنقيته والتخلص من شوائبه. فلننتقل عبر الحدود ولننظر الى الامة العربية. ما هي؟ امم متعددة لاتربطها من حيث الواقع سوى ارهاصات الماضي. هل يستطيع محلل محايد ان يصف مجتمعات الشرق الاوسط المعاصرة بأنها تمثل امة واحدة؟ وهل هناك اي محاولة او سعي حتى في الاقليم

---

(٥٦) قارن الاسبوع العربي، عدد رقم ٧٧٣، ١ / ٤ / ١٩٧٤، ص ٢٣ الذي ينقل مراسلها عن صحيفة الموند البارسية العبارة التالية، منسوبة الى جولدمان المعروف باعتداله: «اذا اردنا لاسرائيل البقاء والاستمرار. علينا ان نساهم في تمزيق الوطن العربي الى دويلات طائفية وعنصرية يكون لاسرائيل فيها الدور القيادي والطليعي: دويلة درزية على الحدود السورية ـ الاسرائيلية، دويلة مارونية في لبنان ودويلة كردية في شمال العراق».

(٥٧) سوف نعود الى هذه النواحي تفصيلا في مؤلفنا عن الابعاد النفسية للصراع العربي الاسرائيلي والذي يكمل هذه الدراسة ويغطي النواحي التي تركناها جانبا من عمد. انظر ايضا حامد ربيع، الاعلام العربي وقضية الشرق الاوسط، ص ٢٩٠ ومابعدها. ونلفت نظر القارىء الى ان هذه المؤلفات الثلاث تعكس تداخلا معينا فرضته الظروف. فالمؤلف الاخير عن الاعلام يتناول بالتفصيل الفصل الثاني من هذا الكتاب. على العكس من ذلك فان المؤلف الآخر يتعرض بالتحليل للفصل الثالث. الفصل الاول يستطيع القارىء ان يكمل التفاصيل التاريخية الواردة به بالعودة الى مؤلفنا عن الدعاية والدعوة في تقاليد الحركة الصهيونية. انظر حامد ربيع اساسية حول الصهيونية، م. س. ذ.، ص ٢٩. كذلك بخصوص الاحالة الواردة في النص انظر:
BALLEY, The art of diplomacy, 1968, P. 261.

المصري لمواجهة شوائب الطابع القومي بجدية علمية معينة؟
٢) ثم هناك في داخل تلك الحدود المعروفة بالدولة العبرية جماعة سياسية مترابطة: الايديولوجية الصهيونية تربط جميع اجزائها وتصهرها في بوتقة واحدة تبرز واضحة في لحظات الصراع المصيري فاذا بها كتلة دافقة لاتعرف اي قوة مخالفة للاتجاه الواحد الذي يسيطر على جميع عناصر الجسد الاجتماعي في تدفقه نحو الغاية المنشودة. فلنلقي ببصرنا عبر الحدود نجد مجتمعا عربيا هو في حقيقته مجموعات من الاقليات، حيث لا رابطة ايديولوجية ولا رابطة حركية ولا رابطة عقيدية.
٣) ثم هناك دولة واحدة، الدولة العبرية. دولة استطاعت بمهارة قيادتها ومقدرة طبقتها الحاكمة ان تخلق التماسك وان تؤكد حتى جميع القوى المعبرة عن ايديولوجيتها ومثاليتها في ان تستوعب في النظام السياسي الواحد دون الحاجة للعنف المبالغ فيه. فلننظر عبر الحدود لنجد انفسنا ازاء نظم سياسية متعددة مفككة كل منها يضرب الاخر بمناسبة وبغير مناسبة، وكل منها يعيش في واد يختلف من حيث مضمونه وابعاده عن اي نظام سياسي اخر ينتمي الى المنطقة. وليكفي ان نقارن بين النظام السياسي اللبناني من جانب ونظم الخليج العربي من جانب اخر والواقع الذي تعبر عنه ليبيا من جانب ثالث.
٤) امة واحدة، جماعة واحدة، دولة واحدة، كان لابد وان يقود الى ارادة دولية واحدة. ان اسرائيل في نطاق التحرك الدولي لاتعرف الا تخطيطا سياسيا واحدا ولغة واحدة وتحركا دوليا واحدا. فاذا القينا ببصرنا نحو الخصوم فماذا نجد؟ وماذا فعلت جامعة الدول العربية في هذا الشأن سوى ان تزيد من تعميق التناقضات التي تكاد تصل في بعض الاحيان الى ان تقدم مسرحيات هزلية تدعو للضحك والرثاء؟ ان الحقيقة التي يجب ان نسلم بها انه في مواجهة ارادة دولية واحدة استطاعت ان تخلق التكامل القومي في الداخل والوحدة الحركية في الخارج لانجد من الجانب العربي سوى ارادة صريحة في تثبيت التجزئة القومية في الداخل والتذبذب والمهاترة الحركية في الخارج.
٥) على ان ابعاد المقارنة لاتقف عند الاطار والهيكل السياسي. فلننتقل الى جوهر الحركة الحضارية. ماهي حقيقة السياسة الاسرائيلية؟ خلق ادوات الاينا ع للحضارة اليهودية لا فقط محليا بل عالميا، لافقط من منطلق التكامل القومي والتدعيم التاريخي بل من منطلق الترابط العالمي سواء بمجتمع اليهود في المهجر او بحضارة القرن العشرين. واين من هذا التقاليد العربية؟ ان جميع جهود العالم العربي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم انما تتجه بثبات واستقرار نحو اطفاء الحضارة العربية تارة من خلال التشبه بالحضارة الغربية وتارة اخرى بدعوى الانفتاح الاشتراكي وحركات التحرر. ولكن المتغير الثابت الذي يربط جميع هذه الحركات الفكرية هو الابتعاد عن التقاليد المحلية وعن التراث القومي.
٦) وترتفع هذه العملية الى القمة عندما ننتقل الى القيم الدينية. واذا كان تحليل هذه الناحية يثير الكثير من ابعاد الغموض والتساؤ ل الا اننا نستطيع ان نقف ازاء واقعة محددة وهي ان العالم الغربي ابتداء من نهاية القرن التاسع عشر عرف تحولا واضحا اساسه العودة الى تعميق الوظيفة السياسية للقيم الدينية. عقب فترة تكاد تبتلع قرنا كاملا من الزمان خرجت الكنيسة في نهاية القرن الماضي تعلن بصراحة وبوضوح عن انها لاتستطيع ان تقف موقف السلبية من تلك القوى السياسية التي تدافع عن مثاليتها الحضارية. فلنتذكر اعلان الاشياء الجديدة للبابا الكاثوليكي الذي سرعان ما اعقبته حركة ربط نظامية كلية وشاملة اساسها خلق القنوات والادوات التي تسمح بتأكيد ذلك التصور: الاحزاب الكاثوليكية، النقابات الكاثوليكية، الجمعيات الكاثوليكية بمختلف نماذجها ليست سوى اهم هذه التطبيقات[٥٨]. في هذا الاطار الفكري نبعت

---

(٥٨) انظر ايضا متابعة تاريخية وتحليلا تفصيليا لهذه النواحي في مؤلف:
BI GO, La doctrine sociale de l'eglise, 1965, P. 45.

الصهيونية السياسية: انها ليست الا الوجه السياسي للعقيدة اليهودية وهي لذلك تقوم على مبدأ تثبيت القيم الدينية وتعميق نطاقها الحركي. والتفصيل في هذه الناحية من منطلق الواقع الاسرائيلي ابعاده لاحدود لها. هذا انتقلنا عبر الحدود لوجدنا جميع المسارات تتجه نحو رفض القيم الدينية. وسواء كان ذلك الرفض بدعوى العلمانية او بأسم التقدمية، او كان ذلك الرفض من خلال تقديم نماذج جامدة للوجود السياسي وللحركة الاجتماعية تعبر عن اقصى التخلف الحضاري الذي عرفته الجماعة الاسلامية فان النتيجة دائما واحدة وهي خلق الخلخلة الثابتة والمستقرة لا فقط في نظام القيم السياسية بل وفي التقاليد المرتبطة بالانتماء التاريخي.

ترى هل نفهم لماذا نشعر باهمية التنبيه بحقيقة المخاطر التي يتعين على مخطط السياسة العربية ان يدخلها في عتباره وهو يواجه المرحلة القادمة؟

ولكن هل يعني هذا ان المجتمع الاسرائيلي بدوره لايملك اي عناصر للتخلخل وانه لايمثل الا قوة دافقة تقف من المواجهة العربية موقف التماسك والصلابة بحيث لايستطيع التدفق العربي ان يناله من اي جانب؟

ليس هذا موضع الاجابة على هذا التساؤل[59]. تعرضنا له في مناسبة اخرى وافردنا له دراسة مستقلة تدور حول عملية البحث عن نواحي النقص في المجتمع الاسرائيلي وامكانيات الارادة العربية في التسلل من منطلق تلك النقائص لتحقيق التفتت الداخلي ايضا باستخدام مفهوم التصميم السياسي كأداة من ادوات الصراع النفسي بين الجماعات السياسية. ولكن يعنينا ان نتناول في هذا الموضع تحليل الخصائص المميزة لقضية الشرق الاوسط كنتيجة لتلك الطبيعة الخاصة للنظام السياسي الاسرائيلي في ابعاده الديناميكية. عملية صنع القرار السياسي في المجتمع الاسرائيلي بدورها تعرضنا لها تفصيلا في موضع اخر وابرزنا كيف ان صنع القرار السياسي في المجتمع الاسرائيلي يقوم على مبدأ التعدد: تعدد في المتغيرات، تعدد في المستويات ثم تعدد في ادوات التشابك والاتصال بين المتغيرات والمستويات[60]. المجتمع الاسرائيلي مجتمع ديمقراطي وبغض النظر عن خصائص الديمقراطية العبرية فان هذه الطبيعة هي وحدها التي خلقت التماسك وسمحت بالمشاركة. هذه الطبيعة الخاصة لعملية صنع القرار وقد ارتبطت بالاوضاع التاريخية والظروف الدولية التي فرضتها الحرب النفسية في المنطقة ادت الى تلوين الحركة السياسية الاسرائيلية في منطقة الشرق الاوسط بخصائص معينة، نحددها فيما يلي:

اولا: اختفاء الذاتية.

ثانيا: قلب العلاقة بين السياسة الداخلية والسياسة الخارجية.

ثالثا: مبدأ التخطيط في العمل السياسي.

رابعا: مبدأ الارتباط الحركي كامتداد لمبدأ الولاء.

خامسا: عدم قدرة الارادة الاسرائيلية على المواجهة السريعة الفجائية.

هذه الخصائص بعضها يمثل قوة وبعضها على العكس من ذلك يمثل الضعف الحقيقي الذي يجعل الوجود الاسرائيلي خصما سهل المنال. واذا كان مبدأ التخطيط والارتباط الحركي يعكسان قوة الجسد السياسي الاسرائيلي فان جميع النواحي الاخرى يمكن ان تمثل مقتلا حقيقيا من خلال منطلق التعامل النفسي.

اول هذه العناصر اختفاء الارادة الذاتية الاسرائيلية ونقصد بذلك ان الارادة الاسرائيلية من حيث حقيقتها هي تعبير عن قوى لاتنتمي الى المنطقة. يفسر هذا العنصر ايضا الظروف التاريخية المعروفة لانشاء

---

(٥٩) انظر، حامد ربيع، من يحكم في تل ابيب ؟، ١٩٧٥.

(٦٠) قارن ايضا حامد ربيع، عملية صنع القرار السياسي في المجتمع الاسرائيلي جزء اول، م. س. ذ.، ص ٣٢١ ومابعدها.

اسرائيل. متابعة التاريخ الحركي يكفي للكشف عن ابعاد هذه الظاهرة وتأكيد كيف ان هناك قوى عديدة تتفاعل خلف الارادة الرأسمالية لتحرك هذه الارادة ولتضفي عليها التجرد من القوة الذاتية: الصهيونية، الامبريالية العالمية او بعبارة ادق الرأسمالية الليبرالية التقليدية، الارادة الامريكية، النفوذ الروسي دون الحديث عن قوى اخرى محتملة او اقل اهمية. كذلك فان العلاقة بين السياسة الداخلية والسياسة الخارجية تقدم لنا ناحية اخرى من نواحي النقص في الاطار الحركي للتقاليد العبرية. التقاليد الاسرائيلية بحكم وضعها الامني قلبت الاوضاع التقليدية حيث جعلت من السياسة الداخلية امتدادا للسياسة الخارجية وليس العكس ويكفي ان نتذكر ان السياسة الاقتصادية ذاتها صبغها الطابع اليساري عندما كانت تتعاون مع النفوذ الروسي واذا بها تنقلب الى الطابع الرأسمالي خلال فترة الارتباط العضوي مع السياسة الامريكية.

على ان احدى النقائص الخطيرة الواضحة كما ابرزتها الحوادث المختلفة في المجتمع الاسرائيلي هو ان الدولة العبرية اثبتت ان النظام السياسي لايملك تلك الصلاحية اللازمة لعملية المواجهة السريعة الفجائية. لقد اثبتت القدرة على تحقيق التماسك والانضباط والثبات في الحركة نحو الاهداف المحددة مقدما بفضل عنصر التخطيط كذلك اثبتت القدرة على تحقيق عملية المساندة السياسية بفضل مبدأ الولاء. ولكنها لم تستطع ان تواجه في اي لحظة من لحظات تاريخها الهجوم غير المتوقع وبصفة خاصة عندما يأخذ صورة الصفعة الخاطفة التي لم تسبقها مقدمات. هذه الظاهرة عبرت عن نفسها في اكثر من مناسبة. بل ان من يتابع تاريخ اسرائيل بدراسة عميقة خلال الاعوام العشرة الاخيرة يؤكد ان هذه الظاهرة عبرت عن ذاتها ايضا في احلى لحظات النصر في عام ١٩٦٧. ان القرار باغلاق مضيق تيران الذي اتخذ في ٢٢ مايو لم يعقبه رد الفعل المتوقع والتي كانت جميع الظروف الداخلية تعد له وتفرضه الا في ٥ يونيو اي عقب نصف شهر كامل من اللحظة التي كان يجب ان يتم فيها رد الفعل المباشر. هذه الملاحظة تزداد وضوحا من خلال احداث عام ١٩٧٣ والتي ليست في حاجة الى تحليل.

والخلاصة انه عندما نواجه موضوع التصميم السياسي علينا ان ندخل في الاعتبار اكثر من بعد واحد. اول هذه الابعاد الاطراف المتعاملة في المنطقة في الزمن القصير حيث نجد اختلالا في التوازن بين قدرة عبرية على الحركة وعدم صلاحية عربية للمواجهة على اننا لو اطلقنا التحليل في امكانياته المقبلة والمتوقعة لكان علينا ان نخوض في ابعاد التقييم وان نفرض على انفسنا تساؤلات اخرى ومن نوع اخر: هل سوف يقدر للعالم ان يتكتل حول ايديولوجية واضحة وتصور محدد للحركة ولو في نطاق منطقة الشرق الاوسط؟ وهل سوف يقدر للايديولوجية الصهيونية ان تتطور لتعبر عن وظيفتها الجديدة في المنطقة التي خلقتها او سوف تخلقها عملية التعايش مع مايفرضه ذلك الوضع الجديد من ممارسة لصراع معنوي من نوع آخر يرتبط ايضا بالوظيفة الجديدة التي سوف تسعى الدولة الاسرائيلية الى تحقيقها من خلال ارادة الانتماء والسيطرة والاتصال التي لابد وان تعبر عنها في مفهومها الجديد؟ واذ يصل التحليل الى ذلك المستوى فاننا لابد وان نفرض تساؤلا من نوع اخر: الا تستطيع الارادة العربية ان تستغل ذلك التطور الذاتي الذي لابد وان يفرض النقائص ويخلق ابعاد التناقض في التسرب لخلق التفتت الداخلي او توسيع بؤر التناقض الذاتي في المجتمع الاسرائيلي؟ كل ذلك يفترض تخطيطا بعيد المدى ولكن وبصفة خاصة لايمكن ان ينبع الا من منطلقين: ارادة عربية واحدة واعية. وخلفها فلسفة عربية متكاملة تسمح بخلق التساند الفكري وتقديم التصور الحركي. تساؤلات تنقلنا الى موضع اخر ليس جوهره هذه الدراسة.

المبحث الثالث

نماذج حركية

٨٩ ـ طبيعة الحركة الدعائية العربية وابعاد المواجهة:

لم يكن هدفنا من هذه الدراسة سوى ابراز نواحي الضعف والنقص مع طرح التساؤلات. رغم ذلك لايجوز لنا ان نتصور ان هذه النقائص والاخطاء قادرة على ان تهدم المنطق الدعائي المعادي او ان تمنع قدرة الهجوم النفسي على ان يتسلل في وعائنا المعنوي دون حركة ايجابية بقصد تنفيذ استراتيجية واضحة اساسها تنظيم تعامل نفسي في بعدين: دعاية مضادة في شكل دعاية عكسية وتحصين معنوي من خلال تحقيق عملية التماسك الفكري. واذا كان موضوع وظيفة الاعلام في ابعادها الداخلية اي تلك المرتبطة بعملية التماسك القومي يخرج عن نطاق هذه الدراسة لانه يرتبط بالوظيفة المحلية الا انه على العكس من ذلك فان امكانيات الدعاية العربية المضادة يجب ان نتناولها ولو بالقليل من التفصيل. بعبارة اخرى الهجوم النفسي على مجتمع العدو من خلال الحرب النفسية المتجهة الى المجتمع العبري او الدعاية الثابتة التي تسمى لاصدقاء ذلك المجتمع يجب ان يظل هدفا ثابتا في حركتنا العربية.

وهذا يقودنا الى التعريف بطبيعة الحركة الدعائية العربية وكيف يجب ان تستغل هذه النقائص. قبل ان نتطرق الى علاج هذه النواحي فلنتذكر ان هذه المآخذ ليست جميعها من مستوى واحد. البعض منها يمثل مواضع قاتلة، يستطيع الاعلام العربي لو امتلك قدرات الابتكار والشجاعة والقوة والتنظيم والتخطيط والثقة ان يهدم من خلالها المنطق الدعائي المعادي ولكن البعض الآخر لايعدو ان يكون مجرد ابعاد قابلة لان تستغل في عملية دعاية عكسية.

اهم النواحي الخطيرة التي تبرز بشكل واضح الضعف في منطق الدعاية الصهيونية هي المنطلقات الثلاث: الكذب، التناقض، التأليه. استخدام الكذب يسمح بهدم الثقة، التناقض الداخلي يمكننا من هدم المنطق. التأليه يقودنا الى رفض التصور. تأتي النواحي الاخرى فتساند وتكمل هذه المنطلقات الثلاث.

على انه يجب ان تكون واضحة في اذهاننا حقيقة المواجهة العربية. انها عملية دعاية عكسية وهذا يفرض علينا ان نميز بين:

اولا: الدعاية العكسية التي تجعل هدفها الرد على تلك الدعاية السابق ذكرها او بعبارة أدق احداث نوع من الضبط للدعاية الاسرائيلية اي القيام بعملية ايقاف لفيضانها.

ثانيا: ثم تعقب ذلك دعاية اخرى ايجابية تفرضها طبيعة نتائج الدعاية المضادة ومدى قدرتها على تحقيق اهدافها اي القيام بعملية ضبط للدعاية الاسرائيلية.

بعبارة اخرى لايجوز لنا ان نتصور ان مايجب علينا ان نقوم به هو دعاية في المنطق التقليدي. ان المواجهة التي تفرضها علينا الدعاية الاسرائيلية هي عملية دعاية عكسية او هجوم مضاد ومن ثم تنبع نتائج معينة تدور وتتحدد بطبيعة تلك المواجهة.

أ) فعملية المواجهة هي عملية احاطة وحصر بقصد منع الفيضان. اي بعبارة اخرى ايقاف لعملية المد الدعائي الاسرائيلي حيث استطاع ان يصل بالتوجه الى تلك الطبقات والفئات التي لم تتجاوب مع الدعاية الصهيونية بالتحصين والتقوية لمنع استيعابها.
ب) ثم البحث عن نقط الضعف والضرب عليها بشدة لاحداث نوع من التمزق في المنطق الدعائي. ان حركة الدعاية المضادة كأي مواجهة لعملية غزو تعني استغلال مواقع الضعف وشل مواقع القوة، كذلك ايضا في الدعاية المضادة.
ج) تكتيل القوى الاعلامية والدعائية والاتصالية لتحطيم جزئيات المنطق الدعائي وقد تم عزلها مبتدئين بالاكثر ضعفا ومتجنبين عناصر المنطق ذات القوة من حيث الواقعية والتقبل. ولايوجد ما يمنع في تلك اللحظة من ان نسلم ولو مرحليا ببعض جزئيات المنطق الدعائي الاسرائيلي. فلنتذكر على سبيل المثال حجة التقدم الحضاري الذي حققته اسرائيل والتقدم الصناعي والفني الذي يجعل منها نموذجا للقدرات الخلاقة.
د) فقط عقب ذلك يجب ان نفكر في تقديم المنطق الدعائي الايجابي او بعبارة اخرى التصور البديل الذي يستطيع ان يحل محل المنطق الذي تم تحطيمه. ان الدعاية المضادة تفترض عملية الاحلال اي انتزاع منطق وغرس منطق اخر. ان لم يوجد هذا المنطق البديل فان الدعاية المضادة لن تؤدي في الزمن الطويل الا الى نوع من التحصين ضد منطق تلك الدعاية الذي هو في ذاته يعبر عن اخفاق شامل. بعبارة اخرى الدعاية العكسية تفترض مبدأ مطلقا: لايكفي الهدم بل ويجب كذلك تقديم البناء الكلي المتكامل وكلما كان البناء اقرب الى الشمول والواقعية كان ذلك ادعى الى نجاح الدعاية المضادة. على اننا يجب ان نتذكر ان تقديم منطق دعائي ايجابي مضاد يجب ان يخضع بدوره لفكرة التعدد المرحلي. فطالما لم نستطع بعد ارهاق العدو فان الصفة العامة التي يجب ان تغلب على الاستراتيجية الدعائية هي الدفاع وان حدث الهجوم فلا يجوز ان يتعدى الضواحي والاطراف. فلنتصور فيلا ضخما نريد ان نفقده التوازن. الضرب في الاقدام او الاطراف وجعله يثب دائما دون ان نمكنه من الراحة ولو دقيقة واحدة ومن خلال التصويب حيث لايتوقع دون المواجهة المباشرة هذه هي وحدها الاستراتيجية التي تسمح بالنجاح. فقط عقب ذلك وبصبر وثبات نستطيع ان ننتقل الى مرحلة الهجوم اي عندما تفقد العدو التوازن فقط نستطيع ان نقدم المنطق الهجومي الكلي الشامل الذي يعني احلال منطق محل منطق اخر.

بعبارة اخرى فان مراحل الاعداد للدعاية العكسية تتحدد بالترتيب التالي:

١) ضبط للدعاية المعادية.
٢) ارهاق لمنطق الخصم.
٣) هجوم في الضواحي والاطراف.
٤) اطلاق القذيفة الايجابية.

٩٠ ـ امكانيات التعامل الدعائي العربي وابعاده:

قد يبدو للبعض، وقد يدعم ذلك تصريحات بعض المسؤولين انه لا امل ولو مؤقتا في اي مواجهة من جانب المنطق العربي. يقول البعض تأكيدا لهذا التقييم انه لا امل ازاء الرأي العام الامريكي بصفة خاصة والاوروبي بصفة عامة وقد اعلن عن تحيزه بشكل واضح واعلن عن مساندته للحركة الصهيونية. على ان الواقع ان هذا الخطأ يعكس نقصا في تصور الحركة السياسية وعدم ادراك حقيقي لابعاد الخطر الذي سوف يتعين علينا ان نواجهه في الاعوام القادمة. بل على العكس ان هذا التطور وهذا المنطلق هو ذاته الذي تتمناه الدعاية الاسرائيلية.

اهداف المخطط الاسرائيلي السياسي منذ عام ١٩٦٧ تسير في ثلاثة مسالك:
اولا: خلق شلل في متغيرات الحركة العربية الساعية للمواجهة الايجابية.
ثانيا: خلق فئات محلية على استعداد لان تخاطب او على الاقل ان تتقبل المنطق الدعائي الاسرائيلي.
ثالثا: عزل مصر عن العالم العربي وبصفة عامة عزل الدول البترولية عن الدول الاخرى التي نستطيع ان نسميها بدول المواجهة.

وقد سبق ان تعرضنا لهذه الاهداف تفصيلا.

ولتحقيق هذه الاهداف فان الدعاية الاسرائيلية كانت تسير في منطلقات ثلاث:

أ) خلق حالة ذعر من جانب القوى الغربية المرتبطة بالمصالح العربية.

ب) ابراز اسرائيل امام الرأي العام الاوروبي على انها وحدها التي تستطيع ان تتحكم في المنطقة وان تكون المتحدث ذا الفاعلية.

ج) ابراز الاعتداءات المختلفة من جانب العسكرية الاسرائيلية على انها وسيلة لتحقيق السلام الدائم. على ان الخطورة الحقيقية هي في ان الدعاية الاسرائيلية لتحقيق هذه الاهداف لاتقتصر على ان تسير في منطقها التقليدي وانما تنتقل الى خطوة ايجابية اساسها دائما فكرة المبادرة. وتبرز واضحة في نواح ثلاث:

اولا: الانتقال الى الرأي العام المحايد.
ثانيا: الاهتمام بالرأي العام العربي المحلي كأداة للاتصال.
ثالثا: محاولة استغلال الرأي العام العربي في المهجر.

١) فهي عقب ان اكتسبت قوة المساندة من جانب الرأي العام الاوروبي والامريكي وقد سبق ان رأينا الارقام تتكلم بهذا الخصوص، اليوم هي تنتقل الى خطوة اخرى متقدمة اساسها التخاطب مع تلك القوى التي ظلت تأخذ منها موقف عدم الاهتمام او الحياد. فهي تخاطب المجتمع الياباني والمجتمع الصيني بل والمجتمع الهندي وهي لاتتردد في ان تقوم بنفس العملية مع بعض الشرائح ذات التقاليد الثابتة ضد اليهودية: حزب المحافظين في بريطانيا، الاتجاه الديجولي واليمينية المتطرفة في فرنسا، الاحزاب الفاشستية والنازية الجديدة في ايطاليا والمانيا. ساعدها على ذلك استخدام البترول العربي كسلاح في المعركة وبصفة خاصة دون تخطيط مسبق من جانب القوى العربية كان من الممكن ان يقلل او يقيد من المخاطر المترتبة على ذلك الاستخدام في مواجهة الاصدقاء. وصف استخدام البترول بانه نوع من «الابتزاز» سبق وان حللناه تفصيلا في غير هذا الموضع.

٢) الاتصال المباشر بالاقليات العربية في سائر اجزاء العالم العربي. الدروز في سوريا والاكراد في العراق والموارنة في لبنان جميعها عناصر وقوى تستطيع من خلال الاعلام المكتوب ان تصل الى خلق قنوات اتصال بها لها مابعدها من آثار. واي اطار خير من اطار خلق السلام والتقاليد السلمية في المنطقة لتحقيق تلك الاهداف؟

٣) كذلك فالدعاية الاسرائيلية لاتترك المواطن العربي الذي يعيش في المهجر. فهذا المواطن الذي لم تعتن به الدعاية العربية العناية اللازمة والذي خضع لحالة من التمزق والرفض خلال احداث عام ١٩٦٧ يمثل ارضا خصبة تستطيع الدعاية الاسرائيلية ان تخلق منها اداة لنشر منطقها الدعائي. انها تحيله الى جرثومة ناقلة للعدوى الفكرية ومن خلاله تستطيع ان تصل الى عملية تغيير في القيم المرتبطة بعملية المواجهة العربية او احلال قيم اخرى موضع القيم التي تفرضها طبيعة الاتصال. وهكذا بدأنا نسمع عن حديث التنمية والبناء الذاتي كبديل للمواجهة العسكرية والقتال العضوي كمنطلق حقيقي لعملية الصراع التي تفرضها حقيقة الوجود والتواجد الاسرائيلي في المنطقة. وهي عملية لن تقل خطورة في اعقاب عام ١٩٧٣. الا يسير في هذا المنطلق الحديث المتكرر عن ان تلك العملية في حقيقتها لم تكن الا بناء على تخطيط مشترك من جانب الارادة الاسرائيلية بصدد اعطاء المواطن العربي الوهم بانه قادر على المواجهة واحتمال المخاطر.

٩١ ـ الدعاية المضادة وخصائصها الحركية:

ان الدعاية المضادة لاتعدو ان تكون اعدادا لمنطلق معين وانتظارا لواقعة يستطيع المخطط للمنطق الدعائي ان يمتطيها ومن خلالها يتغلغل في العقل الذي يخضع لغزوه الفكري. ولو اننا تابعنا الحركة الاسرائيلية خلال الاعوام الاخيرة ومنذ عام ١٩٦٧ على وجه الخصوص لوجدنا الوقائع عديدة لاحصر لها.
ان اي خبير دعائي ماكان يمكن ان يجد خيرا من الاخطاء التي ارتكبتها الحركة الاسرائيلية ليستخدمها في تكتيل الرأي العام الخارجي ضد القيادة الاسرائيلية او على الأقل لتحطيم تلك العلاقات الثابتة من التأييد والتماسك خلف الدعوة الصهيونية.

فلنذكر على سبيل المثال حادث الطائرة الليبية.

في صباح الخميس الاخير من شهر فبراير عام ١٩٧٢ فوجىء العالم بخبر توسط جميع برقيات وكالات الانباء يدور حول اعتداء المقاتلات الاسرائيلية على طائرة ليبية مدنية عندما ضلت طريقها بالقرب من قناة السويس باسلوب لم يسمح بانقاذ احد من ركاب الطائرة الذي كان يزيد عددهم على مائة مدني ليس بينهم عسكري واحد. وقد بلغ الاستياء العام درجة لامثيل لها، حتى ان جريدة «الموند» الصادرة في نفس اليوم لم تتردد في ان تجعل موضوع تعليقها الرئيسي على ذلك الحادث وتحت عنوان ذا دلالة واضحة «واقعة غير قابلة للتبرير».

فكيف استغلت الدعاية العربية تلك الواقعة؟ وكيف كان المخطط الدعائي العربي قادرا على استغلالها وكيف كان قادرا بامكانياته على ان يناقش الخلفية الحقيقية لذلك الاعتداء مستغلا من تلك المناقشة لا فقط دلالة اكتشاف حقيقة السياسة الخارجية والاهداف التي تستتر خلف السلوك الصهيوني في العلاقات الدولية بل من خلال منطق التشكيك والاحلال كان قادرا على ان يقدم السلوك العدواني على انه متناقض مع الاخلاقيات الدولية اولا، رافض للقيم الصهيونية ثانيا، خالق للاضطرابات في منطقة البحر الابيض الشرقي ثالثا؟

فهل فعل ذلك؟

الاجابة معلومة مقدما. ولكن فلنقدم تصورا نطرحه كنموذج لتلك الحركة ولنجعل منطلقاتنا تتتابع بالشكل التالي:

اولا: فلسفة العنف في تقاليد الدولة الصهيونية والتناقض في مقوماتها المنطقية.
ثانيا: وقائع الحادث ودلالة التناقضات الاسرائيلية.
ثالثا: اسقاط الطائرة الليبية والاهداف الحقيقية للسياسة الاسرائيلية.
رابعا: الوجود الاسرائيلي ورفض الاخلاقيات الدولية.
خامسا: السلوك العدواني وحقيقة الوجود الاسرائيلي في منطقة شرق البحر المتوسط.
نتابع هذه النقاط الخمس مذكرين القارىء بحقيقة مانقدمه:

وهو نموذج لتصور كان يجب على اجهزة الاعلام والدعاية العربية ان تجعله اساسا لحملة مكثفة في اكثر من اتجاه واحد بقصد خلق التشكيك في المنطق الاسرائيلي والتشويه في الصورة القومية للدولة الاسرائيلية.

٩٢ ـ فلسفة العنف في التقاليد الاسرائيلية كمنطلق دعائي:

ولنبدأ بفلسفة العنف في تقاليد الدولة الاسرائيلية والتناقض في مقوماتها المنطقية كمقدمة للتعامل مع الواقعة موضع التحليل:

«ان المنطلق الحقيقي لفهم السلوك هو العودة الى التقاليد الصهيونية السابقة على انشاء الدولة الاسرائيلية. ما هي المقومات الفكرية للدولة العبرية كحقيقة سياسية؟ في مؤلف مشهور لعالم عرف باعتداله رغم ايمانه بالصهيونية وهو الكاتب الانكليزي ايزفايح عندما حاول ان يكتشف المفاهيم الاساسية التي تكون منها العقيدة الصهيونية كتعبير سياسي لم يجد سوى محور واحد تتجمع حوله جميع تلك التيارات الفكرية: مفهوم العنف.

ما الذي يقصد بالعنف في التقاليد الصهيونية؟

العنف لدى اليهودي يعني حقه بل وواجبه في ان يلجأ الى جميع الوسائل والادوات دون اي اعتبار لاي قيم خلقية او مثالية في معاملته للآخرين. ان هذا وحده هو الذي يسمح للشعب اليهودي في ان يعيش حرا.

وقادته يضيفون الى ذلك: ان ديالكتيكية التحرير هي ديالكتيكية العنف لان ذلك هو الذي سوف يقود الى بناء المجتمع اليهودي الجديد.

على ان هذا المفهوم قد يبدو لاول وهلة وهو يسير في تيار التجانس مع التقاليد الغربية التي اساسها، وابتداء من عصر النهضة، حق المواطن في ان يلجأ الى الثورة العنيفة ضد الظلم اضحى اليوم وعقب وجود الدولة الاسرائيلية يتضمن تناقضا جوهريا مع الدلالة الحقيقية للتقاليد الفكرية بهذا الخصوص. العنف في تقاليده السياسية هو اداة الضعيف ضد القوي. هو وسيلة العبد والخادم ضد المالك والسيد، هو اداة الصراع عندما لاتوجد اي اداة اخرى. ولكن فلاسفة الصهيونية المعاصرة نقلوا هذا المفهوم ليجعلوه اداة الظالم او على الاقل وسيلة تستطيع الدولة الاسرائيلية ان تلجأ اليها حتى عندما تملك ادوات اخرى تستطيع ان تستخدمها. والواقع ان «مناحم بيجن» القائد الروحي لليمينية الاسرائيلية والمسيطرة على سلوك القيادات الحاكمة هو الذي استطاع ان ينقل المفهوم من اداة للدفاع عن حق الفرد ازاء السيطرة الغاشمة ليصير اداة من جانب الدولة لتبرير سلوكها العدواني والاستفزازي.

الجدير بالملاحظة وابتداءً من هذا المنطلق هو كيف ان الفكر السياسي الصهيوني تلاعب بالمنطق التقليدي. فعقب ان كان العنف لايجد مبررا له الا عنصر الضرورة ولا يستخدمه الا الفرد الضعيف الوحيد الذي لاسلاح يملكه سواه، اذا به اداة في يد الجماعة وبغض النظر عن اي اعتبار اخر من اعتبارات الضرورة.

العنف في تقاليده السياسية كما عرفتها الحضارة الغربية هو نوع من تفريغ الطاقة من جانب الفرد ازاء العبودية وهو تعبير عن قوته وايمانه بنفسه حيث يغامر بحياته مفضلا الموت على حياة العبودية. انه حق الفرد الذي لاسند له سوى ايمانه. وقد كان طبيعي ان يمنح هذا الحق لليهودي وهو يعيش في مجتمعات المهجر حيث لا حماية له وحيث يجد نفسه منبوذا دون اي حماية ودون أي اعتراف بانسانيته ولكن عقب وجود الدولة الاسرائلية وبالنسبة للمواطن الاسرائيلي فلم يعد هناك موضع لتلك الفلسفة الا اذا تصورنا ان يصير حق العنف من جانب المواطن ضد الدولة الاسرائلية ذاتها.

الذي حدث على العكس من ذلك هو ان اسرائيل نقلت منطق العنف ليصير حقا للجماعة اي للدولة الاسرائيلية متلاعبة بالتقاليد الفكرية دون ان يتنبه الفكر الغربي بشكل واضح الى تلك الحقيقة. صحيح ان بعض علماء السياسة تنبهوا لذلك التلاعب الفكري ولكنهم لم يستطيعوا ان يرفعوا اصواتهم. ولنذكر المفكر المعروف سيلزر الذي اصدر كتابا في عام ١٩٦٧ بعنوان التحول الآري للدولة العبرية سرعان ما اختفى من الاسواق بطريقة غير طبيعية.

ترى هل كان يتوقع سيلزر ان تحقق الايام ما تنبأ به منذ فترة لاتتجاوز العشرين عاما حول طبيعة التطورات التي توقعها بالنسبة لسيطرة المفاهيم الآرية على الطبقة المختارة في المجتمع الاسرائيلي، وبهذه السرعة؟.

واقعة ضرب الطائرة الليبية ليست الا نموذجا واضحا يعكس ويؤكد هذه الحقيقة.

٩٣ ـ تناقض التصريحات الاسرائيلية وحادث الاعتداء على الطائرة الليبية في عملية زعزعة الثقة بالجهاز الاعلامي:

متابعة هذا المنطق تصير اكثر وضوحا من خلال تحليل وقائع الحادث واكتشاف التناقضات العديدة في التعبيرات الصحفية التي ادلى بها المسؤولون في ذلك الخصوص. وهذه صورة او نموذج لمعالجة كان يجب ان تكون اساسا للتعامل الاعلامي العربي مع الواقعة:

«كانت طائرة الركاب المدنية الليبية وهي تضم اكثر من مائة راكب تتجه في طريقها الى القاهرة عندما هبت عليها عاصفة شديدة افقدتها الاتصال بمصادر التوجيه مع مطار العاصمة المصرية. قائد الطائرة وهو فرنسي الجنسية اكتشف فجأة ان حوله اربعة طائرات حربية ظن بحسن نية انها طائرات مصرية فهو فوق القاهرة والطائرات تتقدم منه وتحيط به ببساطة ودون اتخاذ اي موقف معادي. ولكن سرعان مابدأ يشك في حقيقة الامر: فالطائرات المذكورة تطلب منه التوجه نحو الشرق اي بعيدا عن خط سيره الامر الذي يعني فقط انه وقع في خدعة. وتأكدت احساساته عندما راح احد قادة المقاتلات يشير اليه بيديه ليتجه بطائرته نحو مطار بير جفجافة. هنا فقط عرف الطيار الفرنسي بحقيقة موقفه وكان عليه ان يتصرف بحكمة ودون رعونة. انزل عجلات طائرته وتظاهر انه قد بدأ في الهبوط. ولكنه اتخذ من هذه المناورة وسيلته لمحاولة العودة الى طريقه الطبيعي متجها نحو الدلتا مستغلا حقيقة موقفه فهو لايبعد عن مرمى الصواريخ المصرية اكثر من دقيقة واحدة. لاحظت المقاتلات الاسرائيلية تلك الحركة وفهمت قصد الطيار المدني فبدأت تصب صواريخها على الطائرة.

وهي اذ تعلم ان الطائرة قريبة من الاراضي المصرية وان احتمال وصول القائد بطائرته الى الاراضي المصرية ولو مصابا قائم قررت ان تجعل ضرباتها قاتلة. صاروخ في الجناح اعقبه صاروخ اخر في الجناح الآخر كان لابد وان يؤدي الى انفجار الطائرة في الجو دون ان تتاح لأي من ركابها او ملاحيها بان ينقذ نفسه ولو من خلال الهبوط بالمظلات الوقائية.

وعندما بدأت ردود الفعل تعليقا على الحادث بالاستياء والاستنكار تبرز واضحة جاءت التصريحات المتضاربة من جانب السلطات الاسرائيلية.

كان اول تفسير قدمته الجهات المسؤولة في الدولة العبرية هو ان الواقعة لاتعدو ان تكون حدثا عارضا نتيجة تقصير من جانب قائد الطائرة الليبية. هي تبرر الواقعة بأن الطائرة كانت تطير وقد اسدلت الستائر وان الاخبار التي كانت قد سبقت ذلك وتداولتها الصحافة العالمية تدور حول اعتزام المقاومة الفلسطينية ارسال طائرة مدنية محملة بالمتفجرات لتلقي بنفسها على احدى المدن الكبرى. ازاء تعنت قائد الطائرة وعدم امتثاله للاوامر ثم بسبب اسدال الستائر وعدم رؤية ركاب بداخل الطائرة لم تجد الطائرة العسكرية بديلا من ضرب الطائرة لارغامها على الهبوط ولكن الذي حدث هو ان الطائرة وهي تحاول الهبوط انفجرت في الجو.

ولكن سرعان ما جاءت الوقائع لتكذب هذه الرواية: فالطائرة ضربت وهي في طريقها الى القاهرة وليست وهي متجهة الى الاراضي الاسرائيلية. والطائرة ضربت باسلوب يجعل احتمال نجاتها بالهبوط بأي شكل كان امرا مستحيلا.

وتأكدت تلك الوقائع عندما كشفت السلطات المصرية عن وقائع التسجيل الذي تم بين مطار القاهرة وقائد الطائرة الليبية تأكدت ايضا تلك الوقائع بالعثور على الصندوق الاسود الذي يوجد في كل طائرة وتسجل فيه جميع الاتصالات التي تحدث من جانب قيادة الطائرة وهو صندوق حاولت السلطات الاسرائيلية في اول الامر التستر عليه لولا اكتشافه بطريق المصادفة من جانب بعض المسؤولين الفرنسيين الذين زاروا حطام الطائرة. الرواية الجديدة تميزت انها جاءت على لسان موردخاي هو قائد سلاح الطيران الاسرائيلي في

مؤتمر صحفي حضر خلاله اثنان من قادة المقاتلات الاسرائيلية الذين اشتركوا في اسقاط الطائرة. الجديدة في هذه الرواية الثانية هو ان الطائرة الليبية كانت قد توغلت حوالي تسعين كيلو مترا داخل سيناء وكانت تحلق فوق منطقة تتمركز فيها قوى الدفاع عن القناة. وعند ذلك اعترضتها طائرتان فانتوم لديها تعليمات ثابتة بعدم التصريح لاي طائرة بالتحليق فوق المنطقة، واشارت على الطائرة المدنية بالهبوط فلم تمتثل ومن ثم اطلقت بعض الطلقات التحذيرية في الجو فلم تمتثل. وحاول قائد المقاتلة الاسرائيلية ان يقود قائد الطائرة الليبية الى ان يتجه الى اقرب مطار الى تلك المنطقة فلم يمتثل، وازاء تعنته اطلقت المقاتلة الاسرائيلية صاروخ على جناح الطائرة الليبية ثم اعقبته بصاروخ اخر فانفجرت الطائرة في الحال.

قبل ان نتابع تحليل الواقعة علينا ان نقف امام بعض الملاحظات:

(اولا) الملاحظة الاولى وهي تدور حول وصول الطائرة الليبية الى ما بعد قناة السويس بمائة كيلو متر. ان الاسباب الحقيقية لم تتضح ولن تتضح ولابد من اكثر من تساؤل واحد: هل هناك خطأ من جانب قائد الطائرة ام انها لظروف لا دخل لارادته فيها، ام ان ذلك نتيجة تخطيط معين من جانب القيادة الاسرائيلية مستخدمة في هذا ادوات التمويه المعروفة.

(ثانيا) كذلك يجب الا يخدعنا ذلك التناقض بين الروايتين الاولى والثانية، وهو تناقض مقصود ومعروف لدى علماء الدعاية والاعلام اساسه محاولة الظهور في موقف اقل فداحة من الموقف الحقيقي: ان هذا الارتباك الذي يبدو لاول وهلة معبرا عن عدم تخطيط مسبق انما تقصد منه الدعاية الاسرائيلية ان تبرز نفسها في موقف المخطىء المندفع وليس المجرم الذي خطط جرمه بنية واضحة وبقصد متعمد وقد ضبط متلبسا جريمة القتل الخطأ اقل بكثير من جريمة القتل العمد. وهو اسلوب عودتنا عليه الدعاية الاسرائيلية خلال الفترة الاخيرة نستطيع ان نطلق عليه «الدعاية من خلال نظام الجوقة» حيث نسمع اصواتا عديدة متناقضة الواحد منها مع الاخرى ولكنها تخضع لتخطيط معين وبقصد احداث اثر معين.

الذي يعنينا في تحليل هذه الواقعة هي ان ننتقل الى الاطار الحقيقي الذي يجب ان ندرج فيه الواقعة على انها جزء من اجزاء حركة اكثر اتساعا تتضمن تخطيطا اكثر بعدا واهدافا اكثر عمقا في السياسة الاسرائيلية، ولنستطيع ان نصل الى هذه الغاية علينا ان نجيب على سؤالين:

(السؤال الاول) هل هناك اي احتمالات في ان تكون واقعة اسقاط الطائرة الليبية قد اتت عشوائية نتيجة خطأ ونتيجة سوء تقدير ولو من جانب القيادة الاسرائيلية المحلية؟

(السؤال الثاني) واذا كان الامر لم يكن كذلك فهل هذه الواقعة ترتبط بتخطيط واسع المدى مسبق على الحادث ومعدله من قبل ام ان القرار اتخذ فقط في تلك اللحظة؟.

السؤال الاول لا موضع للغموض بخصوصه، فمتابعة الوقائع تؤكد ان الاعتداء لم يكن نتيجة خطأ من جانب القيادة المحلية ولانتيجة خطأ من جانب قائد الطائرة الليبية، فالثابت من متابعة الوقائع انه فرنسي الجنسية على قدر ضخم من ثبات الاعصاب والتحكم في حركته حتى اخر لحظة فضلا عن خبرته المعروفة. كذلك فالثابت من اقوال المسؤولين الاسرائيليين ان ضرب الطائرة المذكورة قد تم عقب الاتصال بالقيادة السياسية على اكبر المستويات وقد اعترف موشي ديان بنفسه بذلك مؤكدا انه لم ينفرد باتخاذ القرار المذكور وهذا يعني انه لابد وان يكون قد حصل على موافقة على الاقل رئيسة مجلس الوزراء.

وهنا يجب ان نستبعد اي احتمالات لاية مخاطر كان يمكن ان تتعرض لها القيادة العسكرية الاسرائيلية فالطائرة ضربت وهي في طريقها الى مصر مبتعدة عن سيناء، والطائرات العسكرية كانت اربعة سرعتها اكبر من سرعة الطائرة المدنية. وقد ضربت الطائرة بطريقة تمنعها من اي هبوط اضطراري.

بقي السؤال الآخر وهو اكثر دقة واكثر حساسية: هل القرار كان قد اتخذ في تلك اللحظة اي خلال فترة العشرين دقيقة التي استغرقها اكتشاف وجود الطائرة الليبية فوق سيناء حتى اسقاطها ام انه قرار سابق على

ذلك؟ بعبارة اخرى هل كانت القيادة الاسرائيلية قد قررت مقدما ان اي طائرة مدنية قد تتواجد بقصد او دون قصد فوق سيناء لابد وان تضرب في الجو بدون ان تمكن من العودة او من الاستسلام.

نستطيع ان نجيب بثقة واقتناع ان الاجابة على هذا السؤال يجب ان تكون بنعم:

اولا: موشي ديان يعترف بأن القرار قد اتخذ عقب اتصال مع اعلى المستويات. فهل يعقل ان يتم ذلك في خلال عدة دقائق ونحن نعلم ان المسافة بين ذلك الموضع والقيادة السياسية في تل ابيب او القدس في حاجة الى فترة زمنية معينة؟ ان الفترة التي استغرقتها الطائرة منذ دخول المجال الجوي الاسرائيلي حتى صعود الطائرات الفانتوم اليها لم تتجاوز ثلاث دقائق. فهل يتصور الاتصال واتخاذ القرار على هذا المستوى خلال فترة زمنية محدودة على هذا النحو؟

ثانيا: تزداد هذه الملحوظة تأكيدا عندما نتذكر ان الطائرات التي ارتفعت الى الجو لتحاصر طائرة مدنية وحيدة كانت اولا اربع طائرات وكانت ثانيا من طراز فانتوم وليست من طراز اخر كطائرات الميراج او ما في حكمها الامر الذي يؤكد ان النية على العدوان كانت مسبقة.

ثالثا: ثم تأتي الواقعة الاخيرة لتثبت بصراحة ووضوح هذه النية، فقائد الطائرة الليبية عندما قرر الامتثال الى تعليمات المقاتلات الاسرائيلية بالتوجه الى بير جفجافة لم تحاول هذه الاخيرة ان تضربه ولكنها قررت اصابته عندما اكتشفت انه يحاول التوجه الى الاراضي المصرية حيث تصير المقاتلات الاسرائيلية في مرمى الصواريخ المصرية والواقع انه كان على بعد دقيقة واحدة من مرمى تلك الصواريخ».

٩٤ ـ خلق الشحنات الانفعالية في عملية التكتيل العاطفي:

على ان هدم المنطق الدعائي الاسرائيلي وتقديم الصورة المشوهة للحركة الاسرائيلية لايمكن ان يتم الا من خلال ربط تلك الواقعة باطار اكثر اتساعا يسمح بخلق شحنة انفعالية في المنطق المستقبل تضفي على جوهر الحركة الاسرائيلية شيئا من التشكيك ان لم يكن التشويه.

« ..الواقع ان ادراج هذا الحادث في اطار اكثر اتساعا يسمح بفهم الاهداف الحقيقية التي تسعى الى تحقيقها اسرائيل من هذه العملية والتي هي على استعداد في سبيلها لان تغامر حتى بالرأي العام العالمي ولو الى حد معين. فالسياسة الخارجية الاسرائيلية تسير اليوم في خط جديد لم تتضح ابعاده بشكل صريح ولكنها بدأت تعبر عن نفسها بطريقة مستترة هي سياسة اساسها ومحورها السلوك الاستفزازي والعدواني الذي بدأت مظاهر التعبير عنه تتحدد منذ الصيف الماضي، والواقع ان بعض ماتسرب في الصحف العبرية منذ عام ١٩٦٩ كان يجب ان يسمح لنا بتوقع هذا التغير. ولكنه لم يأخذ صورة ملموسة الا عقب زيارة جولدا مائير لفرنسا تلبية لدعوة الاحزاب الاشتراكية. ثم ازدادت وضوحا من خلال التعليقات المعروفة من جانب جولدا مائير للصحافة العالمية حول مقابلتها للبابا. ولعل الوقائع المرتبطة بطرد اسرائيل من افريقيا واخفاقها في تغطية هذه الهزيمة الدبلوماسية كان احد العوامل التي دفعت بالسياسة الاسرائيلية لاتخاذ موقف العدوانية الصريح الواضح. ثم تأتي واقعة الهجوم الاسرائيلي بالزوارق على شمال لبنان في فجر نفس اليوم الذي اسقطت فيه الطائرة الليبية ليكتمل ذلك الاطار العام. ان اسرائيل تريد ان تعيد تصحيح صورتها المهتزة امام الرأي العام العالمي عقب طردها من اكثر من دولة افريقية واحدة بحركة تصحيح عنيفة بحيث تحقق التوازن نتيجة رد الفعل الذي اعقب الواقعة الاولى. وهي في نفس الوقت تسير في الخط الجديد الذي كانت قد بدأت تعدله منذ فترة سابقة والذي هو في الواقع خطوة كان يجب ان نتوقعها عقب الانتصار العسكري عام ١٩٦٧.

بعبارة اخرى هناك علاقة تضم جميع هذه الوقائع وتفسر ابعاد الحركة الكلية الشاملة نستطيع ان نلخصها في كلمتين: ان اسرائيل تريد ان تقيم من نفسها المتحدث الوحيد الفعلي باسم الشرق الاوسط في مواجهة اوروبا المتحدة.
أ ـ فهي وحدها صاحبة الكلمة الاولى والاخيرة في اقرار السلم من عدمه في المنطقة. ان ارادتها هي التي تستطيع ان تتحكم في الاستقرار او خلق الاضطراب في هذه المنطقة ابتداء من شمال سوريا حتى وادي النيل. الا تتحدث عن السلام العبري؟ وعلى اوروبا ان تعمل حسابا لذلك.
ب ـ وهي وحدها التي تستطيع ان تتحدث باسم الشرق الاوسط ولذلك فهي تسعى بجميع الوسائل لتخلق ادوات الاتصال المباشر وغير المباشر مع المنطقة. وهي لذلك تعلم بأن العقبة الحقيقية ضد تحقيق امانيها هو موقف مصر وسوريا وهي لذلك تستغل هذا الحادث للحديث عن اقامة خط تليفوني ساخن لان ذلك يحقق احد اهدافها وهو خلق ادوات اتصال.
ج ـ وهي التي تستطيع ان تدافع وتحقق الشرعية في المنطقة. وهي لذلك عندما تعتدي على شمال لبنان تزعم بوجود ثوار اتراك وايرانيين يقيمون في معسكرات اللاجئين هادفة من ذلك ان تحصل على رضا الحكومات القائمة في تركيا وايران. وهكذا عندما ذهبت جولدا مائير الى فرنسا وعندما وقفت امام البابا لم تكن تتحدث باسم رئيس وزراء الدولة الصغيرة وانما باسم الدولة المسيطرة على منطقة شرق البحر الابيض المتوسط وهي اليوم تضرب لتؤكد للعالم الغربي انها صاحبة الارادة المطلقة في اقرار السلم والسلام في هذا الجزء من العالم.
والسؤال الذي يجب ان يثيره كل اوروبي هو سؤال مزدوج: هل هذا المنطق في صالح العالم الغربي؟ ثم هل هذا المنطق وهل هذه الاهداف التوسعية تفرض الالتجاء الى العنف والاستهتار بالاخلاقيات الدولية؟
عندما قدم هنري سباك استقالته من حلف الاطلنطي الى الرئيس كنيدي جاء في مقدمتها كلمته المشهورة: ان العالم الغربي يوقع حكم اعدامه يوم ان يقدر له ان تتشكل في جنوب البحر الابيض المتوسط قوى تقف موقف العداوة من الحضارة الاوروبية فهل سوف يظل العالم الاوروبي اليوم صامتا ازاء حركات اسرائيل وسياستها التوسعية التي لن تؤدي الا الى هذه النتيجة؟
سؤال اثارته صحيفة الصنداي تايمز واجابت عليه بكلمات صريحة وشجاعة: «لابد ان يدفع ذلك الحادث الى اعادة النظر بشكل جوهري في مدى استعداد الغرب لمواصلة دعم العدوان الاسرائيلي على حساب اي امكانيات لاقرار السلام في الشرق الاوسط».

٩٥ ـ معالجة القيم وعملية خلق الاثارة:

ولاستكمال المنطق فان الحركة الدعائية يجب ان تتجه الى مستقبل الغزو الفكري من منطلقين: اولهما العاطفة وثانيهما المصلحة. العاطفة تدور حول منطق القيم والتقاليد التاريخية المرتبطة بتلك القيم. احدى القيم العزيزة على العالم الغربي في هذه اللحظة هي مايسمى الاخلاقيات الدولية. وهل هناك نموذج اكثر وضوحا من هذا الحادث في تأكيد الاعتداء السافر على كل ماله صلة بتلك التقاليد؟

«على ان السؤال الأخر والاكثر خطورة يدور حول علامة الاستفهام الاتية: هل اسرائيل في حاجة لتحقيق سياستها التوسعية الى ان تلجأ الى العنف والاستفزاز وترفض جميع الاخلاقيات الدولية؟
فلندع الوقائع تتحدث:
أ ـ ان اسرائيل لاتقبل منطق الاقناع والاقتناع حتى بالنسبة لغير اعدائها. ان منطق القوة والعنف والسلوك العدواني لايتجه فقط الى الطائرة الليبية بل هو قبل ذلك اتجه الى ايطاليا في شخص البابا والى فرنسا في

شخص الطبقة الحاكمة وهي على استعداد لان تضرب اي طائرة مدنية اخرى حتى لو كانت اوروبية تتواجد في تلك المنطقة او كان من الممكن ان توجد في ذلك الموقف.
ب ـ ولنقارن بين سلوك اسرائيل وسلوك الدول الاخرى التي وجدت في نفس الموقف. فروسيا حتى عندما اكتشفت طائرة التجسس الامريكية فوق ارضها تعمدت ان يصيبها بما لايعرض حياة قائد الطائرة للخطر وذلك رغم ان تلك الطائرة كانت طائرة تجسس مما يعرض الامن القومي الروسي للخطر. نموذج اخر نستطيع ان نتلمسه بخصوص الممر الجوي بين المانيا الغربية وبرلين. ففي اقصى فترات الحرب الباردة عندما كانت تفقد الطائرة العسكرية خط سيرها كانت الطائرات الروسية تقوم بتوجيه الطائرات العسكرية الامريكية الى مواقعها الطبيعية من الممرات الجوية.
ج ـ على ان سوء نية السلطات الاسرائيلية وعدم احترامها للاخلاقيات الدولية اكثر وضوحا عندما نقارن هذا الحادث بما حدث بخصوص احدى الطائرات الاسرائيلية في بلغاريا. ولعل خير تعليق على تلك الواقعة ما قالته مجلة الاكونوميست البريطانية: عندما اسقط البلغاريون طائرة اسرائيلية حادث عن طريقها في عام ١٩٥٥ احتج الاسرائيليون عن حق ازاء هذا الحادث وقالوا ان هذا نم عن تجاهل شرير للحياة البشرية والالتزامات الاولية الانسانية. في الحادث الحالي نجد جولدا مائير رغم اعرابها عن اسفها لموت الضحايا تدافع عن ذلك وتصفه بالاجراءات المشروعة التي اتخذتها المقاتلات الاسرائيلية. ان اسرائيل لاتقبل ان المنطق الذي تستند اليه دفاعا عن نفسها يستطيع ان يستند اليه الاخرون».

٩٦ ـ المساندة الدعائية ومنطق المصلحة الاقتصادية:

عقب منطق العاطفة يأتي منطق المصلحة. حادث الطائرة الليبية يعني خلق الاضطراب الصريح السافر دون مقدمات ودون شرعية ودون مبرر في جميع ابعاد الاتصال الدولي المرتبطة بمنطقة البحر الابيض الشرقي. وهذا هو المنطلق الثاني الذي كان يستطيع المخطط العربي استغلاله بحنكة ودراية.

«ماهي الدلالات الحقيقية لهذا السلوك من جانب السلطات الاسرائيلية؟
فلنترك الاخلاقيات جانبا ولنتساءل ماهي حقيقة الطاقة التي انبعث منها هذا التصرف بجميع تلك الابعاد الواضحة من حيث الطبيعة الاستفزازية والعدوانية؟
اول مايجب ان نستخلصه يدور حول طبيعة التطور الداخلي في المجتمع الاسرائيلي. ان الاحداث السابقة واللاحقة تثبت ازدياد سيطرة المنطق العسكري ولعله ليس من قبيل المصادفات ان نقرأ في جريدة ها آرتس بتاريخ ١٩ / ١ / ١٩٧٣ مقالا للعالم الاسرائيلي روبنشتين والذي يشغل منصب عميد كلية الحقوق بجامعة تل ابيب عن سيطرة الجيش على السلطة المدنية واتجاه هذه الاخيرة للتخلي عن سلطاتها وقياداتها الحقيقية للدولة العبرية خلال الفترة الاخيرة. الاحداث التي اعقبت اسقاط الطائرة تؤكد هذه الحقيقة فالكنيست لم يحرك ساكنا وانما وقف يصفق دون خجل او حياء.
كذلك فان تدمير طائرة الركاب الليبية انما يؤكد التناقضات الجوهرية في طبيعة الوجود الاسرائيلي. تعلق على هذا صحيفة التيمز اللندنية بقولها: ان اسرائيل من ناحية تمثل فيها روحية ولكن مع الاسف توجد اسرائيل اخرى لم تخلقها روح المثالية وانما خلقتها الحرب، الحرب التي دامت خمسة وعشرين عاما. هذه اسرائيل التي تنظر الى العرب على انهم قوم ادنى منها. والتي ترى ان قيام اسرائيل الكبرى التي تضم شعوبا مستعمرة، هو افضل واقوم من مجرد وجود دولة اسرائيلية صغيرة معظم سكانها من اليهود تعيش في سلام. الحلول الوسط بالنسبة لاسرائيل ذات النزعة العسكرية هي الضعف والخوار. والحل الذي تقدمه لكل

المشاكل هو استخدام القوة والبطش هذه هي اسرائيل المستعدة لان تعيش بحد السيف.

ان اسرائيل في الواقع تريد بهذه الحركة ايضا ان تضرب جميع المحاولات لتحقيق الحل السلمي او لوضع حد لمشكلة الشرق الاوسط دون اللجوء الى السلاح وهكذا لابد وان تكون النتيجة المباشرة لهذا السلوك هو تقوية الحركات المحلية المتطرفة في البلاد العربية واضعاف القوى المؤيدة للتساهل. وهكذا كان من الطبيعي ان يكون رد الفعل المباشر والسريع ما سمعناه من حوادث الهجوم على السفارة السعودية في الخرطوم من جانب رجال منظمة ايلول الاسود.

ان اي معلق محايد يجب ان يتساءل: لمصلحة من هذه الاضطرابات وهذه التوترات والتي لابد وان تؤدي الى نتيجة واحدة وهي اقتطاع هذه المنطقة عن الاتصال المدني المنظم مع العالم الخارجي وبصفة خاصة العالم الاوروبي الذي تمثل بالنسبة له هذه المنطقة رئته الاساسية؟.

ترى هل آن الاوان لان يعيد الغرب النظر والتأمل في تلك الكلمات الصريحة الواضحة التي عبرت بها صحيفة الصنداي تايمز عن هذه الحقيقة»؟ لقد آن الاوان للحكومات الغربية ولاسيما حكومة واشنطن لان توضح بجلاء اكبر مما كانت مستعدة لان تفعله عن موقفها من اسرائيل. ان الدفاع عن اسرائيل دون قيد لم يعد يحظى الا بتأييد شعبي ضئيل، ولابد من تشكيل لجنة تحقيق دولية محايدة للنظر في حادث تدمير طائرة الركاب الليبية كما اقترحت بريطانيا، ولابد ان يدفع ذلك الى اعادة النظر بشكل جوهري في مدى استعداد الغرب في مواصلة دعم العدوان الاسرائيلي على حساب اي امكانيات لاقرار السلام في الشرق الاوسط [٦١].

ولكن هل من مستمع؟»

---

(٦١) نود ان نلفت نظر القارىء وقد اضحى من الممكن الافصاح عن بعض الحقائق ان هذا النموذج للدعاية الذي اوردناه في النص قد سبق واعددناه فعلا للتنفيذ عندما تحملنا مسؤولية الحرب النفسية ضد اسرائيل في جهاز المخابرات المصرية ولكن العناصر المخربة الداخلية التي كانت منذ ذلك التاريخ تعمل بنشاط ايضا في ذلك الجهاز حالت دون تنفيذه. وهو الامر الذي فرض علينا الانسحاب من ذلك الجهاز ومباشرة عقب حرب اكتوبر. (انظر مؤلفنا القادم عن نظرية الامن القومي).

الفصل الرابع:

حول التخطيط لمنطق المواجهة الاعلامية

خلاصة

أهمية التحرك الاعلامي ـ مبادىء عملية المواجهة ـ خصائص الموقف السياسي وتطوراته المتوقعة ـ الاعلام ودورة في عملية الصراع العربي والاسرائيلي ـ حول التنظيم الاداري لمرفق الاعلام العربي ـ تخطيط التحرك الاعلامي وأبعاده ـ نماذج للمنطق الدعائي ـ عملية التخاطب مع الرأي العام في غرب أوربا: الرأي العام الالماني ومسالك الاتصال الاعلامي ـ العالم الشيوعي والدعوة العربية ـ الهجوم الاعلامي وتحطيم الثقة في الذات القومية الاسرائيلية ـ المنطلقات الدعائية للتفاعل الحركي والقوى السياسية في المجتمع الأمريكي.

٩٧ـ اهمية التحرك الاعلامي وحقيقة الصراع العربي الاسرائيلي:

ليس هدفنا من هذه الدراسة مجرد النقد دون البناء. من الطبيعي وقد ابرزنا في خلال هذا التحليل كيف ان التحرك الاعلامي من جانب الدول العربية اثبت حتى هذه اللحظة فشلا منقطع النظير، علينا ان نقدم بديلاً للوضع القائم او على الاقل ان نسهم في خلق ذلك الاسلوب الذي قد يسمح بتخطي ذلك الوضع من عدم النجاح وعدم القدرة على مواجهة الموقف بما يتطلبه من مستلزمات.

التخطيط الاعلامي يفترض عدة حقائق: تنظيم من جانب، سياسة من جانب اخر ثم اخيراً خطة تربط ذلك التنظيم بتلك الأهداف التي تمثل جوهر السياسة وتحدد بالتبعية نطاق الحركة سواء في المستقبل القريب أو في المستقبل البعيد. فاذا أضفنا الى ذلك ان الاعلام في النطاق الخارجي هو اداة من أدوات تنفيذ السياسة الخارجية لوضحت أبعاد هذا التخطيط منذ البداية: وضع الاعلام في نطاق الحركة السياسية في العالم الخارجي، التنظيم الاداري لمرفق الاعلام العربي ثم تخطيط التحرك الاعلامي وابعاده المنطقية والدعائية.

واذا كانت النواحي الاخيرة ليست في حاجة الى تفصيل لانها لا تعدو ان تكون في حقيقتها سوى نوع من التلخيص والتركيز والتطبيق على الابعاد النظرية لما قدمناه في ثنايا الدراسة وما ارتبط بالواقع العربي فعلى العكس من ذلك، الناحية الاولى أي ربط التحرك الاعلامي بحقيقة الصراع العربي الاسرائيلي بعبارة اخرى تحديد موضع الاعلام العربي من أدوات وخطة المواجهة بما يفترضه ذلك من ابراز لخصائص الموقف السياسي الذي لا بد وان يصير أحد مدخلاته واحد مخرجاته في آن واحد تفترض الكثير من التفصيل.

نتابع هذه النواحي بالترتيب السابق.

---

(١) نظرية التخطيط السياسي لم تقدر لها بعد الدراسة والتأصيل التي تسمح بالاجابة على جميع علامات الاستفهام التي لابد وان تثيرها عملية التحكم في التطور السياسي. قد يبدو لاول وهلة ان التخطيط الاعلامي هو امتداد للنظرية الاعلامية الا انه في الواقع ـ ولعل هذا مما يزيد في صعوبته ـ لابد وان يعكس تفاعلا بين التخطيط الاعلامي والتخطيط السياسي بل انه في نطاق السياسة الخارجية يزداد اصطباغا بالطابع السياسي حيث يصير العمل السياسي قد اتسع واحتضن ايضا العمل الدبلوماسي والعمل العسكري. من هذا المنطلق بعض الملاحظات تفرض نفسها بحيث يجب ان يستوعبها وان يستوعب دلالاتها المسؤولون عن العمل الاعلامي وهم كما سبق ورأينا يتميزون بعدم التخصص حيث انهم دخلاء على ما اسميناه بالاعلام الخارجي.

اولا اول مايجب ان نلاحظه هو ان التخطيط الذي قد يبدو لاول وهلة بمعنى الثقة في القدرات التكنولوجية التي اتاحها المجتمع المعاصر الا انه في حقيقته يفترض ايضا القدرة العلمية والفكرية الخلاقة. لاغنى عن العقل المدبر الذي هو نوع من النبوغ الادراكي والحساسية التي تستند الى شفافية معينة في التعامل مع المتغيرات الدولية والاقليمية.

ثانيا ـ كذلك يجب ان نتذكر ان المدخل العام لطبيعة النظرة الى عملية التخطيط السياسي لابد وان تعكس اثارها في الاقتناع بضرورة التخطيط الاعلامي الخارجي كصورة من صور التخطيط السياسي. ودون التطرق الى التفاصيل فنحن نعلم ان الاتجاهات المعاصرة تقف من ظاهرة التخطيط السياسي موقفين كل منها يعبر عن تقاليد متميزة. فالتقاليد الامريكية تؤمن بالتخطيط السياسي وتخضع هذا المفهوم للنظرة السلوكية بأبعادها المتعددة بل وتجعل من التخطيط السياسي تطبيقا واضحا لعلم الحركة. وهي في ايمانها ترتفع الى حد تقبل فكرة نقل خبير السلطة من نطاق العمل الفكري الى نطاق الحركة السياسية، من نطاق التصور الى نطاق التعامل مع القوى السياسية. عندما اتخذ نيكسون قراره بان يعهد الى كيسنجر بادارة وزارة الخارجية لم يفعل سوى ان ينقل خبير السلطة من موقع الفكر ومقدم النصائح الى رجل الحركة اي موقع التفاعل مع القوى السياسية وتوجيه الاحداث بطريق مباشر. يقابل هذا الاتجاه التصور الاوروبي وبصفة خاصة السائد في غرب اوروبا حيث ينظر الى خبير السلطة

نظرة عدم الثقة والشك. عبر عن ذلك الرئيس بومبيدو وفي عبارة مشهورة لاتزال تحمل مغزاها عندما كان رئيسا للوزارة في حكم ديجول. يقول الرئيس الفرنسي ان هناك ثلاثة مسالك يستطيع من خلالها اي سياسي ان يقود مستقبله الى الكارثة: الجري وراء النساء المقامرة ثم الثقة في خبراء السلطة الاول اكثرها جلبا للسعادة والثانية اسرعها ولكن الثالثة اكثرها ثباتا في الوصول الى تلك النتيجة.

ثالثا ـ اضف الى ذلك ان مفهوم التخطيط السياسي بمعنى تقديم النصيحة او علم التدبرقد قلب في الاوضاع المعاصرة جميع المقاييس التقليدية في نطاق الحركة السياسية. لقد تعودنا بخصوص المستشار السياسي ان نعود الى مكيافيللي في كلمته المشهورة: «على الامير ان يبحث دائما عن النصيحة ولكن فقط عندما يريد ذلك وليس عندما يريد الاخرون على العكس من ذلك عليه ان يمنع اي محاولة بان يقدم له الاخرون النصائح الا اذا طلب هو ذلك. هناك قاعدة مطلقة يجب ان نتذكر ان الامير غير العامل لايمكن ان يكون موضعا للنصح السديد. هذا المفهوم الذي يعني الاستشارة والخبرة التي قد يسعى اليها القائد السياسي او الحاكم انما تأتي نتيجة لطلبه وبناء على شعوره بالحاجة. اي تنبع من ارادته في البحث عن المشورة اختفت في المجتمع المعاصر ولم يعد لها موضع. لقد اصبحت الخبرة تتصف بطابع التنظيم من جانب والدوام والاستمرارية من جانب اخر. ووظيفة المخطط السياسي ليست فقط في ان يجيب على الاستفهامات وانما يتوقع تلك الاستفهامات وان يعد لها مسبقا اجاباتها. وهكذا اضحت الخبرة السياسية تفترض المنظمات الثابتة والمستقلة عن سلطات الحاكم وجودا وعدما وان لم تستقل عنه من حيث الفاعلية والنجاح. ان الحاكم العصري يجب ان يفهم انه اضحى في حاجة الى دوائر ثلاثة من العناصر المهتمة بالتعامل مع السلطة التي يجب ان تحيطه وتسمح له بتأسيس سلطته المخطط، الاداري، المتفع.

الاول يعبر عنه باصطلاحات متعددة ولكنها تعكس مفهوما واحداً: «الخيالي الجديد» مخترع تصورات المستقبل، المهندس الاجتماعي او «الطبيب السياسي» ولكننا نميل الى تفضيل تسمية اخرى تعكس الوظيفة بطريقة اكثر وضوحا: خبير السلطة.

والثاني يمثل قنوات الاتصال التي تسمح بخلق مسارات التفاعل بين الحاكم والاخرين بما في ذلك خبراء السلطة.

اما المجموعة الثالثة فهي لاتعدو ان تكون الطبقة المحكومة في اوسع معانيها.

خبير السلطة بهذا المعنى المحدد يصير احدى الركائز التي يجب ان يؤسس عليها الحاكم نشاطه وسلطته.

رابعا ـ وخبير السلطة بهذا المعنى ومن ثم عملية التخطيط السياسي كمفهوم ينبع من هذه الظاهرة بطريق التبعية لايمكن ان ينظر اليه على انه عمل مستقل عن الاطار الاجتماعي او انه يعكس ثقافة متخصصة. انه يقوم اساسا على فكرة الجمع بين مختلف الثقافات الاجتماعية في اطار واحد حيث تتفاعل جميع ابعاد الدراسات الانسانية. ورغم ان هذه الناحية تعرفها جميع انواع التخطيط الاعلامي الا انها في نطاق التخطيط السياسي تصير حقيقة مطلقة لايمكن ان تكون موضع الشك او ان تخضع لاي نوع من انواع التقييد او التأجيل ولو المرحلي.

وهكذا نجد التخطيط السياسي يفترض بحكم طبيعته التخطيط الاعلامي والعكس صحيح. التخطيط الاعلامي في النطاق الخارجي لايمكن ان يكون الا سياسيا. وهكذا التفاعل بين المفهوم الاعلامي والمفهوم السياسي بالمعنى الضيق والمفهوم الدبلوماسي تصير ركائز مختلفة لابد وان تنساب وان تتداخل كحقيقةواحدة لو اريد للتخطيط الاعلامي ان يؤدي وظيفته. انظر التفاصيل الفكرية في:

BENVENISTE, The politics of expertise, 1973, P. 7; BELL, The sociology of the future, 1971, P. 19.

٩٨ـ الاعلام العربي وعملية المواجهة:

علينا قبل ان نحاول تحديد خصائص وموضع الاعلام العربي كأحد ادوات وعناصر الحركة العربية ان نبدأ فنحدد تلك الحقائق الاولية التي يجب ان تكون واضحة في ذهن مخطط تلك الحركة وان نقف بهذا الخصوص قليلاً ازاء خصائص الموقف السياسي الحالي وتطوراته المتوقعة خلال الفترة القادمة.

كل هذا يرتبط بما سبق وذكرناه من ان الاعلام هو احد ادوات تنفيذ السياسة الخارجية بحيث لا ينفصل عنها ولا يتجزا ويستقل عن الخطة العامة المتعلقة بالحركة والتي يجب بدورها ان تنبع من تحليل الموقف السياسي الذي منه تنطلق تلك الحركة وبه تتفاعل ومن خلاله تتلاعب بقصد تحقيق اهدافها المباشرة او غير المباشرة.

بهذا المعنى نتناول:

(ا) مبادىء عملية المواجهة.

(ب) طبيعة وابعاد عملية المواجهة.

(ج) خصائص الموقف السياسي الحالي وتطوراته المتوقعة.

٩٩ـ مبادىء عملية المواجهة

ليس هذا الموضع المناسب للدراسة الكلية الشاملة للمبادىء التي يجب ان تقوم عليها عملية المواجهة للخطر الاسرائيلي.

---

(٢) انظر محاولة اخرى قبل حوادث عام ١٩٧٣ في حامد ربيع، ابحاث في نظرية الاتصال ١٩٧٣، ص ٦٤ ومابعدها.

(٣) قارن حامد ربيع، البترول العربي واستراتيجية تحرير الارض المحتلة. م. س. ذ.، ص ٣٣٤ ومابعدها.

(٤) قارن التساؤلات التي يثيرها هورفيتس في بحثه الذي نوقش في جامعة تل ابيب في نطاق الدراسة الجماعية التي خصصت لتحليل السياسة السوفياتية في منطقة الشرق الاوسط خلال شهر ديسمبر ١٩٧١:
HUREWITZ, Superpower rivalry and the Arab-Israeli dispute:involvement or commitment;, in CONFINO, SHAMIR, The U. S. S. R. and the Middle-East, 1973. P. 155.

(٥) تساؤلات عديدة تثيرها هذه الملاحظة. احداها ونسوقها دون التعليق عليها: ترى هل احد اهداف اسرائيل المرتبطة بالمرحلة الحالية هي ان تقود الى منطقة الشرق الاوسط ارادتان تتعاونان في تحقيق اهداف مؤقتة؟ ان التقاليد المرتبطة بهذه الناحية ليست جديدة. ففرنسا ظلت تقف من بريطانيا موقف المترقب ودون ان تسمح لها بالتدخل المنفرد او على الاقل دون ان تتخلى عن منازعتها في الحق في مثل هذا التدخل حتى الاتفاق الودي في اوائل القرن الحالي والذي منه انطلقت فكرة تقسيم المنطقة الى مناطق النفوذ. التلاعب من خلال ارادتين كان بدوره احد خصائص السياسة الخارجية الاسرائيلية. في عام ١٩٥٦ انتهى بالحملة المعروفة. والتساؤل الذي نطرحه: هل تحاول اسرائيل الان ان تعيد القصة في وضع اخر اكثر اتفاقا مع الاطار الدولي العام؟ ان هذا الافتراض لو صح يحقق اهدافا بعيدة غير واضحة لاول وهلة ولكن القدرة على التصور والخيال تفرض علينا ان نثير هذه التساؤلات فهي اولا تمنع المنطقة من ان تقع تحت حكم ارادة واحدة اكبر منها بل هي تستطيع بهذا الشكل ان تخلق صراعا دائما يفرض على كلتا الارادتين بان تقوم بتحييد الاخرى. ومن جانب اخر تستطيع بهذا الشكل ان تصير بدورها متحدثا باسم المنطقة بحيث تخلق حلقة الاتصال ولو المؤقتة بين كلتا الارادتين. وهي من خلال هذا التعانق الدولي تؤكد ان مشكلتها الحقيقة وهي المشكلة الداخلية المتعلقة بالبنيان الاقتصادي والاجتماعي ومايرتبط بذلك من ابعاد سياسية تصير بدورها الخلفية المباشرة لحركتها الدولية. مشكلة الهجرة التي قد تبدو لاول وهلة بعيدة الاهمية والتي لابد وان تسعى السياسة الاسرائيلية الى احاطتها بالغبار لمنع الرؤية الحقيقية مرة اخرى تعود لتبرز من خلال التحليل الديالكتيكي للسياسة الخارجية للدولة العبرية في ابعادها المرحلية انظر ايضا:

الاجابة على التساؤلات المرتبطة بهذه الناحية في حاجة الى دراسة مستقلة ولكن وقد سبق وابرزنا كيف.ان العمل الاعلامي يكون احد ادوات الحركة يجب علينا ان نبدأ فنحدد التصور العام لحقيقة تلك المواجهة من حيث المبادىء التي يجب ان تتحكم في الحركة . والواقع ان هذه العملية ضرورية لاكثر من سبب واحد وبصفة خاصة لان اغلب قادة الامة العربية لا يزالون على قدر معين من عدم الفهم الكلي والحقيقي لعملية المواجهة. سوف نرى فيها بعد ان احدى الحقائق الاولية المرتبطة بتحركنا السياسي هي ضرورة فهم حقيقة اللعبة الاسرائيلية، واحد مظاهر عدم فهم تلك الحقيقة هو التصور الجزئي وغير الكامل لطبيعة عملية المواجهة العربية للخطر الصهيوني فلنحدد بايجاز المبادىء والاسس التي تقوم عليها تلك العملية حتى نستطيع أن نفهم ابعاد عملية التخطيط للمواجهة العربية في نطاقها الاعلامي.

نستطيع ان نجمل تلك المبادىء على الاقل في خمسة اسس مطلقة يجب ان تتكامل وان تكون اساساً مترابطاً لأي مواجهة أو محاولة ولو جزئية للمواجهة العربية خلال المرحلة القادمة.

KOCHAN, Les juifs en tnion sovietique depuis 1971. 1971. P. 433.

(٦) كثر الحديث في الفترة الاخيرة من نجاح الاعلام العربي في العالم الافريقي بصفة خاصة وفي العالم الثالث بصفة عامة وهذا الحديث في الواقع يثير العديد من التساؤلات.فمن جانب عزل اسرائيل في افريقيا لايجوز ان ننظر اليه على انه نتيجة لتحرك الاعلام العربي لان القوى المسيطرة على الحركة في تلك المنطقة لم تعرف بعد الرأي العام كأحد عناصر الضغط السياسي. ومن ثم يجب ان يوصف اذا كان لذلك موضع بأنه تحرك دبلوماسي اكثر منه اعلامي بل ويمكن القول دون مبالغة انه فقط نتيجة لحركة دبلوماسية ذكية واسعة المدى. وهنا يجب ان نلاحظ ان هذه العملية في حاجة الى تعميق وان عملية العزل الدبلوماسي يجب ان تتصف بصفة الاستمرارية والثبات. عملية تعميق العزل تعني خلق قنوات المصلحة والارتباط الاقتصادي ولكن بتخطيط واضح ومحدد وهنا يبرز دور البترول العربي الذي لم تقدر له بعد الدراسة الكافية والذي كان من الممكن ان يكون اساسا لدبلوماسية واسعة النطاق تتجه الى دول العالم الثالث وقد حدثتنا بعض الانباء الاخيرة عن محاولات جادة بخصوص انشاء بنك عربي للتنمية في افريقيا. ومثل هذا المشروع يجب ان يكون بدوره احد قنوات ذلك الارتباط. انظر شؤون فلسطينية، نوفمبر ١٩٧٣، ٢٧ ص ١٠٣ ومابعدها.

(٧) امريكا اللاتينية يجب بدورها ان تحظى من جانبنا باهتمام خاص وذلك اساسه انها تمثل لا فقط وزنا كميا معينا بالنسبة للمستقبل ولكن ايضا لانها تأتي في المرتبة الثانية مباشرة لروسيا من حيث النظرة الاسرائيلية بخصوص تجميع اليهود في الارض الموعودة. والواقع ان جميع معلوماتنا عن اليهود في امريكا اللاتينية محدودة ومجهلة وهي قطعا لاتعبر عن الحقيقة. الملحوظة التي سقناها في التحليل تدور حول التساؤل التالي: هل منطق التعاطف مع دول العالم الثالث منطلق واضح لعملية الجذب مع دول امريكا اللاتينية وقد كان من الطبيعي ان ننتظر تأييدا مكثفا للقضية العربية سواء لان هذه الدول المتخلفة ترتبط بخصائص تلك الحركة الكلية الشاملة التي نطلق عليها دول عدم الانحياز وسواء لان العداوة التي فرضت نفسها على العالم العربي كنتيجة للتحيز الامريكي مع اسرائيل كان يجب ان تخلق التقارب مع الطبقات المحكومة على الاقل في دول امريكا اللاتينية حيث العداوة المشتركة تجمع في التقارب الحركي؟ على العكس من ذلك فان جميع الدلالات كانت تفرض على اسبانيا تباعدا عن القضية العربية: فعقدة الذنب التقليدية التي تستغلها اسرائيل قابلة لان تكون قذيفة دعائية ايضا في المجتمع الاسباني وعلى وجه التحديد في مواجهة الطبقة الحاكمة. والنظام الاسباني يعكس مفهوما عسكريا وعنصريا يصلح منطلقا للتقارب الفكري مع النظام السياسي الاسرائيلي. والمصالح الاسبانية تتعارض في بعض المناطق العربية وعلى وجه الخصوص في شمال افريقيا مع المصالح العربية. الذي حدث هو عكس ماكان يجب ان نتوقع: دول امريكا اللاتينية تقف منا موقف العداوة او على الاقل ترفض التأييد واسبانيا تقف من القضية العربية موقف الدفاع ولو الى حد معين. ان الذي حدث هو ان قوى الجذب في امريكا اللاتينية لم تصادف اي محاولة من جانب السياسة العربية لتعميقها والاستفادة منها. وكانت النتيجة سلبية في طبقات وشرائح الرأي العام في تلك المنطقة اما في اسبانيا فان عملية التقارب لم تكن الا نتيجة ارتباطها بغرب اوروبا واتجاهها المعاصر لتخطيط سياستها على خطى ووقع السياسة الاوربية. عامل المصلحة هو الذي تحكم في تغليب عوامل الجذب مع ملاحظة ان اختفاء الدعاية الاسرائيلية في تلك المنطقة سهل ذلك.التقارب بدوره لم يخضع لاي جهد اعلامي واضح.

تساؤل اخر في حاجة الى دراسة: اليسار وموقفه من الصراع ونتائج ذلك على موقف اليمين بصفة عامة وفي المجتمعات الاوروبية بصفة خاصة بما في ذلك المجتمع الاسباني وخصائصه بهذا الخصوص واضحة ليست في حاجة الى تحليل:

GIVET, La gauche contre Israel;, 1968, P. 44.

اولاً: عزل اسرائيل دولياً.
ثانياً: شل القوى الصهيونية في داخل المجتمع الامريكي.
ثالثاً: تفتيت اسرائيل من الداخل.
رابعاً: توحيد القوى العربية في عملية المواجهة.
خامساً: استخدام جميع اساليب الصراع الدولي بديالكتيكية معينة.

(أ) المبدأ الاول اساسه يعود الى نفس السياسة الصهيونية فالصهيونية منذ بدايتها جعلت محور نشاطها وتأكيد وجودها هو الارتباط بالقوى الدولية المسيطرة. قبل الحرب العالمية الاولى والى حد معين حتى الحرب العالمية الثانية كان محور الارتباط الصهيوني هو السياسة البريطانية والى حد ما السياسة الفرنسية. عقب ذلك اتجهت الى القوى الجديدة، القوى الشيوعية اليسارية من جانب والقوى الرأسمالية الامريكية من جانب اخر، واذا كانت قد تخلت في لحظة من اللحظات عن الاولى فلم يكن ذلك الانتيجة لديكالكتيكية التحرك التي لم تمنعها من ان تسعى دائماً الى مخاطبة كلا الجانبين.اول ما يجب ان نسعى الى تحقيقه هو ان نحطم هذه الأستراتيجية من خلال عزل اسرائيل دولياً. والظروف عقب ١٩٦٧ اضحت مهيأة وانتصارات اكتوبر عام ١٩٧٣ دفعت بالموقف الدولي دفعة حاسمة نحو نضج هذه الظروف وعلينا استغلال ذلك الموقف بجميع وسائله.

احدى هذه الوسائل عزل اسرائيل عن العالم الغربي وبصفة خاصة من خلال خلق المنفعة الاقتصادية بل وخلق علاقات الارتباط والتبعية الاقتصادية ولا بد ان يساعد على ذلك تحقيق عملية الفصل الواضحة بين شرعية الصفة العبرية للتواجد الاسرائيلي والقضية الانسانية المتعلقة بالاضطهاد التقليدي ضد الوجود اليهودي.

كذلك علينا ان نتذكر ان دول العالم الثالث اضحت تقف من اسرائيل موقف العداوة أو على الاقل موقف السلبية المطلقة مع خلاف في درجات تلك السلبية ونستطيع بهذا الخصوص ان نميز في دول العالم الثالث بين مجموعات ثلاث:

دول العالم الثالث غير الشرقية أي بصفة خاصة دول امريكا اللاتينية ثم دول العالم الثالث الشرقية غير الاسلامية ويندرج تحت هذه الفئة الصين وجزء كبير من دول افريقيا السوداء الى جانب الهند ثم دول العالم الثالث الأسلامية. واذا كنا سوف نعود الى هذه الأخيرة في مواضع اخرى فأن الامر الواضح هو ان نجاحنا بالنسبة لدول العالم الثالث الشرقية غير الاسلامية يقابله اخفاق بالنسبة لدول العالم الثالث غير الشرقية ولعله من الامور التي تدعو الى الدهشة انه في نفس اللحظة التي نجد فيها اسبانيا تقف منا موقف التأييد فأن دول امريكا اللاتينية التي تخضع الى حد كبير الى رابطة التبعية الحضارية لاسبانيا تقف منا في بعض الاحيان موقف العداوة وهذا لا يمكن ان نرجعه الا لعدم الاهتمام من جانب مخططي السياسة العربية.

(ب) المبدأ الثاني وهو المرتبط بشل القوى الصهيونية في داخل المجتمع الامريكي. لقد ظللنا حتى هذه اللحظة وتصورنا لطبيعة العلاقة بين المجتمع الاسرائيلي والمجتمع الامريكي غير واضح. ان هذه العلاقة ليست مجرد تحالف حركي في النطاق الدولي. انها أكثر من ذلك واقل من ذلك: ان حقيقتها هي وجود قوى داخلية تمثلها اقلية معينة على قسط معين من القدرة والتنظيم والصلاحية تستطيع ان تصل الى مراكز صنع القرار بفاعلية معينة بحيث تمنع أي قوى اخرى مخالفة من ان تؤثر تأثيراً عكسياً في تلك المراكز(٨). ومن ثم

---

(٨) انظر التحليل الذي يقدمه الكاتب الصهيوني:
SILVFRBERG, If I forget thec O Jerusalem, 1972. P. 515.

فأن حركتنا ازاء المجتمع الامريكي يجب ان تنبع من الداخل والا تقتصر على عملية التفاعل السياسي الخارجي في مفاهيمه التقليدية ومعنى ذلك:

١ـ ان تمثيلنا وعلاقاتنا الدبلوماسية مع المجتمع الامريكي لا يجوز ان تكون الاساس الوحيد لعملية التلاعب بالقوى السياسية الامريكية. بطبيعة الحال يجب ان نسلم بأن قطع العلاقات الدبلوماسية هو تصرف خاطىء في تنظيم حركتنا السياسية في عملية المواجهة ولكن يجب ان نفهم تلك العلاقة الدبلوماسية بمعنى أكثر اتساعاً واكثر تعقيداً. ان دبلوماسيتنا في المجتمع الامريكي يجب ان تعيد الى الذهن صورة الدبلوماسية السوفياتية في اعقاب الحرب الباردة عام ١٩٤٨. دبلوماسية استفزازية مكافحة مغامرة عنيدة لا تتردد في الصوت المرتفع[٩].

٢ـ كذلك هذه الدبلوماسية لا تكفي بل يجب ان تكون هناك حركة خارجية دائمة ولكن مستقلة عن العمل الدبلوماسي تتجه الى خلق قوى محلية ان لم تكن متعاطفة مع القضية العربية فعلى الاقل مناوئة للقوى اليهودية الامريكية بحيث تسمح بشل تلك القوى في المجتمع الامريكي. واساليب ذلك عديدة، فالمجتمع الامريكي مجتمع أقليات وهو بطبيعته مجتمع متفتت فضلاً عن انه مجتمع مفتوح ومن ثم يسمح بتلك الحركة ونستطيع على سبيل المثال أن نتذكر مواطن الضعف التالية: تشجيع الاقلية السوداء وبصفة خاصة شطرها المسلم، تكتيل الاقلية ذات الاصل العربي التي استطاعت ان تتجنس بالجنسية الامريكية ومن ثم ان تكتسب جميع الحقوق السياسية. تكتيل القوى العربية الاخرى التي رغم عدم حصولها على الجنسية الامريكية الا انها بدورها تستطيع ان تكون ذات فاعلية معينة. ولنتذكر على سبيل المثال ان مجموع الاساتذة العرب الذين ينتمون الى الجامعات الامريكية اليوم يزيدون عن الالف ومن بينهم ما لا يقل عن الثلاثمائة الذين حصلوا على الجنسية الامريكية ويستطيعون ان يكونوا قوة لها وزنها في نطاق التعامل الداخلي.

٣ـ كذلك يجب ان يصاحب تلك الحركة الخارجية في تعانقها مع القوى الداخلية تشجيع لحركة اخرى داخلية اساسها شل فاعلية القوى الصهيونية في المجتمع الامريكي كقوة سياسية[١٠]. فالثابت ان اليهودي الامريكي

---

(٩) انظر حامد ربيع، نظرية الدعاية الخارجية، م. س. ذ.، ص ٥٧ ومابعدها.

(١٠) منطق العمل السياسي من داخل المجتمع الامريكي اساسه محاولة مزدوجة: من جانب شل القوى الصهيونية في التأثير على مراكز اتخاذ القرار ومن جانب اخر خلق قوى ايجابية داخلية تنبع من واقع المجتمع الامريكي ومتعاطفة مع القضية العربية. بعبارة اخرى من جانب ايقاف المد الصهيوني الداخلي ومن جانب اخر خلق تيار مستقل يعكس ويؤيد المصالح العربية. الناحية الاولى نستطيع ان نصل اليها باكثر من اسلوب واحد: تشجيع الاقلية السوداء لابد وان يقود الى تحقيق عملية شل او تهذيب او تحزيم للاقلية الصهيونية او على الاقل منع لنفوذها من الانتشار. اثارة المشكلة الصهيونية في خطاب مباشر مع المجتمع الامريكي غير اليهودي وابراز لنواحي الخسارة التي تحملها ذلك المجتمع لابد وان يؤدي الى خلق فرقة او نقص في التأييد الكلي والشامل والذي يمثل السطح العام المريض المؤيد للقضية الصهيونية. الهجوم النفسي على الصهيونية الامريكية بتعميق فكرة القومية اليهودية الامريكية مع تحطيم الروابط الايديولوجية بين اليهودي الامريكي والصهيونية الاسرائيلية يمثل الخطوة التالية في عملية اضعاف المد الصهيوني في المجتمع الامريكي. يقابل ذلك خلق قوى ايجابية تمثل تيارا مستمرا ينبع من داخل المجتمع الامريكي في تأييد القضية العربية وهنا نستطيع من خلال الدراسة العلمية والميدانية العميقة للنموذج الصهيوني في عملية توجيه الدعوة والدعاية في خلال الفترة اللاحقة للحرب العالمية الثانية ان نكون لنا اطارا صالحا عقب تعديله بما يتفق مع الظروف الحالية والتطور خضع له المجتمع الامريكي وطبيعة القضية العربية يكون اساسا لعملية تعامل مع القوى السياسية المحلية في ذلك المجتمع. هنا ايضا المسالك عديدة في تنظيم العرب ذوي الجنسية الامريكية في اطار حركي واحد يخضع لقيادة محلية واعية. تكتيل العرب الذين لم يقدر لهم بعد الحصول على الجنسية الامريكية في اعداد جماهيري يسمح لهم بأن يكونوا موجة واحدة تقود الى خلق حالة معينة من حالات الذعر لتدعيم الحركة العربية. التنظيم الحقيقي لعملية الاتصال مباشرة من جانبين اعطاء واستقبالا. ليست الا بعض المسالك القابلة للتطبيق والتي بدورها في حاجة الى دراسة. انظر دراسة في تفصيلية لذلك النموذج مؤلفنا عن الدعاية والدعوة في تقاليد الحركة الصهيونية والذي يستطيع القارىء ان يجد بعض الايضاحات بخصوصه في حامد ربيع، دراسات اساسية حول الصهيونية واسرائيل م. س. ذ.، ص ٢٧ ومابعدها.

اليوم يقف موقف التردد وفي اعقاب عام ١٩٧٣ زادت ابعاد هذه البلبلة دون ان تجد مسالك لتقويتها بل على العكس استطاعت القوى الصهيونية ان تسرع بشل فاعلية تلك الاوضاع النفسية. فالامريكي غير اليهودي يتساءل عن ذلك الانفاق الضخم في الخارج الذي كان من الممكن ان يوجه لحل مشاكله الداخلية بما في ذلك مشكلة الفقر والجريمة وما ارتبط بهما من ظواهر عديدة للعنف والدعارة والامريكي اليهودي لا يستطيع ان يمنع نفسه من ان يفرض تساؤلات اخرى ازاء مطالبة اسرائيل بالهجرة بل وبالولاء المطلق وقد ترددت اصداء لذلك غير واضحة وضعيفة خافتة كان من الممكن تشجيعها وتقويتها. احداها نظرية «قومية اليهود في المهجر» التي اساسها ان اليهودي كالكاثوليكي يعبر عن قوميات متعددة بقدر انتماءاته السياسية وانه تبعاً لذلك يمكن تصور القومية اليهودية الامريكية فضلاً عن القومية اليهودية الفرنسية على سبيل المثال[11]. هذه النظرية سرعان ما اختفت لانها لا تستطيع ان تقاوم فيضان الدعاية الاسرائيلية. صوت آخر ارتفع هذه الايام يتحدث عن انشاء بنك للتنمية في منطقة الشرق الاوسط يتلقى المساعدات المقدمة لاسرائيل والتي تستخدم في تسليحها عسكرياً ويتساءل ايهما اكثر نفعاً للمنطقة عملية تسليح اسرائيل ام القضاء على الفقر في كل اجزاء هذه المنطقة؟ هذه الاصوات الضعيفة يجب استغلالها لانها سوف تسمح بخلق قوى معينة لا تكتفي بان تفصل قضية شرعية التواجد الصهيوني ودعوى الحماية للوجود اليهودي وبأن تخلق قوى مستقلة عن الحركة الصهيونية تسمح بابراز عدم الاتفاق الحركي لدواعي الامن الامريكي والسياسة الخارجية الاسرائيلية.عندما اعلن نيكسون عن تخصيص مبلغ بليارين وربع تقريباً من الدولارات لمساعدة اسرائيل خلال الايام الاولى لمعركة اكتوبر كان السؤال الذي يتردد على لسان كل امريكي غير يهودي دون ان يجرؤ على الافصاح عنه هو هذا الاستفهام؛ ما هو اثر ذلك الاتفاق على تضخم الاسعار واضطراب الحياة الاقتصادية في المجتمع الامريكي خلال الاعوام القادمة؟

والخلاصة اننا يجب ان نشن حرباً نفسية وسياسية من داخل المجتمع الامريكي[12] لا فقط بقصد تفتيت الارادة الامريكية في سياستها الخارجية بل بقصد شل القوى الصهيونية في قدرتها على توجيه مسارات عملية صنع القرار السياسي في المجتمع الامريكي: تحييد القوى الصهيونية، تقوية النزعة القومية لليهودية الامريكية، خلق المصالح الامريكية المتعارضة مع المصالح الاسرائيلية، خلق لغة المصالح الامريكية المرتبطة بالمصالح العربية ليست الا مقدمة ومن الممكن في مرحلة لاحقة ان نلجأ الى سياسة تعيد الى الذهن سياسة الجزائر في فرنسا قبل وصول ديجول الى الحكم والتي اساسها نقل المعركة بجميع ادوات العنف الفردي الى داخل المجتمع الفرنسي. عمليات التخريب والاختطاف وخلق الفوضى وبذر الفتنة بجميع أدواتها قابلة لان تطبق في المجتمع الامريكي وعلى نطاق واسع.

(ج) مبدأ اخر يجب ان يسيطر على حركتنا السياسية وهو السعي نحو تفتيت المجتمع الصهيوني من الداخل. من المبادىء المعروفة في نطاق الحركة السياسية الخارجية انه بقدر اضعاف الارادة المعادية يستطيع رجل الدولة في تعامله الخارجي ان يخضع تلك الارادة وان يجعلها اكثر انصياعاً لمطالبه والحركة السياسية العربية حتى هذه اللحظة تصورت ولا تزال تتصور ان صراعها مع اسرائيل لا يمكن ان يأخذ سوى صورة واحدة وهي صورة الصدام في النطاق الدولي. على العكس من ذلك المجتمع الاسرائيلي مجتمع مصطنع وبه من النقائض ومواطن الضعف العديد من السلبيات التي نستطيع بسياسة ذكية ان نخلق منها بؤراً داخلية

---

(١١) قارن تطور الدعاية الاسرائيلية عقب عام ١٩٦٧ في حامد ربيع، ابحاث في نظرية الاتصال، م.س.ذ.، ص ٦١ ومابعدها.

(١٢) انظر بعض التفاصيل الجديدةبالسؤال والتي كان يجب ان تكون موضع تحليل اخر من جانب المسؤولين العرب في:
LUMER, Zionism, its role in world politics. 1973, P. 58.

قابلة للاتساع بحيث تجعل الجسد اكثر عرضة للانهيار او على الاقل للتخاذل في لحظة الصدام[13]. وليس ادل على تلك الحقيقة انه في خلال اكتوبر ١٩٧٣ ورغم الهزيمة في معركة اكتوبر الاول لم ترتفع اي قوى داخلية سواء قوى صهيونية ام عربية بأي حركة فعالة تعبيراً عن التوافق التخطيطي في عملية الصراع. كان من الممكن ان تحدث ثورات عربية في المدن المحتلة وحركات تخريب في المواصلات بل وقتال جزئي او كلي في بعض المناطق. الذي نعلمه انه لم يحدث اي رد فعل لا للقتال ولا للانتصار حتى ان جميع المعلقين الاوروبين اثاروا هذا التساؤل: هذا القتال الذي شن كامتداد للدفاع عن القضية الفلسطينية لماذا لم يعبر عنه الوجود الفلسطيني بأي شكل فعال حتى ولو كان على مستوى المقاومة المحلية؟ والاكثر من ذلك مدعاة للتساؤل ان جميع العلاقات الاقتصادية وحركات التنقل ذهاباً واياباً عبر الحدود الأردنية لم تنقطع خلال جميع ايام تلك المعركة[14].

مسالك اضعاف الارادة الاسرائيلية عديدة: فالعرب في الاراضي المحتلة بل وفي نفس اسرائيل في حدودها السابقة على حرب عام ١٩٦٧ يمثلون أقلية ضخمة تثير مخاوف نفس القادة الاسرائيليين بل والمغالين منهم في التطرف في الصهيونية. كذلك اليهود الشرقيون أي ذوي الاصل العربي والذين ينتمون الى المنطقة يمثلون بدورهم بؤراً صالحة لعمليات التسمم المعنوي. اضف الى ذلك ـ رغم انه قد يبدو لاول وهلة من المغالاة ـ قسماً ضخماً من اليهود الغربيين وبصفة خاصة أولئك الذين يمثلون الحركة العلمانية ويرفضون الصهيونية كامتداد لليهودية الدينية والذين بدورهم يمثلون شريحة لها قسط معين من الاهمية في نطاق المجتمع الاسرائيلي[15]. عملية التسلل الى داخل المجتمع الاسرائيلي ذات أبعاد عديدة تستطيع بدورها ان تحطم لا فقط من عنصر التكتل القومي حول القيادة ولكن وبصفة خاصة علاقة الولاء والتماسك التي تمثل القوة الحقيقية للجسد السياسي الاسرائيلي. هذه العملية بدورها يمكن ان تكون مقدمة لتحقيق عملية اخرى اساسها التخدير النفسي للمجتمع الاسرائيلي. بؤر للتفتيت انساب في القوى غير المتجانسة تنتهي بتخدير كامل ولو مؤقت للمجتمع الكلي بجميع عناصره وطبقاته[16].

(د) المبدأ الرابع ويدور حول ضرورة توحيد القوى العربية في عملية المواجهة. هذا المبدأ الذي كان من قبيل الخيال عام ١٩٧٣ اثبتت الحوادث الأخيرة لا فقط امكانياته بل وفعاليته. على ان عملية توحيد القوى العربية لا يجوز ان ينظر اليها على انها اتفاق حول استخدام سلاح البترول او تقبل للمشاركة في الاعباء المالية للمعركة او تنظيم لمؤتمر قمة، انها ابعد من ذلك واكثر عمقاً انها تعني توحيداً لجميع القوى وتكتيلاً لجميع المصالح وربطاً لجميع التيارات لان تخلق من هذا الجسد ارادة واحدة تنصهر في داخلها جميع الخلافات لتصير قبضة واحدة وهي تصفع او تتحرك[17].

---

(١٣) وهذا باعتراف الكثير من المحللين المتعصبين دعوة الصهيونية. انظر من بين الدراسات الجديدة بالتحليل الدعائي:
PERLMUTTER, Anatomy of political institutionalization, the case of Israel, 1970; ELAZAP, Israel, from ideological to territorial democracy, 1971; ROBNETT, Conquest through immigration, 1968.

(١٤) انظر على سبيل المثال:
LExpress, 12.11.1973, P. 12-18

(١٥) والخلاصة ان عملية التحرك في داخل المجتمع الاسرائيلي يجب ان تسير في بعدين: حرب نفسية وتتجه الى الجسد السياسي الكلي كحقيقة مترابطة اي المجتمع الصهيوني ثم توجيه معنوي في صورة دعوة بمعناها الذي سبق وحددناه وتتجه نحو المجتمع العربي الذي يقع تحت الاحتلال. ايضا هذه التفرقة تعود الى تحليل النموذج الصهيوني في المجتمع الامريكي والذي سبق واشرنا اليه. انظر حامد ربيع، دراسات اساسية، م.س.ذ، ص ٣٢ ومابعدها.

(١٦) قارن من بين الدراسات التي تثير الكثير من التساؤلات:
MERHAV, La gauche israelienne, 1973, P. 293.

(١٧) حامد ربيع، البترول العربي، م.س.ذ، ص ٣٣ ومابعدها.

وهذا يعني :
اولا : تحقيق الوحدة التدريجية الاندماجية في العالم العربي. يجب ان يقل عدد الحكومات بقدر المستطاع؛ فالسرية التي يجب أن تحاط بها قراراتنا والسرعة في عملية المواجهة والحزم في التحرك والكفاية والفاعلية في الصراع يفترض ان نضع حدا لكل هذا العدد من الرؤساء والامراء والملوك والسلاطين.
ثانياً: تمكين جميع القوى المكونة للمجتمع العربي من التجانس السياسي والانصهار في بوتقة الحركة بمعنى تغليف هذه الحركة بطابع الوحدة الوطنية وهذا يعني بعبارة اخرى شل جميع القوى غير المتجانسة او المتنافرة مع ابعاد المواجهة ومنع الاقليات المختلفة من ان تكون عناصر متنافرة مع الجسد الاسلامي في المجتمع العربي.
ثالثاً: خلق الرأي العام القوي المتعصب . في لحظات الأزمات المصيرية لا موضع للاعتدال. الاعتدال حينئذ هو جزء من الهزيمة. اضف الى ذلك ان المواجهة مع عدو متعصب لا يمكن ان تكون ذات فعالية الا من خلال قوى تشاركه نفس الخصائص ان لم تكن اكثر عنفاً في تلك الخصائص.
(هـ) اضف الى ذلك المبدأ الاخير الذي سبق ان تعرضنا له في اكثر من مناسبة والذي يكفي بخصوصه ان نثيره دون تفصيل الا وهو ضرورة استخدام جميع اساليب الصراع الدولي[18]. فالقتال العسكري والحركة الدبلوماسية يجب ان ترتبط بهما عملية غزو اعلامي بجميع ابعادها وهذا يقودنا الى ضرورة تحديد موضع الاعلام من هذه المواجهة.

١٠٠ـ خصائص الموقف السياسي وتطوراته المتوقعة

تحليل طبيعة المرحلة التي نعيشها والتي تتمركز حول حوادث اكتوبر من عام ١٩٧٣ يجب ان تمثل المنطلق الاساسي لتحديد ابعاد العمل الاعلامي في المرحلة القادمة . الدعاية هي الوجه الاخر للعمل السياسي. والامر الذي لا شك فيه ان العالم العربي ابتداء من عام ١٩٦٧ اجتاز عدة مراحل نستطيع ان نميز فيها بين مراحل ثلاث كل منها لها خصائص واضحة. الاولى قبل مبادرة روجرز: مرحلة تمتاز بالهزيمة والصلابة. والثانية عقب مبادرة روجرز يسودها الضعف على المستوى العربي والدولي والمحلي. والثالثة عقب حرب اكتوبر الاولى التي تعيدنا الى مواقف الصلابة السابقة دون الهزيمة وتفرض على الموقف السياسي في المنطقة ابعادا معينة[19].
(أ) ما هي خصائص الموقف السياسي الحالي؟
نستطيع ان نركزها حول متغيرات ثلاث :

اولا:قتال في اكتوبر عام ١٩٧٣ انتهى بنتائج معينة:

هذا القتال حرك المنطقة وكان بمثابة القاء حجر ضخم في بركة راكدة.
نتائج القتال واضحة :

---

(١٨) انظر فيما سبق ص ٩٧ ومابعدها.
(١٩) انظر حامد ربيع، ابحاث في نظرية الاتصال، م.س.ذ. ، ص ٧٥ ومابعدها.

١ـ قدرة على المواجهة مع ما تعنية من ثقة في الذات العربية.
٢ـ ولكن هذه القدرة مقيدة ومحدودة: مساعدة روسية من جانب وعدم تواطؤ امريكي من جانب اخر[٢٠].
٣ـ قتال استطاع ان يبرز ايجابيات القومية العربية وان كان لم يحقق النصر الكامل ولم يسمح لتلك القوة بأن تقضي على الخصم وان تضع حدا لسلبيات الموقف الا انه لم ينته بالهزيمة.
٤ـ مواجهة لم تستطع نتائجها في الاطار العام للحركة السياسية العربية ان ترتفع الى تلك الصلابة التي حققها النجاح العسكري السوري والمصري في معارك اكتوبر الاولى ولم تستطع ان تعبر عن ذلك التجانس المترابط بين ادوات السياسة الخارجية مع تقوية صلابة الصراع الجسدي من خلال التحرك الدبلوماسي بصلابة مماثلة خاصة في النطاق الاوروبي والعمل الاعلامي بتضخيم واضح للنجاح العربي[٢١]. التكتل العربي ازاء استخدام البترول كان من الممكن ان يكون منطلقاً دبلوماسياً اخر الى جوار النصر العسكري الاول يسمح بتدعيم المواقف دون ابتذال ولو من خلال المنطلق الاستفزازي مع حبكة معينة اساسها التقدم دون مبالغة والتراجع بحساب.

هذه النتائج تمثل الانطباع المتداول لدى الرأي العام الخارجي. وظيفة الاعلام يجب ان يتجه الى معالجة هذه النتائج في شقين: استغلال نقط القوة والتمويه والتغطية على نقط الضعف واي من هذه النتائج تملك من نواحي القوة الكثير كما تملك من نواحي الضعف الكثير.

ثانياً: تقبل شرعية التواجد الاسرائيلي:

مما لا شك فيه ان صانع القرار السياسي على المستوى المحلي او العربي هو صاحب الحق في ان يقول كلمته الاخيرة بهذا الخصوص والخلفيات لا نعرفها وليس من حقنا الا ان نثق في قيادتنا وسوف يقول التاريخ كلمته في النهاية. ولكن الامر الذي لا شك فيه ان المجتمع اليهودي لاول مرة في تاريخه الطويل سوف يجد في ثنايا احداث عام ٩٧٣ تقاليد دولية اساسها الاعتراف الصريح من جانب الدبلوماسية العربية بشرعية التصور الصهيوني للوجود اليهودي. هذه العملية لا بد وان تكون لها اثار عنيفة بالنسبة للرأي العام الخارجي. ومن ثم فعلى مخطط الاعلام ان يتساءل: كيف يخفف من الاثار الدعائية لهذا الفشل الدبلوماسي بغض النظر عن ضرورته: انه واقعة وعلى المخطط الدعائي ان يغلفها بما يمنع من تقوية نتائجها. مهمة صعبة ولكنها ممكنة

---

(٢٠) نقصد بذلك عدم اتخاذ السياسة الخارجية الامريكية القرار بالمساندة الكاملة لاسرائيل بحيث لاتسمح للجيش الاسرائيلي باي هزيمة على مستوى معين يهدد التفوق العسكري للجيش العبري وانظر:
BONJEAU, Israel: Nixon tiens tes promesses, in Le pont, 5.11.1973.

(٢١) لاحظ المعلقون الغربيون وبصفة خاصة في المجلات المتخصصة الفرنسية والايطالية ان التحرك الدبلوماسي المصري قبل المعركة كان اقوى منه عقب المعركة. وهذه حقيقة يجب ان نسلم بها. هل كان ذلك بقصد اعادة التوازن وطبقا لتحرك مقصود دائم ام انه على العكس كان يعكس اختلالا حركيا بين ادوات السياسة الخارجية؟ سؤال الايام القادمة سوف تجيب عليه. ولكن الملاحظة الواضحة حتى الان هي ترجيح الاحتمال الثاني بدلالة الاخفاق الكلي والشامل للاعلام العربي الذي كان يعني ان عملية تنظيم التعامل من حيث الادوات الثلاث لم تكن موضع الاهتمام الكافي. ولعله مما يؤكد هذه الملاحظة الزيارة التي قام بها وزير البترول السعودي برفقة وزير البترول الجزائري لهولندا بقصد الحصول على تصريح واضح في تأييد القضية العربية وانتهاء تلك الزيارة لا بالفشل بل وبالاعلان الاعلامي عن ذلك الفشل الذي تردد صداه في جميع الصحف المحلية وغير المحلية. ايضا هذا يعكس عدم فهم واضح لحقيقة التحرك الدبلوماسي: لقد كان يجب ان يسبق تلك الزيارة اتصال على مستوى العلاقات الشخصية وتأكيد لمدى امكانيات التقابل والتعانق بين وجهات النظر. ان الملاحظة العامة التي يجب ان نسلم بها ان تنظيم التعامل الدبلوماسي وتنسيق العلاقة بين العمل الدبلوماسي والادوات الاخرى لايزال في حاجة الى الكثير من التطوير في العالم العربي.
قارن على سبيل المثال الحديث الذي نشرته جريدة الجيروزاليم بوست منذ عام ١٩٦٩ لابا ايبان عن اساليب التعامل الخارجي:
EBAN. How to make friends and remain realistic, in The Jerusaelem Post Magazine, 27.6.1969.

وليست في حاجة الى الكثير من الجهد فالاطار المعاصر للاعلام ويحكم استقلال بعض ادواته عن الجهاز الحكومي يسمح بذلك[22] وتصير احدى مهام جامعة الدول العربية ان تكون جوقة من الخبراء والمتخصصين تكون وظيفتها اغراق العالم الاوروبي والامريكي بما يشكك في شرعية الوجود الاسرائيلي بجميع ابعاده وعلى جميع مستويات الرأي العام الخارجي. عليها ان تنقل التشكيك الى كل مواطن وكل قارىء وكل مسؤول اجنبي. وهكذا تعيد هذا التوازن الذي اختل بموقف العرب الحالي بتخليهم عن المبادىء التقليدية او على الاقل تخفف من حدة هذا الاختلال[23].

ثالثاً: التخاطب المباشر مع السياسة الامريكية:

واقعة بدورها جديدة تميز الواقع الحالي ولا بد وان تبدو امام الرأي العام الخارجي على انها مظهر من مظاهر الضعف وعلامة من علامات الاستكانة ازاء سلطة اعلنت ولا تزال تعلن ازاء الاسرة الدولية عن تبنيها للمطالب الصهيونية. هذا بدوره يجب ان يخضع لعملية مماثلة للعنصر السابق تسمح بابراز كيف ان هذا التخاطب المباشر ان هو الا علامة من علامات القوة ومظهر من مظاهر التغيير في التكتيك دون الاستراتيجية.

(ب) هذه الوقائع السابقة التي تميز مظاهر الواقع السياسي الحالي[24] تبرز واضحة من حيث دلالتها لو قارنا هذا الموقف بما كان عليه الموقف العربي خلال الفترة التي سبق وحددناها ابتداء من مبادرة روجرز حتى معارك اكتوبر. الامر الذي لا شك فيه ان مصر والعالم العربي ابتداء من تلك المبادرة دخلت مرحلة تتسم بالضعف. ليس هدفنا تقييم هذه المبادرة. ولكن الذي يعنينا ان نعالج آثار قبول هذه المبادرة ونتائجها من حيث تطور الرأي العام وكيف كان يجب العمل على تقوية جسور الرأي العام وتقوية موافقة بالتخلص من هذه النتائج السلبية . الامر الذي لم يحدث والذي كان يجب ان يؤدي الى هذا الضعف العام في موقف مصر

---

(٢٢) ان الاعتراف بالشرعية بعبارة اخرى من الممكن ان يكون خطوة دبلوماسية وسوف نترك جانبا تقييم تلك الخطوة من الوجهة الدبلوماسية البحتة فليس هذا هو موضع هذه الدراسة. وكما سبق وذكرنا بصراحة ووضوح انه من الممكن ان يكون هذا الاعتراف نتيجة لخلفيات لانعلم بها ولكنه دائما يندرج في اطار ديالكتيكية التحرك السياسي العام. الامر الذي يجب ان نسلم به هو ان الاعتراف لايمكن ان يؤدي الا لنتائج خطيرة من ناحية التخاطب الدعائي والاعلامي في النطاق الخارجي. فهو من جانب يقلب التقاليد العربية ويفرض التساؤلات حول جميع تلك التقاليد من حيث تأسيسها على منطق واضح متكامل. وهو من جانب اخر يخلق الاختلال في نفس ابعاد الحركة السياسية الخارجية بالنسبة للمستقبل. التحرك الاعلامي بالمعنى المكسي يحقق هدفين مزدوجين: يقدم تلك السياسة الدبلوماسية على انها رسمية غير شعبية الامر الذي يفتح بابا في المستقبل للتخلص منها او للتضييق من نتائجها. بل ولو نظم بطريقة علمية ومخططة فانه يستطيع انه يقوي المتفاوض العربي في مواجهة الارادة الاسرائيلية في اكراه هذه الاخيرة على قسط معين من التنازلات ولعل التذكير ببعض الوقائع المرتبطة بخلق حركات الرأي العام المصطنعة في بعض البلاد الاوروبية والشيوعية في حاجة الى دراسة من جانب المسؤولين لدينا عن عملية تخطيط التحرك السياسي الخارجي. ثم هو من جانب اخر يسمح بخلق تلك الزوبعة او ذلك الغبار الذي يمنع الرأي العام الخارجي من ان يتقبل منطق ذلك الاعتراف بجميع ابعاده. انظر

SHAMIR, The myth of Arab intransigence, in AVINERI, Israel an the palestinians, 1971. P. 22.

(٢٣) ولعل متابعة تقاليد السياسة البريطانية بهذا الخصوص جديرة بان تفتح الباب لاكثر من دلالة واحدة وان تقدم الكثير من الخبرات بخصوص ذلك الغموض الذي يسمح بجميع التفسيرات المقبلة المتوقعة وغير المتوقعة. انها تعودت ان تخطط سياستها الخارجية في تحركها وتنفيذها على انها تمثل عباءة فضفاضة يستطيع اي سياسي ان يلبسها بحيث ان تعبر عن الموقف دون ان يغير من هيكلها ومقوماتها. انظر بخصوص تلك التقاليد في نطاق علاقة بريطانيا العظمى بوحدة غرب اوروبا مؤلف:

KITZINGER, Diplomacy and persuation, 1973, P. 105, 352.

(٢٤) في اعقاب اكتوبر ١٩٧٣ حدثت اكثر من محاولة لاعادة تقييم الجهد الاعلامي والدعائي العربي في مواجهة الصراع

الاسرائيلي. وقد اثار هذا من جانب بعض الكتاب التساؤل: هل النصر الدعائي الاسرائيلي في عام ١٩٦٧ كان اهم من الانتصار العسكري؟ بل حاول البعض في هذا الخصوص ان يضع مؤلفنا عن فلسفة الدعاية الاسرائيلية في موضع الدفاع عن وجهة النظر التي توحي بان النصر الدعائي الاسرائيلي كان اهم من النصر العسكري، انظر على سبيل المثال مجلة شؤون فلسطينية، نوفمبر ١٩٧٣، ٣٧ ص ١٩٣. والذي يعنينا بهذا الخصوص هو ان نوضح بعض الابعاد التي لم يستطع هؤلاء ان يضعوها موضعها الصحيح من التحليل.

اولاً ـ فأول مايجب ان نلاحظه ان المناقشة في ذاتها تعكس سطحية في التحليل وعدم عمق في القدرة على الالمام بابعاد المشكلة. ان السؤال في ذاته يعكس مشكلة غير قائمة ولا موضع لاثارتها. القول بان النصر الدعائي كان اهم من النصر العسكري اوعكسه يعكس عدم قدرة على الفهم الحقيقي لظاهرة النصر او الهزيمة فالنصر او الهزيمة حقيقة كلية. وفي هذا التحليل الذي نقدمه الان يجد الباحث ابعاد هذه العلاقة النظرية والعلمية اكثر وضوحا. لان العمل الاعلامي او الصراع العسكري او النشاط الدبلوماسي ليست سوى ادوات تقود في النهاية بغض النظر عن موقع كل منها من الاخر في ديالكتيكية التحرك السياسي الى الهزيمة او النصر او الى ذلك الموقف الذي يتوسط بين الهزيمة او النصر. بل ان احدى قواعد التحرك السياسي الخارجي هي اختيار تلك الاداة الاقل تكلفة. هناك ايضا اقتصاديات للتحرك الدولي. وقد حللنا هذه الناحية بما فيه الكفاية عندما تعرضنا لتلك القاعدة المطلقة وهي ان الدعاية هي اقل ادوات السياسة الخارجية تكلفة واقلها انفاقا. هذه الناحية اثارها المسؤولون الاوروبيون عندما اصدر نيكسون قراره باعلان حالة التأهب بين القوات الامريكية في اوروبا الغربية ليس فقط لان هذا تم دون اخذ رأي السلطات الاوروبية ولكن لانه تم دون وجود تلك الواقعة او الحدث الذي يمكن ان يبرر مثل هذا القرار وهذا النشاط. ان اتخاذ قرار من جانب دولة عظمى بسحق دولة صغيرة عسكريا لان هذه الاخيرة اهانت سفيرها على سبيل المثال لايمكن ان يوصف بانه عمل سياسي ناجح.

ثانيا ـ كذلك يجب ان يكون واضحا في الذهن ان النصر الساحق للعمل الدعائي الاسرائيلي لم يكن نتيجة القدرة او الصلاحية او التخطيط الذكي من جانب السياسة الاسرائيلية فقط وانما كان اساسها لاختفاء اي محاولة ايجابية للمواجهة من جانب العالم العربي. ان قوة اسرائيل الحقيقية هي ضعف خصومها وهذا ما ابرزناه واضحا في ذلك المؤلف السابق ذكره في ص ٢١ حيث اعلنا بعبارة صريحة ان جميع العوامل التي ساعدت الحركة الاسرائيلية ما كان يمكن ان تكون وحدها سببا في نجاح المعركة الدعائية لو لم يقدر للسياسة الخارجية الاسرائيلية تلك الدعاية المخططة والمنظمة التي استطاعت ان تستغل هذه العناصر وبصفة خاصة عدم وجود دعاية عكسية او مضادة عربية على مستوى الحركة.

ثالثا ـ كذلك يجب ان نلفت نظر القاريء الى ما فصلناه عقب ذلك في نفس المؤلف ص ٥٥ وما بعدها والذي يمكن ان يبسط في المفهوم التالي: الدعاية لاتحيل سياسة ناجحة الى سياسة فاشلة او العكس او بعبارة اخرى الدعاية وظيفتها لاتستطيع ان تتعدى عملية التضخيم للموقف. دلالة هذا المفهوم تصير اكثر وضوحا عندما ترتبط بالموقف العربي في عام ١٩٦٧: لو لم تحدث الهزيمة العسكرية لما حدثت تلك الهزيمة الاعلامية بذلك البعد الساحق. وبعبارة اخرى ورغم عدم فهم السياسة الخارجية العربية لاهمية العمل الاعلامي لو حدث عام ١٩٦٧ نصر عسكري عربي لما حدث ذلك النصر الساحق الاعلامي الاسرائيلي. وليس ادل على صحة هذه الملاحظة من الدلالة المستخلصة من حوادث عام ١٩٧٣. لقد كان هناك نصر عسكري عربي وصل الامر من جانب بعض المحللين الغربيين الى وصفه بانه قلب جميع موازين القوى الدولية المعاصرة. ان مجلة اكسبريس الفرنسية خرجت بعدد خاص صدرته بمقال بعنوان «الاسبوع الذي غير تاريخ العالم» فماذا فعل الاعلام العربي وماذا فعل الاعلام الاسرائيلي؟ ان نجاح الاعلام الاسرائيلي في تلك اللحظة وقد كان ايضا في عام ١٩٧٣ نجاحا ساحقا من الوجهة الفنية هو انه قلص وخفف واضعف من فهم حقيقة النجاح العسكري العربي. وفشل الاعلام العربي في تلك اللحظة هو انه لم يستطع ان يستغل ذلك النجاح العسكري في تضخيم الحركة العربية وجعل ذلك النجاح العسكري منطلقا لتأكيد الدور القيادي والوظيفة الايجابية التي يجب ان يتقبلها العالم من جانب القوى العربية لا فقط من منطقة الشرق الاوسط بل وفي ميزان القوى والتعامل العالمي. وبعبارة اخرى خبرة عام ١٩٧٣ التي لاتزال ماثلة للعيان تؤكد نفس الدلالة: النجاح الاعلامي والدعائي خلال تلك الفترة لم يكن الا نتيجة حركة الكر والفر المجردة التي تفرضها الوظيفة الاعلامية في النطاق الخارجي. انها عملية تشويه نفسية اساسها اثارة الغبار الذي يحجب الرؤية عن النصر.

بعبارة اخرى ان الصراع الاعلامي كأي قتال له ابعاده المختلفة. فكما ان القتال العسكري يعرف الهزيمة او النصر وقد يعرف العمليات الاخرى المعدة للهزيمة او المانعة من اكتمال النصر كذلك فان الاعلام الخارجي يقبل نفس المفاهيم. عملية الانسحاب هي احدى الادوات المعروفة للتخفيف من حدة الهزيمة ولمنع اكتمال النصر. كذلك الانسحاب الاعلامي صورة من صور القتال النفسي. والانسحاب الاعلامي في نطاق التحرك الدولي يعني التخفيف من وقع الهزيمة او التقليل من اهمية الانتصار. كذلك القيام بعملية هجوم عكسية ظاهرة بدورها ليست قاصرة على التحرك العسكري بل هي ايضا احد مظاهر الحركة الاعلامية في النطاق الخارجي.

الملحوظة التي يجب ان نؤكد عليها ونكررها هي ان العمل الاعلامي رغم استقلاله الهيكلي الا انه يرتبط دائما بكلا الصراع العسكري والنشاط الدبلوماسي بارتباط ديالكتيكي مستمر اساسه التقديم والتأخير بحيث ان ايا من هذه الادوات تستطيع ان تقوم بذلك الذي لا تستطيع ان تؤديه الاداة الاخرى. وهكذا هذه العلاقة قد تصير علاقة توافقية في بعض مراحل الحركة فاذا بالنشاط العسكري يصاحبه عمل اعلامي وتحرك دبلوماسي في نفس البعد ونفس الاتجاه ونفس القوة ولكنه في بعض الاحيان الاخرى قد يكون تعبيرا عن علاقة غير توافقية ولو مؤقتا حيث تصير دلالة كل من هذه الادوات تختلف عن الاداة الاخرى في مضمونها ومعانيها وان هذا يفرض على الحركة السياسية اعادة تغير في الادوار بحيث يتحقق توازن معين ازاء التحرك الكلي. وقد

قدمنا مثالا لذلك بخصوص الاعتراف بشرعية التواجد الاسرائيلي في المنطقة فلنتذكر خصائص وملامح الموقف. ايقاف لاطلاق النار اي انتهاء ولو لحين للحركة العسكرية وللصراع الجسدي. تحرك دبلوماسي بقصد التماثل مع قوى خارجية ما كان يمكن ان تكون موضع الثقة او الاحترام ونحن نعلم ماضيها وما احدثته وما قدمته. ونحن ايضا نعلم حقيقة مقوماتها التي تخلق الطاقة الداخلية وتحدد بالتالي ابعاد حركتها الخارجية: نقصد السياسة الخارجية الامريكية. والتشكيك في شرعية التواجد الاسرائيلي يستطيع ان يعيد التوازن في الموقف السياسي الخارجي وبصفه خاصة امام الرأي العام الدولي بحيث يمنع العدو من الهجوم ويحمي الصديق من التمزق. هذه الصورة للعلاقة بين الأدوات المختلفة للسياسة الداخلية تعكس النموذج الاخير الذي نستطيع ان نسميه بانه حالة انسحاب في التحرك الدولي استعدادا لمعركة اخرى مضادة لم تتحدد ابعادها بعده.

ولعل الدلالة الحقيقية التي نستطيع ان نستخلصها من هذه الدراسة السابق ذكرها تعود الى ما اوردناه في اكثر من مناسبة وهو ان المشتغلين بالاعلام العربي تنقصهم الثقافة السياسية الكافية حيث يدورون في متاهات فكرية تبعد عن فهم حقيقة العمل الاعلامي الخارجي بوصف كونه مقدمة حربية للتحرك الدبلوماسي ينبع من منطقه ويتحدد بطبيعته. وليس ادل على هذه الملاحظة من ان كاتب المقال السابق ذكره يجعل من الشعار الذي ينسب الى العالم العربي في اثناء عام ١٩٦٧ «القاء اليهود في البحر» احد محاور تشويه الطابع القومي العربي. «القاء اليهود في البحر»: تلخيص مركز لكل التشويه الذي تريد اسرائيل ان تلحقه بصورة الانسان العربي والطابع القومي بصفة عامة وبحقيقة موقف العرب تجاه اليهود من حيث هم يهود. لم يقتصر ـ الكاتب ـ في هذه العبارة على ان يخلط بين عملية تشويه الطابع القومي العربي وعملية ابراز عدم التجانس في السياسة العربية مع الأطار الدولي للحركة السياسية. كلاهما مسلك دعائي وكلاهما له خصائصه المستقلة وان كان كلا منهما يستطيع ان يقود الى الاخر ويرتبط به. تشويه الطابع القومي العربي الذي سبق ان تناولناه في مؤلفنا السابق ذكره، ص ١٨٨ ومابعدها، يدور حول ابراز العربي على انه يتسم بصفات تعكس لافقط التخلف الاقتصادي بل التخلف في جميع معانيه وابعاده بحيث يمكن ان يوصف بانه يعكس مجتمعا جديرا بالانقراض. اثناء وجودنا بالمجتمع الامريكي لاحظنا تأكيدا مستمرا بطريقة لاشعورية وبحبكة معينة لايستطيع ان يستشفها الا المتخصص في العمل الاعلامي وفن الاثارة الاعلامية حول عملية الربط المستمرة بين العرب والهنود الحمر. عملية ابراز عدم التجانس في خصائص الحركة من حيث عدم مطابقتها للاطار العام تمثل مدخلا اخر من المداخل الدعائية الذي اساسه ابراز الحركة السياسية على انها لم تستطع ان تتكيف مع خصائص الاطار الدولي ومن ثم فعلى الاطار الدولي ان يرفضها او ان يقبلها. الحديث عن القاء اليهود في البحر لايعكس تشويه الطابع القومي العربي وانما يرتبط بمدخل اخر اي ابراز عملية عدم التجانس في المنطلق الحركي للعمل السياسي. هذا المنطلق الاخير اي عملية القاء اليهود في البحر بعبارة اخرى يعكس مفهوما للحركة لم يستطع المجتمع الدولي المعاصر ان يتقبله، سواء فهم هذا انطلاقا من مفهوم الاستئصال او على انه يعني عدم احترام حقوق الشعوب في الدفاع عن كيانها فهذا تحليل ليس هذا موضعه. ولكن الامر الذي يجب ان يكون واضحا للعيان هو ضرورة عدم الخلط بين منطلقين كل منهما يختلف كليا واضحا عن الاخر. الاول يدور حول حقيقة جزئية: المواطن العربي او الانسان العربي. الثاني ينبع من فهم الحقيقة الكلية اي التصور العام للموقف السياسي. الاول حقيقة دائمة لان خصائص المواطن العربي وتعبيراتها المتعاقبة كاي طابع قومي يملك تماسكا وثباتا دائما بل وغير قابل للتغير الا في حدود معينة/الموقف السياسي بطبيعته مؤقت يتحدد مكانا وزمانا وموضوعا. عملية الاستئصال تقبلها المجتمع العالمي حتى نهاية القرن التاسع عشر بل ولم يتردد المنطق النازي في قلب القرن العشرين من ان يتقبلها ويطبقها. الطابع القومي اخيرا هو حقيقة ذاتيه تنبع من خصائصه ومقوماته وتتحدد بتشكيله الذاتي وبعملية بنائه التاريخي اما عدم التجانس في الحركة السياسية فهو حقيقة لاوجود لها في ذاتها لانه في هذا المجال هو علاقة بين حقيقة الاطار الـ والحركة السياسية: هل الثانية متجانسة مع الاولى ومعبرة عن خصائصها او على الاقل غير متناقضة مع مميزاتها ام لا؟ هي تعكس علاقة التجانس من عدمه ومن ثم فهي ليست حقيقة ذاتيه وانما هي نتيجة لعملية التكيف بين قوة متحركة واطار لتلك الحركة.
انظر نفس المرجع السابق ذكره ص ١٧٠.

والرأي العام العربي امام الراي العام الخارجي بمختلف طبقاته وشرائحه. مراجعة تلك الخبرة تسمح لنا بتجنب الاخطاء المماثلة خلال المرحلة القادمة(٢٥).

اولا: فالشعور العام بأن قبول مبادرة روجرز ثم ما اعقبها من حوادث انتهت بموقف الصمت من الاعتداء على لبنان كان لا بد وان يعكس اعتقاداً عاماً بأن الدولة والمجتمع العربي يسير في خط العدول عن الحل العسكري. الحل السلمي في تلك اللحظة سواء كان في ذاته خطأ او صواباً اضحى محور بؤر القوى الاجتماعية والسياسية في علاقتها بالسلطة. ومن ثم فقد كان من الواجب على الاعلام العربي ان يقوم بعملية توضيح وابراز للخصائص المختلفة لهذا التطور على انه ليس علامة ضعف وانما علامة قوة. الذي حدث هو التأكيد المستمر على الحل العسكري بينما كان السلوك الدولي يكاد يعلن عن اختيار الحل السلمي. تناقض كان لا بد وان يؤدي الى تمزق داخلي وعدم ثقة من جانب الرأي العام الخارجي. قد يبدو لاول وهلة ان مثل هذا التناقض كان نوعاً من التمويه والتغطية على الاستعداد للحل العسكري(٢٦). وهذا امر لا شك في فاعليته. ولكن كان يجب ان يرافق هذه العملية تخطيط دعائي واضح يسير في الابعاد التالية:

اولا: العمل على تقوية الثقة في الذات القومية بحيث لا تزداد حالة اليأس وعدم الاهتمام والتسيب او بعبارة اخرى ان يعمل الاعلام المحلي على ان يعيد الى المجتمع الثقة ورغم احتمالات الحل السلمي. ولكن من جانب اخر فان الاعلام الخارجي كان يجب ان يرفع هذا التناقض من خلال تقديم الحل السلمي على انه خطوة من خطوات الحركة وليس على انه مرحلة نهائية في ذاته.

ثانياً: فاذا تناولنا وضع مصر على وجه الخصوص للاحظنا ان تلك الفترة تميزت بالعزلة العنيفة التي كان على مصر ان تعاني من نتائجها في النطاق الدولي. الذي حدث في اعقاب خروج الخبراء الروس من مصر هو نوع من التغير غير الصريح في علاقة مصر بالعالم الشيوعي. روسيا وبعض بلاد الكتلة الشيوعية لم تتردد في ان تتخذ مواقف لا يمكن ان توصف بأنها مواقف صديقة. تجلى ذلك بشكل واضح في تصريحات الزعماء الروس في تركيا اثناء زيارة «بودجورني» لانقره ثم ثانياً بشكل خاص في الصحافة السوفيتية بصدد تعليقاتها على عملية ميونخ ورغم عودة العلاقات الالمانية مع الدول العربية ورغم استعداد المانيا لتنمية مكثفة للعلاقات الاقتصادية فأن هذه لم تتردد في اتخاذ موقف يمتاز بالصلابة والعنف. وحتى فرنسا بدأت مواقفها تتصف بالميوعة، ويكفي ان نقارن موقف الحكومة الفرنسية من الاعتداء على مطار بيروت اثناء فترة حكم ديجول بموقفها من الاعتداء على جنوب لبنان اثناء رئاسة بومبيدو. وعزلة مصر في هذه الناحية لم تقتصر على العالم الاوروبي بل تعدته الى العالم الغربي. القوى اليسارية منتقدة والقوى المحافظة صامتة، وقوى الاقليات تتحدث عن حقوقها بشجاعة وتحد(٢٨) فماذا فعلت الدعاية المصرية في مواجهة هذه التطورات وماذا فعل الاعلام العربي لخلق التماسك وتمكين الترابط ازاء خصائص الموقف كما ابرزناها؟

(ج) وهذا يقودنا الى فرض السؤال الاخير: ما هي اهداف الدعاية الاسرائيلية وبصفة خاصة خلال المرحلة التي اعقبت انتصارات اكتوبر عام ١٩٧٣

---

(٢٥) انظر التفاصيل في حامد ربيع. ابحاث في نظرية الاتصال، م. س. ذ.، ص٧٦ ومابعدها.

(٢٦) انظر ايضا في تحليل له ابعاده الجديرة بالمناقشة:

JABBER. The Palestinian resistance and inter-Arab politics. in QUANDT. The politics of plaestinian nationalism, 1973. P. 176.

(٢٧) قارن كونفينو، الاتحاد السوفيتي والشرق الاوسط، المرجع الجماعي السابق ذكره، ص ٢٥١ ومابعدها.

(٢٨) انظر ليلتنال، اسرائيل ذلك الدولار الزائف، ص ٢٢١ ومابعدها وقارن ايضا حبيب قهوجي، العرب في ظل الاحتلال الاسرائيلي منذ عام ١٩٤٨، ١٩٧٢ ص ٦٣٩ ومابعدها. وقارن رغم قدمه نسبيا:

HALPERIN. The political world of American Zionism, 1961, P. 276.

سبق ان ابرزنا في غير هذا الموضع حقيقة الدعاية الاسرائيلية وكيف انها رغم ارتباطها العضوي بالسياسة الخارجية للدولة العبرية الا انها تمثل ركيزة فكرية ثابتة تعود في بناء تقاليدها الى اوائل هذا القرن وبصفة خاصة الى الفترة اللاحقة لبداية الحرب العالمية الثانية. كذلك سبق ان ابرزنا في غير هذا الموضع كيف ان الدعاية الاسرائيلية رغم ذلك تمتاز بمرونة معينة اساسها التلاحم الكامل والمطلق بالوقائع المتجددة وجعل تلك الوقائع بمثابة مطية يعتليها المخطط الدعائي ويغلفها بدهاء وبعد نظر بحيث يجعل منها الركيزة الثابتة المتجددة لتحقيق اهدافه النفسية. لو تركنا جانباً الدعاية الاسرائيلية قبل عام ١٩٦٧ وحاولنا ان نحدد اهداف تلك الدعاية[٢٩] ابتداء من هزيمة يونيو لاستطعنا ان نلخصها في ثلاثة:

اولا: اقامة حاجز او جدار بين العقل العربي والمنطق او العقل غير العربي. هذا الحائط الذي استطاعت الدعاية الاسرائيلية ان تقيمه وتؤسس قواعده على ابعاد عاطفية ومصلحية ادى الى تحطيم أي محاولة للاتصال بين المنطق العربي والمنطق الغربي ومن ثم فان الدفاع عن القضية العربية أضحى محكوماً عليها مقدماً بالفشل لان هذه القضية مرفوضة ابتداء او بعبارة ادق لانها سوف تقتصر على ان تكون ارسالا دون استقبال بمعنى انها لن تجد المستقبل او المستمع المستعد للاستماع بعبارة اخرى اكثر دقة الرفض ومن ثم الفشل لن يأتي نتيجة مناقشة وانما نتيجة وجود جدار بين المنطقين الامر الذي يؤدي الى عدم امكانية بناء أي قناة من قنوات الاتصال بمعنى تدفق المعلومات والانطباعات ذهاباً واياباً بين العالم العربي والعالم الغربي.

ثانياً: تنظيف الطابع القومي اليهودي وازالة كل ما علق به من صفات غير محببة خلال القرون الماضية مع ربط مصالح تلك الجماعة أي المجتمع اليهودي بالعالم الغربي وما يمثله هذا الاخير من قيم وتقاليد ووظيفة تاريخية[٣٠]. هذه العملية سوف ترتفع عقب عام ١٩٦٧ الى مبالغات كان لا بد وان تحدث في بعض الاحيان آثاراً عكسية عندما وصلت عملية تنظيف الطابع القومي اليهودي الى حد التأليه الامر الذي جعل من منطق تلك الدعاية منطقاً استفزازياً متعصباً وهو منطق ما كان يمكن ان تتقبله التقاليد الغربية دون تحفظ.

ثالثاً: ثم العمل من جانب آخر على تحطيم الثقة في الذات العربية بمختلف أبعادها، على الصعيد التاريخي، كصفحة من صفحات التطور الانساني، على الصعيد العربي المعاصر كحركة ترمي الى التخلص من التخلف الاقتصادي والاجتماعي ثم على الصعيد المحلي كنموذج من نماذج التكامل القومي والمساندة للاهداف

---

(٢٩) قبل عام ١٩٥٦ يستطيع ان يجد القارىء خلاصة لاستراتيجية الاعلام الاسرائيلي في منذر عنباوي، اضواء على الاعلام الاسرائيلي: سياسة كسب الانصار، ١٩٦٨، ص ١٥ ومابعدها. لاحظ ان المؤلف لم يستطع ان يؤصل مفهوم الدعوة وان يحدد الفارق بين العمل الدعائي او الاعلامي المتجه الى الصديق والتعامل النفسي الذي يرمي الى تقوية عملية الانتماء وتعميق علاقة الولاء. عقب عام ١٩٥٦ وحتى عام ١٩٦٧ نحيل على حامد ربيع، الدعاية، م.س.ذ.، ص ٨٧ وما بعدها. عقب عام ١٩٦٧. يجد القارىء تحليلا موجزا في حامد ربيع. ابحاث في نظرية الاتصال، م.س.ذ.، ص ٦١ ومابعدها. لم نحاول في هذه الدراسة الموجزة ان نتناول تحليل الدعاية الصهيونية بالتفصيل الكافي. واقتصرنا على مجرد ابراز الاطار العام للحركة الدعائية بقصد التخطيط الكلي للمواجهة العربية. يستطيع القارىء ان يجد هذا التفصيل في المؤلف السابق ذكره وبصفة خاصة في ص ٤٦ ومابعدها. وقد اخضعنا هذه الابعاد لتحليل تفصيلي في الدراسة التي نوقشت في الحلقة الاولى للدراسات الاسرائيلية التي عقدتها جامعة بغداد في ابريل عام ١٩٧٣. ونستطيع ان نقدم تحليلا للتصور العام للسياسة الاعلامية الاسرائيلية في النواحي الثلاث الاتية: تطور المنطق الدعائي الاسرائيلي، اسلوب الجوقة في عملية الاتصال الاعلامي، الدعوة وموضعها من عملية الاتصال الخارجي. العنصر الاول يعكس حقيقة التطور العام للمنطق الدعائي الاسرائيلي وكيف انه لايزال يسير في اطار متناسق بدايته الاولى في قلب القرن الثامن عشر وخطه العام لايزال متماسكا لم ينفصل. الناحية الثانية والتي نلفت اليها نظر القارىء على وجه الخصوص لانها تنبع من منطق التنسيق وتحديد الادوار للجهاز الكلي الذي يتولى تنفيذ السياسة الخارجية تقدم لنا نموذجا واضحا لكيف استطاعت اسرائيل ان توفق بين دعايتها الخارجية وعملها السياسي الدولي المتعلق بربط المصالح العاطفية كخطوة اولى سابقة ومسبقة على عملية ربط المصالح الاقتصادية بما فيا الابعاد الحركية. انظر المرجع السابق ذكره. ص ٧١ ومابعدها. ثم اضف الى ذلك عملية التمييز بين الدعاية والدعوة وكيف انها تعيد نموذج التطور العام للحركة الصهيونية خلال الفترة السابقة على وجود اسرائيل. انظر تفصيل هذه النواحي في حامد ربيع، ابحاث في نظرية الاتصال. م.س.ذ.، ص ٧٩ ومابعدها.

(٣٠) حامد ربيع، مقدمة العلوم السلوكية، ١٩٧٢، ص ١٨٥ ومابعدها.

الحركية. العمل على تحطيم الثقة في الذات العربية اتجه بشكل واضح خلال النصف الثاني من عام ١٩٧٢ ثم الاشهر الاولى من عام ١٩٧٣ الى دول المواجهة بل ولوحظ انه في خلال تلك الفترة قادت الدعاية الاسرائيلية الى ان تربط هذه الابعاد بتأكيد فكرة تجزئة العالم العربي الى مجتمعات من الاقليات[٣١].

والسؤال الذي يجب ان نحاول الاجابة عليه هو التالي: هل تغيرت هذه الاهداف عقب حرب اكتوبر ١٩٧٣؟

قبل ان نجيب على هذا السؤال علينا ان نتذكر بعض الخصائص التي تعكس ملامح التطور العام للوجود السياسي الاسرائيلي والتي تمثل ذلك القسط الثابت من تحركها الدعائي لا فقط قبل حرب اكتوبر بل وفي خلال جميع مراحل وجودها التاريخي. فالامر الاول الذي يجب ان يكون واضحاً في الذهن ان تصور ان اسرائيل تقبل الهزيمة او الاستسلام او تغير اهدافها الثابتة النابعة من طبيعتها وجوهر وجودها لا يمكن أن يعبر الا عن سذاجه سياسية. ويرتبط بهذه الناحية ويتفرغ عنها حقيقة اخرى اساسها ان السياسة الاسرائيلية تعودت أن تميز في كل مرحلة من مراحل تاريخها بين هدف ثابت وحيد واهداف اخرى جانبية[٣٢]. وهي تسير نحو ذلك الهدف الثابت بخطى تارة متلصصة وتارة اخرى صريحة متدفقة ولكنها دائماً منطقية مع ذاتها حتى ولو أحاطت تلك الحركة بالتمويه والخديعة. الهدف الاساسي للسياسة الاسرائيلية ومنذ انتخابات الكنيست الرابع وما سبقها وما لحقها من صراعات داخلية هو تأكيد وحماية الطابع الغربي للطبقة الحاكمة في اسرائيل. هذا الهدف لم يختف ولن يختفي وسوف يمثل دائماً محور الحركة: فتح جميع ابواب الهجرة والاستقبال للمواطنين اليهود الجدد الذين ينتمون الى الاصل الاوربي. هذا الهدف لم يختف ولن يختفي وسوف يمثل دائماً محور الحركة السياسية في الداخل والخارج وان تفرعت عنه اهداف اخرى جانبية ليس لها من نتيجة سوى تأكيد وحماية هذا الهدف النهائي سواء بالتقوية او بالتمويه[٣٣]. كذلك يجب الا ننسى أن السياسة الامريكية تتحد اهدافها بهذا الخصوص مع الاستراتيجية الإسرائيلية ولو في بعض نتائجها. فاذا كانت السياسة الاسرائيلية ترمي الى تقوية جسدها السياسي ديموغرافياً فلا بد لذلك من التوسع الاقليمي، والتوسع حيث لا توجد كثافة عربية. من جانب آخر هذا التوسع لا يمكن أن يتم الا على حساب تجزئة العالم العربي وتحطيم وحدته او احتمالات تلك الوحدة في اي صورة من صورها[٣٤]. وبطبيعة الحال كل هذا لا بد وان يقود الى نتيجة اخرى منطقية وهي القضاء على القيادة ولو الرمزية للمجتمع العربي متمركزة في الوجود المصري.

السياسة الامريكية بهذا الخصوص وبغض النظر واستقلالاً عن القوى الصهيونية الداخلية تجد نفسها في موقف المتحالف الطبيعي مع السياسة الاسرائيلية. السياسة الامريكية ظلت وسوف تظل تسير بخطوات متابعة نحو تشويه الصورة المصرية في العالم العربي. ولو عدنا الى الفترة السابقة على حوادث عام ١٩٧٣ لوجدنا هذا الخط ثابتاً مضطرداً لا يقبل الاستثناء. مبادرة روجرز اولاً وقبولها كان لا بد وان يعني انهاكاً للصلابة المصرية.

الحديث عقب ذلك والاتصال المباشر مع شرق الاردن كانت دلالته الحقيقية هي تأكيد ان هناك صوتاً في البلاد العربية يتقبل المنطق الامريكي وعلى استعداد لمناقشته ودون اهتمام بأخذ وجهة نظر الدولة القائد في المنطقة أي مصر[٣٥]. الاعتداء على لبنان وبصفة خاصة مع استخدام حق الفيتو من جانب الحكومة الامريكية

---

(٣١) انظر الابزرفر. ١٥ ابريل ١٩٧٣.

(٣٢) قارن حامد ربيع، عملية صنع القرار السياسي في المجتمع الاسرائيلي، نشر كمذكرات لطلبة قسم العلوم السياسية بجامعة القاهرة عام ١٩٧٢، ص ١٣ ومابعدها.

(٣٣) قارن:

LISSAK. Social moility in Israeli society. 1969, P. 69.

(٣٤) انظر ابعاد اخرى للموضوع في حامد ربيع، التعاون العربي والسياسة الشرولية. م.س.ذ.، ص ١٧٢ ومابعدها.

(٣٥) انظر الاهرام ١٩٦٧/٩/٢٦. ١٩٦٨/١٢/٢٤. ١٩٧١/١/١٠ وقارن الحوادث، ١٩٧٢/٦/١٦. والانوار البيروتية ١٩٧١/١٢/٤.

لصالح اسرائيل كان يعني اعلاناً عن السلبية المطلقة لمصر في المنطقة بل وايضاً عدم الاهتمام المطلق بأي تحرك مصري حتى على مستوى استخدام حق الدفاع الشرعي. سوف يساعد على ذلك التناقض الواضح للسياسة المصرية خلال تلك الفترة كما سبق وابرزناه حتى لو قبلنا وصفه بأنه نوع من التمويه على حقيقة الاهداف القتالية. الذي يعنينا بهذا الخصوص هو ان نتذكر كيف ان هذا الخط سوف يظل ثابتاً حتى عقب عام ١٩٧٢ وهو المحاولة المستمرة من جانب السياسة الامريكية لخلق الفرقة بين الدول العربية. وهنا يبرز مرة اخرى مدى التوافق بين الاستراتيجية الامريكية والاستراتيجية الاسرائيلية. ان اسرائيل وهي تتحدث عن مؤتمر السلام تطالب وتعلن انه يجب ان يسبق مؤتمر السلام تصفية ثنائية بينها وبين دول المواجهة كل على حدة وقبل ان تتم التسوية النهائية[٣٦].

وهكذا تتحدد الاهداف الثابتة للسياسة الخارجية الاسرائيلية في اربعة مبادىء:

١ـ خلق شلل في متغيرات الحركة العربية الساعية للمواجهة الايجابية الصلبة.

٢ـ خلق فئات محلية او تشجيع قوى محلية على استعداد لان تخاطب وتتقبل المنطق الاسرائيلي.

٣ـ ابراز مصر في موقف الدولة الضعيفة التي لا تستطيع ان تواجه التحدي او ان ترتفع الى مستوى القدرة والمقدرة الاسرائيلية.

٤ـ ابراز اسرائيل امام الرأي العام الخارجي على انها وحدها هي التي تستطيع ان تتحكم وان تحل مشاكل المنطقة.

انتصار اكتوبر احدث صدمة عنيفة في الموقف العام الذي ارتبط بمنطقة الشرق الاوسط ويبرز ذلك واضحاً لو عدنا الى العناصر الجديدة والمتجددة التي ارتبطت بانتصارات معركة اكتوبر الاول[٣٧]. ان جميع الاساطير التي تمركزت حولها الدعاية الاسرائيلية حتى هذا اليوم انهارت او اصابها الخلل. فأسطورة الجيش الذي لا يهزم والشعب المختار وما تفرضه تلك الاسطورة من عدم قدرة عربية على التحدي او المواجهة بأي معنى من معانيها وعلى عدم صلاحية القوى العربية للتكتل والتوحيد في الاهداف الحركية تبخرت ازاء

الانتصار المفاجىء الذي لم يكن يتوقعه احد. ان الصدمة التي احدثتها تلك الواقعة لم تقتصر على انهيار الاكذوبة الاسرائيلية بل تعدت ذلك الى احداث الاطار الدولي في تلك اللحظة: فمشكلة الطاقة التي كانت قد بدأت واضحة تفرض نفسها منذ عامين ودون مقدمات حقيقية من جانب والصراع بين الاقتصاد الامريكي والاقتصاد الياباني ادخل نوعا من التلوين والتغير في مسارات القوى الدولية، ساعد على ذلك طبيعة العلاقة بين الاقتصاد الاوربي والاقتصاد الامريكي الذي فجرته ازمة الدولار وسياسة كيسنجر الاستفزازية ازاء القارة القديمة ثم التوافق الحركي بين القيادة الروسية والقيادة الامريكية على نوع جديد من أنواع التعايش السلمي اساسه التعاون الايجابي مع ما فجره ذلك بدوره من قوى معارضة يسارية من جانب ويمينية من جانب اخر لاتقبل مثل هذه الصورة من صور الترابط الحركي في النطاق الداخلي كان لابد وان يخلق خلفية عامة ساعدت وهيأت لذلك التهلهل الذي اصاب منطق الدعاية الاسرائيلية[٣٨].

---

(٣٦) قارن ايضا فيما يتعلق بالاستراتيجية الاسرائيلية، والثورة السورية ١٧ تشرين الاول ١٩٦٨ وانظر ايضا ما اوردته جريدة ديلي ستار اللبنانية بتاريخ ٩، ١٠ مايو ١٩٧١.

(٣٧) خرجت بتاريخ ١٨/١٠/١٩٧٣ مجلة «الاثبات الكاثوليكي» الفرنسية والمعروفة بمواقفها المتميزة ضد القضية العربية بمقال على عدة صفحات توجه العنوان التالي: حربين: لعتين خلاصته ان هذه الحرب ان لم تكن قد انتهت بانتصار فهي قد حطمت جميع الاساطير التي ارتبطت بالوجود الاسرائيلي بما في ذلك اسطورة «الحدود الآمنة». انظر:

Temoiganage Chretien, 18.10.7391, P. 6.

(٣٨) جديرة بتحليل اعلامي كأساس لحركة دعائية من جانب المسؤولين العرب، مجموعة من المقالات التي صدرت في اعقاب معركة اكتوبر الاول في نشوة فجائية ومؤقتة لم تكن قد خضعت بعد لحركة الالتفاف الاسرائيلية التي بدأت في اعقاب الشلل واستطاعت ان تثبت مراكزها النفسية من خلال عملية ايقاف اطلاق النار. نذكر منها على سبيل المثال: السياسة البارية ٨/١١/١٩٧٣.

وكان من الطبيعي ازاء ذلك ان يتحرك الجهاز الدعائي لمواجهة هذا التطور الجديد رغم ثبات الاهداف التي لم تتغير بل والتي ازدادت تأكيدا بفضل دلالة الحوادث الجديدة. ويبرز ذلك بشكل واضح من خلال متابعة بعض ملامح الضغط الدعائي الاسرائيلي.

١ ـ فالدعاية الاسرائيلية تركز على ان الانتصار هو انتصار للسلاح الروسي وان المقاتل الحقيقي ليس هو الجندي المصري او الجندي السوري ولكنه هو المخطط الروسي والطيار الكوري.

٢ ـ وهي تصور نفسها على انها الدولة الضحية التي اكرهت على القتال والتي اكرهت على ان تضع حدا لحالة السلام التي عرفتها منطقة الشرق الاوسط قبل معركة اكتوبر.

٣ ـ وتتحدث عن ضرورة وضع حل نهائي للمشكلة الامر الذي لابد وان يفرض الصراع العنيف والذي سوف يبرز عقب ذلك انهاء الصراعات والاضطرابات في المنطقة[٣٩].

٤ ـ بل ان حركتها العسكرية ذاتها يمكن ان توصف بأنها خططت كجزء من حركة نفسية واسعة النطاق اساسها الرغبة في تأكيد الاسطورة السابقة على عام ١٩٧٣ بل وجعل تلك الاسطورة حقيقة ثابتة في الوعي الشعوري واللاشعوري للرأي العام. ان عملية التسلل في غرب قناة السويس على الاقل في بدايتها لم تكن مجرد عملية عسكرية وانما كانت وظيفتها اساسا احداث صدمة نفسية محليا ودوليا.

٥ ـ استخدام سلاح البترول من جانب القوى العربية بدوره خضع لعملية تمويه من جانب الدعاية الاسرائيلية[٤٠]. فتبعية اوربا للمنطقة قدمته الدعاية الاسرائيلية على انه مدعاة للتساؤل: هل يجوز ان نترك تلك التبعية تتحكم فيها قوى متخلفة غير مدركة لتصرفاتها ومسئولياتها ام انه من المصلحة والافضل ان تصير هذه العلاقة وقد تحكمت فيها دولة كاسرائيل تنتمي عضويا وحضاريا للعالم الغربي؟

والخلاصة ان الاهداف السابقة على عام ١٩٧٣ لاتزال ثابتة. ورغم ان تلك الوقائع الجديدة كان لابد وان تحدث نوعا من الاضطراب في المتغيرات المساندة للدعاية الاسرائيلية الا ان مخططي تلك الدعاية عملوا على أن يحولوا وبسرعة مواطن الضعف الى عناصر قوة او بعبارة اخرى ان يتفاعلوا مع الوقائع الجديدة لخدمة الاستراتيجية الجديدة. الخط الثابت في الدعاية الصهيونية والذي استتر خلف جميع تصريحات المسئولين هو اظهار اسرائيل على انها تمثل القوة الوحيدة التي ملأت الفراغ في المنطقة والتي تستطيع ويجب ان تقول كلمتها النهائية في حل مشاكل المنطقة المرتبطة بمصالح الاسرة الدولية. كانت هذه المشاكل تتمركز قبل عام ١٩٧٣ في مشكلة اعادة فتح قناة السويس. اضافت اليها تلك الحوادث مشكلتين جديدتين: احداهما تمكين التدفق البترولي من العالم العربي الى العالم المتمدين الصناعي. والاخرى تمكين التعايش السلمي الذي وضع حدا لاحتمالات الصراع النووي مع ما يعنيه من مخاطر على الوجود البشري في الاستمرار من اجل تقدم الانسانية[٤١].

بطبيعة الحال حدثت بعض تغيرات في اهداف السياسة الخارجية الاسرائيلية وكان لابد وان تعكس وجودها في منطقها الدعائي. ولكنها تغيرات سبق ولمسناها خلال الاعوام السابقة على حرب اكتوبر. برزت تلك التغيرات بصفة واضحة في فكرة مخاطبة جميع مراكز القوى في وقت واحد: روسيا، اوربا الغربية دون الحديث عن الولايات المتحدة بل استطاعت ان تتسلل الى حد ما في الصين ولكن بشكل اكثر ثباتا ووضوحا في الهند وهي لاتقتصر في هذا الخطاب على القوى الحاكمة بل تعدى ذلك الى تلك المناوئة او المعارضة[٤٢].

---

(٣٩)

VILET, Les mythes seffondrent, in L'Unite. 19.10.73.

(٤٠) قارن ايضا مجلة الاكسبريس الايطالية بتاريخ ١٨/١١/١٩٧٣ وعلى وجه الخصوص جريدة الموند الاسبوعية الايطالية بتاريخ ٢١/١١/١٩٧٣.

(٤١) قارن حامد ربيع، ابحاث في نظرية الاتصال، م.س.ذ.، ص ٧٥ومابعدها.

(٤٢) قارن حامد ربيع، عملية صنع القرار السياسي، م.س.ذ.، ص ١٦ ومابعدها.

فأين الاعلام العربي من كل ذلك؟

١٠١ ـ الاعلام ودوره في عملية الصراع العربي والاسرائيلي:

الدور الذي يجب ان يؤديه الاعلام خلال المرحلة القادمة يجب ان يدور حول بعدين كل منهما مستقل تمام الاستقلال عن الاخر وكل منهما له طبيعته المختلفة بحيث ان كلا منهما يعني تحركا في دائرة ذات خصائص متباينة وان كان كلاهما يرتبط الواحد منهما بالاخر بحيث ان كلا منهما يكمل الاخر بعبارة اخرى علينا ان نميز بين:

اولا: عملية تنوير الرأي العام بقصد الرد على الدعاية الاسرائيلية السابقة وازالة ما احدثته من اثار، بعبارة اخرى على الاعلام العربي ان يقوم بعملية ضبط للدعاية المعادية بقصد ايقاف فيضانها[٤٣]. مما لاشك فيه ان هذه العملية اضحت اكثر سهولة عقب انتصارات اكتوبر ولكنها لاتزال تفترض الكثير من الاعداد والتخطيط وبصفة خاصة لانها يجب ان تسعى ايضا الى ازالة تلك الصورة المشوهة للطابع القومي العربي التي ترسبت في الوعاء اللاشعوري في الرأي العام الغربي.

ثانيا: ثم من جانب اخر دعاية ايجابية بقصد القيام بعملية تبرير للحركة العربية التي سوف تحددها القيادة السياسية خلال المرحلة القادمة. وهذا يفترض متابعة للوقائع تثبيتا للمراكز والمواقف المكتسبة بحيث تأتي الدعاية الاسرائيلية فتجد نفسها ازاء جدار من الرأي العام قد تكون فعلا بما يؤيد ويحمي الحركة العربية.

وظيفة مزدوجة: الاولى ثقافية تأخذ صورة الدعاية العكسية وتنبعث من مقومات حضارية متجهة الى خطاب جميع فئات الرأي العام دون استثناء المتخصصين وقادة الرأي[٤٤]. الثانية دعاية ايجابية حركية تتجه الى خلق القوى المساندة والمؤيدة للقضية العربية.

هذه العملية المزدوجة في حاجة الى تخطيط والى تنظيم والى تنسيق. قبل ان نتناول هذه النواحي بالتفصيل علينا ان نجيب على تساؤلين: اولهما لماذا لايستطيع سوى الاعلام العربي من بين ادوات السياسة الخارجية ان ينفذ هذه الاهداف؟ وماهي الفلسفة العامة التي يجب ان تستتر خلف هذه الوظيفة السياسية للاعلام العربي الخارجي؟

(أ) سبق ان تناولنا الاجابة على السؤال الاول في اكثر من مناسبة فلنحاول ان نجمع مختلف المتغيرات التي تفرض جعل الاعلام المنطلق الاساسي لتحقيق هذه الاهداف.

اولا: فهو اداة رخيصة وما يمكن ان ينفق على سفارة ذات اهمية معينة او على دبابة يسمح بتغطية جميع النفقات المتعلقة بالعمل الاعلامي خلال مرحلة كاملة.

ثانيا: كذلك يمتاز الاعلام بأنه اداة دائمة لاتنقطع مهما تغيرت الظروف. فالصراع الجسدي مقيد بالمقدرة القتالية، والتحرك الدبلوماسي يتحكم في نجاحه الاطار الدولي الصالح للحركة. الاعلام ليس في حاجة الا

---

(٤٣) انظر فيما سبق ص ٢٨٨.

(٤٤) لعله مما يدعو للتساؤل ويؤكد الدلالات السابق ذكرها والتي تدور حول تأكيد حقيقة الوظيفة الحضارية لعملية الاتصال الخارجي النجاح الذي حققته الندوة الاعلامية التي قادها الرئيس القذافي اثناء وجوده بباريس. ورغم ان الرئيس الليبي سبقته الى الراي العام الفرنسي صورة مشوهة تصف بطابع الاندفاع والتعصب وهو امر ماكان يمكن ان يسهل له عملية الالتقاء والتخاطب مع الطبقات المثقفة الفرنسية وماجبلت عليه من تعنت وشعور بالتميز، رغم ذلك فان ذلك اللقاء الذي دار حول وظيفة الحضارة الاسلامية وكيف انها تستطيع ان تقدم للعالم المعاصر ما لاتستطيع ان تقدمه تقاليد وتراث الحضارات الاخرى وجد تجاوبا عجيبا بالترحاب والتأييد او على الاقل بالتفهم والانفتاح من جانب اجهزة الاعلام الفرنسية. انظر تعليقات الموند البارية في ١٩٧٣/١٢/٥.

الى قلم مؤمن ومسالك منظمة لنقل ما يخطه القلم[٤٥].

ثالثا: كذلك فالاعلام اداة تسمح بالكر والفر دون نهاية. لقد سبق وذكرنا انه يمثل خط الهجوم الاول وخط الدفاع الاخير وأدوات الاعلام الجماهيرية بفضل سرعة نقلها للرسالة وقوة تأثيرها في المستقبل تزيد من قدرة الاعلام على (اكتساب) المرونة والتلون الذي تفرضه حقيقة الصراع العربي الاسرائيلي.

رابعا: على ان اخطر ما يميز الاعلام هو انه اداة تسمح بالتعبير عن وجهات النظر التي لاتملك السلطات الحكومية ان تعلن عنها. وهو لذلك يستطيع لو استخدم بمهارة ان يمكننا من خلق التوازن الذي قد تفرض علينا الاحداث ان نتخلى عنه ولو مؤقتا. سبق ان رأينا نموذجا بهذا الخصوص، بشأن مسألة الاعتراف بشرعية التواجد الاسرائيلي في المنطقة.

خامسا: كذلك فهذه الاداة تسمح بحرية معينة في الوصول الى مسالك ومواقع اتخاذ القرار، بعبارة اخرى تسمح بخلق قوى اجنبية متعاطفة مع الحركة السياسية القومية.

(ب) على أنه رغم وضوح هذه المميزات التي تفرض علينا ان نهتم بالعمل الاعلامي والاداة الاعلامية ايضا في نطاق السياسة الخارجية فان هناك مبادىء عامة يجب ان تكون واضحة بحيث تمثل حقائق اولية تنبع منها فلسفتنا في الحركة الاعلامية.

علينا ان نفهم اولا حقيقة اللعبة السياسية[٤٦]. لقد خرج منا اساطين ودهاة السياسة ومع ذلك فنحن نمثل في الفترة المعاصرة الطفولة السياسية. لانزال نثق في كل مايقال ونقول كل مانعتقد. ومنذ متى كانت السياسة كذلك؟ من الطبيعي ان هذا لابد وان يقود الى التناقض والذي لابد وان تستغله الدعاية الاسرائيلية احسن

---

(٤٥) من بين منطلقات المنطق الدعائي التي كان يستطيع الاعلام العربي لو قدرت له القيادة الفكرية المتخصصة ان يستغلها بنجاح نذكر على سبيل المثال المنطلقات التالية:

أ ـ عقدة الكراهية الذاتية: فهذه العقدة التي استطاع ان يؤصلها العالم الامريكي اليهودي لوين كان من الممكن ان تصير منطلقا دعائيا من خلال معالجة المفهوم واحداث عملية فيضان في مختلف ابعاده بحيث لاتقتصر على ان ترتبط وتتحدد بالقيادة اليهودية في المجتمع الامريكي بل وتصير محورا لابراز خصائص سواء الاسرائيلي في علاقته باليهودي غير الاسرائيلي، سواء اليهودي في علاقته بغير اليهودي خارج المجتمع الاسرائيلي. سواء بالمجتمع الاسرائيلي كحقيقة جماعية وكلية في علاقته بالمجتمعات الاخرى في نطاق الاسرة الدولية.

ب مفهوم اخر يستطيع المحلل الدعائي ان يؤصل في بعض ابعاده ويدور حول الاصالة الحضارية للمجتمع اليهودي. هذا المفهوم الذي سوف نعود الى تفصيله في موضع اخر من مؤلفنا عن الابعاد النفسية للصراع العربي الاسرائيلي له ايضا مصادر يهودية. وكان من الممكن ان يخضع لعملية تحليل تاريخية تبرز كيف ان المجتمع اليهودي لم يقدر له في تاريخه الطويل ان يتصف بصفة الحضارة ذات الاصالة والتميز من حيث الذاتية. وكم كان من الممكن بهذا الخصوص ان نجعل من افكار داروين المتعلقة بنظرية البقاء للاصلح بمعنى القدرة على التكيف منطلقا لاثارة زوبعة دعائية في تأكيد عدم الاصالة الحضارية للمجتمع اليهودي. ويرتبط بهذا ايضا مفهوم النبوغ اليهودي وهنا تبرز ابعاد اخرى قابلة للمعالجة الدعائية تدور حول التساؤل: هل النبوغ حقيقة فردية او حقيقة جماعية؟ اليس النبوغ الفردي تأكيد لحالة التمزق التي يعيشها المواطن ومن ثم اليس النبوغ الفردي مستقلا عن الاصالة الحضارية كحقيقة جماهيرية.

جـ ـ يرتبط بهذا المفهوم الثاني وتنبع منه حقيقه اخرى قابلة لان تخضع لمناقشة اعلامية تدور حول كيف ان الحضارة اليهودية لو قبلنا تلك التسمية عاشت دائما عالة على غيرها من الحضارات في نفس عملية التجديد، والتكيف. بل انها استمدت منطقها باعتراف كابلن احد اعظم من ارخ للحضارة اليهودية من التقاليد الاسلامية. وقد اثبتنا في غير هذا الموضع ان نفس تخطيطها للتعامل النفسي ابتداء من الحرب العالمية الثانية على وجه الخصوص لم يستمد مصادره في شطره الاساسي الا من الينابيع الاسلامية. منطلق دعائي اخر ذو حدين: اثبات عدم الاصالة حتى في عملية التكيف من جانب ثم مناقشة لهدم المنطق الذي يقوم على اساس تقديم المفهوم الصهيوني للدولة العبرية على انه استمرارية ثابتة للحضارة الغربية منطلقات جميعها في حاجة الى دراسة ولكننا نذكرها على سبيل المثال وكان من الممكن ان يكون كل منها صالحا لتخطيط دعائي متكامل يدور حول تحطيم فكرة التميز والاستمرارية الحضارية للمجتمع الاسرائيلي وابرازه على انه مجتمع طفيلي لايسمح بالتقارب الفكري الا من المجتمعات التي لم يقدر لها اي تكامل هيكلي كحقيقة حضارية كمجتمع الغجر. انظر حامد ربيع، عملية صنع القرار السياسي. م. س. ذ.، ص ١٣.

(٤٦) حامد ربيع. ابحاث في النظرية السياسية: مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٧٠، ص ٢٧ ومابعدها.

استغلال ونحن لانزال نخلط بين رجل الدولة ومن يتعامل مع السلطة او باسم السلطة. ان رجل الدولة هو القائد الذي تشعر الجماعة بأن ايديولوجيته ومفاهيمه تتطابق مع المصالح القومية في لحظة معينة فتدعوه الى ان ينفذ ذلك التصور. هو رجل يرتفع عن مستوى الفئات والقوى ليصير رمزا للجماعة ولحركتها السياسية في لحظة معينة.

وهكذا رجل الدولة ليس هو الصحفي او رجل الاعلام الذي مهما بلغ من قدرة وكفاءة فهو لايعيش الا على فتات/الحوادث، انه يجري وراء الأحداث يفسرها او يصورها على عكس رجل الدولة الذي يخلق الاحداث ويسيطر عليها.

الجماعة من حقها ان تضحي برجل الدولة عندما تشعر بانه لم يعد يمثل ذلك التطابق بين ايديولوجيته ومفاهيمه وبين الحركة الجماعية واهدافها(٤٧).

والتضحية في تلك اللحظة لاتعني سوى تأخير قوة وتقديم قوة اخرى. وهنا لايجوز لرجل الدولة ان يتلون لانه في تلك اللحظة يفقد تلك الصلابة والقوة التي تضفي عليه الصفة الحقيقية لمفهوم رجل الدولة. واذا كانت الابعاد الاستراتيجية ولو المؤقتة قد تفرض عليه عملية الكر والفر وقد يرتفع دهاؤه الى حد ان يجعل من تلك العملية محورا بقيد ولو ظاهريا من حدود حركته فيبدو وكأنه قد اخضع مفاهيمه لعملية التلون بابعاد الانتهازية فان القاعدة المطلقة التي يجب ان يتذكرها القائد السياسي هو انه لايجوز له ان يدع ذلك التلون يؤثر على جوهر ايدلوجيته، تلك الايديولوجية التي اتفقت في لحظة معينة مع امن امته القومي. فليدع التلون يصير قاعدة للحركة دون ان ينال من مدلول الحركة. رجل الاعلام ليس فقط من حقه ذلك بل ان واجبه ان يتلون لانه اداة السلطة او الحركة السياسية في نطاقها الخارجي(٤٨).

. كذلك يجب ان نفهم حقيقة الصراع العربي الاسرائيلي. ان الاعوام القادمة تمثل بالنسبة للعالم العربي الفرصة الاخيرة التي يقدر لهذه البلاد ان تستطيع خلالها اي مواجهة حقيقية للخطر الاسرائيلي. والقتال اليوم في مواجهة اسرائيل عسكريا كان ام دبلوماسيا أم اعلاميا ليست غايته انتصار وانما ضبط للخطر ومنعه من الاستفحال. هذه الحقيقة لاتعني اننا نريد بهذا القول انه لايجوز ان نضع في اذهاننا احتمالات الاتفاق او الحل السلمي وانما الذي يجب أن نتذكره ان الاتفاق او الحل السلمي لايجوز ان ينظر اليه على انه اداة من ادوات القتال. قد تكون اداة مرحلية وقد تكون اداة دعائية ولكنها يجب ان تندرج في اطار عام من المواجهة الكلية الشاملة.

تنبع من هذا خصائص معينة: فالمنطلق السياسي هو وحده الاساس في الدعاية والعمل الاعلامي في الحركة الخارجية. والمنطق السياسي يعني هنا ابعادا ثلاثة ثقافية سياسية خارجية، معركة مصيرية، خلفية عامة للادراك بحقيقة وخصائص المجتمع الاسرائيلي والسياسة الاسرائيلية(٤٩).

العنصر الثالث الذي يجب ان يسيطر على فلسفتنا الاعلامية يدور حول طبيعة نظرة العالم الغربي الى المجتمع العربي. ان الصورة العربية في التقاليد الاوربية والامريكية تتوزع من حيث جوهرها بين الاحتقار

---

(٤٧) قارن ملاحظات:

BENIVENISTE, The politics, of expertise, 1972, P. 7.

(٤٨) لايجوز ان يفهم ذلك بمعنى ان رجل الاعلام يستطيع ان يتلون دون قيود. ولنتذكر اننا بصدد تحليل عملية الاعلام الخارجي وقد تحددت تلك العملية بانها امتداد للسياسة الخارجية بخصوص قضية الصراع المصيري. طبيعة الصراع بهذا المعنى تفرض قواعد معينة. انها لعبة الحياة او الموت. مرة اخرى نجد ان فكرة توزيع الادوار هي احدى الخصائص الواضحة لتنفيذ السياسة الخارجية وتبرز بصفة خاصة في تطبيقات معينة تفرض تلك العملية. سبق ان رأينا السياسة الاسرائيلية وكيف برعت فيها اسمناه اسلوب الجوقة، انظر التفاصيل في حامد ربيع، ابحاث في نظرية الاتصال، م. س. ذ.، ص ٧٠ ومابعدها.

والخوف. ورغم التباين والتناقض الواضح بين هذين العنصرين من عناصر النفسية الاوربية الا ان المواطن الغربي استطاع ان يوفق بينهما تبعا لحركته. في حالة الفشل يبرز عنصر الاحتقار فاذا بالعالم العربي لايصلح لان ينتمي للعالم المتمدين واذا بالدعاية الاسرائيلية تقدمه نموذجا للهنود الحمر في صورة اخرى. وفي حالة النجاح نحن نمثل الخطر على الحضارة الاوربية ذات التقاليد الكاثوليكية واذا باسرائيل تتقدم على انها محور الدفاع عن ذلك التراث(٥٠). هذه النظرة بشقيها تعود الى العصور الوسطى. واذا كانت قد اختفت او ضعفت خلال القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين فلم يكن ذلك الا نتيجة للمصالح الاستعمارية. ومنذ وضع حد لتلك المصالح عادت تلك التناقضات لتبرز مرة اخرى معبرة عن وجودها بصراحة بعض الاحيان دون حياء وفي احيان اخرى بتردد، نستطيع ان نصفه على انه علامة من علامات جبن المجتمع البرجوازي المعاصر. الدعاية الاسرائيلية استطاعت ان تستغل تلك الرواسب القديمة بدهاء منقطع النظير وعلينا ان نغير تلك الخلفية. ولكن في انتظار تغييرها لايجوز لنا ان نتصور ان الغزل الذي قد يعبر عن نفسه كرد فعل لمواقف القوة والصلابة التي قد تعبر عنها الحركة العربية يعني اختفاء تلك النظرة(٥١).
ان عناصر الخوف تصير في تلك اللحظة هي المحور الطبيعي الذي تتمركز حوله الصورة القومية للعالم العربي في الرأي العام الغربي وعلينا ان نعمل على شل تلك الأحاسيس المتناقضة ابتداء من المنطلقات الثقافية للاعلام العربي.

واخيرا يجب ان نفهم ضرورة التمييز بين السلطة ومن يمارسها من جانب ومن يمثل المجتمع من جانب اخر. لقد سبق وابرزنا هذه الحقيقة في اكثر من مناسبة وللاسف فان العالم العربي درج على ان يتصور ان صوت السلطة هو وحده الذي يجب ان يتحدث باسم الجماعة في داخل او خارج الجماعة فاذا اتخذت السلطة موقفا رسميا فان التقاليد العربية تعني انه لم يعد من الممكن تصور اي موقف اخر يعبر عنه فرد او فئة يتعارض ولو جزئيا مع موقف السلطة. ان التناسق في اجزاء المجتمع السياسي ليس فقط في الانتماء الواحد بل وايضا في التعبير بالصوت الواحد(٥٢). سبق ان رأينا ايضا ان هذا المفهوم لايجوز ان يسيطر على السياسة الخارجية وبصفة خاصة فيما يتعلق بالنشاط الاعلامي. ليس معنى ذلك ان نترك الابواق تتناقض وتتشابك في تعارض قد يصل في بعض الاحيان الى حد الاسفاف وانما الذي نريد ان نؤكد عليه ان من حق السلطة بل ومن واجبها ان تشجع ابواقا مستقلة تقول ما لاتستطيع هي ان تقوله. كل ذلك ينبع من فكرة واحدة وهي ان الاعلام الخارجي لايجوز ان يترك للافراد ولكن يجب ان يستغل فيه الافراد لتحقيق نوع من التوازن النفسي ازاء القوى الخارجية من خلال خلق الابواق ولو المصطنعة التي تستطيع ان تقول مالاتستطيع ان تعلن عنه السلطات الرسمية(٥٣).

الاعلام الرسمي والحكومي يستطيع ان يتستر خلف الاعلام غير الحكومي وغير الرسمي. وهكذا تصير السياسة الخارجية وقد اضحت تقودها جوقة كل عنصر فيها يعمل في نطاقه. بل ان هناك صورة معينة من صور الاعلام يجب ان يتجه ليحمل الطابع غير الرسمي. ذلك الاعلام الذي سبق ووصفناه بأنه يتجه الى صانع القرار. المحاضرات الجامعية والمؤلفات العلمية فضلا عن عملية الاتصال الشخصي تصير جميعها

---

(٥٠) قارن HARKABI, Arab attiudes towards Israel, 1972, P. 353.

(٥١) سبق ان ذكرنا موقف الصحافة الاوروبية من عملية استخدام البترول كاداة في الصراع العربي الاسرائيلي. نستطيع ان نضيف الى ذلك موقف الصحافة اليمينية التي عبرت عنها بصفة خاصة القوى الكاثوليكية في ايطاليا وفرنسا. فانذكر على سبيل المثال تعليق جريدة المساجيرو بتاريخ ١٣/١١/١٩٧٣.

(٥٢) انظر تطبيقا لهذه النواحي في تصور فرعي بخصوص ظاهرة الوحدة في حامد ربيع، البترول العربي، م. س. ذ.، ص ٣٥.

(٥٣) MALETZKE, Intercultural and international communication, in FISCHER, MERRILL, Inernational communication, 1970, P. 477.

عصب هذا النوع من انواع الاعلام غير الرسمي وهي جميعها امور لايمكن تحقيقها سواء في نطاق العمل الدبلوماسي او العمل العسكري. ولعل نموذجا معينا يفصح عن اهمية هذا الاسلوب من اساليب الاتصال الدولي. ففي جميع الجامعات الامريكية بصفة خاصة في الجامعات التي تعد الطبقات القيادية كجامعة هارفارد وجامعة كولومبيا وجامعة جورج واشنطن نجد هناك كراسي وبرامج اعدت خصيصا لتدريس السياسة الاسرائيلية والايديولوجية الصهيونية(٥٤). هي بهذا المعنى تخلق بؤرا للتعاطف ان لم يكن فقط بالعلم وتسمح بعملية تثقيف مستمرة قد ترتفع الى مرتبة غسيل المخ في بعض الاحيان. في مواجهة هذه الحركة ماذا فعلت السلطات العربية؟ ان الذي نعلمه انه لايوجد سوى كرسي واحد بجامعة هارفارد لتدريس تاريخ الفلسفة والعلوم في الحضارة الاسلامية تنفق عليه حكومة الكويت. ولكن هل هناك كراسي اخرى مماثلة تدافع عن وجهات نظرنا في قضية الشرق الاوسط او على الاقل تنقل المعلومات الاساسية والحقائق الثابتة عن ابعاد الصراع العربي الاسرائيلي؟

١٠٢ ـ حول التنظيم الاداري لمرفق الاعلام العربي:

لايكفي لابراز خصائص الاعلام كأداة قتالية ان نقف امام الابعاد النظرية المتعلقة بطبيعة الاعلام كأداة من ادوات السياسة الخارجية بل يجب ان نحدد بوضوح كيف يمكن تنظيم مرفق الاعلام العربي بحيث يؤدي وظيفته كما سبق وحددناها(٥٥).

لانستطيع في هذه الخلاصة السريعة ان نتناول هذه الناحية بالتفصيل الكافي ولكن بعض القواعد تسمح لنا بتقديم التصور الذي نعتقد انه وحده الصالح لتمكين مرفق الاعلام من الفاعلية المطلوبة. اساس ذلك التنظيم هو ضرورة التمييز بين ابعاد ثلاثة للعمل الاعلامي كل منها له خصائصه المستقلة. هذا التمييز لاينبع من طبيعة العلمية الاعلامية وانما يتحدد بخصائص الموقف المعاصر الذي تواجهه الامة العربية.

بعبارة اخرى يتعين علينا ان نميز في العمل الاعلامي بين نواح ثلاث:

اولا: النواحي الحضارية والتي تدور حول الصورة العربية بجميع ابعادها وبما يرتبط بها من عناصر ايجابية او سلبية للحركة الاعلامية(٥٦).

ثانيا: النواحي الدعائية المرتبطة بتفسير الاحداث اليومية والوقائع المتجددة التي تدخل في نطاق مايسمى بالعمل الدبلوماسي الجاري.

ثالثا: النواحي الحركية اللصيقة بدفع القوى وتشجيع العناصر المساندة او المؤيدة للقضية العربية في النطاق الخارجي.

---

(٥٤) انظر نموذجا وافيا من خلال الخبرة الامريكية في:

JULIEN. Lempire american, 1968, P. 281.

(٥٥) كم كنا نتمنى ان يقدر للمسؤولين عن الاعلام العربي قراءة متعمقة وتحليلا للمفاهيم الواردة في مؤلف الدير على ضوء الخبرة الاميركية بخصوص التنظيم الاداري لمرفق الاعلام الخارجي.

ELDER, The information machine: the United States information agency and American foreign policy. 1968. P. 79.

(٥٦) جدير ايضا بالتحليل واعادة التقييم على ضوء خبرة الصراع العربي الاسرائيلي ذلك المفهوم الذي يطرحه العالم الاميركي باسم «الصدمة الحضارية» او Culture Schocks

بخصوص الاثار السلوكية على التبادل الدولي للطلبة. انظر

MERRITT, Effects of international student exchange, in MERRITT, Communication in international politics, 1972, P. 65.

ان التخطيط الذي يسمح بتحقيق التنسيق بين هذه النواحي الثلاث دون التضارب او التناقض بينها يجب ان يكون اساسه المبادىء التالية:

١ - التخصص الاعلامي بجميع معانيه بما في ذلك ضرورة التفرقة بين النواحي الثلاث السابقة بحيث يعهد الى مرفق الاعلام التابع لجامعة الدول العربية فقط بتلك النواحي الحضارية. النواحي الدعائية واليومية تترك لاجهزة الاعلام الحكومية اما النواحي الحركية الخارجية فيعهد بها الى اجهزة المخابرات[٥٧]
٢ - والتخصص يفرض الاستقلال ولكن الاستقلال لايعني عدم التنسيق ومن ثم يجب في التنظيم الذي تتولى ادارته جامعة الدول العربية ان يوجد جهاز يتولى التنسيق والتوفيق بين جميع اجهزة الاعلام الحكومية واجهزة المخابرات بما يتفق ولايتعارض مع تلك النواحي الحضارية التي يجب ان تتولاها جامعة الدول العربية.
٣ - اضف الى ذلك مبدأ المرونة في التنفيذ.
٤ - ويتفرع عن مبدأ المرونة في التنفيذ مبدأ التدرج في الحركة.
٥ - ويكمل كل ذلك قاعدة العلمية المطلقة في التخطيط الاعلامي.
سوف نعود الى المبادىء الاخيرة فيما بعد بايضاح اكبر. ولكن السؤال الذي يجب ان نطرحه منذ الان: ما هي الجهة او ماهو التصور الشكلي للجهة التي يجب ان تقوم بالاشراف على مرفق الاعلام التابع لجامعة الدول العربية؟

لقد سبق وذكرنا في غير هذا الموضع ان هذا يجب ان يعهد به الى منظمة مستقلة[٥٨] تتبع الجامعة العربية ولكنها يجب ان تستقل عنها استقلالا كاملا وتستقل عن الحكومات ولو استقلالا جزئيا. يجب ان تكون هذه المنظمة لا فقط تعبيرا عن التخصص الاعلامي بل وعن استقلال القائمين بالعمل فيها تحت اشراف سلطة عليا لاتخضع للاساليب التقليدية التي عودتنا اياها بيروقراطية جامعة الدول العربية[٥٩].

١٠٣ - تخطيط التحرك الاعلامي وأبعاده:

عملية تخطيط التحرك الاعلامي العربي وابعاده النظامية في حاجة الى تلك القيادة الفكرية صاحبة القدرة على التخيل ذات الخيال الخصب الذي يتصف بالابتكار فضلا عن الدراسة العلمية وتطبيق قواعد تحليل

---

(٥٧) علينا ان نلاحظ بخصوص عملية الاستدلال التي يمكن ان تستمد من نظام الاعلام الخارجي الاميركي ان هذا الاعلام ورغم انه امتداد للسياسة الخارجية الاميركية الا انه يمثل سياسة واحدة ومنسقة بحكم كونها تعبيرا عن ارادة دولة واحدة وهو امر غير قائم بالنسبة للبلاد العربية رغم ذلك انظر بخصوص تكوين مايسمى «اللجنة الامريكية الاستشارية للاعلام» الدبر م.س.ذ.، ص ٣٠١ ومابعدها.
قارن ايضا:
HINGLEY, THE Russian secret police, 1970, , P13.
(٥٨) ظاهرة المنظمات المتخصصة لم تكن حتى الان موضع دراسة كافية خاصة في نطاق مانستطيع ان نسميه بالمنظمات الاقليمية المتخصصة. انظر في الفقه العربي رسالة تلميذنا تلمي غسان يوسف مزاحم، المنظمات العربية المتخصصة، ١٩٧٣ (ماجستير كلية الاقتصاد والعلوم السياسية) ص ١٢ ومابعدها.
(٥٩) قارن حامد ربيع، التعاون العربي، م.س.ذ.، ص ١٥٧.

اساليب التحرك الاتصالي بجميع انواعه[٦٠]. سبق ان رأينا وتابعنا في مواضع اخرى كيف واجهت هذه الحقيقة التقاليد الصهيونية وكيف استغلت جميع الخبرات ابتداء من الخبرة الاسلامية ودون ان تترك الدلالات والدروس المستفادة من تاريخ الحركة النازية. ورأينا اسماء لامعة لم تتردد الحركة الصهيونية في ان تحتضنها وتقدم لها جميع الوسائل والامكانيات في سبيل استخدام المناهج العلمية بأدق ماتعنيه هذه الكلمة للوصول الى اهدافها الواضحة المحددة مسبقا[٦١]. فالعالم الالماني «لوين» الذي تعاون مع «سيلفر» ومن خلال ابحاثه في الجامعات الامريكية استطاع ان يصوغ اللغة الدعائية التي سيطرت على عملية الاتصال في المجتمع الامريكي خلال الفترة اللاحقة للحرب العالمية الثانية. العالم الاسرائيلي «ليو كوهن» الذي ظل حوالي خمسة عشر عاما يتستر خلف الاجهزة العلمية المتحكمة في عملية الدعاية من وزارة الخارجية الاسرائيلية. هذه ليست سوى بعض اسماء. وازاء نقص المعلومات لانستطيع في هذه اللحظة سوى ان نتصور اكثر من عالم واحد يواصل نفس المهمة سواء في اسرائيل ام معاقل الصهيونية وفي اكثر من بقعة واحدة[٦٢]. كل هذا لايعكس سوى الحقيقة التي يجب ان تسيطر على عملية التخطيط الاعلامي. ان هذا التخطيط لايمكن ان ينبع الا من عقلية علمية ولابد ان يعكس جهود مجموعة ضخمة من المتخصصين وقد مكنوا من ذلك بالامكانيات اللازمة وقد اثبتوا ايضا قدرة على الصلاحية فضلا عن الثقة في ايمانهم بالقضية. هذه المفاهيم

CONFLICT MANAGEMENT (٦٠)

فن ادارة الصراع يمثل احد ميادين الثقافة السياسية المعاصر التي تثير الكثير من اللغط وعدم الوضوح على ان هنالك عدة حقائق لا موضع للمناقشة بخصوصها. اولها ان خصائص القيادة هي التي تحدد وتتحكم في اسلوب ادارة الصراع. الثانية ان النجاح في عملية ادارة الصراع وبغض النظر عن الخصائص القيادية يفرض عنصرين: الملائمة مع الموقف من جانب والتخطيط من جانب اخر. الاول يعني ماسبق وحددناه بانه القدرة الايجابية والسلبية مع ربط كل ذلك بطبيعة المشكلة التي تستتر خلف الموقف. العنصر الثاني يجب ان يتسع فيفهم التخطيط بجميع ابعاده ابتداء من تحديد الاهداف الى عملية معالجة الادوات. الحقيقة الثالثة التي يجب ان تكون بدورها واضحة في ذهن القاريء هو ضرورة عدم الخلط بين عملية صنع السياسة وعملية صنع القرار السياسي وعلاقة كل منهما بعملية ادارة الصراع. ان ادارة الصراع لاتعني صنع السياسة كما اوضحنا في غير هذا الموضع هي تحديد الاهداف وبناء خطة الحركة. هي عملية تسيطر عليها بعبارة اخرى الثقافة المجردة. عقب ان تصنع السياسة policy making بمعنى تخطيط الحركة بمختلف مقوماتها يتعين على السياسي ان ينتقل الى التنفيذ. والتنفيذ يعني اتخاذ مجموعة متتالية من القرارات تبدأ من اختيار اللحظة المناسبة والرجل المناسب الى الانتهاء بتصفية جميع المشاكل الجانبية التي فرضتها الحركة الواقعية. هذه العملية هي ادارة الصراع بعبارة اخرى من حيث اطارها الخارجي ليست سوى اتخاذ مجموعة متتالية من القرارات ولعل هذا يوضح لماذا نجاح ادارة الصراع يفرض وضوح الاهداف واطار الحركة مسبقا على نفس الانتقال الى قيادة قنوات الحركة. ولعل هذا يفسر ايضا لماذا تقف الدول الغربية ازاء الدول العربية وهي تتساءل ماذا يريد هؤلاء من استخدام سلاح البترول ضد بعض البلاد الاوروبية ان استخدام سلاح البترول في حقيقته هو قرار يندرج في عملية ادارة الصراع ولكن استخدامه كان يفترض ان يخطط مسبقا موضعه في الاطار العام لصنع السياسة الخارجية بحيث تتحدد الغاية والهدف منه وموضعه في كل خطوة من خطوات التقدم او التراجع او الهجوم.

قارن تعليق الاكونومست ١٩٧٣/١٢/٨ بخصوص ملاحظتنا حول استخدام البترول ص ٢٩ ومابعدها حيث يبدأ المحلل اللندني بقوله:

The trouble about the Arabs' oil weapon is that no one is sure what they want in return

وهنا تبدو اهمية الاعلام كاحد ادوات ادارة عملية الصراع. فهو تارة وسيلة معدة على مستوى صانع القرار او قائد الرأي. ثم هو تارة اخرى وسيلة للتمويه وتكتيل القوى المعادية في وجهة غير الوجهة الصحيحة بحيث يسهل تصدير الضربة القاضية. وهو في حالات اخرى يسمح بتحقيق عملية توازن مرحلية ازاء اخفاق او ضعف الادوات الاخرى ثم هو في بعض النماذج الحركية يصير وسيلة لتغطية عملية انسحاب منظمة. وقد قدمنا امثلة وتطبيقات لكل من هذه الصور للفاعلية الاعلامية ومدى ماتستطيع ان تقدمه. على ان التفاصيل الكلي والكامل لوظيفة الاعلام في فن ادارة الصراع السياسي لاتسمح به هذه الصفحات!

قارن ايضا:

CRENER, MINTILL, Principes de management, 1971. P. 102.

(٦١) حامد ربيع دراسات اساسية حول الصهيونية واسرائيل. م.س.ذ.، ص ٢٦ ومابعدها.

(٦٢) حامد ربيع، ابحاث في نظرية الاتصال، م.س.ذ.، ص ٨٤ ومابعدها.

العامة في حاجة الى بلورة علمية لتحديد واضح لقواعد التخطيط في مختلف معانيه وابعاد التحرك بمختلف درجاته.

لانستطيع في مثل هذا المشروع الموجز سوى ان نؤكد على القواعد العامة. ليس فقط لان الموضع لايصلح لاكثر من ذلك بل ولانه ايضا ليس من الحكمة ان نكشف جميع اوراقنا للعدو وان نمكنه من معرفة امكانياتنا بتلك السذاجة التي تعودناها حتى اليوم.

ونستطيع ان نركز بصفة خاصة على القواعد الثلاث الاتية:

القاعدة الاولى: وهي قاعدة التخطيط[٦٣] فأي عمل دعائي او اعلامي وبصفة خاصة عندما يأخذ صورة الدعاية العكسية لايمكن الا ان يخضع لعملية التخطيط الدقيق الذي يجب ان يتميز بالاعتبارات الاتية:

(أ) مركزية التخطيط مع لامركزية التنفيذ[٦٤]. العقل الذي يخطط للعمل الدعائي يجب ان يكون واحدا حتى ولو تعددت ادوات التنفيذ.

(ب) الخطة ليست مجرد اهداف تحدد. وانما يجب ان تتجزأ هذه الاهداف الى مراحل وان تحدد بالنسبة لكل مرحلة ادواتها وان يستتر خلف كل ذلك منطلق متكامل للعمل الدعائي.

(جـ) كما ان التخطيط يفترض المراحل المتعددة فهو يميز بين المستويات المختلفة[٦٥]. لقد سبق ان رأينا كيف يجب التمييز بين صانع القرار وقادة الرأي والشرائح السياسية للمجتمع السياسي والاداة واللحظة التي يجب ان تصب فيها الشحنة الاعلامية لابد وان تتنوع تبعا لتلك المستويات.

وهذه ايضا ناحية يجب ان يدخلها المخطط في اعتباره. بل وقد تثير اكثر من منهاج واحد وقد تدعو للمناقشة حول التفضيل بين اكثر من فلسفة واحدة. هل نبدأ برجل الشارع لنجعل منه اداة للضغط على صانع القرار ام نبدأ بصانع القرار وقادة الرأي لنجعل منها بؤرة قادرة على الاشعاع؟ اسئلة الاجابة عليها لايمكن ان تتم الا بناء على دراسة مسبقة وتحليل لخصائص المجتمع موضع الهجوم الاعلامي[٦٦].

(د) وكل هذا يرتبط به ويتفرع عنه ضرورة التخطيط لتنظيم عملية التمييز بين اداة واخرى او للجمع بين مختلف الادوات الاعلامية. فالاتصال من خلال التلفزيون له مزاياه ولكن ايضا له عيوبه. وهو قد يصلح لمجتمع معين ولكنه قد يكون اقل فاعلية في مجتمع اخر ويكفي على سبيل المثال ان نقارن بين وظيفة التلفزيون في المجتمع الانجليزي ووظيفته في المجتمع الفرنسي[٦٧]. تفضيل اداة على اخرى أو الجمع بين اكثر من اداة معينة او التنقل من اداة الى اخرى يمثل بدوره ايضا عملية لايمكن ان تنبع الا من تخطيط علمي متكامل.

---

(٦٣) حامد ربيع، نظرية الدعاية الخارجية م. س. ذ، ص ١١٢ ومابعدها.

(٦٤) حامد ربيع، فلسفة الدعاية، م. س. ذ.، ص ٦٩.

(٦٥) حامد ربيع، ابحاث في نظرية الاتصال. م. س. ذ.، ص ٥٥.

(٦٦) بل ان هذه الاستراتيجية قد تختلف تبعا لخصائص كل مجتمع. فاذا كان مجتمع امريكا اللاتينية بحكم خصائص تكوينه وبنيانه وخصائص الطبقة الحاكمة من حيث علاقتها بالطبقات المحكومة وامكانيات التأثير فيها من جانب وحريتها في الحركة من جانب اخر قد يفرض الابتداء برجل الشارع خلافا لمجتمع الولايات المتحدة الذي على العكس من ذلك يفرض الابتداء بالقيادات ومراكز صنع القرار فان المجتمع الاوروبي لابد وان يفرض كلا الاتجاهين في ان واحد. وهنا تبدو واضحة اهمية الدراسة المسبقة لانه لاول وهلة قد يبدو هذا التصور مخالفا للمبادىء العامة. فالمجتمع المتخلف يرفض ان يعطي للرأي العام اهمية خاصة. والمجتمع الأمريكي الشمالي الذي ينظر اليه على انه مجتمع متقدم يجعل من الرأي العام احد متغيرات الحياة السياسية. رغم ذلك فان الدراسة العلمية لعملية التخطيط الاستراتيجي بخصوص استخدام الاعلام كاداة من ادوات الصراع تفرض ان نواجه التخطيط المرحلي بمنطق اخر. انظر ايضا:

MOCO, Lhomme informatifie, 1971. P.

(٦٧) قارن ايضا

LES ROW. Television. 1971. P. 219.

القاعدة الثانية والتي طرحناها من خلال هذه الدراسة بجميع ابعادها تدور حول عملية التميز بين الاتصال الداخلي والدعاية الخارجية. لقد سبق ان رأينا ان كلا منها يخضع لمنطق متميز وان الجمهور في كل منها يختلف عن الاخر ومن ثم فان عملية الاتصال الخارجي لايجوز ان تخضع لنفس عملية الاتصال الداخلي[٦٨]، ان جميع علماء وخبراء الاتصال السياسي يسلمون بهذه الحقيقة ولم يعد هناك موضع للتشكيك في ضرورة هذا التميز وجعله منطلقا اساسيا في عملية التخطيط الدعائي والاعلامي لقد سبق ان رأينا ان الدعاية الداخلية هي لغة سياسية تدور حول تأكيد الثقة من جانب الطبقة المحكومة في علاقتها بالطبقة الحاكمة وانها بهذا المعنى امتداد طبيعي لعلاقة الولاء في مفهومنا الحركي. الدعاية الخارجية هي لغة مصالح ترمي الى مساندة التحرك الخارجي في نطاق العلاقات الدولية. رغم ذلك فيما يتعلق بالاعلام العربي وكما سبق ورأينا يجب ان نضيف الى هذا الاعلام القومي او بعبارة اخرى يجب ان نميز بين الاعلام الداخلي والاعلام القومي بمعنى الاعلام العربي الذاتي ثم الاعلام الخارجي[٦٩]. هذا التميز لايمنع من ضرورة الترابط والتنسيق، وهذا يقودنا الى القاعدة الثالثة.

القاعدة الثالثة وتمثل المبدأ الحقيقي الذي لم يقدر للاعلام العربي في اي من مراحله ان يفهم مدى خطورته. نقصد بذلك قاعدة التنسيق الاعلامي ومعنى ذلك ان الاعلام او الحركة الاعلامية يجب ان تتصف بالتجانس. ابعاد التنسيق او التجانس الاعلامي عديدة والتقدم الرهيب في وسائل الاعلام المعاصر وما ارتبط به من امكانيات نقل المعلومات بسرعة وبطريق مباشر فرض على عملية الاتصال الاعلامي ابعادا عديدة لابد من توفرها لتحقيق هذا التنسيق والتجانس.

(أ) فالاعلام الخارجي يجب ان يعبر عن الخط السياسي ويسايره حتى لو تعارض معه في منطقه[٧٠]. بعبارة اخرى كل حركة اعلامية يجب ان تتناسق مع الاهداف العامة الكلية للسياسة الخارجية او مع ماسبق وسميناه الجوقة الكلية الشاملة للتحرك الخارجي.

لقد سبق ان رأينا كيف ان الاعلام الخارجي قد يكون اداة لتحقيق التوازن في التحرك السياسي الذي قد يضطر القائد لان ينساه مؤقتا ازاء مقتضيات الموقف الدولي العام وذكرنا بهذا الخصوص نموذجا نعاصره في هذه اللحظة وهو مبدأ الاعتراف بشرعية الوجود الاسرائيلي.

(ب) كذلك فان التناسق يفرض تحقيق نوع او درجة معينة من درجات التجانس بين مدلول الرسالة الاعلامية تبعا لاداة تلك الرسالة ورغم اختلاف وخصائص طبيعة الاداة. لقد رأينا ان عملية الاتصال قد تكون اعلامية وقد تكون شخصية وان الاعلام يعرف مسالك متعددة ابتداء من الاعلام المكتوب وحتى الاعلام المرئي[٧١]. وان الاعلام المكتوب بدوره له نماذج لاحصر لها فهناك الاعلام الدوري اليومي والاعلام الدوري غير اليومي والاعلام غير الدوري فضلا عن الاعلام المتخصص على سبيل المثال. التناسق يجب ان يضم ويجمع جميع هذه المسالك في خط واحد من حيث المنطق الاتصالي وان اختلفت مظاهر التعبير عن ذلك المنطق تبعا لاختلاف الاداة زمانا او مكانا او كليهما[٧٢].

---

(٦٨) قارن ذلك وفي ابعاد اخرى: LIVOLST. Communica Ẑioni e culture di massa, 1969. P. 23. MINOR, The information war, 1970, P. 134.

(٦٩) انظر سابقا ص ٢١٢ ومابعدها.

(٧٠) انظر فيما بعد ص(٢٧) ومابعدها.

(٧١) حامد ربيع، مقدمة العلوم السلوكية، م.س.ذ.، ص ٢٧٥.

(٧٢) بل ان نفس الاعلام الدوري اليومي قد يختلف من حيث طبيعته بل ومن حيث خصائص القارىء المتجه اليه الاعلام اليومي. فصحيفة صباحية لاتؤدي نفس الوظيفة التي تؤديها الصحيفة المسائية وجريدة الموند الفرنسية لايمكن ان تخضع لنفس المعايير من حيث الصياغة التي تخضع لها صحيفة اخرى يومية وصباحية وفرنسية كجريدة الفيجارو. انظر بعض التفاصيل بهذا الخصوص في حامد ربيع، نظرية الاتصال، م.س.ذ.، ص ١٣٣ ومابعدها.

(جـ) التنسيق يفرض نفسه ايضا على العلاقة بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي بالتفصيل الذي سبق وبيناه.
(د) كذلك فان الاعلام الخارجي هو اداة من ادوات السياسة الخارجية يجب ان يندمج وينصهر في عملية التخطيط العامة للسياسة الخارجية بحيث لايتناقض مع العمل الدبلوماسي والعمل العسكري الا بحساب وطبقا لخطط موضوعة.
(هـ) واخيرا فان هناك نوع اخر من التجانس تفرضه طبيعة سرعة الحركة في المجتمع المعاصر. فالامر الذي لاشك فيه ان السياسة الخارجية بحكم طبيعة العالم الذي نعيشه لابد وان تتعرض في تنفيذها لبعض المواقف السياسية التي قد تفرضها الضرورة والمتناقضة مع الخط السياسي العام[٧٣]. هنا تبرز اهمية الاعلام كاداة تسمح بتبرير وتفسير وتغطية وتمويه تلك المواقف السياسية المتناقضة. وظيفتها تقديم الاجابة على علامات الاستفهام المتكررة دون ان تخلق الشك او تدع مجلا لاي تناقض منطقي بين اطار عام للحركة قد تحدد مقدما وواقعة فجائية او غير متوقعة اتت فاحدثت ذلك الاضطراب بين دلالتها وذلك الخط العام. وسواء تم التخلص من ذلك التناقض من خلال عملية تخدير او تمويه او تم بتقديم التفسير المنطقي والتبرير الكافي ولو مؤقتا فان النتيجة الاساسية التي يسعى اليها الاعلام هي منع بذور الشك لان وجود هذه البذور يصير بمثابة خلق قنوات صالحة لاستقبال المنطق والدعاية المعادية والتفاعل معها والتفاعل بها بسرعة ودون اي مقاومة.
كل من هذه القواعد السابقة يتفرع عنها الكثير من النتائج والتي ليس هذا موضع التفصيل بخصوصها. ولكن احدى هذه النتائج التي يجب ان نركز عليها تدور حول خلق الخبراء المتخصصين في العمل الدعائي[٧٤].
يجب ان نسلم بأنه لايوجد في العالم العربي حتى هذه اللحظة خبراء في الاتصال الدولي وبصفة خاصة في الدعاية الخارجية. وكان الواجب على المسئولين ان يبدأوا منذ عام ١٩٦٧ باعداد جيل من خبراء الفن الدعائي وهو امر لم يتم ولم نشرع فيه بعد. لقد ابرزنا كيف ان المشتغل بالاعلام المحلي لايصلح للاتصال الخارجي. كذلك اكدنا على المنطلقات المختلفة التي يجب ان تكون الخلفية الحقيقية لرجل الاعلام الخارجي.
ان العمل الدعائي ليس بتلك السهولة التي يتصورها المسئولون، انه في حاجة الى تخطيط وصبر وثقة[٧٥].
وليس في البلاد العربية خبراء في الدعاية الخارجية ونستطيع دون مبالغة ان نؤكد ان من يصلحون لهذا العمل بالاشتراك الجدي في خطة مواجهة فعالة للدعاية الاسرائيلية في جميع بلاد منطقة الشرق الاوسط لايمكن الا ان يعدوا على اصابع اليد الواحدة. ومن ثم فان احدى المهام التي يجب ان يبدأ بها ذلك الجهاز المستقل عن جامعة الدول العربية هو خلق هؤلاء الخبراء الذين يجب ان يتم اعدادهم اعدادا ذاتيا على ضوء ومتطلبات المهمة التي سوف يعهد بها اليهم.
عملية اعداد جيل جديد من الخبراء تفرض ضرورة التمييز في التحرك الاعلامي المقبل بين خطة العمل المؤقتة والخطة طويلة الاجل.
الاولى تدور حول البدء بما لدينا من قدرات بشرية وفي ضوء تحرك قصير المدى لايتجاوز عامين او ثلاثة اعوام. ولكن الى جوار ذلك يجب ان توجد خطة بعيدة المدى بحيث تمتد الى فترة لاتقل عن عشرة اعوام[٧٦].
ان حصر الفيضان الدعائي لاسرائيل وتحويله الى اسهم مصوبه نحو العقل والمنطق اليهودي بقصد تحطيمه

---

(٧٣) حامد ربيع، نظرية السياسة الخارجية، م. س. ذ.، ص ٤١ ومابعدها.
(٧٤) انظر بهذا الخصوص بعض ملامح الخبرة الاسرائيلية في مالبرين. م. س. ذ.، ص ٢٥٣ ومابعدها.
(٧٥) قارن حامد ربيع. عملية صنع القرار السياسي، م. س. ذ.، ص ١٧ ومابعدها.
(٧٦) حامد ربيع، نظرية الدعاية الخارجية، م. س. ذ.، ص ١٨٩ ومابعدها.

والقضاء عليه لن يتم بين يوم وليلة ولابد في سبيل الوصول الى تحقيقه من خطوات متتابعة كل منها تؤدي الى الاخرى. وأذا كانت الخطة القصيرة الامد تفترض البدء بما لدينا من امكانيات ومحاولة تحسس المواقع الايجابية واستخلاصها فانها تفترض ايضا ان تجعل الهدف الاصيل هو خلق ذلك الجيل من الخبراء المتخصصين. الخطة البعيدة المدى هي التي تعنينا اساسا في هذا التصور لانها هي التي سوف تثير المشاكل النظرية والعلمية والتي يجب ان نوضح ابعادها ولو بايجاز في هذه العجالة.

هذه الخطة يجب ان تدور في الابعاد الخمسة التالية حيث ان كلا منها يمثل مرحلة مستقلة قد تتداخل مع المراحل الاخرى ولكنها ذات كيان متميز[٧٧].

المرحلة الاولى: حيث يكون الهدف هو مجرد ايقاف المد الدعائي الاسرائيلي او بعبارة اخرى علينا ان نتصور الدعاية الاسرائيلية كنوع من الفيضان الفكري وعلينا ان نبدأ باحاطة هذا الفيضان واقامة هذه الحواجز سواء كانت قوية او ضعيفة التي سوف تمنع من السريان والانتشار في غير الاماكن والطبقات التي نجحت فيها مقدما.

الهدف بعبارة اخرى هو منع السريان من الانتشار. هذه المرحلة ان شئنا هي مرحلة نقف فيها موقف المهزوم اعلاميا الذي يحاول ان يخفف من حدة هزيمته. وهنا علينا ان نلحظ ان حرب اكتوبر ١٩٧٣ تمثل نقطة رائعة بهذا الصدد، فهي قد اوقفت المد الدعائي الاسرائيلي سواء لانها ابرزت تناقضه او سمحت بهدم الاساطير المرتبطة بجوهره[٧٨]. ولكن هل حدث من جانب الاعلام العربي حتى هذه اللحظة ، ورغم مضي قرابة خمسة عشر عاما، استغلال لتلك الواقعة؟

واقعة اخرى تصبح بدورها وان كانت اقل فاعلية من حيث صياغة العمل الدعائي وهي عملية التكتل العربيازاء استخدام البترول كسلاح سياسي. وهنا نلحظ كما رأينا كيف ان الدعاية الاسرائيلية استطاعت ان تستغل استخدام سلاح البترول كاداة دعائية في خلق الطبقات من الرأي العام الغربي المعارضة والمتحيزة ضد المنطق العربي وهي بهذا الخصوص لم يصل نجاحها فقط الى حد تصور هذا الاستخدام كاداة من ادوات الابتزاز بل استطاعت ان تشوه الحقيقة حتى على بعض الكتاب والمعلقين العرب وسمعنا من يخرج يتحدث بسذاجة عن عدم جدوى استخدام هذا السلاح ضد اوربا الغربية[٧٩]. هذه الناحية نفرض علينا ان نتذكر كيف ان العمل الاعلامي لايكفي بخصوصه الدراسة العلمية لظاهرة الاعلام بل يجب ان ترافقها وتعد لها دراسات متخصصة غير معدة بالضرورة للنشر وظيفتها ان توضح الابعاد المختلفة للظاهرة موضع عملية الاتصال بحيث يستطيع رجل الاعلام ان يخطط حركته لا فقط على ضوء من العلم بموضوع التحرك بل وعلى ضوء من بدائله المختلفة المتوقعة والممكنة. وبصدد النموذج السابق لو انه كانت هناك دراسة عميقة تسمح بابراز كيف ان استخدام سلاح البترول بشكل معين ضد اوروبا الغربية لابد وان يقود الى اضطراب مماثل ولو بدرجة اقل في الاقتصاد الامريكي بل وفي نفس الاقتصاد الاسرائيلي من جانب اخر لما كانت الدعاية الاسرائيلية استطاعت ان تهون من هذا السلاح في مواجهة القوى

---

(٧٧) انظر في التمييز بين مختلف مراحل العمل الاعلامي والدعائي.

LAZARSFELD, MERTON, Mass communication, popular and organized social action, in schramm. mass communications. 1960,P.492.

(٧٨) انظر تعليق مجلة الاكسبريس الفرنسية بتاريخ ١٩٧٣/١١/١٣ وقارن ايضا جريدة النيويورك تايمز بتاريخ ١٩٧٣/١٠/٢٣.

(٧٩) قارن التايم الاسبوعية بتاريخ ١٩٧٣/١١/١٩.

الامريكية والغربية ولما كان بعض الملقين السياسيين العرب قد سقطوا في ذلك الخطأ نتيجة للجهل او عدم العلم المسبق بابعاد ظاهرة استخدام البترول كسلاح سياسي.

المرحلة الثانية: وننتقل فيها من الدفاع الى الهجوم. خلال المرحلة الاولى نكون قد اكتشفنا نواحي الضعف في الدعاية الاسرائيلية فندق عليها بقوة وبصفة خاصة من خلال ابراز التناقض الداخلي في المنطق الدعائي الاسرائيلي او تقديم الوقائع النافية والمكذبة للادعاء الاسرائيلي بحيث نخلق الشك وعدم الثقة في مصدر الدعاية المعادية. تبدأ هذه المرحلة بتركيز مكثف على جزئيات معينة تمتاز بالتناقض الواضح ثم تسير بعد ذلك في بعدين افقي ورأسي[٨١]. تعميق للتناقض ثم توسيع لمظاهر التناقض الامر الذي لابد وان يؤدي الى هدم الثقة في مصدر الدعاية الاسرائيلية بصفة خاصة والدعايات المعادية بصفة عامة ومن ثم لابد وان ينتهي بابراز تلك الدعاية كاذبة مهلهلة لاتقوم الا على التمويه والخداع. عملية استغلال التناقض عملية معقدة في حاجة الى الدراسة المتكاملة سواء من حيث عناصر المنطق الدعائي او من حيث متابعة ذلك المنطق تاريخيا ومكانيا. ولكن الدراسات المختلفة التي اجريناها على منطق الدعاية الاسرائيلية وبصفة خاصة من خلال مضمون تلك الدعاية خلال الفترة الممتدة من عام ١٩٥٦ حتى عام ١٩٦٧ ابرزت الكثير من ابعاد ونواحي التناقض. فاسرائيل تقدم نفسها على انها دولة تنتمي الى منطقة الشرق الاوسط وفي نفس الوقت تزعم انها امتداد للحضارة الغربية[٨٢]. وهي تصف نفسها بأنها دولة عصرية رغم ان جوهر فلسفتها السياسية يعود بنا الى نموذج للوجود السياسي يتناقض مع كل ما يقدمه التراث المعاصر ابتداء من عصر العقل والنور. وهي تزعم بأنها دولة نامية ورغم ذلك تتحدث عما حققته من تقدم تكنولوجي يجعلها في مصاف الدول الغربية. هذه جميعها نماذج منطقية في حاجة الى الدراسة العلمية الكافية لتعميق هذا التناقض من حيث عناصره ودلالته مدعما بالارقام والوقائع الصالحة لهدم هذا المنطق الدعائي[٨٣].

تنطلق من المرحلة الثانية مرحلة اخرى ثالثة اساسها النجاح في ابراز التناقض. ابراز التناقض بعبارة اخرى والاغراق الاعلامي المرتبط بايضاح ذلك التناقض ونقله الى التصور العام في المستقبل لابد وان يقود الى عملية تشكيك. عندما نثق في ان هذا التناقض قد احدث اثره من التشكيك وعدم الثقة لا فقط في المنطق الاعلامي بل وفي مصدر ذلك الاعلام يجب ان ترتبط به وتتبعه مباشرة عملية تضخيم للنقائص التي تعبر عنه لا فقط الدعاية الاسرائيلية بل وكذلك النموذج الاسرائلي للوجود السياسي. بعبارة اخرى التشكيك وعدم الثقة او التردد في سحب الثقة بنفس الصورة وعلى نفس المنوال هو بمثابة خلق شحنة

---

(٨٠) في مؤلفنا السابق ذكره قدمنا خريطة موجزة لابعاد التناقض نقلت عنا في اكثر ما كتب عن الدعاية الاسرائيلية حتى اليوم. ونود فقط ان نضيف بان عناصر التحليل الذي قدمناه لاتتعدى الفترة الممتدة من عام ١٩٥٦ حتى عام ١٩٦٧. لم نتناول في ذلك التحليل ما اعقب ذلك كما اننا فيما يتعلق بتشويه الطابع القومي العربي اقتصرنا على إجمال منطلقاته والخطأ الذي يقع فيه من ينقل عنا هو انه يعمم تلك النتائج على الدعاية الاسرائيلية ايضا عقب عام ١٩٦٧. انظر حامد ربيع، فلسفة الدعاية. م. س. ذ.، ص ١٨٦.

(٨٢) نفس المرجع السابق ذكره، ص ١٧٦. ومابعدها قارن المؤلف الجماعي السابق الاشارة اليه عن الاتحاد السوفياتي والشرق الاوسط ص ١٢٢ ومابعدها.

(٨٣) انظر حامد ربيع، النموذج الاسرائيلي م. س. ذ. ص ٢١ وما بعدها

انفعالية تسمح بالانسياق في التفاعل المنطقي ومن ثم نستطيع ان نوسع في ابواب عدم الثقة بسحب ذلك التشكيك لافقط على مصدر الاعلام اي على جهاز الاتصال وانما على تلك الحقيقة السياسية المستمرة خلف ذلك الجهاز[٨٤]. بعبارة اخرى مراحل ثلاث متتابعة: هدم للدعاية الاسرائيلية من خلال ابراز التناقض، تشكيك في مصدر الاعلام او الاتصال، اضعاف في قوة الحقيقة الاسرائيلية. ان هذه العملية الاخيرة تعني نتيجة مزدوجة: تحطيم قنوات الاتصال بين المنطق الاسرائيلي والمنطق الخارجي من جانب وخلق التربة الصالحة للقيام بعملية اتصال ايجابية بل غزو اعلامي بمعناه الحقيقي من جانب المنطق العربي في مواجهة المنطق الخارجي.

المرحلة الرابعة: وهي بدورها تنطلق من المرحلة الثالثة حيث نواجه عملية تشويه الطابع القومي الاسرائيلي مواجهة صريحة من خلال العودة الى التاريخ وابراز خصائص الطابع القومي اليهودي التقليدي والتأكيد على استمرارية هذه الخصائص في الطابع القومي الاسرائيلي بحيث نقدمه على انه تعبير عن صورة مبتذلة مخادعة غير جديرة بالاحترام الامر الذي قد يضع حدا نهائيا لاي امكانيات لدعاية مضادة تأتي من جانب الدعاية الاسرائيلية[٨٥]. ترتبط بهذه المرحلة الرابعة والمرحلة الخامسة والاخيرة التي تقوم على اساس تقديم الصورة الايجابية للمنطق الدعائي العربي، فكل دعاية ناجحة لايمكن ان تقتصر على ان تكون فقط دعاية عكسية وذلك بمعنى انها وهي تحطم منطقا قائما يجب ان تقدم بديلا لهذا المنطق. ومن ثم فان المرحلة الخامسة يجب ان تجعل اهدافها تدور حول تقديم صورة عربية جديدة ونظيفة ذات مصالح مرتبطة بمصالح العالم المتمدين تصدد ولو من خلال المبالغة المعتدلة الوظيفة الايجابية التي يجب ان تقوم بها الحضارة الاسلامية في العالم المعاصر. والتاريخ بهذا الشأن مصدر خصب فضلاً عن ان تحليل الوقائع الاقتصادية المعاصرة المرتبطة بالعالم العربي تسمح بالكثير من الحملات الاعلامية بهذا المعنى. تعنينا مؤقتا من هذه المراحل فقط المراحل الثلاث الاولى[٨٦] وهي التي سوف نحاول فيما بعد ان نقدم بخصوصها نماذج للمنطق الدعائي. رغم ذلك فان التمييز بين هذه المراحل يجب الا يمنعنا من تقديم عدة ملاحظات:

اولا: ان هذا التمييز يتجه اساسا الى الرأي العام الخارجي الرأي العام الداخلي بما في ذلك ما اسميناه بالرأي العام القومي العربي المحلي ليس بحاجة الى هذه الدرجة من التمييز للمراحل الخمسة السابق ذكرها.

---

(٨٤) وهنا نستطيع ان نجد منطلقات عديدة للعمل الدعائي المرتبط بخلق صورة مشوهة للسياسة الخارجية الاسرائيلية بمعنى انه منذ قيام الدولة العبرية حتى اليوم لم تقتصر تلك السياسة على ان تخفق في القيام باي دور ايجابي في التطور الدولي العام بل انها كانت سببا في خلق متاعب مستمرة واضطرابات دائمة مبتدئة من الولايات المتحدة غربا حتى اليابان شرقا وتحدد جميعها بصفة مطلقة حقيقة تكيف التطور الاسرائيلي للعمل السياسي وهو التعصب. فهي رفضت الحل الدولي بخصوص تنظيم التواجد في المنطقة في عام ١٩٤٨. وهي رفضت جميع قرارات الامم المتحدة عقب ذلك حتى اليوم وهي بصراحة وثبات تعلن على لسان قادتها بعدم احترامها تلك القرارات. وهي تصر على سياسة التوسع الاقليمي لأعلى مستوى السياسة الخارجية بل وفي نفس البيانات الحزبية بما في ذلك بيان حزب العمل الاخير. وهي لاتتردد في تأييد نفس جنوب افريقا من خلال مسالك بعضها خفي وبعضها صريح وواضح انظر:

MERMAV, La, gauche israeienne. 1973. P. 191.

(٨٥) انظر على سبيل المثال روبنيت، م.س.ذ.، ص ٣٥٨ ومابعدها.

(٨٦) قارن ايضا نظرية الدعاية الخارجية. م.س.ذ.، ص ١٠٧ ومابعدها.

ثانيا: ان التمييز بين هذه المراحل لايعني تمييزا جامدا مطلقا فمن الممكن تصور البدء باكثر من مرحلة في وقت واحد او تقديم مرحلة على اخرى او على الاقل التداخل بين هذه المراحل، كذلك المرونة يجب ان تبرز في ناحية الفترة الزمنية التي قد نخصصها لكل من هذه المراحل، فقد تستغرق احدى هذه المراحل فترة عامين وقد تقتصر الاخرى على ما لايتجاوز عدة اشهر(٨٧).

ثالثا: ان كلا من هذه المراحل في حاجة الى خطة مستقلة. على ان الامر الذي يجب انه ندخله في الاعتبار كقاعدة مطلقة هو انه يجب ٠ الايتم الانتقال من مرحلة الى اخرى إلا عندما يثبت النجاح في تلك المرحلة وعندما يثبت ايضا ذلك النجاح او الفشل من خلال الالتحام المباشر والخبرة الميدانية ولو بطريقة غير مباشرة والتي تسمح وحدها بهذا التقييم دون الاقتصار على مجرد الانطباعات.

رابعا: كذلك يجب ان نلاحظ ان تنفيذ كلا من هذه المراحل يجب ان يختلف من مجتمع الى اخر تبعا لخصائص ذلك المجتمع التي تتحدد بناء على الدراسة المسبقة للتكوين الاجتماعي ولعناصر القوى والفئات والطبقات السياسية في ذلك المجتمع(٨٨).

١٠٤ ـ نماذج للمنطق الدعائي:

قبل ان نتناول هذه الناحية بالتفصيل علينا ان نتذكر بعض الملاحظات العامة التي يجب على مخطط الدعاية الخارجية والاعلام الدولي ان يضعها في اعتباره وبصفة خاصة عندما يرتبط ذلك التحرك ببعض ابعاد الصراع الدولي الاقليمي. لقد سبق ان رأينا ان مستويات الاعلام الخارجي عديدة وان من بينها الاعلام القومي ثم الاعلام الاقليمي الى جوار ذلك الذي يسمى بالاعلام الدولي او الاعلام العالمي. كذلك سبق ان رأينا ان الاعلام الخارجي ورغم استقلاله عن الاعلام الداخلي الا ان كلا منهما يرتبط بالاخر ارتباطا وثيقا وبصفة خاصة عندما يحدث تناقض بينهما حيث تستطيع الدعاية المضادة او العكسية ان تستغل هذا التناقض في النيل من الثقة في مصدر الاعلام الخارجي(٨٩). كذلك ميزنا في العمل الاعلامي بين ذلك الذي اسميناه المستوى الحضاري، مستوى الوقائع اليومية ثم مستوى التعانق الحركي. وافترضنا ان يكون الاعلام العربي بمعنى ذلك الذي تتولاه جامعة الدول العربية هو فقط المستوى الاول تاركين كلا المستويين الثاني والثالث من اختصاص اجهزة اخرى. على ان هذا لايمنع بدوره من ضرورة عملية التنسيق وبصفة خاصة عدم التنافس بين هذه الاجهزة المتعددة(٩٠) وهو امر لايقتصر على نواحي

---

(٨٧) كذلك فان هذه المرونة لابد وان تفرض تعددا من حيث التطبيق تبعا لخصائص كل مجتمع او اقليم موضع الهجوم الدعائي. قارن منذر عنباوي. اضواء على الاعلام الاسرائيلي م.س.ذ.، ص ٣٦ ومابعدها.

(٨٨) وهذا يقودنا الى ضرورة التذكير بانه من الخطأ الحديث عما يسمى بالرأي العام الدولي، ان الانطلاق الدعائي والاعلامي يجب ان يتجه الى الرأي العام المحلي بقصد خلق القوة المؤيدة او المعارضة والتي تستطيع ان تؤثر من الداخل وعلى السلطات الرسمية بما في ذلك مراكز اتخاذ القرار السياسي. وهذا يفسر كيف ان التخطيط الدعائي الخارجي رغم وحدته المنطقية يجب ان ينبع من حيث التنفيذ من مبدأ محلية ونسبية التخاطب الدعائي. على انه رغم ذلك فان بعض تطبيقات معينة تسمح بالحديث عن الرأي العام الدولي وذلك على وجه الخصوص بصدد المهن العملية والمنظمات الدولية والتجمعات الاقليمية. انظر تفصيل ذلك في حامد ربيع نظرية السياسة الخارجية. م.س.ذ.، ص ٧٥ ومابعدها.

(٩٠) انظر سابقا ص ٧٧ ومابعدها.

التنظيم الادراي او الاختصاص النوعي بل يجب ان يتجه ايضا الى المنطق المرتبط بجوهر عملية الاتصال بمختلف ابعاده. اضف الى ذلك انه في جميع هذه الاحوال هناك امران يجب ان يكون كلا منهما واضحا من حيث نتائجه على احتمالات النجاح او الفشل.

اولا: عملية الاتصال ذات مستويات متعددة من حيث المستقبل وقد سبق ان ابرزنا ذلك بأن ميزنا بين صانع القرار وقائد الرأي والرجل العادي(٩١).

هذا التعدد في المستويات يعني ايضا تعددا في ادوات الاتصال ويعني ايضا وضوحا في اهداف الحركة ومراحلها. ومن ثم يتعين خلق قنوات داخلية في الجهاز الاعلامي العربي يسمح بتنظيم لعملية اتصال مباشرة اخرى بين مراكز صنع القرار في الحركة السياسية سواء في ابعادها الداخلية المحلية الخارجية او في ابعادها الخارجية الدولية من جانب والقائم بالتخطيط في عملية الاتصال الخارجي بحيث يكون هذا الاخير على علم مسبق بأي قرار يتخذ على الصعيد المحلي او القومي او الخارجي وبوقت كاف على قدر الامكان بحيث يستطيع ان يقدر ما اذا كان القرار في حاجة الى حركة اعلامية وتغطية دعائية او كليهما سواء بقصد تبرير القرار او بقصد التمويه وخلق القوى الضاغطة التي تمنع من اتخاذ ذلك القرار منطلقا لهجوم معاد(٩٢).

ثانيا: كذلك يجب ان نلفت النظر الى ضرورة انشاء مايسمى بحجرة العمليات الدعائية او الاعلامية مما يعنيه ذلك من خلق جهاز ضخم مركزي يكون موضعه القاهرة اوتونس وحيث توجد جامعة الدول العربية معد لخدمة تلك الحجرة ويعمل بصفة دائمة ومستمرة حيث يستطيع ان يواجه اي واقعة جديدة سواء للتعليق عليها او تفسيرها او لتقديم تبرير لها وادراج لها في منطق السياسة العامة التي تسير عليها الاسرة العربية وبحيث لاتثير بلبلة او اضطرابا وبحيث تتخطى التناقضات امام الرأي العام الدولي والخارجي ولعل هذا يفسر مرة اخرى كيف ان الاعلام الخارجي لن يقدر له النجاح ان لم نبدأ بعملية تكتيل وتنظيم واعداد للعقل المخطط الذي لايمكن ان يوجد الا عن قرب وعلى اتصال مباشر بمركز موضع التحكم في الحركة العربية اي القاهرة(٩٣). ان تصور كثرة المكاتب الاعلامية بما تحويه من مديرين وتابعين وخدم يعني نجاح الاعلام العربي هو تصور خاطىء ويكفي ان نتذكر ان اسرائيل لاتملك نصف هذه المكاتب وان اعلامها ينبع من تل ابيب ويتمركز في عاصمة الدولة العبرية بحيث تصير تلك المكاتب فقط ادوات تنفيذية وان نتذكر ايضا انه لايوجد في هذه اللحظة اعلام خارجي لايتبع هذه القاعدة سوى الاعلام العربي الفاشل فالاعلام السوفييتي يتم تخطيطه وبناؤه في موسكو ونفس الاعلام الامريكي يتم اعداده مادة وشكلا في واشنطن. بعبارة اخرى يجب قبل انشاء تلك المكاتب العديدة المنتشرة في انحاء العالم باسم مكاتب جامعة الدول العربية ان يسبق ذلك انشاء الجهاز المركزي المتخصص وحيث تسيطر عليه عقليات قلية ولكن خلاقة وبحيث انه من الممكن الاستغناء عن الاولى دون الثاني ولكن العكس غير صحيح.

نستطيع ان نضيف الى ذلك ملاحظة اخرى جانبية جديرة بأن تكون موضع عناية ايضا من جانب المخطط الاعلامي لعملية الاتصال الخارجي ونقصد بذلك انه في المدى البعيد فان تطور العلاقة بين الطبقات المحكومة والطبقات الحاكمة من حيث المساندة والتأييد في النطاق الداخلي لابد وان تصير في خطة معينة احد مسالك التأييد لقوة الحركة العربية في النطاق الخارجي. والامر الذي لاشك فيه ان التكتل العربي. عقب

---

(٩١) حامد ربيع. ابحاث في نظرية الاتصال. م.س.ذ.، ص ٩٦ ومابعدها.
(٩٢) فارن مارتين. الدعاية الدولية. م.س.ذ.، ص ١٦٤ ومابعدها.
(٩٣) هذه المشكلة ليست قاصرة على التخطيط الدعائي والاعلامي فقط بل تتناول اي صورة من صور التخطيط السياسي. انظر بنيفست. م.س.ذ.، ص ١٠٥ ومابعدها.
(٩٤) في مؤلفنا السابق ذكره عن الابعاد النفسية للصراع العربي الاسرائيلي يجد القارىء تفصيلا لهذه النواحي في الفصل الاول. انظر ايضا الدير م.س.ذ.، ص ٩٨ ومابعدها.

اكتوبر من عام ١٩٧٣ والتضامن بين الدول العربية المنتجة للبترول بغض النظر عن طبيعة وخصائص الطبقة الحاكمة يمثل منطلقا اخر كان من الممكن ان يستغل في مساندة عملية غزو دعائي خارجي او على الاقل تلاعب في ملامح الصورة العربية التي ترسبت في الاذهان والعمل على تأكيد مدلول القرار السياسي على انه تعبير عن تكتل حركي في تجمع القوى المحكومة حول الطبقة الحاكمة وبغض النظر عن تأييد تلك الطبقة في علاقة تماسك سياسي متكامل[٩٥]. الامر الذي يجب ان نستخلصه من هذه الملاحظة هي ان مخطط الدعاية الخارجية بصفة خاصة في عملية خلق عناصر المنطق الدعائي لايستطيع ان ينسى او يتجاهل الاوضاع المحلية والقومية.

لو تركنا جانبا هذه الملاحظة واقتصرنا على محاولة تقديم بعض نماذج العمل الدعائي الخارجي من منطلقات اقليمية فاننا نستطيع ان نركز على النماذج التالية بوصف كونها تمثل الاطار الفكري العام الذي هو في حاجة الى تحليل لاحق متكامل لخلق المنطلقات الدعائية والاعلامية:

(أ) الرأي العام الاوربي
(ب) المجتمع الالماني
(جـ) شرائح الرأي العام الامريكي غير اليهودية.
(د) العالم الشيوعي الاوروبي
(هـ) التعامل مع مختلف فئات المجتمع الاسرائيلي

نتابع هذه النماذج بشيء من الايجاز.

١٠٥ ـ عملية التخاطب مع الرأي العام في غرب اوروبا:

هذا النموذج متعدد من ناحية: ابراز الصهيونية كسياسية عدوانية واستفزازيه تجعل العنف اساسا لحركتها السياسية[٩٦]. العنف في تاريخ الحركة الصهيونية قابل لان يكون موضع تحليل موثق ومدعم بالدلالات الفكرية والوقائع المتعددة واستمرارية العنف في تقاليد الحركة الصهيونية لاتزال قائمة نستطيع ان نستخلصها من الدراسات العديدة التي يمكن ان نقوم بها سواء من نواحيها العسكرية وبخصوص الاتباع المعاصر لافكار جابوتنسكي وسواء من نواحيها الميدانية التجريبية التي أثبتتها الوقائع العديدة للسلوك الاسرائيلي على المستوى الفردي ليس فقط خلال الفترة السابقة على حرب اكتوبر ١٩٧٣. او الجماعي بل وكذلك عقب اتفاقيات كامب ديفيد.

هذه الوقائع تصلح اساسا لتطور ينبع من مفهوم الكراهية الذي يسيطر على النظرة الى السلوك اليهودي والذي يجد مصادره في التقاليد الاوربية وفي العديد من الوثائق المتوفرة حاليا[٩٧]. وكل ذلك من خلال اعداد معين يسمح بان نقود الرأي العام الاوروبي الى الاقتناع بأن العنف في منطقة الشرق الاوسط لم يأت الا نتيجة

---

(٩٥) انظر تعليقات الايكونمست بتاريخ ١٠/١١/١٩٧٣.
(٩٦) ظاهرة العنف في التقاليد الصهيونية لم تخضع لاي دراسة من جانب الاعلام العربي ورغم ان الوثائق بهذا الخصوص عديدة لاحصر لها. انظر تحليلا موجزا ومن جانب احد المؤيدين وبتعصب للحركة الصهيونية:
LAQ*UEUR, A History of Zioism, 1972, P. 338.

(٩٧)
SELIZER, The organization of the Jewish State, 1967, P. 87.

للطابع القومي اليهودي وتأكيد للفلسفة الصهيونية القائمة على هذا المبدأ بمعنى ان الصهيونية السياسية هي التي غرزت العنف في المنطقة وهي التي وضعت بذورها في فلسطين. هذا المنطق يمكن ان يكون اساسا من خلال النماذج التحليلية بحيث تقود هذه المتابعة الى العديد من النتائج وبصفة خاصة النواحي الثلاث الاتية:

اولا: تقديم الحركات العنيفة التي يأتيها الفدائيون على انها نوع من الدفاع الشرعي عن النفس كرد فعل على فلسفة العنف التي تقوم عليها الدولة الاسرائيلية.

ثانيا: ازالة الصورة التي تتستر خلفها اسرائيل على انها بحروبها انما تحقق السلام في المنطقة.

ثالثا: ابراز كيف ان هذا المخطط الاسرائيلي لابد وان يؤدي الى نتائج خطيرة في المستقبل على البلاد الغربية لو قدر لها ان تصطدم بالمصالح الاسرائيلية وفي داخل هذه البلاد مايشبه الطابور الخامس اليهودي والنموذج الفرنسي واضح في هذا الخصوص[٩٨].

ولعل هذا المنطق المتعلق بتأكيد الطبيعة الارهابية وربطها بالسياسة العدوانية والاستفزازية من الممكن ان يخلف بابعاد اخرى لعملية خلق الكراهية كخلفية عاطفية وكمنطلق منطقي في عملية المساندة ازاء مخاطبة الرأي العام الاوروبي بنواحي اخرى فرضتها الحوادث الاخيرة وابرزت بشكل واضح مدى اهميتها ازاء الضمير الجماعي الاوروبي.

يبدو هذا اساسا من منطلقين نستطيع ان نضيف اليهما منطلقا ثالثا على اساس التمويه والتعمية:

المنطلق الاول، التمزق الداخلي في الضمير القومي الاوروبي والمنطلق الثاني قضية الامن الاوروبي في البحر الابيض[٩٩]. فالانفصام القومي الذي اصاب المجتمعات وبصفة خاصة المجتمع الفرنسي وكذلك المجتمع الايطالي والى حد معين المجتمع الانكليزي كنتيجة مباشرة للتمزق الداخلي الذي فرضته حوادث عام ١٩٦٧ قد ازداد تأكيدا عقب حوادث عام ١٩٧٣. ورغم ان طبيعة هذه الوقائع تختلف وتتناقض من حيث تصوير المجتمع العربي بمعنى ان الاولى تعكس الهزيمة المخزية والثانية تعكس النصر واستعادة الثقة الا انها من حيث حقيقتها وارتباطها بالتمزق الداخلي القومي تعبر عن تيار واحد متجانس ومتدفق في نفس الاتجاه بحيث يمكن القول ان وقائع عام ١٩٧٣ زادت من تعميق التمزق وتفجير ابعاده الخلفية. في عام ١٩٦٧ اثيرت مشكلة الانتماء القومي بالنسبة لليهودي الاوربي[١٠٠]. هل ولاؤه اساسا لمجتمعه الذي يعيش بداخله ام انه يجعل من هذا الولاء حقيقة سلوكية تابعة لولائه الاصيل لمجتمعه العبري؟ الرسائل المتبادلة بين

---

(٩٨) عندما تحركت مؤسسة الدراسات الفلسطينية حول الموضوع واخرجت لنا دراسة بعنوان من هم الارهابيون كان كل ما فعله هو انها قدمت لنا سردا لوقائع الاعتداءات الصهيونية ابتداء من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٧٠. اي محاولة لتأصيل المفهوم الصهيوني للعنف او لابراز جوانبه المختلفة الفكرية والحركية لاموضع لها. بعبارة اخرى كان عملا من قبيل التجميع الصحفي للوقائع دون التحليل العلمي للخلفيات الفكرية والمنطق الحركي للفلسفة السياسية. ما الذي يمكن ان يفهمه القارىء الاوروبي من مثل هذا العمل الذي يمكن ان يوصف بانه من قبيل الارشيف وليس من قبيل التحليل الاعلامي، يستطيع ان يعود اليه فقط صحفي يريد ان يعرف بتاريخ القاء قنبلة او ما في حكمه؟ الاعلام عن القضية العربية كان يفترض معالجة من نوع اخر اساسها ابراز العنف على انه من التقاليد الفكرية للدعوة الصهيونية وجعل ذلك المنطق اساسا لتحليل السلوك الاسرائيلي في الداخل والخارج. في مواجهة العرب وغير العرب. قبل انشاء اسرائيل وعقب انشاء اسرائيل، ضد العسكريين والمدنيين، لوضع حد للحلول السلمية ولتأكيد الحلول الاستئصالية، وكم كان ذلك المنطلق الذي تعرضنا له في غير هذا الموضع المتعلق باستخدام عملية العنف النفسي اساسا لدفع المواطنين العرب الى عمليات الهجرة الجماعية مدخلا رائعا للتحليل الدعائي والاعلامي؟ ولكن كل ذلك يفترض التخصص من جانب والعمق في الدراسة من جانب اخر. وهي امور لم تتوفر بعد في جميع تلك الاجهزة التي تعيش على حساب القضية العربية.

انظر سابقا ص ٢٣١

(٩٩) SALOMON, Mediterranee rouge, 1970, P. 217.

(١٠٠) LEVYNE Judaisme contre sionisme, 1969, P. 53.

ديجول وبن جوريون جديرة بأن تكون موضع تحليل ومناقشة بهذا الخصوص. وقائع عام ١٩٧٣ وبصفة خاصة اضطرار السلطات لان تتخذ موقفا صريحا من المساندة والتأييد للسياسة العربية كرد فعل للمقاطعة العربية واحتمالاتها كان لابد وان يزيد من تعميق هذا التمزق. ناحية الامن الاوروبي وبصفة خاصة اضطراب الاوضاع الدولية في البحر الابيض المتوسط وتحويل تلك البحيرة الى منطقة صراع محلي تتداخل فيه قوى دخيلة على المنطقة يمثل البعد الاخر الذي هو في حاجة الى دراسة وصياغة معينة بحيث تصلح لخلق موجات ضخمة من الرأي العام المعادي او على الاقل غير المتعاطف مع التواجد الاسرائيلي بصورته الحالية[١٠١]. كذلك من الممكن ان نربط هذه النواحي اي التمزق القومي من جانب وقضية الامن الاوروبي من جانب اخر بالنتائج المباشرة للحرب الرابعة في علاقة اوروبا الغربية بالسياسة الامريكية بحيث تصير مسلكا عمليا لمساندة قوى الجذب لتأييد القضية العربية. فموقف السياسة الامريكية من اوروبا الغربية ازاء استخدام القواعد الامريكية ثم وبصفة خاصة عندما اتخذ نيكسون قراره باعلان حالة التأهب للقوى الامريكية في منطقة البحر الابيض بما في ذلك القوى الذرية اشعر الساسة الاوربيين كيف انتقلت القارة الاوروبية الى موضع التبعية حتى فيما يتعلق بالموقف السياسي المرتبط بمصيرها الذاتي.

١٠٦ ـ الرأي العام الالماني ومسالك الاتصال الاعلامي

النموذج الثاني ونستطيع نطلقه في اتجاه الرأي العام الالماني بصفة خاصة. وقد يبدو لاول وهلة ان الرأي العام الالماني محدود الاهمية فالمانيا الغربية هي عملاق اقتصادي ولكنها قزم سياسي. واذا كنا قد اعددنا حملة من خلال المنطق السابق ذكره للرأي العام الاوروبي الغربي فلماذا نقدم نموذجا اخر ذا خصائص متميزة للرأي العام الالماني.

على العكس من ذلك فان عدم الاهتمام بالرأي العام الالماني حتى هذه اللحظة هو مظهر من مظاهر الفشل الصريح القاطع لجامعة الدول العربية. ان اسرائيل لم تستطع ان تبني اقتصادها الا من خلال المعونات والمساعدات التي حصلت عليها والتي سوف تحصل عليها في المستقبل لو ظلت الامور تسير على ما سارت عليه حتى هذه اللحظة[١٠٢]. والامر الذي اضحى ثابتا اليوم من الوثائق هو ان سياسة المساعدة التي سمحت بتدفق الملايين من المانيا الغربية تمت ونفذت دون تقبل من جانب الرأي العام الالماني وان الرأي العام الالماني ظل ولايزال الى حد معين يقف من هذه السياسة موقف عدم التأييد ولكنه لم يستطع ان يكون قوة فعالة وكان واجب السياسة العربية لا ان تسارع بقطع علاقتها مع المانيا الغربية وان تقتصر على التهديدات الجوفاء وانما ان تعمل من خلال الحركة الداخلية الذاتية على تقوية الرأي العام الرافض والمناهض لسياسة المعونات الاقتصادية وان يتم ايضا من خلال حملة اعلامية تنبع من منطق واضح يسعى الى تقوية تلك المراكز المكتسبة[١٠٤]. منطلق هذه الحملة هو التحليل الاقتصادي لنتائج السياسية التي تحملها المجتمع الالماني بسبب التواجد اليهودي منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. من خلال معالجة منطق الاختلال في الاقتصاد الالماني قبل مجيء هتلر ثم ماتحملته المانيا بسبب التعويضات من جانب وما فقدته المانيا نتيجة قطع العلاقات

---

(١٠١) HERMONE, La gauche, Israel et les juifs, 1970, P. 200.

(١٠٢) LENTIN, Une crise transatlantiQue, in Politique, 8.11.1973.

(١٠٣) DEUTSCHKRON, Bomm and Jerusalem 1970, P. 41.

(١٠٤) قارن ايضا: HAMMOND, ALEXANDER, Political dynamicø in the Middle EAST, 1972, P. 456.

مع العالم العربي من جانب اخر يضيف بدوره حججا اخرى جانبية تسمح بتأكيد نواحي المصلحة الذاتية المباشرة لابراز حقيقة الاخفاق الذي تتضمنه سياسة التقارب الالماني الاسرائيلي. فاذا اضفنا الى هذا ابرازا واضحا لكتابات الفلاسفة الالمان ابتداء من فيشت وغيره من الاسماء العزيزة على التقاليد الالمانية وما عرضه هؤلاء من خطر المجتمع اليهودي على المجتمع الذي يعيش فيه او يحيط به فاننا نستطيع ان نقود المواطن الالماني تدريجيا الى ان يصل الى النتائج الثلاث الآتية:

اولا ـ الفصل بين العداوة ضد اليهود والنظام النازي وبالتالي جعل تلك العداوة تنبع لا من خصائص النظام النازي وانما من خصائص التقاليد الالمانيةوترسيب هذه العداوة كأحد عناصر الحضارة الجرمانية في العصور الحديثة.

ثانيا ـ بل نستطيع بأسلوب منهاجي معين ان ننقل تلك العداوة الى مفهوم اكثر اتساعا وهو مفهوم الرفض الاوروبي للوجود اليهودي[105]. واذ نصل الى ذلك المستوى في التحليل تصير النتيجة الواضحة المحددة وهي ان التعويضات لا موضع لها والا فعلى المجتمع الفرنسي بدوره وعلى المجتمع الايطالي كذلك ان يقدم تعويضات اخرى لان كلا منهما في مراحل سابقة خضع لنفس السلوك وعبر عن نفس الرفض الذي عبر عنه المجتمع الالماني. من خلال اثارة عقد الاضطهاد للمجتمع الالماني بوصف كونه مجتمعا هزم في الحرب العالمية الثانية نستطيع ان نزيد من تقوية وتضخيم عملية الرفض لاي مساندة اقتصادية بدعوى التعويض للمجتمع الاسرائيلي.

ثالثا ـ وهنا نستطيع ان نصل الى تأكيد للنتائج السابق ذكرها بخصوص الرأي العام الاوروبي من خلال مسلك اخر وهو ان الشعوب العربية تقف في حالة دفاع شرعي كما وقف الشعب الالماني خلال القرن التاسع عشر من الوجود اليهودي.

وهكذا نستطيع ان نقوي من ذلك الاتجاه الخفي في الرأي العام الالماني الضعيف والذي لايجرؤ في ان يعلن عن نفسه والذي يقف ضد التقارب الحالي بين اسرائيل والمانيا[106]. على انه مما يؤكد هذه المواقف في الخطة الدعائية التذكير بقضية ايخمان ومحاكمته ثم ايضا التذكير بالكتابات الاخيرة التي ابرزت عمليات الانتقام المنظم من الزعماء الالمان خلال فترة الحكم النازي وحتى ازاء هؤلاء الذين لم يفعلوا سوى ان يؤدوا واجبهم نحو وطنهم القومي على انها حق لليهودي وعلى انها تعبر عما يسميه بعض المفكرين الصهاينة «الايدي الطويلة لاسرائيل المنتقمة».

١٠٧ ـ المنطلقات الدعائية للتفاعل الحركي والقوى السياسية في المجتمع الامريكي:

مما لاشك فيه ان الرأي العام الامريكي يقف من القضية العربية موقف التحيز الصريح في رفضه الواضح في عداوته[107] على ان الواقع ان اي محاولة لخلق قوى وبؤر المساندة للقضية الغربية في داخل المجتمع الامريكي حتى هذه اللحظة لم يقدر لها الوجود. وقد سبق ان ابرزنا كيف ان نفس المفهوم العربي للتعامل الدبلوماسي مع المفهوم الامريكي مفهوم خاطىء لايعبر عن المام حقيقي بطبيعة الحركة التي يجب ان تنطلق

---

(١٠٥) انظر ايضا دويتش كرون، م.س.ذ.، ص ٣٤٣.
(١٠٦) نفس المرجع. ص ١٥٥ ومابعدها.
(١٠٧) انظر من بين الدراسات التي تناولت هذا الموضوع بتخطيط دعائي معين: STEINBERG. La Revolte des Justes. 1970.

في عملية المساندة للقضية العربية من ثنايا النظام الاجتماعي والسياسي الامريكي ذاته. هذه العملية في حاجة الى تخطيط على حدة. والتخطيط يعني الدراسة المسبقة والتحليل الكامل لعناصر القوة وعناصر الضعف مع بنيان للحركة استنادا الى الامكانيات المتاحة والقدرة على الاستمرارية في الهجوم الدعائي والاعلامي. رغم ذلك نستطيع ان نحدد كمحور لعملية التخاطب الاعلامي مع الرأي العام الامريكي النواحي التالية:

اولا ـ ابراز التناقض في المصالح الحقيقية للشعب الامريكي مع عملية الدفاع عن اسرائيل(١٠٩) وذلك لايمكن الا من خلال التحليل الاقتصادي لذلك الذي خسرته الولايات المتحدة في الماضي ولذلك الذي تفقده في الحاضر وبصفة خاصة لذلك الذي هي مهددة بعدم الحصول عليه في المستقبل لو ظلت على وضعها الحالي. ان الحديث عن الاخلاقيات بهذا الخصوص يعكس طفولة فكرية. على العكس من ذلك يجب التأكيد على حجج جانبية ذات دلالة معينة. الحجة الاولى واساسها ان الصهيونية لم يحدث ان كانت في اي مرحلة من مراحل تاريخها مؤمنة بالتقيد بالارتباط المصلحي بقوة دولية واحدة بصفة دائمة. فالصهيونية التي ربطت نفسها اولا ببريطانيا العظمى عادت تربط نفسها بروسيا في اعقاب الحرب العالمية الثانية وهي اليوم تربط نفسها بالولايات المتحدة(١١٠) لانها تشعر بقوة هذه في النطاق الدولي وهي لن تتردد غدا في ان تتخلى عن ربط نفسها بالولايات المتحدة وان تربط نفسها بأي قوة اخرى دولية حتى ولو كانت معادية للولايات المتحدة لو شعرت بأن تلك القوة اكثر صلاحية لقضيتها. بل نستطيع ان نسوق بهذا الخصوص بعض الوقائع. حرب ١٩٥٦ نموذج واضح. وهي اليوم تتحدث بلغة الغزل المستور وتعد نفسها لتأكيد هذه اللغة ونقلها في المستقبل عندما يتضح الموقف الدولي ويصير صالحا لمثل تلك الحركة لان ترتبط بأوروبا الغربية وهي في تلك اللحظة سوف تكون ـ وهذا يصير منطلقا اخر في غاية الاهمية ـ اول من يدافع عن طرد الوجود الامريكي من منطقة البحر الابيض المتوسط. وبعبارة اخرى هي قادرة على ان تترك الولايات المتحدة يوم ان تحقق اهدافها بل وان تنضم الى اعدائها يوم تشعر ان اهدافها تصير ذات فاعلية اكثر وضوحا واكثر استجابة نتيجة للانضمام للقوى المعادية او المناوئة او غير التابعة للقوة الامريكية(١١١).الناحية الثانية التي يجب ان نؤكد عليها وان نجعلها منطلقا اخر يساند المنطلق السابق يدور حول ان مصالح اسرائيل ان كانت تتفق في الامد القصير مع الولايات المتحدة فانها لابد وان تصطدم بها في الامد البعيد. وهنا يجدر ان نذكر الرأي العام الامريكي بما يمكن ان يحدث لو استطاعت اسرائيل ان تتحكم في الاقتصاد العربي وبصفة خاصة في الثروة البترولية(١١٢). الن يعني هذا خلق منافس قوي يمتاز بالانتهاء الى المنطقة والقدرة على التحكم فيها من خلال المسالك المحلية؟ حرب الخليج وما استتر خلفها من الاعيب وما ارتبط بها من مصالح قادرة على أن توظف بهذا المعنى بشكل لم يسبق له مثيل. ولكن اين القدرة والبراعة في التعامل؟

ثانيا ـ قلب منطق الشرعية في الدفاع الاسرائيلي. اساس الدفاع عن اسرائيل الذي يقدم للرأي العام

---

(١٠٨) قارن الابعاد المختلفة في:

EPP, Whose lande is palestine: 1970, P. 159.

(١٠٩) انظر ايضا من النواحي التاريخية:

SCHETCHMAN, The UNITED States and the Jewish state movement 1966, P. 404.

(١١٠) انظر ايضا مصطفى السعدني. الفكر الصهيوني والسياسة اليهودية ١٩٧١ ص ٢٣٣ ومابعدها.

(١١١) قارن:

WEINSTO, Le sionisme contre Israel, 1969, P. 410.

(١١٢) جدير بالمناقشة والتحليل ابعاد الاطار الذي يقدمه:

BECKER Oil and the Persian Gulf in Soviet policy in the 1970, in CONFINO, SHAMIR, The U.S.S.R. AND THE Middle East, 1973, P. 173.

الامريكي والذي يغمر النظرة السائدة في السياسة الخارجية الامريكية كما عبرت عن ذلك المناقشات الاخيرة في مجلس الشيوخ الامريكي هو ان هذا الدفاع انما يتم من اجل صالح الامن القومي الامريكي. عضو مجلس الشيوخ الذي قال كلمته المشهورة: ان الدفاع عن تل ابيب اكثر اهمية من الدفاع عن نيويورك لان امريكا لديها اكثر من نيويورك واحدة ـ بمعنى مدينة صناعية ضخمة ـ وليس لديها تل ابيب واحدة ـ بمعنى مقدمة ورأس حربة للدفاع عن النفوذ الامريكي ـ قاطعة في هذه الدلالة. على اننا نستطيع ان نقلب هذا المنطق من خلال منطق اخر لو احسنا استخدامه في عملية المعالجة الاعلامية والدعائية وهو ان الامن الامريكي انما يتحقق من خلال الامن الاوروبي[113]. هذ المبدأ بدوره احد المبادىء الفكرية الثابتة والمسيطرة في التقاليد الامريكية على صانع القرار في وزارة الخارجية الامريكية فلو استطعنا ان نقدم تصورا لهذا الامن وقد اضحى مهددا بسبب النزاع في المنطقة اولا وبسبب الوجود الاسرائيلي ثانيا لكان هذا تشكيكا في تأسيس شرعية الدفاع عن المصالح الاسرائيلية من جانب السياسة الامريكية وهنا تلعب دورا هاما حجتان جانبيتان: خطاب استقالة مستر سباك المشهورة من حلف الاطلنطي ثم من جانب اخر فكرة تحويل الشرق الاوسط الى بلقان جديدة وما يعنيه ذلك من امكانية التلاعب في المنطقة ولو غلفنا ذلك بمنطق وزارة الخارجية الامريكية عام ١٩٤٧ والحوادث المعروفة والمشهورة والخاصة بتلك الفترة لكان هذا منطلقا كافيا لاقناع الرأي العام الامريكي بوجاهة هذا المنطق الدعائي[114]. يزيد من تقوية هذا المنطلق تحليل جانبي للزعامة الامريكية وبصفة خاصة الرؤساء الثلاثة ترومان وايزنهاور وكيندي. من المعروف ان كلا من ايزنهاو وكنيد ي لم يكن اي منهما مؤيدا ذلك التأييد الاعمى الذي عبر عنه ترومان والذي عاد ليبرز واضحا في تقاليد جونسون ونيكسون.كيندي لايزال مجرد ذكر اسمه امام الرأي العام الامريكي يخلق موجة عنيفة من الانفعالية ايزنهاور بدرجة او بأخرى يسمح للمواطن الامريكي بذكرى قيادته الناجحة في تحقيق النصر الديموقراطي اثناء الحرب العالمية الثانية على العكس من ذلك ترومان وجونسون كل منهما بصورة او بأخرى يمكن ان يقدم على انه نموذج للفشل السياسي. معالجة هذه النماذج والربط بين النجاح في بعضها الكلي الشامل والفشل في بعضها مع خلق علاقة التبعية في النجاح وعلاقة الاستمرارية في الفشل بأسلوب التعامل مع القضية العربية لابد ان يؤدي من خلال الاثر التراكمي الى خلق زوبعة عاطفية تسمح بالتسلل لتأكيد القضية العربية وبالتالي لرفض المنطق الصهيوني[115].

ثالثا ـ اضف الى ذلك ماقدمته وتقدمه الحوادث عن الحرب الرابعة. فالمساعدات المالية لاسرائيل التي وصلت الى حوالي مليارين وربع من الدولارات في الوقت الذي يجد المجتمع الامريكي نفسه في حاجة الى تلك المساعدات منطلق خصب لربط المصلحة القومية بقضية الرفض للتحالف الامريكي الاسرائيلي. تأتي مشكلة الطاقة وما سوف يترتب عليها من تغيير في التقاليد الاجتماعية الامريكية فتزيد من تقوية هذا المنطق. ابراز هذه النتائج الخطرة التي يمكن ان تترتب على استخدام سلاح البترول على اوروبا الغربية واثارها المتوقعة على الاقتصاد الامريكي يضاعف من تأكيد المنطق المصلحي. ثم تأتي حجة اخرى تساند من عملية تحطيم الحواجز ازاء استقبال منطق القضية العربية وتدور حول تأكيد كيف ان الوجود الاسرائيلي ان هو الا مغالطة ضد عامل الزمن وانه بوضعه الحالي ان اجلا او عاجلا فمصيره الى التحلل[116] النجاح العربي في اكتوبر يؤكد ذلك وتضخيم هذا النجاح مع احتمالاته المقبلة يزيد من تدعيم القوى المناهضة او المتشككة في فعالية التعنت والتصلب الاسرائيلي.

---

(١١٣) انظر ايضا في ابعاد اخرى هاموند. م. س. ذ.، ص ٥٢٣ وما بعدها. وقارن نفس المرجع ٥٤ ومابعدها

(١١٤) SILVERBERGER. If I forget Thee O Jerusalem. 1970, P. 549.

(١١٥) STEWART. The Middle East: temple of janus. 1971. P. 363.

KAUFMANN. the coming destruction of Israel. 1970, P. 83.

١٠٨ ـ العالم الشيوعي والدعوة العربية

نموذج رابع نسوقه من قبيل الاستشهاد ويتصل بالعمل الدعائي في العالم الشيوعي. مما لاشك فيه ان عملية الاتصال بالعالم الشيوعي اكثر تعقيدا من التحرك الاعلامي في العالم الغربي وذلك لاكثر من سبب واحد: فالعالم الشيوعي عالم مقفل على عكس العالم الغربي عالم مفتوح من حيث النظم الاعلامية. كذلك فالعالم الشيوعي يمتاز بالحساسية ازاء كل ما يكتب ويقال فضلا عن انه عالم صديق ومؤيد للقضية العربية الامر الذي يجعل من الضروري الحذر في كل ما له صلة بالتعامل الاعلامي ويزيد من ذلك ان العالم الشيوعي رغم صداقته الا ان موقفه من قضية الهجرة معروف[117] وواضح ورغم ان مشكلة الهجرة كما سبق وذكرنا تمثل المحور الحقيقي لكل خصائص البنيان السياسي والحركة السياسية للمجتمع الاسرائيلي خلال العشرين عاما القادمة.

رغم ذلك فمن الممكن تصور تخطيط حركة دعائية اساسها التأكيد لمعالجة المنطلقات الاتية:

اولا ـ كيف ان النظام الاجتماعي الاسرائيلي رغم كل ما يوصف به من اشتراكية الا انه في الواقع يمثل اليسارية الارستقراطية العنصرية اي اليسارية بالمعنى الافلاطوني وليست اليسارية الارستقراطية اي بالمعنى الماركسي وهي لذلك ليست اشتراكية يسارية[118].

ثانيا ـ كذلك فان اسرائيل هي العامل السياسي في خلق الاضطراب في منطقة البحر الابيض الشرقي وقطع الشريان الحيوي الذي يربط البحر الاسود بالمحيط الهندي والذي يمثل عصب الحياة بالنسبة لروسيا خلال فترة الشتاء. كذلك نستطيع ان نسوق بعض الدلالات والحجج الاستراتيجية المستقاة من تقارير حلف الاطلنطي والتي تدور حول النظرة الى سيناء على انها قلب الهجوم الجوي على روسيا الاوروبية بما في ذلك مواضع صناعتها الثقيلة في منطقة الاورال[119].

ثالثا ـ ومما يمكن ان يساند هذه الحجج حجة اخرى جانبية لها طابع عاطفي ولكنها تسمح بدورها من ان تغلف منطق المصلحة الذي تمركز حول الحجة الثانية والتي اساسها كيف ان اسرائيل اضحت اداة لتحطيم الثقة والصداقة بين المنطقة العربية والمجتمعات الاشتراكية وان اسرائيل هي السبب الحقيقي في حماية النظم الرجعية التي لاتزال قائمة في المنطقة[120]. هل كان من الممكن تصور استمرارية النظام السياسي اللبناني بأوضاعه الحالية لو لم توجد جنوبه الدولة العبرية؟ اليست حماية الوضع القائم هو محور السياسة الاسرائيلية؟ وهل كانت تستطيع السياسة الامريكية ان تتدخل في المنطقة لولا وجود القوى الرجعية المتعاطفة مع تلك السياسة؟ ان سياسة الملك فيصل بعد حرب اكتوبر هي في ذاتها ثورة على هذه التقاليد.

---

(١١٧) سالمون، م. س. ذ، ص ٢٦٠ ومابعدها.

(١١٨) فاينستوك، م. س. ذ.، ص ٣٥٩ ومابعدها.

(١١٩) انظر التقرير الذي نشرنا ترجمته الحرفية في حامد ربيع، التعاون العربي، م. س. ذ.، ص ٢٩٣ ومابعدها.

(١٢٠) LENDVAI: Lantisemitisme sans juifs, 1971, P. 76.

١٠٩ ـ الهجوم الاعلامي وتحطيم الثقة في الذات القومية الاسرائيلية:

النموذج الخامس والاخير يقودنا الى المجتمع الاسرائيلي بمختلف شرائحه وطبقاته. مما لاشك فيه ان العمل الاعلامي في داخل المجتمع الاسرائيلي يختلط بالحرب النفسية ويتشابك تشابكا مطلقا ودائما مع عمل اجهزة المخابرات[١٢١]. ورغم ذلك فان هذا الجهاز الذي نقترحه يجب الا يترك جانبا التفاعل مع القوى السياسية الاسرائيلية بالجذب تارة والتفتيت من خلال التشكيك تارة اخرى لاكثر من سبب واحد. والواقع ان العمل الاعلامي الموجه الى داخل المجتمع الاسرائيلي لايقتصر - من حيث اهميته على مجرد التخاطب المحلي. انه يسعى الى تحطيم الثقة الذاتية في الرأي العام الاسرائيلي. ولكن في نفس الوقت يستطيع ان يؤدي وظيفة اخرى جانبية من خلال نقل نفس المنطق الى المجتمع الداخلي العربي بحيث يزيد الثقة في الذات القومية العربية[١٢٢]. بعبارة اخرى اضعاف ثقة المواطن الاسرائيلي في نفسه وخلق التشكيك في صحة وسلامة تلك الثقة المبالغ فيها والتي عبرت عن نفسها بصراحة وثبات في الاعوام الاخيرة والسابقة على حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ لابد وان تؤدي بدورها الى تدعيم الثقة في الرأي العام العربي وقدراته على المواجهة والوصول بحركته العربية الى اهدافها المحددة. عملية الاتصال بالرأي العام المحلي العربي كما سبق وذكرنا ليست هي عملية الاعلام الخارجي. ولكن نفس هذه العملية تسمح بدورها في خلق الاساس والمنطلق لعملية اتصال خارجية بقصد تحطيم الصورة الاسرائيلية التي عهدناها وعرفنا ملامحها الرئيسية من خلال ابحاثنا السابقة[١٢٣].

الحجج التي يجب ان نحاول تفصيلها والتي من خلالها نستطيع ان نقدم معيارا منطقيا لعملية التشكيك في ثقة المواطن الاسرائيلي بنفسه وبالتالي التشكيك في قضية التواجد الاسرائيلي بوضعها الحالي تدور في الابعاد التالية:

اولا ـ تذكير الاسرائيلي بماضيه الذي لم يقدر له خلال حتى اعظم مراحله الا ان ينتهي بكارثة. اسبانيا والمانيا ليستا سوى نموذجين لهذه الحقيقة. بعبارة اخرى ربط الوجود اليهودي بالوجود المأساوي والذي يمكن ان نجد له دلالات من الادب العبري والفلسفة اليهودية يسمح لنا باثارة زوبعة عاطفية من عدم الثقة في الذات واطلاق تلك الزوبعة نحو المستقبل.[١٢٤]

ثانيا ـ التشكيك في مدى الصداقة الامريكية الاسرائيلية والتذكير بأن موقف الولايات المتحدة من فورموزا يمكن ان يتكرر وجعل هذا الموقف منطلقا اساسيا لتأصيل حقيقة السياسة الخارجية للقوى العظمى وتصويرها تصويرا معينا بحيث تجعل المواطن الاسرائيلي يتساءل: الى اي حد نستطيع الاعتماد على السياسة الامريكية؟ التأكيد على الحركات المعادية للصهيونية في المجتمع الامريكي حاليا والتقاليد الاخرى السابقة وبصفة خاصة حتى الحرب العالمية الثانية يصلح بدوره لخلق حجج جانبية تساهم في تعميق بذور الشك. هذه العملية سلاح ذو حدين فهو يذكر المستقبل بأن مصير اسرائيل في الامد الطويل هو ان تظل دولة تنتمي الى دول الشرق الاوسط ومن ثم عليها ان تخفف من تحدياتها. ولكنه من جانب اخر فان مثل هذا المنطق قد يزيد من الشعور بضرورة التمسك بالبقاء اليهودي في المنطقة[١٢٥]. على انه حيث ان الناحية الثانية لاموضع

---

(١٢١) انظر حامد ربيع نظرية الدعاية الخارجية، م.س.ذ.، ص ١٩٣ ومابعدها.

(١٢٢) FOREST The unholy land. 1971, 58.

(١٢٣) حامد ربيع، فلسفة الدعاية، م.س.ذ.، ص ١٦١ ومابعدها.

(١٢٤) سيلزر م.س.ذ.، ص ١٠١ ومابعدها

(١٢٥) ZWEIG. Israel. 1969, P 213

للمناقشة حاليا في جوهرها فيكفي تحقيق الغاية الاولى ولو على حساب الاثر الجانبي الاخر ولو مؤقتا.
ثالثا ـ التأكيد على تعميق التناقضات الداخلية والصراعات المحلية في المجتمع الاسرائيلي يصلح بدوره منطلقا اخر من منطلقات التشكيك في علاقات التماسك[١٢٦] التي تميز العلاقة بين الطبقات المحكومة والطبقة الحاكمة : صراع بين جيل السابرا وجيل الهجرة الثانية، صراع بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين، صراع بين العلمانيين والمتدينين، صراع بين الشباب وغير الشباب ليست الا بعض النماذج التي في حاجة الى تعميق والذي من الممكن ان تتم على ضوء الوقائع الاخيرة مع تحليل علمي لها مستندا الى الاحصائيات والارقام اساسا ومنطلقا خطيرا لخلق عدم الثقة لتنظيم العلاقة السياسية في المجتمع العبري.

وهنا تبرز تساؤلات اخرى جانبية : هل يتعين علينا ان نولي بالاهتمام الرأي العام العربي في المجتمع الاسرائيلي؟ وهل يجوز لنا ان ننسى ولو مؤقتا الرأي العام المرتبط بالاقليات غير اليهودية وغير المسلمة كالمجتمع الدرزي والمجتمع المسيحي ام يجب ان نتركها جانبا ولو مؤقتا؟ اسئلة جميعها في حاجة الى دراسة رغم ذلك فبعض الملاحظات جديرة بان تدعونا للتأمل[١٢٧]. فالقطاع الاول يمثل شطرا خطيرا يصل الى حوالي ٣٠٪ على الاقل من المجتمع الذي تتحكم فيه السلطة الاسرائيلية ومن الممكن ان يمثل بالنسبة للمستقبل نوعا من الطابور الخامس المحلي في اي حرب نفسية تشن على نطاق اوسع وخصوصا لو ارتبطت بنضال عسكري. وقد اثبتت حرب عام ١٩٧٣ صحة ها التصور فرغم النجاح العسكري وثبات المحارب السوري في الشمال والمقاتل المصري في الجنوب فان الرأي العام العربي المحلي داخل المجتمع الاسرائيلي دون الحديث عن الاقليات الاخرى لم يتحرك وظل متخذا موقف السلبية المطلقة. كذلك فان الاقليات بدورها يجب ان تكون موضع الاهتمام لانها في الواقع وفي ظل التخطيط الاسرائيلي للدعاية الصهيونية تمثل الجسر الذي من خلاله يتم انتقال المنطق اليهودي المحلي الى العقل العربي[١٢٨]. نقصد بذلك الدروز والمسيحيين العرب. ولايجوز ان يقلل من اهتمامنا بهذه الاقليات انها تمثل شرائح محدودة من حيث الوزن الكمي. ان الاهتمام بهذه الشرائح اساسه خطة دفاع عن النفس في نظرة بعيدة المدى لاقامة حواجز ضد تدفق اي منطق صهيوني من خلال قنوات الاتصال العربية. وهنا نجد مسالك المنطق الدعائي العربي عديدة. فمن جانب تذكير الاقليات العربية غير اليهودية وغير المسلمة بان مستقبلها دائما لن يتقرر الا من خلال علاقتها بالعالم العربي الاسلامي. من جانب اخر تدعيم الثقة في المواطن العربي المسلم وتقوية ايمانه بقضيته واقامة عائق نفسي ضد المحاولات الدعائية المعادية بقصد هدم ثقته في حضارته وتقاليده يمثل المنطلق الاخر الذي يجب ان يسير في خط متواز مع المنطلق الاول. وهنا الجهود الاعلامية تصير عديدة لاحصر لها بل وتكاد ترتبط باعادة احياء التراث الاسلامي ووظيفته في الحضارة الانسانية. وهكذا يصير المنطلق الاعلامي مرة اخرى لغة حضارية وليس مجرد منطلق دعائي اساسه الانفعال والحبكة والاثارة[١٢٩].

---

(١٢٦) علاقة التماسك هي اساس التحليل الذي قدمناه في مؤلفنا من يحكم في تل ابيب انظر ايضا،
TOSI, Anatomia di Israele, 1972, P. 68; BENTWICH. Israel: two fateful years, 1972, P. 101.

(١٢٧) حامد ربيع، ابحاث في نظرية الاتصال، م. س. ذ ص ٨٢ ومابعدها.

(١٢٨) انظر سابقا ص ٥٧ ومابعدها.

ولعله لمزيد من تمزق الباحث ان يجد هذا الاخفاق الذي نعاصره يعود الى مغالطة حقيقية في تقاليدنا التاريخية والحركية. مغالطة لم يقع فيها نفس خصومنا الذين انتفعوا بتلك التقاليد وانطلقوا منها في عملهم الدعائي. في غير هذا الموضع ابرزنا واثبتنا كيف ان التخطيط الصهيوني للتعامل النفسي انطلق ابتداء من الحرب العالمية الثانية من مدلول الخبرة الاسلامية ومن تقاليد كل من الثورة العباسية والدعوة الفاطمية. الاعلام العربي المعاصر على العكس من ذلك يلغي هذه التقاليد لانه يلغي المنطق الحضاري للدعوة الاسلامية ولا يجد سوى تقاليد المجتمع القبلي الجاهلي يستقصي منها خصائص حركته الاتصالية : ارتفاع الصوت، التضخيم، الافراط في المدح او الهجاء والحب او العداء دون متابعة منطقية او بناء للحجج المرتبطة بتأسيس الخلفية الفكرية. تساؤل يفرض نفسه علينا في كل لحظة نسعى فيها الى تقييم الاعلام العربي : ماهو الفارق بين مكاتب الاعلام العربية المعاصرة وسوق عكاظ؟

الفصل الخامس

عملية البناء الفكرية لنظرية الحرب النفسية:

الأصول والمقدمات

خلاصـــة

خلاصة:ـ

اهمية عملية التأصيل الفكري والبناء النظري لظاهرة الحرب النفسية ـ نظم المعلومات وعملية صنع القرار القومي ـ التعريف بخصائص نظم المعلومات ـ العلاقة بين نظم المعلومات وعملية صنع القرار ـ التعامل الفني مع المعلومة ـ النماذج المعاصرة في نظم المعلومات ـ الواقع العربي ونماذج التعامل في الخبرة المصرية ـ خصائص مشاكل العالم العربي ـ حول اصلاح الوضع الحالي ـ التخطيط للتحرك الاعلامي ـ مفهوم ادارة الصراع واصوله التاريخية ـ التحرك الاعلامي وقواعد الممارسة ـ التحرك الاعلامي والسياسة القومية ـ مبدأ التخطيط المرحلي في التحرك الاعلامي ـ قاعدة التنسيق والتناسق ـ طبيعة ادارة الصراع كنظام للتعامل وموضع السياسة الاعلامية ـ تنظيم العلاقة بين السياسة الاعلامية وادارة الصراع ـ التحرك الاعلامي والتطور المعاصر لنظرية وظائف الدولة ـ نظرية الحرب النفسية ـ القواعد العامة للحرب النفسية ـ الحرب النفسية في العالم العربي ـ الحرب النفسية وحرب الخليج.

١١٠ـ اهمية عملية التاصيل الفكري والبناء النظري لظاهرة الحرب النفسية:

الحرب النفسية لاتزال في حاجة الى التأصيل النظري الذي يعبر ويفسر حقيقة الاحداث التي تعيشها الاسرة الدولية والعالم المعاصر[1]. المفاهيم تتداخل والكليات تتشابه ولكن القدرة على التمييز بينها وادراج كل حقيقة في موضعها المناسب بحيث يتكون من هذا الاطار الفكري تصور متكامل لهذه الظاهرة بأبعادها المختلفة وتطبيقاتها المتباينة وبحيث تسمح تلك العملية من منطلقات التجريد المتتابع الحلقات ان تحتضن جميع منحنيات ومتغيرات الظاهرة موضع التعامل لايزال لم يكتمل بعد. الفكر المتخصص لايزال يخلط حتى هذه اللحظة بين الدعاية والحرب النفسية وهو لم يستطع بعد ان يؤصل مفهوم الدعوة وهو لم يحاول ان يبرز حقيقة التوازن الدقيقة في عملية التعامل النفسي بين المجتمع المتقدم وبصفة خاصة حيث الشخصية الفردية متكاملة واثقة من نفسها لاتعيش فراغا او خواءاوفكريا اوتؤمن بالترابط الحضاري بين الماضي والحاضر وتجعل من ذلك الترابط محوراً للتعامل مع المستقبل وحيث ان نظام القيم السياسية وبغض النظر عن ابعاده الاخلاقية يتكون من ترتيب تصاعدي للقيم المتراصة والمترابطة والمتجانسة في مواجهة المجتمعات المتخلفة التي تعاني من نقص كلي في كلا البعدين: فالثقة بالذات لاموضع لها وبصفة خاصة في المجتمع المحكوم الذي يعيش ازماته المتتالية دون اي محاولة جادة لتخطي تلك الازمات[2]. لايعني ذلك ان الطبقة الحاكمة في تلك المجتمعات المتخلفة لاتعاني من عدم الثقة بالذات ولكن هذا البعد من ابعاد التخلخل في النفسية الجماعية يأخذ صورة مختلفة لو قورن بالطبقات المحكومة. الحاكم يعاني من عدم الثقة بالذات لأنه يشعر بعدم قدرته على مواجهة الطبقات الحاكمة في المجتمعات المتقدمة وتبرز هذه الناحية واضحة عندما يقدر له ان يتعامل مع العلماء ايضا من بين مواطنيه. المجتمع المحكوم لايثق لا في حكامه ولا في ماضيه ولا في حاضره. والخلاصة ان المجتمعات النامية هي ارض رخوة تستطيع اجهزة الحرب النفسية اختراقها بسهولة ودون مقاومة. هذه الحقيقة الواضحة في جميع المجتمعات المتخلفة تصير اكثر وضوحا في المجتمع العربي ومن ثم تصير الحاجة ماسة واكثر الحاحا لعملية التنظير للظاهر(أ) التي هي وحدها تسمح بتحقيق اهداف ثلاثة:

---

(١) انظر على سبيل المثال في الفقه المصادر التى اوردها MARTIN, International probaganda, cit., P. 57, p.215n°3.
وقارن بصفة خاصة من بين المصادر المتداولة:
MINOR, The information war, cit., p. 134.
Qualter, PROBACAMDA and psychologiel warfare, cit., P.102.
Fraser, Probaganda, cit., p191.
HOLSTI, International politics, 1972, P.210.

وجدير بطرح العديد من التساؤلات وبصفة خاصة في الفقة الفرنسي:
GRAPIN, PINATEL La guerre civile mondiale, 1976, p. 303
BRESSAND, DISTLER, Le prochain monde, 1985, 265.
MOSCOVICI, L'age des foules, 1981, p.471.
STRAUSS, L'esprit deresistence, 1986, p.170.
MELON, alt., La dissuasion civile, 1985, p.14.
MARCELIN La guerre politique, 1985, p.18.

(٢) انظر بصفة خاصة مايطرحه CHESNAS, Le revanche du tiers-monde, 1987, p.246-248.

(٣) السؤال الذي يطرحه ميجريه منذ اواخر الستينات لايزال دون اجابة.
انظر: MEGRET, L'ation psychologique, cit. p.103.

(اولا) فهم مايحيط بنا من ظواهر مختلفة للتعامل النفسي من منطلق الادراك الواعي المتجانس المؤسس على حقائق علمية وليس وقد بنى على انطباعات وانفعالات مؤقتة وذاتية.

(ثانيا) القدرة على التعامل الحركي مع الظاهرة. التعامل الحركي يعني التصدي، يعني تطويع الموقف، يعني احالة الضعف الى عناصر للقوة، وهذا لايكفي بخصوصه النظرة الجزئية او الانطلاق من دلالة الخبرة الذاتية المؤقتة، انه في حاجة اولا الى التنبؤ، وثانيا للتخطيط وثالثا للادراك الكلي الشامل بالموقف ورابعا الوعي بحقيقة القدرات الذاتية. كل ذلك لايمكنه ان يتأسس الا من خلال التنظير المتكامل حتى ولو كان ذلك التنظير تعيبه بعض النقائص.

(ثالثا) وتزداد هذه القناعة عندما نتذكر كيف ان الحرب النفسية اصبحت بديلا للقتال العضوي وان المواطن العربي في هذه اللحظة يواجه نموذجا للحرب النفسية لم تعرفه اي خبره اخرى. وبصفة خاصة فان الخبرة التي نعيشها تتعامل مع مفاهيم صهيونية جديدة ومتجددة. علينا كذلك ان نتذكر ان الحرب النفسية قتال وككل قتال ورغم انه هو تطبيق معتاد للتعامل العضوي العنيف مع الخصوم والاعداء، فانه يملك منطقة الذات وادراكه الخاص به[4].

متابعة تاريخ الوطن العربي وقصة تعامله مع العدو الصهيوني وبصفة خاصة في الادراك الاسرائيلي للتعامل النفسي مع مختلف شرائح المجتمع العربي كما بلورته احداث ربع القرن الماضي تكفي في ذاتها كميدان للملاحظة والمشاهدة لبناء نظرية متكاملة عن الحرب النفسية. رغم ذلك فان الفقه العربي لايزال يقف ازاء تلك الحقيقة موقف التردد والتخاذل بل ماهو اخطر موقف عدم الوعي وعدم الادراك. عندما بدأ التعامل بين مصر والدبلوماسية الامريكية فترة حكم نيكسون يلحظ المتتبع لقنوات الحوار ان احد العناصر الاساسية التي ركز حولها الجانب الامريكي منطقه في ذلك التعامل هو وضع حد لما اسماه الحرب الباردة بين مصر واسرائيل. ولم يلمس في حينه الجانب المصري ان ذلك لم يكن الامقدمة لفتح الباب واسعا في سبيل خلق مسالك جديدة للغزو النفسي متسترة بأسم السلام. هذه الناحية تصير بعدا اخر لاتزال القيادات العربية غير واعية به وهو ما نستطيع ان نسميه الحرب النفسية العكسية[5].

فككل قتال فإن التصدي للهجوم المعادي يجب ان يأخذ تتابعا معينا وبصفة خاصة من جانب الطرف المهزوم. ايقاف للغزو اولا، دفع الغزاة نحو الخلف اي فرض التراجع ثانيا، ثم اندفاع في غزو عكسي اي غزو من جانب الطرف الذي خضع لعملية الغزو ثالثا. حقائق عديدة في حاجة الى ان توضح وتنظر بل وتقنن حتى يستطيع رجل الحركة ان يسير على هديها في تعامله مع الموقف[6].

خلال اكثر من عشرة اعوام ونحن نعكف على هذا الموضوع. الجهود التي تبلورت في صورة واضحة لم تتعدى بعض الجزيئات. ورغم ايماننا بأهمية هذا التكامل علميا وعمليا الا اننا لانزال لم نحقق بخصوصه ذلك الذي يمكن ان يسمى بنظرية الحرب النفسية. رغم ذلك فهناك مجموعة من الحقائق استطعنا ان نؤصلها وان نحدد ابعادها من حيث البناء النظري والدلالة العلمية.

فلنذكرها بايجاز:

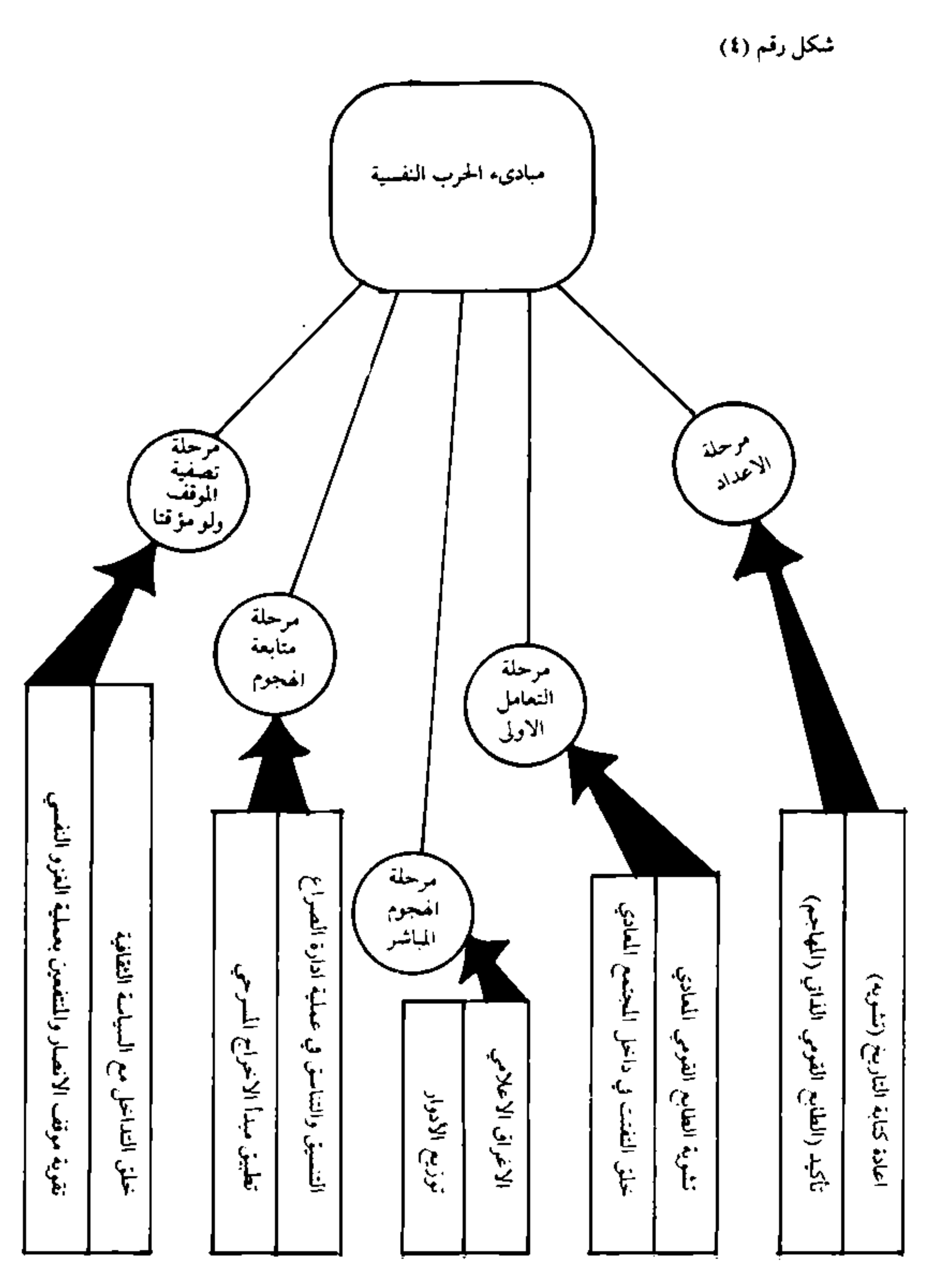
---

(٤) جدير بالملاحظة أن الفقه الاسرائيلي تابعنا في عملية التميز القاطع بين الدعاية والحرب النفسية. انظر مقال اريائيل مراري، رئيس قسم علم النفس في مركز الدراسات الاستراتيجية بجامعة تل ابيب، في مجلة ضباط الجيش الاسرائيلي بعنوان الحرب النفسية بتاريخ ١٢/١١/١٩٨٢، ترجمة مركز البحوث والمعلومات (بغداد)، ص٣ ومابعدها.

(٥) قارن على سبيل المثال، حسن محمد طواله، نحو تخطيط استراتيجي للاعلام العربي، ١٩٨١، ص٢٤ ومابعدها.

(٦) LUSSATO, Le défi informatique, 1981, p 121.

شكل رقم (٤)


مبادىء الحرب النفسية
مرحلة الاعداد
مرحلة التعامل الاولي
مرحلة الهجوم المباشر
مرحلة متابعة الهجوم
مرحلة تصفية الموقف ولو مؤقتا
اعادة كتابة التاريخ (تشويه)
تأكيد (الطابع القومي الذاتي (الهاجم)
تشوية الطابع القومي المعادي
خلق التفتت في داخل المجتمع المعادي
الاغراق الاعلامي
توزيع الادوار
التنسيق والتناسق في عملية ادارة الصراع
تطبيق مبدأ الاخراج المسرحي
خلق التداخل مع السياسة الثقافية
تقوية موقف الانصار والتحصين بعملية الغزو النفسي

١ . اول هذه النواحي هو طبيعة الحرب النفسية . انها تتصف بخصائص ثلاث يجب ان تكون واضحة بكل ابعادها ونتائجها :
(أ) هي اولا تعامل مع موقف .
(ب) وهي حرب اي قتال ولكن من نوعية معينة .

وهي في جوهريا عملية اتصالية حيث هناك مرسل ومستقبل وموضوع للاتصال . يجب ايضا لفهم الحرب النفسية ان نفهم المرسل وخصائصه ومنطقه في التعامل ولايكفي في ان نخضع المستقبل او موضوع الاتصال للدراسة والتحليل[٧] .
٢ . كذلك يجب التميز القاطع بين ظاهرة الحرب النفسية وادوات الاتصال الجماهيري . الحرب النفسية هي تعامل مع موقف حيث ارادة قاتلة تتجه الى خصم معين بقصد تحطيم العنصر المعنوي في ذلك الخصم اي ثقته في ذاته القومية . انها كأي قتال هي سعي لخلق الانهيار الكامل بغض النظر عن درجاته في الطرف الاخر للتعامل . انها قتال جماعي . ادوات الاتصال الجماهيري هي مجموعة من القنوات والمسالك والادوات التي تسمح بالتأثير في الادراك الفردي . انها تسعى لنقل خبر او لخلق القناعة برأي اخر مختلف . ولكنها لاتعدو ذلك . وهكذا نجد الحرب النفسية اكثر اتساعا من الاعلام الجماهيري افقيا ورأسيا . فهي قد تستخدم الاعلام الجماهيري ولكنها تملك من الادوات الاخرى ما لايمكن أن يوصف بأنه اعلام جماهيري . الحرب النفسية تسير على ثلاثة اقدام : اعلام جماهيري ، اجهزة المخابرات وما في حكمها ثم ادوات اخرى مكملة[٨] .
وهي لا تقتصر على ان تكون عملية اتصالية : انها تسعى الى تحطيم الثقة في الذات القومية وهي من ثم لاتتجه الى فئات معينة او طبقات محددة انها تسعى الى المجتمع القومي بجميع عناصره وجميع فئاته ومختلف طبقاته وهي لذلك اكثر ديمومة لأنها لاتقتصر على الحاضر بل تتعدى ذلك الى المستقبل . والخلاصة ان الاتصال الجماهيري ليس سوى احد الركائز في ظاهرة الحرب النفسية .
٣ . كذلك علينا ان ندخل في الاعتبار ان توظيف الاعلام الجماهيري قد يأخذ صورة تختلف عن حقيقة الوظيفة النابعة من طبيعة الاعلام الجماهيري . ادوات الاعلام الجماهيري تتجه الى واحد من ثلاث : الاخبار او التثقيف بأوسع معانيه ، ثم التسلية واخيرا تغيير الرأي . الاول هو الاعلام في معناه الحقيقي . الثاني هو شغل اوقات الفراغ[٩] . الثالث هو الدعاية . ولكن المخطط يستطيع ان يستخدم الاداة في غير الهدف او الوظيفة التي تنبع من طبيعة تلك الاداة . فالاعلام على سبيل المثال او الدعاية قد تتحول الى حرب نفسية . واذا كان ذلك يبدو واضحا في التعامل الدعائي فانه لايقل اهمية في التطبيق الاعلامي . الحرب الاعلامية لم

---

(٧) هذه الناحية يعكف على تعميقها احد طلبتنا في بغداد . انظر فلاح حسن طاهر ، التطبيق الاسرائيلي لمفهوم الحرب النفسية ، دبلوم التخصص في الدراسات السياسية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، بغداد ١٩٨٧ .
(٨) هذا البعد العلمي من ابعاد الحرب النفسية هو الذي يجب ابرازه والتأكيد عليه . فالحرب النفسية ادواتها عديدة واحد هذه الادوات هو الاعلام الجماهيري . وما يجب التذكير به هو ان هذا التعددللأدوات وحيث هذه الادوات ليست من طبيعة واحدة يفرض التنسيق الكامل لافقط من مضمون الحرب النفسية بل ومن حيث التنفيذ وتوقيت مراحل التنفيذ . انظر :
MINOR, The information war, 1970, P.12.

(٩) اساءة التوظيف او ما يعبر عنه باللغة الانجليزية disfunction لايقتصر فقط على الناحية الاخبارية بل حتى في نطاق شغل اوقات الفراغ . والنموذج الواضح بهذا الخصوص هو افلام الفيديو والتي تسربت وانتشرت في الوطن العربي بطريقة ملفتة للنظر . انها ادوات لخلق القناعة بنموذج حضاري آخر غير العربي بما يعنيه ذلك من اعداد سواء للتخلي عن النموذج العربي سواء لاستقبال النموذج الامريكي ، وهذه ايضا مسالك غير مباشرة للحرب النفسية . قارن ابراهيم الداقوقي ، الانظمة الاذاعية ، ١٩٨٥ ، ص٩٠ وما بعدها وكذلك المرجع الذي اورده في ص٩٣ رقم٦ .

تعد ظاهرة غير معتادة بل انها اكثر فاعلية من الدعاية لأنها تنبع من الحقيقة ولا تستخدم سوى لغة الحقيقة ولكنها كافية بدورها لخلق وترسيب عدم الثقة في الذات. نشر معلومات صحيحة ولكنها مخجلة عن زعيم سياسي او قائد لمجتمع معين وفي لحظة معينة اكثر خطورة من اختلاق معلومات كاذبة عن ذلك الزعيم او القائد.

٤ . كذلك فان مستويات التعامل النفسي عديدة ويجب التمييز بينها في صورة واضحة ودقيقة . في الصفحات السابقة ابرزنا واكدنا على اهمية الفهم الصحيح للفارق الجوهري بين الدعاية والدعوة . كذلك يجب ان ندرك مدى الخلاف الجوهري بين ما اسميناه بالتسميم السياسي من جانب وعمليات غسيل المخ من جانب اخر ومفهوم التحويل او الاستيعاب العقائدي من جانب ثالث[١٠].

٥ . على ان اخطر مايعنينا ان نذكر به ضرورة التفرقة الصريحة بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي حيث ان كلا منهما ينطلق من مدركات مختلفة وينبع من طبيعة تكاد تكون متميزة مستقلة عن النوع الاخر من انواع النشاط الاعلامي . وعلينا ان نتذكر ان الحرب النفسية في جوهرها هي اعلام خارجي من حيث المصدر بل وكذلك من حيث المضمون لأنها لاتتجه الى المجتمع الذي تصدر منه وان هدفها المجتمع المعادي الذي يقف من مصدر الحرب النفسية موقف التربص والسعي الى الاستئصال او على الأقل التطويع[١١]».

جزئيات متعددة لايزال ينقصها الربط المتكامل الذي يسمح بالحديث عن نظرية للحرب النفسية.

على ان هذا يكفي للفهم الكامل للظاهرة. يتعين علينا ان نضيف في هذه المحاولة الجزئية لبناء تنظير ولو في صورة اولية لظاهرة الحرب النفسية ان نضيف بعدين اخرين:

(أ) اولها طبيعة القرار المتعلق بالحرب النفسية ومايرتبط بذلك ويترتب عليه من نتائج. القرار بالحرب النفسية سواء هجوما او دفاعا هو قرار قومي بما يعنيه ذلك في كل ماله صلة بنظم المعلومات.

(ب) الامر الثاني ان الحرب النفسية وهي جزء من الصراع لابد وان تندرج في مفهوم ادارة الصراع. كأي حرب او قتال لابد من القائد الذي يدير المعركة والجندي الذي هو اداة القتال ثم خطة للتعامل فضلا عن ارضية المعركة حيث يدور القتال. الحرب النفسية بهذا المعنى محور اساسي في عملية ادارة الصراع ومن ثم لابد وان تستوعب في تلك الديالكتيكية المسيطرة على مفهوم التعامل الصدامي.

موضوعين جديدين على الفقه السياسي العربي. ورغم انه قد يبدو لاول وهلة ان صلة اي منهما محدودة بظاهرة الحرب النفسية الا ان هذا غير صحيح بل ان عدم الادراك الواعي بحقيقة تلك الصلة يمثل في قناعاتنا احد اسباب الفشل الواضح من الجانب العربي في التعامل الواقعي مع ظاهرة الحرب النفسية التي يعيشها الوطن في هذه اللحظة. ومن ثم لابد من التعرض لكلا هذين البعدين قبل ان نختم هذه الدراسة باطار مؤقت لتنظيرنا للظاهرة[١٢]. هذا التنظير هو وحده الذي سوف يسمح لنا بالتعامل المباشر مع المشاكل الحقيقية التي تثيرها نظرية الحرب النفسية في الواقع المعاصر: التعامل النفسي بين المواطن والدولة في المجتمع المعاصر، الحرب النفسية والصهيونية الجديدة، الحرب النفسية وعملية اعادة كتابة التاريخ نتابع هذا الفصل في مباحث ثلاث بالترتيب السابق.

---

(١٠) انظر التفاصيل في حامد ربيع، الدعاية الصهيونية، ١٩٧٥، ص ٩ وما بعدها ، ص ٣٦ ومابعدها، ص ٧٥ ومابعدها.

(١١) سبق ان افردنا لذلك فصلا مستقلا، انظر سابقا ص ١٣٥ وما بعدها.

(١٢) هذا الاطار المؤقت سوف يخضع لتحليل كامل في مؤلف على حدة. ولكننا في هذه العجالة نسعى فقط لتثبيت العناصر الاساسية التي يدور حولها كل ماله صلة بعملية التنظير النسبي. انظر محاضراتنا حامد ربيع، ابحاث في نظرية الرأي العام، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ١٩٨٠، ص ١٠ ومابعدها.

المبحث الاول

نظم المعلومات

وعملية صنع القرار القومي[13]

١١١ ـ التعريف بأهمية نظم المعلومات وخصائصها

عملية جمع المعلومات اضحت اليوم وفي عالمنا المعاصر من ادق واعقد المشاكل التي يتعين على كل من يسعى لاتخاذ القرار ان يواجهها وان يدخلها في اعتباره. وذلك رغم ان الثورة الاعلامية وثورة تنظيم المعلومات هي المتحكمة في جميع مظاهر التقدم التكنولوجي التي يعيشها العالم المعاصر. مرد ذلك يعود الى متغيرين اساسيين: من جانب الوفرة في المعلومات والتدفق الرهيب بذلك الخصوص على جميع المستويات. والمتغير الثاني هو ان التعقيد الذي تعيشه الانسانية المعاصرة جعل التخصص في عملية جمع وتنظيم المعلومات حقيقة مطلقة بحيث ادخل في مسارات التنقل من المرسل الى المستقبل او من مصدر المعلومة الى من لابد ان ينتفع بالمعلومة، عقليات مختلفة ونماذج متباينة للتصور والادراك بنفس الحقيقة.
فاذا انتقلنا الى الجانب السياسي غالبا ما يعنيه ذلك من نتائج تتضخم عندما نتذكر ان من يتعين عليه صنع القرار السياسي يجد نفسه في موقف يتصف بخصائص ثلاث: اولها انه بحكم طبيعته وتكوينه يتميز بغلبة الطابع الجماهيري على تفكيره وهو صفة تتناقض في اغلب الاحيان مع عملية التعامل مع المشاكل، ومن جانب اخر يتعين عليه ان يتخذ القرار بسرعة حيث في بعض الاحيان قد يجد نفسه في موقف لايملك فيه اكثر من عدة دقائق لحسم المشكلة التي هي في حاجة للقرار، اضف الى ذلك انه قد يضطر لاتخاذ القرار دون **معلومات جديدة ومتجددة الامر الذي يفرض عليه نوعا معينا في التعامل مع المعلومات القديمة ان وجدت**[14].

---

(١٣) سبق ونشر هذا البحث في مجلة معهد البحوث والدراسات العربية ببغداد، ١٩٨٢، العدد الحادي عشر، ص٣٢ ومابعدها.

(١٤) هذا الموضوع رغم اهميته لايزال محدود من حيث التحليل. فالاهتمام به لم يرتفع بعد الى حد التأصيل الفكري والنظري. المراجع بصدده يغلب عليها طابع الابحاث ا التقارير غير المتداولة، وهو امر يفسر ضرورة الاهتمام بنقل خلفياته الى المستوى العربي.

انظر من بين المصادر العامة:

LONDON, The making of foreign policy, 1965, p.235.

MATTELART, Multinazionali e communicazioni di massa, 1977, p.387.

SERVAN — SCHREIBER, Le pouvoir d'informer, 1972.p.251.

FISCHER, International communication, 1970, p.197, p.469.

MERRIT, Communiation in international politics, 1972, p.255.

CHERRY, World communiction, 1971, p.15, p.187.

LEPRI, Le macchine dell'informzione, 1982, -.147.

علم المعلومات ليس مجرد اسلوب التعامل مع الآلات الالكترونية وما في حكمها. هذا المفهوم الذي يسود الكثير من الطبقات العلمية غير دقيق وغير صحيح. والواقع ان علاقة المعلومة بالقرار تتحدد في مستويات ثلاث: اولها عندما تصير المعلومة موضوعا للتأمل ومن ثم اداة لمساندة الحركة بحيث ان المعلومة يجب ان توضع في الشكل الذي يسمح باستخدامها وباستقلال مطلق عن جوهر تلك المعلومة ومضمونها. وثانيها عندما يتعين خلط المعلومة بمعلومات اخرى بقصد اكتشاف افتراض معين او التوصل الى نظرية معينة للوصول الى معرفة محددة النتائج او لمدى فاعلية ذلك الافتراض. على ان المعلومة تصير ايضا عنصرا اساسيا في عملية التعامل مع الاداة الالكترونية فلا تزال هذه الاداة الالكترونية بكل ماقدمته من تطوير مذهل نوعا من الحوار بين العقل الانساني والآلة الصماء. ان عملية الاقلمة والتوفيق بين التعريف بالمشاكل وامكانيات العقول الالكترونية في حاجة الى نوع معين من التعامل حيث المحلل او نوعية معينة من العقلية العلمية تصير اساسا لامكانية فرض المنهاج على العقل الالكتروني. وهنا تصير المعلومة ذات وظيفة خطيرة حيث ان العقل الالكتروني ليس في حقيقته سوى نظام جديد للجهاز الادراكي.

موضوع الدراسة التي نطرحها هو حقيقة العلاقة بين نظم المعلومات وعملية صنع القرار. على اننا منذ البداية نسرع بتحديد اطار هذه الدراسة. فالذي يعنينا اساسا هو صنع القرار القومي، كذلك من جانب اخر فاننا سوف نتناول نظم المعلومات لافقط بالمعنى التقليدي اي ليس فقط بمعنى التعامل مع المعلومة بالتنقية والتنظيف وتحديد الدلالة ولكن ايضا بمعنى مختلف المؤسسات الادارية والقومية التي تتعامل مع المعلومات في داخل الجسد السياسي بقصد تحقيق ذلك الهدف الموضوعي وهو في خاتمة الامر لايعدو ان يكون تقديم تصور محدد للقائد السياسي ليستطيع ان يستند اليه في اتخاذ القرار.

قبل ان نحدد المسارات الفكرية التي سوف نتعامل معها ومن خلالها لايضاح مختلف الجوانب التي تفرضها هذه العملية علينا ان نحدد بعض النقاط التي لابد وان تثير اللبس المترسب في اذهان الكثير من المسؤلين في المجتمعات المتخلفة. لا فقط بمعنى القيادات السياسية بل وايضا بمعنى القيادات العلمية: اول ما نسرع بأن نلفت اليه النظر هو ان اغلب قياداتنا تنظر الى هذا الموضوع بكثير من التبسيط بل والسذاجة. عندما قدرت لي دعوة الى جهاز المخابرات العامة في مصر لزيارته وتساءلت عن المعلومات المتوفرة وقيل لي بأنها كاملة وغير منقوصة وجدت هذه المعلومات لاتعدو ان تكون جرائد ومجلات متراكمة يعلوها الغبار. وقد تصور القائمون على الامر في ذلك الجهاز ان تخزين المعلومات لايعدو ان يكون تجميع لجرائد ومجلات وتصنيفها في احدى الحجرات دون اي معالجة اخرى. التخزين الالكتروني للمعلومات الواردة في هذه الجرائد والمجلات لا موضع له في ذهن اولئك المسؤولين. رغم ان هذه خطوة اضحت اليوم بدائية بل تتم ايضا في المكتبات الخاصة وفي الدول المتوسطة التقدم.

كذلك من ناحية اخرى فقد درج الكثيرون على تصور ان نظم المعلومات هي مرادف لكلمة الاعلام الجماهيري. ولعل الكلمة العربية (اعلام) تزيد من اللبس، فنظم المعلومات حقيقة مستقلة استقلالا كليا ووظيفيا عن نظم الاعلام. نظم المعلومات هو تعبير عن مايمكن ان نسميه الجهاز العصبي للدولة فالدولة هي كالجسد البشري تتكون من شرايين واوعية يسير فيها الدم الذي هو عصب الحياة ذهابا وايابا. هذه الاوعية هي نظم المعلومات وهذا الدم هو المعلومات التي تغذي الجسد بالحياة والوجود. الاعلام الجماهيري هو ذلك القسط من المعلومات الذي يتعين على الدولة ان تجعله مشاعا بين جميع اجزاء الجسد السياسي. انه علاقة بين حاكم ومحكوم وليس علاقة بين اجزاء الدولة اي الآلة الحكومية. الاعلام الجماهيري بهذا المعنى تعبير عن تطوير ديمقراطي يسعى لخلق المشاركة والمساندة من خلال المعرفة والعلم. ولكنه ليس نظم المعلومات. رغم ذلك فهناك علاقة وثيقة بين الظاهرتين: جهاز المعلومات في اي دولة متقدمة انما يعتمد بصورة اساسية ايضا على الاعلام الجماهيري الاجنبي في كشف قسط ضخم من المعلومات التي يجب ان

يخزنها في اجهزته للمعرفة بذلك المجتمع. في بعض الاحيان فان ٥٠٪ من المعلومات التي تتبلور في اجهزة المخابرات انما تستمد مصادرها الحقيقية من الاعلام المنشور. بل ان هذه العلاقة قد ترتفع الى مستوى اكثر اهمية عندما يعهد الى رجال الاعلام وبصفة خاصة الصحفيين بعملية جمع المعلومات لصالح اجهزة المخابرات. من المعلوم ان اكبر الوسطاء في جمع المعلومات للاتحاد السوفيتي ينتمون لهذ الفئة على ان هذا لايعني الخلط بين نظم المعلومات والاعلام الجماهيري. ان نظم المعلومات تدور اساسا حول تلك المجموعة من الهيئات المتخصصة التي تحيط وجودها ونشاطها بالسرية المطلقة والتي وظيفتها السهر على امن الدولة من خلال المعرفة الحقيقية المتأنية التي تتبلور في اللحظة المناسبة وتقدم للشخص المناسب في كل ما له صلة بالمخاطر القائمة او المتوقعة لحماية الوجود السياسي[١٥].
كذلك علينا ان نميز بين نظم المعلومات وعملية الاتصال. كلاهما يقود للأخرى ولكن يجب ان نلحظ كيف ان الاولى اي نظم المعلومات تفترض الثانية وليس العكس. الاتصال لايعدو ان يكون نقل فكرة من مصدر الى مستقبل، نظم المعلومات هي اكثر اتساعا: هي عمليات نقل من مصدر الى مستقبل ولكنها تفترض من جانب التنظيم الجماعي ومن جانب اخر ان عملية النقل هذه هي مقدمة لعمليات نقل اخرى متابعة رغم انها تأخذ صورة اتصال الا انها تصير اتصال من نوع معين اساسه تشكيل الادراك القيادي بحيث يتفق مع الواقع القائم من جانب وما يساير السياسة المصنعة في داخل المجتمع السياسي من جانب اخر.
قبل ان نتطرق للتفاصيل التي يفرضها هذا الموضوع علينا ان نلاحظ اننا سوف نستخدم كلمة صنع القرار القومي بالمعنى العام الواسع.
القرار هو اختيار وبهذا المعنى هو ارادة متأنية في تفضيل بديل على اخر. على ان العمل السياسي في الواقع يتضمن مستويات ثلاث تختلف من حيث جوهرها: فهناك اولا صنع السياسية: اي تحديد الاهداف وبناء اطار الحركة المتعلق بامكانية تحقيق كل من هذه الاهداف ثم ثانيا صنع القرار اي المواجهة الفعلية للمشكلة وقد تحددت من حيث الزمان والمكان والموضوع. ثم اختيار الادارة حيث يجد الحاكم نفسه امام اكثر من اداة واحدة فيتعين عليه تفضيل اداة على اخرى تبعا لامكانياته وقدراته. الواقع ان جميع هذه التطبيقات يمكن ان تندرج بسهولة تحت كلمة صنع القرار[١٦]. رغم ان صنع السياسة اكثر تميزا الا اننا من قبيل التسهيل لمناقشة موضوع الدراسة سوف نجعل مفهوم صنع القرار يسيطر على التطبيقات الثلاث.
لنستطيع ان نقدم تصورا متكاملا لحقيقة العلاقة بين نظم المعلومات وصنع القرار القومي علينا ان نبدأ فنطوع هذه العلاقة من منطلق تنظيري. ان نظم المعلومات هي تعبير عن ادراك المجتمعات لاسلوب معين في التعامل مع مشاكله. انها في جوهرها منطق سياسي اساسه العلمية والفاعلية. ابرز هذه الابعاد من حيث علاقاتها بوظائف الدولة لابد وان يكون المقدمة الحقيقية لطرح موضوع هذه العلاقة على مستوى الواقع المصري والعربي الذي سوف يبرز بصورة قاطعة مدى ما نحن عليه من تخلف ومدى ماينقصنا من ادراك لاهمية هذه العلاقة.

---

(١٥) انظر على وجه الخصوص:
WINDLESHAM. Communication and political power. 1966. p.203.
(١٦) انظر التفاصيل في حامد ربيع، نظرية السياسة الخارجية، م.س.ذ.، ص٤٣١ ومابعدها.

١١٢ـ الابعاد التنظيرية للعلاقة بين نظم المعلومات وعملية صنع القرار

سبق ان راينا ان عملية نقل المعلومات هي عنصر اساسي في ديناميات المجتمع السياسي ومنذ ان استقر العلم الاجتماعي على النظرة الى الدولة على انها حقيقة ديناميكية فقد كان من الطبيعي ان ينظر الى عملية نقل المعلومات على انها تعبير عن علاقات متبادلة تنبع من مفهوم الأخذ والعطاء المستمر بحيث ان الحاكم مهما اتجه الى الانفراد في القرار فهو ليس الا تعبيرا عن قوة دفينة في المجتمع السياسي يستمد مصادرها من العلم والادراك الحقيقي. العملية الاتصالية بهذا المعنى متدفقة ومستمرة في اتجاهين في آن واحد[١٧]. قد لاتبدو واضحة في بعض المواقف وقد تكون دائما خفية في كثير من القرارات وقد تصل الى حد التستر والتمركز حول قنوات محددة تنبع فقط من ارادة الحاكم، ولكن هذا الحاكم ايما كانت طبيعته لا يمكن ان ينعزل عن مجتمعه السياسي. عملية جمع المعلومات يجب ان تكون متدفقة ومستمرة، في الداخل لابد وان تتطرق الى جميع عناصر الوعي واللاشعور وفي الخارج لايجوز ان تترك الصديق قبل العدو. يوم ان يحدث خلل في تلك الاتجاهات المتباينة تكون الكارثة. في الداخل العزلة التي يمكن ان تصيب العلاقة بين الحاكم والمحكوم: هي هوة تعني الخلل في الجسد السياسي. لنتذكر نماذج واضحة لهذه الظاهرة: النظام السياسي الفرنسي قبل الثورة وفي حكم لويس السادس عشر ولايقل عنه في نفس الدلالة النظام الايراني في نهاية عصر الشاه. ايضا عندما يتقاعس النظام السياسي عن جمع المعلومات عن اصدقائه قبل اعدائه فهو يعرض الوجود السياسي ذاته للخطر: ولنتذكر ما اصاب الهند في مواجهة الصين عندما قدر للاخيرة ان تجتاح شمالها وتفرض عليها الاذلال. نفس الظاهرة اصابت العلاقة بين باكستان وبنغلاديش، ونظام هتلر رغم كل ما يوصف به من ديكتاتورية عنيفة تجنب هذه الظاهرة لانه عرف كيف يخلق قنوات الاتصال الدائمة في داخل الجهاز السياسي.

لنستطيع ان نتابع جميع هذه النواحي بشيء من الايجاز يتعين علينا ان نبدأ فنحدد الصعوبات التي يفرضها القرار القومي بصدد عملية جمع المعلومات ثم ننتقل عقب ذلك الى دراسة الموضوع بايجاز في بعديه الاساسيين: التنظيم من جانب لعملية جمع المعلومات والتعامل الفني مع المعلومة من جانب اخر ولابد ليكتمل ذلك الاطار العام ان نقدم ولو بايجاز مجموعة الخبرات المعاصرة بصدد هذه العملية المعقدة.

١١٣ـ صعوبات عملية جمع المعلومات والقرار القومي:

نظم المعلومات ازاء القرار القومي تثير مجموعة ضخمة من الصعوبات يجب ان نحددها منذ البداية:

أـ اول هذه الصعوبات يشعر بها المحلل عندما يصطدم بالاساليب المتداولة المرتبطة بالاطار الفكري للتحليل[١٨]. درج الفكر المعاصر على ان يستقبل التقاليد الامريكية في نظم المعلومات لتطبيقها ايضا فيما يتصل بما اسميناه نظم المعلومات على المستوى القومي دون اي تمييز. التقاليد الامريكية تدور حول كيفية استخدام المعلومات المتوفرة لتمكين المؤسسة الخاصة من الاداء الاحسن لنشاطها الصناعي والتجاري. في

---

(١٧) قارن بصفة خاصة:

BAUMAN, ECOUVES, L'information manipulée, 1981.

(١٨) انظر بصفة خاصة ورغم قدمه نسبيه لندن، م.س.ذ.، ص١١٤ ومابعدها.

ذلك النطاق حيث الدائرة محدودة والمشاكل جزئية. المحور يكون دائما الفعالية. ضيق دائرة التعامل حيث ان المؤسسة الخاصة مهما بلغت من اهمية فهي لاتدور الا حول احد اوجه النشاط الاقتصادي او التجاري وقد تحدد هذا الوجه للنشاط بنوعية معينة. كذلك فان التعبير الكمي ولغة العملة المتداولة تخلق اطارا واضحا للانضباط والقدرة على التقييم فاذا انتقلنا الى الميدان القومي الذي هو موضوع هذه الدراسة لهالنا مدى اختلاف الاطار الفكري للتعامل. اول مانلحظه هو ان الاطار القومي يرفض التقييم من منطلق العنصر الكمي. قرار بتفضيل انتاج سلعة على اخرى لاينبع الا من قدرة المؤسسة على تسويق تلك السلعة وعدد المشترين يفصح عن تلك الافضلية. ولكن قرار خارجي قومي بالدخول في حرب او بتفضيل تحالف معين على اخر لابد وان تتدخل فيه اعتبارات عاطفية ايديولوجية لايمكن ان يعبر عنها بأي رقم او تعبير كمي. هذه الحقيقة لاتقتصر على اتخاذ القرار بل تتعدى ذلك الى نفس صياغة المعلومة كما سنرى فيما بعد وهي من ثم تثير مشاكل عويصة يجب ان تخضع في التعامل الى منطلق فكري مختلف.

ب ـ كذلك في نطاق السياسة القومية هناك ميدانين كل منهما يختلف اختلافا كليا وجذريا عن الميدان الاخر. فالسياسة القومية تسير على اعمدة ثلاث: خارجية وداخلية وبينهما تتوسط السياسة الاقليمية[١٩]. تحليل نظم المعلومات يجب ان تبدأ بالتفرقة بين هذه المستويات الثلاث: في نطاق السياسة الخارجية وهي المرتبطة بكل مايتعلق بالتعامل عبر الحدود القومية فان القاعدة الاساسية هي التفرقة بين الدولة وشخص الحاكم. اجهزة المعلومات يجب ان تتجه الى حماية الدولة وامنها القومي ولاتعرف الافراد الا بوصفهم يؤدون وظائف معينة لذلك الهدف. تعودت الدول المتقدمة وبصفة خاصة منذ الحرب العالمية الثانية على ان تبني لنفسها مايسمى بأجهزة المخابرات العامة والتي هي في واقع الامر تتكون من ادارات باحثة، من مجموعات من العلماء وظيفتهم الاساسية تقديم التصور الحقيقي للتعامل الخارجي من منطلق القائم والتنبؤ وهنا يهولنا الفارق بين الدول المتقدمة والمتخلفة حيث نجد نظم المخابرات قد تحولت الى اجهزة تثير الرعب ولاتتجه الا لحماية شخص الحاكم. على العكس من ذلك فان كل ما له صلة بالاوضاع الداخلية، يتمركز حول الاجهزة الاحصائية التي تستطيع بالملاحظة المباشرة ان تقوم بعمليات جمع للمعلومات الدقيقة من خلال الحصر الشامل او العينة التي بدورها يجب ان تكون مراكز بحثية ولكن في ذلك الاطار المختلف. التعامل الداخلي يفرض التمييز بين الجهاز الاحصائي وما يسمى بجهاز المباحث: الاول يرصد القائم ولا يتعدى ذلك اذ ان كل وظيفته هو ان يجعل الارقام تتكلم. الثاني يفتح عينيه ليرى ويتلمس المخاطر المحتملة ازاء امكانية خلق القلاقل او الاضطرابات على مستوى المجتمع الكلي او الفئات والطوائف بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معاني ليسمح للدولة بأتخاذ تلك الاجراءات الكفيلة بتجنب اي حالة لعدم الاستقرار في الاوضاع السياسية. هذا الفارق واضح بين السياسة الداخلية والسياسة الخارجية يصبح اكثر تعقيدا لكل ما يتعلق بالسياسة الاقليمية. وهو نموذج جديد لم تعرفه الانسانية قبل الحرب العالمية الثانية. السياسة القومية والفقه السياسي يثير بهذا الخصوص الكثير من المشاكل المرتبطة بجوهر السياسة الاقليمية وهل يغلب عليها ان تكون سياسة خارجية او تخضع بقدر معين لمفاهيم السياسة الداخلية. لاتعنينا هذه النواحي بقدر انها تثير مشكلة اخرى خطيرة وهامة وهي المتعلقة بعملية التنسيق بين اجهزة المعلومات. لقد ذكرنا الآن ثلاثة اجهزة: المخابرات العامة والجهاز الاحصائي القومي، المباحث وكل منها له طبيعة متميزة برغم ذلك فان ضرورة وجود تنسيق معين له اهميته الحاسمة في فاعلية نظم المعلومات. وهذه ليست الاجهزة الوحيدة بل هي فقط الاجهزة

---

(١٩) حامد ربيع، نظرية السياسة الخارجية ،م.س.ذ.

المركزية. فاذا أضفنا الى ذلك ان المبدأ العام الذي يسيطر على العالم المعاصر هو ضرورة تنويع اجهزة المعلومات اقليميا ونوعيا لفهمنا مدى الصعوبات التي لابد وان تعترض نظم المعلومات الخاصة بصنع القرار القومي[20].

ج ـ ولعل هذا يثير مشكلة اخرى وهي طبيعة العلاقات التصاعدية في التتابع الهرمي لاجهزة المعلومات. سوف نرى فيما بعد ان القاعدة السائدة هي ان كل جهاز قومي لابد وان يمتلك جهازه للمعلومات. وهكذا نجد عندما نتعرض للسياسة الخارجية جهاز المخابرات العامة ثم جهاز المعلومات في وزارة الخارجية الى جوار اجهزة المعلومات في الاسلحة التقليدية الثلاث البحرية والبرية والجوية وذلك دون الحديث عن اجهزة معلومات اخرى تختلف تبعا للتقاليد الخاصة بكل مجتمع سياسي. فكيف تنظم العلاقة بين هذه الاجهزة؟ هل تنطلق من المبدأ التقليدي الذي اساسه ان الارتفاع في مستوى جهاز المعلومات من حيث اتساع دائرته هو الذي يتحكم في الاجهزة الاخرى او ان التخصص في جهاز المعلومات من حيث نوعيته هو المحور الاساسي؟ بعبارة اخرى هل المعلومة التي يقدمها جهاز المخابرات العامة هي التي لها الاولوية ام انه من الممكن لمعلومة لاحدى السفارات التابعة لوزارة الخارجية والتي تبنتها تلك الوزارة على سبيل المثال ان تملك اولوية مطلقة؟. مشكلة عويصة وتزداد خطورتها كما سوف نرى عندما نتذكر ان اتخاذ القرار قد يفرض على المسؤول ان يحسم في اولوية المعلومة في خلال عدة دقائق. ولعل خير نموذج يعبر عن هذه الصعوبة عملية تدمير المفاعل النووي بالقرب من بغداد. من المعروف ان بعض اجهزة المعلومات الاسرائيلية كانت ترى في ذلك المفاعل خطرا قوميا يجب استئصاله بينما اجهزة اخرى كانت ترى تأجيل تلك العملية لأن المفاعل في وضعه في تلك اللحظة لم يكن يرتفع الى تلك الخطورة التي تبرر الغارة الجوية. بل يقال بأن الاجهزة العلمية المتخصصة كانت وجهة نظرها مع هذا التصور الاخير خلافا لأجهزة المعلومات العسكرية. من الواضح انه في مثل هذا الموضوع وبحكم طبيعته العلمية العالية التخصص، فمم لاشك فيه ان وجهة نظر العلماء اكثر تعبيرا عن حقيقة الأمر. ولكن الرأي الذي ساد هو الذي تبنته الاجهزة العسكرية واجهزة المخابرات. فهل هذا هو الاسلوب الاصلح في حل التناقض بين اجهزة المعلومات؟

١١٤ـ طابع السرية ونظم المعلومات:

ولعل اخطر مشاكل نظم المعلومات هي تلك المتعلقة بسرية الاوضاع المرتبطة بتلك النظم. احدى التقاليد الثابتة هو ان نظم المعلومات القومية يحيطها التجهيل المطلق بل وقد تنشر عنها معلومات مخالفة للحقيقة ولذلك فان دراسة هذا القسم من اجزاء الدولة من منطلق المنهاجية المقارنة بقصد الكشف عن الخبرات المختلفة والانتفاع بدلالات تلك الخبرة يكاد يكون مستحيلا[21]. حتى اليوم مانعلمه عن اوضاع المعلومات في الاتحاد السوفيتي لايتجاوز القيل والقال ويدور حول الحقائق التي تسربت بطريقة فردية من بعض الجواسيس الذين قدر لهم ان يهجروا نظم الاستخبارات السوفيتية وقد اتهموا في اغلب الاحيان بالخيانة وهم في جميع الاحيان يعيشون في خارج الاتحاد السوفيتي حيث معلوماتهم الحقيقية عن حقيقة الاوضاع الداخلية اضحت محدودة ومقيدة. واذا كانت هناك بعض المعلومات الدقيقة عن اجهزة المخابرات الامريكية فهي دائما قديمة وغير متجددة. ان ما نملكه من معلومات موثوق بها بخصوص اجهزة المخابرات الامريكية لايتعدى

---

(٢٠) حامد ربيع، ابحاث في نظرية الاتصال، م.س.ذ.
(٢١) حامد ربيع ، ابحاث في نظرية الرأي العام، م.س.ذ.

منتصف الستينات اي لايستطيع الباحث ان يغامر بتقديم معلومات دقيقة لما هو اقرب من خمسة عشر عاما مضت.

١١٥ـ التعامل الفني مع المعلومة:

لو تركنا الشطر النظامي المتعلق بنظم المعلومات وتابعنا عملية المعالجة للمعلومة اي التعامل مع المعلومة منذ استقبالها حتى وصولها الى مركز الاهتمام بها لوجدنا ان التعامل مع المعلومات يملك ابعادا ثلاثة: جمع المعلومات اولا، ثم تحليل المعلومة ثانيا، ثم نقل المعلومة الى موقع الاهتمام بها ثالثا.
كل من هذه العمليات تفترض نوعية معينة وقواعد متميزة [٢٢]. قبل ان ندخل في التفاصيل المتعلقة بهذه الابعاد الثلاثة فلنتذكر بعض الملاحظات. اول هذه الملاحظات ان نطاق ودائرة المعلومات في كل ماله صلة بالسياسة القومية لاحدود له ولو اقتصرنا على السياسة الخارجية لكان علينا ان ندخل في الاعتبار ان المعلومات يجب ان تجمع لافقط عن الاعداء بل وكذلك عن الاصدقاء، ان اي صديق يحمل عناصر العداوة كما ان كل عدو قابل لأن يصير صديق الغد. عقد اتفاقية صلح معينة مع دولة من الدول ومهما كانت ظروف السلم بين الدولتين مواتية او ساحقة لايجوز ان يجعل اجهزة الأمن ترفع بصرها احتمالات تجدد العداوة. ان محور الصداقة الحقيقية هو توافق او تعارض اعتبارات الامن القومي. الصلح قد يكون خطوة تكتيكية تفرضها الملابسات المتجدده والمتغيرة. ولكن متغيرات الامن القومي في معناه الضيق اي تلك التي تنبع من الاوضاع الجيوبوليتكية هي وحدها الدائمة. وحتى في تلك اللحظة فالقاعدة قائمة: صديق اليوم يحمل عناصر عداوة الغد.
على ان ماهو اخطر من ذلك ان اي دولة يجب ان تدخل في اعتبارها التغير الفجائي والعنيف في السياسة الخارجية. نموذج مصر في عام ١٩٧٥ ليس بالوحيد. التغير في السياسة الخارجية، بعنف وفجأة نماذجه لاحصر لها. وجهاز المعلومات يجب ان يعد نفسه في اي لحظة لمثل ذلك التغير. وهو امر يفرض على جهاز المعلومات لافقط توسيع مصادر معلوماته والاهتمام بجميع المعلومات المتداولة وغير المتداولة بل الحرص على عدم كشف اوراقه ايضا بخصوص مصادر معلوماته مع اكثر اصدقائه تعاونا.
الملحوظة الثانية التي يجب ان نطرحها ترتبط بالتخصص في العمل المرتبط بجمع المعلومات. سوف نرى ان اجهزة المعلومات لم تعد مجرد مجموعة من العسكر وظيفتهم التصنت والتسمع وانما اضحى يغلب عليها التخصص العلمي بحيث توصف بأنها مراكز بحوث اكثر منها مراكز امن بالمعنى التقليدي. ولكن هل هذا يكفي؟

النظم الحالية تسير في طريقين مختلفين: احدهما اساسه الاكتفاء بالثقافة العامة والمتخصصة مع اضافة نوع من التدريب العملي [٢٣]. ولكن نظم الاستخبارات المتقدمة جميعها تفرض الاتجاه الى نوع من المدارس الفنية حيث يخضع رجل الاستخبارات الى تدريب طويل ودراسة متعددة الابعاد يتم من خلالها الاستبعاد المستمر لمن هو غير صالح وقد وصلت تلك المدارس في النظام السوفيتي الى ان جعلت مرحلة الاعداد النظري للعمل في هذا النشاط تصل لقرابة احدى عشر عاما. هذه الناحية تبرز اكثر خطورة في دولة كمصر: فهي ليست

---

(٢٢) لندن ، م.س.ذ.، ص١٢٤.

(٢٣) GOUREVITCH, La propagande dans tous ses etats, 1981, p.224.

فقط دولة متخلفة ولا تملك تقاليد حقيقية بكل ما له صلة بالمعلومات القومية، بل انه يتعين عليها ان تصارع اجهزة لها وزنها الدولي كالاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة وان تقف موقف الند لجهاز رغم حداثة وجوده الا انه اثبت فاعلية تملك وزنها هو جهاز المخابرات الاسرائيلية. رغم ذلك فاننا نعلم انه لايوجد مثل هذا النظام لعملية الاختيار في اجهزة المخابرات المصرية حيث يتم الاختيار من خلال اختبارات جزئية ويخضع عقب ذلك من تم اختياره لتدريب داخلي هو من حيث الواقع محدود الاهمية.

الملاحظة الثالثة واساسها ان اجهزة المعلومات القومية لايمكن ان تكون لها الفاعلية الا من خلال التعاون المستمر مع الجامعات ومراكز البحوث. هنا يجب ان نسرع فنلفت النظر الى ان التعاون بين جهاز المخابرات والجامعات لايعني ان الجامعة تقدم لاجهزة المخابرات معلومات هنا تبرز السذاجة التي تسيطر على العالم المتخلف. الجامعة تقدم ما نستطيع ان نسميه الاطار المسبق المرن والمتجدد لعملية جمع المعلومات[24]. ما معنى ذلك؟ من يتولى جمع المعلومات لايسير بطريقة عشوائية انه يعبر بحر المعلومات المتلاطم الامواج في سفينة. هذه السفينة ليست سوى مايمكن ان يوصف بأنه دليل موجز محدد بمختلف العناصر والمتغيرات التي يجب ان يبحث حولها عن المعلومات. انها بمثابة نموذج او هيكل عظمي للمادة الاتصالية بحيث ان جامع المعلومات يدور حوله دائما وبحيث ان تفضيل المعلومة او البحث عنها ينبع من اقترابها او ابتعادها عن ذلك الهيكل العظمي. هذا الدليل يجب ان يكون مسبقا لعملية جمع المعلومات ويجب ان يكون مرنا بحيث يسمح لجميع الاحتمالات ويجب ان يتجدد بانتظام. والتجدد ليس مرده فقط الحصول على معلومات متوفرة ولكن مرده ايضا الاكتشافات الفكرية والتطورات التنظيرية المتعلقة بالمشاكل.

والخلاصة ان عملية جمع المعلومات لابد وان تسير في مراحل متابعة. الاولى هي نوع من العلم المجرد وظيفتها تحديد الاطار الذي يجب ان تدور حوله عملية جمع المعلومات. هذه العملية المفروض ان يؤديها جهاز المخابرات ولكن ازاء قلة المتخصصين في العالم وندرتهم في الدول المتخلفة فضلا عن نوع من انواع التحرز السائد في الانتماء لأجهزة المخابرات يزداد في الدول التي تفرض على الانتماء لتلك الاجهزة اختيار مهني دائم نجد ان العثور على هذه القدرات يكون في اغلب الأحيان متعثرا إن لم يكن مستحيلا اضف الى ذلك ان الانفتاح على الثقافة العالمية الخارجية هو احد خصائص الجامعات ومن هنا برزت اهمية التعاون الوثيق بين الجامعات واجهزة المخابرات، رجل الجامعة وظيفته فقط ان يقدم الاطار العلمي المتجدد لعملية جمع المعلومات. جمع المعلومات ذاتها وتقييمها مشكلة اخرى هي من صميم واحتكار اجهزة المخابرات.

هذه المشكلة تثير ايضا مشكلة اخرى متعلقة بالتنسيق بين مختلف الاجهزة التي لابد وان تتعاون في سبيل تقديم المعلومة الصحيحة والدقيقة بالكم والكيف الذي يفرضه الموقف وهذا يقودنا الى صميم وجوهر عملية معالجة المعلومات.

---

(٢٤) هذه الناحية غير واضحة في تقاليدنا العربية والتي تدور حول مستويات وانواع التعامل بين الجامعة او مراكز البحوث واجهزة المخابرات. هذا التعاون يجب ان يقنن وهو من الممكن تصوره على خمس مستويات:

(اولا) قناة من قنوات جمع المعلومات. فالعالم الجامعي اكثر قدرة على الانفتاح على العالم الخارجي سواء من خلال زياراته العلمية او من خلال اللقاء مع زملائه في ارض الوطن. بهذا المعنى يمكن ان يقدم المعلومات فيصير تطبيقا للنموذج المعتاد للتعامل الفردي مع اجهزة المخابرات. هذا المستوى لايقبله لنفسه العالم الحقيقي.

(ثانيا) وهو قد يأخذ مستوى الاستشارة العلمية حيث تتجه اليه الاجهزة المسؤولة وهو في موقع عمله الجامعي تطلب منه النصح والتوجيه. هذا التعاون طبيعي ومقبول، في الدول ذات التقاليد العريقة حيث اجهزة المخابرات لاتحمي سوى امن

الوطن. وهذا امر يمثل الالتزام القومي الذي يجب ان يؤديه كل مواطن بغض النظر عن موقعه من العمل القومي.
(ثالثا) وهو قد يأخذ مستوى الاستشارة الاستخبارية والتي اوردناها ونحن بصدد تحليل المعلومات. الاستاذ الجامعي المتخصص هو وحده القادر على بناء الهيكل العظمي للمادة الاتصالية بعبارة اخرى يقوم باعداد دليل جمع المعلومات. السبب في ذلك اساسه ان الجامعي المتخصص هو وحده الذي يعلم اتجاهات البحث العلمي بالنسبة للمستقبل ومن ثم فهو قادر على ادخال مايرتبط بذلك من عناصر في دليل جمع المعلومات.
(رابعا) وهو قد يشترك في تنفيذ خطة معينة لعملية معينة تتولاها اجهزة المخابرات. في هذا المستوى يصير الاستاذ الجامعي وقد اضحى احد ادوات او بعبارة ادق عميل لاحد اجهزة المخابرات الاجنبية. من المعلوم ان اغلب عمليات الكتلة الشيوعية يتدخل فيها بشكل او بآخر اساتذة الجامعات. والسبب في ذلك واضح. فالعالم الشيوعي عالم مقفل وعلاقة اساتذة الجامعات في اغلب الاحيان ترتبط بصداقة او زمالة طويلة المدى. وهنا تتقدم تلك الأجهزة لاستغلال ذلك الواقع. وهو سلاح ذو حدين: فكما ان الاستاذ الجامعي في اغلب الاحيان يتمتع بامكانية التغلغل في المجتمع الاجنبي، فهو في اغلب الاحيان يخضع لعملية جذب عاطفية لذلك المجتمع الاجنبي. ومن ثم عملية تحويله الى عميل مزدوج احتمال قائم وقد اثبتت الاحداث انها سهلة ومتكررة.
(خامسا) الناحية الخامسة هي القيادة والتوجيه. هنا يرتفع التعاون الى مستواه الحقيقي من الفاعلية عندما تصير ادارة كاملة او فرع معين من فروع النشاط الذي تتولاه تلك الاجهزة وقد عهد به الى احد العلماء ذوي التخصص المشهور. ويبدو هذا بصفة خاصة في نواحي معينة من النشاط العلمي: موضوع المعلومات، تخطيط السياسة الخارجية او متابعة التنفيذ، وبصفة خاصة كل ماله صلة بالحرب النفسية. قيادة الحرب النفسية ليست بالنشاط المعتاد. والتخصص فيها ليس بالامر الذي نصادفه كل يوم. فكل قيادة صراعية تفترض نوعا من النبوغ الذاتي الذي صقله العلم واكملته الخبرة. هذه الخبرة لن تأتي الامن خلال التعامل الفعلي. وهكذا يصير التعاون في صالح الجانبين: العالم من جهة وجهاز المخابرات من جهة اخرى. ولكن هذا التعاون صعب التحقيق. فالعالم ينطلق من مفاهيم قومية ومثالية علمية ، وجهاز المخابرات ورجاله يشعرون بان هذا التعاون هو انقاص لقدرهم واعلان عن عدم كفايتهم. النماذج بهذا الخصوص عديدة، وبصفة خاصة في اجهزة المخابرات الاسرائيلية انظر حول هذا الموضوع:

ALEM, L'espionnage: histoires, m'ethodes, 1987.

PINCHER, The secret offensive, 1985.

MULLER, Les 'ecritures secr'etes, 1971.

ولمزيد من التفاصيل حول اجهزة الاستخبارات بصفة عامة يستطيع القاريء ان يجد حاجته في المؤلفات التالية:
ALEM, L'espionnage et le contre — espionnage, 1980.

حيث يجد القاريء مصدرا بالمراجع الرئيسية لغير المتخصص ص١٢٤ - ١٢٦.
كذلك نضيف بصفة خاصة لما تتضمنه من دلالات المؤلفات التالية:

BARRON, Enquete sur le KCB, 1983.

WOLTON, Le KGB en France, 1986.

MARTIN, KGB contre CIA, 1980.

MARCHETTI, Le CIA et De culte du renseigement, 1975.

FALIGOT, KAUFFER, Kang Sheng et les services secrets chinois, 1987.

GONZALEZ - MATA, Les vrais maitres du monde, 1979.

CAROZ, Moukhabarat: les services secrets arabes, 1978.

JACQUARRD, Les dossiers secrets du terrorisme, 1985.

المرحلة الاولى في عملية جمع المعلومات لاتعدو ان تكون رصد القائم من جميع مصادره: وقائع، اتجاهات، اراء. المعلومة في معناها العام هي كل حدث تحدد من حيث عناصره في صورة واضحة تحمل على القناعة بأنه يعبر عن علاقة بين واقعتين. كل حدث واقعة وكل واقعة حدث. المعلومات بهذا المعنى مصادرها عديدة ويحضرنا بهذا الخصوص ان نركز اساسا على ثلاثة مصادر رئيسية: اولا المعلومات المنشورة المتداولة وغير المتداولة وتكون كما سبق ان ذكرنا اكثر من ٧٠٪ من المعلومات القومية. ثم ثانيا اولئك الذين بحكم عملهم يحتكون بالخارج ويكونون مصادر المعلومات المتجددة وبصفة خاصة الجهاز الدبلوماسي والصحفيين او رجال الاعلام ثم العلماء الذين يقبلون التعامل مع اجهزة المخابرات بهذا المعنى ويكمل هؤلاء جهاز التجسس الذي يصير مجموعة من الخبراء الذين وظيفتهم التستر في زي آخر والانطلاق في المجتمع الاجنبي بقصد جمع المعلومات السرية. هذه المصادر الثلاثة تقدم اطار قد يكون غير متناسق بل وقد يكون متناقضا في بعض عناصره وجزئياته. الجهاز المركزي هو الذي يتعين عليه ان يقوم بعملية التجميع والتوفيق بين مختلف الجزئيات الواردة ليقدم صورة واضحة. بعبارة اخرى المرحلة الاولى تقدم انطباعات وخبرات نيئة. عملية الطبخ بنقل هذه المعلومات الاولية لابد وان تخضع لنوع معين من انواع المعالجة التي تمثل المرحلة الثانية في التعامل مع المعلومات.

المرحلة الثانية تعني التحليل والتقييم وربط المعلومات المتوفرة بالمشاكل السياسية بطريقة موضوعية ومحايدة. هذه المرحلة بدورها متعددة الخطوات فكل معلومة يجب ان تقيم لافقط من حيث جوهرها بل ومن حيث مصدرها وهنا تبدو اول ابعاد التناقض بين نظم المعلومات القومية ونظم المعلومات الفردية. فما يقدمه الجاسوس لابد وان يكون موضع شك في كثير من الاحيان وهو دائما موضع حذر وترقب. الجاسوس بطبيعته يميل الى تضخيم مايراه والى اضفاء نوع من الاشتعال العاطفي حول مايقدمه. يجب ان يعاد تسطيح المعلومات المقدمة من الجاسوس اي تفريغها من كل عنصر ذاتي وشحنة عاطفية قبل جعلها اساسا للمناقشة.

بل ان هذا لايكفي اذ يجب التأكد من صحة تلك المعلومة من خلال البحث عن مصدر آخر لتدعيم درجة الثقة في المعلومة. من المعلوم ان ستالين اخطر بالهجوم الالماني على غرب روسيا قبل وقوعه بحوالي ٤٨ ساعة من جاسوسه المشهور شيشرون ولكن ستالين عندما طلب من اجهزة مخابراته التأكد من صحة الواقعة لم يحصل على مايفيد ذلك من اعوانه في الدول المحايدة ولا في طوكيو ومن ثم لم يعبأ بتلك المعلومة ولم ينقل جيشه من الشرق الاقصى الى وسط اوربا ولايستطيع احد ان يناقش في صحة السلوك السوفيتي لأن احدى قواعد تقييم المعلومات الواردة من اجهزة التجسس انه لايجوز تغيير السياسة القائمة استنادا لتلك الوقائع اذا لم تتأكد من مصدر ثان، وهنا يبدو التناقض بمعنى ان المعلومات المنشورة تصير اكثر مدعاة للثقة من المعلومات الواردة من الجواسيس في اغلب الاحيان. ان المعلومات الواردة من جهاز التجسس في حقيقة الامر تمثل اهمية اقل من تلك المنشورة او المسجلة في تقارير منشورة او مدونة من الجهات الاجنبية المسؤولة. ولعل هذا يفسر الاتجاه المعاصر في التجسس بحيث يدور حول سرقة المعلومات المدونة وليس الاكتفاء بالمشاهدة وتسجيل الملاحظة او الاعتماد على الرواية مهما كان مصدرها المباشر.

المرحلة الثالثة: هي تنقية المعلومات والتي يعبر عنها في لغة المخابرات بعملية الوصول الى Finished Intelligence ومعنى ذلك الوصول بالمعلومة الى حد النقاء المطلق من جانب والتركيز العميق من جانب آخر. تبدأ هذه المرحلة بأن ينتزع من المعلومة كل ما هو ليس ضروري او ماهو من قبيل القيل والقال. تعقب ذلك عملية تحليل للمعلومة بما يرتبط بذلك من تقييم لمصدرها. التحليل لابد وان يقود الى التركيز: Condensa-tion التركيز في الواقع هو الخطوة السابقة لاطلاق المعلومة لانه كما سوف نرى فأن من تصله المعلومة ان كان يملك القدرة على الفهم الجيد لا يملك الوقت وهو في اغلب الاحيان لايملك كليهما. على ان التركيز يجب ان ترتبط به عملية شرح وتوضيح من منطلق السياسة السائدة. التقييم يعني استخلاص النتائج وليس تفسير الحقائق.

على ان اخطر ما يمكن ان نعاني منه عملية تحليل المعلومات على المستوى القومي هو مايسمى بالتشويه او Distortion. تعدد المراحل التي تجتازها عملية التعامل مع المعلومات تسمح بالوقوع في اخطاء متعددة اهمها تشويه المعلومة الامر الذي يؤدي الى افقادها بعض عناصرها الاساسية. العملية السياسية بصفة عامة تستند الى اربع مراحل من حيث التعامل مع الواقع الاجتماعي: مدخلات، مخرجات، تدفق المطالب، الجزاءات. المعلومة يجب ان تحدد ارتباطها بوضوح من حيث هذه المراحل المختلفة كذلك فان تشويه المعلومة قد يحدث نتيجة لواحد من الاوضاع التالية: التحيز او عدم صدق الرؤية الكاملة من جانب مصدر المعلومة، الخطأ في تقنين المعلومة او في صياغة الرسالة وتحويلها الى مادة صالحة للنقل وقد يكون ذلك لمجرد عدم الاهتمام، عدم القدرة على الحكم والتقييم المتعلق بمضمون المعلومة او بخط سير هذه المعلومة بمعنى القنوات التي يجب ان تتبعها لتصل الى من يجب عليه العلم بالمعلومة. ونستطيع ان نضيف الى ذلك الخطأ في فك رموز المعلومة وهو امر لايقتصر في احتمالاته على مستقبل المعلومة بل هو قد يتعدى ذلك الى من تنقل اليه المعلومة.

المرحلة الاخيرة المتعلقة بالتعامل مع المعلومات هي مختلف العمليات المرتبطة بتدفق المعلومات. فالمعلومات السياسية او المتعلقة بالقرارات القومية ليست كأية معلومات معتادة لايمكن ان تكون واضحة بل ودقيقة ومحددة ولايكفي ان تدرج في الاطار العام للسياسة القومية بل يجب ان ترسل في اللحظة المناسبة للشخص المناسب وفقط للشخص المناسب. اول هذه العناصر هو انها يجب ان ترسل في اللحظة المناسبة وليس عقب تلك اللحظة ولو بعدة دقائق، كذلك يجب ان تصل الى من يعنيه الامر وهذه في ذاتها عملية معقدة ويكفي ان نتصور معلومة بخصوص البترول يجب ان تصل الى المسؤول الاقتصادي والى المسؤول السياسي وقد يتعين ان تصل الى اكثر من شخص واحد في لحظات مختلفة وتزداد هذه الصعوبة عندما نتذكر ان بعض المعلومات يجب ان لاتصل الا لمن يجب ان تصل اليه والا تتعدى ذلك.

١١٦ـ النماذج المعاصرة في نظم المعلومات:

قد يكون جديرا بالاهتمام ان نلخص الاوضاع الحالية لنظم المعلومات في بعض المجتمعات المتقدمة ورغم اننا لن نستطيع بهذا الخصوص ان نقدم اطارا دقيقا الا ان دلالة الخبرة تحمل دائما مغزاها(٣٥).

لو اقتصرنا في بداية هذا التحليل على الواقع الامريكي للاحظنا ان تقاليد ذلك المجتمع ظلت حتى عام ١٩٤٩ ترفض نظم المخابرات بالمعنى المعاصر. في عام ١٩٤٧ صدر قانون الامن القومي والذي رغم كل التعديلات اللاحقة له يقوم على اسس اربع واضحة: توحيد القوى المسلحة من جانب ثم انشاء مجلس الامن القومي من جانب ثاني والوكالة المركزية من جانب ثالث وذلك الى جوار مكتب التعبئة الدفاعية.

النظام الامريكي ينبع من ثلاثة مبادىء رئيسية: الاستمرارية في المهنة الاستخبارية اولا ثم الاعداد المسبق الطويل المدى لرجل الاستخبارات ثانيا اسلوب العمل الجماعي في صياغة التقارير ثالثا.

---

(٣٥) انظر موجزا في لندن، م. س. ذ. ، ص١١٦ ومابعدها. للتوسع مع ملاحظة عدم حداثة المعلومات وصعوبة التوصل الى معلومات دقيقة وحديثة تعبر عن الواقع في لحظة تسجيل هذه الحقائق. المصدر التي اوردها المؤلف ص١١٦ هامش رقم ٢كذلك اضف الى ذلك المرجع الذي لايزال اساسيا بهذا الخصوص:

DU...S, Le technique du renseignement, 1964.

فأما عن الاستمرارية فهي لم توجد الا مع هذا النظام الجديد. رجال المخابرات الامريكية بانتمائهم لجهاز المخابرات انما يحددون انتمائهم لمهنة دائمة وثابتة. الاعداد لرجل المخابرات طويل ومسبق على الانتماء للمهنة. من المعروف ان رجال المخابرات الامريكية الذين قدر لهم ان يعملوا في الشرق الاوسط اخضعوا لتدريب طويل وشاق في جهاز اعد خصيصا في بيروت. على ان ما يعنينا وهو ما يميز جهاز المخابرات الامريكية عن اي جهاز اخر هو اسلوب العمل الجماعي في كتابة التقارير النهائية. من المعروف ان كتابة التقارير الاخبارية تخضع لمنطق ذاتي وهو منطق ينبع من طبيعة وتطور مشاكل العالم المعاصر بما تميزت به من تعقيد وتشعب ومن ثم فقد درجت تقاليد المخابرات الامريكية على مايسمى اسلوب committee Work.
من الطبيعي ان هذا يثير بعض المشاكل حيث انه من الممكن ان تختلف بعض وجهات النظر ولكن يخفف من ذلك من جانب آخر الانتماء لجهاز واحد الامر الذي يقرب من المدركات ويسمح في نفس الوقت بافساح المجال للتخصصات المختلفة في موقع واحد. يرتبط بذلك ايضا تعود تلك الاجهزة من ترك العناصر الخلافية في هوامش التقرير دون ان تدع تلك العناصر تسيطر على لب الموضوع. ايضا هذه الناحية لها مخاطرها وبصفة خاصة عندما يكون العنصر الخلافي جوهري واساسي.
كذلك فالنظام الامريكي يجمع بين المركزية والنوعية بمعنى انه اذا كانت وكالة المخابرات المركزية عملية تنسيق وتجميع المعلومات فان الدولة تملك اجهزة اخرى على قسط كبير من الاهمية تكمل هذا الجهاز وتساعده مجموعة اخرى من الاجهزة المتخصصة التي تحمل اسم مكتب المعلومات والبحوث لادارة الدولة (I.N.R).
هذه الادارة تتكون من ستة اقسام جغرافية لافريقيا، الجمهوريات الامريكية، الشرق الاقصى، اوربا الغربية، الشرق الادنى، جنوب اسيا، المجموعة السوفيتية والى جانب هذه الاقسام الجغرافية الست فهناك ادارتان يغلب عليهما الطابع والوظيفي احداهما تتناول ما يسمى بمشاكل المؤشرات الاستخبارية او بعبارة اخرى تلك المؤشرات التي يجب ان تلفت الانتباه من خلال المعلومات الواردة ثم ادارة اخرى متخصصة في المشاكل الاقتصادية والعلمية.
وهذا يقود الى ملاحظة عامة خاصة باجهزة المخابرات الامريكية وهي فكرة الازدواجية.
البعض ينعي على ذلك كثرة التكاليف
والانفاق ولكن الخبرة اثبتت ان الازدواجية تسمح بتحقيق هدفين في آن واحد: التخصص من جانب حيث عالم اليوم يفرض ايضا على التعامل مع المعلومات نوع من التخصص الذي لايصححه الا الانتماء المهني ثم الرقابة من جانب آخر حيث تعدد اجهزة المخابرات يؤدي هذه الوظيفة ولو بطريق غير مباشر والحقيقة الثالثة التي يجب ان نتذكرها هو ان الوصول الى الواقعة والعثور على المعلومة كلاهما يكمل الآخر بمعنى ان كليهما يتضمن نشاطا واحدا وبحيث ان كلا منهما يصحح الآخر. وعندما يحاول محلل او مقيم ان يتأكد من صحة تفسيره فان خير اسلوب لذلك هو تعدد الجهات والاجهزة التي تتولى هذه العملية. كل ذلك بشرط اساسي ان تتم هذه العمليات المتعددة في اطار من التنسيق والتجانس بحيث يظل محور الهدف هو حماية امن المجتمع السياسي.
في مواجهة النظام الامريكي نجد نظم المخابرات في غرب اوربا تسيطر عليها خصائص مختلفة. من جانب الوحدة والمركزية وهي تبرز واضحة لافقط في بريطانيا عقب تعديل نظم مخابراتها عام ١٩٥٣ بل وكذلك في فرنسا والمانيا الغربية. من جانب آخر الصبغة العسكرية او الانتماء العسكري هو الذي يتحكم في ادارة اجهزة المخابرات رغم ان رجال هذه الاجهزة محدودو العدد لو قورنت تلك الاجهزة باجهزة الدول الكبرى.
انها تتبع من حيث الواقع ادارة الدفاع على ان اكثر ما يعبر عن خصوصية تلك الاجهزة انها رغم تبعيتها لوزارة الدفاع تتكون من متخصصين وعلماء. احدى المعلومات المتسربة عن جهاز المخابرات الالماني في عام ١٩٥٤ تفيد انه يتضمن اربعمائة عالم في اقصى درجات التخصص. كذلك نستطيع ان نضيف ان احدى

الملامح الواضحة لاسلوب التعامل مع المعلومات في دول اوربا هو الدراسة العميقة للاصول التاريخية لاتجاهات السياسية الحالية ومشاكل السياسة الخارجية. ويمكن ان نضيف الى ذلك درجة التعاون المتقدمة بين اجهزة مخابرات غرب اوربا كنتيجة طبيعية للانتهاء الى تنظيم حلف الناتو.
لو انتقلنا الى اجهزة المخابرات في الكتلة الشيوعية لهالنا مدى ما تقدمه من طبيعة وفلسفة مختلفة. ورغم ان المعلومات غير متوفرة بالدقة والتفصيل اللازم الا ان خمسة خصائص واضحة في النظام السوفيتي تسمح بفهم طبيعته المتميزة. اولها ان النظام السوفيتي لايعرف تفرقة حقيقية بين اجهزة المعلومات التي تتعامل مع الداخل وتلك التي تتجه الى الخارج. الناحية الثانية العدد المخيف الذي ينتمي الى اجهزة المخابرات والذي يقدره البعض بأنه يزيد على نصف مليون موظف دائم دون الحديث عن المتعاونين مع اجهزة المخابرات. الناحية الثالثة وهي كيف ان اجهزة المخابرات السوفيتية تجعل احد منطلقاتها اختلاق الحقائق وهو ما يعرفه علماء الاستخبارات بأن المخابرات السوفيتية تتصف بالاستفزازية. انها لاتجعل وظيفة الجهاز مجرد تجميع معلومات ولكن ايضا تشويه وخلق الاكاذيب والتضخيم في الاخطاء. بهذا المعنى جهاز المخابرات يختلط بالاجهزة الدعائية. اضف الى ذلك ان اجهزة المخابرات السوفيتية تملك بفضل الاطار العام للنشاط الشيوعي اجهزة قومية في العالم الخارجي هي ادواتها المحلية في جمع المعلومات. اول هذه الاجهزة هي الاحزاب الشيوعية، فهي جميعها بدرجة او باخرى متعاونة مع جهاز المخابرات السوفيتي كذلك فان الاتحاد الدولي للنقابات ومجلس السلام العالمي فضلا عن الاتحاد الدولي للطلبة تطبيقات اخرى لأجهزة التعامل. ولعله من قبيل الاضافة ان نذكر بأن اجهزة المخابرات السوفيتية والتي يديرها ويشرف عليها الجهاز الذي يثير الرعب في جميع انحاء العالم بأسم KSB يخضع لمفهوم السيطرة العقائدية من منطلق الانتهاء الماركسي. مما لاشك فيه ان هذه الناحية تضعف من فاعلية اجهزة المخابرات السوفيتية ولكن يقلل من المخاطر المترتبة على تلك السيطرة العقائدية متغيرات ثلاث اساسية: الاول وهو التفرقة الثابتة بين المعلومات الاستراتيجية والاخرى التكتيكية. الايديولوجية لاموضع لها بالنسبة للناحية الاولى وان سيطرت على الناحية الثانية. الثاني التعاون العميق المدى مع اكاديمية العلوم واكاديمية العلوم الاجتماعية. بل ان تقاليد الاتحاد السوفيتي تعرف التعاون مع الشخصيات الكبرى. واخيرا علينا ان نتذكر الطبيعة المهنية لرجل المخابرات السوفيتي التي تضفي عليه وضعية معينة رغم انتمائه المذهبي.

١١٧ـ الواقع العربي ونماذج التعامل في الخبرة المصرية:

في العرض السابق لاحظنا كيف ان نظم المعلومات في العالم العربي لاوجود لها وكيف ان صنع القرار يتم بعشوائية مطلقة دون الحديث عن الاختفاء الكلي والشامل لكل ما له صلة بالتنبؤ او تقديم استراتيجية التعامل مع المستقبل. والواقع ان اجهزة المخابرات في العالم العربي بصفة عامة قد تحولت بل يمكن القول بانها منذ نشأت لم يكن يعنيها سوى حماية شخص الحاكم. لم تبرز اخطاء هذه الاوضاع التي نعيشها حتى تفجر الصراع العربي الاسرائيلي بتلك الصورة التي لم يكن احد يتوقعها. هذه الحقيقة تبرز واضحة عندما نتابع نماذج القرارات القومية في العالم العربي. والواقع ان الخبرة المصرية بصفة خاصة تعنينا لاسباب متعددة اولها ان هذه الخبرة هي وحدها ذات التقاليد العريقة في التعامل الخارجي والتي تعود الى ما لا يقل عن قرابة قرنين من الزمان. كذلك لايجوز لنا ان ننسى ان مصر تحوي قرابة ٧٠٪ من علماء العالم العربي واذا كان هدفنا من هذه الدراسة بالاساس هو تقديم حلول عملية فاننا لابد ان نتعرض لمعالجة هذا الموقف ولو في اطاره العام[٢٦].

BAUMAN. ECOUVES. L'information manipulée, 1981.

١١٨ ـ خصائص مشاكل العالم العربي:

مما لاشك فيه ان مشكلة تنظيم المعلومات في العالم العربي تعاني من جميع النقائص التي تخضع لها المجتمعات المتخلفة. وهي تدور بالاساس حول عناصر ثلاثة: من جانب عدم القناعة باهمية عملية جمع المعلومات ثم من جانب ثان عدم توفير القدرة المادية على الانفاق على عملية جمع المعلومات ثم من جانب ثالث واخير التخلف التكنولوجي. وقد سبق ان رأينا ان عملية جمع المعلومات تفترض اسلوبا معينا للتعامل مع المشاكل ينطلق من فكرة استخدام الالة المتقدمة في مساعدة العقل البشري في خلق الادراك او التصور. رغم ذلك فان هذه المشكلة لايمكن ان تقود العالم العربي الى تلك الحالة المفجعة التي يعيشها في الوقت الحاضر. فالقدرة المادية متوفرة ويكفي ان نتذكر على وجه الخصوص الدول البترولية. وتوفر القدرة المادية يسمح ايضا بشراء الخبراء. كذلك فان عدم القناعة اضحى تعبيرا عن ترهل لايمكن الدفاع عنه او تبريره بصفة خاصة بسبب طبيعة المشاكل التي يواجهها العالم العربي.

مشاكل العالم الثالث بصفة عامة لاتعدو ان تكون عملية التنمية. وعملية التنمية بطبيعتها تكاد تقترب من المشاكل الخاصة. انها في كل ماله صلة بعملية جمع المعلومات تنطلق من المفاهيم الكمية وقد تحددت دائرتها بل وتقلصت النواحي العاطفية في اطارها المتعلق بالتعامل مع المشاكل. ان هذا لايقلل من اهمية عملية جمع المعلومات ولكنه يفسر ان هذه العملية محدودة من حيث المخاطر والمصاعب. ويسهل من عملية جمع المعلومات بصدد مشاكل التنمية في دول العالم الثالث ان الجهات التي تقدم المعونة سواء كانت حكومية او دولية وعلى سبيل المثال الادارة الامريكية، تقوم بهذه العملية بفضل ماتملكه من ادوات متقدمة تسمح لها بتحقيق الهدف المرجو من عملية جمع المعلومات وتغني الدول المتخلفة عن تحمل هذا العبء.

الموقف في البلاد العربي يختلف:

اولا: طبيعة المشاكل التي يواجهها العالم العربي لاموضع للمقارنة بخصوصها ازاء مشاكل العالم الثالث. مشاكل العالم العربي تدور اساسا حول ثلاثة متغيرات، التخلص من السرطان الصهيوني اولا، عملية الاستخدام الامثل للثروات الطبيعية ثانيا ثم بناء نظام اسلامي جديد للتعامل بين الحاكم والمحكوم ثالثا. فلنترك جانبا المشكلة الثالثة ولنقف ازاء الاولى والثانية. مشكلة السرطان الاسرائيلي مشكلة قومية وهي تفرض تعاملا من نوع معين وتأبى الا اسلحة لاتقل فاعلية عن الاسلحة التي توجهها الينا القيادة الصهيونية. لاموضع لمثل تلك المشكلة في اي دولة من دول العالم الثالث. كذلك الاستخدام الامثل لثرواتنا القومية وهي بالاساس البترول مع مايعنيه ذلك من قدرة معينة على التعامل مع الادارات الدولية وما يفرض ذلك من توفر معلومات معينة لاتقتصر على الاوضاع الداخلية بل تتعدى ذلك للسوق الدولي وخفاياه واسراره، لامثيل لها في دول العالم الثالث.

ثانيا: اضف الى ذلك ان هذه الطبيعة للمشاكل فرضت تعاملا مع قوى متقدمة بل وفي اقصى التقدم في اساليب الممارسة السياسية. المنطقة العربية تجد نفسها محصورة بين نفوذ امريكي متدفق ونفوذ سوفيتي يحاول استرجاع اقدامه. سبق ان رأينا كيف ان اسرائيل تمثل درجة عالية من التخصص التكنولوجي. كذلك لابد الا ننسى انه من بين الذين نتعامل معهم، وقد حددنا ذلك بوضوح فيما سبق وذكرناه من ان جمع المعلومات يجب ان يتجه الى الصديق والعدو في ان واحد، دول اوروبا الغربية واليابان. ومن قال بان دول اوروبا الغربية تمثل صداقة حقيقية بل وكذلك اليابان؟ الواقع ان المنطقة العربية بما تمثل من احتمالات للوحدة

ومايعنيه ذلك من نزول قوة جديدة في عالم الصراع الدولي مايجعل من جميع القوى الدولية الاخرى خصوصا ينظرون الى تلك المنطقة نظرة القلق او عدم الثقة . كل هذه عناصر لابد وان تزيد من صعوبة مشكلة جمع المعلومات .

١١٩ ـ خصائص نظم المعلومات في العالم العربي

أول هذه الخصائص اختفاء التقاليد القومية . العالم العربي لا تقاليد له بخصوص مراكز المعلومات . العالم المعاصر يمتاز بالفيضان المستمر في تدفق المعلومات وهذا التدفق كان يجب ان يفرض على القيادات العربية مواجهة مشاكل ثلاث : كيف ان جمع المعلومات لا يمكن ان يقوم به الا ما يسمى بالاجهزة المتخصصة القادرة على الانفاق ولنتصور على سبيل المثال ان مجموع المجلات المتخصصة في العلوم السياسية يزيد على ثلاثة الاف دورية . هذا الاغراق يفرض من جانب اخر مشاكل تنظيمية تتعلق بترتيب وتبويب المعلومات بحيث لم يعد يستطيع اي متخصص ان يعتمد على قدراته الذاتية بخصوص تبويب المعلومات . وهنا يجب ان نذكر القارى بأن المفهوم المتداول لدى قياداتنا العلمية هو أن مركز المعلومات والمكتبة حقيقة واحدة . وهذا خطأ جسيم . المكتبة هي مكان لتجميع الكتب والمؤلفات او ما في حكمها اي المطبوعات المتداولة حيث يستطيع القارى غير القادر أن يجدها . هي مكان اذن تتجمع فيه المصادر المنشورة وهو ثانيا لمواجهة عدم قدرة القارىء العادي على امتلاك كل ما يعنيه . مركز المعلومات هو مؤسسة تقدم للباحث ماذا يجب ان يطلع عليه ليخلق التصور وهي لذلك لا تقتصر على المعلومات المنشورة والمتداولة بل تتعدى ذلك الى ما هو غير متداول وهي ثانيا ليست لان الباحث لا يملك الامكانيات المادية وانما لانها تقدم للباحث ذلك الذي لا يستطيع الوصول اليه بقدراته الذاتية . ان وظيفة رجل المكتبة هو أن يقدم للقارىء الكتاب او المؤلف الذي يطلبه ذلك القارىء أما وظيفة رجل مركز المعلومات هو أن يوجه ويرشد الباحث الى المعلومات التي يجب ان يكون على علم بها ذلك الباحث .

ومعنى ذلك بعبارة اخرى اكثر دقة ووضوح . العالم العربي ليست به أجهزة معلومات قومية بالمعنى الدقيق . علينا أن نتذكر بذلك الخصوص ان مراكز المعلومات لا تقتصر على أن تؤدي وظيفة مساندة الباحث والقيام بعملية الاعداد المسبقة بالاطار العام للمعلومات بل وكما سبق أن ذكرنا نضيف الى ذلك عملية تحليل المعلومات . والتحليل ليس مجرد قبول او رفض معلومة وانما هو تقييم كلي وشامل لاطار كامل من المدركات وتزداد خطورة هذه الناحية في العالم العربي بسبب طبيعة المشاكل التي يواجهها العالم العربي كما سبق وذكرنا التي أدت الى أن أغلب اجهزة المخابرات في عالمنا المعاصر تلجأ الى اطلاق أخبار كاذبة بصدد المنطقة العربية وتصورات غير صحيحة بقصد أبعاد الانظار عن الحقائق او خلق بلبلة حول تلك الحقائق والنماذج بهذا الخصوص عديدة لا حصر لها . وليس من قبيل الاضافة أن نذكر بأن اختلاف الحقائق أحد الخصائص الاساسية التي ينبع منها عمل اجهزة المخابرات الاسرائيلية ولنذكر بعض النماذج : اول هذه النماذج الجديرة بالتأمل يعود الى عام ١٩٧٣ عندما انطلقت التوقعات بخصوص حجم الفوائض البترولية . اليوم نعلم أن تلك التوقعات كانت كاذبة او مبالغ فيها . النموذج الأخر يدور حول استخدام سلاح الغذاء ضد الدول الخليجية البترولية . فرغم ان الولايات المتحدة الامريكية لم تتردد في التهديد باستخدام ذلك السلاح على لسان وزيرها كسينجر الا أننا نعلم اليوم أنه في نفس اللحظة كان هناك تقرير منسوب الى البنتاجون يتحدث عن عدم جدوى استخدام ذلك السلاح . نفس الدعوة الامريكية من القول بأن الاتحاد السوفيتي ينوي غزو منطقة الشرق الاوسط هو ادعاء كاذب او على الاقل لم يتصد له حتى اليوم مركز معلومات بالتقييم والتحليل . وفي اللحظة التي تزعم فيها وزارة الخارجية الامريكية بأن الاتحاد السوفيتي في حاجة الى البترول العربي فاننا

نعلم بأن وكالة المخابرات الامريكية انتهت من دراستها الى أن الاتحاد السوفيتي يملك من الاحتياطي البترولي ما يملكه العالم عدة مرات. أين الحقيقة؟ وأين مراكز المعلومات العربية التي تستطيع التحليل والتقييم؟ لا موضع لمركز واحد للمعلومات في الوطن العربي من أقصى الخليج لاقصى المحيط وان وجدت فهناك بعض الحجرات التي أعدت لتكون موضع لتكديس الصحف والجرائد.

العنصر الثالث الذي يميز الواقع العربي هو عدم وجود مراكز للبحوث الاستراتيجية قادرة على التصدي لمشاكل العالم العربي. الفكرة السائدة هو أن مركز البحوث يكفي لوجوده مجموعة من الشباب الباحث. بهذا المعنى لدينا في العالم العربي ما لا يقل عن ست او سبع مراكز بحوث. ولكن الواقع أن هذا ليس ما يسمى بمراكز البحوث (الاستراتيجية. انه يمكن ان يوصف بأنه دار للنشر على مستوى متقدم من الرفاهية في مظاهر الحذلقة الفكرية. ان مركز البحوث الذي يعنينا يجب ان يتصف بخصائص ثلاث اساسية : القدرة العلمية على التصدي للمشاكل القومية ومعنى القدرة العلمية توفر المتخصصين الذين امضوا تاريخا طويلا في التعامل الوضعي الجاد المحايد. ثم ثانيا الاستقلالية المطلقة بمعنى ان مركز البحوث لا يجوز أن يخضع لأي جهة أو يعمل تحت اشراف اي منظمة. في الواقع الامريكي تتحقق هذه الاستقلالية نتيجة لان الانفاق يأتي من الجهود الخاصة اما لدينا فليس هناك مركز بحوث لا يتبع نظام سياسي معين ولا يخضع لتوجيه سياسي معين. ثم ثالثا يجب ان يكون مركز البحوث نوعا من المدرسة العلمية المتماسكة المتجانسة. لا يعني هذا ان يكون جميع اعضاء مركز البحوث نسخة واحدة من الناحية الفكرية ولكن الذي يعنينا ان يكون ذلك التجانس الذي تفرضه التقاليد الثابتة والعقليات المفكرة التي تستتر خلف مراكز البحوث. قد يتساءل البعض ما أهمية مراكز البحوث بصدد أجهزة المعلومات؟ اول ما يجب ان نتذكره ان مركز البحوث هو جهاز للمعلومات ولكن من نوعية اقل من حيث القدرة والوظيفة والاداء ولكن الاهمية الحقيقية لمراكز البحوث انها تصير واجهة لاجهزة المعلومات من جانب واداة مساندة لتلك الاجهزة من جانب اخر وهي على كل حال قادرة على أن تؤدي وظيفة اعداد الاطار الفكري التي تقوم بها الجامعات في الدول المتقدمة. ولعل ما يدعو للبكاء ان دولا اجنبية اقامت لدينا مراكز لجمع المعلومات وراحت تنشط هذه المراكز بطريقة كان يجب ان تثير انتباه اجهزة المخابرات ومع ذلك لا تزال تعمل على قدم وساق ومن داخل الجامعات ودون أي رقابة حقيقية. جامعة القاهرة بكل ما تملكه من تقاليد وتاريخ قومي لم تستثن من هذا النشاط.

العنصر الرابع الذي يميز الواقع العربي بصدد مراكز المعلومات هو عدم وضوح الرؤية والاستخفاف بالمشاكل. اذا تركنا جانبا الشق الثاني وهو الاستخفاف بالمشاكل فان عدم وضوح الرؤية هو النتيجة الطبيعية لعدم وجود مراكز معلومات عربية. من أين تستقي القيادات العربية معلوماتها؟ ان وجدت مصادرها أجنبية. حتى علماؤنا الذين يتعرضون لمشاكل المنطقة العربية لا يجدون امامهم سوى المصادر الاوروبية او الغربية فهل هذه المصادر ونحن نعلم عن وجود تناقضات بين المصالح العربية والمصالح الغربية قادرة على ان تخلق الادراك الحقيقي؟ لقد سبق ان رأينا اكثر من نموذج واحد لمعلومات كاذبة تتسرب بقصد من اجهزة المخابرات الامريكية وليس هناك ما يدعو لان نذكر بأن العلاقة بين أجهزة المخابرات الامريكية والاجهزة المماثلة لاسرائيل على قدم وساق. كذلك فهي معلومات قديمة لان المعلومات المنشورة والمتداولة دائما ينقصها ما في حكم عشرة اعوام عن الواقع الحقيقي. اضف الى ذلك كما سبق وذكرنا ان المعلومات ليست فقط ذلك القسط المتداول.فاذا اضفنا الى ذلك الاستخفاف الذي يعني عدم الاهتمام بالمعرفة فحدث ولا تتحرج. ان المتتبع لتاريخ المنطقة يلحظ كيف ان الاحداث السياسية جاءت لتصيب القيادات العربية بصدمة عنيفة غير متوقعة وليس مرد ذلك سوى عدم العلم وعدم المعرفة. وعلى وجه التحديد من منطلق اجهزة المعلومات ولنقدم بعض النماذج:

أ ـ تأميم قناة السويس وحرب السويس الاولى : عقب اتخاذ القرار بالتأميم واعلانه من جانب الرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٥٦، اجمعت جميع المصادر الاعلامية الاوروبية عن توقع رد فعل عنيف لن يقتصر على

مجرد قطع العلاقات ولكن لابد ان يصل الى حركة تأديب عسكرية من جانب القوتين الاستعماريتين في المنطقة أي من جانب بريطانيا وفرنسا. وابتداء من شهر اغسطس بدأ الحديث بتكرار واضح عن طبيعة التلاقي بين المصالح الاسرائيلية والمصالح الاستعمارية الاوروبية ورغم ذلك فقد جاءت عملية الانزال في اكتوبر لتصيب القيادة المصرية بصدمة هلع وبصفة خاصة عندما اعلن التوافق بين تل ابيب وباريس ولندن.
ب ـ اهمية النفط العربي الذي لم تقتنع القيادات العربية بخطورتها الا في اوائل السبعينات. وهناك تقرير يتداوله المسؤولون في الخفاء يتحدث عن المخاطر المخيفة التي لابد وان يتوقعها العالم الغربي لاستخدام سلاح النفط في اي صراع في المنطقة لو قدر لذلك نوع من التخطيط وتنسيق المواقف ويعود لعام ١٩٥٦ اي قبل ذلك التاريخ بأحد عشر عاما.
جـ ـ حرب الأيام الستة التي لم يكن الفكر العربي يتوقعها الا فقط خلال الايام السابقة على الصدام العسكري في يونيو ١٩٦٧. هذه الحرب توقعها جميع المحللون منذ حرب اليمن التي أطلقت العقال لامكانيات وقوع الابار النفطية لمنطقة الخليج بل ووقوع نفس المملكة العربية السعودية في دائرة النفوذ السوفيتي. ان مجرد العودة للصحافة الالمانية تجد كيف انها جعلت من هذا الموضوع وعلى وجه التحديد مجلة «دير سبيجل» محوراً لتحليلاتها لفترة غير قصيرة ومنذ عامين سابقين على حرب الأيام الستة.
العنصر الخامس الذي يميز عملية صنع القرار في المنطقة العربية هو الاضطراب الواضح في كل ما له صلة بالسياسة القومية. ولنقتصر على أن نسجل هذه الظاهرة كنتيجة مباشرة لنقص اجهزة المعلومات وقصورها عن اداء واجبها الحقيقي. والواقع انه ازاء هذا الوضع لعملية الادراك المسبقة على اتخاذ القرار ما كان يمكن الا ان تؤدي الى هذا الوضع الذي يلمسه كل من يتابع تطور السياسة العربية وبغض النظر عن الجزئيات المختلفة التي يتكون من مجموعها اطار التعامل مع مشاكل المنطقة.

١٢٠ ـ تقاليد نظم جمع المعلومات في السياسة المصرية:

سبق ان ذكرنا مدى اهمية مصر في المنطقة العربية من حيث وضع التقاليد الثابتة للتعامل مع المعلومات كمقدمة لصنع القرار القومي. وذكرنا ان هذه الاهمية لا تعود فقط الى تاريخ مصر الطويل في الصراع السياسي الدولي. ولنتذكر ان مصر محمد علي خلال الربع الثاني من القرن التاسع عشر خلقت الرعب واثارت القلق في جميع القيادات الاوروبية. ولنتذكر ان مصر قبل ذلك باكثر من نصف قرن وفي عهد علي بك الكبير سطرت صفحة لا تقل اهمية عن دبلوماسية محمد علي ومن بعده الخديوي اسماعيل. رغم ذلك فعلينا ان نعترف انه منذ مجيء ثورة يوليو ١٩٥٢ اصاب الاوضاع المتعلقة بالتعامل مع نظم المعلومات نكسة حقيقية. فلنتابع هذه الناحية بشيء من التفصيل.
أ ـ اول ما نلاحظه هو تجمع في نظم المعلومات مجموعة من النقائص ما كان يمكن الا ان تقود الى تشويه الادراك السياسي للقيادات المسؤولة. ولنتذكر على وجه التحديد تلك النقائص:
اولا: جهاز جمع المعلومات المصرية لا يعبر ولا يعرف اي صورة من صور التقدم العلمي في اجهزة المعلومات ولنتذكر بهذا الخصوص كيف ان فكرة التخزين الآلي لا موضع لها وكيف ان التخصص الفني لا تعرفه اجهزة المعلومات المصرية. ثم ما هو اخطر من ذلك هو كيف ان قيادة اجهزة المخابرات لاتزال تخضع للمفهوم العسكري دون ان تدري ان جهاز المخابرات هو مركز للبحوث.
ثانيا: جهاز المخابرات المصرية انغمس في المشاكل الداخلية والتي لاتزال تسيطر بدرجة اقل ولكن بنفس الخطورة على عقلية المسؤولين عن جهاز المخابرات. هذا الجهاز لا يجوز ان يتدخل في الصراعات الداخلية وليست وظيفته حماية الحاكم. لقد سبق ان ذكرنا انه العين التي ترى والاذن التي تسمع بصدد كل ما يمكن ان

ينطوي تحت كلمة المخاطر الخارجية. هذه الظاهرة التي كنا نعيشها على امل اختفائها منذ احداث مايو ١٩٧١ عادت عقب ذلك بقرابة عشرة اعوام في صورة أكثر عنفا واشد قوة. فلنترك جانبا اعتبارات الامن والطمأنينة وحقوق المواطن المشروعة في الثقة في المواقف المكتسبة فليس هذا موضعها. ولكن كيف يستطيع رئيس الدولة ان يبني تصوره على معلومات قدمتها له اجهزة امن بمفهومها وتقاليدها التي نحن جميعا نعرف ما هي عليه من تخلف فكري وجهالة عمياء؟

ثالثا: وبقدر ان اجهزة المعلومات المصرية مع التساهل في تسميتها كذلك كانت دائما طرفا في الصراعات الداخلية، فالذي نعلمه ان هذه الاجهزة لم تمارس أي وظيفة حقيقية في صنع القرار القومي. سوف نرى فيما بعد نماذج واضحة لهذا التصور ولكن يكفي ان نتذكر نموذجا واحدا اعلن عنه المسؤ ولون وهو المتعلق بزيارة الرئيس السادات الى القدس. الذي نعلمه ان هذه الزيارة جاءت مفاجئة ودون علم مسبق من أجهزة المخابرات المصرية. واذا كان الرئيس من حقه ان يتخذ القرار فان من واجبه ان يعرف مقدما ادراك الاجهزة المسؤ ولة عن تصوراتها ومن منطلق معلوماتها المتوفرة بصدد ذلك القرار.

رابعا: ولعل احد اسباب ذلك الاضطراب ان اجهزة المخابرات المصرية وحتى هذه اللحظة لم تقدر لها العقليات المفكرة القادرة على بناء اطار واضح لمفهوم الامن القومي المصري. فمم لا شك فيه ان عملية الضبط بصفة خاصة ازاء عدم توفر المعلومات تنبع من متغيرات ثلاثة: تقاليد للامن القومي من جهة ثم المعلومات القديمة من جهة ثانية ثم مفهوم السير ببطء مع عدم التورط من جانب آخر. اجهزة المخابرات المصرية محدودة من حيث معلوماتها وما يتوافر لديها من معلومات ليست منظمة بالقدر الكافي وهكذا يجب ان ندخل في الاعتبار ذلك الموقف بحيث يتعين على الحاكم ان يتخذ قراره دون معلومات كافية وحديثة. فكيف يواجه مثل تلك الضرورة وهي قائمة ومتكررة؟ مفهوم الامن القومي المصري وبصفة خاصة في علاقته بالامن القومي العربي كان يجب ان يخضع لدراسة عميقة ومتعددة الأبعاد. اجهزة المخابرات حتى اليوم لم تقدر لها تلك العقليات القادرة على تحقيق ذلك الهدف. الحاكم لايعترف بتلك التقاليد واجهزة المخابرات لايعنيها سوى حماية الحاكم فمن اين يتأتى الادراك المستنير؟

خامسا: ويأتي ليكمل ذلك ان نظام المعلومات في مصر يفقد جميع عناصر المساندة وهي كما سبق ورأينا تتحكم في نجاح نظام المعلومات: التنسيق اولا بين اجهزة المعلومات، ثانيا وجود مراكز بحوث ليست مجرد صور وهمية للتعامل مع المشاكل ثم اخيرا التعاون مع الجامعات. التنسيق لا موضع له وسوف نرى فيما بعد ان التنسيق بين اجهزة المعلومات شرط ضروري وأساسي لنجاح العملية الاتصالية. يخبرنا ترومان في مذكراته انه لو وجد ذلك التعاون في الادارة الامريكية لما حدثت مأساة بيرل هاربور المعروفة في بداية الحرب العالمية الثانية مع اليابان. كذلك فان مراكز البحوث ليس المقصود منها ان تكون ادوات اعلامية. في مصر لا يوجد سوى مركز بحوث صحفي يتبع احدى الجرائد اليومية ولم يقدر له في تاريخه ان ابرز دراسة واحدة لا تعدو مستوى الاعلام الجماهيري. ان هذا نموذج لما يسمى بمراكز البحوث الجماهيرية الموجودة في الجرائد اليومية والتي وظيفتها متابعة آخر خبر وخبر آخر لحظة. انها تساند العمل الصحفي وليستوظيفتهامساندة العمل القومي لانها لا تملك القدرات التي تسمح لها ان ترتفع الى ذلك المستوى. اما التعاون مع الجامعات فلم يتعدى القيل والقال وجاءت الاعوام الاخيرة لتقدم لنا تعاملا من نوع جديد: التعاون مع اجهزة المخابرات الاجنبية. ولسنا في حاجة الى تحديد اكثر صراحة.

ب ـ تبدو هذه المشاكل وخطورتها لو تتبعنا سياسة مصر الخارجية خلال الثلاثين عاما الاخيرة. ليس هذا موضع تحليل تلك السياسة ولا التفصيل في منحنياتها ولكن لو نظرنا الى السياسة المصرية في عمومياتها لوجدنا انها اجتازت مراحل ثلاث: الاولى سياسة مصر في عهد الرئيس عبد الناصر حتى ١٩٦٧ والثانية بعد حرب الايام الستة حتى حرب رمضان في عهد الرئيس السادات. والثالثة على وجه التحديد منذ اتفاقية فك الاشتباك الثانية حتى هذه اللحظة.

المرحلة الاولى سيطرت عليها اهداف اربعة: الهيمنة على المنطقة العربية، التعامل مع النظم والقوى التقدمية، نشر العملاء الذين يخضعون للتوجيه المصري. فرض التعامل من خلال الاداة المصرية مع القوى الدولية من جانب القيادات العربية. هذه الاهداف الاربعة كانت في حاجة الى جهاز للمعلومات على قسط كبير من التخصص والفاعلية. جهاز للمعلومات لا يقتصر على جمع تفاصيل الوجود السياسي والاقتصادي في اسرائيل بل واهم من ذلك في الدول العربية دون الحديث عن القوى الدولية المتعاملة مع المنطقة. فهل حدث ذلك؟

في المرحلة الثانية برزت اهداف جديدة اساسها ان الرئيس عبد الناصر عقب الهزيمة اعاد تشكيل ادراكه للتعامل مع الواقع العربي. وهكذا تحددت اهداف جديدة: السعي لاعادة التوازن الذي اختل في المنطقة كنتيجة لارتفاع القدرة الاسرائيلية للسيطرة العسكرية على احداث منطقة الشرق الاوسط، استرداد الاراضي المصرية التي اخضعت للاحتلال الاسرائيلي. اطار جديد كان يجب ان يعكس نفسه في اعادة تشكيل نظم المعلومات وعلى وجه التحديد كان يجب ان يعطي لجمع المعلومات عن اسرائيل بكل عناصرها وخصائصها الداخلية والخارجية الافضلية الاولى.

المرحلة الثالثة والتي تبدأ مع اتفاقية فك الاشتباك الثاني تسيطر عليها مدركات مختلفة اختلافا جذريا مع المراحل السابقة. تتميز بعناصر اربع جديدة: الاستقلال المطلق للسياسة المصرية اولا، ثم ضرورة وضع حد للنزيف المستمر المترتب على السياسة القتالية ثانيا، ثم اعادة بناء الاقتصاد المصري ثالثا، العنصر الرابع الذي يعنينا هو تصور التعامل مع العدو الاسرائيلي الصهيوني من منطلق خلق التفتت والتآكل الداخلي. والعدو الصهيوني بهذا المعنى ليس فقط اسرائيل بل بالاساس الصهيونية الامريكية فهل فهمت اجهزة المعلومات المصرية هذه الحقائق واعدت نفسها لمواجهتها؟ ان خير اجابة على ذلك هو تقديم بعض نماذج للقرارات المصرية القومية.

جـ ـ مما لا شك فيه ان ذكر بعض القرارات القومية كتعبير من هذا التهلهل في نظم المعلومات لابد وان تعوزه الكثير من المصادر. رغم ذلك فدون الحاجة الى البحث عن مصادر خفية غير منشورة فلنتتبع بعض قرارات اضحى من المعلوم بصددها انها اتخذت دون معلومات مسبقة:

اولاً: خلال المرحلة الاولى النماذج عديدة ولا حصر لها ولعل أكثرهاوضوحا نموذج حرب اليمن. لقد ترك الجيش المصري في تلك المنطقة دون ان يملك خرائط تسمح له بتبين مواقعه ونحن نعلم اليوم ان القيادة المصرية لم تكن تعلم شيئا عن الواقع السياسي والاجتماعي في داخل المنطقة التي دعي فيها الجيش المصري لأن يغامر بما يعنيه ذلك من نتائج على التعامل بين الارادة المصرية والقيادة العسكرية..

ثانيا: رغم ان المرحلة الثانية تعلن في واقع الامر انطواء مصريا الا انها وقد سيطرت عليها مفاهيم القتال مع اسرائيل فقد كان على اجهزة المعلومات ان تقدم الاطار الفكري لهذا الوضع الجديد.

ثالثا: اما عن المرحلة الثالثة فحدث ولا تتحرج. النماذج عديدة لا حصر لها. والمأساة الحقيقية اننا لم نتعلم من الكوارث السابقة. زيارة الرئيس السادات للقدس سبق وذكرناها، اتفاقيات كامب ديفيد، معاهدة السلام الاسرائيلية المصرية، موضوع دفن النفايات في صحراء مصر الشرقية، موضوع مياه النيل، موضوع توسيع قناة السويس وفتحها للاساطيل النووية الامريكية، بل ان مجيء مناحيم بيجن الى الحكم عام ١٩٧٧ الذي بدا للقيادات المسؤولة المصرية على انه مفاجأة غير مفهومة كان كل من حلل الاوضاع الاسرائيلية بما في ذلك كاتب هذه الاسطر قد تنبأ بها من قبل عام ١٩٧٦ ونحن لفتنا اليه الانظار منذ ١٩٧٥.

هل المأساة في حاجة الى تفاصيل اكثر؟

١٢١ ـ حول اصلاح الوضع الحالي:

مما لاشك فيه ان كل وضع متعفن قادر على ان يخضع لعملية تنظيف جذرية تسمح له بأن يعود الى وضعه الصحيح. واذا كنا لا نريد ان نتحدث عن مثاليات في ظل اوضاع مضطربة وسياسة غير واضحة وتقلبات يسيطر عليها الكثير من الاندفاع، فان هذا لا يمنع من ان تصحيح مسارات اجهزة المعلومات في الواقع المصري قادر على ان يشكل اداة ضابطة لجميع هذه الاخطاء. لن نتطرق الى التفاصيل ولكن فلنحاول ان نقدم ادراكا لاساليب اعادة الاصلاح لاجهزة المعلومات في الواقع المصري. ولنذكر ايضا ان هذا الاطار يصلح في مصر كما انه قابل للتطبيق في جميع اجزاء الوطن العربي.

اولا ـ اعادة تشكيل اجهزة المخابرات بما يعنيه ذلك من خلق مهنة العمل في تلك الاجهزة من جانب وادخال العنصر التكنولوجي المتقدم ثانيا والتعامل مع العقليات الخلاقة ثالثا وكل ذلك من منطلق مزدوج: جهاز المخابرات ليس الا مركز للبحوث من جانب وجهاز المخابرات من جانب آخر يجب ان يكون احد مسالك الادراك القومي في كل ما له صلة بالعالم الخارجي وبصفة خاصة في كل ما له صلة بصنع وتنفيذ السياسة الخارجية.

ثانيا ـ بناء مراكز البحوث الاستراتيجية القومية. وكما سبق وذكرنا مركز البحوث الاستراتيجية الذي ليس هدفه النشر الاعلامي وليست وظيفته التعامل مع الجماهير: انه اداة قومية لخلق الادراك الثابت الذي يقتصر ولو في بعد معين منه على ان يكون لغة التعامل مع القيادات الحاكمة.

ثالثا ـ القيام بعملية تنسيق كاملة بين اجهزة المعلومات. هذا التنسيق يجب ان ينبع من مجموعة من المبادىء:

أ ـ المخابرات العامة هي محور عملية التنسيق فيها تصب جميع المعلومات ومنها تنبع جميع التدفقات.

ب ـ يحيط المخابرات العامة اجهزة ثلاث كل منها لها وظيفتها: الجهاز المركزي للاحصاء ووظيفته رصد القائم وتقديم المؤشرات بصدد الوضع الداخلي، المباحث العامة وهي تتناول الامن الداخلي على مستوى الافراد والجماعات ولا تتعدى ذلك، الجامعات حيث تتم عملية وضع الاطار الفكري لعملية جمع المعلومات.

جـ ـ الى جوار هذه الاجهزة القومية الثلاث يجب التسليم بضرورة وجود اجهزة متخصصة في مختلف الوزارات والقطاعات تتعامل بدورها بتنسيق مستمر مع المخابرات العامة من جانب ومع الجهاز الاحصائي من جانب آخر كل في نطاقه: وزارة الخارجية، وزارة الدفاع، وزارة التجارة الخارجية، وزارة البحث العلمي على سبيل المثال.

رابعا ـ كذلك فان على الدولة ان تترك جانبا تلك الغوغائية التي تبرز من آن الى آخر باسم تنظيمات او منظمات ليس الهدف منها سوى ارضاء بعض القوى او شرائها. المراكز القومية المتخصصة لا تتجه الا الى الاوضاع الداخلية وهي كما لمسنا في اكثر من موضع واحد لا تملك معلومات حقيقية. اما ما يوصف اليوم بهيئة مستشاري الرئيس فلنتذكر ان ذلك لا يعبر الا عن وظائف فخرية تمثل في مجموعها اشخاص وصلوا الى تلك المراكز من خلال المناصب الادارية التي اساسها، ولنقلها بصراحة، التزلف والكذب وهو من ثم نوع من الرشوة المقنعة.

والخلاصة اننا لو حاولنا ان نحدد الاسباب التي قادت الى التهلهل الذي يميز عملية صنع القرار القومي في مصر وفي البلاد العربية بصفة عامة لابد وان يحتل كمحور اساسي اعادة النظر في كل ما له صلة بنظم المعلومات وعلينا اذا اردنا تخطيطا لسياسة حصيفة لا تخضع لتهورات او اندفاعات ان نبدأ ببناء اطار علمي واضح لنظم المعلومات ولا يجوز للحاكم ان يعتقد مهما بلغ من نبوغ او ذكاء انه قادر على ان يسير في عالم معقد

وهو معصوب العينين. ان اجهزة المعلومات هي العيون التي ترى وهي العقل الذي يفكر.
فالى متى نظل نعيش ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين بمنطق الرجل الفطري؟[٢٧]

---

(٢٧) ولعل نموذجا واضحا لاساليب التعامل في العالم المعاصر حتى من تلك الدول التي تزعم اخلاقيات معينة بطرح موضوع قضية «بروفومو التي احدثت في حينها ضجة عالمية. انظر KNIGHTLEY. KENNEDy. Profume. les dissous s'une affaire dE'tat. 1987.

كذلك انظر وقائع اخرى جديرة بان تثير علامات الاستفهام اوردت بخصوصها بعض التفاصيل المصادر المعلوماتية التالية:
LEM. L'espionnage. cit., p. 125-126

وراجع بخصوص التطور العام في نظم الاتصال:

BALLE. EYMERT. Les nouveaux m'edias. 1984.

ويظل المصدر الاساسي رغم ايجازه:

WILLIAMS. The communication revolution. 1982.

كذلك جديرة بالاهتمام في بعض الجزئيات التي أثيرت في العرض الخاص بموقع نظم المعلومات من التقاليد العربية: ابراهيم سعد الدين واخرين، كيف يصنع القرار في الوطن العربي، ١٩٨٥، ص ٣٠ وما بعدها. انظر في نفس المرجع وهو تسجيل لابحاث ومناقشات ندوة علمية عقدت في القاهرة من جانب مركز دراسات الوحدة العربية البحث المقدم من محمد السيد سليم، قرار تأميم قناة السويس، ص٥١ ومابعدها، حيث تعرض ص٨٥ لما اسماه مبدأ تعدد قنوات جمع المعلومات كأحد المداخل الاساسية التي شكلت سياسة الرئيس جمال عبد الناصر بصدد تعامله مع ازمة قرار التأميم ص٨٥ ومابعدها. ولعله مما يدعو للتساؤل هو انه اذا كان الرئيس الراحل قد فهم اهمية موضوع المعلومات بهذا الشكل عام ١٩٥٦ وهو لايزال زعيم محدود الخبرة فكيف لم يفهم ذلك عام ١٩٦٧ وقد حنكته التجارب؟

المبحث الثاني

التخطيط للتحرك الأعلامي

في ادارة الصراع

١٢٢- العلاقة بين ادارة الصراع والتخطيط الاعلامي: تمهيد وايضاح

مفهوم ادارة الصراع قديم وحديث في آن واحد. كذلك فهو لا يزال في حاجة الى الجهد التنظيري لوضع القواعد وبناء الاطار الفكري.

التخطيط للتحرك الاعلامي بدوره لا يعود من حيث أصوله التاريخية لأكثر من نصف قرن. ويمكن القول بصفة عامة، بأن تقاليد وضع خطة للتعامل مع الجماهير بصدد نقل المعلومات أو التوجيه لنفسي لا تعود لأكثر من الثورة الشيوعية. النازية بنجاحها المعروف في هذا النطاق هي التي يجب ان تستلهم من خبرتها عملية الربط بين مفهوم ادارة الصراع والتخطيط للتحرك الدعائي. رغم ذلك فواقع النظام النازي يختلف اختلافاً جذرياً عن الواقع الذي تعيشه الانسانية في خلال الأعوام الأخيرة للقرن العشرين. وبصفة خاصة والنازية تتحرك انما كانت تنطلق في اطار محدد وضيق في آن واحد: وضوح المفهوم النازي بصراحته وعنفه يخلق التجانس ويجعل عناصر المنطق مترابطة في حالة القبول. وكذلك في حالة الرفض. اتجاه النظام النازي للتعامل فقط مع المجتمعات الأوروبية، وبصفة خاصة في اثناء الحرب العالمية الثانية حينما كان محور التعامل هو بناء اوربا الجديدة، مكن بدوره التحرك الاعلامي من قوة ذاتية لم نستطع ان نفهمها الا عقب فترة غير قصيرة من اختفاء تلك الخبرة[٢٨].

هذه المتغيرات المختلفة تفسر مدى صعوبة الموضوع الذي نريد ان نتطرق اليه والذي يدور حول قواعد التخطيط للتحرك الاعلامي في ادارة الصراع. الموضوع بهذا المعنى يعني التقاء انواع ثلاثة من المعرفة وهي جميعها حديثة العهد بالتحليل والتأصيل: ادارة الصراع، التحرك الاعلامي، التخطيط للحركة السياسية. هذه الملاحظات تفسر لماذا سوف نبدأ بالتحديد بالمفاهيم قبل أن نتعامل مع موضوع الدراسة في موضعين منفصلين احدهما حول ديناميات التحرك الاعلامي، وثانيهما حول ادارة الصراع وموضع السياسة الاعلامية من ذلك المفهوم[٢٩].

---

(٢٨) قدمت هذه الدراسة في صورة اولى الى الندوة العربية حول الاعلام العالمي والقضايا الوطنية والقومية التي عقدها المعهد العربي للثقافة العمالية وبحوث العمل التابع لمنظمة العمل العربية ببغداد بين ٢٠-٢٤ مايو ١٩٨٤.

(٢٩) رغم الطابع التنظيري لهذا العرض الا أن الاهمية العملية لاحدود لها. فهي اولا تنطلق من ان واقع التحليل المعاصر وهو الواقع الجماهيري لايسمح بالتعامل الا من اطار اساسه التخطيط الكلي والشامل. كذلك فان المشكلة الاساسية في البلاد المتخلفة وهي موضوع التنمية تفرض التعبئة الكلية الشاملة. هذه التعبئة هي تحرك سياسي يفترض بدوره التخطيط. جميع هذه الخصائص تصير اكثر خطورة في الواقع العربي بسبب الصراع الصهيوني والعداوات المحيطة بالارض العربية. وهي بدورها تقود الى مفهوم الامة المحاربة. حقائق ثلاث تفرض مفهوم ادارة الصراع ومن ثم تفرض مناقشة موضع التخطيط الاعلامي في تلك العملية. كذلك هذا التحليل التنظيري يجب ان يكمل الخبرة التي عاشها الاعلام العربي من حيث الفشل المتالي في تعامله مع قضاياه في النطاق الدولي من جانب، وفي صراعه ضد العدوان الصهيوني والحرب النفسية التي تشنها اسرائيل من جانب اخر.

١٢٣ ـ مفهوم ادارة الصراع واصوله التاريخية:

ادارة الصراع مفهوم قديم بل وتقليدي في دائرة التعامل الفردي[30]. من يبحث عن اصوله التاريخية يتلمس سوابقه في تطبيقين: القيادات الكبرى من جانب، ثم النشاط الاقتصادي في المجتمع الرأسمالي من جانب آخر. وكلاهما يملك ذاتيته المستقلة. في النطاق الأول، فعلم النفس المعاصر وبصفة خاصة المدرسة السلوكية استطاعت ان تبرز لنا نماذج الظاهرة القيادية وتطبيقاتها المختلفة من مفهوم ادارة الصراع. فالقائد الذي يوصف بأنه تعبير عن نبوغ خفي قد يصل الى حد الاختلال في التوازن العقلي هو اكثر من الشخص العادي قدرة على التجاوب مع تلك المنبهات التي لا يستطيع أن يشعر بها سواه. انه بمثابة الحيوان ذي الحاسة السادسة: احاسيسه اكثر عمقاً واكثر اتساعاً تذكرنا بالغرائز وكما أن القط عندما يرى الفأر يتهيأ لالتهامه بغريزة لا مصدر لها من المنطق او العقل، فكذلك القائد عندما يشعر بالخطر تتوتر جميع ملكاته استعداداً للمواجهة ولأسلوب المواجهة. القائد بهذا المعنى يفرض نفسه على الموقف ويتحكم في الموقف. وهو عندما يفقد هذه القدرة الذاتية التي لا تكتسب ولكنها تصقل يفقد صفاته القيادية، وهكذا نستطيع أن نفهم نابليون وهو يقود جيوشه الممزقة يحطم العروش والممالك ولكنه يقف ضعيفاً خائراً، وقد اضحى امبراطوراً، امام ولينجتون في معركة (ووترلو). ان القائد صاحب القدرات غير المعتادة اضحى برجوازياً عادياً، وقد فقد جميع او اغلب قدراته[31]. هذا المصدر لتحليل ادارة الصراع رغم اهميته الا انه محدود الدلالة لاسباب عديدة اهمها: أن ظاهرة القيادة في ذاتها هي استثناء لا يمكن القياس عليه وهي لا تستطيع أن تقدم تلك النتائج الكمية والكيفية لتفسير المتغيرات المرتبطة بالظاهرة، كل ما استطاعت ان تقدمه النظرية السلوكية بهذا الخصوص هو تقسيم نماذج السلوك القيادي، ولكنها لم تستطع بعد الاجابة عن التساؤل الذي يعنينا: كيف يستطيع القائد الناجح أن يمسك بتلابيب الموقف وأن يقود الموقف الى النجاح أي الى تحقيق اهدافه القومية من ذلك الصراع

المصدر الثاني لمفهوم ادارة الصراع ينقلنا الى دائرة التعامل الفردي المرتبط بالنشاط الاقتصادي. لقد استطاعت تقاليد الصراع الاقتصادي في المجتمع الرأسمالي ان تبني قواعد ادارة الصراع وان تؤصل لها في نطاق ما يسمى عملية التسويق من جانب والحرب الاقتصادية من جانب آخر. عملية التسويق هي في حقيقة الامر خلق للجاذبية بحيث ان المواطن العادي يسرع في الاقبال على السلعة الجديدة، وفي التخلص من السلعة القديمة. الحرب الاقتصادية تعني في ابسط مفاهيمها القضاء على أي مقاومة في مواجهة عملية الغزو الاقتصادي. في كلا التطبيقين الهدف هو الفرد العادي، هو ما نسميه بالرجل المنطقي أي ذلك الانسان الذي يملك حداً ادنى من التفكير بحيث يسرع نحو السلعة الاقل ثمناً والاكثر اشباعاً وان وجد تناقض فمحوره في التفضيل هو التوازن بين هاتين الناحيتين: ادارة الصراع بهذا المعنى بسيطة وواضحة. السعر اول عناصرها ومزايا السلعة هو العنصر الثاني ثم يأتي العنصر الثالث وهو العلم بتوفر تلك السلعة[32]. ادارة الصراع في مثل ذلك الموقف تتميز بالبساطة والسهولة: تخفيض السعر، تضخيم المزايا، نشر العلم بالسلعة

انظر لنا حامد ربيع، تأملات في الصراع العربي الاسرائيلي،م.س.ذ.، ص١٧١ ومابعدها وبصفة خاصة ص١٧٥، ٢١٩ـ٢٢٠

(٣٠) يجد القارىء موجزا بهذا الخصوص في WELSH, Studying politics, p. 105.

(٣١) انظر التفاصيل في حامد ربيع، مقدمة في العلوم السلوكية، ١٩٨١، ص٣١٩ ومابعدها.

(٣٢)وقارن رغم انه يتناول الموضوع من منطلق اخر:

WEKIAMS, Crisis Mranagement, in BAYLIS, al;.Contemporary strategy, 1981, p.152.

وخصائصها. مفاهيم ادارة الصراع بهذا المعنى لا تصلح لكل ماله صلة بالحركة السياسية أو تكون على الاقل محدودة الدلالة ويجب ان نتقبلها بكثير من الحذر. لماذا؟

الاسباب عديدة ولعل اهم تلك الاسباب يعود من جانب الى طبيعة السلوك السياسي: سلوك مركب يتضمن شحنة ضخمة من الانفعالات بحيث لا يمكن ان يخضع للمنطق المعتاد. انه عاطفي ينبع من الاحاسيس التاريخية ويرتبط بالعقيدة والايديولوجية وتتحكم في خصائصه العلاقة الخفية التي تربط بين الحاكم والمحكوم. عبد الناصر استطاع ان يجمع من حوله الامة العربية لأنه كان يملك تلك الحاسة السادسة ولانه كانت تربطه بالجماهير تلك العلاقة الخفية غير المنظورة التي جعلت كل مواطن عربي يرى في شخص عبد الناصر جزءاً منه، وقد تقمص آماله وآلامه[٣٣].

لم يكن المنطق ولا التفسير الرزين الهادىء هو الذي يتحكم في علاقة القائد المصري بالجماهير العربية ولم تبرز هذه العلاقة في بعدها الحقيقي الا بعد وفاته. لقد اضحى عبد الناصر اكثر خطورة وقد غاب من الساحة منه عندما كان يتحرك بين القيادات العربية. كذلك فأن المفاهيم الاقتصادية المتصلة بادارة الصراع لا تصلح لتفسير الظاهرة السياسية والتعامل معها لأن هذا التعامل ينطلق من الارادة الجماعية حتى عندما يكون محور ادارة الصراع هو القائد فأنه لا يفعل ذلك الا بوصفه تجسيداً للجماعة. رغم ذلك فقد درج الفقه الامريكي على تطبيق المفاهيم الاقتصادية في نطاق الحركة السياسية ووصف العلاقة بين الحاكم والمحكوم على انها علاقة بيع وشراء: الحاكم يبيع النظام والاستقرار والمحكوم يشتري الامن والطمأنينة.

مفهوم ادارة الصراع خلال الاعوام العشرة الاخيرة دخل مرحلة جديدة في التحليل السياسي. ومرد ذلك استقبال النبوغ العلمي كأحد مصادر الوصول الى الممارسة في كل ماله صلة بادارة السياسة الخارجية. ادارة الصراع بمعنى عملية تطويع المتغيرات والقوى في نطاق التعامل الدولي قديمة ولكنها كانت تنبع من النبوغ في الممارسة والحساسية، والقدرة على تلمس نواحي النقص في الخصم بالكر والفر، وبهذا المعنى تعودنا الحديث عما يسمى بالقائد الدبلوماسي: قائد يمتاز بالمرونة[٣٤]. سعادته في ان يتلاعب بالافراد والمواقف، مظهره لا يعكس باطنه، ولغته لا تعبر عن افكاره، بعيد النظر واقعي وعملي لا يتردد في ان يتعامل مع عدو الامس وان يضحي بصديق اليوم، ولكن ادارة السياسة الخارجية لم تكن قد استطاعت بعد ان ترتفع الى مستوى العلم بمعناه الحقيقي ولم يقدر لها ذلك الا خلال الاعوام العشرة الاخيرة. انها لا تزال في بداية الطريق ولكن الانجازات جديرة بالتسجيل[٣٥].

السبب الحقيقي الذي جعل الفقه السياسي يستقبل مفهوم ادارة الصراع ويؤصل في مختلف عناصره وتطبيقاته يعود الى تلك الظاهرة التي عرفتها جميع المجتمعات المتقدمة: استقبال علماء النظرية السياسية في نطاق العمل الدبلوماسي وبصفة خاصة في التخطيط لادارة الصراع

كيسنجر وبرجنسكي كلاهما ليس الا بعض الاسماء ولكن هناك اسماء اخرى لا تقل اهمية عن كليهما رغم ان رجل الشارع لا يدري بها. (كهن) في الولايات المتحدة (ماسيه) في فرنسا و (اليشوف) في الاتحاد السوفيتي وكل منهم كان له دور خطير في عملية وضع قواعد ادارة الصراع الدولي من منطلق المصالح القومية لكل من تلك المجتمعات[٣٦]. ورغم ان هذه المحاولات ارتبطت بأسماء معينة، ورغم ان هذه الاسماء لعبت دورها من

---

(٣٣) انظر التفاصيل في
IZZEDDIN, NASSER of the Arabs, 1981, p.351.

(٣٤) حامد ربيع، مقدمة في العلوم السلوكية، م.س.ذ.، ص٣٣٩.

(٣٥) WALLACE, Foregn policy and the political process, 1971, p.25.

(٣٦) حامد ربيع، نظرية السياسة الخارجية، ١٩٧٣، ص١٠٣ومابعدها.

منطلق فكرة المجموعة الباحثة والمؤسسات العلمية الا ان هذه المحاولات جميعها لا تزال جزئية لم تجد بعد القدرة الابداعية على التجرد من الواقع الذي ارتبطت به لخلق التنظير الكلي الشامل لما نسميه نظرية ادارة الصراع.

المنجزات كما سبق وذكرنا عديدة ونذكر على سبيل المثال النواحي التالية :-

أولا : فن التفاوض والتميز في اساليب التعامل التفاوضي بين مفهوم الخطوة الخطوة ومفهوم الصفقة الكاملة . وقد تم تطبيق ذلك ببراعة من جانب القيادة اليابانية في تعاملها مع الدبلوماسية الامريكية .

ثانياً : عملية الإثارة المتعمدة بقصد اعادة تطويع شخصية القائد الخصم وتوجيهه نحو اهداف محددة وكيف اضحى اسلوباً ثابتاً من اساليب اختراق القيادات في دول العالم الثالث. وايضاً تم تطبيق هذا الاسلوب مع اغلب القيادات العربية وبصفة خاصة نموذج اعادة تشكيل شخصية السادات جدير بأن يقدم درساً لكل قائد سياسي يتصدى للتعامل مع الدبلوماسية الامريكية(٣٧).

ثالثاً : كذلك فأن ادارة الازمات اضحت تمثل بدورها ميداناً آخر جديراً بالاهتمام وبصفة خاصة في كل ما له صلة بالتعامل مع الدول الصغيرة واستغلال الخلافات المحلية لتطويع ارادة تلك الدول وجعل تلك الخلافات منطلقاً للتدخل لصالح الدول الكبرى. النموذج الواضح في هذا الخصوص لايزال يتوالى امام اعيننا حول منطقة الخليج.

رابعاً : التخطيط للتحرك الاعلامي في ادارة الصراع وهو موضوع هذه الدراسة .

١٢٤ـ التحرك الاعلامي وقواعد الممارسة:

التحرك الاعلامي بدوره مفهوم اخر يبدو وبصفة خاصة منذ الحرب العالمية الثانية وقد اضحى تعبيراً عن قواعد واضحة من حيث التعامل. يجدر بنا أن نتذكر منذ البداية أن كلمة الاعلام بهذا الخصوص، يجب أن تفهم على انها ليست مجرد ادوات نقل المعلومات الجماهيرية وانما هي كلمة واسعة فضفاضة تشمل كل ما له صلة بالتعامل النفسي .

التحرك الاعلامي اضحى اليوم علم قائم بذاته وهو يملك قواعده والاعيبه بل ويملك فلسفته المستقلة والمتميزة تبعاً لنموذج التعامل النفسي .

بصفة عامه التحرك الاعلامي يفترض مراحل متتابعة اساسه أن هذا التحرك له اهداف وينطلق من قواعد معينة ثم يفترض تتابعاً مرحلياً معيناً. ليس هدفنا في هذه الصفحات ان نعرض ولو بأيجاز لهذه النواحي المختلفة، ولكن الذي يعنينا أن نذكر به هو أن التحرك الاعلامي يملك مصادره الواضحة من حيث فلسفة التعامل. بصفة عامة يمكن التمييز بين نماذج ثلاثة كل منها ينبع من ادراك محدد ومن ثم ينطلق من نسيج فكري متكامل تبعاً لهذا الادراك(٣٨). فلسفة (بافلوف) والتي تسود التقاليد السوفيتية منطقها واضح ليس في حاجة الى تفصيل : فكرة الاغراق بجميع ادوات الاعلام والاتجاه نحو المجتمع الجماهيري ليست الا نتائج حددتها تلك الفلسفة المعروفة بأسم رد الفعل المشروط. فلسفة (فرويد) تأخذ منطقاً مختلفاً : ان خير تحرك دعائي هو الذي ينطلق من البذور الثابتة لتوسيعها واستغلالها، وحيث أن الانسان هو مجموعة من العقد فان خير مواطن يصلح لعملية نشر المفاهيم والدعائية هو اكثر المواطنين تعقيدا أربع وهكذا تتجه النظرة النازية

---

(٣٧) التفاصيل يجدها القاريء في حامد ربيع، اتفاقيات كامب ديفيد: قصة الحوار بين الثعلب والذئب، ١٩٨٠، ص١٩٧ ومابعدها.

(٣٨) انظر حامد ربيع، فلسفة الدعاية الاسرائيلية، ١٩٧٠، ص٤٤ ومابعدها.

آمنت بهذه المفاهيم الى فئتين: الاقليات أولا، والافراد الذين يشعرون بالفشل أو خيبة الامل او عدم الحصول على حقوقهم ثانياً، وهم في اغلب الاحيان من بين العلماء او اساتذة الجامعات او كبار الدبلوماسيين الذين لم يقدر لهم النجاح الحقيقي. هذه الفلسفة من خلال تدعيم العقد تستطيع ان تخلق عناصر ثابتة لنقل العدوى الفكرية. يواجه هذين المنهجين اسلوب ثالث يقودنا الى تقاليد الاعلام الامريكي والذي اساسه الاتجاه الى المثقف والذي يدين بولائه وتعليمه الى الجامعات الامريكية. انها تنطلق من نظرية (ديوى) بتقاليدها المعروفة.

قد يبدو لاول وهلة ان هذا الذي سبق وذكرناه يرتبط فقط بالدعاية ولكن الواقع ان هذا غير صحيح. علينا منذ البداية ان نتذكر أن كلمة التحرك الاعلامي يقصد بها كل ما له صلة بالغزو الفكري وخلق القناعة المنطقية في الداخل والخارج بدعوى معينه. ومن ثم تختضن مفاهيم ثلاثة في آن واحد: اعلام، دعاية، حرب نفسية. أن التفرقة بين هذه المفاهيم الثلاثة تكاد تكون مستحيلة لان الدعاية والحرب النفسية تتم من خلال الاعلام كما ان الاعلام يتم من خلال الدعاية والحرب النفسية. كذلك علينا أن نضيف بأن هذه النماذج الثلاثة[٣٩] كانت تمثل قوالب فكرية جامدة حتى بداية الستينات، ومنذ ذلك التاريخ بدأت تنهار الحواجز لتختلط هذه النظريات الثلاث ولتحدد كل منها نطاقاً للتعامل. الدعاية الصهيونية بصفة عامة والاسرائيلية بصفة خاصة انتفعت بتلك الخبرات وقدمت للعالم المعاصر نموذجاً للتحرك الاعلامي الناجح لم يسبق له مثيل من حيث الفاعلية والقدرة على تحقيق الاهداف.

ما هي اهداف التحرك الاعلامي؟ اي تحرك اعلامي في اوسع معانيه وبمختلف تطبيقاته يمكن ان يسعى لواحد او اكثر من الاهداف التالية:

اولاً- هو اداة لنقل المفاهيم وزرع المدركات.

ثانياً- هو اداة لتشويه الافكار ومن ثم لخلق البلبة ولتدعيم عدم الثقة في القيادة او الطبقة الحاكمة.

ثالثاً- وهو قد يكون اداة لتحطيم الثقة في الذات القومية.

رابعاً- وهو قد يكون اداة لخلق تطلعات طبقية الامر الذي يقود الى خلق تشققات في الجسد القومي.

عملية التعامل النفسي في التقاليد الصهيونية تجمع بين مفهوم فرويد الذي اساسه تشجيع الاقليات ومفهوم بافلوف الذي ينبع من مفهوم الحرب الايديولوجية وحرب المعلومات والدعوة العقائدية ثم نظرية (ديوى) التي اساسها توسيع القاعدة المساندة ذات التجانس الفكري مع الحضارة المحاربة اي المتجهة من خلال عملية الغزو المعنوي لخلق العملاء والمنتفعين.

لاتعنينا هذه الفلسفات المتعددة، وانما الذي يعنينا ان كلمة تحرك اعلامي تفترض مجموعه من الحقائق يجب ان تكون واضحة منذ البداية حتى يكون الموضوع مقنناً دون غموض:

(اولا) التحرك الاعلامي يفترض التخطيط فلا يوجد تحرك اعلامي دون تخطيط[٤٠].

(ثانياً) والتخطيط لا يتجه فقط للتعامل النفسي بل الى جميع ابعاد الحركة القومية، حيث يصير الاعلام اداة من ادوات التحرك القومي التي يجب ان تسير بتوافق تام من جانب مع جميع ادوات الحركة القومية ومن جانب آخر في العلاقة بين مختلف الأجهزة والادوات الاعلامية والاتصالية.

(ثالثاً) التخطيط الاعلامي رغم ذلك له خصائصه، انه ينطلق من الواقع ويفترض مفهوم التدرج وهو لذلك في عملية التنسيق بين التحرك الاعلامي والتحرك من منطلق الادوات الاخرى، لابد وان يدخل في الاعتبار

---

(٣٩) اي المدارس الثلاث في التخطيط لفلسفة التعامل النفسي، انظر حامد ربيع، الثقافة العربية بين الغزو الصهيوني وإرادة التكامل القومي، ١٩٨٣، ص٣٥ ومابعدها.

(٤٠) حامد ربيع، نظرية الدعاية الخارجية، ١٩٧٣، ص١١٧ ومابعدها.

أن علاقته بتلك الادوات قد تكون علاقة تابعة ولكنها قد تنقلب وتصير علاقة أصيلة. بعبارة اخرى، الاعلام هو خط الهجوم الاول وخط الدفاع الاخير ولذلك فالتحرك الاعلامي في بعض لحظاته يجب ان يسيطر على التحرك الدبلوماسي والعسكري وليس العكس[41].

(رابعاً) محور التحرك الاعلامي الذي يميز الواقع المعاصر كنتيجة للطبيعة الجماهيرية والتقدم المخيف الذي اصاب وسائل الاتصال هو اسلوب الاغراق؛ يجب ان تستخدم جميع الادوات الاعلامية وان تتجه لجميع فئات الجماعة موضع الهجوم وان تنطلق من جميع مسالك المنطق الاتصالي، هذا الاغراق رغم ان له مراحله ويخضع لتخطيط، بدوره متميز، هو المحور الحقيقي للتحرك الاعلامي. الاغراق رغم ذلك لا يعني الانغلاق والتكرار الممل. الانغلاق وسيلة لخلق عدم الثقة والتكرار الممل اداة لفرض عدم الاهتمام وهي أمور جميعها تتعارض مع نجاح التحرك الاعلامي الجماعي.

(خامساً) كذلك علينا ان نتذكر ان العالم المعاصر لم يعد يقبل الكذب. ان الصدق هو اساس التحرك الاعلامي وفكرة ربط الكذب بالدعاية او الحرب النفسية آن الاوان لأن نزيلها من مفاهيمنا العلمية. ان الكذب قصير النفس والصدق هو اساس التعامل مع المواطن المعاصر. لقد اضحى الحصول على المعلومات الصادقة والحقيقية أمر سهل المنال. ويكفي ان نتذكر طغيان الاذاعات الموجهة ووصولها الى كل منزل وكل مواطن. واذا فرض واضطر المخطط الاعلامي ان يلجأ للكذب فعليه أن يتذكر بوضوح ان ذلك يجب أن يستند الى تخطيط اساسه الا يحدث تلبس له بالكذب وان حدث فخير وسيلة للتخلص من ذلك الموقف هو الاعلان عن خطئه وتبريره من منطلق يلبس ثوب الصدق.

١٢٥ـ التخطيط للحركة السياسية وابعاده:

خلف مفهوم ادارة الصراع من جانب ومفهوم التحرك الاعلامي من جانب آخر يستتر مفهوم ثالث اكثر اتساعاً يضم ويحتضن كلا المفهومين وهو ما نستطيع ان نسميه بالتخطيط للحركة السياسية. رأينا أن ادارة الصراع تعني التعامل مع متغيرات الموقف بقصد تطويع الموقف بأهداف من يتولى ادارة الصراع. بهذا المعنى فأن من يتولى ادارة الصراع يتجه في تعامله مع الموقف الى مصبات اربع مختلفة كل منها يملك خصائصه المتميزة: هذه الخصائص تفسر وتحدد طبيعة التحرك الاعلامي. فالصراع يتجه اولا الى القائد او الطرف الثاني في علاقة الصدام أي من يمثل الادوات القومية. التعامل في تلك اللحظة محوره فهم الشخصية المتعامل معها وتطويعها استناداً الى قواعد التعامل النفسي.

المستوى الثاني للصراع هو الفئة المختارة او الاعوان أي تلك العناصر التي تحيط بالقائد وتخلق مسالك اتصاله بالمجتمع السياسي. ينطوي تحت هذه الفئة رجل الادارة السياسية أي اداة الحاكم او القائد في الاتصال بعناصر المجتمع السياسي، الدبلوماسي أي اداة الادارة السياسية في النطاق الدولي ثم خبير السلطة وقائد الرأي. هذه المجموعة التي يمكن ان تسمى بالفئة المختارة او الاعوان في معنى ضيق يكون التعامل معهم من خلال مفهوم غسيل المخ الفردي او الجماعي او كلاهما.

يأتي المستوى الثالث وهو المجتمع الجماهيري، حيث تكون الاداة الحقيقية للتعامل هي الحرب النفسية او ما في حكمها. ايضاً بهذا الخصوص يبرز مفهوم الحرب الاعلامية، وهو في حقيقته نوع من الحرب النفسية، انه يعني اطلاق معلومات صادقة وحقيقية في لحظة معينة بحيث تثير الشك وعدم الثقة في خصم معين. على

---

(41) BURDEAU, Traite de sciences politiques, vol. III, 1986, p.32.

ان أهم اهداف الصراع يجب ان تتجه الى عناصر القوة في الخصم وبصفة خاصة القدرة العسكرية من جانب والطبقة المثقفة من جانب آخر. محور التعامل مع هذه القوى هو مفهوم خلق التناقضات[٤٢].

ادارة الصراع تختلف تبعاً لاسلوب الصراع وهذا يقودنا الى مفهوم التخطيط للحركة السياسية. أن التخطيط في معناه العام لا يعدو أن يكون الدراسة المسبقة للقدرات الحقيقية والتحديد الواضح للاهداف ثم التعامل الواقعي من منطلق مبدأ تضخيم القدرات وشل نواحي النقص بقصد الحصول على أكبر قسط ممكن من تلك الاهداف. بهذا المعنى التخطيط للحركة السياسية أي التعامل مع الموقف ليس أمامه سوى مسلك من ثلاثة:

اولاً ـ الاقناع والاقتناع.

ثانياً ـ الخديعة او التحايل والمساومة.

ثالثاً ـ القوة او الضغط والاكراه.

ان المحور الحقيقي للتخطيط للحركة هو عملية تطويع الارادة. هذا التطويع قد لا يكون في حاجة لاكثر من عملية اقناع واقتناع، وقد لا يكفي الاقناع ولكن أساليب الخديعة او التحايل او المساومة قادرة لان تحل محل الاقناع فأن لم يكن كذلك فليس هناك سوى القوة او الضغط الذي لا بد ان يؤدي الى الاستسلام الذي هو نوع من الاقتناع ولو المؤقت. ومن هنا نلحظ أهمية التحرك الاعلامي في جميع التطبيقات للحركة السياسية فالاقناع والاقتناع ما هو الا حركة اعلامية صادقة والخديعة هي اعلام يختلط بالدعاية، أما الضغط او القوة والاكراه الذي يعني فرض الاستسلام فأن احد ادواته الاساسية هي الحرب النفسية[٤٣].

ولكن كيف يتم الجمع بين جميع هذه العناصر والمنطلقات في اطار واحد من الديناميات؟ هذا هو السؤال الذي: يجب أن نحاول الاجابة عليه.

١٢٦ ـ التحرك الاعلامي والسياسة القومية: المبادىء العامة:

التحرك الاعلامي هو من حيث طبيعته نوع من انواع التخطيط ومن ثم يخضع لجميع القواعد المعروفة في التخطيط السياسي. على ان التحرك الاعلامي لا ينطلق من فراغ ولا يعكس تعاملاً مستقلاً: انه بطبيعته جزء من الحركة القومية ومن ثم لا بد وان يندرج في هيكل الدولة من جانب وفي اطار التحرك والخطة السياسية العامة من جانب اخر.

التحرك الاعلامي لا بد من ادراجه واستيعابه كذلك في الهيكل العام لسياسة الدولة: فالتحرك الاعلامي وهو بطبيعته وكما سبق ورأينا مركب بمعنى انه متعدد الطبقات، متعدد الاهداف، متعدد الادوات لا بد وان يخضع لتخطيط ذاتي اساسه ليس فقط تلك الخطة الكلية الشاملة التي يفرضها ادراج هذا التحرك في السياسة القومية بل وكذلك مجموعة من الخطط الجزئية التي تنبع من ذلك التعدد وذلك الخلاف في المستويات[٤٤].

هذه الحقائق المتعددة لا يمكن التعرض لها في صفحات موجزة وبصفة خاصة لان تقاليد التخطيط للتحرك الاعلامي لا تزال في حالة من الهلولة التي لا تسمح بتقنين واضح لتلك القواعد. رغم ذلك فأن مجموعة من

---

(٤٢) FREUND, Qu'est-ce que la politique, ?, 1965, p.III.

(٤٣) حامد ربيع، تأملات، م.س.ذ.، ص٢٠٥ ومابعدها.
قارن المصادر التي اوردناها في المرجع السابق ذكره وبصفة خاصة انظر:
KITZINCER,Diplomaacy and persuation, 1973, p.105.

(٤٤) اوردنا التفاصيل في حامد ربيع، الدعاية لصهيونية، م.س.ذ.، ص٢١٣ ومابعدها.

المبادىء العامة نستطيع ان نبدأ فنطرحها كمقدمة لبناء ذلك الاطار الفكري الذي يسمح بفهم عملية التخطيط للتحرك الاعلامي :

اولاً- اول ما يجب انتذكره هو ان التحرك الاعلامي ورغم انه يجب ان ينطلق من الحقيقة الا انه لا بد ان يسبقه اعداد لمنطق اعلامي.

منطق متكامل يعبر عن نظرة كلية شاملة ويجيب عن مجموعة معينة من الاستفهامات وهو دائماً يجب ان يسبق الحركة الاعلامية بمعنى ان يتكون من فلسفة واضحة للتعامل تتم صياغتها مسبقاً قبل ان تتحول الى قذائف اعلامية تتجه الى رجل الشارع[45]. علينا ان نتذكر ان الاعلام يملك على الاقل خمس مستويات وكل منها له خصائصه المتميزة: فهناك الاعلام العلمي حيث تدور عملية الاتصال بين المتخصصين. أيضا العملية الاتصالية اضحت تعبر عن نوع من انواع التخصص وبصفه خاصة من منطلقاتها السياسية. ثم هناك اعلام النخبة المثقفة وهو الذي يتجه الى تلك الطبقة العريضة من المتخصصين والذين لا ينطبق عليهم وصف التخصص في الاتصال السياسي. انهم الطبقة المثقفة في اوسع معانيها. اضف الى ذلك اعلام صانع القرار اي الاعلام الذي يخاطب من يتولى التحكم في الحركة بطريقة او بأخرى. قائد الرأي نموذج آخر يملك اعلامه المستقل الذي يخضع بدوره لفن مختلف من حيث الصياغة والتبويب. واخيراً يأتي الاعلام الجماهيري. اعداد المنطق الاعلامي يجب ان يبدأ في شكل اطار مجرد على مستوى اعلام النخبة العلمية المتخصصة قبل أن يصاغ في اطار التعامل الجماهيري بأساليبه ومسالكه المختلفة[46].

ثانياً- كذلك قبل بدء التحرك الاعلامي فأن الدراسة المسبقة لمقومات العملية الاتصالية ليست مجرد نقل مفهوم الى مستقبل؛ انها اكثر من ذلك دقة وتعقيداً. ان العملية الاتصالية تعني الاجابة مسبقاً على مجموعة من التساؤلات: من نسعى الى خطابه، كيفية وصول الرسالة الى ذلك الذي نريد خطابه، اللغة المستخدمة في صياغة الرسالة، متابعة العملية في مجموعها للتأكد من الفاعلية وتحقيق النتيجة التي نسعى اليها. ان التحرك الاعلامي في جوهره يسعى اساسا الى خلق قوة ضاغطة وهذا يعني القيام بعملية شحن دائمة ومستمرة تنتهي بتغيير المواقف بشكل او بآخر وتكتيل تلك العناصر صاحبة المواقف المتجانسة مع السياسة القومية في حركة ايجابية تأييداً وتعاطفاً مع أهداف تلك السياسة. ان الاعلام، وكما سبق وذكرنا، هو معركة تتجه للفرد والجماعة في الداخل والخارج بمختلف الادوات والاساليب التي قد تتعارض فيما بينها ولكنها في الخاتمة يجب أن تنتهي بخلق موقف موحد واحد متجانس. كل هذا يفرض الدراسة المسبقة لخصائص المستقبل وفئاته وقدراته ثم لادوات الوصول اليه دون الحديث عن القذائف الفكرية التي سوف تنطلق من خلال التحرك الاعلامي لترسيب مفاهيم معينة تنتهي بسلوك محدد ولو في الامد البعيد[47].

ثالثاً- هذه الطبيعة المتميزة للتحرك الاعلامي تفرض على هذا التحرك أن يأخذ صورة المراحل المتابعة: تعدد في الاعداد والتنسيق ثم متابعة من خلال الانتقال من خطوة ناجحة الى خطوة اخرى اكثر تدعيماً للنجاح بحيث أن مخطط الحركة الاعلامية لا ينتقل من مرحلة الى مرحلة اخرى الا وقد تحقق مسبقاً من نجاحه في المرحلة المتقدمة بل ومن احتمالات النجاح في المرحلة اللاحقة. وهنا علينا ان نلحظ حقيقتين كلاهما تأتي وتدعم هذه الملاحظة الثالثة. الاولى ان التحرك الاعلامي اضحى اليوم مخطط في جميع الدول والتقاليد المعاصرة ولا يجوز ان تخدعنا بهذا الخصوص دعوى الحريات الاعلامية في الديمقراطيات الغربية وبصفة

---

(٤٥) BENVENISTE. The polotics of expertise. 1973. p.7.

(٤٦) حامد ربيع، نظرية الدعاية الخارجية، م.س.ذ.، ص٣٥ ومابعدها، ص٧٥ ومابعدها.

(٤٧) قارن حامد ربيع، الحرب النفسية في المنطقة العربية، ١٩٧٤، ص٢٣٨.

خاصة في التقاليد الامريكية. فالتحرك الاعلامي ايضاً في المجتمع الامريكي حيث يصبر خارجياً يخضع لادارة واحدة اساسه مبدأ التخطيط[48]. وهو في الداخل ايضاً يخضع للتخطيط ولكن على مستوى المؤسسة الاعلامية. الدولة قادرة على ان تتدخل في ذلك التخطيط بأساليب غير مباشرة: المعونات، الاعفاء من الضرائب، التسرب المدروس: جميعها وسائل معروفة في ضبط الاعلام الداخلي. الحقيقة الثانية أن المجتمع الدولي المعاصر اضحى مجتمعاً واحداً من الناحية الاعلامية ولم تعد الفواصل القومية أو أدوات الرقابة الحكومية تمنع من السيولة الاعلامية ولو على مستوى معين. الترابط بين المجتمعات القومية كنتيجة للتقدم الرهيب في أدوات الاتصال وبصفة خاصة اداة الاتصال الاذاعي، والتي لا تزال في بداية تطورها، سمحت للمعلومات أن تعبر الحدود دون قيود وهذا يزيد من صعوبة التخطيط ويفرض على المخطط قيوداً جديدة لم يكن حتى وقت قريب من الممكن تصورها وأهم هذه القيود هو الانطلاق من الحقيقة واستخدام لغة الحقيقة.
رابعاً ـ اضف الى ذلك ان التحرك الاعلامي لا يكفي بخصوصه الاعداد الفكري والعلمي لمنطق الغزو. انه اطار عام يتحرك من خلال الواقع. أهدافه بعيدة المدى هي خلق القوى الضاغطة المساندة ولكن أهدافه المباشرة والمؤقتة هي خلق القناعة والثقة في المصدر الاعلامي. من حيث الواقع فأن المنطق العام الذي يتم اعداده لا يكفي، لأنه وقد سبق ورأينا أن التحرك الاعلامي يفترض تتابع في المراحل ومن ثم فترة زمنيةمعينة قد تطول وقد تقصر ومن ثم فأنه يصير عرضة لوقائع جديدة البعض منها يمكن توقعه ولكن اغلبها لا يستطيع المخطط مهما بلغ من سعة الأفق من بناء توقعات محددة بخصوصها. ومن ثم فازاء تلك الوقائع الجديدة لا بد وان يسعى المخطط الاعلامي لاستيعابها وتطويعها لمنطقه العام بل وتطويع ذلك المنطق العام لتلك الوقائع؛ وهنا تبدو صعوبة التعامل الاعلامي: مرونة وسرعة ودقة وقدرة على التطويع المتبادل دون الوقوع في التناقضات. ان الواقعة الجديدة يجب ان تصير للمخطط الاعلامي بمثابة حصان السباق وبحيث ان يكون قادراً على امتطائه دون توقف ذلك الحصان[49].
خامساً ـ ادارة التحرك الاعلامي بدورها تثير مشاكل متعددة فالاعلام يظل دائماً اداة من ادوات الحركة القومية وهي لها اهداف في الداخل تختلف عن اهدافها في الخارج. كذلك هي في جميع الاحيان يجب ان تستوعب في جوقه كلية شاملة لتنفيذ السياسة القومية.
ويبدو ذلك اكثر وضوحاً في الاعلام الخارجي. فاذا كان المخطط الاعلامي قادراً في الداخل على ان يستعيد نفسه بسرعة ان أخطأ أو اكتشف ثغرة في منطقه وتحركه فأنه لا يستطيع ذلك في الاعلام الخارجي لأنه بمجرد صدور وخروج الرسالة الاتصالية من الحدود القومية تصير خاضعة لمبدأ التطور الذاتي فهي تندفع بقوتها وتسير في خطها الثابت دون القدرة على استعادتها او التعديل في مضمونها. فاذا أضفنا الى ذلك ان التحرك الخارجي أضحى يعرف مبدأ توزيع الادوار بل يتعمق في ذلك المبدأ ليضيف اليه الاخراج المسرحي لفهمنا مدى ما يفرضه التخطيط للتحرك الاعلامي من صعوبات ومشاكل[50].

١٢٧ ـ التمييز بين ميادين التحرك الاعلامي وتحديد الاهداف:

اول ما يجب أن يثير الانتباه في التحرك الاعلامي هو ضرورة وضوح الاهداف من حيث اطارها العام وبلورتها القطاعية. لقد سبق وذكرنا أن الاعلام الداخلي ليس هو الاعلام الخارجي بل والخبرة المعاصرة

---

(٤٨) نفس المرجع السابق ذكره، ص١٥١ ومابعدها.
(٤٩) حامد ربيع، فلسفة الدعاية الاسرائيلية، م.س.ذ.، ص١٨٦.
(٥٠) انظر تأصيل ذلك من منطلق نظرية وظائف الدولة في حامد ربيع، نظرية القيم، ١٩٧٧، ص٢٠٣ ومابعدها.

تضيف الى ذلك الاعلام الاقليمي. ونستطيع في دائرة الواقع العربي أن نضيف ايضاً الاعلام المتجه الى المجتمعات المعادية وبصفة خاصة اسرائيل والصهيونية وهي دائرة قد تتسع في لحظات معينة كما يحدث في هذه اللحظة لتشمل مجتمعاً كالمجتمع الايراني. رغم هذا التعدد من حيث المستقبل والذي يفرض تعددا ايضاً من حيث ادوات التعامل الا ان المجتمع المعاصر وقد سبق ورأينا ترابطه وقدرته على الاتصال المستمر يفرض نوعاً من التجانس الذي يمنع من الوقوع في التناقضات. أن أخطر انواع الخطأ الذي يمكن ان يقع فيها التحرك الاعلامي هو التناقض في منطقه لانه بذلك يفتح بابا واسعاً للدعاية والاعلام العكسي الذي هو قادر على هدم الخطة الاعلامية برمتها[٥١].

وهكذا تصير نقطة البداية التساؤل: ما هي اهداف التحرك الاعلامي؟ بمعنى آخر ما هو المضمون الذي يجب ان تتبلور حوله السياسة الاعلامية؟

بغض النظر عن منطق التعامل وادوات التنفيذ فأن الاهداف لا بد أن تتنوع بل وقد تختلف وتتناقض:

١ـ في الداخل أي في داخل المجتمع القومي موضع المناقشة[٥٢]. خمسة اهداف ثابتة يجب أن تسيطر على المخطط للتحرك الاعلامي في علاقة المواطن بالدولة التي ينتمي اليها:

اولاـ اشباع الفضول حول الوقائع السياسية العامة والقرارات المصيرية.

ثانياـ خلق الايهام في المشاركة في صنع القرار القومي وترسيخ القناعة بأن القرار القومي انما جاء ليعبر عن آمال والام رجل الشارع.

ثالثاـ تدعيم الاعجاب بالمنجزات التي حققتها الدولة والفخر بالانتماء الى ذلك المجتمع السياسي والشعور بالاعتزاز بالمواطنة التي يمثلها ذلك الانتماء.

رابعاـ تدعيم الثقة في الذات القومية بحيث تتعدى تلك الثقة المكان والزمان. فاذا بها تنطلق في الماضي لتؤكد الاستمرارية وتنسحب الى المستقبل لتعلن عن الوظيفة الحضارية.

خامساـ ربط الذات القومية بالاداة الحاكمة بحيث لا يظهر الحاكم واعوانه على انهم فئة مستقلة ولكنهم تجسيد لتلك الذات القومية حيث يتقمص القائد الواقع السياسي كتعبير عن الارتباط الثابت بالاصول والتاريخ[٥٣].

حول هذه الاهداف الخمسة يجب ان يتكتل التحرك الاعلامي في الداخل وبغض النظر عن منطق المرحلة ومنطق الواقعة بحيث أن هذه الاهداف الخمسة يجب أن تتكرر في صورة دائمة وان تصير بمثابة اطار عام فكري في التعامل الاعلامي.

ب ـ فاذا انتقلنا الى الخارج أي الى الاسرة الدولية مع استثناء الاطار الاقليمي لوجدنا اهدافاً اخرى تختلف عن تلك السابق ذكرها ونستطيع بصفة عامة ان نركزها حول العناصر الثلاثة التالية كمحور للسياسة الاعلامية الخارجية:

اولاـ خلق الهيبة الدولية بمعنى ترسيخ القناعة في الاطار الدولي بأن الدولة صاحبة تلك السياسة تمثل قدراً معيناً من الاستقرار والتناسق خلف قيادة ترتفع عن مستوى المهاترات وتعبر عن خصائص رجل الدولة بمعناها الحقيقي.

---

(٥١) قارن هذا التحليل من منطلق خبرة النموذج الاسرائيلي للممارسة خلال الفترة السابقة على حرب عام ١٩٦٧ في مؤلفنا حامد ربيع، النموذج الاسرائيلي للممارسة السياسية، ١٩٧٥، ص١١٩ ومابعدها.

(٥٢) انظر سابقا ص٢٠٧ ومابعدها.

(٥٣) قارن حامد ربيع، العنصرية ومنطق التعامل السياسي في التقاليد الغربية، ١٩٧٩، ص١٠٦.

ثانياً ـ ادراج السياسة القومية في منطق التعامل الدولي بمعنى تقديم الدولة امام الرأي العام الخارجي على انها لا تمثل نشازاً ولا تخرج عن القواعد المتداوله والمحترمة موضع القناعة في السلوك الدولي. وذلك بتأكيد عدم ممارسه السلوك الاستفزازي، بل بتأكيد السلوك السلمي والتواضع القيادي وتقديم التقاليد الداخلية على انها نموذج التقدم والديمقراطية وهي خير ادوات منطقية تسمح بخلق التعاطف الدولي.
ولعل مقارنة بين الرئيس عبد الناصر وغيره من القادة الاستفزازيين تسمح بفهم هذه الحقائق. لقد خلق عبد الناصر الهيبة بينما خلق الاخرون في النطاق الدولي الشعور بالنفور والملل وكانت نتائج ذلك واضحة، فبينما وجد عبد الناصر ترحيباً ليس فقط من الرأي العام في جميع دول لعالمالثالث بل وفي شرائح واسعة من الرأي العام الاوروبي والغربي، نجد غيره لم يستطع ان يستأثر بالتعاطف مع اي من اتجاهات الرأي العام الدولي المعاصر[54].
ثالثاً ـ ويرتبط بذلك أيضاً التركيز على وظيفة المجتمع القومي الخلاقة في تاريخ الانسانية وعلى تقديم انجازاتها. من هذا المنطلق مجتمع اليوم هو مجتمع رجل الشارع الذي يسعى الى تحقيق الاسترخاء والذي يؤمن بالانسانية المتمدنه. الخطاب الدولي يجب أن ينبع من هذه القناعة ومن مبدأ التجاوب مع هذه العواطف بغض النظر عن فاعليتها السياسية[55].
في عملية التحرك الاعلامي الخارجي علينا أن نتذكر أن الرأي العام الدولي لا قيمة ولا اهمية له الا من منطلق واحد: قدرته على التأثير على صانع القرار المحلي في التعاطف او عدمه بالمواقف الايجابية او السلبية ازاء المواقف القومية وهو امر يبرز اكثر وضوحاً بصدد جميع المجتمعات الدولية، اذا استثنينا الدولتين الاعظم. ففقط موسكو وواشنطن هما القادرتان على التفاعل والتأثير في التوزان الدولي وفيما عدا هذين القطبين تصير الفاعلية محدودة ومن منطلق عاطفي من جانب، ومصلحي من جانب آخر. البراعة في التحرك الاعلامي هي خلق مسالك التأثير والتأثر بتحقيق عملية توازن نفسي بين العاطفة والمصلحة.
ج ـ يأتي فيكمل هذا الاطار الداخلي والاطار الدولي ما تواضع الفقه المعاصر على تسميته بالاطار الاقليمي ويقصد بذلك الدول المجاورة والمترابطة مع الدولة موضع المناقشة، بدرجة او بأخرى، بمصالح أقليمية معينة قد يغلب عليها الطابع الجماعي وقد تتبلور حول نظام أمن اقليمي وقد لا ترتفع الى ذلك المستوى. السياسة الاقليمية أضحت بدورها احد ابواب التعامل القومي المعاصر رغم انها لم يقدر لها بعد التأصيل العلمي المتكامل[56].
اهداف التحرك الاعلامي في النطاق الاقليمي يمكن بلورتها حول اربعة مبادىء اساسية:
اولاً ـ مفهوم الترابط من محور المصالح الاقليمية من جانب والانتماء الحضاري ان لم يكن الوحدة في الآمال والاماني من جانب آخر.
ثانيا ـ مفهوم المساندة كقاعدة اساسية تسمح بأيقاف التدخل الاجنبي في نطاق المصالح الاقليمية.
ثالثا ـ مبدأ خدمة الجميع الذي هو تعبير مقنع عن مفهوم «خادم القوم سيدهم» في نطاق التعامل القومي الاقليمي.
رابعا ـ ثم يأتي ويكمل ذلك فكرة قيادة الامن الجماعي والطمأنينة والتقدم في المنطقة.
التحرك الاقليمي الاعلامي يغلب عليه الطابع الثقافي ويتوسط في حقيقة الامر بين التحرك الاعلامي

---

(٥٤) انظر حامد ربيع، نظرية الامن القومي العربي، دار الموقف العربي، القاهرة، ١٩٨٥ ص٣٥١ ومابعدها.
(٥٥) انظر حامد ربيع، فلسفة الدعاية الاسرائيلية ، م.س.ذ. ص١٨.
(٥٦) انظر حامد ربيع ، حرب اكتوبر: الصراع الدعائي بين الهزيمة والنجاح وتطور عملية المواجهة الفكرية حول مشاكل الشرق الاوسط، في مجلة قضايا عربية، ١٩٧٥، عدد ٨٠٧، ص٦١ ومابعدها.

الداخلي والتحرك الاعلامي الخارجي ولكن يظل محوره الثابت انه تعبير عن سياسة حسن الجوار.
بقي مفهوم التحرك الاعلامي في الارض المعادية. وهذا في حاجة لتفصيل لاتسمح به هذه الصفحات ولكنه بصفة عامة يأخذ الدلالة العكسية للتحرك الاعلامي في النطاق الداخلي. اهدافه هي عكس الاهداف التي تسيطر على العلاقة بين الحاكم والمحكوم حيث يصير المحور ليس الاعلام بمعناه النقي ولكن الحرب النفسية: وليس خلق المساندة ولكن تحطيم الثقة في الخصم واحالة المجتمع المعادي الى مجتمع ممزق من الناحية النفسية والاعلامية[٥٧].

١٢٨ . مبدأ التخطيط المرحلي في التحرك الاعلامي وخصائصه:

التخطيط المرحلي احد العناصر الاساسية التي يفرضها التحرك الاعلامي. فالتحرك الاعلامي هو معركة، وككل معركة لابد لها من قائد واحد ولابد وان تسير في تتابعها انتقالاً من مرحلة الى مرحلة بحيث ان كل مرحلة تعد للاخرى. كل تحرك اعلامي هو نوع من الهجوم على خصم ومحاولة تحطيم قواه وجذبه الى دائرة التعاطف الفكري ومعنى ذلك ان هناك اعداداً اول لتلمس ميدان المعركة، ثم هناك تصعيداً متتالياً متدرجاً حتى اذا تهيأ الموقف جاءت الضربة القاضية. الضربة القاضية هي قمة التعامل. وكما انه قبل تلك الضربة هناك مراحل للاعداد لها فكذلك عقب الضربة هناك مراحل لتصفية الموقف المترتب على توجيه الضربة القاضية[٥٨].
من هذا المنطلق ومن خلال ابحاث عديدة ميدانية استطعنا ان نميز في التحرك الاعلامي بين خمس مراحل متتابعة. قبل ان نعرض لهذه المراحل الخمس علينا ان نتذكر انها ليست قاطعة بل ومن الممكن تصور ثلاث من هذه المراحل فقط، كما يفعل اغلب علماء الدعاية الغربيين على انه ايضاً من الممكن ان نتصورها سبع مراحل متتابعة. الفكرة الاساسية هي ان هذه المراحل اساسها تلمس الخصم من الصديق واكراهه تدريجياً على الخروج الى ميدان المعركة بوجه سافر وعندئذ يخضع لحملة هجوم عنيف تنتهي بالاستيعاب الكلي للمنطق الاعلامي. كذلك علينا ان نتذكر ان تطبيق هذه المراحل قد يأخذ صوراً متعددة وينبع ذلك من خصائص المجتمع موضع الهجوم. ولكن الملحوظة الثابتة التي يجب ان ننبه اليها هي ضرورة الترابط بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي. ان استقلال ايا منهما عن الآخر لم يعد يقبله العالم المعاصر بخصائصه. وقد اثبتت الخبرة الاسرائيلية ان هذا الاستقلال اذا تضمن انفصالاً فلابد ان يقود الى نتائج وخيمة العواقب. الاستقلال لايمنع من التنسيق والتناسق بل والوحدة في المنطق ولو في مستوى معين.
هذه المراحل نوجزها في التالي:
أ ـ المرحلة الاولى وهي مرحلة اثارة المشكلة. هي بمثابة تمهيد الغاية منه فقط تحديد ابعاد الموقف الذي يستتر خلف التحرك الاعلامي. هذه المرحلة هي مرحلة توعية اكثر منها دعاية وهي تختلط بالتثقيف المحايد الذي لايتضمن اي اكراه نفسي واضح او خفي. بصفة عامة هذه المرحلة هي مقدمة للاختراق، لذلك فهي تدور حول نقاط اربع تتفاعل فيما بينها لتحديد لحظة الانتقال للمرحلة التالية: تلمس الخصم من الصديق، معرفة مدى القدرة على الاختراق، اكتشاف ردود الفعل الحالية والمتوقعة، اكمال اعداد الخطة الهجومية ومواقع الهجوم[٥٩].

---

(٥٧) حامد ربيع، نظرية الدعاية الخارجية، م.س.ذ.، ص١١٨ ومابعدها.
(٥٨) حامد ربيع ، فلسفة الدعاية الاسرائيلية، م.س.ذ. ص٤٧ ومابعدها.
(٥٩) حامد ربيع الدعاية الصهيونية، م.س.ذ.، ص١٥٠ ومابعدها.

ب ـ المرحلة الثانية ونصفها بأنها مرحلة الاعداد للهجوم المكثف. في هذه المرحلة يتم الانتقال المتتالي من التثقيف الى الاعلام. الاعلام بمعناه الواسع الذي يتضمن ايضا نوعا من الدعاية. انه اعلام دعائي بمعنى انه مقدمة لمرحلة الهجوم المباشر. هذه المرحلة تتميز بأنها تأخذ صورة الفترة الزمنية الطويلة نسبيا بحيث تسمح للحملة الاعلامية بأن تظهر نتائجها. والحملة الاعلامية ليست مجرد نقل معلومات لكنها ايضا اثارة للاهتمام وهي تنتهي بأن تخلق تعبئة ولو مؤقتة لعناصر المجتمع. ادوات التعبئة عديدة تتوقف على كل موقف وتنبع من فلسفة التعامل: عنصر الاثارة عن طريق التلاعب بالمتغير العاطفي، عنصر الشعور بالمسؤولية من خلال تضخيم الوظيفة الحضارية، التركيز على عقدة الذنب ان وجد لذلك موضع. في هذه المرحلة ينظر الى المجتمع السياسي على انه حقيقة جماهيرية ويخضع بهذا المعنى لعملية التعبئة اللامنطقية. ويصير المنطلق الحقيقي للتعامل هو فلسفة (بافلوف) بالمعنى السابق ذكره. القاعدة العامة التي يجب ان تسيطر على مرحلة الاعداد للتحرك الاعلامي والدعائي هو ان ندع الوقائع تتكلم وان نجعل التعبئة تتم عن طريق الواقع وليس من خلال استخدام اساليب الحرب النفسية، ولذلك يكثر خلال هذه المرحلة استخدام الحرب الاعلامية بمعنى تخزين الوقائع والحقائق واطلاقها فجأة ودون مقدمات[60].

جـ ـ ثم تأتي مرحلة الهجوم المباشر. هذه هي اخطر مراحل الهجوم الاعلامي، انه يتوقف عليها نجاح الحملة بأكملها او اخفاقها. وهنا يصير الميدان الحقيقي للعملية الاعلامية هو مفهوم الدعاية بجميع خصائصها. في هذه المرحلة هناك عدو قد تحدد وصديق قد استبعد. والعدو يجب ان يخضع لقتال مباشر وصريح. لاموضع فيه للتردد ولاموضع للحياء. المطرقة الاعلامية يجب ان تسحق العدو بجميع ادواتها ومسالكها وبقدر النصيحة بأن تطول مرحلة الاعداد للحملة الاعلامية اي المرحلة الثانية بقدر ان تكون هذه المرحلة الثالثة قصيرة، قوية، مركزة، متتابعة في تسلسل مستمر وتدفق لا يضعف في اي لحظة من لحظاته. كذلك فأنه لايجوز البدء في هذه المرحلة الا وقد توفرت لدينا جميع عناصر التأكد من النجاح. الوسائل الفنية المرتبطة بصياغة الاعلام عديدة ولانستطيع ان نتعرض لها في هذه العجالة ولكن يكفي ان نتذكر انها تدور حول خلق نماذج من العبارات والاساطير تصير بمثابة قنوات لنقل المفاهيم وخلق عملية الاغراق الاعلامي والتشويه في منطق الخصم المعادي[61].

د ـ المرحلة الرابعة وهي مرحلة اضعاف الخصم تصير بمثابة تصفية لبعض نتائج المرحلة السابقة. فالهجوم المباشر لابد وان يؤدي في حالة النجاح الى تقوية موقف الصديق واضعاف موقف العدو. في هذه المرحلة الرابعة ننطلق في عملية التضخيم لهذا النجاح بقصد القضاء النهائي على الخصم او من في حكمه. في هذه المرحلة تبرز على وجه الخصوص عملية التشويه للمنطق العكسي بعد ان يكون قد ترسب المنطق الايجابي خلال المرحلة السابقة. ايضا في هذه المرحلة يجب على التحرك الاعلامي ان يتجنب تعدد الخصوم بمعنى ان يختار اضعفهم للبدء به ويتتالى في عملية الهجوم ابتداء من الاضعف حتى الاقوى في حملات متعاقبة بحيث يكون هدف كل حملة خصم واحد لا اكثر حتى لو تعددت الخطوات في داخل هذه المرحلة الرابعة.

هـ ـ ثم تأتي المرحلة الخامسة والتي تصير بمثابة خاتمة للتحرك الاعلامي حيث يكون محورها الحقيقي هو التخلص من الشوائب التي يمكن ان يكون قد احدثها التحرك الاعلامي في مراحله السابق ذكرها[62].

---

(٦٠) حامد ربيع الحرب النفسية ، م.س.ذ.، ص٧٨.

(٦١) نفس المرجع السابق ذكره

(٦٢) انظر حامد ربيع، النموذج، م.س.ذ. ص١٤٩ ومابعدها.

١٢٩- قاعدة التنسيق والتناسق في التحرك الاعلامي وادوات تنفيذ السياسة القومية:

قاعدة اخرى يجب ان نؤكد عليها في التحرك الاعلامي وقد سبق وذكرناها في اكثر من موضع واحد. التناسق في التحرك بأوسع معانيه. التناسق في التحرك الاعلامي متعدد الابعد فهو تناسق في العلاقة بين المنطق والموقف من جانب ثم بين المنطق والمستقبل من جانب اخر ثم المنطق وخصائص التعامل الدولي من جانب ثالث ثم المنطق والحركة السياسية القومية من جانب رابع واخير. جميع هذه العناصر ترتبط بجوهر المنطق الاعلامي الذي بدوره يجب ان يكون متناسقا متكاملا. على ان التناسق في التحرك الاعلامي يملك ابعادا اخرى على قسط كبير من الاهمية تفرض التعرض لها والتأكيد عليها:

أ ـ يجب ان يتحقق نوع من التناسق بين المنطق الاعلامي والاداة الاعلامية فليس كل منطق صالح لكل اداة ومايصلح للنقل من خلال الاذاعة قد لايصلح بأن يكون موضعا للاستقبال المرئي. ومايصلح لان يسجل في الاعلام المكتوب قد لايصلح لان يسجل في الاعلام الصوتي.

ب ـ كذلك سبق وذكرنا ضرورة التناسق بين المنطق العام الاعلامي والمنطق الجزئي الخاص بكل واقعة من حيث ادراجها في المنطق الكلي الذي يسيطر على فلسفة التعامل.

جـ ـ السياسة الاعلامية والمنطق الاعلامي يجب بدوره ان يندرج في مختلف تطبيقات السياسة القومية بحيث تتجنب التناقض بين مختلف ادوات تنفيذ تلك السياسة القومية[٦٣].

الواقع ان ادوات تنفيذ السياسة القومية عديدة وهي تختلف في الداخل عنها في الخارج. في الداخل تنبع فقط من الادوات الحكومية حيث ان العلاقة بين الحاكم والمحكوم علاقة مباشرة يخلفها طابع الانتماء القومي واللغة الواحدة المشتركة والثقة في شخص الحاكم، اي مصدر المعلومات. ادوات السياسة القومية في الخارج هي ادوات تنفيذ السياسة الخارجية حيث يصير الاعلام احد منطلقاتها وقد اضحى بمثابة عربة تستتر خلفها مجموعة من الادوات المكملة: السياسة الثقافية، سياسة المعونات، سياسة تشجيع اللقاءات الشعبية على سبيل المثال. التجانس لايقتصر على العلاقة بين هذه الادوات المتعلقة بالسياسة الخارجية بل. يجب ان يمتد ليشمل العلاقة بين جميع ادوات تنفيذ السياسة القومية[٦٤]. وتبدو هذه العملية ـ اي التناسق ـ في ضوءها الحقيقي من حيث الخطورة عندما يطبق مبدأ توزيع الادوار فنجد ادوات داخلية تتولى تنفيذ السياسة الخارجية او العكس. والنموذج الواضح بهذا الخصوص هو السياسة الاسرائيلية في تعاملها مع افريقيا السوداء ومع دول المعسكر الشيوعي. افستدروت كان اداة تنفيذ السياسة الاسرائيلية في التطبيق الاول وحزب المابام في التطبيق الثاني. وهو امر لايمكن ان يتم الا من خلال عملية تنسيق واسعة النطاق على المستوى الفكري والحركي في آن واحد[٦٥].

كيف يتم ذلك التنسيق والتناسق؟

---

(٦٣) حامد ربيع، من يحكم في تل ابيب، ١٩٧٥، ص٣٨٦ ومابعدها.

(٦٤) BUZAN. People. States and fear. 1963. p.73.

(٦٥) JONES. analyaing foreign policy. am introduction to some conceptual problems. 1970. p.82.

١٣٠- طبيعة ادارة الصراع كنظام للتعامل وموضع السياسة الاعلامية

عملية ادارة الصراع في حقيقتها هي نظام للتعامل. جميع علماء السياسة لايزالون يقفون ازاء هذا المفهوم بكثير من التردد. الفكر التقليدي لايسعفنا والفكر المعاصر لم يستطع بعد ان يمسك بحقيقة العالم الذي نعيشه: في عالم الطاقة النووية وملاحة الفضاء والشعوب التي تصل الى مليار نسمة، كيف نستطيع ان نجعل الفكر السياسي قاصرا على ان يردد مفاهيم ماركس وهوبز ومكيافيلي: اي معرفة تلك القادرة على ان تتنبأ وان تتحكم في مسار الاحداث في مثل هذا الاطار المعقد الذي لم تعرفه الانسانية من قبل؟

فلنقتصر على وضع الملامح البارزة بقصد ابراز الحقيقة التي تدور حولها هذه الصفحات وهو التساؤل عن موضع التحرك الاعلامي من ادارة الصراع[٦٦]. ادارة الصراع هي نظام للتعامل اي مجموعة من قواعد الممارسة تملك منطقها الذاتي ومعنى ذلك مجموعة من النتائج:

اولا - نظام ادارة الصراع انما يتكون من العديد من الوحدات ورغم انه ينبع من الموقف السياسي الا ان هذا الموقف الذي يصبغ بطبيعته وخصائصه عملية ادارة الصراع يفرض المواجهة بأكثر من اداة واحدة تنصهر جميعها في نظام ادارة الصراع. متغيرات الموقف السياسي ثلاثة اولها المشكلة او الازمة التي فرضت الصراع. هذه المشكلة قد تكون عامة او قد تكون خاصة، قد تكون قومية وقد تأخذ الطابع الدولي او الاقليمي، قد تكون مفروضة وقد تكون مفتعلة، جميعها خصائص لابد وان تعكس ذاتها على عملية ادارة الصراع. ان هذه العلاقة هي التي تصبر في حقيقة الامر محور التصدي من جانب من يتولى ادارة الصراع. هدفه الاول هو تحطيم العلاقة او اعادة تشكيلها. المتغير الثالث وهو الادوات الصالحة لتقديم الحلول. ان ادارة الصراع في جوهرها تعني تصفية موقف للانتقال الى موقف جديد: في هذا الجوهر تتحدد براعة من يقوم بعملية ادارة الصراع[٦٧].

ثانيا - العلاقة بين هذه الوحدات التي يتكون منها التحرك لادارة الصراع يجب ان تكون علاقة تفاعل وترابط مستمر. في عالم معقد كعالم اليوم لايمكن ادارة الصراع بجهود فردية او جزئية: القائد واعوانه، العالم ومختبراته، الجسد القومي وتماسكه، الامة المحاربة وقناعتها، جميعها مستويات متعددة لحقيقة واحدة. ان كل من يدير صراعا عليه ان يتذكر كيف ان الحركة القومية في الداخل او الخارج تنطلق من حقائق سبع: اتصال مباشر، تعبئة مستمرة، استجابة دائمة، علاقة توازن مع جميع القوى، فتح الباب الحكومي امام جميع الادوات النظامية، عدم اكراه القوى الجديدة على الالتجاء الى العنف وتمكينها من الاستيعاب في الجسد السياسي من خلال قنوات الشرعية، التفاعل الدائم مع رجل الشارع. التفاعل يعني التغير المتبادل والمشترك والترابط علامته الوقوف جنبا الى جنب بحيث ان الكل يكون كتلة واحدة.

ثالثا - محور العلاقة بين الوحدات النظامية التي تتكون منها ادوات الصراع هو الترابط من الداخل. انه ليس مجرد التكتل في مواجهة عدو خارجي او تهديد بسلب السلطة او الامتيازات انه تجميع للقوى وتوحيد ذاتي منبعه طبيعة العلاقة الحقيقية التي تربط مختلف اجزاء الجسد السياسي في معناه النظامي. وهنا تبرز اهمية القائد وشخصيته والمفهوم الايديولوجي وفاعليته[٦٨].

---

(٦٦) فلش ،م.س.ذ.،ص١٣ ومابعدها.

(٦٧)

TENEKEDES.L'élaboration de la politique étrangère des Etats et leurs s'e, 1972, p.257.

(٦٨) قارن حامد ربيع ، اتفاقيات كامب ديفيد، قصة الحوار بين الثعلب والذئب، ١٩٨٠ ص١٧٢ ومابعدها.

رابعا ـ الترابط من جانب اخر يعني التبعية . كل واحدة من وحدات ادارة الصراع يجب ان تعرف بانها تابعة للنظام الكلي لادارة الصراع[٦٩]. والتبعية تفترض القدرة على التخلي والتراجع دون ان يعني ذلك التنازل. وليس ادل على هذه الحقيقة ان نتذكر مبدأ ثلاثية الادوات في تنفيذ السياسة الخارجية. انه يعني التحرك بمقدمة تستند الى ميسرة وميمنة. كذلك فعل الرسول فجعل سياسته محورها من حيث التنفيذ ادوات ثلاث. القتال ثم الصلح او التفاوض من جانب والمصاهرة من جانب اخر. اسرائيل تطبق نفس المفهوم ولكن وقد طوعته لحقيقة العالم المعاصر: اعلام، يرافقه، من جانب، العمل الدبلوماسي ومن جانب اخر العمل العسكري. وهي قادرة في اي لحظة على ان تدفع ايا من هذه الادوات الثلاث ليصبر رأس الحربة ولتحيل الاداتين الاخرين الى عناصر مكملة لجوقة التعامل. مفهوم التبعية بهذا المعنى تكملة لمبدأ توزيع الادوار ونتيجة منطقية لتطبيقه[٧٠].

خامسا ـ بهذا المعنى يصبر الاعلام احدى الوحدات التي يتكون منها نظام ادارة الصراع، ليس بمعنى انه احدى المناطق الحدودية في الحركة، ولكن بمعنى انه اداة اساسية من ادوات الحركة القومية التي يتحدد موقعها تبعا لطبيعة الصراع ولشخصية القائد الذي يتولى ادارة الصراع.

وهذا في حاجة الى شيء من التفصيل.

١٣١ـ تنظيم العلاقة بين السياسة الاعلامية وادارة الصراع:

تنظيم العلاقة بين السياسة الاعلامية وادارة الصراع تنبع من متغيرات خمسة اساسية تتوقف عليها خصائص التحرك الاعلامي.

اولاـ طبيعة الازمة والصراع.

ثانياـ طبيعة العملية القرارية.

ثالثاـ اسلوب ادارة الازمة.

رابعاـ البعد الفعلي لنتائج لقرار.

خامساـ التحول الداخلي في اثناء ادارة الازمة.

هذه المتغيرات الخمسة لابد ان ندخلها في الاعتبار ونحن بصدد تحديد كيف تنظم العلاقة بين السياسة الاعلامية وادارة الصراع. لقد سبق وذكرنا ان الاعلام هو خط هجوم اول وخط دفاع اخير. كذلك اكدنا على ان الاعلام يجب ان يستقل دون ان يعني ذلك عدم التناسق والتبعية. ولسنا في حاجة ان نضيف .. بان التخطيط الاعلامي يفترض التفرقة بين الاعداد والصياغة من جانب ، ثم التنفيذ من جانب اخر والمتابعة والتقييم من جانب ثالث. ان كلا من هذه العمليات الثلاث تفترض تخصصا معينا متميزا: الاعداد هو عملية فكرية يتولاها العالم المتخصص بثقافته المعروفة حيث ينتهي ببناء اطار للسياسة المجردة.

التنفيذ لايقوم به الا خبير الاعلام المهني الذي يتنوع تبعا للاداة الاعلامية وخصائصها وخصائص الجمهور المتجه اليه. المتابعة يجب ان يتولاها جهاز مستقل قادر على ان يقيم المنفذ والمنظر في ان واحد . جميع

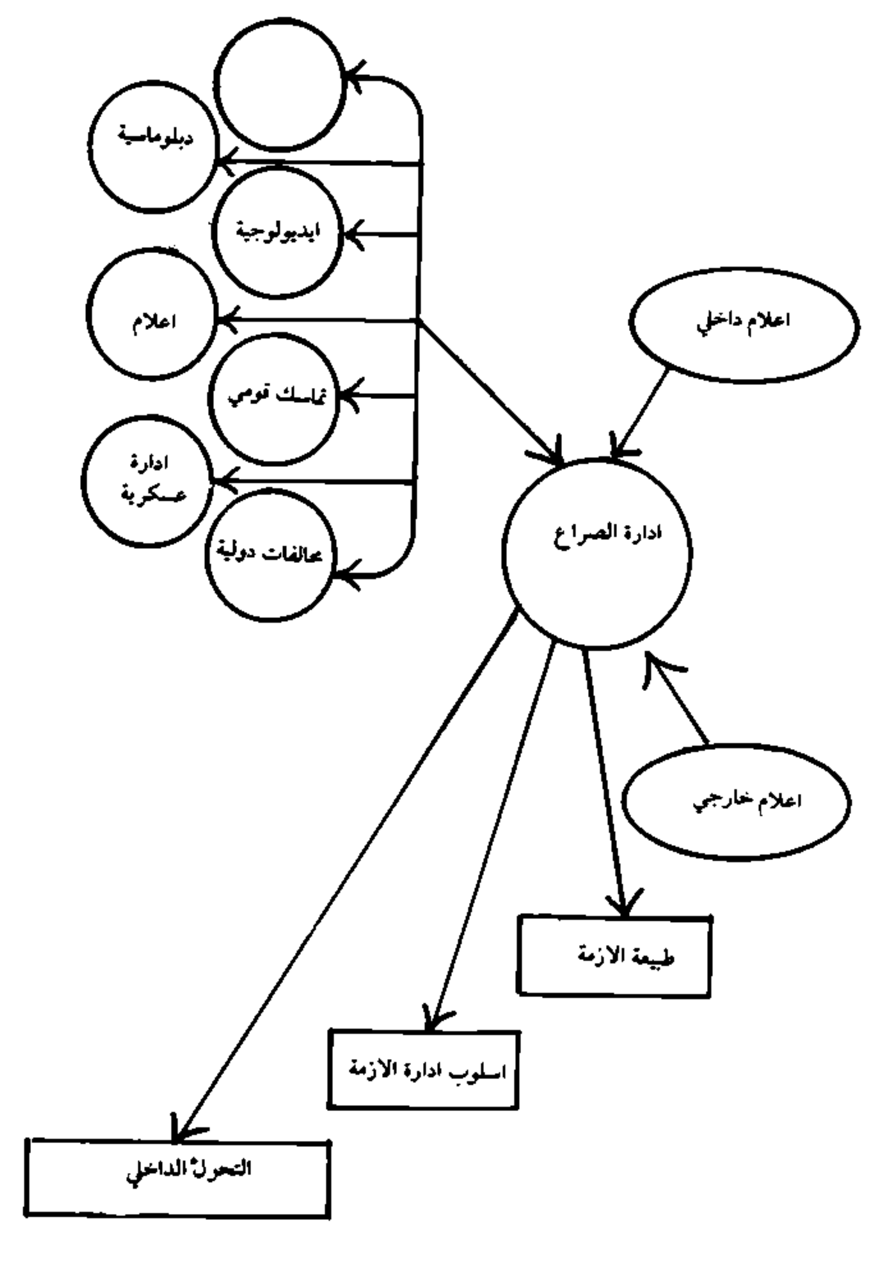
---

(٦٩) انظر حامد ربيع، سلاح البترول والصراع العربي الاسرائيلي، ١٩٧٤، ص٢٠٦ ومابعدها.

(٧٠)
ERI, Coexistence or Hegemony?, shifts the Israeli security concept, in CASPRI, et alt., The roots of Begin's sucess, 1984, p.191.

شكل رقم «٥»

التخطيط للتحرك الاعلامي



هذه الحقائق معروفة وليست في حاجة الى تفصيل ولكن الذي يعنينا هو تحديد هذه المبادىء من حيث الواقع التطبيقي المرتبط بعملية ادارة الصراع[71].

العلاقة بين السياسة الاعلامية والصراع في اوسع معانيها لايمكن ان تاخذ سوى نموذج من ثلاثة :

أـ الاعداد للاختراق.

ب ـ التغطية والتمويه.

ج ـ التبرير وخلق الشرعية.

الذي يحدد هذا الهدف هو من يتولى ادارة الصراع. في الحالة الاولى تصير الحركة الاعلامية متجانسة مع طبيعة الصراع انها تعكس نفس الدلالة وتسير في نفس الاتجاه . وفي هذا التطبيق فان التجانس يصير مطلقا والمنطق واحدا. ولكنه قد يأخذ نموذجا اخر وبصفة خاصة النموذج الثاني حيث يقصد بالتحرك الاعلامي تحقيق عملية تغطية وتمويه واسعة النطاق على اهداف الحركة السياسية . وهنا تبرز في صورة قاطعة فكرة توزيع الادوار من منطلق مبدأ الاخراج المسرحي [72] قائد الصراع الذي يريد ان يشتت ذهن خصمه ويدفعه الى هدف يختلف ويبتعد عن محور تحركه الحقيقي يلجأ الى الجهاز الاعلامي ليحقق تلك الغاية. انه وسيلته لأضعاف الخصم واخذه على غرة بحيث يصيبه في مقتل ومن حيث لايتوقع . وقد يكون الهدف من السياسة الاعلامية هو مجرد تبرير الحركة وتقديم اطار لشرعية التعامل. الذي يحدد هذا الهدف او ذاك او اكثر من هدف في ان واحد هو قائد الصراع وليس المخطط للسياسة الاعلامية وعلى هذا المخطط ان يطوع تحركه تبعا لتلك الاهداف التي يحددها مسبقا من يتولى ادارة الصراع . والواقع ان تنظيم العلاقة بين السياسة الاعلامية والصراع تنبع ، كما سبق وذكرنا، من مجموعة من المتغيرات تتفاعل فيما بينها لتخلق الاطار الحقيقي للحركة الاعلامية والتحرك الاعلامي. اول هذه العناصر طبيعة الازمة وطبيعة الصراع. لقد سبق وذكرنا ذلك بالتفصيل ونكرر بان ازمة داخلية وصراعا داخليا لايمكن ان يخضع لنفس الاسلوب الذي تخضع له ازمة خارجية وصراع خارجي وذلك رغم التسليم بالتلاحم بين الداخل والخارج.

كذلك فان طبيعة العملية القرارية اي عملية صنع القرار سواء من الناحية النظامية او الواقعية لابد وان تفرض ذاتها على العلاقة بين السياسة الاعلامية وادارة الصراع[73] ان صنع القرار يفترض مجموعة من المستلزمات التي تبدأ من الدقة في جمع المعلومات والدقة في صياغة احتمالات الحركة. والتنوع في تقييم البدائل وذلك دون القرار ذاته وموضع القرار من تحقيق الهدف من الحركة في اطار السياسة القومية.

علينا الا نخلط بين ماهو قائم ومايجب ان يقوم. القرار ليس سياسة لكنه تنفيذ لسياسة . والسياسة ليست قرارا ولكنها ادراك بامكانية القرار. التحرك الاعلامي ينبع من القرار وليس من السياسة وان تاثر بها. وهذا يقودنا الى المتغير الثالث وهو اسلوب ادارة الازمة. وهنا نجد أنفسنا في اكثر ميادين التحليل السياسي صعوبة وتعقيدا . ان اسلوب ادارة الازمة ينبع اساسا من شخصية القائد . ورغم جميع المحاولات التي بذلها اكثر من عالم واحد فان الحقيقة الساطعة هي ان تفضيل اسلوب على اخر او التنويع بين عدة اساليب او استخدام مجموعة من الاساليب في ان واحد لاتنبع الا من خصائص القيادة. مما لاشك فيه ان الاهداف والقدرات ثم خصائص الهيكل النظامي تكون متغيرات تابعة ولكن استراتيجية التعامل تظل متأثرة اساسا بالقائد وخصمه: انهما طرفا اللعبة التي تنتهي بتحديد مصير الجماعة . وهنا يلعب الاعلام دورا خطيرا

---

(٧١) فلش ، م.س.ذ. ص ١٢٠-١٢١

(٧٢) وليامز، م.س.ذ.، ص١٥٦.

(٧٣) حامد ربيع، المتغيرات الدولية ومشكلة الشرق الاوسط، ١٩٧٩، ص٢٨٥ ومابعدها.

(٧٤) حامد ربيع، الدعاية الصهيونية، م.س.ذ، ص٤٩ ومابعدها.

وبصفة خاصة عندما يبرز واضحا كيف ان احد اطراف الصراع يسعى لتوسيع دائرة الصراع او تضييقه فيصير التحرك الاعلامي بالنسبة له اداته الاساسية في جذب الاطراف او خلق القناعة بضرورة عدم الاهتمام. البعد الفعلي لنتائج القرار المتعلق بالازمة او الصراع له بدوره موقعه الحاسم في العلاقة بين السياسة الإعلامية والصراع: هنا التحرك الاعلامي يصير الاداة الأساسية لمنع الاثار الجانبية غير المطلوبة او على الاقل للتخفيف من حدتها. ويدخل في هذا النطاق ويصير جزئية من هذا المتغير الرابع مايمكن ان يحدث من تحولات داخلية في اثناء ادارة الازمة. بطبيعة الحال موضع ذلك ازمة خارجية او اقليمية ومرد ذلك ان العلاقة الحقيقية بين القيادة والشعب هي في خاتمة المطاف المحور الاساسي للشرعية والثبات في السلطة القيادية. ولعل خير نموذج يعبر عن هذه الملاحظة الواقع الذي عرفته مصر في تمسكها بجمال عبدالناصر عقب هزيمة الايام الستة. [٧٥]

١٣٢ ـ التحرك الاعلامي والتطور المعاصر لنظرية وظائف الدولة:

والخلاصة ان التحرك الاعلامي اضحى يمثل احدى خصائص الدولة المعاصرة. مرد ذلك اكثر من متغير واحد: من جانب وظيفة الدولة الاتصالية التي تسيطر على المفهوم المعاصر للدولة في جميع دوائر تعاملها داخليا واقليميا ودوليا. ومن جانب اخر طبيعة العلاقة بين المواطن والدولة او بعبارة اكثر دقة بين المحكوم والحاكم وكيف اضحى يسيطر عليها مفهوم اكثر اتساعا يدور حول فكرة التعبئة القومية. هذا المفهوم الذي تنبع منه مبادىء اخرى عديدة كالديمقراطية والمشاركة وفكرة الامة المحاربة يمثل الحصيلة الحقيقية كخبرة للتعامل مع المشاكل الكبرى التي تواجهها بصفة خاصة المجتمعات المتخلفة. وذلك دون الحديث عن الواقع العربي بمتغيراته المعروفة من صراع ضد الصهيونية من جانب ولتحقيق الوحدة من جانب اخر. ولرفع مستوى الحياة من خلال الاستغلال الأمثل للثروات الطبيعية من جانب ثالث.

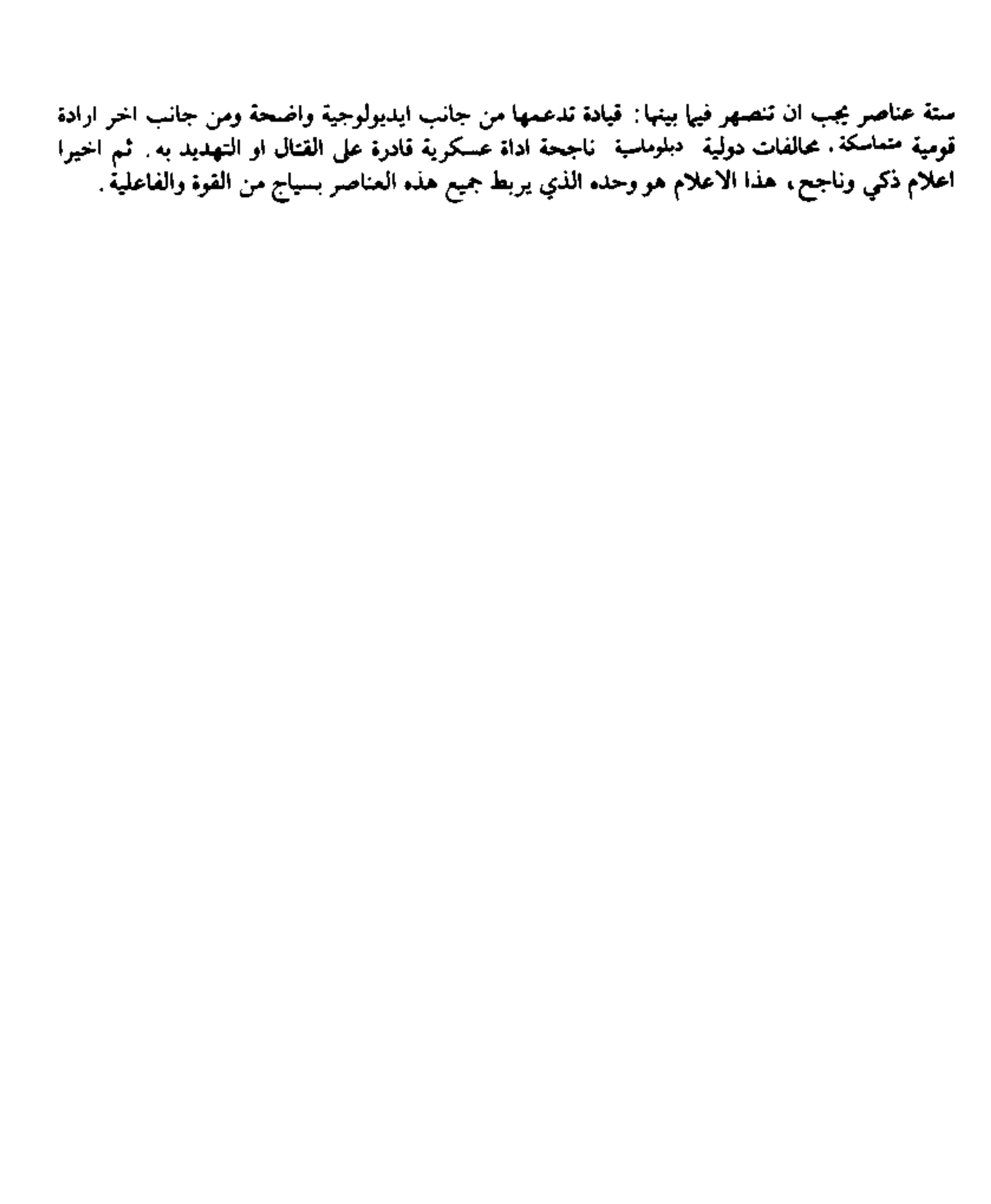
والتحرك الاعلامي بهذا المعنى عنصر اساسي من عناصر ادارة الصراع. وهو مقدمة لادارة الصراع، ملازم لعملية الادارة ذاتها ثم لاحق لتصفية الموقف المرتبط بالصراع[٧٦] هو اولا مقدمة بمعنى انه يعد الميدان الذي سوف يتعين على القائد ان يجول فيه ويصول في اعداده لميدان الصراع ينطلق من مبدأين اساسيين: ان الاعلام هو خط الهجوم الاول وان التحرك الاعلامي لابد وان يتم بتنسيق كامل مع قيادة ادارة الصراع. الاعلام والتحرك الاعلامي ايضا يلازم عملية ادارة الصراع وهنا تصير العلاقة علاقة تبعية وترابط ولا يكفي بخصوصها التنسيق الفكري بل يجب ان يكون ذلك التنسيق على مستوى الاداة والاهداف المرحلية. عند انتهاء الصراع الذي يعني الانتقال الى موقف جديد سواء كان هذا الانتقال تعبيرا عن نجاح كلي او فشل كلي او يتوسط بينهما كنجاح جزئي فان الاعلام يؤدي اخطر وظائفه وهو التخفيف من حدة الفشل او التضخيم من قوة النجاح او على الاقل عدم اقفال الباب ازاء احتمالات التراجع. نموذج واضح بهذا الخصوص يعبر عن الفشل الحقيقي هو الاعلام المصري عقب الثغرة في حرب عام ١٩٧٣.

وفي جميع الاحيان علينا ان نتذكر حقيقتين اساسيتين: الاولى اي صراع يفترض توازنا دائما بين الاعلام الداخلي والخارجي والثانية ان اي موقف داخلي الذي هو المحور الحقيقي لكل ادارة للصراع يتمركز حول

---

(٧٥) SHLMSHONI, Isreli democracy, 1982, p.155.

(٧٦) اضحى الفقه الفرنسي خلال الاعوام الاخيرة بفضل استخدام اصطلاح «الحرب السياسية» وهو يقوم بهذا المعنى الى التقاليد الفكرية التي وضع اصولها اباء الاستراتيجية في التقاليد الصينية. انظر على سبيل المثال:
MARCLLIN, La, guerre politique, 1985, p.35, p.204.



ستة عناصر يجب ان تنصهر فيها بينها: قيادة تدعمها من جانب ايديولوجية واضحة ومن جانب اخر ارادة قومية متماسكة. محالفات دولية دبلوماسية ناجحة اداة عسكرية قادرة على القتال او التهديد به. ثم اخيرا اعلام ذكي وناجح، هذا الاعلام هو وحده الذي يربط جميع هذه العناصر بسياج من القوة والفاعلية.

(٧٧) انظر فيما بعد المبحث الاخير من هذا القسم وقارن ملاحظات
BEN-DOR, State and conflict in the Middle East, 1983,p.185.

المبحث الثالث

خلاصة: حول نظرية للحرب النفسية

١٣٣- التعريف بالحرب النفسية وخصائصها

كلمة الحرب النفسية اصطلاح متداول. وهو يعبر عن مفهوم قديم قدم الانسانية. رغم ذلك فان الاطار الفكري والتأمل النظري الذي منه وبه يتحدد التعامل مع الظاهرة لايزال يعاني الكثير من التناقضات والتي مردها عدم قدرة العلم المعاصر على التأصيل الكامل لهذه الظاهرة.
ماهي اسباب ذلك ولماذا اول مانلاحظ هو عدم استقرار التقاليد العلمية حتى ان البعض لايزال يخلط بين الحرب النفسية والدعاية على سبيل المثال؟
مرد ذلك عوامل ثلاثة كل منها له وزنه في الفهم الحقيقي للظاهرة:
(اولا) الحرب النفسية كانت تقليديا اداة من ادوات القتال تعد وتصاحب وترافق الصراع الجسدي. هي ترتبط بالحرب بمعناها العضوي. ولكنها اليوم استقلت بل واضحت بديلا للقتال العضوي. انها ظاهرة متميزة توجد في حالة السلم كما تنشب اثناء الحرب. انها اداة مستقلة من ادوات تنفيذ السياسة الخارجية. بل ان الفكر السياسي الماركسي اولا والصهيوني ثانيا خلق ومن منطلقات مختلفة مفهوما اساسه القتال من خلال التعايش السلمي او باسم حديث السلام العادل الدائم والذي يستند في كلا التطبقين الى مفهوم الحرب النفسية.
(ثانيا) التقدم الرهيب في ادوات التعامل النفسي ومسالكه ليس فقط على مستوى التلاعب بالنفسية الفردية بل وايضا على مستوى اعادة تشكيل الشخصية القومية. ظاهرة الذعر الجماعي التي لم نكن نعلم عنها حتى الحرب العالمية الثانية سوى معلومات متناثرة وعشوائية اضحت اليوم احد ادوات واسلحة القتال المعنوي بين الشعوب. ووصل الاهتمام بهذه الظاهرة ان الابحاث التي تجري عليها في جامعة شيكاغو بقيادة العالمة الالمانية الاصل مارتا ولفنشتاين تعتبر من قبيل الاسرار العسكرية [٧٩]. هذا التقدم الرهيب يفرض علينا التعامل مع الظاهرة بكثيرة من الحذر والعناية وبصفة خاصة لاننا في تقاليدنا العربية نعيش بخصوص هذا الموضوع في جهالة مطلقة بينما الجانب الصهيوني استطاع ان يرقى بتقاليد هذا العلم الى مستوى متقدم جذب انظار الكثير من اوساط المتخصصين وبصفة خاصة في الصين واتحاد جنوب افريقيادون الحديث عن الولايات المتحدة الامريكية. ويكفي ان نتذكر بهذا الخصوص ان تقاليد الحرب النفسية في اسرائيل انطلقت واستعانت بجهاز الحرب النفسية الذي انشأه هتلر وان اول من قاد جهاز القتال الدعائي الاسرائيلي كان احد خبراءَ وزارة جوبلز المشهورة.

---

(٧٨) انظر بصفة خاصة:

STOETZEL, La psychologie sociale, 1963, p.235.

(٧٩) قارن حامد ربيع ، فلسفة الدعاية الاسرائيلية، م.س.ذ.، ص٨٠ ومابعدها.

(ثالثا) كذلك فان كلمة الحرب النفسية تختلط باصطلاحات اخرى متعددة تارة كمرادف لها وتارة كمظاهرة مختلفة للتعامل النفسي تقترب منها ومن دون ان تتطابق معها. فهناك اصطلاحات اربعة ترتبط بهذه الكلمة بحيث تستخدم في كثير من الاحيان كمترادفات: الحرب النفسية الباردة، الحرب الاعلامية، حرب الاعصاب ثم حرب المفاهيم. على ان ماهو اخطر من ذلك ان هناك مفاهيم اخرى سياسية ترتبط بعملية التعامل النفسي ولكنها تختلف عن مفهوم الحرب النفسية بحيث يجب منذ البداية ان نوضح دلالتها بدقة متناهية:

١ ـ الاعلام وحرب المعلومات ويقصد بذلك عملية الاتصال النفسية التي ليس من هدف لها سوى نقل الخبر الصحيح دون مبالغة او كذب. انه اتصال نقي بكل ماتعنيه هذه الكلمة من معاني حتى ولو اخذ صورة قتال نفسي.

٢ ـ الدعاية ويقصد بها التعامل النفسي بقصد تغيير الرأي. الدعاية ليس لها من هدف سوى تغيير القناعة بالانتقال من موقف التأييد الى المعارضة او العكس.

٣ ـ الدعوة وهو مفهوم قد يختلط بالدعاية ولكنه يختلف من حيث جوهره. الدعوة هي نوع من تعميق علاقة الولاء المذهبي، هي نقل للسلوك الفردي من مستوى سطحي الى مستوى التفاعل الكلي الشامل الذي يستوعب الذات الفردية في جميع مظاهرها السلوكية.

٤ ـ الحرب النفسية ويقصد بها السعي نحو تحطيم الثقة في الذات القومية. الحرب النفسية ليست مجرد تغيير رأي او تعميق علاقة ولاء. انها اكثر من ذلك. انها تحويل لموقف حيث المواطن والفرد يفقد كل الثقة في ذاته القومية. انها عملية تعامل جماعي تدور حول ذلك الانتماء.

٥ ـ عملية غسيل المخ ويقصد بها التعامل مع الذات الفردية بقصدتحويل تلك الذات الفردية الى جرثومة ناقلة للعدوى الفكرية والمذهبية من خلال عملية تحلل في مقومات الشخصية واعادة تشكيلها بما يتفق مع هذه الوظيفة.[٨٠]

٦ ـ التسميم السياسي ويعني غرس القيم الجديدة وبحيث من خلالها تتم اعادة تشكيل لنظام القيم السائدة فاذا بالقيم العليا القومية تتزحزح الى مرتبة ثانية لتحل موضعها القيم الدخيلة وغير المعبرة عن التقاليد التاريخية والقومية لترتفع إلى مرتبة القيم العليا.

علينا منذ البداية ان نفهم كيف ان كلا من هذه المفاهيم يملك معناه ويملك دلالته وانه لايجوز الخلط بينها ورغم انه من حيث الواقع يحدث تداخل وتفاعل وتأثير بين كل منها والاخرى. الحرب النفسية هي من ثم التعامل النفسي بقصد تحطيم الثقة في الذات القومية وهذا يعني منذ البداية:

اولا: هي حرب او قتال وككل حرب فان جميع الوسائل تصير مشروعة. مايجب ان نذكر به ان المفاهيم الاخرى قد تكون ادوات في تلك الحرب كالدعاية او التسميم السياسي ولكن هناك ايضا ادوات اخرى كما سوف نرى وهي على كل لاتعدو ان تكون ادوات وفقط ادوات.

ثانيا: هي حرب ومعنى ذلك انها توجه لعدو وانها تفترض طرفا مهاجما وطرفا مدافعا.

ثالثا: ان القاعدة المعروفة في القتال وهي ان الهجوم خير وسيلة للدفاع تظل صحيحة ومطلقة ايضا في الحرب النفسية.

رابعا: الحرب النفسية ككل قتال يفترض خطة واضحة ومقننة بكل ماتعنيه هذه الكلمة من معاني: قيادة، اهداف، ادوار، مراحل. وكما ان القتال هو قائد وجندي وسلاح وارض تدور عليها المعركة فكذلك الحرب

---

(٨٠) ايضا غسيل المخ كظاهرة لاتزال غير واضحة المعالم. انظر في دلالة موجزة.

BROWN, Techniques of persuion, 1963, p.267.

مبدا التداخل في التنفيذ

نشر الكتب المغرضة

المنشورات المدسوسة

اطلاق الاشاعات

التضخيم في الاحداث المعتادة

اختلاق الخيانات

قتل الزعماء والقيادات المسؤولة

اثارة الفتن

استخدام مراكز البحوث في دورة مشبوه

الندوات ومهرجانات الشباب وتوظيفها

التسلل الى اجهزة المخابرات ومواقع المسؤولية

نشر ادوات التخريب الداخلي بما في ذلك المخدرا ت

التجسس وخلق الطابور الخامس

اعاده كتابة التاريخ

حرب المعلومات

عمليات غسيل المخ

الدعوة العقائدية

تشويه الصورة القومية

خلق حالة الذعر الجماعي

مبدا النسبية في التطبيق

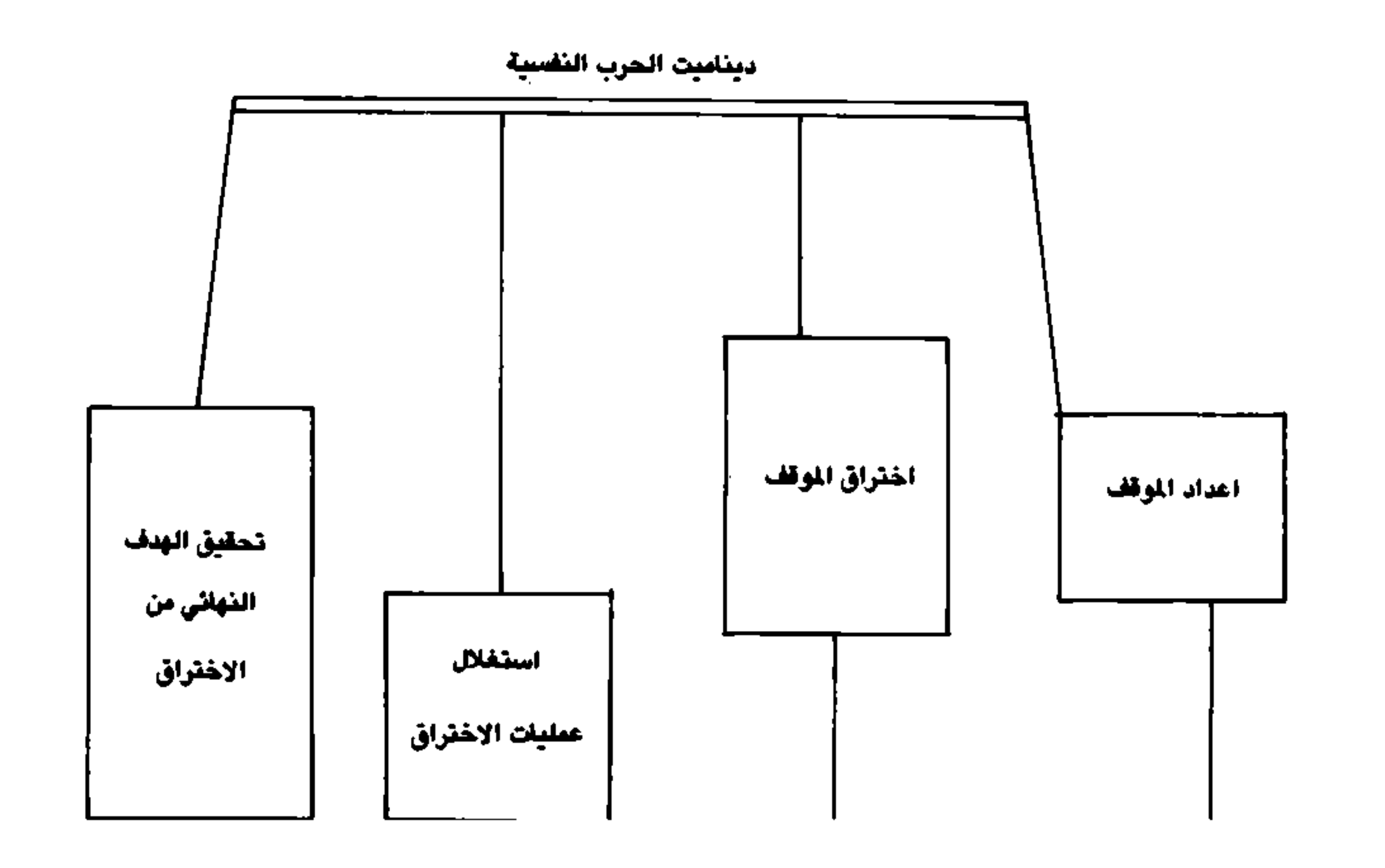
بلبلة الافكار

الاخلال بالامن

خلق عدم التماسك في الجسد القومي

الوطنية وفقد الثقة في الذات القومية

شكل رقم ١٠،


ديناميت الحرب النفسية
اعداد الموقف
اختراق الموقف
استغلال
عمليات الاختراق
تحقيق الهدف
النهائي من
الاختراق

النفسية تمثل هذه الخصائص.

لنستطيع ان نتناول هذا الموضوع بايجاز لابد وان نعرض له من منطلقات ثلاث. كليات الموضوع ثم خصائص الحرب النفسية في العالم العربي قبل ان نتوقف امام الحرب النفسية وحرب الخليج.

١٣٤ ـ القواعد العامة للحرب النفسية.

(أ) الحرب النفسية هي منطق يسعى الى اثبات وابراز عناصر الضعف في الخصم ومن خلال التعامل الفكري النيل من تماسك الشخصية الفردية والجماعية التي نتعامل معها بقصد تحطيم الثقة في الذات.

ومن ثم فان مفهوم الحرب النفسية يفترض مجموعة من المدخلات:

اولا الدراسة العلمية المسبقة للخصم موضع الهجوم.

ثانيا التعامل مع الخصم من منطلق اربعة مبادىء كل منها يكمل الاخر:

(أ) مبدأ التخطيط.

(ب) مبدأ التدرج في التنفيذ.

(جـ) مبدء التعدد في ادوات التنفيذ مع التناسق في العلاقة بين الادوات.

(د) مبدأ الاغراق الاعلامي.

ثالثا: قاعدة عامة يجب ان تسود الحرب النفسية وهي عدم الالتجاء الى الكذب(٨١).

رابعا: الحرب النفسية من جانب اخر من حيث الاعددا لها هي التقاء بين خمس خبرات يجب ان تتفاعل فيما بينها لتقدم الاطار الكامل للتصور المتعلق بالتعامل مع الخصم: سياسية ونفسية وعسكرية واعلامية واقتصادية. السياسية لان الحرب النفسية هي في جوهرها عمل سياسي. والنفسية لانها تدور حول التلاعب بالنفسية موضع الهجوم. والعسكرية لانها تفترض تعاونا بين الاداة المدنية والاداة القتالية ثم الاقتصادية لان الحرب النفسية تملك ايضا اقتصادياتها والقاعدة العامة هي انها يجب ان تتم باقل قدر من النفقات؛ الاعلامية لان الجهاز الاعلامي هو المحور الذي تدور حوله عملية التنفيذ.

نتابع بعض هذه النواحي بشيء من التفصيل لنستطيع ان نحدد خصائص ومتطلبات النجاح في الحرب النفسية.

(ب) قلنا ان الحرب النفسية تفترض الدراسة المسبقة والدراسة المسبقة تعني:

اولا: التحديد بفلسفة التعامل النفسي. من الناحية النظرية هناك فلسفات ثلاث تتقاسمها التيارات الفكرية المعاصرة:

١ ـ فلسفة فرويد والتي تأثرت بها الدعاية النازية(٨٢).

٢ ـ فلسفة بافلوف والتي تنبع منها تقاليد الحرب النفسية في الدول الشيوعية.

٣ ـ واخيرا فلسفة ديوي والتي تسيطر على المنطق الامريكي.

---

(٨١) انظر وقارن SIRIC, Communiction ou manipiltion, 1982.

(٨٢) خلاصة الخبرة النازية يستطيع أن يجد القارىء موجزا دقيقا لها في مؤلف:
ZEMAN, Nazi propaganda, 1973.

فلسفة فرويد اساسها ان الانسان مجموعة من العقد والنقائص. ومن ثم فان التوجه يجب ان يكون نحو ذلك المواطن المتلىء بتلك العقد الكامنة لاستغلالها بالتضخيم بحيث يكون رد الفعل الطبيعي هو خلق من ذلك المواطن اداة طيعة لتحقيق الهدف وهو نشر التخاذل في المجتمع المعادي. التقاليد النازية تجعل حربها النفسية تنطلق بهذا المعنى من الاقليات والعناصر المطحونة او المضطهدة اي مانسميه بالطابور الخامس. الاسلوب الروسي ينطلق من نظرية رد الفعل المقيد Reflexe conditionne بمعنى التوجه الجماهيري من خلال الاغراق المتكرر بحيث يصير الوسط الذي يعيش فيه الفرد وقد تشبع بمفهوم معين لابد وان يقود الى نتيجة محددة تتفق مع اهداف الحرب النفسية. التقاليد الامريكية تجعل الحرب النفسية امتدادا لنظرية التثقيف ومن ثم فهي تتجه اولا الى تعميق القناعة لدى المتعاطف اي (الصديق) وبالذات من قدرت له الدراسة او التعامل مع المجتمع الامريكي. تدعيم الثقافة والقناعة يدعم الصداقة ومن ثم يخلق البؤر الصديقة والمتعاطفة مع التوجه الامريكي هو الذي يحقق اهداف الحرب النفسية. على سبيل المثال الاعجاب بالنموذج السياسي الامريكي او نموذج الحياة في المجتمع الامريكي يقود بالحتمية الى رفض والابتعاد عن التقاليد القومية وعدم احترام التراث القومي ومن ثم فقد الثقة في الذات القومية[٨٣].

منذ البداية نذكر بان كل من هذه الفلسفات تملك تقاليدها وكل منها تملك منطقها والذي نلاحظه على الصهيونية انها تستخدم الفلسفات الثلاث في ان واحد. فهي تستخدم الفلسفة النازية مع الاقليات، والفلسفة الشيوعية مع المجتمعات المحكومة بصفة عامة والفلسفة الامريكية مع بعض الطبقات المثقفة كما نعاصر اليوم في المجتمع المصري.

ثانيا: الناحية الثانية التي يجب ان تخضع لتخطيط مسبق هي منطق التعامل. فالحرب النفسية هي منطق كلي وشامل خاص بمجموعة من المشاكل والمواقف. هذا المنطق اي وجهة النظر يجب ان يتم بناؤه. في العادة الحرب النفسية تسير في خطين متوازين. منطق ايجابي ومنطق سلبي.

الاول يرتبط بالذات التي تتجه منها الحرب النفسية حيث تضخم مزاياها بل وقد تختلق والثاني حيث تبرز نقائص الخصم ونواحي فشله. هذا التوازي يزيد من تدعيم عدم الثقة في الذات حيث المقارنة تفرض نفسها وتقود بطريقة تلقائية الى تدعيم عدم الثقة في الذات. في لحظة معينة ظلت اجهزة الاعلام الاسرائيلية تدق على مقارنة عميقة المدى بين هجرة العقول من العالم العربي وعودة العقول الى المجتمع اليهودي واتخاذ ذلك منطلقا للمقارنة بين مايقدمه المجتمع الاسرائيلي من مزايا ومايطرحه المجتمع العربي من عناصر للطرد فرضت على كفاءاته التشرد في مختلف انحاء العالم[٨٤].

ثالثا: كذلك فان وجهة النظر تتكون من العديد من الحجج: حجج تاريخية واخرى منطقية، وثالثة وقائعية. يجب بلورة هذه الحجج وخلق التناسق بينها ورفع التناقض والرد على مايمكن ان يثار من وجهات نظر معارضة. ولنتذكر انه ليس هناك اقوى من الواقعة في تأييد وجهة نظرة معينة. كذلك ان نتذكر ان هذه الدراسة يجب ان تتضمن ايضا متابعة الحجج من حيث ترتيب اطلاقها ولحظة اطلاقها.

---

(٨٣) ولذلك في التقاليد الامريكية بهذا المعنى تختلط عملية التثقيف بما اسميناه التسميم السياسي او بعبارة ادق تصير الاولى مقدمة للثانية.

انظر:

CASAMAYOR, Intoxication, 1981.

SCHRAC, Mind control, 1978.

DOROZYNSKI,La manipulation des 'esprits, 1981.

KOROZYNSKI, Las chemins de la persuasion, 1985.

PACKARD, La persuasion clandestine, 1984.

NORD, L'intoxication: arme abilue de la guerre subversive, 1971.

(٨٤) قارن حامد ربيع، الدعاية الصهيونية، م.س.ذ.، ١٨٤ ومابعدها.

رابعا: عناصر الحجج. فكل حجة تملك عناصر معينة. ان الحرب النفسية في جوهرها هي الوصول الى نقطة الضعف في الخصم واستغلالها باختراق ذلك الضعف وكيفية مساندة عملية الاختراق التي هي محور التعامل مع نواحي الضعف.
خامسا: المستقبل فالحرب النفسية عملية اتصالية ومن ثم يجب ان تكون شخصية من يستقبل تلك الرسالة وهو مجموعة من التقاليد والعادات والمصالح موضع دراسة مستفيضة بحيث تتفاعل مع تلك الخصائص عناصر المنطق وخصائص كل عنصر من عناصر ذلك المنطق.
(جـ) كذلك قلنا بان الحرب النفسية تفترض التخطيط. والتخطيط للحرب النفسية تنطبق عليه جميع قواعد التخطيط لادارة الصراع. ومعنى ذلك مجموعة من القواعد:
اولا: التحديد باهداف الحرب النفسية بوضوح مسبقا.
ثانيا: الحرب النفسية يجب ان تخضع لمبدأ التدرج بحيث انه يجب التمييز بين الاهداف المرحلية والاهداف النهائية[85].
ثالثا: يجب التمييز المطلق بين اداة التخطيط واداة التنفيذ واداة المتابعة. الاولى يغلب عليها الطابع العلمي والثانية تسيطر عليها الخبرة المهنية المتعلقة بالتعامل اليومي والثالثة تستقل عن كلاهما لتقيم ولتقول كلمتها النهائية في النجاح والفشل بالنسبة لكلا التخطيط والتنفيذ.
التمييز بين مراحل الحرب النفسية يمكن ان يخضع لاكثر من متغير واحد او اسلوب واحد. وقد ميزنا في بعض مؤلفاتنا على ضوء خبرة الحرب النفسية في مصر بين مراحل خمس: اثارة المشكلة ثم الاعداد للحملة وتاتي عقب ذلك مرحلة الهجوم المباشر تتبعها مرحلة اضعاف الخصم واخيرا مرحلة تقييم النتائج. على اننا اليوم نميل الى تمييز اخر واكثر التصاقا بالواقع الذي تعيشه المنطقة العربية وبصفة خاصة عقب اتفاقيات كامب ديفد:
١ ـ مرحلة بلبلة الافكار.
٢ ـ مرحلة الاخلال بالامن.
٣ ـ مرحلة خلق عدم التماسك في الجسد القومي.
٤ ـ مرحلة تفتيت الوحدة الوطنية.
المرحلة الاولى: القصد منها خلق حالة من الشك في المجتمع السياسي والاضطراب او عدم الوضوح في الرأي العام السائد. وتلعب دورا خطيرا في تلك المرحلة (اولا) الاشاعات (ثانيا) الكتب المغرضة (ثالثا) المنشورات المدسوسة وما في حكمها (كالكاسيت وافلام الفيديو). المرحلة الثانية: والقصد منها خلق عدم الثقة في الطبقة الحاكمة. الاخلال بالامن يعني ان المواطن لم يعد يستطيع ان يعتمد على السلطة في حماية ذاته وهذه بداية لعدم الثقة في الذات القومية. ونجد الادوات هنا عديدة: (اولا) اثارة الفتن (ثانيا) التضخيم في

---

(٨٥) الحرب النفسية هي في جوهرها عملية اختراق. ولكن هذا الاختراق لايجوز ان يكون مؤقتا بل يجب ان يكون دائما ومستقرا. انظر:

BEN HALLA. La guerre radiophonique. 1983.

SMILH. The geepolitics of information. how western culture dominates the world. 1980.

WINKLER. The politics of propaganda. 1976.

BOGART. Premises for propaganda. 1978.

HAZAM. Soviet propagande. a study of the Middle East conflict. 1975.

REE. Soviet active measues. the propaganda war. in Conflict studies. ."169. 1984.

الاحداث المعتادة (ثالثا) قتل الزعماء والقيادات المسؤولة (رابعا)اختلاق الخيانات وتشويه القيادات القومية والتاريخية.

المرحلة الثالثة: ومدارها خلق عدم التماسك في الجسد القومي او بعبارة اخرى التوجه بمعاول الهدم الى مفاصل الجسد لخلق حالة شلل فاذا بالجسد غير قادر على المقاومة. ايضا الادوات بهذا الخصوص عديدة: (اولا) التجسس والطابور الخامس (ثانيا) مراكز البحوث التي تؤدي دورا مشبوها ولكنه مستتر باسم العلم وحرية البحث العلمي (ثالثا) الندوات ومهرجانات الشباب حيث يتم تسريب افكار معينة وتسميم فئات معينة (رابعا) التسلل الى اجهزة المخابرات وبحيث يتم توجيه متعمد لحبس المعلومات او لتسريبها بشكل معين (خامسا) نشر ادوات التخريب الداخلي.

المرحلة الرابعة: وهي مرحلة تفتيت الوحدة الوطنية والتماسك القومي. وبتمامها تتم اهداف الحرب النفسية حيث يفقد المواطن ثقته في ذاته القومية. ايضا الادوات في هذه المرحلة عديدة.

(اولا) الدعوة العقائدية وتشجيع الايديولوجيات بل وتشجيع الحرب الايديولوجية (ثانيا) حرب المعلومات (ثالثا) عمليات غسيل المخ (رابعا) تشويه الصورة القومية (خامسا) اعادة كتابة التاريخ لتشويه المنجزات (سادسا) خلق حالة الذعر الجماعي[٨٦].

د) وهذا يقودنا الى ان نحدد خصائص الحرب النفسية:

(اولا) هي تعامل مع موقف situation.

(ثانيا) هي حرب، ومن ثم فان الخدعة محورها، وخطتها يجب ان تقنن وتوزع على مراحل حيث كل مرحلة تعد للمرحلة اللاحقة. وقائدها واحد لايتعدد، واحد عناصر التخطيط هو اسلوب التراجع حيث ان احتمالات الهزيمة يجب ان تدخل في الحساب.

(ثالثا) وهي ليست تعامل نفسي مباشر. انها تلجاء ايضا لجميع الوسائل المادية التي تقود الى النتيجة المقصودة. نشر الاشاعات. نشر الفوضى. الاخلال بالامن. نشر المخدرات، قتل الزعماء، جميع الوسائل التي تسمح بالاعداد لاختراق الموقف مقبولة.

(رابعا) يسهل من الحرب النفسية اكتشاف اساليب جديدية للتحكم في المنطق البشري contřol mind والتي وصلت الى مرحلة متقدمة من حيث التجريب والتي يمكن ان توجه الى المجتمع الكلي او على الاقل الى الزعماء والقيادات.

(خامسا) الحرب النفسية تجمع بين الاتصال الداخلي والاتصال الخارجي: هي تتجه الى العدو ولكنها ان فشلت ترتد الى نفس من اصدرها فتصير اتصالا داخليا.

(٨٦(مم لاشك فيه ان الفقه المتخصص لايزال في حاجة الى مؤلف يلقي تلك النظرة الكلية الشاملة على السلاح النفسي كتلك التي قدمها لنا الفكر الاقتصادي الدولي بخصوص السلاح الاقتصادي. انظر على سبيل المثال المؤلف الذي ندين به لمؤسسة دراسات الدفاع القومي الفرنسية:

LACHAUX, alt., De l'arme 'economique, 1987, p.232.

رغم ذلك فيستطيع القاريء ان يجد في بعض المؤلفات التقليدية ما يفرض عليه العديد من التساؤلات. انظر على سبيل المثال:

MILZA, Le nouveau desordre mobdial, 1983, p.272.

CHALIAND, Terrorism: from popular struggle to media spectacle, 1985, p.105.

PEPPER, JENKINS, The geography of peace and war, 1985, p.192.

ROY, La guerre civile plan'taire, in Cahiers de philsphie politique et juridique, n°10, La guerre, 1987, p.325.

مباديء الحرب النفسية العكسية

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
التحصين الذاتي	اعادة كتابة التاريخ	المشاركة الشعبية	التعبئة القومية	تحقيق الاجماع القومي	الامة المحاربة	اكتشاف عناصر التناقض في الخلق المعادي.	الانتقال من الدفاع الى الهجوم.	رد الاعلام المعادي الى المنبع الذي صدر منه	استئصال العناصر الكامنة للغزو النفسي.

الحرب النفسية في حصيلتها النهائية: اعداد لموقف، اختراق لذلك الموقف، استغلال لذلك الاختراق، مفهوم الاختراق هو المحور الحقيقي للحرب النفسية ومن ثم فان البراعة في تنفيذ مخطط الحرب النفسية يفترض بدوره عنصرين اساسيين: المساندة للاختراق بحيث يصير كلي وشامل، ساحق ومدمر، من جانب ومن جانب اخر الاستقرار في عملية الاختراق بحيث ان الاختراق لايجوز ان يكون مؤقتا وان نتائجه يجب ان تحدث اثارها خلال فترة طويلة نسبيا وبحيث تستطيع التفاعل مع هذه النتائج بقدراتها الذاتية.(٨٧)

١٣٥ ـ الحرب النفسية في العالم العربي

الحرب النفسية في الوطن العربي قديمة قدم التاريخ العربي ذاته. ومن هنا تبرز اول خصائص الحرب النفسية في الوطن العربي. ثم هي في الواقع المعاصر تتميز بتعدد مصادرها بحيث يمكن القول بانه لاتوجد منطقة اخرى في عالمنا المعاصر يخضع لمثل هذه الحرب النفسية التي يعيشها الوطن العربي وهذه هي ثاني الخصائص التي تميز الحرب النفسية في الوطن العربي. اضف الى ذلك عدم وجودة قدرة او رغبة في المواجهة ورفع راية التحدي. خصائص ثلاث تميز هذا الواقع العربي. فلنحاول ان نحدد خصائص الحرب النفسية في الوطن العربي قبل ان نحدد منطقها ومتغيراته.

أول مانلاحظه ان الوطن العربي خضع للحرب النفسية منذ اقدم العصور وعلى الاقل منذ الحروب الصليبية. العودة الى كتابات العصور الوسطى يلحظ مدى التشويه الذي احيط به العالم العربي والوجود العربي. ورغم انه خلال تلك الفترة حدث خلط بين العربي والمسلم وفي فترة لاحقة اضحى الخلط بين العربي والمسلم والتركي الا ان التشويه كان عاما وكليا وشاملا. ولكن هذا التشويه ارتفع الى قمته مع القرن التاسع عشر عندما برزت الدولة القومية وبدأت ملامح المد الاستعماري تتبلور في صورة واضحة. فمنذ ذلك التاريخ بدأت الدعاية الغربية تبرز المنطقة على انها تمثل حالة تخلف يجب وضع حد له وليس من سبيل الى ذلك الا بالاستعمار ونقل الحضارة الغربية الى المنطقة. منذ ذلك التاريخ ايضا بدأ الاهتمام بنقل المعلومات عن المنطقة. ونحن قد سبق ورأينا ان احد عناصر الاعداد للحرب النفسية هو دراسة خصائص المستقبل واحد عناصر هذه الدراسة هو المعرفة الدقيقة الميدانية. منذ القرن الثامن عشر وجدت هذه الاهتمامات حتى انه فترة حكم علي بك الكبير وقبل حملة نابليون على مصر اثناء الحكم الملكي الفرنسي ارسل الى مصر احد رجال المخابرات الفرنسية (سافاري) الذي قضى بها ثلاثة اعوام وترك مجموعة ضخمة من الخطابات الموجهة الى السلطات المسؤولة في باريس لاتزال حتى اليوم يحتفظ بها في المكتبة الوطنية بباريس. كذلك تقارير قناصلة بريطانيا في القاهرة والاسكندرية ودمشق والقدس عامرة بالمعلومات الدقيقة.

على ان الحرب النفسية في معناها الحديث تغلغلت في المنطقة عقب ذلك وقبل ان يعرفها العالم اثناء الحرب العالمية الثانية في صورة حرب الاذاعات بين روما من جانب والاذاعة البريطانية من جانب اخر والتي غمرت المنطقة قبل نشوب الحرب بعدة اعوام(٨٨).

---

(٨٧) مما يدعو للدهشة انه في مؤلف جماعي واغلب باحثيه ينتمون الى الوطن العربي عن السياسات الخارجية للدول العربية لم ترد كلمة واحدة عن الحرب النفسية او المتغيرات المرتبطة بالعملية الاتصالية وهو الامر الذي يؤكد ان علماء السياسة لدينا لايزال ادراكهم ينبع من الكليات التي تسود الفكر الغربي. انظر:
KORANY. alt., The foreign policies of Arab States, 1984.

(٨٨) انظر حامد ربيع ، الثقافة العربية بين الغزو الصهيوني وارادة التكامل القومي، ١٩٨٣، ص١٦١ ومابعدها.

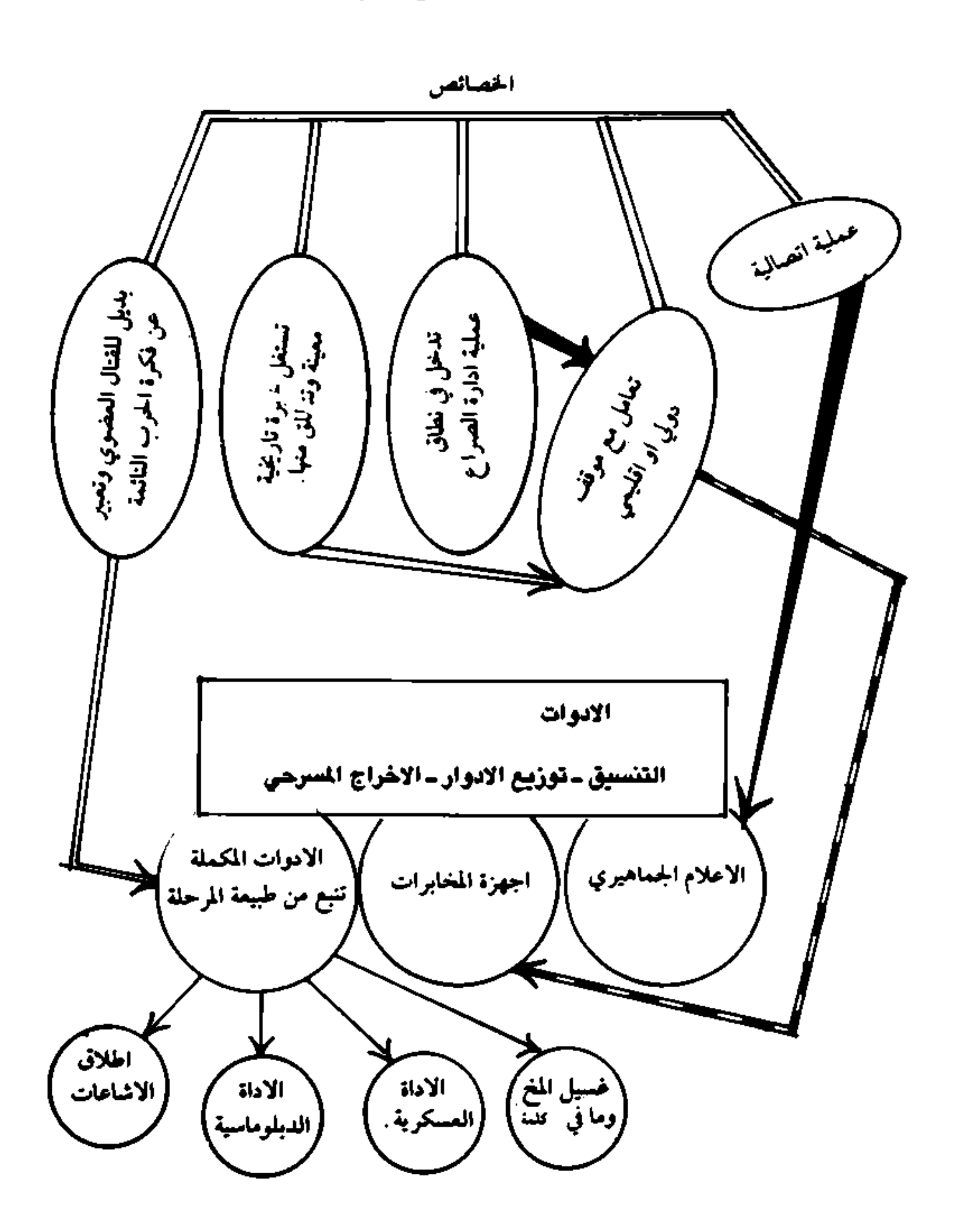
ب) ان اخطر ما تعاني منه المنطقة العربية ان الحرب النفسية التي يعيشها الوطن العربي متعددة المصادر.
(اولا) فهناك اولا هجمة الاستعمار الامريكي المتمثلة في تطويع القيادات البرجوازية وخلق القناعة بالنظام الامريكي ومايسمى باسلوب الحياة الامريكي. منطق التغلغل هو مايسمى بنظرية التنمية ومحوره هو مجتمع الرفاهية واسلوب الحياة الاستهلاكي. لقد استطاعت الدعاية الامريكية من خلال عملية غسيل المخ الجماعي وتطويع القيادات وخلق طبقات المنتفعين ان ترسب في المجتمع العربي القناعة بان النموذج المثالي للحياة هو المجتمع الامريكي بخصائصه المعروفة.
(ثانيا) ثم تكمل ذلك حرب من الايديولوجية الماركسية محورها مفهوم الاممية بما يعنيه من اضعاف للثقة في القومية العربية وتدعيم المساندة لما يسمى بالاممية الدولية. انها حرب عقائدية لابد وان تؤدي الى خلق الاهتزاز في القيم التقليدية.
(ثالثا) ثم تأتي الحرب النفسية التي تشنها الصهيونية وربيبتها اسرائيل:
(١) فهي حرب تتجه الى الوجود العربي ذاته.
(٢) وهي تساند منطق الاقليات.
(٣) وهي تعمق العدواة في الادراك اليهودي بل وغير المسلم من خلال ربط القومية العربية بمفاهيم التعصب الديني الاسلامي.
(رابعا) وتأتي الحرب النفسية الايرانية التي تشنها طهران ليس فقط على العراق بل وعلى جميع اجزاء الوطن العربي. ونلحظ عليها بهذا الخصوص انها تنقل التخطيط الاسرائيلي وتتأثر به.
(١) فهي تشن هجومها على القومية العربية وتصفها بالعنصرية.
(٢) وهي تبرز من جديد منطق الحق التاريخي.
(٣) وهي تكرر بثبات ولو بطريق غير مباشر مفهوم الفراغ الحيوي.
(خامسا) ويكمل هذا حرب نفسية بين النظم العربية ذاتها. مصر وليبيا، الجزائر والمغرب، سوريا والعراق على سبيل المثال.
(سادسا) ولايجوز ان ننسى ان هناك حربا نفسية داخلية بين اجزاء المجتمع الواحد بسبب انتشار الاقليات وتطور استغلالها من جانب القوى الاجنبية كما يحدث الان في لبنان. وما يحدث في لبنان ممكن تكراره في اي بقعة اخرى من العالم العربي. حتى في مصر ذاتها ذات التاريخ الطويل من التماسك القومي اضحت اليوم تعرف حربا نفسية بين المسلمين والاقباط.
(جـ) الحديث عن الحرب النفسية في الوطن العربي لايمكن ان يكون كاملا دون التعرض لمنطق تشويه الطابع القومي العربي. وهو احد العناصر الواضحة حيث تتفق جميع تلك الحملات التي سبق وحددناها والتي ترمي الى تحطيم الثقة في الذات القومية. ما الذي يجمع بين هذه الموجات المختلفة من الحرب النفسية بعبارة اخرى وبصفة خاصة الموجات الخمس الاولى؟ تشويه الطابع القومي العربي هو المحور الحقيقي[٨٩]. عناصر ذلك نستطيع ان نوجزها في العناصر العشرة التالية:
(اولا) الطابع القومي العربي يعكس التخلف ويرفض جميع صور التقدم الحضاري.
(ثانيا) النظم العربية لاتعبر عن واقع العصر فهي ليست سوى مجموعة من النظم الديكتاتورية التي تتخذ من وجود اسرائيل ذريعة للبقاء.

---

(٨٩) انظر اطارا لهذا الموضوع الذي كان يجب ان يدفع الى الاهتمام به جامعة الدول العربية لو قدرت لها القيادة الواعية المتخصصة وكذلك بل وبصفة خاصة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في حامد ربيع، الدعاية الصهيونية، م. س. ذ. ص١٨٠ ومابعدها.

شكل رقم «٨»

الحرب النفسية والصراع الدولي



(ثالثا) الاختلال في الاوضاع الداخلية هو المحور الثابت المعبر عن جميع انواع النشاط الحكومي في الدول العربية. اختلال سياسي واقتصادي واجتماعي.
(رابعا) المواطن العربي هو تعبير عن الوحشية التي ميزت جميع مراحل تاريخه ولنتذكر على سبيل المثال الوقائع التي مايزال العالم العربي يعيشها كنتيجة للاحتكاك مع الوجود العثماني والتركي.
(خامسا) مايميز العالم العربي هو نكران الجميل. فلننظر الى مافعلته الحضارة العربية وكيف يواجهها اليوم وكيف يتعامل معها اولئك الذين قادوا تلك البلاد الى الخروج من جهالة العصور الوسطى. اليست الجزائر نموذجا واضحا لذلك؟
(سادسا) ان ما يميز العربي عن غيره وكذلك الحكومات العربية عن غيرها هي القدرة على الابتزاز. البترول العربي ليس الاتطبيقا واضحا لهذه الحقيقة.
(سابعا) والواقع ان مايميز التقاليد العربية والطابع القومي العربي انها تعكس منطقا مختلفا عن منطق الحضارة الغربية لايستطيع ان يتفهمه او يتقبله ولا ان يتجانس معه المواطن الاوربي وبصفة عامة كل من ينبع منطقه من حضارة عصر النهضة.
(ثامنا) ان المجتمع العربي مجتمع اصيل في استرخائه وكسله. لقد كان كذلك وسوف يظل كذلك. فلنعد الى اقاصيص الف ليلة وليلة لنكتشف من خلالها حقيقة ذلك المجتمع.
(تاسعا) وهي لتؤكد تكامل هذا المنطق لابد وان تلقي بظلالها على الوظيفة التاريخية للحضارة الاسلامية التي تصير من منطلق التصور الصهيوني اسطورة لاوجود لها.
(عاشرا) ولتكمل وترتبط هذه الخصائص المختلفة بالواقع الحالي لابد وان تضخم من فشل الحركات الوحدوية المرتبطة بالعالم العربي. ان مبدأ الوحدة اسطورة لاوجود لها الا في مخيلة بعض المفكرين الذين لايعرفون شيئا عن واقع العالم العربي.

حول هذه العناصر العشرة من التشويه تتفق مصادر الحملة النفسية التي يخضع لها الوطن العربي. على ان النجاح الحقيقي الذي استطاعت ان تحققه اجهزة الحرب النفسية الاسرائيلية هي عندما خلقت القناعة لدى بعض اجهزة الاتصال العربية بتبني هذه المفاهيم في مواجهة اجزاء من المجتمع العربي. لم تعد الحرب النفسية توجه الينا من الخارج بل تتولاها قيادات وادوات عربية من صفوفنا وقد تبنت منطق تلك الاجهزة المعادية. ولنتذكر على سبيل المثال اجهزة الاعلام التونسية خلال حرب عام ١٩٦٧ وفي اعقاب هزيمة يونيه عندما انطلقت ضد المشرق العربي بصفة عامة ومصر بصفة خاصة تدعم وتدافع عن الحجة الثامنة وهي الجبن والاسترخاء وعدم الصلاحية او القدرة على التحدي. ولنتذكر نموذجا اخر لانزال نعيشه عندما خرج الاعلام المصري وهو يتبنى حجة نكران الجميل في مواجهة منظمة التحرير الفلسطينية ويعمم ذلك على جميع عناصر الشعب الفلسطيني الذي ليس سوى جزء من الامة العربية مرددا بذلك نفس المنطق الصهيوني في ادق تفاصيله[٩٠].

د) رغم تعدد مصادر الحرب النفسية في الوطن العربي فيجب ان نتذكر ونكرر ان اخطر هذه المصادر هو تلك الحرب التي تشنها علينا القوى الصهيونية. ولعل هذا يطرح تساؤلين: التساؤل الاول: لماذا هذا النجاح؟ والتساؤل الثاني: كيفية المواجهة؟

نجاح الحرب النفسية من الجانب الصهيوني هو جزء من النجاح العام للحركة الصهيونية في التعامل مع الوطن العربي. والواقع ان علينا ان نتذكر حدود النجاح في التعامل النفسي بما في ذلك الحرب النفسية.

---

(٩٠) فارن بلنش، م.س.ذ.، ص٢٥٩ ومابعدها.

التعامل النفسي لايمكن ان يحيل النجاح الى فشل او يقلب الفشل الى نجاح. انه يقوى النجاح في الحركة فيضخمه او يقلص الفشل فيحد من اثاره. نجاح الحركة الصهيونية ضخمته مختلف انواع التعامل النفسي بما في ذلك الحرب النفسية. ومن ثم يصير التساؤل الضروري هو: لماذا لم يستطع الجانب العربي حتى اليوم ان يتصدى للحرب النفسية باي شكل كان؟
اربعة اسباب رئيسية قادت الى هذا الواقع:
(اولا) السياسة العربية غير متجانسة ومن ثم يسهل اختراقها ويصعب تكتيلها او التعبير عنها بخط اعلامي واحد متناسق[٩١].
(ثانيا) التضامن العربي لاوجود له مما يزيد من جعل الجسد العربي خصم سهل المنال وسهل الاختراق وقد سبق ورأينا كيف ان هذا اختراق وصل الى القمة عندما اضحت اجهزة الاعلام العربية تقوم بتنفيذ منطق الحرب النفسية الصهيونية.
(ثالثا) كل ماتستطيعه الجهود العربية يدور حول الجهود الجزئية على المستوى القطري. وحتى في هذا المجال فان موقف الجهود العربية يأخذ دائما صورة الدفاع عن الذات. ونحن سبق وذكرنا كيف ان الهجوم خير وسيلة للدفاع. امر لم يتحقق في اي مرحلة وفي اي تطبيق من تطبيقات التعامل النفسي من الجانب العربي حتى اليوم.
(رابعا) كذلك من العبث الحديث عن الجامعة العربية التي كانت قادرة على ان تتولى هذه الناحية ولو من منطلق المفهوم الحضاري. هل اصدرت جامعة الدول العربية حتى اليوم دراسة واحدة تحلل فيها الشخصية اليهودية وتبرز نقائصها الحقيقية ردا على حملات التشويه التي تخضع لها الشخصية العربية؟ سؤال لسنا في حاجة الاجابة عليه.

على اننا ونحن في ختام تحليل هذه المواجهة بين الحرب النفسية التي يخضع لها الوطن العربي والحرب النفسية المضادة التي لم تبدأ بعد من الجانب العربي يجدر بنا ان نضيف في هذه العجالة من قبيل فقط التذكير ثلاثة حقائق: (الحقيقة الاولى) وهي خلق حالة الذعر الجماعي المحلية كأحد مسالك الحرب النفسية الصهيونية والتي ارتبطت بالحركة منذ وجودها واستخدام العنف كاحد ادوات الحركة. ولنتذكر مذابح دير ياسين ثم مذابح صبرا وشاتيلا على سبيل المثال. اما عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم فمأساتها اكبر من أن تكون موضع تعليق. لقد تحولت الى اداة تخريب حقيقة وقد آن الاوان لهدمها. وهذا حديث آخر.
(الحقيقة الثانية) ان اسرائيل تتبع مبدأ التمييز والتخصص في التعامل تبعا لخصائص المستقبل وهي بصفة عامة تميز بين ستة شرائح في المجتمع العربي وتخضع كل شريحة لمنطق مختلف:
(اولا) عرب اسرائيل والضفة والقطاع تستخدم معهم وتطور باساليب متقدمة مفهوم الذعر الجماعي.
(ثانيا) الاقليات العربية خارج الوطن العربي. تتعامل معهم بمفهوم دعائي محوره تدعيم النعرة العنصرية والانتماء الطائفي. نموذج واضح لذلك اقباط مصر في المجتمع الامريكي.
(ثالثا) القيادات العربية المسؤولة (وبصفة خاصة القيادات الفلسطينية). تنطلق من فكرة التسميم السياسي بقصد اعادة تشكيل نظام القيم لخلق القناعة بان الحديث عن السلم بطريقة مباشرة او غير مباشرة هو خير وسيلة للاستمرار في السلطة. طبقت هذه المنهاجية مع الرئيس التونسي في اوائل الستينات ثم مع الرئيس

---

(٩١) انظر بصفة خاصة:

TREVERTON, Crisis management and the super-powers in the Middle East, 1981, p.118.

TRPP, Regional seuity in the Middle East, 1984, p.118.

CHURBA, The poltics of defeat, 1977, p.33.

المصري انور السادات عقب حرب اكتوبر ومع كل من الملك الحسين والملك الحسن عقب ذلك دون الحديث عن بعض بل واغلب القيادات اللبنانية والبقية قادمة.
(رابعا) المجتمع العربي في شرائحه العريضة. تخضعه لحرب نفسية حقيقية أساسها تحطيم الثقة في الذات القومية ومن ثم فرض منطق الاستسلام.
(خامسا) على انها تخص الطبقة المثقفة بحرب نفسية من نوع معين. لايكفي خلق عدم الثقة في الذات القومية بل انها بمسالك معينة تقود الى خلق حالة اليأس والاحباط الكلي والشامل. مسالكها في هذا عديدة:
١ ـ تشجيع التغريب من خلال تشجيع غير مباشر لنشر مؤلفات عربية معينة البعض منها يصدر في الخارج وباللغة العربية تقود تدريجيا الى التخلي عن الانتماء والهوية الحضارية. لم يعد من الممكن تصور ان الاعلام العربي المهاجر بعيد عن النفوذ والسيطرة اليهودية ولو بطريق غير مباشر.[٩٢]
٢ ـ تدعيم عدم الثقة في التراث الحضاري.
٣ ـ القيام باعمال مسرحية في نطاق التعامل الدولي تأخذ صورة الاعمال الخارقة التي تطرح عدم القدرة على اللحاق بالمجتمع اليهودي. عملية عنتيبة، ضرب المفاعل النووي قرب بغداد، ضرب تونس على سبيل المثال.
٤ ـ استغلال الاقليات العربية في الخارج وسيلة لنشر القناعة بالتخلي عن الحضارية العربية، هناك اساتذة في جامعات امريكية واوربية عرب يقومون بهذه الوظيفة واسماؤهم معروفة ولسنا في حاجة الى ذكرها.

١٣٦ ـ الحرب النفسية وحرب الخليج:

عندما نتحدث عن حرب الخليج والحرب النفسية يجب ان نبدأ بمجموعة من الملاحظات لتحديد المفاهيم بالدقة العلمية اللازمة:
(اول هذه الملاحظات) ان حرب الخليج يجب ان تذكرنا بالقاعدة التي سبق وقدمناها والتي اساسها ان التعامل النفسي لايحول نجاحا الى فشل او فشل الى نجاح. انه يضخم او يقلص الفشل والعكس صحيح. فالحرب العراقية الايرانية تعبر حتى الان عن نجاح عراقي وفشل ايراني ومن ثم هذه الدائرة وهذه الدلالة يجب ان نضعها في الاعتبار ونحن نتحدث عن الحرب النفسية المرتبطة بحرب الخليج. بالنسبة للعراق فهناك عناصر ثلاث ساهمت في تدعيم هذه الدلالة: التماسك الداخلي، من جانب ثم نجاح النظام كنموذج للعملية الانمائية من جانب ثان ثم قدرة الدولة على الصمود في القتال في ميدان الصدام العضوي مع التصاعد المستمر لهذه القدرة من جانب ثالث. زاد من ذلك ملاحظة عامة اخرى يجب ان ندخلها في الاعتبار وهي عدم اهتمام الاعلام الدولي والخارجي بالحرب ومساراتها. حتى ان البعض يصفها بالحرب المنسية بما في ذلك الاعلام الصهيوني. ليس هذا موضع الاجابة عن اسباب ذلك ولكن الامر الذي لاشك فيه ان عدم الاهتمام لابد بدوره ان يعكس نفسه على الحرب النفسية الموجهة الى داخل المجتمع العراقي. بطبيعة الحال هذا لايعني ولايثير الناحية الاخرى وهي امكانية توجيه حرب نفسية داخل المجتمع الايراني.

---

(٩٢) عندما وجهنا تلميذنا لتحليل ظاهرة الصحافة المهاجرة كنا ننتظر منه الدراسة العميقة لهذه الناحية ولكنه اكتفى في مقدمة كتابه بان طرح الافتراض دون ان يجيب عليه. انظر:
فاروق ابو زيد، الصحافة العربية المهاجرة، ١٩٨٥، ص٧.

(الملاحظة الثانية) كذلك يجب ان نلاحظ منذ البداية ان الجانب الايراني وبصفة عامة لم يكن ناجحا في التعامل النفسي. فهو بصفة عامة تعيبه مجموعة من النقائص كان لابد وان تضعف جميع محاولاته للغزو النفسي.

(اولا) فهو يخلط بين مستويات التعامل النفسي. يخلط بين الدعاية والدعوة والحرب النفسية ورغم ان كلا من هذه المفاهيم يملك منطلقاته ويملك اصوله الواضحة والمختلفة والتي تفرض علينا التميز المطلق بينها.

(ثانيا) وهو نتيجة لذلك يخلط في المنطق الذي يتجه به الى الخارج. انه كعقيدة سياسية تستند الى مذهب وقناعة دينية اقرب الى الدعوة ولكنه يغلف الدعوة بالدعاية ويجعل الدعوة منطلق للحرب النفسية. الدعاية ليس لها من هدف سوى تغيير الرأي بالاستجابة اللفظية بينها الدعوة تفترض وجود الايمان حيث وظيفة التعامل النفسي هي فقط تعميق علاقة الولاء. اما الحرب النفسية فهي توجه الى عدو نسعى الى تحطيم ثقته في ذاته القومية[٩٣].

(ثالثا) هذا الخلط قاد الى التناقض وبصفة خاصة الى اللغة الاستفزازية التي لايمكن الا ان تخلق جدارا ضد المنطق الدعائي. برز ذلك واضحا في الرأي العام الغربي والاوربي. ورغم نجاح الخمينية في خلق بعض بؤر المساندة فانه لم يكن بمعنى النجاح في التعامل النفسي ولكن بمعنى النجاح في خلق مايسميه علماء الدعاية السوفيت (مثيري الفتن والقلاقل) agitator وهو نوع من انواع التفاعل بين الفكر بمعنى الدعوة والحركة بمعنى الاستحواذ السلوكي.

(رابعا) والواقع ان الخمينية ليست لها تقاليد التعامل النفسي. فالصهيونية والتي تعود تقاليدها بهذا الخصوص الى القرن الثامن عشر والتي انتفعت بجميع الخبرات بما في ذلك نفس الخبرة الاسلامية تتفوق على الخمينية التي لم تنجح الا في تكتيل الرأي العام الايراني في لحظة معينة ضد نظام الشاه. ولكنها لم تنجح فيما هو اكثر من ذلك.

(الملاحظة الثالثة) ان الخمينية رغم ذلك قد تأثرت فيما يمكن ان يسمى بحربها النفسية ضد العراق بالتقاليد الصهيونية وبصفة خاصة:

(اولا) محاولة خلق الفرقة بين النظام والشعب وبين القيادة والنظام.

(ثانيا) الهجوم الثابت على القومية العربية.

(ثالثا) تشويه الطابع القومي العراقي.

(رابعا) محاولة احلال مفهوم الولاء الاسلامي موضع الولاء القومي العربي وابراز هذا الاخير على انه تعبير عن عنصرية ثابتة وعن انه استمرار للاستعمار الغربي وهو يدعم الالحاد التقليدي[٩٤].

بقي السؤال الاخير: ماهي ابواب التعامل الفكري التي كان يجب ان يتطرق اليها الاعلام العراقي بصدد شن حرب نفسية على المجتمع الايراني بما يعنيه ذلك من تدعيم حرب نفسية عكسية في المجتمع الايراني ذاته؟

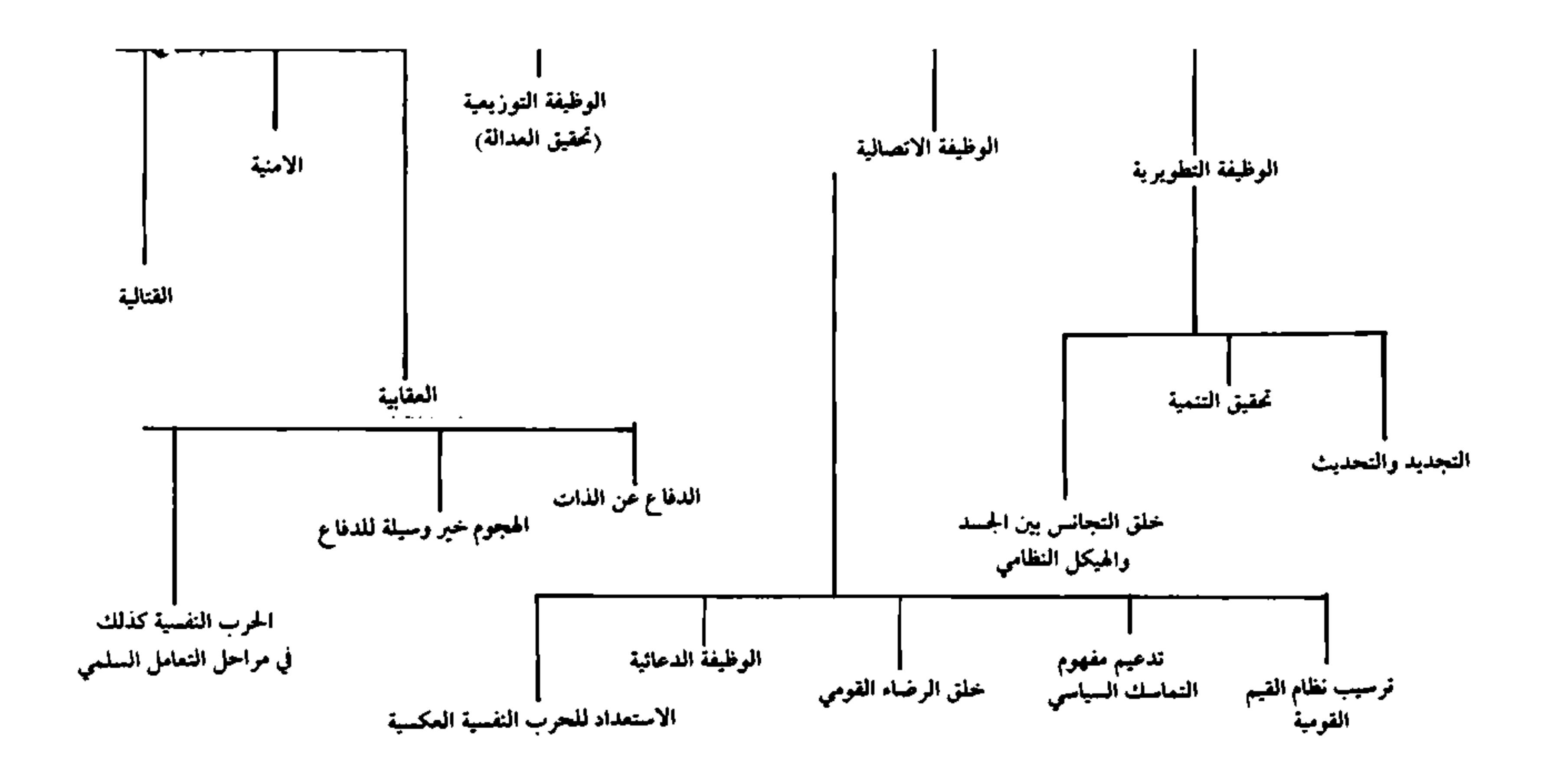
---

(٩٣) انظر حول الدعاية الايرانية من منطلقات عامة:

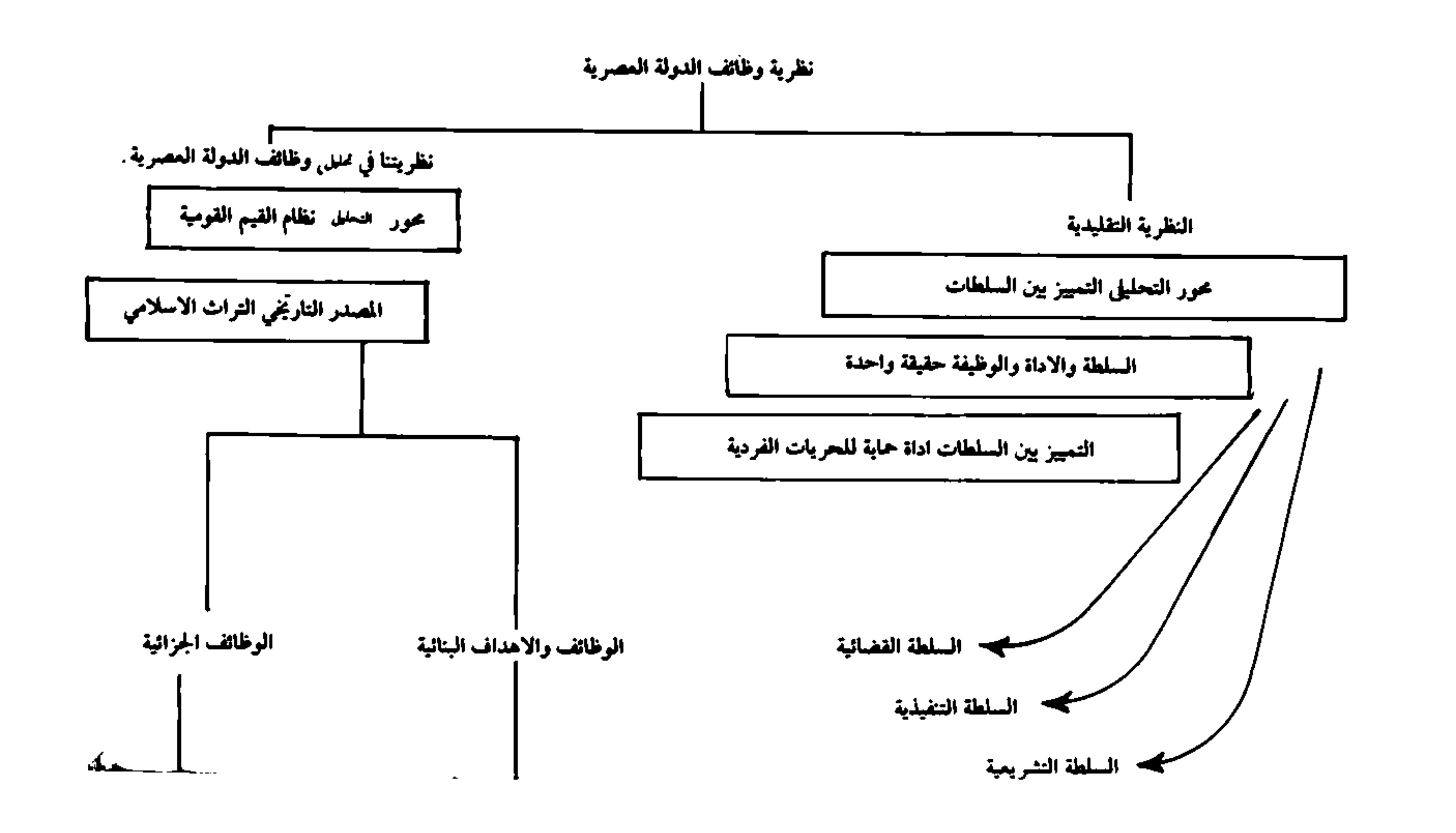
RAUFER, La nébuleuse: le terroisme du moyen-orient, 1987, p.153.

(٩٤) مجموعة من طلبتنا في بغداد يعكفون على دراسة هذا الموضوع من منطلق منهاجيه تحليل المضمون. انظر بذلك الخصوص:

رجاء احمد هادي. الدعاية الايرانية في حرب الخليج، دبلوم التخصص في العلوم السياسية، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٨٦. عاصم فاهم جوادي، الدعاية الايرانية والدعاية الاسرائيلية، دبلوم التخصص في الدراسات الفلسطينية، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٨٦.



الوظيفة التطويرية
الوظيفة الاتصالية
الوظيفة التوزيعية
(تحقيق العدالة)
الامنية
القتالية
التجديد والتحديث
تحقيق التنمية
خلق التجانس بين الجسد
والهيكل النظامي
العقابية
الدفاع عن الذات
الهجوم خير وسيلة للدفاع
الحرب النفسية كذلك
في مراحل التعامل السلمي
ترسيب نظام القيم
القومية
تدعيم مفهوم
التماسك السياسي
خلق الرضاء القومي
الوظيفة الدعائية
الاستعداد للحرب النفسية العكسية


نظرية وظائف الدولة المعصرية
النظرية التقليدية
محور التحليل التمييز بين السلطات
السلطة والاداة والوظيفة حقيقة واحدة
التمييز بين السلطات اداة حماية للحريات الفردية
السلطة القضائية
السلطة التنفيذية
السلطة التشريعية
نظريتنا في تحليل وظائف الدولة المعصرية .
محور التحليل نظام القيم القومية
المصدر التاريخي التراث الاسلامي
الوظائف والاهداف البنائية
الوظائف الجزائية

نستطيع ان نذكر بايجاز خمسة مداخل كل منها يسمح بكثير من الانجازات:
(اولا) تقديم الحقيقة كاملة وتقصد بذلك الحقيقة في داخل ايران وفي داخل العراق ومن منطلق المقارنة الاحصائية الحادثة بين الجانبين.
(ثانيا) بناء اطار للاجهزة والادوات المكملة للعمل الاعلامي. سبق ورأينا ان الحرب النفسية تملك مراحل متعددة وليست ادواتها فقط الاجهزة الاعلامية.
(ثالثا) تطوير الاعلام العراقي بما يتفق مع حقيقة الواقع المعاصر. يجب ان يقوم على خصائص اربع: الاجابة على الفضول، التعدد في الاتجاهات، الصدق ثم الجدية وبصفة خاصة في الاعلام المتجه الى الخارج.
(رابعا) محاولة الرد على الاعلام والدعاية الايرانية بتشويه الصورة الايرانية للثورة الخمينية وابرازها على حقيقتها. والتشويه ليس مجرد اكاذيب او الفاظ ضخمة. انه حقائق علمية مدروسة ومنطق متكامل.
(خامسا) الاخذ بمبدأ المبادرة حيث الهجوم هو خير وسيلة للدفاع فلايزال الاعلام العراقي يأخذ صورة رد الفعل بل وفي بعض الاحيان رد الفعل المتأخر. يجب ان يؤمن بمبدأ توزيع الادوار وبعبارة اخرى يجب ان يجدد نفسه[٩٥].

---

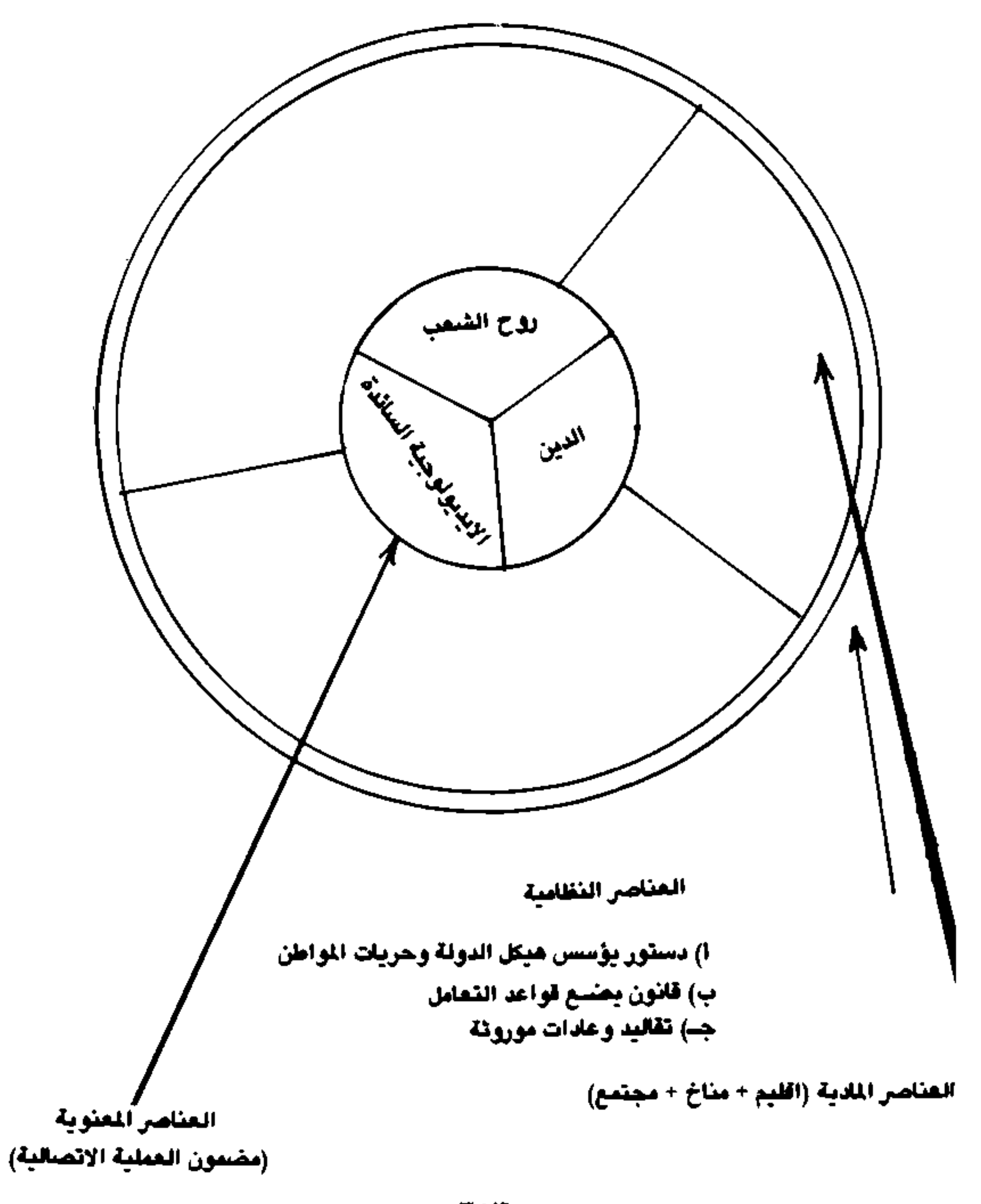
(٩٥) قارن رجاء احمد هادي، م.س.ذ.، ص١٤٤ ومابعدها.
وانظر بصفة خاصة من منطلقات فكرية مجردة:

STEIN, The nation at war, 1980, p.72.

AUDRY, les militants et leurs morales, 1976, p.167.

شكل رقم «١٠»

عناصر الظاهرة السياسية والعملية الاتصالية للدولة



فهرس الرسوم التوضيحية

(مقابل صفحة)

قائمة بمحتويات الكتاب

* المبحث الثاني : التسميم السياسي

* المبحث الثالث : نماذج حركية

** الفصل الرابع:

حول التخطيط لمنطق المواجهة الاعلامية

خلاصة

** الفصل الخامس:

عملية البناء الفكرية لنظرية الحرب النفسية: الاصول والمقدمات

خلاصه

* المبحث الاول: نظم المعلومات وعملية صنع القرار القومي

